إريك إيمانويل شميت

مكتبة 512

ببغاوات ساحة أريزو

رواية

مكتبة | 512

ببغاوات ساحة أريزو

t.me/t_pdf

الكتاب: ببغاوات ساحة أريزو
المؤلف: إريك إيمانويل شميت
ترجمة: كتي سالم
الغلاف: فارس غضوب
الناشر: دار الفارابي - بيروت - لبنان

مكتبة
t.me/t_pdf
١٥ ١٠ ٢٠١٩

ت: ٣٠١٤٦١(٠١) - فاكس: ٣٠٧٧٧٥(٠١)
ص.ب: ١١/٣١٨١ - الرمز البريدي: ٢١٣٠ ١١٠٧
www. dar-alfarabi. com
e-mail: info@dar-alfarabi. com

الطبعة الأولى: حزيران ٢٠١٧
ISBN: 978-614-432-695-4

© جميع الحقوق محفوظة لدار الفارابي
تباع النسخة إلكترونياً عبر موقع دار الفارابي

***

العنوان بلغة الأصل الفرنسية

LES PERROQUETS
DE LA PLACE D'AREZZO

DE

ERIC-EMMANUEL SCHMIT

Traduction

KETTY SALEM

© Éditions Albin Michel 2013

ISBN broché : 978-2-226-24972-2
[متابعة ترجمة الكتاب وإنتاجه: محترَف القول الجريء بإدارة غازي برّو]
بيروت موبايل: 70216140
Atelier. oser. dire1@gmail. com
Réalisation et traduction de l'ouvrage: Atelier oser dire animé par Ghazi Berro
«Cet ouvrage a bénéficié du soutien des Programmes d'aide à la publication
de l'Institut français. »
حظي هذا الكتاب بدعم برامج مساعدة النشر من قبل المعهد الفرنسي.

إريك ـ إيمانويل شميت

مكتبة | 512

ببغاوات ساحة أريزو

رواية

دار الفارابي

ببغاوات ساحة أريزو لاريك إيمانويل شميت

« هذه الكلمة، لمجرد التذكير بأنني أحبك.

التوقيع: معروف لديك».

لقد أثارت هذه الرسالة من مجهول البلبلة في حياة سكان محيط ساحة أريزو، في ذلك الحيّ الأنيق من أحياء بروكسل، فمن هو ذا الغريب الأطوار، والشاذ، وأي غراب هو ذا المنتحل هيئة حمامة الذي انكبّ على انتهاك حرمة الحياة الخاصة لأهله؟ إنَّ هذه الرسالة من شأنها أن تحمل مقداراً من الوعود والترقبات بحجم الخيبات والكوارث؛ إذ لكل طريقته في تفسيرها.

هذا التجوال الذي يقوم به إريك إيمانويل شميت على سكان ذاك الحي أفضت إلى ما هو كناية عن موسوعة للرغبات والعواطف والملذات. إنها رواية لشتى صنوف الحب والجنس في عصرنا.

t.me/t_pdf

الجزء الأول

البشارة

تمهيد

مكتبة
t.me/t_pdf

يخامر شعورٌ بالغرابة كلَّ من يصل إلى ساحة أريزو. فالبيوت الثرية التي شُيِّدت من حجر وقرميد على طراز فرساي تحيط بحديقة صغيرة حيث ينمو العشب الظليل وشتلات الغار وأشجار الدلب شأن نباتات شمالية، فتداعب الحواس نفحة من المناخ الاستوائي. إلّا أنه لا شيء دخيلاً على تلك الواجهات المتناسقة. تلك النوافذ العالية بمربعات زجاجية صغيرة وتلك الشرفات المعشقة بالحديد المنصهر والمُزَخرف أو الغرف العلوية في البنايات التي تؤجَّر بأغلى الأسعار؛ وما من دخيل على تلك السماء الرمادية والكئيبة مطلقاً والتي تلامس غيومها السطوح الأردوازية.

لا يكفي أن يلتفت المرء برأسه ليدرك ما كان يحدث. لكنه يحتاج إلى معرفة ما ينظر إليه.

هؤلاء الذين ينزهون كلابهم هم أول من يستشفون ذلك؛ فهم حين يتبعون كلبهم الضخم، الذي يضع خطمه في الأرض ويقطع المسافة مهتاجاً، يلاحظون النفايات الغذائية المنثورة على العشب، وهي قطع براز صغيرة قاتمة تتوجها عفونة بيضاء؛ حينذاك، ترتفع عيونهم على امتداد الجذوع ويلمحون التشييد الغريب والطبيعي الذي يرخي بظلال الظلمة على الأغصان؛ ثم يهتز جناح ملون وتخترق قوقأة الخميلة وترافق أصوات حادة اندفاع الطيور المتعددة الألوان، فيفهم المتسكعون أن ساحة أريزو تخفي حشداً من الببغاوات والدرَّات.

كيف لتلك الحيوانات المنحدرة من آفاق بعيدة، والتي هي من أصل هندي وأمازوني وإفريقي أن تعيش في بروكسل، طليقة، بصحة جيدة بالرغم من المناخ المكفهر؟ لماذا تقيم في قلب الحي الأكثر رفعة؟

١

ــ قد تتركك امرأة لأنها لم تعد تجد فيك المزايا التي لم تكن فيك يوماً.

أرفق زكاري بيدرمان جملته بابتسامة. كان يتسلى بأن مساعده الشاب وهو مثقف متميز درس في أعلى المؤسسات العلمية، يُخفي سذاجة مراهق.

ــ إن زوجتك، حين التقتك، ظنتْ أنها قد اكتشفت فيك والد أطفالها الذين ستنجبهم بينها لم تكنْ أنت تريدُ أطفالاً. راهنتْ أنها ستشغل إلى جانبك مكاناً يناسب دراستك العالية أولاً، ثم مهنتك بعد ذلك، وهذا ما لم يحدث. أملتْ في أن تسمح لها علاقاتك الكثيرة بالوصول إلى أشخاص ينفعونها في وظيفتها كأن يدرّون عليها ذهباً، سواء في عالم السياسة أو في عالم المال، يضاجعون مغنيات الأوبرا ولا يصغون إليهن.

هذه المرة، بالرغم من وجه الشاب المكفهر الذي هو في الثلاثين من عمره، ضحك وصاح معجباً:

ــ لم يكن ذلك بزواج، لكنه سوء تفاهم.

ــ هل يقوم كل زواج على الخطأ؟

نهض زكاري بيدرمان ودار حول المكتب وهو يلعب بقلمه الحبري الجديد المصنوع من الصمغ الأسود وقد أحاط به معدن البلاتين، حيث تتلألأ أولى حروف اسمه، ثم قال:

ــ الزواج صفقة، من المفروض أنها أقيمَت بين شخصين ثاقبي الفكر يعرفان مدى التزامهما. ولكن للأسف، في أغلب الأحيان، في عصرنا الذي تغره المشاعر، لا يصل الناس إلى العمدة أو الخوري في حالة وعي ووضوح رؤية. فالأهواء تعميهم وتضيعهم، والمتعة تقضّ مضجعهم إذا كانوا قد قاموا بالمضاجعة، ويفترسهم نفاد الصبر إذا لم يتمموا الفعل. إنهم مرضى هؤلاء الذين يتزوجون، صديقي هنري، ونادراً ما يكونون أسياد فكرهم.

ــ حقاً إنك تُفَسر لي أنه يجب، بشكل خاص، ألّا نعشق لنوَفَّق في زواجنا؟

ـــ عرف أجدادنا ذلك. فكانوا يسوّون أمور الزيجات ببرود، ويدركون أهمية الاستقرار.

ـــ لم يكن الزواج رومنسياً على الإطلاق.

ـــ ليس في الزواج أية رومنسية، صديقي المسكين! إن ما هو رومنسي هو الاندفاع والهذيان وتضخيم الأمور والتضحية والاستشهاد والقتل والانتحار. فمن يبنِ حياته فوق كل ذلك يكنْ كمن يُعَمِّر بيتاً على رمال متحركة.

وراء زكاري بيدرمان، في ساحة أريزو، أطلقت الدرَّات والببغاوات صرخة استنكار، فانزعج من هذا الصرير، وأغلق المختص بالاقتصاد النوافذ المفتوحة على ذلك الصباح الربيعي الرائع.

أطلق هنري نظرة دائرية على الغرفة ذات الترف البسيط، والأثاث المصمم خصيصاً والموَقَّع من كبار النجارين الماهرين، وسجادة الحرير ذات الرسوم التجريدية والجدران المغطاة بخشب السنديان الصافي وكذلك بالرمل، بحيث امتاز هذا النوع من الأعمال بذوق رفيع لا يمكن ملاحظته. على الجدارين الغربي والشرقي، ثمة لوحتان خُطتا بريشة «ماتيس» الواحدة قبالة الأخرى، وجه رجل ووجه امرأة، يراقبان زكاري بيدرمان في الوسط. تردد هنري في طرح السؤال الذي يقلقه.

انحنى زكاري بيدرمان نحوه، ساخراً، ليقول له:

ـــ أسمعك تُفكر وتتأمل، يا هنري.

ـــ عفواً؟

ـــ إنك تتساءل عن زواجي بروز... ولكن، نظراً لأنك شاب تنقصك العفوية، فإنك لا تجسر على أن تحدثني بذلك.

ـــ أنا...

ـــ كن صريحاً: هل أخطئ؟

ـــ كلَّا.

جرَّ زكاري بيدرمان كرسياً صغيراً وجلس، بود، بالقرب من هنري.

ـــ إنه زواجي الثالث، وكذلك الأمر بالنسبة إلى روز. وهذا يعني أننا لم نكن نريد أنا وهي أن نخطئ.

ضرب فخذه قائلاً:

ـــ لا يتعلم المرء إلَّا من أخطائه. هذه المرة كان الارتباط صحيحاً وجيداً. جميع المعطيات متضافرة، أشك أنني وروز قد أسفنا لذلك.

فكر هنري فيما حصل عليه زكاري بيدرمان بزواجه من روز: الثروة. ثم اعتبر أن زكاري بيدرمان من جهته يلبي مطامح روز السياسية والاجتماعية: لقد أصبحت رفيقة شخصية رفيعة؛ فهو مفوض أوروبي يشغل منصب المضاربة، وله علاقات مع رؤساء الدول ويستقبلهم.

تابع زكاري بيدرمان كما لو كان يقرأ أفكار هنري قائلاً:

ـ يتضح أن الزواج هو رابطة ثقيلة النتائج إلى حد بعيد، حتى أنه يجب سحب المسؤولية من المعنيين وتسليمها إلى أشخاص جديين وموضوعيين وقادرين، أي محترفين حقيقيين. وإذا كان مديرو الاختيار الفني يقومون بتوزيع عادل لفيلم ما، فلماذا لا توجد هذه الوظيفة بالنسبة إلى الأزواج؟

تنهد وهو يرفع عينيه الزرقاوين نحو السقف المُوَرنش.

ـ في أيامنا، نخلط كل الأشياء بعضها ببعض. فلقد أغرقتنا الأفكار السطحية بروايات مبتذلة وتافهة.

ختم كلامه، وهو ينظر بعين يقظة إلى ساعته، مدركاً أن هذا الفاصل الشخصي قد استغرق وقتاً كافياً:

ـ بمجمل القول، عزيزي هنري، إنني مغتبط لطلاقك. إنك تترك الظلمات لتصل إلى النور. أهلاً وسهلاً في نادي ذوي البصيرة.

هزَّ هنري رأسه، وهو أبعد من أن يعتبر تلك الكلمات مهينة، فلقد تلقاها بامتنان، واثقاً بصدق زكاري بيدرمان، الذي لم يكن ساخراً، بالرغم مما يُظهر من تهكم وتناقض، بل كان شخصاً واعياً ونهماً؛ فحين يتحطم مكر أو خديعة، يستخلص من ذلك متعة حقيقية، شأن مناضل من أجل الحقيقة.

تحقق زكاري بيدرمان من الوقت، ثم جلس ثانية، وقد أثقله الشعور بالذنب: لقد أخذ ست دقائق استراحة لمناقشة مواضيع شخصية! فإذا كان يقدر تلك الاستراحات، لكنه، اعتباراً من الدقيقة الخامسة، راح يفقد صبره، لأنه من الأشخاص الذين يزعجهم هدر الوقت.

ففي الساعة التاسعة وخمس دقائق صباحاً، في قصره في ساحة أريزو، يكون قد أنهى نصف يوم؛ وقد استيقظ في الساعة الخامسة، تفحص أضابير كثيرة وكتب عشر صفحات ملخصة، وحدد مع هنري ما عليه القيام به أولاً.

بما أن هذا العملاق يتمتع بصحة من حديد تتطلب منه قليلاً من النوم، فإنه كان يبسط نشاطاً يثير الدهشة العالمية، وهذا ما أتاح له الوصول، وهو المتخصص بالاقتصاد، إلى أعلى مناصب السلطة الأوروبية.

وقف هنري، وقد أدرك أن المقابلة قد انتهت، فحيا زكاري بيدرمان الذي كان يدوّن ملاحظات على تقرير له ولم يعد ينتبه لوجود هنري.

ما إن قطع هذا الأخير الباب، حتى استغلت ذلك السيدة سينجر، السكرتيرة، كي تدخل الغرفة. وبمظهرها الجاف، ذي التصلب العسكري وقد تحزمت بطقم ذي بنطال من الصوف الأزرق البحري، وقفت خلف المكتب، عن يمين رئيسها وانتظرت من دون حراك أن يشعر بوجودها.

ــ نعم، سينجر؟

وضعتْ ختم التوقيع أمامه.

ــ شكراً، قال لها.

كان يدعوها سينجر، كجندي يوجه كلامه إلى رفيقه في السلاح لأن سينجر، بالنسبة إليه، لم تكن امرأة. فهي لا تتمتع بأشكال بارزة كي تلهيه عن عمله ولا بصدر جذاب تبرزه عندما تنحني قبالته ولا بساقين يسترق النظر إليهما أو بردفين تهزهما فتثير لديه شهوة تدليكهما. فشعرها القصير بشكل لافت، بلونه الفضي الكالح وتهدل تقاطيعها ومرارة شفتيها وبشرتها الشاحبة وغياب عطرها، كل ذلك يحوّلها إلى كائن وظيفي يتبعه من منصب إلى منصب منذ عشرين عاماً. فحين يذكرها زكاري بيدرمان يصرخ بتعجب «سينجر إنسانة كاملة!»، والبرهان على صواب رأيه أن روز كانت تكرر ذلك أيضاً.

بمجرد أن انتهى من سباقه في التوقيع، سأل عن مواعيده.

أعلنت السيدة سينجر قائلة:

ــ ستستقبل هذا الصباح خمسة أشخاص، السيد موريتي، من المصرف المركزي الأوروبي، السيد كاروبولوس، مدير مكتب وزير المال اليوناني، السيد لازاريفيش، من المؤسسة المالية لازاريفيش، هاري بالمر، من صحيفة «Financial Times» والسيدة كلوغر من مؤسسة « Espoir».

ــ حسن جداً. سنخصص لكل واحد منهم نصف ساعة. أما بالنسبة إلى الأخيرة، فالرهان أقل، وسأنهي المقابلة بسرعة. ولكن، سينجر، أمنعك منعاً مطلقاً من قطع المقابلة؛ بل تنتظرين أن أناديكِ.

ــ طبعاً، سيدي.

كان يردد هذا الأمر كل يوم، وكان الناس وبخاصّة السيدة سينجر، تعتبره مظهراً من مظاهر الاحترام الذي يبديه الرجل العظيم نحو ضيوفه.

خلال ساعتين، تمكن من إبراز قدراته الفكرية أمام زائريه. كان يسمع، شأن تمساح بلا حراك يترقب فريسته؛ ثم يحمحم ويطلق بعض الأسئلة قبل أن يباشر

بفكرة لامعة، تدعمها الأدلة والحجج، لا يقاطعها أحد من المستمعين، لأن زكاري بيدرمان يتحدث بسرعة وبصوت خفيض، ثم لأن كل واحد يُدرك دونيته الفكرية. تنتهي المقابلة بالطريقة عينها: يمسك زكاري بيدرمان بطاقة بيضاء، يخط عليها أسماء، ترافقها أرقام الهاتف التي يسجلها غيباً من دون تردد: شأن طبيب يُعطي وصفة طبية بعد جرد الأعراض وتشخيص المرض.

قبل خمس دقائق من الساعة الحادية عشرة، وقد خرج آخر زائر، هزه توتر لا يستطيع السيطرة عليه: ربما الجوع؟ فهو غير قادر على تركيز فكره، أطل حينذاك بجذعه على الغرفة المجاورة حيث تتصدر السيدة سينجر خلف مكتبها وأعلن لها أنه ذاهب لرؤية زوجته.

ثمة مصعد تخفيه لوحة صينية مطلية يقوده إلى الطابق العلوي.

صرخت روز بتعجب قائلة:

ــ آه، يا عزيزي، يا لها من مفاجأة رائعة!

في الحقيقة، لم يكن ذلك مفاجأة على الإطلاق لأن زكاري بيدرمان يصل كل صباح، في الساعة الحادية عشرة إلى جناح روز الخاص ليتناول وجبة خفيفة معها؛ لكن كل واحد منهما يعطي انطباعاً للآخر بأن ذلك نزوة مرتجلة.

ــ اعذريني على إزعاجك في أوقات غير محددة.

إذا كان ثمة من لا يدخل، ولا حتى روز، إلى مكتب زكاري بيدرمان من دون أن يناديه مسبقاً، فهو يصل إلى كل الأماكن بمجرد أن يرغب في ذلك. اعتادت روز هذا التصرف معتبرة أن دورها كزوجة محبة يقوم على تفرغها له وقد أدركت على كل حال، أن «في أوقات غير محددة» تقع دائماً الساعة الحادية عشرة.

صبت له الشاي ووضعت أمامه الصحون الملأى بالشطائر والحلويات المختلفة. تجاذبا أطراف الحديث وهما يتذوقانها، وكان يمسك بها بكلتا يديه ويدسها في فمه، شأن غول، أما هي، الحريصة على قوامها، فكانت تستغرق دقائق كثيرة لتأكل حبة بلح التقطتها بين أصابعها.

كانا يتطرقان إلى الأخبار الراهنة والوضع المتوتر في الشرق الأوسط. فروز، وقد درست العلوم السياسية، تستهويها العلاقات الدولية؛ فكانا يستسلمان إذاً إلى ذلك النوع من التحليلات التي تشهد على رفعة معلوماتهما، فكل واحد منهما يسعى إلى إدهاش الآخر بتفصيل يجهله وبفكرة خارقة. وكانا يعشقان ثرثرتهما لأنهما يستمدان منها منافسة تخلو من المزاحمة.

لم يكونا يمدان أحاديثهما بمواضيع خاصة، فكانا يقتصران على المواضيع العامة: فلا يتحدثان عن أولاد روز من زوجيها السابقين، كما لا يتحدثان عن

أولاد زكاري من زوجتيه السابقتين، وليخففا عن نفسيهما، لا يتطرقان إلى المشاغل العائلية ولا إلى النواقص المنزلية، لكنهما يفضلان أن يتناقشا، شأن طالبين في العلوم السياسية. كانت تقوم صحة هذين الزوجين الشابين اللذين في العقد السادس من العمر على نسيان زيجاتهما السابقة ونتائجها.

خلال حديث مسهب عن شريط غزة، أشاد زكاري بطعم حلوى بجوز الهند:

ـ آه، يا لمتعة المذاق!

ـ أي منها؟ السوداء؟ إنها بالسوس.

دس قطعة أخرى في فمه وابتلعها.

ـ من أين جاءت تلك القطع؟

ـ من باريس، حلويات «لادوريه».

ـ وتلك الفطائر الرقيقة؟

ـ من مدينة «ليل»، حلويات «ميرك».

ـ وهذه القطع من الشوكولا؟

ـ من زوريخ، عزيزي، أنت تمزح! ألم تتعرف إليها! إنها من عند «سبرونغلي».

ـ تشبه مائدتك مصادرة جمركية.

ضحكت روز ضحكة خافتة. لا شيء أكثر تركيباً من عالمها. فسواء بالنسبة إلى الأطعمة، أو الخمور، أو الأثاث، أو الملابس، أو الزهور، كانت تحصل على الأفضل من دون أن تهتم بالثمن. ولا يحوي دفترها الصغير إلّا العناوين الممتازة: أفضل بائع سجاد، أفضل صانع أطر للوحات، أفضل صانع خشب للأرضية، أفضل مختص بشؤون الضرائب، أفضل مدلك، أفضل طبيب أسنان، أفضل طبيب قلب، أفضل طبيب مسالك بولية، أفضل مختص بتنظيم السفر أو أفضل قارئة طالع. وقد عرفتْ أن معاشرة القمم قصيرة وخطرة، فكانت غالباً ما تجدد قائمتها، وهذا العمل يستغرق منها جهداً كبيراً. فهي عقلانية، لكنها تعرف أن تبدو سطحية، بل تستسلم بجدية إلى الترهات؛ كانت الابنة الوحيدة لصناعي ازدهرت أعماله، فهي تهتم بإدارة بيتها بقدر اهتمامها بتفحص الخطوط البيانية للبطالة أو توتر العلاقات الإسرائيلية ــ الفلسطينية.

أعلن لها وهو يداعب خدها:

ـ تبقى مائدتك أشهى الموائد التي أعرفها.

فهمت مرمى تلك المداخلة، فلم تتردد ثانية وجلست على ركبتي زكاري.

ضمها إليه، بعينيه الرطبتين، وراح أنفه يداعب أنفها فشعرت برغبته في مضاجعتها.

اهتزت وحركت ردفيها على فخذي زوجها لتزيد تهيجه.

همست قائلة:

ـ يا لك من شقي!

لصق شفتيه بشفتيها وتبادلا القبلات وهما يخلطان لسانيهما، مطولاً، بنهم، فأشبعتْ قبلتهما بعطر السوس والزبدة.

حين تركها تمتم قائلاً:

ـ عندي موعد.

ـ يا للأسف...

ـ آه، لن يُفقدك الانتظار شيئاً.

همست وجفناها مطبقان:

ـ أعرف. هدئ من إثارتك في المصعد، زكاري، وإلّا فإن موعدك قد يكون مربكاً.

ضحكا، بتواطؤ، ثم انسحب مغادراً.

تمطت روز بشهوة. فلقد راحت تعيش بالقرب منه شباباً جديداً، بل صباها، لأن شبابها الحقيقي كان شباب فتاة عاقلة، في منتهى التحفظ. اليوم، وهي في الستين من عمرها، شعرت أخيراً أن لها جسداً، جسداً يعشقه زكاري، جسداً يتشهّاه بنهم ويكرمه يومياً وأحياناً أكثر. كانت تعرف أنه سيعود في الساعة التاسعة عشرة من اللجنة ويرتمي عليها بعنف حتى أنها تحمل بعض الزرقة أو الآثار التي تنظر إليها كعلامات تكشف عن جاذبيتها الجنسية. وربما يعاودان الكرة هذه الليلة. منْ بين صديقاتها تستطيع أن تتحدث هكذا؟ من هي التي غالباً ما يمتلكها رجل مثلها وبهذا الاندفاع والحماسة؟ لم يتشهاها زوجاها السابقان هكذا. ولا واحد منهما. كلّا، لم تكن يوماً بهذا الانشراح، وهذا ما منحها إشراقاً حسياً يكشف عن امرأة سعيدة.

حين عودته إلى مكتبه، كان زكاري بيدرمان أقل عصبية ــ لأن جوفه قد امتلأ ــ أما قلبه فما زال يقفز وقد كدَّرته موجة من القلق. رفع السماعة الداخلية.

ـ الشخص التالي، سينجر؟

ـ السيدة كلوغر، من مؤسسة Espoir.

ــ اعلميها أنني لا أمنحها إلَّا عشر دقائق. في الساعة الحادية عشرة وخمس وعشرين دقيقة، على السائق أن يصحبني إلى اللجنة.

ــ حسناً سيدي. سأعلمها ذلك.

ذهب زكاري بيدرمان إلى النافذة ولاحظ أن على الشجرة المجاورة، في ساحة أريزو ثمة درَّات تطارد بعضها بعضاً وهي تحرك أجنحتها. هناك ذكران يتقاتلان من أجل أنثى ترفض أن تختار ويبدو من تظاهرها بالخوف، أنها تنتظر أن يقررا بدلاً منها.

تمتم بطريقة لم تكن مسموعة إلَّا منه وحده قائلاً:

ــ أيتها السافلة الصغيرة.

أعلن صوت سينجر الجهوري في ظهره قائلاً:

ــ السيدة كلوغر!

اكتشف زكاري بيدرمان سيدة طويلة القامة بطقم أسود مشدود على الخصر ــ تبدو بمظهر أرملة ــ أمام الباب الذي أغلقته سينجر.

رمقها بنظرة متفحصة وبابتسامة في عينيه، وقال لها بصوت رخيم:

ــ اقتربي.

تقدمت المرأة وقد انتصبت على كعبين عاليين، تهز ردفيها لتمحو الصورة السابقة للأرملة. تنهد زكاري بيدرمان:

ــ هل قيل لك؟ ليس عندي إلَّا سبع دقائق.

أجابت قائلة:

ــ هذا متوقف عليك.

ــ إذا كنت تتقنين مهنتك، تكفيني سبع دقائق.

جلس وفك أمامها أزرار فتحة بنطاله. ركعت الأرملة ــ الزائفة، وشرعت كمحترفة، تهتم به ببراعة.

بعد ست دقائق، أطلق زكاري بيدرمان تأوه نشوة، وأصلح مظهره وشكرها بغمزة عين.

ــ شكراً.

ــ في خدمتك.

ــ السيدة سيمونّ ترتب التفاصيل.

ــ هذا ما خُطط له.

رافقها حتى الباب ولكي يضلل سينجر، وجه إليها تحية مفرطة في الاحترام ثم عاد وجلس خلف مكتبه.

اختفى قلقه وتعبه وتشنجه. شعر أنه بصحة جيدة، وعلى أتم الاستعداد للهجوم. أف، سيستطيع أن يتابع عمله اليومي وفق الإيقاع المنتظر.

راح يترنم بلحن فرح قائلاً:

ــ ثلاث دقائق، بقي لي ثلاث دقائق قبل أن أذهب إلى «بيرلايمون».

أمسك بريده الشخصي الموجود على الطاولة وتفحصه. بعد دعوتين، فتح مغلفاً مختلفاً عن غيره، بلون أصفر كاشف. في داخله، ورقة مطوية تحوي جملتين: «هذه الكلمة لمجرد إعلامك بأنني أحبك. التوقيع: أنت تعرف من».

أخذ رأسه بين يديه، ساخطاً. أية بلهاء أرسلت إليه هذا؟ أية عشيقة من عشيقاته استطاعت أن تكتب تلك الرسالة السخيفة؟ هل هي سينياد؟ أم فيرجيني؟ أم أوكسانا؟ أم كارمن؟ كفى! لم يعد يرغب في علاقة مستمرة! ينتهي الأمر دائماً بأن تتعلق النساء به ويُنمّين «مشاعر» ويقعْن في تلك السذاجة العاطفية الدبقة والنتنة والمقيِّدَة.

أمسك قدَّاحة وأحرق الورقة.

ــ تحيا الزوجات وتحيا البغايا! إنهن النساء الوحيدات اللواتي يملكن زمام أنفسهن.

٢

كانت مضاجعته لها في منتهى المتعة حتى أنها كرهته.

كان جسده الطويل ذا عضلات مفتولة وردفين نافرين وكتفين بارزتين، أما جلده الخلاسي اللون والمشدود، فكان ينبثق منه عطر تين ناضج كما كانت قامته النحيلة وفخذاه الصلبان ويداه القويتان بالرغم من استطالتهما ورقبته الصافية ذات مفاصل غير مرئية، كل ذلك يجذبها إليه، وكل شيء فيه يغيظها ويحرق أحشاءها. كانت فوستينا تريد أن ترتمي عليه وتمنعه من أن يستريح وتضربه.

تمتمت متضايقة:

ــ لستَ نائماً، طبعاً؟

بعد ليلة كهذه، من الطبيعي أن تشعر برضى عميق، إلَّا أنها كانت ترتجف غضباً. كأنه قد حولها إلى كائن لزج، جريح، مُثار ومتشنج يطلب المزيد. أمن الممكن ألَّا يؤمِّن الشرب الارتواء لكنه يفاقم العطش؟

«كم مرة تمتعتُ؟».

لم تكن تتوصل إلى تعداد قمم متعها الحسية. بلا انقطاع، كان يغوص كل منهما في الآخر، مفعمَين بهيجان مُعْدٍ ولا يستسلمان إلى النوم إلَّا لفترة قصيرة، ليس ليستعيدا قواهما، بل ليطيلا النشوة. ومن دون أن تعرف حقاً السبب، فكرت بأمها، أمها المحترمة التي لن تروي لها مغامراتها، أمها الحزينة التي لم تعرف مطلقاً تلك المباهج. «مسكينة أمي...».

اعتبرت فوستينا نفسها خاطئة، وهي تفرك عظام ساقيها وخلصت إلى الشعور بالزهو. أجل، في تلك الليلة، لم تكن إلَّا جسداً، جسد امرأة ينفذ إليه رجل، كانت جسداً ينتشي، مرات كثيرة، وفي حال شوق دائم.

«لقد حولني هذا النذل إلى سافلة». رنت، خلسة، بحنان نحو الرجل النائم.

لم تكن فوستينا تحب الفروق الصغيرة، سواء كي تُقَيِّم معاصريها أو شخصها، فكانت تقفز من طرف إلى الآخر. حسب الأوقات، ثمة صديقة تصفها «بملاك في التضحية» أو «بوحش في الأنانية لا يردعها إيمان ولا قانون»، فتكون أمها إما

«ماماتي المعبودة» وإما «تلك البرجوازية التي هي بلا قلب والتي غُرّمت بها في يانصيب الولادة»؛ أما بالنسبة إلى الرجال، فكانت تراهم وسيمين ثم قبيحين، رائعين، بغيضين، كرماء، شحيحين، لطفاء، وقحين، شرفاء، أوغاداً، غير قادرين على قتل ذبابة، مرضى نفسيين، يستحقون «المعاشرة حتى آخر أيامي» أو «يجب طردهم من فكري». كانت، هي ذاتها، في نظر نفسها، تترجّح بين وضعين: المثقفة البحتة والمخلصة للثقافة، والعاهرة المتمرغة في غرائزها الدنيئة.

إن رأياً معتدلاً قد يزعجها. فما تحبه ليس أن تفكر، ولكن أن تفكر بحماسة. إذاً أن تتأثر... في كل لحظة، يسيّرها المزاج، وتُحدث انفعالاتها الخطابات.

كانت تخشى العالم بطريقة متناقضة وتشعر بأنها منقسمة على ذاتها: حين تُهمل كتبها وتلتجئ إلى ذراعي عشيقها، تترك إحدى شخصياتها لشخصية أخرى؛ فسلوكها لا يكمل سابقه، بل ينفيه ويكذبه؛ كانت فوستينا تتغير باستمرار، فترى نفسها مزدوجة الشخصية، أكثر منها متوازنة.

كررت قائلة:

ـ كفَّ عن التظاهر بالنوم.

لم يبدِ أي رد فعل.

انحنت لترى وجهه، فلاحظت أن ملامحه لا تتحرك؛ والأسوأ من ذلك هو أن أهدابه الطويلة، أهدابه السوداء والخشنة والمنحنية التي تثير الفتيات، قد بقيت هادئة، بلا حراك.

كانت تلك اللامبالاة تذلها. «لم أعد أتحمله».

بالطبع، كانت تعرف تماماً أنها تكذب على نفسها؛ فما كان يُغيظها هو أنه لم يعد يهتم بها؛ وما يثير سخطها هو أن تجد نفسها في ليلة، تابعة له.

«ذكوري!».

صدرت عنه زفرة قوية، زفرة تعني في الوقت نفسه «يا لك من رجل قذر»، و«ما أسعدني لأنني امرأة».

ترددت. ربما من الأفضل ألّا تُحطم تلك اللحظة... مع ذلك، كانت بحاجة إلى عمل شيء ما، كان عليها أن تتدخل، ليس المهم الطريقة، فالانتظار يعذبها. انتظار أي شيء؟ تنتظر أن ينتهي السيد من استراحته؟ تنتظر أن تهدأ وتغفو بدورها؟ كانت ترى جيداً من خلال الستائر المُسدلة أن الشمس ترتفع؛ عن بعد، كانت درَّات الساحة وببغاواتها تصرخ بالنائمين المتأخرين لتنبههم أن النهار قد بدأ.

قررت أن تبعد عشيقها من السرير بضربة من رجلها، وهي تنظر إليه بإمعان. ثم أحجمت عن ذلك. هل سيفهم لماذا تهاجمه؟ هل تدرك هي ذاتها السبب؟

«الآن، ما إن يتحرك، حتى أطرده خارج البيت».

دار داني على ظهره، ومن دون أن يفتح جفنيه، بحث عنها بيديه، فاكتشفها وجذبها وهو يَخُرُّ.

هدأت بمجرد أن مرت راحتاه على وركيها، فانسابت، راضية، على طوله، وألصقت خاصرتيها ببطنه المشدود ودمدمت مثله.

لا حاجة للبلاغة. فبعدة مداعبات ورعشات، ظهرت ثانية شرارة المتعة، فاستعرا رغبة. شعرت على فخذيها برغبة داني وتموجت لتظهر له قبولها.

لم ينبسا ببنت شفة، وبعيونهما المطبقتين عاودا مطارحة الغرام.

حين حلَّ بهما التعب والوهن، أضاف الصمت وعدم الرؤية إلى لهوهما الفلفل الضروري: فعدم رؤية الشريك ترغم على التعرف إليه بالأصابع وكذلك بالصدر وبالجلد وبالجهاز التناسلي ــ وهذا يعني التجدد والتذكر معا؛ فعدم التعبير إلَّا باللهاث أو بأصوات البلعوم يقودهما إلى أن يتخليا عن إنسانيتهما، وأن يتحولا إلى حيوانات وأجساد وأعضاء تطيع الغريزة.

بعد تلك الضمة الاستثنائية، اتخذت فوستينا قرارها: ستبقى في السرير طوال اليوم. أما داني، فنهض مفعماً بالنشاط.

ــ لا يمكن التباطؤ، عندي اليوم مواعيد في القصر العدلي.

بدهشة، كانت تراه رائعاً، وهو يسرع إلى ساعته ويجمع ملابسه المبعثرة.

ــ عليك ان تذهب هكذا إلى هناك.

ــ كيف هكذا؟

ــ عارياً.

التفت نحوها وابتسم لها وهو يضبط قفل ساعته.

حددت قولها:

ــ عارياً بساعتك فقط. إنني متأكدة أنك ستنال نجاحاً باهراً.

ــ مع المجرمين؟

وقد استغلت قربه منها، فتعلقت برقبته.

ــ مع المجرمات، ستنجح.

قبَّلته عنوة على فمه. فوافق على ذلك مسروراً، لكنها أدركت جيداً أنه يريد أن يرتدي ملابسه. تضايقت، لكنها لم تلح مطلقاً، ثم أرادت قول جملة مزعجة لم تجدها.

ذهب إلى غرفة الحمام وفتح صنبور الماء.

ـ هل تلبس ساعتك تحت الحمّام الرشاش؟

ـ أولاً، تقاوم ساعتي الماء، ثم تنبهني إلى أنني أحاذي جزءاً مختلفاً من حياتي ألا وهو عملي.

فكرت فوستينا: «الجزء الذي لستُ فيه». لامت نفسها فوراً على تلك الجملة. يا للسذاجة! إنه رد فعل بلهاء عاطفية. يمكن أن يُظَن أنه استياء امرأة غيورة وعاشقة. إلّا أنها لم تكن غيورة، وأقلها عشقاً.

«لقد تضاجعنا، لا شيء غير ذلك. حسناً. بمنتهى الروعة، موافقة. لا شيء غير ذلك».

نهضت، وتأملته تحت الحمّام الرشاش. كانت تحب أن ترى الرجال مبللين، وقطرات الماء تتساقط عنهم، وهم ينشفون أجسادهم؛ فتسرق منهم لحظة حميمية. في تلك الفترة بالضبط، كان داني ينظف بالصابون أعضاءه التناسلية، بحركة قوية ودقيقة.

بدا مغتبطاً وهو يرى أنها تتفحصه.

ـ كما ترين، إنني أعتني بها.

ـ هذا يُفيدك.

تصورت الليلة القادمة التي تشاركه بها، فشعرت بنفاد صبر يضغط على صدرها وختمت قولها وهي تنظر إليه من علٍ:

ـ لستَ سوى عضوٍ جنسيٍ على قائمتين.

ضحك، مزهواً ثم أجابها قائلاً:

ـ أتتحدثين عنك أم عني؟

قطبت وجهها لأن الملاحظة لم ترقها.

ها قد تغيرت فوستينا. فهجرت المرأة الشهوانية التي استسلمت إلى هذا الرجل طوال ساعات وارتأت الآن أن ما حدث في تلك الليلة هو من غلطته: فإذا كانت قد تصرفت شأن مهووسة محمومة، فهذا صنيعه. طبعاً، لم تُخدَع... مع ذلك فلقد دربها على أفعال لم تكن لتقوم بها عفوياً.

فكرت فوستينا، وقد ابتعدت، بالمهام التي تنتظرها. عليها أن تقرأ كثيراً من الروايات أو أقلّه، ملخصاً عنها. يجب عليها أن تتصل بصحفيين، وكذلك بناشرين باريزيين، وأن تدقق محاسبتها.

في ثانية، ولدت من جديد ملحقة الصحافة الأدبية. ترددت وهي ملتفة بمئزر. هل ستتفرغ فوراً لواجباتها المزعجة؟ أم ستقوم بالطبخ؟ كان بخار صينية القهوة

يرتفع مع الكعك المحمص والزبدة ذات القشدة والمربيات والبيضة المسلوقة؛ كل ذلك ربما يوحي بشكل كبير بالعاشقة المرتجفة، وبالمرأة التي تتعلق بالرجل وتريد من الذكر أن يعود.

«فليدبر أموره. سيبلع قهوة كريهة في قصر العدل، سوداء، مُرة المذاق. بئس الأمر».

أدركت حينذاك أنها جائعة، وأنها ستشرب بسرور القهوة اللذيذة التي كانت قادرة على إعدادها.

«حسناً، سأحضرها لي، وليس له».

وقد تخلصت من وساوسها، ذهبت تعمل في المطبخ، وزينت الطاولة كأنها نسيت أنها تعدها لشخصين.

ظهر داني نشيطاً، وقد لبس طقماً من الحرير وقميصاً أبيض، بربطة عنق، وهو يصرخ:

ـ ممم... يا للرائحة الطيبة.

قدَّر المائدة الشهية التي أعدتها وزينتها.

ـ بالإضافة إلى ذلك، أنت ربة منزل ممتازة!

ـ إذا أضفتَ كلمة، أيها الوغد، فسترحل من هنا ببطن خاوٍ.

جلس إلى المائدة، والتهم فطورها بشهية.

بينما كان يأكل، لم تستطع أن تمنع ذاتها من التحديق إلى أصابعه وأن تضع نفسها مكان ما يلمس؛ لمحت فمه فأصبحت هي الكعكة الهلالية التي يمضغها، كما لاحظت عقدة حنجرته المنهمكة بالبلع وحسبت نفسها القهوة التي يشربها بنهم.

ارتاعت من هذيانها، فتراجعت في كرسيها وسألته عن مهنته كمحام. تحدث عن ذلك بسرور، لا سيما عن قضية مهدي مارتان، ذاك المهووس جنسياً والتي جعلته شهيراً.

لكنه، وقد اعتاد الحديث مطولاً، لم يقل شيئاً جديداً عنها.

«كم يغيظني! إنني لا أجد فيه أي جاذب، ما عدا براعته في السرير».

هذا التأكيد قد طمأنها.

نظر داني إلى ساعته، وقدر أنه قد يتأخر عن موعده الأول، وفجأة أسرع نحو الباب.

تنفست الصعداء حين فكرت أنها ستتخلص منه، فقررت أن تبقى جالسة بهدوء، لتنهي فطورها.

قال لها وقد أتى يطبع قبلة على وجهها:

ــ إذاً سنلتقي قريباً؟

ــ آه، هل سنلتقي ثانية؟

كانت قد ردت عليه بلهجة متجردة. فاضطرب.

ــ أجل، طبعاً... ألا ترغبين في ذلك؟ على كل حال، أنا أتمنى ذلك.

ــ آه، إذاً!

ــ وأنت؟ ألا ترغبين؟

ــ لا أعرف.

ــ فوستينا، هذه الليلة، أنا وأنت، كانت...

ــ كانت؟

ــ رائعة، سامية، عظيمة، رفيعة.

ــ آه مع ذلك...

اتخذت نبرة جافة، شأن موظفة متواضعة اعتُرف لها أخيراً بمزاياها.

فرض شفتيه الحارتين وأعطاها قبلة طويلة أدخل فيها لسانه داخل فمها. فارتعشت، مدركة أنها قد فقدت تمالك نفسها مرة جديدة.

انتزع ذاته من تلك الضمة، لاهثاً.

ــ سأتصل بك بعد قليل.

تمتمت:

ــ حسناً.

ابتعد وصفق البابَ.

ما إن بقيت فوستينا وحيدة حتى فتحت المذياع. كانت تعرف كيف ستجري الأمور مع داني: شأنها مع الآخرين! سيلتقيان من جديد ويحاولان أن يجدا ثانية سحر الليلة الأولى ويخفقان، ثم سينجحان بجهود عطل نهاية الأسبوع المضنية، وذات يوم، سيتوقفان عن معاشرة بعضهما بعضاً بحجة العمل. كم ستستغرق هذه العلاقة من الزمن؟ شهرين... ثلاثة أشهر إذا تباطأت...

«أنت تعرفين حق المعرفة، ابنتي، أنك قد حصلت على أفضل ما في العلاقة. الآن، سيكون الوضع ممتعاً، أحياناً أقل متعة، وقريباً مملاً».

قطعت الشقة واكتشفت مغلفاً عند المدخل. التقطته وفتحته. كان يحوي رسالة، من دون توقيع، رسالة قصيرة: «هذه الكلمة لمجرد إعلامك بأنني أحبك. التوقيع: أنتِ تعرفين من».

هزَّها انفجار عصبي. وقد التصقت بالجدار، راحت تصرخ بانفعال:

ـ كم أنا مغفلة! إنه يحبني وأمنعه من أن يقوله لي. إنه يحبني وأعامله كقضيب اصطناعي. مسكين داني، لم يسعفك الحظ بوقوعك على مختلة مثلي. آه، داني...

وقد قامت بحركة ـ ربما وجدَتها قبل عدة دقائق سمجة ـ، إذ جثت على ركبتيها، وحملت البطاقة إلى فمها، فقبلتها بوَلهٍ، مرات كثيرة.

انضم إلى مكتبة اضغط اللينك t.me/t_pdf

٣

وسط السرير، على الجنب، كان الجسدان ملتصقين بتناظر، شأن شوكات في درج للفضيات.

كانت تنام، أما هو فلم يكن نائماً.

كان باتيست، بعينيه المفتوحتين، قد هدأ من الحرارة التي انبعثت من جوزفين، وقد ترك وعيه يترجّح من حلم يقظة إلى حلم يقظة آخر.

بلا رقيب، كان يتعرج بين عوالم كثيرة؛ ففي بعض اللحظات، يُدرك تماماً أنه في بيته، وقد التصق بامرأته؛ وفي لحظات أخرى، يقطع الشاطئ الرملي المبهر حيث يختبئ أشخاص خطرون خلف الأدغال لينصبوا له كميناً؛ وأحياناً أيضاً، يتصور نفسه على كرسي مكتبه ويكتب النص الذي عليه أن يسلمه... وشأن سيارة تغير طريقها، كانت روحه تتمايل من عالم إلى عالم مجاور، حيناً على حافة الماء، وحيناً آخر فوق الصفحة التي عليه أن يكتبها، وأحياناً في قلب الشراشف؛ كانت تلك الانزلاقات تحدث بسرعة كبرى بحيث أنّ المَشاهد تَفقد كتامتها: ها قد وصل الأعداء إلى الغرفة، هذه هي جوزفين تنزع منه مقاله وهي تسخر.

انتصب باتيست، وراح يهز رأسه كمن يطرد الأفكار عنه، وغضب من كل تلك المخاوف التي تهيم في أعماقه: كان يكفي، كل يوم، أن يترك يقظته كي ينبثق الخوف.

كانت الأشكال العذبة لجوزفين، وردفاها العاليان، وكتفاها النحيلتان تستند إلى القطن المتموج. لم يكن وجهها يعبر عن شيء، فلا حركة تهز أهدابها الطويلة. لا شك أنها تستفيد من هذا النوم حيث لم يعد أحد يحلم. يا لحسن الحظ...

تثاءب باتيست.

كان يحسد جوزفين على طمأنينتها. وفي حين يشير إليه كل من يعرفه بأنه أنموذج للصفاء، معتقداً أنه توصل إلى اعتدال في حكمته، كانت أحلامه توقظ شياطين نشطة، والقلق يسكن رأسه. فهل ما يسمى بهدوئه هو في الواقع مجرد مظاهر؟ ألم يتوصل إلى سلام سطحي؟...

خرج من السرير من دون أن يزعج جوزفين وتأمل جسدها المتراخي وهنّأ نفسه على أن الحظ قد أسعفه بالعيش بالقرب من امرأة كهذه، ثم قام باغتسال سريع ولبس سرواله الداخلي وقميصاً وذهب ليجلس أمام مكتبه. ربما هذا التصرف أقرب إلى السخرية لكنه لم يكن قادراً على العمل وهو قذر أو عارٍ! فبالرغم من أنه لا يطيع أحداً، وقد تخلص من رئيس مباشر، فهو يشتغل في الساعات التي يريدها، لكن ضرورة خفية تقوده إلى أن يهيئ نفسه ويرتدي ملابسه ويضع عطراً قبل أن يجلس في كرسيه، شأن موظف يذهب ليسجل حضوره. شغّل حاسوبه وفتح ملف «الأمانة الزوجية» وقد دوّن عليه ثلاث جمل غامضة وهزيلة ومتعثرة.

فهذا الموضوع «الأمانة الزوجية» يُلبكه، لأنه لا يستدعي إلّا تفكيراً مزدوجاً: هل نحن مع الأمانة أو ضدها. شيء حزين، أليس كذلك؟ فإما أن ندعم القسم الكلاسيكي للزواج، والإيديولوجية الدينية والاجتماعية وبمجمل القول: النظام القائم؛ وإما نخرقه باسم الحرية. فالنظرية والنظرية النقيضة يعمران السجون. فبين المثالية التقليدية والفلسفة المضادة لها، لم يكن باتيست يجد فسحته.

استدار نحو الساحة حيث تدوي أصوات الطيور الاستوائية، وتساءل: هل تطرح ذوات الريش على نفسها أسئلة من هذا القبيل؟

أدرك باتيست، محتاراً، أنه يجهل عادات الدرّات والببغاوات. ماذا تعني الأمانة عند الحيوانات؟ هل يكتفي الذكر بأنثى أم يقوم بعلاقات على هوى اللقاءات والفصول والدوافع؟ ألا يمكن تسويد الورق بتلك المعلومات؟

للحظة، قام بالبحث ثم أوقفه. ما أهمية ذلك؟ سواء أكانت الأمانة بيولوجية أم لا؟ فإن السلوك الحيواني لا يمكنه أن يشكل أنموذجاً لأن الناس لم يعودوا يعيشون في عالم طبيعي تنظمه الغريزة.

«الأمانة...». أبعد كرسيه. هل كان هو مخلصاً لزوجته؟

لقد صار مخلصاً. بينما كان قد أعلن لجوزفين، قبل خمس عشرة سنة، أنه لن يحترم وصية بهذا الغباء مطلقاً، وأنه لن يُخصي ذاته، وسيبقى حراً في تلبية الرغبات التي تجتاحه، فلقد انقطع عن مضاعفة العلاقات ولم يعد يُقبِّل سوى جوزفين، ولم يعد ينام إلّا بالقرب من جوزفين، ولا يُضاجع إلّا جوزفين، وكان سعيداً بذلك. لماذا؟

«بدافع الكسل!»

قهقه ضاحكاً. ثم تذكر أنه ذكر قوله في إحدى مسرحياته. تقول إحدى الشخصيات بتعجب: «خمس عشرة سنة، لم يعد ذلك بدافع الحب، إنه من الكسل». خلال العروض، سجّل بذهول أن الجواب لم يبهج أحداً ما عداه ــ كان يكره هذا

النوع من الملاحظة، لأنه، وقد صمم على الكتابة للمشاهدين، فوجئ بأنانيته الصارخة والمعيبة.

بالطبع، كان هناك كسل في أمانته الزوجية. إن لعب دور المغري يقتضي وقتاً وطاقة؛ فما إن يستشف إمكانية اللهو مع امرأة، حتى يدرك في الحال مقدار الالتزامات المترتبة: إرسال كلمات مدهشة، الاتصال هاتفياً، حجز غرف في الفندق، تخصيص أوقات طعام ونزهات لعشيقة اللحظة، صوغ أعذار مقنعة لجوزفين: أجل، يجب أن يخاتل ويغوي ويخبئ ويلفق القصص. فليس ما يزعجه هو أن الكذب تصرفٌ لا أخلاقيٌ، لكنه متعبٌ.

كل تلك الجهود مقابل أي شيء؟ من أجل متع خاطفة. من أجل قصة معقدة ستنتهي لأنه يحب جوزفين ولن يتركها. في الواقع، كان يمتنع بسبب نقص في رغباته. فمنذ زمن طويل، لم يكن الميل الذي يشعر به نحو امرأة جميلة كافياً ليغير سلوكه. يتشهّى لمدة قصيرة، وبلا نتائج.

في حصيلة الأمر، لم يخن جوزفين إلّا ثلاث مرات. ثلاث خيانات زوجية تركزت في العامين الأولين لعيشهما المشترك. فمنذ ثلاث عشرة سنة لم يعاود الكرة مطلقاً. في تلك الفترة، حاول أن يظهر أعلى من الاختيار الذي قام به: زوجة واحدة وفق العقد، فأراد المتزوج الشاب أن يُقنع ذاته بأنه بقي مستقلاً. لا شك أنه احتفظ بعادة حياته السابقة الإباحية جداً. الآن، وقد أصبح زوجاً مثالياً، فهو لا يلمس امرأة أخرى غير جوزفين.

تمطى حتى ارتجف من ذلك. فباتيست ذو العشرين عاماً قد لا يرغب في لقاء باتيست ذي الأربعين عاماً، ولو فعل لوجده خامداً وتقليدياً. في المقابل، لشرحَ باتيست ذو الأربعين عاماً لباتيست ذي العشرين عاماً أنه لم يعد بحاجة إلى مضاجعة المدينة بأسرها لأنه كان قادراً على الإبداع.

ففي حاسوبه، وفق عمليات معقدة تهدف إلى تنبيهه إلى كل من يصل إليه، فتح الملف الذي يحوي مذكراته. في تلك الصفحات السرية، كان يحب أن يفكر في أسس خط حياته. بلمستين، وجد النص الذي رجع إليه:

كان لي، في حياتي، وجودان، الأول جنسيٌ، والآخر أدبيٌ. إلّا أن الاثنين يخدمان موضوعاً واحداً: أن أكتشف معاصريَّ. ففي كل مرة، شرعتُ في مسار روائي: كان الوجود الجنسي بجسدي، والأدبي بريشتي.

إذاً، كان وجودي الشاب جنسياً. حين بلغت سن الرشد، كنت أطمح إلى الكتابة، لكنني أخفقت في هذا المجال، وأنا أصل بمشقة إلى أسفل صفحة؛

بالإضافة إلى ذلك، حين كنت أقرأ ثانية ما كتبتُ، أرى إنتاجي غير متماسك. وكنتُ قد وصلت إلى الاعتقاد بأن عليَّ أن أترك هذا المسار لو لم يمنعني بعض النجاح لنصوص واعدة، هنا وهناك لا سيما لو لم أقرأ «البحث عن الزمن الضائع»، وهو الكتاب الناجح الذي يشجع المؤلفين المخفقين: يقدم مرسيل بروست فيه راوياً يسعى إلى مكانة أدبية من دون أن ينجح في الوصول إليها، مع ذلك، تلقى كل شخص الأجزاء السبعة من روايته «البحث عن الزمن الضائع» باعتباره المؤلِّف العظيم الذي تحقق في نهاية الأمر بالرغم من تلك المحاولات العقيمة.

ساعدتني الممارسة الجنسية، بسبب عدم الكتابة، في البحث الروائي. فكنت أتبع امرأة أعجبتني نظرتها؛ وقد حيرني وشاحٍ أو حقيبة يد، فأنطلق مقتفياً أثرها لأنفذ إلى شخصية امرأة عابرة. كم كنتُ أحبُّ أن أستيقظ في غرفة مجهولة، غرفة على السطح تسكنها طالبة، أو مرسم فنانة، أو شقة محامية، فأترك ناظري يطوف على الأشياء التي تزينها من صور وكتب ولوحات ورقية على الجدران، وتحف، وأثاث يمتد في التاريخ، فأتخيل ما لم أكن أراه وأطرح أسئلة أثناء الفطور أو في الأيام التالية.

كنتُ أتمتع بسمعة كاسر القلوب اللطيف. من واجبي أن أكون «لطيفاً» لأنني كنت أهتم بالنساء اللواتي أغازلهن. كما كنتُ «كاسراً» أيضاً لأنني لم أكن أتمنى أن تدوم العلاقة وتتعدى فضولي. في المقابل لم يكن لي«قلب»: كنتُ عرضة للإغراء وللجاذبية وكذلك للفضول؛ ولكنني لم أكن عاشقاً مطلقاً.

لم أضيع وقتي؛ فلأنني كنت ألهو، تمتعت كثيراً ــ آمل أنا أيضاً ــ أن أكون قد متَّعت قليلاً، لا سيما أنني كنت أخزِّن في ذاكرتي التفاصيل التي تسمح لي الآن أن أؤلف.

فمنذ التقيت جوزفين، تغير كل شيء: أحببتها، فكتبت. لقد أحدثتْ ثورة في حياتي. فابتدأتْ حياةٌ جديدة، حياتي كمؤلف وزوج. إذا كنتُ أهرب اليوم أحياناً من شقتنا أو من عيشتنا كزوجين؛ فانطلاقاً من شقتنا ومنا كزوجين؛ هنا، على هذا المكتب، أبتكر حيوات. فأغازل المخلوقات بشكل افتراضي، وحين أغلق حاسوبي، ألاقي جوزفين وأقبلها.

وتلك المغامرات الروائية، ستقرؤها جوزفين.

في الحقيقة، تلائم الكتابة الزواج.

وافق باتيست على تلك الصفحة التي دونها قبل سنتين. إلَّا أن شكلاً من الكآبة قد صبغ رأيه. ألم يكن الموضوع غير قابل للمعالجة بتاتاً؟ فالمغامرات التي

قد يعيشها من الآن فصاعداً لم تعد إلّا من بنات أفكاره. إذاً لن يدهشه الواقع بعد الآن، كما لن يدهشه الآخرون أو أحد ما.

لا شك أنه يتمتع بمزايا يُحسد عليها: ازدهار سمعته الأدبية ونضج موهبته والتكريم وحتى النجاح المتكرر. ولكن، تحت تلك الطبقة الذهبية، ثمة شيء لم يخمد.

قرر أن يُكمل نصه بإضافة مقطع جديد:

يجعلني النجاح كئيباً. أحياناً أحن إلى عدم التناغم والفوضى والنشاط والنار ونفاد الصبر وكل ما شكّل درجات سلم الوصول. ففي اكتمال الأمور، يقبع الحزن ويختبئ التحسر على الرغبة.

غمره الحنين فتابع كتابته:

أيجب أن أختار بين العيش أو الكتابة؟ بطريقتي ولكن من دون عبقريته، أعيد مسار بروست: العيش ثم الكتابة. لماذا قد تقصي الفعالية الثانية الأولى؟ إذا لم أتوصل إلى الإبداع بينما أتفحص العالم عن طريق الجنس، ماذا قد يعيقني الآن بعد أن ولد الفنان من أن أسترجع تلك الشعلة المضيئة؟ أتساءل أحياناً إن لم أكن «أعيش برصانة»، أو إن لم أكن «قد رتبتُ أموري»، أنني وضعت المفاجأة والنزوة جانباً، كي أكرس نفسي، شأن بيروقراطي، لمهمتي كناسخ.

توقف عن الكتابة، وقد خاب أمله مما استشف من نفسه على مدى الجمل. هو الذي كان يعتبر ذاته، قبل عشر دقائق، رجلاً مغموراً بالنعم، استسلم حالياً للكآبة التي تنخره.

بيد حازمة، أغلق مذكراته ثم رجع إلى عمله المزعج، المقال عن «الأمانة الزوجية». فما إن ظهر العنوان في أعلى الصفحة حتى هرب. «لا، ليس اليوم! لمَ قبلتُ هذا المشروع الأحمق! دائرة معارف الحب...».

التقط الفرشاة التي على مكتبه، ليس ليسرح شعره ــ فشعره قصير ونادر ــ ولكن ليفرك راحتيه ويهدئ غضبه.

حتى ذاك اليوم، كان قد رفض الطلبات، وها هو ناشر باريزي، متحمس ولبق عرض عليه أن يؤلف دائرة معارف ذاتية وشخصية، مخصصة للحب. فالمظهر

الفوضوي لهذا العمل ــ تصنيف المقالات وفق الترتيب الأبجدي ــ بدا كراحة تُقدم له بين رواياته أو مسرحياته التي يعتني ببنيتها الدقيقة والمعقدة. قدر بادعاء قائلاً:

ــ«سيعطيني هذا العمل عطلة طويلة». لم يكن هذا الكتاب الكريه يُمثل إلّا عملاً جديداً شاقاً! كان يتألم لأنه لم يكن متحمساً، كعادته، للحكاية وللشخصيات؛ فغياب الوجوه المحبوبة أو البغيضة وكذلك البنية السردية، يرعب باتيست ويثير هلعه.

اقتربت جوزفين، بخفة، واستندت إلى كتفيه.

همست في أذنه قائلة:

ــ بي جوع لألتهم بقرة.

كانت تلك طريقتها لتشير إلى أنها أحبت، هذا الصباح، مضاجعته لها.

رد قائلاً وهو يمثل دور الرجل المُهان:

ــ أبقرة أم ثور؟

ــ آه، السيد حساس جداً؟

ــ أحبكِ.

دار وأمسكها وأجلسها عارية على ركبتيه وقبلها طويلاً. لم تكن قد تركت بعد عالم النوم ولا استرخاءها، فاستسلمت إلى ذراعيه، ولم يُظهِر فمها أية مقاومة.

بعد قبلة رافقها خرير، انتفضت واقفة.

ــ حسناً! بينما أنت تكتب وتدوّن سأجهز فطوراً عامراً. موافق؟

لم تنتظر الجواب واختفت. رأى باتيست في أعماق الشقة خيالها الرشيق يبتعد، ذاك الخيال الذي لم يتغير منذ خمس عشرة سنة، ببياضها الذي لا تشوبه شائبة، وهو بين الجنية والعفريت، فتكاد تكون خنثى، ويراها بعضهم نحيفة جداً أما هو فكان يجن جنونه بها.

صرخت من المطبخ قائلة:

ــ لحم مطبوخ بارد، لحم مقدد، نقانق.

كانت جوزفين تعلن دائماً عن برنامج حياتها الزوجية من دون أن تسعى إلى فرض أي شيء. فتهيمن بشكل طبيعي، ولا تتصور أن باتيست يتمنى حياة يومية مختلفة. فلو برهن أحد لها أنها تبدو مستبدة، وهي تقرر الأوقات والوجبات والزينة والدعوات وأماكن العطل ومواعيدها، لفتحت عينين مندهشتين وغير مصدقتين. أمام هذا الفنان، تعتمد مهمتها، في نظرها، على إنقاذه من الفوضى، وعلى حمايته من

المتاعب العادية، وعلى تنظيم حياته المادية؛ على كل حال، لم يكن باتيست يظهر أية مقاومة مطلقاً.

حاول أن يركز انتباهه من جديد على مقاله:

«الأمانة...».

ماذا لو كتب قصيدة عن جوزفين؟ قصيدة تشيد بالسعادة من علاقة تحل مكان كل العلاقات، بل وتتجاوزها؟ قصيدة حب جنوني...

أوقفته نوبة سعال. كلَّا، فإلهة الوحي الشعرية لا تلائم ريشته الجافة، فسيضيع في ترهات الإطناب.

مسك كومة المغلفات التي أمامه، بدافع الكسل. فما عدا الرسائل الرسمية، كان هناك أربع رسائل لمعجبين ضخَّمت أنانيته.

أما المغلف الأخير، بورق قشرة البيض، فمختلف. فيه رسالة مقتضبة:

«هذه الكلمة لمجرد إعلامك بأنني أحبك. التوقيع: أنت تعرف من».

تفحص باتيست الورقة بوجهيها، ثم قرأ الجملتين ثانية.

راح قلبه يخفق، واعتراه التأثر: ثمة شيء ما يحدث في حياته.

كان صدغاه ملتهبين، شعر برغبة في الرقص حول الطاولة وبالصراخ كالرعد وبالقفز على زجاجة ويسكي، وبالاحتفال بهذا الانقلاب المفاجئ.

تفحص المغلف، بعصبية، كي يحدد مصدره: لقد أودِع في البريد ليلة أمس، من الحي. ليس هناك أية معلومة.

فجأة، جمده البرد: قرأت عيناه ثانية العنوان مكتوباً باليد. كان ذلك عنوانها، في المقابل، لم تكن الرسالة مُوجهة إليه. فتح، سهواً، بريد جوزفين.

٤

ــ كم أنت جميلة، أنت!

كانت إيف توجه كلامها إلى الدرَّة التي حطت على النافذة. والمنتفخة بريشها الأخضر والأصفر، لم تكن العصفورة جفلة، فهي تعرض خطوطاً سوداء مرهفة ترسم قناعاً حول منقارها وعينيها القاتمتين.

ــ آه! هل تبرجتِ؟ أنت حقاً جميلة هكذا!

اختالت الدرَّة مزهوة واختلجت، ثم رقصتْ بقائمة على الأخرى، وظهرت بالبداهة متأثرة بالمديح. كانت تجهل أن أيف قد ترسل المديح ذاته إلى عصفور دوري، أو إلى سنونو، أو إلى فراشة، أو إلى دعسوقة، أو إلى هر هائم، بمجمل القول إلى أية خليقة غامرت وحطت على أحواض زهور شرفتها، لأن إيف تجد كل شيء جميلاً: بروكسل، حيَّها، بنايتها، ساحة الطيور، شقتها، أثاثها، قطتها «بربوي» ومختلف عشاقها.

لم تكن تنتبه إلى مظاهر الوجود المثيرة للاشمئزاز. هكذا لم تلاحظ أن بيتها ينقصه مصعد ولا تلك الطيور الغريبة التي تلوث ساحة أريزو. كما لم ترَ في قطتها بربوي حيواناً أبله، هستيرياً، عنيفاً يمزق القماش أثناء غيابها ويلوث الأثاث ببوله ــ كانت تكتفي بأن تطلب من مابل أن تنظف الشقة وأن تغير بانتظام الستائر والوسادات وغطاء السرير والأرائك. كما لم تدرك أن ما تسميه قصص حبها يمكن أن يُطلق عليها اسم أكثر إخلالاً بالشرف: وبالفعل، ففي كل مرة يقدم لها الرجال المسنون والأثرياء والذين يعشقونها كثيراً من المال... لم يخطر على بالها يوماً أنها مومس ترفِ للأغنياء. حدث مرة مع ذلك، حين وصلت تلك الشتيمة إلى أسماعها، هزت خصلات شعرها الأشقر الرائعة، وخلصت وهي منذهلة، أن المرأة التي هاجمتها تتألم، وكادت على قاب قوسين أن تشعر بالعطف نحو تلك البائسة التي تستسلم للأفكار السوداء حتى أصبحت ظالمة وسوقية.

لم تكن إيف تفهم الشر؛ وبما أن ما يزعزعها يأتي بالضرورة منه كانت ترفع كتفيها، وتصم أذنيها عن اللوم، وهي تتابع طريقها في الدهشة. لماذا تضيع وقتها في معرفة ما لا يُعرف؟ لم تكن غبية. مع ذلك!

أدفأت الشمس أشجار الساحة وتمتمت الطيور شأن مياه ترتعش.

ــ يا له من صباح جميل!

اتخذت قرارها! لتحتفل بهذا الصباح الرائع، ستذهب إلى السوق، ثم ستتناول غداءها فوق سطح مقهى جميل مع رفيقة جميلة.

فبالرغم من أن إيف تشتري كل يوم حاجاتها، لكنها لا تأكل في بيتها مطلقاً، وهي تطيع أمرين: يجب على امرأة شريفة أن تملأ ثلاجتها وخزائنها؛ وأن على امرأة أنيقة أن تأكل خارج بيتها، ظهراً مع رفيقة، ومساءً بصحبة رجل. وإن كان هذان الأمران يتنافيان، فقد كانتتظن نفسها، وهي على اقتناع بذلك، أنها تنحط إذا لم تتمم هذين الواجبين. فهذا التناقض يسعد مابل، الخادمة الفيليبينية التي ينتهي بها الأمر إلى أن تحمل معها الأطعمة التي اشترتها إيف، قبل بطلان صلاحيتها.

ــ بمن سأتصل؟

طوال حياتها، في أية مدن أقامت، كوَنتْ مجموعة من الرفيقات. ما هي الرفيقة؟ إنها فتاة جميلة أقل جمالاً من إيف، تطلي وجهها بالمساحيق منذ الفجر، تلبس وفق الطراز الحديث، لا يشغل عملها حيزاً كبيراً من حياتها، سعيدة بالخروج، ومتفرغة ساعة الغداء وذات قابلية كعصفور الدوري؛ إنها أخت بالصدفة تُناقَش معها مواضيع الملابس أو الشبان. فعلى درجة أعلى من الرفيقة توجد الرفيقة الطيبة، تلك التي تشرب كأساً معها في البار حوالى الساعة التاسعة عشرة وتعطيان الفرصة للرجال لمحاذاتها. وهناك فوق ذلك، الرفيقة الكبيرة، التي تُروى لها بالتفصيل قصص الحب والجنس، تلك التي تواسي، في أية ساعة كانت، والتي تأتي لتنام في البيت حين يصدمها العشاق، ويخيبونها ويهجرونها. أما أفضل صديقة، فهي أنموذج موقت، يُقال لها كل شيء خلال فترة وينتهي الأمر.

دق جرس الهاتف:

ــ ألو، هنا سَندرين، ماذا تفعلين؟

أجابت إيف، وقد غيرت في الحال أماكن ثلاث منفضات:

ــ أنظف بيتي.

ــ هل نتناول الغداء معاً؟

ــ كنتُ على وشك أن أقترح ذلك عليك.

ــ في مطعم بامبو؟

ــ ممتاز! عند بامبو في الساعة الثانية عشرة والنصف! أقبلك، عزيزتي.

ــ قبلاتي.

توجهت إيف إلى الحمام، وهي سعيدة لشروعها بملء برنامجها، وهي تأمل أن يكون هوبر بولردان قد انتهى من اغتساله.

ــ هل أنت مستعد، فؤادي؟

ــ ادخلي، إنني أعقد ربطة عنقي.

ــ سأنتظرك.

كانت تكره أن تفاجئ رجلاً في زينته، وتعتبر ذلك وضعاً سوقياً، ضد الغرام، إنه قتل حقيقي للحب. لذا فرضت قاعدة: يجب الاغتسال وارتداء الملابس بعيداً عن نظرها. ربما كانت تريد، لا شعورياً، وهي تحرص على إضفاء النفحة الشعرية على الحياة، أن تتجنب رؤية عشاقها المسنين في ضوء النهار الساطع، بينما في غرفتها ذات الشموع النادرة، وسط الستائر الكبيرة، تستطيع أن تتخيلهم أروع مما كانوا عليه.

هوبر، في الستين من العمر، فتح الباب، لطيفاً، حليق الذقن بنضارة، لابساً طقماً بثلاث قطع ذات خطوط دقيقة مصنوعاً على قياسه.

ــ كم أنت وسيم!

شكرها بقبلة سريعة على هذا الإطراء.

دخلت الغرفة المرمرية، أنزلت مئزرها الحريري فبانت، عارية، أمامه. وقف متقطع الأنفاس.

ألقت نظرة على جسمها الذي هو في أتم الكمال، والأملس والبرونزي اللون، ومدت ردفيها إلى الوراء ونهديها إلى الأمام.

ــ هل تحب طلاء أظفاري الجديد؟

لم يدرك هوبر، في ارتباكه، عما كانت تتحدث.

وقد قوست رجلها اليمنى إلى نهايتها الحادة، كي تضاعف رهافة كاحلها، وتظهر استدارة ربلة ساقها وتزيد تقوسها، أشارت إلى أظفار قدميها المذهبة. حينذاك، كانت تعرف أنها ترد على دعاية لفتاة شبه عارية انتشرت صورها في كل مكان، إلهة الجمال المتخيلة التي ألصق الذكور رسومها، في الأعوام الخمسين، على شاحناتهم أو على خزانة الرياضة في ملاعبهم. نظر هوبر إلى الأظفار الصغيرة المطلية على اللحم.

ــ حسن جداً... مبتكر.

ــ آه، أتحبه؟

ــ أجل، أعشقه.

ــ هذا يؤثرني.

ــ أراد الاقتراب منها. فصرخت على الفور منزعجة، وبصوت أجش:

ـ إنني تعيسة: فنهداي ضخمان جداً.

أمسكتهما بملء يديها، وزمت فمها بهيئة مقطبة. كاد الرجل أن ينهار.

ـ إن نهديك رائعان!

ـ كلّا، إن حجمهما ضخم جداً... ومستديران كثيراً...

كانت كل صفة تزيد من إثارة عاشقها. تابعت قولها:

ـ... إنهما صلبان جداً... ومنتصبان جداً...

احمرّ وجهه. ألحت وهي تلتفت نحوه:

ـ انظر، إنني مثار للسخرية!

ـ أنت مخبولة! إنني أهلوس!

ـ هل تعرف، هوبر، أنني لا أحب إلّا النساء المسطحات. المسطحات تماماً. أترى، كم كنتُ أحب أن أشبه تلك النجمة العارضة للأزياء... كيف كانت تُدعى؟... نورا سليم!

ذكرت عمداً اسم تلك المصابة بفقدان الشهية المحترفة لأن المراهقات وحدهن يُقدرن هذا الشبح الأنيق، بعينين محاطتين بالزرقة، وبعظام بارزة، ويتنازع عليها بعض مصممي الأزياء حباً باللغط، لكنها ترعب الرجال الذين ينظرون إلى النساء باعتبارهن إغراءات جنسية. وكما توقعت صرخ هوبر:

ـ ماذا؟ هذا الهيكل العظمي المتجول؟ حتى في جزيرة مقفرة، أنا... أنت أفضل منها ألف مرة. من المستحيل التفكير بترهات كهذه، يجب رميها داخل علبة القمامة. انظري معي إلى تينك البطيختين الصغيرتين الحبيبتين اللتين أعشقهما بالغ العشق، أنا...

تركته يداعبها. حين شعرت بأنه قريب لم يعد ممكناً أن تفلت، تأوهت:

ـ آه، عزيزي، ستثيرني ثانية ثم ستتركني لتذهب إلى مجلس إدارتك.

توقف بصعوبة. ارتدت ثانية مئزرها ورافقته وهي تتنهد حتى الباب.

ـ إلى اللقاء يوم الاثنين.

كرر قائلاً:

ـ إلى يوم الاثنين. وكله خشية من لقاء زوجته وجهاً لوجه.

لقد نجحت: رحل مرتاحاً لكنه محروم، تعذبه الرغبة في العودة.

في غرفة الحمام، وحدها الآن أمام مرآتها، راحت ترجح نهديها بيديها وبشيء من الكبرياء. في الواقع، كانت تعشقهما وتقدر الرجال الذين يجنون بهما. بعد حمام

رش بارد لتنشيط جلدها، غذَّتها بمراهم ثمينة لتشد نسيجها اللحمي. حتى تلك الساعة، لم يبدُ عليها عمرها ـ ثمانية وثلاثون ـ، لكنها كانت تخطط لعمليات تجميلية وتسجل عناوين الأطباء الشهيرين.

رن جرس الهاتف. توردت إيف سروراً. فالرنين المتكرر يحمل لها الدليل على أنها محبوبة.

أعلن صوت خفيض جداً قائلاً:

ـ نهارك سعيد إيف، هنا دلوعك.

ـ نهارك سعيد، فيليب.

ـ هل أزعجك؟

ـ إنني عارية أمام المرآة أنظر إلى نهديَّ.

ـ يا لك من شقية، وتقولين لي ذلك، أنا الذي أعشق نهديك.

ـ هل صحيح أنك تعشقهما؟ إنني لا أصدقك...

ـ وأنتِ، طبعاً، أتصور أنك تنتقدينهما.

ـ آه، أنا...

ـ هيا، إنني أقبل نهديك وأعجنهما بين يديَّ. آه، كم تثيرينني...

ـ حذار، دلوعي، لا تتهيج كثيراً، ستصل زوجتك ولن تفهم السبب... صار صوت الرجل منخفضاً وتسارع تنفسه.

ـ متى سنلتقي، أنا وأنت ونهداك؟

ـ هذا السؤال! لا يتوقف إلَّا عليك. لست أنا المتزوجة. إنني أنتظرك طوال اليوم، فأضجر وأذوي.

كان عليها أن تُسمعه هذا الخطاب لأن فيليب دنترومون يدفع لها أساس مصروفها الحياتي: الشقة والسيارة والأثاث. فهو على رأس إمبراطورية صناعية، وقد ترك مدينة ليون وجاء إلى بروكسل ليقيم مع زوجته وأولاده في شارع «موليير»، وأسكن عشيقته على بعد مئة مترٍ من بيته.

ـ حسناً... يمكن أن أتدبّر أمري... حوالى الساعة الثامنة عشرة.

كانت تعرف مسبقاً التوقيت لأنهما لم يلتقيا تقريباً في غير هذا الوقت مطلقاً؛ كانت تعرف أنها ستقبل: تابعت إذاً لعبها وهي تصرخ متعجبة:

ـ وهذا المساء؟

ـ هذا المساء؟

ـــ أجل هذا المساء. لا شيء يبهجني أكثر من سهرة طويلة معك.

ـــ شقيتي...

ـــ إذاً هذا المساء، دلوعي؟

ـــ كلَّا، هذا المساء عيد ميلاد ابني البكر.

أدركت أن أولاد فيليب الثلاثة يتشاركون بميزة غريبة وهي أن لكل واحد عشرة أعياد ميلاد في العام؛ لم تعلق على هذا الهراء، فثأرت بشكل مختلف:

ـــ آه نعم، كانتان! هذا الشاب البالغ الجمال...

ـــ هذا التافه، غير قادر على النجاح في دروسه...

ـــ يتمتع بجمال أبيه إن لم يأخذ ذكاءه. وهذا حسن... لا سيما أنه سيكون من أصحاب الملايين.

ـــ بفضل أبيه دائماً! ولكن ذلك لن يحدث غداً... إنني لا أنوي الاستقالة.

ـــ كم سيبلغ من العمر هذا المساء؟

ـــ سبع عشرة سنة، هذا الوغد. سيتصل بك هاتفياً دلوعك حوالى الساعة الثامنة عشرة؟

ـــ سنلتقي أولاً في مخزن «خشب الأبنوس» للمفروشات في شارع «لويز»، لأنني وجدت الأريكة التي كنتُ أريدها والتي وعدتني بها.

ـــ طبعاً حبيبتي، سأهديها إليك، أريكتك... ولكن...

ـــ يستغرق ذلك منا خمس دقائق. بعد ذلك، فالبيت على مسافة خطوتين.

خلصتْ إلى أنه من الطيش ألَّا يناقش ثمن الأريكة.

ـــ حسناً!

أضافت بصوت حلو قائلة:

ـــ سأحضر لك الشاي.

ـــ ما لي وللشاي الذي تعدينه! إلى اللقاء القريب!

أغلق سماعة الهاتف. انفجرت إيف بالضحك: كانت تحب سماع الرجال يعبرون لها بخشونة عن رغبتهم. ماذا ستفعل هذا المساء؟

فتحت مفكرتها. لا أحد لديه اشتراكات في المسرح والأوبرا والحفلات الموسيقية بقدر ما لديها. فلو تفحص أحد كيفية توزيع وقتها لاعتقد أنه لا يوجد في بروكسل امرأة أكثر عشقاً للفنون منها. في الحقيقة، بما أنها حرة بكل سهراتها ـــ نظراً لأن فيليب يعيش حياته العائلية ـــ، فهي تخرج غالباً، لتؤكد على إخلاصها بأن

تروي له مختلف العروض الفنية التي تراها في غيابه. بالطبع، هناك بعض السهرات تخصصها لغيره، مع شيء من الاعتدال والحيطة، ولكن ذلك نادراً ما يحدث.

رن جرس الهاتف. تعرفت إلى الرقم فقطبت وجهها.

ــ نعم؟

كانت وكالة العقارات التي تديرها تدعوها. طلبوا منها إذا كانت تستطيع أن تقدم بيتاً فخماً إلى روز بيدرمان، جارتها الشهيرة. سُرَّت لإغناء مفكرتها بتلك المعرفة، أطلقت نعم بتذمر كي تبدو ربة عمل بغيضة.

فجأة، ثبت ذهنها على مشهد: تصورت عيد ميلاد كانتان، ابن فيليب.

ــ سبع عشرة سنة؟ إلهي، يمكنه أن يكون ابني...

احمرّ وجهها. يوم الاثنين، حين صادفته في الشارع، لم ينظر إليها على غرار أم، بل ذهب أبعد من ذلك. فلقد وجه إليها غمزة وقحة. تأثرت بهذا المشهد: أولاً لأن كانتان يجهل العلاقة الحميمة بين تلك المارة ووالده؛ ثم، لأنها وجدت فيه ملامح فيليب، ولكن فيليب نحيل، مشرق، نقي، أشد قوة وأكثر نشاطاً وبلا تجاعيد؛ أخيراً لأنها أدركت في عينيه القابلية الملحة ذاتها، والرجولة النهمة عينها. شعرت، لخمس ثوان، أنها المرأة الأصلية، المرأة المطلَقة، المرأة الشمولية، تلك التي يتشهاها كل الذكور، من أي جيل كانوا. ملأها هذا الشعور بالخيلاء وزفرت الهواء بقوة. حَسبَ الشاب انفعالها أنه بداية موافقة. فلحق بها إذاً. لقد أحبت كثيراً اقتفاء أثرها حتى بنايتها، وبقي بعناد في الساحة، مسمر الرجلين يراقب الواجهة، متشوقاً ليعرف في أي طابق تقيم. لم تخفِ ذلك عنه، لأنها ظهرت في نافذتها تبدو وهي تطعم الطيور كأنها لا تراه، متباطئة باستنشاق الهواء الرطب، ثم، في آخر لحظة بالضبط، تختفي بابتسامة.

لاحظت إيف رسالة تحت الباب.

ــ عجباً، ماذا يمكن أن تحوي...؟

تعجبت لأنها نادراً ما تصلها رسالة، فالعنوان الذي تعطيه كان عنوان وكالتها. لا أحد، ما عدا رجالها أو صديقاتها، يرسل إليها رسائل هنا.

فتحت الغلاف الأصفر اللون: «هذه الكلمة لمجرد الإشارة إليك بأنني أحبك. التوقيع: أنت تعرفين من».

حملت، فوراً، الورقة إلى صدرها.

ــ أخيراً!

لم تشك في أن المرسل هو الذي تسعى ألّا تفكر فيه: كانتان، ابن فيليب، حاميها.

٥

ـــ أتمنى الحصول على كلب.

ـــ أصبحتِ مؤثرة!

كانت المراهِقة تتأمل أمها بقسوة، بتريسيا المترهلة أو بالأحرى المنتشرة على الأريكة، بلا حراك، والملتفة بثوب ذي حجم هائل، والتي تُظهر شكلاً أقل إنسانية من كومة غسيل قذر.

في ذاك الصباح، وقد وضعت بتريسيا وسادة تحت وركيها، ولفتْ رجليها على حافة المسند واضعة يديها فوق بطنها، كانت تتمتع بالشكوى، وتتذمر كمن يتمطى، بتلذذ. إلّا أنها وقد رمقت بنظرة جسم ألبانّ الفتي والنحيل، المشدود والعدائي، شعرت بأنه يختلج بدوافع عدوانية فلم تلحّ.

كانت المرأتان، خلال دقيقة، تصغيان إلى ببغاوات الساحة ودرّاتها وهي تقوقئ، بوحشية.

تمنت بتريسيا أن تصرخ بأن الحنان ينقصها. لم يعد أحد يداعبها. ولا رجل. ولا حتى ابنتها. وكانت ألبانّ تتذرع بمعاشرتها للشبان، منذ بعض الوقت، كي تبعد أمها عن أي تماس فيزيولوجي معها. فهل يطرد حبٌ الحب الآخر؟... حين تتغير هرمونات المرء، هل يتخلى كذلك عن كل اندفاع بنويّ؟ ألا يمكن أن تفكر برفاقها وتقبّل وجنات أمها؟ أين دوِّن هذا القانون؟ ومن المشرع؟

خلصت بتريسيا إلى أن «الشيخوخة تبدأ حين لا يعود أحد يلمسك». رفعت كتفيها. «إنني أنتقص من الحالة. فالوضع أشد خطورة: لا يقتصر الأمر على أن أحداً لا يلمسني ولكن لا أحد ينظر إليَّ بحب».

ـــ كلب... توقفت جملتها في بلعومها. أجل، إن كلباً قد يظهر لها مودة. ويبجلها بمجملها. على كل حال، هل رأى أحد كلباً يحدق إلى صاحبته كما تحدج ألبانّ أمها؟

أضافت ألبانّ قائلة:

ـــ ليس الكلب ما سيجعلك جميلة.

ــ لم يعد هناك شيء يجعلني جميلة، عزيزتي.

أرعبت تلك الجملة المراهِقة، وأثلجت صدر أمها. احتجت ألبانّ بانزعاج على تلك القدرية قائلة:

ــ لا علاقة للجمال بالصبا.

ــ يجب أن يكون الإنسان شاباً ليقول ذلك...

ــ أماه، لي رفيقات لا يبدو تقدم السن على أمهاتهن. سُرت بتريسيا لمناقضة ابنتها.

ــ هل تعين ما تقولين؟ إنك تقرين أن الجمال هو الشباب، أو الإيحاء به.

ــ سأذكر لك عشرات الممثلات اللواتي في الخامسة والأربعين ويثرن رفاقي...

ــ إنها مهنتهن، عزيزتي؛ فالإغراء يشكل فعالية الممثلات المحترفات. لا تكوني ساذجة. إنك تذكرينني بوالدك الذي كان يستاء، كل صيف، لأن أبطال «سباق فرنسا للدراجات» يسيرون أسرع منه...

صارت ألبانّ قرمزية اللون. فبنشاطها وهي في الخامسة عشرة، تمقت الزهد وتحتاج إلى الاعتقاد أنها ستعجب طوال حياتها. وإن خلت بتريسيا من الخبث، إلّا أنها راحت تلهو بإزعاجها وذلك بأن تزيل عنها أوهامها.

ــ أماه، ما لون شعرك؟

ــ ماذا؟... أخيراً، أنت تعرفين ذلك، عزيزتي.

ــ أحمر نحاسي.

ــ آه نعم؟

ــ أحمر نحاسي، دائماً.

ــ حقاً؟

ــ إن مزينة شعري الصغيرة تجيد صبغه لي، هذا اللون الأحمر النحاسي. انتهت إلى إيجاد صيغة الصبغة الجيدة.

ــ آه، هل هذا صحيح؟

أمسكت المراهقة بمرآة عن الصوان، وبسطتها إلى أمها.

ــ أوجدي لي شيئاً من اللون الأحمر على رأسك.

انزعجت بتريسيا فأمسكت المرآة بسطوة لتعلن إلى ابنتها «سترين ما ترين». وضعت المرآة فوقها وخيل إليها أولاً أن هناك خطأً: ثمة وبر أبيض، ورمادي أو أسود، رخو، لا حيل له يتهدل على جلدها الشاحب، وقد تلطخت نهاياته بنوع من

الاحمرار بدا نتيجة احتراق أكثر منه صبغة. كلّا، لا يمكن أن يكون هذا الحقل من الألغام رأسها... هزت المرآة، كأن ذلك سيجعله في وضع أفضل، ثم نظرت ثانية إلى شكلها. لم يتغير شيء. «متى ذهبتُ عند ماريز؟ لم يكن ذلك منذ زمن طويل، في تشرين الثاني... إننا في نيسان، أي منذ... آه، إلهي، ستة أشهر!».

خفضت المرآة، مغتاظة، حانقة، تغلي غضباً وشراً، وهي لا تزال تأمل أن ما رأت كان كاذباً.

كانت ألبانّ، إلى جانبها، بذقنها المنتصر، ونظرتها الباردة تشبه قاضياً؛ بل أسوأ من ذلك، كانت أقرب إلى تمثال قاضٍ.

ــ أمي، إنك تهملين ذاتك...

كادت بتريسيا أن تجيب: «بما أن الناس جميعاً يهملونني، فلماذا لا أهمل نفسي؟»، وهذا يعني مواصلة الشكوى، إلّا أنها تراجعت أمام عدم جدوى جواب كهذا، أي كلمات تجيب عن كلمات ولكنها لا تغير الواقع.

ــ بماذا تنصحينني، عزيزتي؟

أربك السؤال ألبانّ التي كانت تتوقع رفضاً وتتمنى مشهد خصومة وتعد نفسها للعنف وللحدة.

تابعت بتريسيا قولها:

ــ أجل، ماذا عليَّ أن أفعل؟

جلست ألبانّ وتنهدت، باكتئاب قائلة:

ــ اذهبي عند مزينة شعرك.

ــ منذ الغد.

ــ ثم ابدئي نظاماً غذائياً.

ــ موافقة.

ــ نظام غذائي حقيقي.

ــ فهمتُ. كم كيلو أفقد؟

ــ ابتدئي بفقدان عشرة كيلوغرامات. بعد ذلك نستطيع أن نكرر النظام الغذائي...

تمتمت بتريسيا، بوداعة:

ــ حسناً، عزيزتي. وبعد ذلك؟

ــ حسناً، سنذهب لنشتري ثياباً جديدة، ونتجنب الأثواب التي بشكل الأكياس والستائر، والتي هي على شكل طوافات مائية.

ــ هل هذا صحيح؟ أتأتين معي لنختار الثياب في المخازن؟

كانت بتريسيا تستجدي الحب شأن طفلة. أخذ المشهد صيغة مزعجة: وقد أصبحت ألبانّ أم والدتها، كان عليها أن تبدو محبة بالرغم من رغبتها في أن تجرحها.

ــ أجل، سأساعدك. انحلي أولاً!

وافقت بتريسيا وهي تتحرك برفق، ما سمح لها بأن تلاحظ، احتكاك لحمها بعنقها، إن ذقناً ثانياً قد نبت لديها.

كانت المرأتان آسفتين، منهارتين وهما تصيخان السمع إلى درّات الساحة. ماذا يمكن لتلك البلهاوات أن تقول كل واحدة منها للأخرى؟

شعرت بتريسيا بقواها تتلاشى. وفي الوقت الذي استسلمت فيه أمام ابنتها، أحست أنها على استعداد لتخلٍ ثانٍ: لماذا تزعج نفسها لتتغير؟ إذا كان الزمن قد شرع في تخريب جسدها، فإن الحكمة تقضي بأن تقبل ما فعل، أليس كذلك؟ إن لم تكن الحكمة، فهناك أقلّه الكسل. «يا لهول ما يغريني التراخي».

تابعت بتريسيا قائلة:

ــ لماذا عليَّ القيام بذلك؟

ــ أنت تمزحين؟

ــ لا شيء أكثر صعوبة من نظام غذائي. من العسير كسر آليات المرء. وما هو الهدف؟

ــ من أجلك.

ــ أنا؟ إنني غير مبالية. على كل حال قررت ألّا أهتم بذلك.

ــ أنت تمزحين؟ إن اهمال الذات يعني عدم الاحترام للنفس. ثم، ستبذلين تلك الجهود كذلك من أجلي.

ــ أنت تخجلين مني؟

كانت ألبانّ تخجل طبعاً من أمها، لكنها أدركت أن من القسوة جداً أن تبوح لها بذلك.

ــ لا أخجل منك. في المقابل، إذا اهتممت بنفسك، قد أكون فخورة بك. أليس كذلك؟ وقد تفوهت ألبانّ بذلك، هنأت نفسها على هذا الرد الرائع. تابعت قولها، وهي سكرى من هذا النجاح:

ــ ثم هكذا، من يدري، ربما قد تلتقين رجلاً؟

لم تحدث الجملة أي رد فعل عند بتريسيا. أخفقت ألبانّ في قراءة الوجه الذي لم يحن يعبر عن شيء. أعلنت قائلة:

ــ هذا صحيح، أجل! لمَ تظنين أن حياتك قد انتهت؟

ــ حياتي؟

ــ حياتك العاطفية... حياتك الغرامية...

لم تجرؤ أن تضيف «حياتك الجنسية» لأنها كانت تكره أن تتحدث بلا مراعاة، إلّا أنها لم تكن تجيد التحدث عن الجنس إلَّا بخشونة.

فكرت بتريسيا ملياً: «تلك هي السعادة في نظر ابنتي: التعلق برجل! يا للتقيد بالأعراف والتقاليد! ويا لغياب الطموح المرعب! أن نتعذب، ونتلوى ألماً، ونفرض على ذواتنا تضحيات، وجهوداً جمة كي نرمي بأنفسنا بين يدي ذكر. يا للبؤس...». اكتفت بأن دمدمت بنبرة تذمر قائلة:

ــ آه، رجل... في مثل سني...

تحمست ألبانّ، وقد اقتنعت فجأة بأنها على صواب.

ــ هناك كثير من الناس يُغَيرون حياتهم بعد الخامسة والأربعين. لن تكوني أول أرملة تتزوج ثانية.

هذه المرة، رنت بتريسيا بعتاب نحو ابنتها. أدركت الأخيرة ذلك فتمتمت:

ــ لستِ مرغمة على الزواج ثانية، في نهاية الأمر... المهم ألَّا تبقي وحيدة وأن تكوني سعيدة...

«هذا مروع... حين أفكر أنها تمثل المتمردة وتعتبر نفسها فريدة... إلَّا إذا كانت تعني بكوني سعيدة، هو أن تتزوج أمها ولن تعود تهتم بها. أجل، لا بد أن يكون الأمر على هذا الشكل».

ــ أليس عندك دروس، هذا الصباح، عزيزتي؟

ترددت ألبانّ وهي تتساءل إن لم تكن والدتها، تحت مظهر اللطف، تريد أن تبعدها خارج البيت... لكن، أمام هيئتها المخفقة وتواضعها كضحية، طردت هذا الشك وأقرت بأنها ستتأخر عن مدرستها.

ــ إلى اللقاء، أمي. إنني مسرورة من هذه المحادثة معك.

أجابت بتريسيا بصوت خافت:

ــ وأنا أيضاً، كان الحديث مفيداً جداً.

توقفت ألبانّ أمام أمها، مرتبكة، وهي تهتز على حذائها العالي، أدركت بتريسيا أنها كانت تريد أن تقبلها. «آه كلَّا! إنها تهاجمني بضراوة وتأتي بعد ذلك لتقبلني!

لتذهب إلى الجحيم!». تصنعت الحزن، فانزوت على مسند الأريكة، مقدمة ظهرها للمراهِقة كي تفلت من كل فيض عاطفي.

ــ أسرعي، عزيزتي. إن أمك العجوز ستفكر كيف تعود إلى صباها.

بعينيها المطبقتين، وحواسها المتوترة، تأكدت بتريسيا من أن ألبانّ قد تراجعت وتركت الغرفة ثم صُفِق باب الشقة.

قفزت من الأريكة وهرعت إلى غرفتها فأخرجت ثيابها المعلقة أمام الخزانة وأبعدت المقعد لتجلس على مسافة من المرآة المرتكزة على قدم واحدة.

عكست لها المرآة صورة شخص لا علاقة لها به. هذا الانعكاس يروي حكاية أخرى تختلف عن تلك التي تعيشها. وبينما كانت تشعر بنفسها مندفعة وثائرة، رأت أمامها امرأة ناضجة بمظهر مهيب. لقد تغير حجم جسدها فصغر وجهها. إذا كان ذقنها مستديراً وقصيراً دائماً، فإن رأسها الفخم قد أمن لها في الماضي هيئة ظريفة؛ أما الآن، فقد زادت كثافة جسمها حتى أن فكيها قد ارتكزا على حذر.

خلال عدة ثوانٍ، راحت يداها تضربان بطنها وخصرها وصدرها، محاولة أن تطبع عليها أشكالها القديمة. عبثاً. بدا لها نهداها وحدهما أكثر ظرافة، لأنهما أكثر استدارة، وأشد عذوبة. ولكن من يعاين ذلك، ما عداها؟

اقتربت وتجنبت أن تنظر إلى حالة شعرها الكارثية وتفحصت بشرتها. بدا لها أن حباتها قد تضخمت، وأن نسيجها قد صار أقل التصاقاً، أما وجنتاها المحمرتان فملطختان شأن الأقحوان. أجل، كانت تبدو كما هي، امرأة في الخامسة والأربعين بمعنويات ضعيفة وقد أهملت نفسها.

فلت تنهد من أضلاعها، فاجأتها شدته:

ــ وماذا يجدي ذلك؟

غمرها العزاء. «أجل! ماذا يجدي ذلك؟» لماذا لا تقبل ببتريسيا الجديدة؟ ما سبب محاربتها لها، وإعلان الحرب عليها من خلال نظم غذائية، وحرمان وتضحيات، ورياضة، ومضايقات، إلى أن تختفي؟ أليس من الأفضل استقبال تلك المجهولة في نهاية الأمر، هذه البتريسيا، إنما هي...

انهارت على السرير. «انتهى كل شيء! انتهت محاولات الإعجاب! انتهت حركات الوجه التي تثير الانتباه! انتهى الخوف من التحول إلى حوت! انتهى شراء الملابس حيث سأتساءل ماذا يفكر الناس فيَّ! انتهى كل شيء! إنني أنسحب من سوق الحب. تعود حياتي ملكاً لي».

أطلقت ضحكة صغيرة متقطعة.

ــ يا للسعادة!

منذ دقيقة، كانت تشعر باليأس؛ والآن، تبتهج.

إنها حرة! بهذا القرار، أعتِقت من أسرها. لم تعد امرأة في نظر الآخرين، أو في نظر ابنتها، ستكون المرأة التي كانت عليها. انتصبت، وهي مغتبطة، واجتازت الشقة كصاحبة سلطة. وقد أمسكت علبة لبن صغيرة من الثلاجة، فتحت التلفاز وجلست لتأكل بنهم.

كانت القناة التي تملأ الشاشة تنقل دعاية طويلة، متكررة، مزعجة عن جهاز لإذابة شحم البطن وتصل إلى الجوف. رياضيون أميركيون يتناوبون على الكلام، بصوت فرنسي رديء، وهم يشيدون بمزايا الجهاز متحمسين لترويجه.

ـ يا للمهزلة!

عرضت النساء لوناً برتقالياً لأعضاء عارية، وأظهر الرجال بشرة بلون السكر المحروق. فرض الاسمرار عليهم لباساً موحداً: فكلهم متشابهون.

علقت بتريسيا:

ـ لا يمكن لأحد أن يصدق إلى أية درجة تنهك الرياضة الجلد. فما إن يتحرك الإنسان بأثقال وبآلات حتى تصبح ألوانه لاواقعية.

وماذا عن الأسنان! ورياضة فتل العضلات وانتفاخها تؤدي إلى نتائج سنية غريبة: فحين يضحك الرياضيون الكاليفورنيون ـ أي باستمرار ـ، فإنهم يكشفون عن أنياب وقواطع وأضراس بالغة البياض توحي بواجهة زجاجية لمختص بتصنيع الأسنان.

ـ إنه جنس جديد!

لم تكن بتريسيا أمام رجال ونساء عاديين، ولكن أمام مواليد من طفرة جينية. هل رأى أحد قفصاً صدرياً يشبه صدر جيم المدرب، أو عضلات تركض شأن الأفاعي، تحت جلد أسمر؟ أو شكلاً مثل شكل كاري، الصحفية التي اهتدت إلى الجهاز الأسطوري للجوف وللأرداف، وكأنها هيكل عظمي لظبية جائعة، مع أن لها صدراً بارزاً ومؤخرة متوثبة، وكلاهما قاسيان يكادان ينفجران؟ خلصت بتريسيا وهي تمرر إصبعها الملوث بالفانيل إلى قعر العلبة إلى أن مخلوقات من كواكب أخرى قد حطت على كوكبنا، ومن دون أن تثير الشكوك، غزت شاشات البيع بالمراسلة.

برزت بومضات طرق الدفع بواسطة بطاقات الاعتماد. شعرت بتريسيا بانقباض ثم هدأت. لو أنها في الماضي، لكانت قد أوصت على الجهاز لتريح ضميرها ـ إن تسجيل رقم بطاقتها عن طريق الهاتف يعطيها انطباعاً بأنها قد قامت بجلسة رياضية ـ ولكانت تسلمت الآلة السحرية لتوضع مع قريباتها في الكومة تحت سريرها العريض؛ اليوم، حطّمتْ أغلالها. لم تكتفِ بإغلاق التلفاز من دون أن تستسلم للأعراف التجارية، لكنها ستبلع حلوى كانت حتى الآن قد تركتها لابنتها.

تزودتْ بصحن وملعقة وحلّت براعم ذوقها بهذا المزيج من الكريمة والقهوة المرة، فطافت في الشقة وهي تغني.

وقد استندت إلى حافة النافذة، رأت شكلاً، في الأسفل، وسط الساحة. ارتعشت. ثمة رجل شبه عارٍ يعتني بالعشب في ساحة أريزو.

«لا يحق لأحد أن يكون جميلاً هكذا».

توقفت عن الأكل، وحدقت إلى البستاني الذي يلبس بنطالاً قصيراً وحذاءً خشناً، بقامته الأنيقة، وبصدره العاري كأنه منحوت، يعلوه بعض الوبر، وبكتفين مكتظتين باللحم، وفخذين قويين. «وهذا العنق... ذو البياض الساطع... والنقي...». كان للرجل عنق مستقيم يدعو إلى تقبيله.

احمرّ وجهها وعضت على شفتيها. كان هذا الشاب يبعث فيها الاضطراب والبلبلة مذ وظفته الخدمات البلدية. كانت ترقب، كل يوم، الشارع، وبمجرد أن يجر أدواته في المنطقة المجاورة لها تختفي وراء الستائر لتتأمله خلسة. كان كل شيء فيها يتشنج حين يظهر، فيوحي إليها برغبة قاطعة. تلهث، كأن مخرزاً يثقب جسمها. ثمة شيء لا يُفهم! كان عليها أن تعود إلى الثالثة عشرة من عمرها كي تجد ثانية إحساساً قوياً كهذا ــ حينذاك، كان ابن عمها دوني، الأحمر الشعر وذو الذراعين العريضتين بلون الحليب يقطع أنفاسها حين كانت تراه يلعب بكرة المضرب. عرفت أن البستاني يُدعى هيبوليت، وهو اسم نادر يلائم فرداً استثنائياً. ومن وقت إلى آخر، كي تحاذيه، كانت تنزل بحجة جولة تقوم بها. وحين مرورها، كان يحييها بفرح، وذلك يؤثر فيها كثيراً حتى أنه ليصعب عليها أن تجيب بمجاملة مألوفة، ثم تهرب وهي تسرع الخطى. كم من مرة حلمت بأن تحمل إليه زجاجة بيرة باردة، لكن ذلك قد بدا لها فوق طاقتها. كان يعجبها كثيراً حتى أنه يزعزعها: ما إن تشعر بحضوره حتى تفقد كل سيطرتها على ذاتها.

«لن يتغير... لا شيء يمسه... آه بلى! إنه أقل اسمراراً من العام الفائت...».

ضحكت من حماقتها... بالطبع إنه أقل اسمراراً لأننا خرجنا من الشتاء!

ربما لم يسمح له الفصل بخلع قميصه إلّا اليوم! نظرت إليه بخدر حالم: وهي مقتنعة أنه يخلع قميصه للمرة الأولى، اضطربت من هذا اللحم الأبيض، الذي احتمى من البرد بالملابس الصوفية خلال أشهر طويلة، ويتعرض الآن لأشعة الشمس. اتخذ هذا المشهد طابعاً مقدساً لطقس ديني. صار هيبوليت عذراء مرتاعة تكرس نفسها لحياة جديدة... أصبحت بتريسيا، وقد اخترقت الزجاج، الشمس التي تداعب جلده الجديد والفزِع، كما صارت الهواء الذي يطوق جذعه ويداعبه، فيخط عليه رعشات.

اقتلع هيبوليت هندباء برية، وقد تقوس كي يفحصها في النور.

«ما أروع ردفيه»!

ارتجفت، وقد صُدِمت لأنها صاغت ذلك التعجب في رأسها.

ألح الصوت في أعماقها: «حقاً، ما أجمل ردفيه!... بتريسيا!... إنها الحقيقة. تنظر النساء إلى أرداف الرجال. أستطيع أن أقول ذلك بحرية لأنني لم أعد في مجال المنافسة».

تنهدت برضى: لقد ربحت ميزتين وهما الجرأة والحصانة. من الآن فصاعداً ستعبر عن ذاتها بحرية. أجل، لها الحق في أن تفكر بما تشاء لأنها تتصرف بطريقة مجردة من الغايات. لم يعد ما يُثير السخرية يترقبها ما دامت متفرجة تبقى على الضفة. في الماضي، وجب عليها أن تُظهر تحفظ أرملة، وكرامة برجوازية لا تستلم لأول صبي متوحش؛ والأسوأ من ذلك، يجب عليها أن تُخفي إلى أية درجة يجذبها هيبوليت ويستهويها وإلّا تعرضَتْ لسماع الآخرين يذكرونها، ولا سيما تذكر هي ذاتها ــ بأنها لن تدعي جذبه بسبب فارق السن والمحيط الاجتماعي والكمال الذي يجعل كل واحد منهما غريباً عن الآخر. بمجمل القول، بقدر ما كانت تدعي الإغراء، كان ظمأها إلى هيبوليت يعرضها للسخرية. وقد تخلت عن التفكير فيه، فإنها تستطيع أن تتأمله ما طاب لها ذلك، وتلقي التعليقات التي تريدها. يا للمتعة...

وقد أمسك هيبوليت عربته، ورفعها بضربة نشيطة من وركيه، غاص تحت الأشجار، وهو جزء من الساحة لا تطاله عينا بتريسيا.

رفعت كتفيها ورجعت إلى المطبخ. بمرورها في البهو، لاحظت غلافاً بلون الزبدة الطرية، غريباً بين الفواتير التي وضعتها ألبانّ على الطاولة. فتحته وقرأت المضمون بسرعة:

«هذه الكلمة لمجرد الإشارة إليك بأنني أحبك. التوقيع: أنت تعرفين من».

أعادت قراءة الرسالة أربع مرات ثم انهارت على الأريكة الأقرب منها.

ــ كلّا! كلّا!

كانت تلك الرسالة تثير فيها الفزع.

ــ لم أعد أريد، لا أريد شيئاً على الإطلاق.

انبثقت دموع من عينيها. صرخت:

ــ الحب، بالنسبة إليَّ، قد انتهى! انتهى! هل تفهمون؟ هل تسمعونني؟

لم تكن تعرف من وجه إليها تلك الكلمة، كما لم تعرف إلى من تتحدث، إلّا أنها كانت على يقين واحد: لن تفتح بابها للحب مطلقاً.

٦

ـ هيا! أولاد، أسرعوا!

كان فرنسوا ـ مكسيم دو كوفينيِّ، وقد جلس خلف مقود سيارته٤x٤ وأخرج جذعه من الباب لينحني في اتجاه الرقم ٦، والذي بقي مدخله مفتوحاً؛ ربما كان غيره يطلقون الزمامير أما صاحب المصرف الشاب فيفكر أن استعمال المنبه خارج الظروف القصوى يعبر عن السوقية.

خرج من القصر أربعة أولاد ذوو شعر أشقر ونزلوا بسرعة درجات المدخل وغاصوا في السيارة. البنات الثلاث جلسن في المؤخرة، وارتقى الصبي، الأصغر سناً بالقرب من أبيه، مزهواً، بالرغم من أعوامه السبعة، بشعره الطويل ومظهره النحيل وصوته الحاد، ليشارك أباه مقام الذكر.

ظهرت سِفْرينّ، على عتبة من الأحجار البيضاء، بملابس صوفية اللون وشعرها المربوط بشريط أخضر فاتح؛ كانت أشعة الشمس ملء وجهها، فانحنت على الباب لترى أسرتها تذهب.

صرخ فرنسوا ـ مكسيم:

ـ حسناً، ألا ترون أمكم؟

التفت الأولاد فوراً نحو والدتهم ووجهوا إليها إشارات كبيرة، مبالغاً فيها جداً كأنهم يصرخون بلغة خرساء.

وبينما كان يستعد فرنسوا ـ مكسيم دو كوفينيِّ للانطلاق لمح في ساحة أريزو البستاني ببنطال قصير وبصدر عار ينظف العشب، فجعله هذا الظهور يقطب حاجبيه وتتكدر عيناه.

أزعجه صوت حاد عن يمينه:

ـ لك الحق أبي، في تأنيبه.

ـ ماذا؟

ـ هذا ليس لائقاً، وهيبوليت مخطئ.

حدق فرنسوا ـ مكسيم إلى ابنه قائلاً:

ـ عمن تحدثني، غيّوم؟

ـ عن هيبوليت، البستاني، هناك! في المدينة عليه ألّا يتنزه هكذا. يجب على المرء أن يكون بكامل ملابسه في الشوارع. هذا ما كانت تقوله جدتي هذا الصيف في سان ـ تروبيه.

أكدت غواندولين، أخته البكر من كرسيها في المؤخرة وهي تضيف:

ـ أظن أنني أتذكر، غيّوم، أنها قالت ذلك لك حين أردتَ أن تذهب إلى السوق بسروال البحر.

وبخ غيّوم أخته، مستاءً:

ـ لم تقل ذلك لي إلّا مرة واحدة. بينما استمر الناس يسيئون التصرف طوال الصيف.

تدخل فرنسوا ـ مكسيم دو كوفينيٍّ قائلاً:

ـ أحسنتَ، غيّوم، فمن الحسن أن يفهم الإنسان من المرة الأولى.

ألقى نظرة ثانية على هيبوليت الذي يعرض بشكل غير لائق صدره وفخذيه. رفع كتفيه وانطلق وهو يتجاوز ببطء سيارة «الليموزين» الرسمية ذات الزجاج الأسود والمصفحة المتوقفة بصف ثانٍ وكان يقبع فيها زكاري بيدرمان، وهو أحد مشاهير هذا الحي، ودخل شارع «موليير» في الاتجاه المعاكس.

ـ إذاً، أيتها الفتيات، ما هي دروسكن، اليوم؟

أجابت الفتيات، وفق تسلسل أعمارهن، مفصلات المواد التي تنتظرهن.

لم يكن فرنسوا ـ مكسيم دو كوفينيٍّ يستمع إليهن بانتباه، ولكن بما يكفي ليحثهن ويطلق مناقشاتهن. كان مسروراً كونه أحس بأنه بقدر ما هو متفرج على المشهد الذي يعيشه بقدر ما هو ممثل له. في المرآة العاكسة في داخل السيارة، لاحظ بناته، فاتحات البشرة، بأسنان ممتازة، وبشعر مقصوص بدقة، وقد ارتدين ملابس تشير إلى يسر عائلتهن من دون أن تلفت النظر؛ كنَّ يعبرن بفرنسية سلسة، فصيحة، مؤلفة من كلمات دقيقة ومختارة وبقواعد سليمة تخلو من الأخطاء؛ حتى نطقهن، فلقد كان بعناية وتحديد يشهدان على حسن تربية، لا سيما أن قرابتهن الجسدية كانت تبهر بسبب تشابههن: فبالرغم من أعمارهن الثانية عشرة والرابعة عشرة والسادسة عشرة، فإن أشكال وجوههن متماثلة، بعيون كستنائية اللون وأنوف دقيقة وأعناق طويلة غُرزت فوق جذوع ضيقة. بالبداهة، خرجن من قالب واحد، وهن يشرن بانتمائهن الشريف إلى سلالة متينة. بالنسبة إلى فرنسوا ـ مكسيم دو كوفينيٍّ، لا شيء أكثر إحراجاً من مجموعة إخوة متغايرين. ففي تلك الحالة، إما أن يُشك بجينات ضعيفة، وإما أن الأم قد حملت هؤلاء الأفراد المختلفين من أزواج

كثيرين. يستخلص المرء، حين يرى أولاد أسرة كوفينيٍّ، أن والديهم لم يخطئا في تأدية واجبهما الزوجي: فهم دعاية للأمانة الزوجية. كان غيّوم وحده يُظهر تقاطيع تختلف عن أخواته، وهذا أفضل لأنه صبي.

عند الضوء الأحمر، كانت هناك سيارة سوداء ٤X٤ مماثلة لسيارتهم، سيارة برجوازية بروكسل الرفيعة، توقفت عن يسارهم، وبمستواهم.

صرخت غواندولين:

ــ آه، انظروا إنهم آل موران ــ دوبون.

نادى أولاد كوفينيٍّ أولاد موران ــ دوبون، وهي قبيلة أخرى بسحنات متماثلة، مؤلفة هذه المرة من ثلاثة صبيان وفتاة، إنه توازن دقيق معكوس.

حيّا فرنسوا ــ مكسيم دو كوفينيٍّ بسكالين موران ــ دوبون التي كانت تقود السيارة، فأجابته بتعبير ظريف وجذاب.

سرت رعشة في عنق فرنسوا ــ مكسيم. كان يروق لها وهو يعرف ذلك. راحت عيناه تبرقان وهو يتأملها، لأنه بالغ الحرص على إظهار إعجابه بها هو أيضاً.

بالتالي تكدرت أحداقهما وثبتا ناظريهما أطول من المألوف، وبشدة.

صرخ غيّوم كأن حدثاً جللاً قد وقع:

ــ أبي، إنه الضوء الأخضر!

رسمت شفتا فرنسوا ــ مكسيم ابتسامة آسفة موجهة إلى السائقة، وعبوساً يعني: «يا لأسفي ألّا يكون ذلك ممكناً بيننا!».

قبلت ذلك على طريقتها، وهي تخفض كتفيها.

انطلقا ثانية.

ومن دون أن يتفوه أحدهما للآخر بكلمة، ومن دون أن يلحظ الأولاد تواطؤهما، فلقد عاش كل من فرنسوا ــ مكسيم دو كوفينيٍّ وبسكالين موران ــ دوبون ثوانيَ لذيذة حيث يدرك الرجل والمرأة أنهما يعجبان بعضهما ببعض، وفي الوقت ذاته يتخليان عن المغامرة. لقد تبادلا إشارات الإعجاب، وإنهما جميلان، ومع ذلك سيبقيان مخلصَين لأزواجهما.

ابتعدت السيارتان، فأولاد موران ــ دوبون يتابعون دراستهم في المعهد الفرنسي في بروكسل، أما آل كوفينيٍّ ففي مدرسة «دوكرولي».

فكر فرنسوا ــ مكسيم بزوجته: كان قد وجدها ظريفة تواً، وهي تنحني على دعامة الباب، تبهرها أشعة الشمس. ظريفة وحزينة... حدث كثيراً من المرات، في الأشهر الأخيرة، أن فاجأ سِفْرينَ في لحظة لم تعرف فيها أن أحداً ينظر إليها، فلاحظ

كآبة مميتة، شكلاً من الانطواء على حزن مجهول. هل كان ذلك بسبب العمر؟ الاقتراب من الأربعين عاماً؟ ربما عليه أن يقدم لها هدية... وإذا اشترى لها تلك الحقيبة الكستنائية الجلد اللامعة، التي نالت إعجابها يوم السبت. أراد، فوراً، أن يقدمها لها، لكنها قاومت، وقدرت أن من السخرية أن يحقق زوجها أدنى نزواتها، فرضخ، لا سيما أن الحقيبة تساوي ثمن حلية... لم تكن هي ــ الثرية بالوراثة ــ ولا هو ــ الغني من عمله ــ يعرفان التقنين المالي لكنهما يقدران الثمن بتعابير أخلاقية: إن كان المبلغ مبالغاً فيه أم لا.

في الضوء الأحمر التالي، بينما كانت غواندولين، البكر، تشرح لأختيها ما تتعلم في حصة المسرح، مرَّ زوجان من الشبان في الثلاثين من عمريهما، يمسك كل منهما يد الآخر، وقطعا ممر المشاة.

«يا لقبحهما! كيف يجرؤان على الخروج في الشارع وهما كريهان هكذا!»

تفحص فرنسوا ــ مكسيم السحنة الملبدة والأشكال الرخوة والحوضين الواسعين على سيقان قصيرة وبطنين نفختهما البيرة تحت قمصان قصيرة سوداء ورسوم خضراء وزرقاء على الأذرع، وأقراط الآذان.

«آه، لتلك الوشوم! وهذه الحلقات في شحمات الأذن أو في المناخير! يا للهاشية! يحملان علامة من ينتمي إلى قطيع من البقرات! يا للبؤس...».

كان هو، بالبداهة، يوحي بعالم مغاير، بجسمه العصبي وقد أظهرت مزاياه أطقم فُصلت على قياسه، هذا الجسد العريق بحركات السريعة والمقتصدة؛ إنه عالم المال في أعلى طبقاته، عالم المخاتلين المثْلجين الذين، وإن قتلوا، يبقون مرهفين ولبقين.

وتلك الرغبة في الظهور أمام الملأ! هل نحتاج إلى أن نعرف أن هذين الاثنين يمارسان الجنس معاً؟ هذا يعني إرغام المواطن على أن يتخيل أن هذين العنبرين من الحيوانات يتسافدان، وهذا لا يُثير التعاطف مطلقاً!».

نفخ مستهجناً، معبراً عن انزعاجه.

حين رأى نظرة غيّوم المتسائلة موجهة إليه، أدرك أنه نسي أن ينطلق عندما تحول الضوء إلى الأخضر ــ وهذا يعني، في نظر الطفل، معيار القيادة الجيدة ــ فتصرف.

تابعت السيارة رحلتها بمسيرة شيخ من مجلس الشيوخ حتى المدرسة.

نزل فرنسوا ــ مكسيم من عربته وقبَّل أولاده متمنياً لهم يوماً حسناً، ونظر إليهم وهم يصلون إلى باب المدخل وانتظر أن يختفوا في البناء، وهو فخور بأسرته. ثم ركب سيارته وسار بسرعة أكبر حتى وصل إلى غابة «كامبر».

توقف في شارع «فير_شاسور»، على حافة الغابة وأمسك حقيبته الرياضية. اجتاز بحماسة الباحة المبلطة لمركز الفروسية الذي يُدعى «لاسيل رويال». كان صهيل الجياد والحفيف وحمحمة الأحصنة وضربات حديد الحوافر وكل تلك الفوضى المتوترة تفتنه؛ وحين لم يكن يتذوق إلَّا العطور المرهفة، كان يعشق رائحة الروث البني، المبشرة بمتعه.

حيّا عاملين مرهقين وقصد غرفة تستعمل مخلعاً للملابس ومستودعاً وغرفة مهملات. هناك خلع ملابسه وغيّر جوربيه، ولبس بنطال فارس وكنزة وجزمتين صنعتا على قياسه.

وبينما كان فرنسوا_مكسيم يبحث عن مشجب ليعلق عليه طقمه، شاهد إدمون بلاترز، الفارس، في الغرفة.

_ طاب يومك فرنسوا_مكسيم!

_ طاب يومك إدمون.

_ إنك تسليني بممارستك لعادات رجل عانس مهووس.

ارتعشت كتفا فرنسوا_مكسيم. لم يكن يكره نبرة عدم الكلفة وحسب، لكنه يمقت كل سخرية تكون على حسابه.

تابع إدمون استهزاءه قائلاً:

_ لماذا هذا الهوس بتغيير ملابسك؟ ألا يمكنك الوصول هنا بلباس الفارس، شأن كل الناس؟

_ أولاً في نهاية جولتي، لا أعود إلى بيتي، لكنني أذهب إلى مصرفي حيث أعمل حتى الساعة العشرين.

حرص على أن يُشدد على كلمة «مصرفي» لأنه كان يعرف أن لإدمون مشاكل مالية متكررة. ثم استدار وأضاف بهدوء:

_ قل لي، إدمون، حين تذهب إلى المسبح، تخرج من بيتك بسروال السباحة؟

وقد وبّخ، خرج إدمون متذمراً.

أنهى فرنسوا_مكسيم ترتيب طقمه بطريقة رائعة وكذلك جوربيه، وقد انزعج من ملاحظته أن الرجال بمجرد أن يكونوا في مخلع الملابس فإنهم يسمحون لأنفسهم بعدم الكلفة.

كان على وشك مغادرة الغرفة حين لاحظ أن الرسالة التي التقطها من علبة بريده قبل نصف ساعة، قد تركها تسقط منه، ثم استردها ودسها في جيبه وهو يَعِد ذاته بقراءتها خلال نزهته.

اتجه نحو مرابط الأحصنة وحيّا مدير الاصطبلات ثم التقى بيلّا، فرسه الصهباء التي حسّها خادم المركز وأسرجها ودس الشكيمة في فكها. داعب قصبة أنف هذا الرأس المرهف على الكتفين العريضتين. أغمضت بيلّا عينيها إثر المداعبة.

أخيراً، امتطاها؛ وكانت الفرس تصفق الهواء بذيلها المنتصب نحو الأعلى، وغادروا مركز الفروسية.

في تلك الساعة كان قلّة من المتسكعين يسيرون في ممرات الغابة. ثمة امرأة مسنة تجر كلباً صغيراً شُلَّ في طرف رسنه. وعلى مسافة قليلة، كان هناك شاب عربي فرح ينزّه مجموعة كلاب فكَّ قيدها، وهي كلاب صيد يتسلمها صباحاً ثم يعيدها إلى أصحابها.

بعد أن سار بمحاذاة ملاعب كرة المضرب وتجنب ساحة الخيل القديمة، دخل طريقاً مخصصاً للخيول، ثم ترك غابة «كامبر»، وذلك القسم المنحصر في المدينة، ووصل إلى غابة «سوان» وشرع في العدو وهو فوق ظهر فرسه.

كانت فخذاه ترتجان باحتكاكهما بكتلة العضلات، وفكان ينجح في أن ينسى ذاته على السرج ويذوب مع بيلّا بينما يصدر أوامره من دون صرخة واحدة، بصوت ثابت، خفيض بعض الشيء.

في المفرق، بعد نظرة حوله ليتيقن من أن أحداً لا يراه، ترك طريق الخيل سالكاً ممراً خاصاً للمشاة.

بثلاثة منعطفات ضيقة، نفذ بين الأشجار ولمح أشكال رجال وحيدين يهيمون، وأيديهم خلف ظهورهم.

تقدم، ثم، على بعد مئة متر من المتنزهين الأوائل، قفز أرضاً وربط فرسه إلى جذع شجرة. مشى بعد ذلك خمس خطوات أو ستاً في الغابة ثم استند، بلا مبالاة، إلى جذع شجرة سنديان قصيرة.

بعد دقيقة، برز شاب في العشرين من العمر، بقميص أبيض قصير. قبضتاه مدسوستان في جيبَيْ بنطاله الجينز، يتأمل الحصان، لمح صاحبه فاقترب وهو يهز ساقاً على الأخرى، متردداً في قطع الأمتار التي تفصله عن فرنسوا ــ مكسيم.

ألقى عليه هذا الأخير نظرة قاتمة.

تردد الصبي، مرتاعاً، غير مقتنع بإمكانية متابعة طريقه. حينذاك دس فرنسوا ــ مكسيم أصابعه تحت كنزته، وداعب صدره بشكل شهواني، متلقياً، على وجهه، شعاع الشمس الذي كان يثقب أوراق الأشجار، وهو في حالة نشوة، كأن الشاب لم يكن موجوداً.

تسمر الشاب في مكانه وحدق إلى فرنسوا ــ مكسيم بشهوة وبلّل شفتيه غير مرّة، ثم تأكد من أن لا أحد يتجه نحوهما ولحق به.

التصق حوضاهما، وأمسك الشاب بشق بنطال فرنسوا ــ مكسيم وفتحه.

ومن دون أن ينبسا ببنت شفة، اكتفيا بالتنهدات التي أظهرت درجة سرورهما وكل واحد منهما يهتم بعضو الآخر التناسلي.

كان فرنسوا ــ مكسيم يراقب الدرب. فسواء كان هو الذي يتشهى أو المُشتهى، فلقد كان يعشق التوتر الذي يضيفه الخطر: ليس لأنه يستسلم إلى غراميات ممنوعة وحسب بل لأنه يمارسها في الهواء الطلق، وهذا يضيف متعة انتهاك الأعراف والقوانين. يا للتناقض مع غرفة نومه الوثيرة حيث يجد سِفْرينّ لعناق لم يعد مُنتظراً! كان هناك هواء الطبيعة المنشط وروائح التربة السوداء والخلنج إضافة إلى الربيع والفريسة واحتمال ظهور دخيل. وكان هناك كذلك خطر من أن يظهر فجأة حارس الغابة. وحتى رجل شرطة. من يدري؟

أشار فرنسوا ــ مكسيم، بواسطة حشرجة وتسارع في تنفسه بأنه سيصل إلى النشوة. فهم الشاب ذلك ووصل إلى الهدف في الوقت ذاته.

هدأا وارتاحا.

طار شحرور في الأحراش.

أحست بيلّا أن صاحبها عائد إليها، فصهلت مطولاً، بنفاد صبر لتنشط قوائمها.

اغتبط فرنسوا ــ مكسيم بهجة: سيمضي يوماً جميلاً.

نهض الشاب ورتب ملابسه راسماً ابتسامة على ثغره.

أجابه فرنسوا ــ مكسيم بنظرة لطيفة.

ثم تمتم الشاب قائلاً:

ــ أدعى نيكوس.

أطبق فرنسوا ــ مكسيم جفنيه لحظة؛ كان يكره ذلك الهوس الأبله الذي يعتري الرجال في تقديم أنفسهم. إن ما هو رائع في العلاقات العابرة، هي سرعتها؛ فالأجساد تنتشي بعيداً عن الملهاة الاجتماعية.

حدق إليه الشاب بعينين واسعتين متوسلتين، تنتظران جواباً.

همس فرنسوا ــ مكسيم قائلاً:

ــ أنا، أدعى مكسانس.

تلقى الشاب الاسم شأن هدية ثمينة.

أمسك نيكوس بيد فرنسوا ــ مكسيم وهمس بقسوة:

ــ إلى اللقاء، مكسانس.

ــ سلام!

اتجه فرنسوا ــ مكسيم نحو بيلّا وطبطب على أنفها وفكها ثم صعد فوق السرج وابتعد؛ كان يكره الحنان بعد النشوة؛ فذلك الضرب من الحلاوة يمكن أن يُفسد بالتالي المتعة التي أحسها. أما المشاعر، فعنده منها في البيت، كمية كافية مع سِڤرينّ والأولاد، ويجب عدم خلط الأشياء.

بعد أن عاد ومطيته في ممرات الفوارس، شعر بالارتياح ونسي ما عاشه تواً، فراحت ساقاه الطويلتان تلتفان على جانبي الحيوان وفكر في عمله. أنشأ بعض المخططات والاستراتيجيات عن الأمور التي هي قيد التداول واغتبط من صفاء ذهنه وابتهج من روعة النهار الذي سيعيشه.

وبسبب زاوية المغلف من الورق المقوىً والتي كانت تنغرز في حوضه، لاحظ أنه لم يفتح رسالة الصباح. فض ختمها وألقى عليها نظرة سريعة:

«هذه الكلمة لمجرد الإشارة إليك بأنني أحبك. التوقيع: أنت تعرف من».

أطلق ضحكة عذبة.

ــ آه، سِڤرينّ...

ابتسم وهو ينظر إلى الأفق وأعلن بصوت عالٍ إلى أغصان الممرات:

ــ ولكن، أنا أيضاً، أحبك، عزيزتي!

دس البطاقة في جيبه وهو سعيد، وقرر أنه سيأخذ عشرين دقيقة من وقت عمله ليشتري لها تلك الحقيبة الثمينة جداً التي كانت قد لاحظتها، في شارع لويز. في نهاية الأمر، إنها تستحقها حقاً.

٧

ـ مئتان واثنان وأربعون يورو! هل تدركين ذلك؟ لقد سلَّفته مئتين واثنين وأربعين يورو كي يصنع لي طاولة صغيرة بالقرب من سريري!

سحبت الآنسة بوفير خيط تطريزها، وراحت تصغي بأذن شاردة إلى شكاوى مرسيل؛ وقد حرصت على إتقان الوردة التي طرزتها، فاكتفت بشبه إصغاء متردد، وهي تعرف أنه مهما حدث، فإن ثرثرة حارسة البناية تتبع محورين: الشكوى والتحدث عن المال.

ـ آنستي، إنني بحاجة إلى تلك الطاولة بالقرب من سريري! لأنني غيَّرت فراشي، بسبب صديقي الأفغاني. مئتان واثنان وأربعون يورو، سلمتها إلى ابني. مئتان واثنان وأربعون يورو، لا شك أنه مبلغ كبير لأربعة أطراف خشبية!

هزت مرسيل ثنايا المخمل الثقيلة ثم ضربتها، وهي تعاقبها على جذبها الغبار.

ـ مئتان واثنان وأربعون يورو بين يديه، ويقول لي إن لديه شيئاً آخر يعمله الآن.

ـ أي شيء، عزيزتي مرسيل؟

ـ يتزوج!

وقد استشاطت مرسيل غضباً، أعادت الستائر إلى مكانها، على الحائط. ثم اجتازت الغرفة وهي تبدو حقاً كجاموس هائج.

أدركت الآنسة بوفير ما كشفت لها مرسيل عنه، فقفزت قائلة:

ـ سيتزوج ابنك؟

ـ أجل. ولهذا السبب لم يعد هذا السيد الصغير يقوم بتلك الأعمال اليدوية البسيطة. آه، أستطيع دائماً أن آمل في الحصول على طاولتي الصغيرة... وقد أضعت مئتين واثنين وأربعين يورو من دون رجعة.

كررتْ أيضاً «مئتين واثنين وأربعين يورو» واختفت في المطبخ.

أرادت الآنسة بوفير اللحاق بها لكنها عدلت عن ذلك، وقد فضَّلت إنهاء

تو يجة وردتها الحمراء بلون فخذ حورية ترتعش، وانتظرت بخاصة أن تعود مرسيل من تلقاء ذاتها وهي ترغي وتزبد.

رفعت الآنسة بوفير عينيها إلى السماء. كيف تُنشئ مرسيل قائمة أفضلياتها؟ أن تصرف مئتين واثنين وأربعين يورو، على طاولة صغيرة، قبل زواج ابنها؟ يا لفكرها المحدود! إنها لا ترى الأشياء إلّا على صعيدها كامرأة صلبة، قصيرة على قائمتيها، بجبين منخفض.

ـ سيرجيو! سيرجيو!

تنهدت الآنسة بوفير قائلة:

ـ أجل، عزيزي، أنت على صواب.

ألح الصوت بقوله:

ـ سيرجيو!

اقتربت الآنسة بوفير من الببغاء المتقد، فتحت القفص وأدخلت ذراعها وعرضت عليه الخروج.

أمسك الطائر بأصابعه الثماني بنصر الآنسة بوفير، واستسلم لإخراجه من قضبانه وفرك جسمه بكنزتها الوبرية.

ـ سيرجيو!

تضاعفت المداعبات؛ كان الحيوان المعقوف المنقار والنهم لمداعبات صاحبته يرفرف تحتها كأن كل لمسة تزيد شهوته.

ـ أنت تفهمني، كوبرنيك!

رقص هذا الأخير وهو يضع قائمة فوق الأخرى.

في تلك اللحظة، ظهرت مرسيل ثانية، وقد تهدلت شفتها السفلى، وجحظت عيناها، ودخلت رقبتها في جذعها الصلب، فعادلت جاذبيتها كلب نزال.

ـ أجل، تصوري أن هذا الشقي يتزوج. ومن دون أن يطلب مني شيئاً.

ـ ألست سعيدة بذلك؟

ـ بأي شيء؟

ـ لا أعرف... أن يكون عاشقاً... أن يكون قد وجد أخيراً امرأة حياته...

ـ تلك، لقد بحث عنها. هل وجدها...؟

ـ ألا تروقك؟

ـ لست أدري. لم يقدمها لي.

ـ كيف؟

ـ أجل. لا يريد أن يَحدث ذلك في بيتي. إنه يرغب في أن يتم الأمر في الخارج.

أيدت الآنسة بوفير موقف الابن. يُفضل عدم إخافة الشابة باصطحابها إلى المقصورة التي تسكنها مرسيل. تفوح من ذلك المكان الحقير رائحة الكرَّاث أو شوربة الملفوف؛ كانت الزينة فيها تقتصر على تكديس تحف كريهة، من ديكة خشبية وكلاب صغيرة خزفية وقططة صغيرة وبرية ورزنامات البريد وموازين حرارية من جبال «الفوج» وعصافير سويسرية؛ وأغطية مشغولة بالمخرز تملأ الأرائك، والصوان والطاولات؛ أما نظافة تلك الأشياء فتبدو مريبة، بالرغم من أن مرسيل تحسن تنظيف بيوت الآخرين. وإن كانت الخطيبة من بيئة فقيرة فقد تتمتع بذوق رفيع.

صرخ الببغاء الذي أهملته لحظة الآنسة بوفير:

ـ سرجيو!

عادت إلى مداعبة رأسه القاسي.

تمامها لأنها تعتبره مهماً لوجوده في وسط البيت.

ـ إن طائرك كوبرنيك مهووس.

ـ عفواً؟

مكتبة
t.me/t_pdf

ـ إنه يكرر طوال الوقت «سيرجيو».

غضبت الآنسة بوفير:

ـ ليس كوبرنيك مهووساً لكنه يستشعر عن بعد.

ـ عفواً؟

ـ إنه يستشعر عن بعد.

بقيت مرسيل بلهاء لأنها لم تفقه ما حسبته اختصاصاً طبياً.

ـ انظري!

وضعت الآنسة بوفير كوبرنيك بسرور على المجثم بالقرب من التلفاز.

ـ إنه يدرك ما أفكر فيه.

ابتعدت وجلست أمامه على الأريكة، على بعد ثلاثة أمتار منه وتصفحت مجلة ثبَّتت نظرها عليها وهي تخفيها عنه.

بعد عدة ثوانٍ، صاح الطير:

ـ آه، يا لها من سيارة رائعة!

نهضت الآنسة بوفير وهي مغتبطة، وبسطت مجلتها إلى مرسيل: كانت إحدى الصفحتين تعرض دعاية لسيارة سباق.

دمدمت مرسيل بتأفف وهي تنظر إلى الببغاء بحذر:

ــ شيء لا يُصدق.

ــ والآن سيحذر ما أبغي القيام به.

مشت في الغرفة، ترددت مرتين، ثم توقفت، وقد خطرت على بالها فكرة.

ردد الببغاء على الفور صارخاً:

ــ هاتف. درينغ. درينغ. هاتف.

في الوقت ذاته، أرت الآنسة بوفير مرسيل أنها قد أمسكت هاتفها المحمول في يدها اليمنى.

قطبت مرسيل وجهها. وإن لم تشك بمهارات الحيوان، لكنها وجدتها مريبة.

تقدمت الآنسة بوفير بانتصار قائلة:

ــ لقد عددت الكلمات التي يعرفها: إنها تبلغ أربعمئة كلمة.

ــ أربعمئة كلمة؟ لا أدري إن كنتُ أنا أعرف أربعمئة كلمة.

أطلقت الآنسة بوفير ضحكة عالية، أقرب إلى الهستيرية.

يدَّعي اللغويون أن ثلاثمئة كلمة تسمح للمرء بأن يتدبر أمره في لغة ما.

تفحصت مرسيل الببغاء بفك مشدود وعين غاضبة.

ــ يتدبر أمره؟ إذاً، فالكلمات التي يعرفها أفغانيَّ أقل مما يعرف ببغاؤك.

قررت الآنسة بوفير، وقد سُرت من انتصار ببغائها، أن تبسط رحمتها فربتت ذراع مرسيل.

ــ مرسيل، لماذا تقولين «أفغانيّ»؟ يتخيل المرء أنك تتحدثين عن كلب.

ــ وماذا في الأمر؟ أحب الكلاب الصغيرة أيضاً. كان عندي اثنان. كلب بكيني[1] وكلب من «بيرن». يا لسوء الحظ: لقد ماتا كلاهما مسممين. لم يسعفني الحظ مع حيواناتي مطلقاً.

خفضت الآنسة بوفير رأسها، حرصاً على إخفاء أسباب موتهما عن مرسيل: لم يكن بعض المستأجرين في البناية يتحملون هذين الكلبين القذرين والصاخبين فدسوا لهما السمَ في كتل اللحم ثم قدموها لهذين البائسين النهمين.

---

(١) pékinois . هو كلب صغير ذو شعر طويل - (المترجمة).

تابعت بصوت عالٍ قائلة:

ــ إنني ألح: عليك ألا تقولي «أفغانيّ». إن لهذا الشاب اسماً.

ــ كونشا كول؟

ــ كيف؟

ــ كونشا كول. اسمه كونشا كول.

ــ آه...

ــ وإنني لا ألفظ لك كنيته لأنني لم أنجح حتى الآن في ذلك.

ــ أجل، ليس بالسهل... وهل لهذا معنى؟

ــ كونشا كول؟

ــ غالباً، تلك الأسماء التي هي في منتهى الغرابة على آذاننا الأوروبية تعبر عن أشياء رائعة وشعرية وغير منتظرة.

ــ يبدو أن ذلك يعني «باقة زهور».

بقيت الآنسة بوفير فاغرة الفم: من الصعب أن تنسج علاقة بين باقة زهر وهذا العملاق البني اللون بصدره العريض وعينيه الغاضبتين وشعر جسمه الكث والذي يشارك البوابة في سريرها. رفعت مرسيل كتفيها.

ــ لذا أفضل أن أقول «أفغانيّ».

انتهت المناقشة فرجعت إلى المطبخ.

انكمشت الآنسة بوفير على ذاتها. «بئس الأمر بالنسبة إلى مرسيل، فهي لا تستحق أن تعرف...».

بعد الدليل الذي قدمته عن الاستشعار عن بعد مع كوبرنيك، توقعتْ سؤالاً من مرسيل: ما دام الببغاء يصرخ باسم سرجيو أربعين مرة في اليوم، فمن هو سرجيو؟ أجل، منذ دقيقة، كانت قادرة على الإفضاء بسرها لأن هناك لحظات يود المرء فيها أن يبوح بما خبأ دائماً، وأن يفشي الأسرار التي حرص على إخفائها منذ زمن طويل، لأنها تحددنا وتختلط بهويتنا وتسمح لنا بأن نؤكد أن: هذا أنا. لحسن الحظ، منعتها الظروف من الكشف عن مكنونات نفسها.

في تلك اللحظة، ظهرت مرسيل فجأة، بجبهتها إلى الأمام، وبقبضتيها المغلقتين.

ــ من هو سرجيو؟

ــ عفواً؟

ـ ببغاوك، هنا، المريض النفسي الذي يحزر أفكارك، إنه يكرر سرجيو: أهذا يعني أنك تفكرين بسرجيو طوال النهار؟

نهضت الآنسة بوفير، وقد احمرّ وجهها، كأنها قد فوجئت بين ذراعي نذل، فتقدمت بضع خطوات وهي تُدير تنورتها وجلست من جديد ورتبت ثنيتين أو ثلاثاً وتأكدت من أن شعرها يحتفظ بالشكل الذي صففته بالمُثَبِّت، ثم تمتمت بعينين تبرقان:

ـ كان سرجيو حبي الأول.

ـ صحيح؟

اقتربت مرسيل، باهتمام.

ـ كيف يعرف ذلك؟

ـ من؟

ـ الببغاء؟

نظرت الآنسة بوفير إلى طرفي حذاءيها الخفيفين، وهي مرتاحة في حرجها وسعيدة بالاهتمام الذي أظهرته نحوها مرسيل.

ـ حين تسلمت كوبرنيك، تلك هي الكلمة التي علمته إياها.

ـ هل سرجيو هو الذي أهداكِ كوبرنيك؟

ـ آه إلهي، كلّا، لقد وصل كوبرنيك بعد سنوات كثيرة.

ـ أوف... كنتُ أحببتُ أن يهديني حبيبي، وهو يتركني، ببغاءً يردد اسمه.

اغتاظت الآنسة بوفير.

ـ ماذا تروين، مرسيل؟ سرجيو لم يتركني.

ـ آه، عفواً.

ـ لقد مات!

ـ مات؟

ـ أجل، طبعاً! غرق سرجيو وسط البحر، في عرض بحر قبرص. غرق مركبه الشراعي.

ـ هل كان وحده؟

ـ لم أكن أستطيع، ويا للأسف، أن أنمِّي هذا الشغف معه: إنني أصاب بدوار البحر. كم أتحسر على ذلك اليوم... كنتُ أفضل أن نموت معاً.

لقد تخيلت الآنسة بوفير ألف مرة تلك اللحظة، وهي واقفة على سطح المركب

بالقرب من سرجيو، والموجة القاتلة تجرفهما... ثم تصوَّرتهما، جسدين تائهين وسط العاصفة، وقد تعلق كل واحد منهما بالآخر، ثم، وقد وعيا أنهما مشرفان على الموت، تبادلا القبلات طويلاً قبل أن يغرقا. هكذا، لن يكونا قد ماتا غرقاً، لكن من قبلة بطيئة وطويلة.

ارتعش جفناها، وقد اجتاحتها الحسرات. أمسكتْ مرسيل بمعصمها بين راحتيها الخشنتين.

ـ لا تبكي، آنستي.

حررت تلك الجملة الآنسة بوفير، فأطلقت العنان لدموعها التي أغرقت وجهها. كانت سعيدة في أن تعرض هذا العذاب أمام الملأ ومغتبطة، بألا تبكي، ولو مرة واحدة، وحدها في زاويتها.

وجهت مرسيل إليها كلمات ودية وأضافت ضربات خشنة بكفها، وهي محرَجَة.

أخيراً، زفرت الآنسة بوفير بقوة، هذا يدل على رغبتها في التماسك.

تنهدت مرسيل:

ـ يا للأسف، لم يتح لكما الوقت للزواج أو لإنجاب الأطفال.

ـ آه... هل كان من المفيد إنجاب يتامى؟

حاولت مرسيل أن تغير أفكارها قائلة:

ـ يا للغرابة، لا أفكر بحبي الأول مطلقاً. أتذكره جيداً، لكنه مضى.

ـ أما أنا، فلا أنسى.

ـ ما يمنعني من التفكير فيه، هم هؤلاء الذين جاؤوا بعده.

ـ ماذا تظنين، مرسيل، أنه لم يكن لي سوى رجل في حياتي؟

ـ أجل... كنتُ أحسب... بسبب الببغاء الذي يردد اسمه...

ـ لقد التقيت رجالاً مرموقين، كثيراً من الرجال المرموقين.

ـ هذا أكيد، آنستي. فأنت جميلة ورشيقة وأنيقة، لا شك أنك تجذبين الرجال. هذا مؤكد.

قدرت الآنسة بوفير هذا الإطراء الصادق الذي قالته مرسيل. كانت توافقها الرأي لأنها تجد نفسها جميلة حقاً. ومحافظة على صباها بالرغم من أعوامها الخمسة والخمسين.

وقد اطمأنت على مفاتنها، عادت إلى مسار اهتماماتها:

ــ اه، إنني أجذب الرجال أحياناً، أما هم، فهل يجذبونني؟

أومأت مرسيل بإشارة كمن فهم شيئاً.

ــ آه، إذاً، أنت سحاقية!

ارتجفت الآنسة بوفير.

ــ على الإطلاق!

نظراً لعزوبيتها المزمنة، تصور بعضهم أنها تفضل النساء على الرجال.

ــ حقا كلّا مطلقاً! يا لغرابة الفكرة!

ــ لقد قلتِ تواً إن الرجال لا يجذبونك. أستنتج من ذلك: أنك سحاقية.

ــ كلّا، لا تغريني النساء.

لاحظت مرسيل أن صدغي الآنسة بوفير محمرتان وأن عينيها جافتان وأنها تختنق غيظاً واستنكاراً، فأشاحت بوجهها وألقت نظرة إجمالية على الغرفة ووجدت كوبرنيك يحك رقبته فكادت أن توحي قائلة: «إن الببغاوات وحدها تجذبها». لكنها، بالرغم من بساطتها، شعرت بأنها ستجرحها.

تابعت الآنسة بوفير قولها:

ــ في الواقع، إنني أحترس من الرجال الذين يأتون نحوي.

ــ أما ذلك، فيدهشني.

ــ لا أستطيع أن أمتنع عن أن أستخلص أنهم ذوو مصلحة.

ــ بأي شيء...

ــ بالمال.

همست الآنسة بوفير بالكلمة بصوت منخفض، كأنها خطرة.

وافقت مرسيل برأسها. ففي الحي، تحيط أسطورة بالآنسة بوفير وهي تقول إنها أكثر ثراء مما تظهره شقتها أو نمط حياتها، فهي من أصحاب المليارات وتحرص حرصاً كبيراً على أن تبدو بمجرد بحبوحة فقط. تلك المُسارة المفاجئة تؤكد ما تنشره العقول الأكثر نباهة.

ارتجفت مرسيل من الانفعال. بكلمتين، كبرتْ سيدتها في عينيها: من بوحها بسرين، أحدهما عن حبها الأول والآخر عن ثروتها، وقد تأثرت بالثاني.

ــ كيف يمكنني أن أعرف أن ما يهمهم هو مالي؟ لو كنت فقيرة، لصدقتهم بكل رضى.

وافقت مرسيل ثم صرخت:

ـ لو كان عندي مال، لما أزعجني أن يزداد انجذاب الرجال نحوي.

وجهت لها الآنسة بوفير ابتسامة ساخرة تعني بها « إنك لا تعرفين جيداً عما تتحدثين».

لم تلح مرسيل وعادت إلى المطبخ حيث تحرص فيه على القيام بمهامها الصباحية.

حين حملت إلى الآنسة بوفير كومة رسائلها نعق الببغاء:

ـ البريد!

صعقته مرسيل بنظرتها.

ـ حسناً، سأتركك، آنستي، وسأمر بعد الظهر.

ـ موافقة، عزيزتي مرسيل. إلى اللقاء.

ما إن قطعت الغرفة، حتى خنخن كوبرنيك قائلاً:

ـ إلى اللقاء، عزيزتي مرسيل، إلى اللقاء.

فكت مرسيل صدريتها بحركة سخط ووقفت على الباب قائلة:

ـ لا أحب أن أعيش مع حيوان يفوقنا ذكاءً.

رفعت الآنسة بوفير، مغتبطة، رأسها عن فواتيرها.

ـ ليس كوبرنيك أكثر ذكاءً منا.

هزت مرسيل كتفيها:

ـ بلى.

ـ كلَّا.

ـ هل أنتِ قادرة على أن تحزري ما يفكر فيه الآخرون؟

ـ كلَّا، لكن...

ـ إذاً!

وبعد تلك الكلمة غادرت مرسيل الشقة.

بينما كانت المرأة العاملة تغلق الباب، فتحت الآنسة بوفير مغلفاً يحوي ورقة مطوية كُتب عليها سطران:

«هذه الكلمة لمجرد إعلامك بأنني أحبك. التوقيع: أنت تعرفين من».

كانت تكره هذا النوع من الدعايات، تلك التي تخلق سراً ثم تنميه، وهي

طريقة للاستئثار باهتمام الناس: ستتبعه رسائل مختلفة إلى أن يكشفوا عن البضاعة التي تُشترى. رمت الرسالة بغيظ في درج المسودات، لتستطيع استعمال الورقة ثانية. حمحمت وانحنت من جديد، بانتباه فوق حساباتها، وذلك أدب يروق لها أكثر.

نزلت مرسيل السلم من جهتها، والخرقة في يدها، ماسحة الدرابزين في طريقها.

وقد دفعت الباب الزجاجي المغطى بالستائر المطرزة، تبينت صديقها الأفغاني مسترخياً على الأريكة يصغي إلى أخبار بلده من مذياع صغير جداً. تساءلت لثانية، أليس من الأفضل أن يكون في الخارج ليبحث عن عمل، ثم وقد لاحظت كم هو رجولي حتى أن سنواته الثلاثين تبدو أربعينية، فكرت أنها محظوظة جداً لأنها جذبت، وهي في الخامسة والخمسين عشيقاً شاباً، قوياً وأحست برعشة داخلية: فمن محادثتها مع الآنسة بوفير، استنتجت أنها هي البوابة التي بلا مال، يحبها صاحبها الأفغاني بطريقة مجردة من المصلحة.

فتحت الرسالة الوحيدة التي تسلمتها:

« هذه الكلمة لمجرد إعلامك بأنني أحبك. التوقيع: أنت تعرفين من».

جلست مرسيل بتثاقل وتعب وفركت جبينها وهي تفحص المغلف.

من كتب تلك الرسالة؟ ابنها؟ هل يسعى لتسامحه من أجل المئتين والاثنين والأربعين يورو والطاولة الصغيرة قرب السرير التي قد يطول انتظارها لها...؟ أو مُغازِل؟ أو مغازِل قديم؟ أهو بول؟ أو رودي؟ أو مساعد الصيدلي؟

ليس للأمر أهمية. كائناً من كان، فلم يأتِ في الوقت المناسب.

خلصت إلى أنه لم يعد هناك مكان. العام الفائت، أجل، أما الآن، فلقد فات الوقت: عندي صاحبي الأفغاني».

رفعت رأسها ونظرت إلى عشيقها ووبخته بحنان كي يبعد قدميه عن الوسائد.

٨

ـ هذا لا يُحتَمل!

ـ ...

ـ بصراحة، كان يجب إعلامي مسبقاً.

ـ ...

ـ لقد قلقتُ.

ـ ...

ـ قلقتُ كثيراً!

ـ ما كان عليكِ أن تقلقي...

ـ إنني هكذا: أقلقُ. إننا، أنا وأنت، لم نرَ بعضنا كثيراً هذا الأسبوع، وتسهر يوم السبت بدوني.

ـ أفعلُ ما أريد.

ـ طبعاً.

ـ لسنا متزوجَين!

ـ كلّا، ولكن...

ـ إذاً. أسهر مع رفاقي يوم السبت إذا رغبت في ذلك.

ـ حسناً، أنت حر. ولكن يمكنك أن تُعلمني.

ـ أعلمكِ بأي شيء؟

ـ بأنك تسهر مع رفاقك.

ـ ولماذا؟

ـ لماذا!

ـ أجل، لماذا؟

ـ لأنني توقعت أن أسهر معك يوم السبت.

ـ لم أعدك بذلك. هل وعدتك بذلك؟ أقلتُ لك: «ألبانّ، سأسهر معك يوم السبت؟».

ـ أوه... كلّا.

ـ حسناً!

ـ لم تقل لي ذلك لأن هذا بديهيٌ

ـ آه؟

ـ بالطبع نعم، نظراً لما بيننا...

ـ هل يعني أن ما يحدث بيننا يلزمني أن أخصص لك سهرات السبت حتى نهاية حياتي؟

ـ أتمزح؟

ـ كلّا.

ـ إنني تعيسة حين لا تكون هنا، أرغب في القفز من النافذة.

ـ ألبانّ، ألفت نظرك إلى أننا منذ أربعة أسابيع لم يكن أحدنا يعرف الآخر!

ـ الحب من النظرة الأولى! إنه موجود، الحب من النظرة الأولى!

حل صمت في ساحة آريزو. كانت الببغاوات والدرّات وحدها في الطوابق العليا تتابع طقوس تواصلها، غير مبالية بالمصائب البشرية.

كان المراهقان ينحنيان إلى الأمام، وقد جلسا على مقعد الحديقة العامة، وتقوست أكتافهما، متجنبين النظر بعضهما إلى بعض، وشغوفين ومثقلين معاً بالتعقيدات التي حملتها إليهما علاقتهما الحديثة. أطلقت ألبانّ كلماتها الأخيرة عن حبها بنبرة أقرب إلى الاستياء منها إلى الحب. أما كانتان، فقد انطوى على نفسه؛ وجسمه الضخم الجديد لم يكن بعد حسن التناسق ـ شكّلت قدماه العريضتان والطويلتان قاعدة تفوق أبعادها جذعه الضيق ـ وقد تكور ككتلة عدائية؛ لم يكن ينقصه إلّا أشواك القنفذ.

أدركت ألبانّ بتلبك، وقد أصابتها تشنجات عصبية أنها لم تتصرف بحكمة.

ـ أنا، على كل حال، كنتُ أتوقع السهر معك يوم السبت... فلم أخطط لأي شيء آخر. بشكل عام، لا ألتزم بأي ارتباط يوم السبت من دون إعلامك.

ـ إنني أهذي!

ـ بلى، هذا صحيح. أنا لا أفعل ذلك مطلقاً.

ـ حسناً، أنتِ هي أنتِ وأنا هو أنا. اتفقنا؟

ــ ألم نمضِ أوقاتاً رائعة معاً، في سهرات السبت، في المرات السابقة؟

ــ بلى. لكننا لسنا مرغمين على إعادة ذلك.

ــ آه حسناً! أتضجر في صحبتي؟

ــ ألبانّ...

ــ أوه، قل ذلك. قله. ها قد تم الأمر: لقد قلتَه.

ــ لم أقل شيئاً.

ــ حسناً إذاً، قل العكس.

ــ لا أرى كيف أقول عكس ما لم أقله.

ــ آه لقد سئمت من الرجال! إنني مستعدة أن أعطي كل شيء، كل شيء، وأنتم، لا تعطون فُتاتاً.

ــ الرجال! من هم الرجال؟ كم يبلغ عددنا؟

ــ واحد.

ــ آه نعم؟

ــ لا يوجد إلّا أنت.

ــ حقاً؟

ــ إلّا أنت...

ــ هراء!

ــ أقسم لك برأس أمي. آه، كانتان، أمضيتُ السبت مساءً في البكاء. أجل، وأنا مسترسلة في البكاء.

ــ كان عليك ألّا تبكي...

ــ بلى، وجب عليَّ ذلك. بكل بساطة لأنني أحبك...

ــ في الحال، الكلمات الكبيرة!

ــ تماماً، إني أحبك. وإن كان ذلك لا يهمك، فأنا أحبك. أطاب لك ذلك أم لم يطب، إني أحبك.

فوق المقعد، كصدى لانفجار الشابة، أطلق ببغاء نقيقاً أبحَّ، فظاً وشنيعاً.

عضت ألبانّ على شفتيها. مرة أخرى، اتخذ حبها نبرة الغضب. لماذا لا تنجح في التعبير عن مشاعرها إلّا بصيغة الغيظ، شأن قِدر يُصفِّر من البخار؟

ــ من كان، في سهرة السبت؟

ـ رفاقي.

ـ أياً منهم؟

ـ هل هذا يهمك؟

ـ كل شيء يهمني حين يتعلق بك. هل كان هناك فرانك؟

ـ بيير ورفائيل وتوماس... أي مجموعتنا.

ـ ثم من؟

ـ ...

ـ فتيات؟

ـ هل تغارين؟

ـ كلَّا، إنني أستعلم.

ـ إنك تغارين!

ـ قل لي من كان هناك وسأرى إن كنتُ محقة في غيرتي.

ـ لم يكن هناك من فتيات.

ـ آه أجل؟ سهرتم في ملهى للمثليين أو ماذا؟

ـ لم يكن هناك فتيات تعرفينهن.

ـ في المقابل، أنت تعرفهن حق المعرفة!

ـ ألبانّ، لقد التقينا منذ أربعة أسابيع، أجل، لا بد أنني صادفت أناساً كنتُ أعاشرهم قبلك.

ـ فتيات تلتقي بهن... فتيات ربما لم تتركهن...

ـ اللعنة، كم أنت مزعجة!

ـ أنا مزعجة؟

ـ أجل. ودبقة!

ـ دبقة؟

ـ إنكِ تثيرين أعصابي بأسئلتك. «ماذا فعلتَ؟ مع من؟» اللعنة، دعيني. هذا يجنن، من قبل كنتِ تتحدثين أقل.

ـ قبل أي شيء؟

ـ قبل أن نكون معاً.

عاد الصمت ثانية.

أحست ألبانّ أنها على وشك أن تنهار: لقد أعلن كانتان ما كانت تحرص عليه قبل كل شيء ـ كانا «معاً» لكنه مزج هذا الاعتراف باللوم. بماذا تجيبه؟ على كل حال، أيجب عليها أن تناقش؟ لقد بالغت في الحديث، أساءت الحديث، تحدثت بلا ضابط. في الواقع لم تكن تتحدث، كانت تنبح. إنه على صواب: كلمة «مزعجة» تُعَرِّفُها. بما أنها لم تكن تتحمل نفسها، فكيف يتحملها الآخرون؟ خلصت ألبانّ إلى أن حياتها تقارب النكبة.

ـ ألبانّ، لا تبكي...

ـ أبكي إذا أردتُ...

ـ كفى...

ـ ماذا يهمكَ ما دمتُ مزعجة ودبقة؟

ـ ألبانّ...

ـ على كل حال ماذا تفعل هنا؟ لا شأن لكَ بفتاة مزعجة ودبقة.

ـ كفي عن البكاء، لم أقل هذا...

ـ بلى، لقد قلتَه.

ـ لقد قلته لأنك أخرجتني عن طوري. ليس هذا ما أردتُ قوله...

لحظت ألبانّ أملاً. لقد غير كانتان صوته. راح يبث أمواجاً مسالمة. عليها أن تسكت الآن. أن تدعه يتقدم. ألَّا تفسد كل شيء بملاحظة لاذعة.

ـ ألبانّ، إننا معاً، أنا وأنتِ.

ـ هل هذا صحيح؟

ـ نعم، إننا معاً.

ـ حقاً؟

ـ إننا معاً! ألا تعتقدين أننا معاً؟

ـ بلى. إننا معاً. إذاً، كانتان، لماذا تسهر بدوني؟

ـ إنه رد فعل لا إرادي... رد فعل سابق... لا يتغير المرء بين عشية وضحاها...

لم تكن ألبانّ معتادة الاعتراف بأخطائها حتى أنها شعرت فوراً بإعجاب عظيم نحو كانتان الذي كان لديه التواضع والشجاعة.

ـ إنني أحبك، كانتان! أجل، يا لقدر ما أحبك.

ـ حسناً.

ـ ولا أحب إلَّا أنت.

ــ حسناً.

ــ إنني قادرة على كل شيء، سأدافع عنك ضد أيّ كان.

ــ حسناً، ألبانّ. لا أحتاج إلى مساعِدة، أضرب بنفسي.

أجاب بسخرية، بنبرة ذكر مغرور بذاته. رأت ألبانّ في ذلك احتقاراً لها، لجسدها كفتاة رديئة في التربية البدنية ــ وهي مادة تكرهها. فبدلاً من أن تستفيد من الهدأة، قطَّرتْ مرارة المكر:

ــ كنتُ أقترح الدفاع عنك بالنسبة إلى الانتقادات.

ــ أية انتقادات؟ أينتقدني الناس، أنا؟

ــ كلَّا، كلَّا، لا شيء.

ــ من ينتقدني؟ من؟

ــ من الأفضل أن أسكت ما دمتَ تتهمني بكثرة الكلام.

ــ الأمر هكذا! تتحدثين حين لا أهتم بما تقولين وتصمتين حين يهمني ذلك.

ــ كي أحميكَ بشكل أفضل. إذا علمت ما يُروى عنك، فقد يجرحك ذلك.

ــ ألبانّ، من ينتقدني؟ قولي لي، كي أحطم فمه!

نسي كانتان إثر الانفعال أنه تغير العام الفائت؛ تراجع صوته وكان غير متجانس، رديء النبرة، مهتزاً من الحاد إلى الرخيم. اغتبطت ألبانّ لأن لها تلك السلطة عليه.

ــ لا أحد... لا أحد على التحديد... إنه شيء عام... أقرب إلى الإشاعة...

ــ إشاعة؟

ــ يبدو أنك تحب أن تعجب الفتيات... وأنت تعجبهن كثيراً.

ــ هذا ليس نقداً، لكنه سمعة. سمعة طيبة.

بسط ساقيه الطويلتين أمامه وشبك ذراعيه على صدره، وهو راضٍ ومنتصرٌ. في تلك اللحظة، تمنى أن يكون البستاني الذي يشتغل قريباً منهما والذي كان حضوره يضايقه حين بكت ألبانّ، قد سمع ما أتت على نقله.

تابعت ألبانّ قائلة:

ــ ثم يقال أيضاً إنك تغري الفتيات ثم تتركهن، وإنك تستخدمهن كأنهن محارم ورقية. أليس هذا نقداً؟

ــ كلَّا... عندنا، نحن الشباب، هذا دليل عن الشخصية.

ــ عندنا، نحن الفتيات، هذا يعني أنك نذل.

ـ نذل؟ ماذا تفضلين؟ منافقاً؟ شخصاً يُلقي تصريحات غرامية من دون أن يعني كلمة مما يقوله؟ شخصاً يصرخ قائلاً «إنك امرأة حياتي» ويذهب بعد ذلك ليضاجع امرأة أخرى؟

ـ إن ما تقوله رهيبٌ.

ـ كلَّا إنه نيِّر وواعٍ. يبدو أنك تفضلين المخادع ذا الكلام المنمق على الشخص الذي يقول الحقيقة.

ـ أنت، تقول الحقيقة؟

ـ دائماً.

ـ آه حقاً؟

ـ دائماً!

ـ أتقسم لي بذلك؟

ـ أجل، أقسم لك بذلك.

ـ حسناً! إذاً ستقول لي الحقيقة؟

ـ تماماً.

ـ هنا، الآن؟

ـ حسناً، قل لي الحقيقة: هل تحبني؟

ـ تُرجعين كل شيء إلى ذاتك، أليس كذلك؟

ـ ما يهمني هو نحن. أجب بما أنك قد أقسمت أن تقول الحقيقة: أتحبني؟

ـ أنت عنيدة!

ـ حسناً، إنني عنيدة، ولكن هل تحبني؟

ـ إنك عنيدة جداً جداً جداً!

ـ هل تحبني؟

ـ اللعنة! كم تستطيعين أن تكوني عنيدة...

أثقل الصمت عليهما من جديد.

لم يشعرا قط بأنهما بعيدان بعضهما عن بعض منذ أن التصقا على هذا المقعد. نحت المناقشة في اتجاهات غير منتظرة لا يمكن ضبطها. في حين التقيا ليتبادلا القبل، وليسعدا بفترة معاً، راحا يتخاصمان بلا نتيجة. كان كل واحد على قدر كبير من عدم المهارة، أخرق رغماً عنه وهو ينسب تخبطه إلى سلوك محدثه.

ـ كانتان، هل سبق أن قلتَها؟

ـــ ماذا؟

ـــ «أحبك» لأحد؟

ـــ كلّا. ليست تلك أشياء أقولها.

ـــ هل فكرتَ فيها؟

ـــ أوه، كفى! هذا يخصني.

ـــ أجب، لأنك أقسمت أن تقول الحقيقة. هل سبق أن أحببت أحداً؟

ـــ قبلك؟

ـــ أجل.

ـــ كلَّا.

ـــ ومنذ ذاك الحين؟

ـــ منذ أي شيء؟

ـــ منذ معرفتك بي، هل تحب أحداً؟

ـــ أحداً غيرك؟

ـــ نعم.

ـــ كلَّا.

ـــ وأنا؟

خفض عينيه، بصدغيه الأحمرين بلون شقائق النعمان، أمسك معصمها، طالباً من يديه ما لم تستطع شفتاه أن تلفظه. اقتنعت ألبانّ وهي ترتعش.

ـــ إنني سعيدة.

ـــ كنتِ تواً تبكين.

ـــ طبعاً. وللسبب ذاته، إنني سعيدة الآن.

ـــ من أي شيء؟

ـــ مما أتيتَ على قوله. أي، بما لم تقله.

ضحكا، هو من الحرج، وهي من الرضى. أدار عينيه نحوها.

ـــ أنتن، معشر الفتيات، ذوات تعقيد.

ـــ كلَّا. يجب فهمنا، هذا كل ما في الأمر.

ـــ وما السبيل؟

ـــ يجب الإصغاء إلينا.

طقطقت صيحة فوقهما. في خفق أجنحة وصرخات مبحوحة، كان ببغاوان ذكران يتجابهان بلا رحمة لحيازة أنثى. والطيور الشاهدة، وهي تطير من غصن إلى جذع، تعلق على القتال. ثمة نشاط وحشي كان يهز مجموعة الأغصان.

ــ ألبانّ، هل تقاسمينني الفراش؟

ــ ماذا؟

ــ بما أننا معاً، يمكننا أن ننام معاً.

ــ لستَ على ما يرام! إنني صغيرة جداً.

ــ عفواً؟

ــ إنني في الخامسة عشرة من عمري.

ــ وأنا في السادسة عشرة منذ عشرة أيام.

ــ قطعتُ على نفسي عهداً ألا أضاجع قبل السادسة عشرة والنصف.

ــ لماذا السادسة عشرة والنصف؟

ــ إنه العمر الذي ضاجعت فيه ابنة عمي للمرة الأولى.

ــ ألبانّ، لا أفقه شيئاً. أنت تبلغين من العمر ما يكفي لتكوني معي لكنك أصغر من أن تضاجعيني. إذاً، ماذا يعني، بالنسبة إليك،«أن نكون معاً»؟

ــ هذا يعني أننا نعرف ذلك والآخرون يعرفونه.

ــ ماذا يعرفون؟

ــ أننا معاً.

ــ بالنسبة إليّ «أن نكون معاً» يعني أكثر من ذلك. إنه يعني أننا عاشقان حتى النهاية.

ــ حتى النهاية؟

ــ حتى النهاية.

في الأشجار احتدم وطيس المعركة، فصيحات المحاربين أصبحت تثير القلق بشراستها.

ــ كانتان، أعطني وقتاً، من فضلك؟

ــ إن كان عليَّ أن أنتظر حتى تبلغي السادسة عشرة والنصف...

ــ من جهتي، إنني على استعداد لانتظارك. لأنني أحبك.

ــ حسناً.

نهض كانتان وتحقق من أن قميصه يدخل جيداً في بنطاله من الجينز ومرر

أصابعه في شعره الأجعد مضيفاً إليه بعض الفوضى، ثم، كجوّاب الآفاق المتراخي، أخذ حقيبة ظهره.

ــ سألحق بالباص.

ارتعشت ألبانّ قائلة:

ــ وتتركني هكذا، وحيدة؟

ــ مع من تريدين أن أتركك؟

ــ من دون كلمة تضيفها...

لو كان لديك القدرة على تغيير توقيت النقل العام، لبقيتُ. لا تنزعجي.

ــ أنت تسخر بينما أنا حزينة!

ــ لم أطلب منكِ أن تكوني حزينة مطلقاً.

ــ إنني حزينة لأنني سأكون بدونك.

ــ هيا، إلى هذا المساء، هنا، في الساعة الثامنة عشرة، موافقة؟

ابتعد، مسرعاً، وهو يضاعف سرعته في كل خطوة.

تبعته بعينيها وهي تأمل أنه سيلتفت، وقد استعدت لترسل له قبلة، لكنه اختفى في زاوية الشارع. تنهدت.

لاحظت رسالة صفراء على المقعد، وهي تلتقط حقيبة كتبها. فهمت فوراً. إذا كان قد رحل بفظاظة، فلأنه قد خط لها هذه الرسالة. فتحت الورقة بقلب يخفق: «هذه الكلمة لمجرد إعلامك بأنني أحبك. التوقيع: أنت تعرفين من».

قفزتِ وضربت الأرض برجليها وصفَّقت. آه، يا لكانتان، لقد نجح في خداعها: مثَّل دور اللامبالاة، وادعى أنه ليس عاشقاً.

فاضت نفسها فرحاً، فدارت حول المقعد، بتوتر عالٍ من دون أن تلاحظ دهشة البستاني من سلوكها. ثم ارتمت ثانية على المقعد الخشبي، وساقاها تتحركان غبطة وأخرجت هاتفها المحمول من علبته كي تخبر أفضل صديقة لها. كتبت بمهارة ضاربة آلة كاتبة محترفة: « غوين، إنني في قمة السعادة. سأروي لك فيما بعد».

نظراً لأنه كان لديها عشر دقائق قبل أن تأخذ القاطرة الكهربائية، فكرت بإخراج مسرحي صغير: إعادة طي الرسالة ووضعها على المقعد، كأنها لم تلتقطها، ثم تتصنع اكتشافها. هكذا، ستجد نشوة المرة الأولى التي لا تُصدق.

حينئذٍ وضعت الرسالة بجانبها، ولفت ساقاً على ساق، راحت تصفر بترف وهي تراقب الدرَّات التي تطير في الهواء الربيعي.

في تلك اللحظة، خرجت يد من الوراء ورفعت الورقة.

ــ أوف، ظننت أنني قد أضعتها.

كان كانتان بأنفاسه المتقطعة يلتقط المغلف.

شعرت ألبانّ بالغثيان.

ــ ولكن، كانتان...

انطلق ذاهباً وهو يركض.

ــ لا شيء، كنتُ قد نسيت شيئاً لي. أسرع إلى موقف النقل العام. إلى اللقاء هذا المساء، الساعة الثامنة عشرة، ألبانّ، حتماً!

قطع زاوية الشارع العريض.

بقيت ألبانّ فاغرة الفاه، عاجزة عن أن تلملم أفكارها. إن لم تكن الكلمة موجهة إليها، فلمن سيعطيها كانتان؟

بعد دقيقتين من الهلع، استنشقت الهواء وأمسكت هاتفها حيث دونت أصابعها بلا تردد: «غوين، أظن أنني سأنتحر».

٩

ــ شكراً لاستقبالك لنا.

ــ أرجوكم، أنتم الذين تشرفونني.

ــ حين يسعدني الحظ بالتعامل مع هواة فن حقيقيين، لا أتردد في فتح بابي.

انحنى ويم ببشاشة، وبعينين تبرقان سروراً، أمام الزوجين فندنبورن، وهما جامعا تحف لامعان من مدينة «أنفير».

ــ إنكما تعرفان مُسَاعِدتي، طبعاً؟

اقتربت ميغ قائلة:

ــ لقد التقينا في صالة العرض. مدت يدها لكن ويم، وقد قدَّر أن ثانيتين تكفيان لتقديم مُسَاعِدة، وقف بينهما وأخذ السيدة فندنبورن بلطف من ذراعها؛ اضطرت ميغ إلى أن تلتصق بالجدار لتدعهما يمران، منحنية أمام السيد فندنبورن الذي ركض على خطى زوجته، متشوقاً لرؤية اللوحات.

كان المدخل ضيقاً لأن المهندس المعماري، بناءً على طلب ويم، قد صمم الصالة كإخراج مسرحي يهدف إلى إبهار الزائرين. كانت الصالة المؤلفة من مئتي مترٍ مربعٍ تبدو واسعة جداً لا يمكن الخروج منها إلّا بممر ضيق.

أظهر الزوجان إعجابهما بمساحتها وحجمها وبياض الجدران النقي وطابع الأثاث العملي والمقتصر على ما هو أساسي. قبل أن يفحصا واحدة من اللوحات، عبَّرا عن دهشتهما أمام الفسحة التي تحويها.

تظاهر ويم بلامبالاة، وقد أوحى وجهه الذي يشبه وجه دمية بملاك ينفخ في البوق، فكان يتحدث بأناقة وحمية قائلاً:

ــ تذوي اللوحات إذا لم يُنظر إليها. فشأنها كشأن النساء تحتاج إلى أن تَخرج وتُعرَض وتُمدح وتُشتهى. فإذا ما أغلِق عليها، ذبلت. فالعزلة تقتلها. أتعتقدون أن ماتيس وبيكاسو أو بيكون كانوا يصنعون تحفاً لتوضع في أقبية المتاحف أو بين جدران صندوق؟ حين يسعدني الحظ في الحصول على تحفة، أعلقها هنا، وكل يوم،

أتأملها وأتفحصها وأحدثها. هذا ما يعني أولاً صيانة تراث: يقتضي ذلك كثيراً من الاهتمام. فالأعمال التي خُلقت بالقلب، يجب أن يُنظَر إليها بالقلب. ألستما موافقين؟

هزَّ الزوجان رأسيهما بالموافقة. أعجبت ميغ بمقدمة ويم: وقد عرف أن الزوجين فندنبورن هما في غاية العشق أحدهما للآخر، فتطرق إلى ذوقهما بالنسبة إلى الاقتناء بلغة أنيقة.

ــ إنني أوزع فعاليتي على الشكل التالي: في الصالة، المعارض الزمنية المخصصة لفنان؛ هنا مجموعتي الدائمة. وفي بيتي أحتفظ بأفضل القطع، التحف العزيزة عليَّ والتي هي غالية الثمن بكل بساطة!

انفجر ضاحكاً، وهو يجر الزوجين فندنبورن في ضحكته القصيرة.

لاحظت ميغ أن ويم يطبق منهجاً متواصلاً: يُسلي المستمعين كي يشعروا بالارتياح. فكانت تدهشها عفوية ويم، وهو المتصنع والمهتم بالمظاهر، وتُعجب كيف يتصرف بحيل التاجر البارع. هل كان سلوكه مدروساً أو غريزياً؟

ــ أيمكنني أن أنسحب عدة لحظات؟ يجب أن أخلي مكاناً، في الطابق السفلي، لرسام أستقبله هذا الصباح. أنتم تعرفون الفنانين: فهم يتكدرون لأتفه الأسباب.

المبدأ رقم اثنين: بعد أن يكون الانسجام قد أقيم، خلق الرغبة في الانفراد. سيترك ويم الزوجين فندنبورن وحدهما في هذا العنبر الفخم وسيصمتان، وقد تأثرا من روعة المكان والتحف الفنية والسكون ولن يجدا نوعاً من الارتياح إلّا حين يعود.

أشار ويم، بحركة، إلى ميغ كي تتبعه. أخذا معاً السلم الداخلي المصنوع من الخشب البني والتقيا، ليس برسام كما ادعى ولكن بزبائن فرنسيين منتظرين جاؤوا لرؤية اللوحات لمدة ساعة.

أصبح صاحب الصالة جدياً، صارماً أقرب إلى الكآبة قائلاً:

ــ لنعد إلى موضوع حديثنا. اليوم، أفضل توظيف للمال يبقى في العمل الفني.

ــ إذا اخترنا الفنان الجيد.

ــ بالطبع. من له ذوق المراحيض، فمن الأفضل أن يبقى في بيته.

ــ هنا، أيضاً، صفَّقت ميغ لمهارة ويم: لقد اعتمد نبرة ساخرة اصطبغت بالسوقية كي يوافق الذوق الباريزي.

تابع قائلاً: ليست اللوحة عملية مالية رابحة تَعِد بازدياد هام لقيمتها فقط، لكنها عملية ضريبية موفقة.

أطلق الفرنسيان تنهداً آلياً. فبمجرد أن يلفظ أحد كلمة «ضريبي» أمام فرنسي، يعرف أنه يجرحه لكنه يجذب اهتمامه. تابع ويم قوله:

ـ إن فرنسا لا تضع ضريبة على الأعمال الفنية.

صرخ الفرنسي، بريبة:

ـ حتى الآن! لن يفعلوا ذلك مطلقاً.

ـ آه، هم ... إننا على يقين أن هؤلاء يقومون بأسوأ الأمور وليس بأحسنها.

سخرت ميغ مِن «هم» ومِن «هؤلاء». من يعني ويم والزوجان الفرنسيان ب «هم» أو «هؤلاء»؟ هل هم السياسيون؟ هل هم اليمينيون؟ هل هم اليساريون؟ هل هم موظفو الضرائب؟ أو وزراء المالية؟ ففي هذا «هم» يكمن مزيج من الخوف غير العقلاني.

تابع ويم قائلاً:

ـ كلَّا، كلَّا، لن يفعلوا ذلك على الإطلاق. لتموين الفقراء، يجب وجود الأغنياء.

ـ لم يعد للحس السليم مكان في بلدنا. لقد التهمته الأيديولوجية.

أخذ ويم مظهراً متعاطفاً، وهو يعرف أنه لم تعد هناك فائدة لإضافة حجج.

تكدر الجو. فكان الأشخاص الأربعة يتواصلون عبر تلك الفكرة وهي أن العالم يسير نحو الدمار.

عرفت ميغ، من تجربتها، أن تلك اللحظة لا يمكن الاستغناء عنها: كان الفرنسيان بحاجة إلى جرعة من التشاؤم قبل أن يتقدما.

بالفعل، تابع الرجل قائلاً:

ـ حسناً، إذاً، تترك لي تمثال لويز بورجوا بكم...؟

ـ أربعمئة ألف.

ـ هل يمكن مناقشة السعر؟

ـ سبق أن نوقش. لو كان الأمر قبل قليل، لعرضته عليكما بأربعمئة وخمسين ألفاً.

ـ يمكنك أن تبذل جهداً.

ـ لماذا؟ غداً يأتيني هولندي وصيني، أو روسي لا يناقشون الثمن. لا تنسَ أن النحَّاتة لويز بورجوا، وهي ذات أهمية فرنسية، لا يعلو عليها.

دمدم الرجل متذمراً، فأعطته زوجته بعكسها ضربة خفيفة متكتمة بعض الشيء. بثلاث ثوان، سيُقرر الأمر.

ــ كانت لويز بورجوا فرنسية. وستبقى تحفتها في فرنسا!

تبادل ويم وميغ نظرة سريعة متواطئة: تمت عملية البيع، لقد أصاب ويم حين أجج الكبرياء الوطنية. فإذا كان الفرنسيون يقللون دائماً من قيمة فرنسا، لكنهم يحتفظون بكبرياء أمة عظيمة؛ حين يُذكر أمامهم «هولندي وصيني أو روسي» فهذا يعني أننا نستدعي همجاً في نظرهم، حتى أنهم يريدون فوراً أن يُنقذوا حضارتهم العالمية بإعادة مقتناها الثمين إلى فرنسا.

صرخ ويم بإعجاب:

ــ أهنئك. إنها قطعة رائعة. إنني سعيد أن تلك التحفة ــ الأساسية في الحياة الفنية للنحاتة ــ ستذهب إلى عندكم، في باريس، حيث ولدت لويز بورجوا ودرست الفن. إنها عودة عادلة إلى المنابع.

وافق الفرنسيان. وإن قاما بشراء شخصي، فلقد ارتأيا أنهما يملكان شرعية لا يتمتع بها أي أجنبي.

صافحهما ويم بحرارة.

ــ أحسنتما! فلنذهب إلى مكتبي لترتيب التفاصيل. ميغ، اذهبي لإلقاء نظرة في الطابق السفلي ثم اصعدي إلى العُلّية الواقعة بين الطابقين.

فهمت ميغ ما أوحى به. أمسكت بالزوجين فندنبورن وقد تسمرا في مدخل الصالة وعذرت ويم بالجملة المعهودة:

ــ إن ويم قد بقي في الطابق السفلي ويعتذر لتركهما وحدهما مع أحبائه. أرجوكما، تفضلا بالتجول وبالنظر إلى الأعمال الفنية، سيعود لحظة يستطيع ذلك.

قطعت ثلاثة أمتار معهما وأثارت اهتمامهما ببعض التعليقات الموجزة ثم تركتهما ليتأملا اللوحات وصعدت إلى العُلِية الكائنة بين الطابقين.

ما سُمي «بالعُلية بين الطابقين» هو فعلاً قسم متميز من المكان. فإذا كان ويم يوهم الناس أن هذا الطابق الثالث من الصالة يشكل شقته، فلقد كان في الواقع عبارة عن غرفة عرض لا يشغل منها إلّا طابقها الثالث. كانت المقاعد والبار والمطبخ تظهر ديكوراً، أما الحيز المسكون فيبقى صغيراً جداً.

دقت ميغ على باب الحجرة.

بعد عشرين ثانية، فتحت لها الباب شابة ممشوقة القوام، بشعر غزير أشقر وبقميص قصير وسروال.

ـ اوه... نهارك سعيد ميغ.

رفعت خصلة، وقعت فوراً من جديد على عينها.

ـ نهارك سعيد، أوكسانا. أرسلني ويم ليعرف إذا كنت ترغبين في شيء.

ـ شيء ما؟ ... آه، لا أعرف...

ناضلت ثانية مع الخصلة التي كانت تعميها. رأت ميغ أن دماغ أوكسانا شأن شعرها: في فوضى.

ـ نعم، فطور مثلاً؟

ـ آوه... كلّا... حالي جيدة... لقد أكلت حبة كيوي.

ـ اغتاظت ميغ. كيف تستطيع شابة تبلغ متراً وثمانين سنتمتراً أن تقتات بحبة كيوي، بينما هي الأقصر منها بعشرين سنتمتراً تحتاج إلى قطع كثيرة من الخبز والزبدة والمربى؟

ـ أتريدين أن أطلب لك تكسي؟

ـ تكسي؟

ـ نعم، لأجل موعدك.

ارتبكت أوكسانا وقامت بقفزات قصيرة في الغرفة وهي تصطدم بالأثاث لأن شعرها يمنعها من رؤية العوائق.

ـ مفكرتي! أين مفكرتي؟ ...

انزعجت ميغ وهي تراقبها تبحث في السرير وفي المقعد وفي الأريكة، وقد أمسكت شعرها فوق رأسها بيد. أمام تلبكها وحيرتها، اقترحت ميغ وهي تخفي ازدراءها قائلة:

ـ ربما في حقيبتك؟

وجدت أوكسانا الفكرة مدهشة، ففتشت وطقطقت أصابعها بانتصار.

ـ ها هي! اليوم... موعد الصور في استوديو ٦٦. تفحصت ميغ بإعجاب وهي ترفع شعرها:

ـ يا لذاكرتك القوية، ميغ! إنني مندهشة.

كادت ميغ تجيبها قائلة:

ـ «لقد سمعتك تذكرين هذا الموعد ثلاث مرات أو أربع».

كانت ميغ منزعجة من أوكسانا إلى أقصى حد، لكنها لم تُظهر ذلك لأن أوكسانا كانت تقودها إلى أبواب السر، سر الإغراء...

فبالنسبة إلى ميغ، تنتمي أوكسانا إلى جنس آخر. كيف يمكن للإنسان أن يكون هكذا، هذا الجسد الذي لا ينتهي من دون غرام من الشحم؟ كيف يمكن أن تكون لها ساقان بهذا الطول؟ وحوض عالٍ جداً، وضيق جداً؟ كيف يمكن أن تهضم بمعدة جوفاء ــ لا شك أنه لم يكن هناك مكان لاحتواء أمعاء؟ بالنسبة إلى ميغ، لم تكن أوكسانا تشبه امرأة ولكن عارضة أزياء ــ وهذا ما كانت عليه. عارضة أزياء، أي جنس هجين، بين الطفل والزرافة. في تلك اللحظة، وقد استندت إلى إطار الباب، راحت ميغ تتأمل هذا النوع من الحيوانات، عبارة عن قفص يرتفع فيه شعر على قوائم، وقد استهوتها خصلاته المتهدلة، وهذا القفص يركض، بتراخٍ، من حقيبة يد إلى حقيبة سفر.

إذا كان السر الأول يكمن في هذا الجسم الشاذ، فإن السر الثاني يأتي من الجاذبية التي يمارسها هذا الجسم: كان الرجال مفتونين بأوكسانا. فرجل مثل ويم يمتاز بالذكاء والثقافة والدهاء وحسن الحديث يمكنه أن يضع في مخدعه حيواناً كبيراً شأن أوكسانا فذلك يعود إلى ضرب من اللغز. لم تكن أوكسانا بلهاء ولا ذكية ولا لطيفة ولا شريرة، لم تكن كذلك ذات مصلحة كما لم تكن مجردة، ولا تقوم بحسابات، كما لم تكن لا مبالية، كلّا، لم يكن لأوكسانا أي شيء من كل ذلك. وبشكل أدق، كانت أوكسانا لا شيء. وفي أفضل الحالة كانت ماءً فاتراً. كيف لا يضجر ويم بصحبتها؟ هو المحدث الرائع الذي يعشق المناقشات الفكرية، يتحدث مع تلك الصورة المُستَنسَخة، تلك المرأة التي تصلح للصم وللبكم؟

ــ بئس الأمر... لا وقت عندي لأستحم... سألبس ثوباً وأذهب إلى هناك هكذا...، قررت أوكسانا، وهي تعبة من توترها.

هنا يكمن السر الثالث: أوكسانا التي ليس عندها الوقت بتاتاً لتغتسل تبدو نظيفة ودائماً برائحة طيبة. بدأت ميغ تشك بخدعة تخفي تلك المعجزة: من يثبت لها أن أوكسانا لا تنهض أبكر من الآن وتستحم وتغسل شعرها وتعتني ببشرتها ثم تعود إلى السرير وهي تلتقط قميصاً قصيراً من البارحة؟

ختمت ميغ قولها:

ــ سأطلب لك تكسي. في عشر دقائق. موافقة؟

من دون أن تنتظر الجواب الذي قد يستغرق دقيقة طويلة، حجزت ميغ السيارة ولاقت في الصالة ويم الذي كان يعلق بشغف على لوحاته للزوجين فنديبنورن.

انعزلت ميغ في زاوية لتراقبهم، وهي تعي أنها، على كل حال، لا تجذب انتباه أحد.

حدَّقت إلى ويم. لماذا تجده بعض رفيقاتها دمياً؟ سمَّته واحدة منهن «Riquet

à la houpe[1]»... طبعاً لم يكن له جسم فارس الأحلام، فلقد كان قصير الساقين، وعريض الحوض إلّا أن كتفيه ضيقتان؛ لكنه كان رشيق الحركات، مرن الساقين، بصدر عريض ومظهر فضفاض، كان يحرك يديه بعذوبة حين يتحمس، ويتنقل بسرعة، بلا تردد وبدقة. أما تقاطيعه، فكانت مستديرة: عينه مستديرة وأنفه مستدير وكذلك فمه ووجنتاه وذقنه ورأسه مستدير حيث ينتهي صدغاه الأجردان بعرف قصير يجمع شعره كشعر وليد. في الواقع، كان مظهر ويم يذكر بالقصص المرسومة. وقد أحبت ميغ دائماً هذا النوع من القصص.

لمحها، من بعيد فأومأ إليها بإشارة: «اذهبي وافتحي البريد». أسرعت تطيعه. يا له من رجل لامع! كانت تقدر نشاطه البالغ: فبينما كان يشرح للزوجين فندنبورن نظرية الحنان الخفي للرسام بيكون، وجد وقتاً ليراها وليحدد مهامها.

صنفت البريد ورتبت الفواتير وأدخلت العروض المهنية في مصنف ورمت الدعايات في سلة المهملات. أربكتها الرسالة الأخيرة:

«هذه الكلمة لمجرد إعلامك بأنني أحبك. التوقيع: أنت تعرف من».

لم تحب تلك الرسالة. من وجهها؟ ليست أوكسانا لأن الأوكرانية لا تملك زمام اللغة الفرنسية بشكل جيد. من إذاً؟

أعجبت، للحظة، بجرأة المتآمرة، والتي بلا شك، تستطيع أن تقوم بالخطوة الأولى.

ظهرت أوكسانا في الصالة، وهي تحط بكعبيها العاليين اللذين يزيدان طولها خمسة عشر سنتيمتراً. «تتمتع تلك الفتاة، بلا شك، بموهبة إشعال المصابيح». ترجّحت حتى وصلت عند ويم الذي استقبلها بود ودس يده في ظهرها وقدمها إلى الزوجين فنديبورن.

لاحظت ميغ المشهد، بالرغم من بعدها، ففهمت فجأة رب عملها: إن أوكسانا، بمظهرها وفق الطراز الحديث، تنتمي إلى مركز ويم الاجتماعي. ليس المهم أن تسدد لها السيدة فندنبورن نظرة عدائية، وأن يتسمر السيد فندنبورن كي لا يخيف زوجته. فقد أدرك كلاهما أن أوكسانا هي دليل ثراء ونجاح. كانت أوكسانا ترفع عالياً الترف المحيط بويم.

دق التكسي الجرس.

قاطعت ميغ الرباعي لتُذَكر أوكسانا بأن عليها الذهاب. رفعت هذه الأخيرة خصلتها وركضت حتى المخرج.

---

(١) Riquet à la houpe . بطل قصة أطفال مضحك يحمل الكتاب اسمه- (المترجمة).

ــ ميغ، ثلاثة فناجين قهوة.

سيتأخر البيع...

أخرجت ميغ ثلاثة فناجين قهوة إكسبريسو لذيذة من آلة القهوة.

لحق ويم بها تاركاً الزوجين فندنبورن أمام لوحة من ريشة «باسكيا» تعجبهما.

ــ ما الجديد في البريد؟

قدمت له ملخصاً موجزاً، سجله ذهنياً، ثم بسطت له الرسالة المجهولة.

ــ تفضل، كان هناك تلك الرسالة أيضاً. إنني آسفة لفتحها.

أمسك الرسالة وقرأها، ثم نظر إلى ميغ بذهول، وأعاد قراءتها، قطب وتركها على مرمر المطبخ.

ــ لا شك أنها دميمة وذات كرش لتكتب رسالة كهذه. ارميها.

ثم أمسك صحون الفناجين وذهب للقاء الزوجين فندنبورن.

أسرعت ميغ إلى المراحيض، ليس لقضاء حاجة ما، لكنها كانت تحب أن تنعزل حين تشعر بأن الأحداث قد تجاوزتها ولم تعد تفقه منها شيئاً.

بعد أن حبست أنفاسها في المكان القاتم اللون، استسلمت لأفكارها: « لماذا لا يحبني؟ لأي سبب لا يلقي عليَّ نظرة كالتي ينظر بها إلى امرأة مُحِبة ومحبوبة؟».

أرسلت إليها المرآة جواباً: رأت فيها سيدة قصيرة القامة، بكتفين منخفضتين، أقرب إلى الشكل العريض، وبشرة ملأى بالحبوب الوردية، وبتسريحة أكل الدهر عليها وشرب. للحظة، ظنت أنها تعرفت إلى صورة أمها. ليست أمها في العشرين من عمرها، ولكن أمها الآن.

أشاحت بوجهها ورمت الورقة في قعر المرحاض، جرَّت دفَّاقة الماء، وخفضت الغطاء ومنحت نفسها عدة دقائق لتبكي.

١٠

« طائر ليلي لطيف، ثرثار، مدخن، يحب الشراب، ليس اجتماعياً، لا يحب أن يسهر أكثر من مرة في الشهر ويُفضل أن يبقى في بيته، متحذلق، يعشق الموسيقى حتى الإفراط ويتحدث عنها حين لا يصغي إليها، يبحث عن عصفورة بطبيعة تعادل طبيعته وعرضة للكآبة، متطرفة ــ أهلاً بها إذا كانت هستيرية ــ، غير موهوبة في مجال الطبخ، عاجزة في مجال التنظيف، تحب المناقشات المثيرة. على المهووسات جنسياً ألا يجبن عن هذا الإعلان وكذلك الراغبات في الزواج. الشرط الوحيد الذي يجب أن يتوافر فيها هو أن تكون ذات صوت جميل وألا تتحدث بصوت عالٍ. إرسال شريط أصغي إليه. تُفحص جميع الطلبات بالاهتمام ذاته».

نظر لودوڤيك ثانية، والقلم بيده، إلى إعلانه، ساعياً إلى أن يضع نفسه مكان تلك التي ستقرؤه. بدا راضياً، وأضاف أيضاً: «لا تهمه الثروة»، وقد رأى أن الإشارة جذابة.

خرجت تيفاني، وهي صديقة حديثة، من المطبخ وبيدها الفطائر التي اشترتها له في طريقها، متابعة حديثها:

ــ حقاً! لودو، لن تدعي أنك حتى السادسة والعشرين لم تضاجع فتاة قط؟

ــ هل قلتُ ذلك؟

ــ خُيل إليَّ.

ــ غريب...

أعدَّتْ تيفاني المائدة، ببسمة متفحصة تقطع وجهها. دفع لودو بمفكرته جانباً.

ــ الآن، كف عن لعب القط والفأر. كن واضحاً: لودو، هل ضاجعت فتاة؟

ــ إنه سؤال جيد. أطرحه على نفسي أيضاً.

ــ إنك تخادع. أجب بكلمة، واحدة: هل سبق أن ضاجعت فتاة؟

ــ ممم...

ــ ممم؟

ــ هذا يشكل كلمة،«ممم».

ــ ماذا تعني بكلمة «ممم»؟

ــ أعني شيئاً بين نعم ولا.

ــ كنْ أكثر دقة.

ــ لم يكن في تجاربي الجنسية النادرة شيءٌ دقيقٌ.

ــ إنك مثبط للعزيمة!

ــ وهذا رأيي تماماً.

راحت تيفاني تتأمل لودو بود. كان قصير القامة، سميناً مع بداية بدانة وذا وجه لطيف بفضل شعره الأسود الغزير وعينيه الرماديتين الشاحبتين وفمه القرمزي، فكان الصديق المثالي، الظريف والجاهز، لا ينسى مُسارَّة أحد مطلقاً. يلبس بناطيل جينز عريضة جداً وقمصاناً واسعة متهدلة ــ غالباً بالية وزرقاء اللون ــ فيبدو بمظهر عادي. لكنه، بالنسبة إلى الشبان الذين في سنه، فإن سلوكه فريدٌ: فهو أعزب، مولع بالموسيقى الكلاسيكية، وصاحب آلاف الأسطوانات، وقد أسس حديثاً صحيفة عميقة الاطلاع تُدعى: La clé des scènes، وهي متوفرة ورقياً أو على الشاشة، يُعلق فيها على الحياة الثقافية بدقة وتجرد.

وإن كان لودو فريداً لكنه يوحي إلى أي شخص يلتقيه بطيبة ودودة. فلا يصبح المرء صديقه فقط لكنه يعتقد أنه صديقه منذ زمن طويل... ألانه أقرب إلى صبي يسعى إلى أن يكون ناضجاً عنه كرجل؟ كان مظهره الفيزيولوجي يحتفظ بعناصر من الطفولة؛ استدارة رخوة ونظرة مشرقة، ونقص لافت للعضلات يُذّكِّر بالصبي الذي مرَّ عنوة من باحة الصغار إلى باحة الكبار. فالهرمونات والتيستوستيرون أي الهرمونات التي تفرزها الخصية كادت أن تنسى استثمار لحمه؛ بالطبع، لقد نما ما يكفي ليصل طوله إلى مئة وسبعين سنتيمتراً، بوبر هزيل يركض هنا وهناك على ذقنه فيبدو مراهقاً مشرفاً على بلوغ سن الرشد. لا يشع من عينيه أي بريق شهواني قط؛ لا تنطلق حركاته من حوضه، فمركز توازنه يقع فوق سُرته؛ يُقبِّل خداً كمن يصافح يداً، بلياقة وبآلية، من دون أن يُظهر أنه يتقدم خطوة في المودة حين يحاذي جسداً. هل كان ذلك ناتجاً من غياب بديهي للشهوة الجنسية والذي يدفع كل واحد إلى أن يسميه لودو بدلاً من لودوفيغ؟ فتصغير الاسم بالرغم من ظرافته، يُذكر أن شيئاً ما ينقص هذا الكائن الجذاب.

منذ أسابيع كثيرة، ولحرصها على مساعدته، تجاهد تيفاني لتفهم لماذا يعيش وحيداً.

فلودو الذي هو أبعد من أن يقاوم تحقيقها التطفلي، كان يتحمل ذلك برحابة صدر، وهو مسرور بالتحدث عن نفسه، يفضي إليها بأجوبة تعيبها. فتتابع تيفاني تحقيقها وهي تلفظ الكلمات بمبالغة، شأن من يتحدث إلى أصم:

ــ «المضاجعة» لودو، «المضاجعة»! أخيراً، لن أطلب منك أشياء تقنية!

ــ هل يوجد تقنية في الجنس؟

ــ أقصد تفاصيل فيزيولوجية.

ــ أنت على صواب: في الفيزياء، كل شيء عبارة عن تفاصيل.

ــ إلى أية درجة ذهبتَ أبعد من... مداعبات؟

انفجر لودو بالضحك.

ــ المداعبات! كم تشطحين بعيداً... استعمالك للجمع يُشرِّفني. بالنسبة إلى المداعبات، كما توحين به، لم أقم إلّا بمداعبة، أو اثنتين. ربما ثلاث...

ــ ربما؟

ــ يخطر ذلك على بالي بشكل متواتر.

ــ لودو، هل تجاوزت... أحياناً المداعبة؟

ــ لقد تجاوزتني مداعباتي.

تنهدت تيفاني. انحنى لودو، بلطف، وقد استشف أنه يضجرها فحاول أن يعبر بوضوح قائلاً:

ــ أتريدين أن أروي لك أجمل قصة حب لي وأطولها؟ كنتُ في الخامسة عشرة من عمري، انتقلتْ إلى شارعي أسرة جديدة. من نافذتي، كنتُ أرى حينذاك أوريان، في الخامسة عشرة من عمرها، وهي بكر أخواتها الأربع من أسرة موران. كانت تعرض أوريان شعرها الأجعد كلوحة من «البندقية»، بكثافة مدهشة. فأحببتها بشكل جنوني حتى أنني رسبت في عامي الدراسي.

ــ رسبتَ؟

ــ أجل! إن لم يكن وضع المشاعر قبل المسار المهني بحب! ففي المساء، بدلاً من أن أكتب وظائفي، كنتُ أتأملها وهي تكتب وظائفها. لا شيء يهمني غير ذلك. أمضيتُ عاماً ونصف هكذا.

ــ وبعد ذلك؟

ــ بعد ذلك انتقل والداها إلى إسبانيا.

ــ لا شك أنكما بكيتما كثيراً وأنتما تفترقان.

ــ أنا أجل، لأنني كرست لها عاماً ونصف العام من حياتي. أما هي، فأجهل ذلك.

ــ وفي النهاية!

ـ هل كانت على معرفة بوجودي؟ لم يوجه أحدنا إلى الآخر كلمة. قمتُ بتحقيق عرفت منه أنها تُدعى أوريان لكنها لم تكن طبعاً تعرف اسمي.

ـ وماذا بعد؟ لقد بشرتَني بأجمل قصة حب لك.

انفجر لودو ضاحكاً.

ـ تنتهي قصتي هنا. أصغِي إليَّ، تيفاني، إذا استهوتني فتاة، أصبح أشد غباءً من دجاجة وأقل جرأة من صَدفة. فالفتاة التي أحبها لا أقترب منها مطلقاً ولا أحدثها بتاتاً، إنها الفتاة التي أشيح ببصري عنها وهي أمامي.

ـ في الواقع، هل يختلف تصرفك أمام فتاة لا تهتم بها أو تكرهها؟

ـ آه، أشعر بأنها تفهمني.

برضى وسرور، لف لودوفيغ سيجارة.

شبكت تيفاني ذراعيها وراقبته.

دق جرس الهاتف. قال لودو ممازحاً:

ـ أتراهنين أنها والدتي؟

ـ كيف عرفتَ ذلك؟

رفع السماعة قائلاً:

ـ نعم أمي. طبعاً. أقسم لك على ذلك أمي. إلى اللقاء أمي. ابتسم، بهزل.

ـ ذكرتني أمي أن اليوم عيد ميلادها ويجب، بخاصة، ألّا أهديها «شيئاً». وقد حددت هذا «اللا شيء» كي تتأكد من أنني لا أخطئ. «ولا زهور، ولا كتب، ولا عطور». هكذا تسلمت طلبها، إنني أعرف ماذا عليَّ أن أجلب.

أمسك التبغ بين أصابعه، ولف ورقة وهزها وكوم فيها المحتوى، وبلمسة سريعة من لسانه، لصقها. صرخت تيفاني بإعجاب:

ـ أحسنتَ!

ـ لو تعرفين كم استعملت علب تبغ قبل أن أنجح في ذلك. فأصابعي لزجة كالزبدة.

ـ ألا تستطيعُ أن تقول شيئاً طيباً عن نفسك؟

ـ هذا ما لا يخطر على بالي. إنها مسالة تربية، بلا شك...

اغتاظت تيفاني بينما كان لودو يشعل ولاعة عتيقة:

ـ ماذا تدعي؟ أنك أفضل تربية منا.

ـ لم أترعرع وسط المديح. كان والدي بخيلاً بمديحه؛ لم يهنئنا قط، لا أنا ولا

أخواتي؛ لم تكن بضاعته إلّا السخرية والنقد والاستهزاء والإهانات. أما بالنسبة إلى أمي... المسكينة...، فبلا شك، لم يخطر ذلك على بالها. غالباً ما يبحث الناس لماذا لم تفعل هذا أو ذاك؛ أما أنا فأعتقد أنها لم تفكر بذلك.

ــ إنك تبالغ!

ــ ليست أمي وقحة ولا صاحبة الخطط: إنها تنسى أن تفكر.

ــ لستَ متسامحاً معها.

ــ بل، على العكس، لا توجد أكثر من تلك اللياقة لتبرر ثغراتها هكذا. بمجمل القول، طوال ست وعشرين سنة لم أتلقَ أي مديح أكثر مما استقبلتْ صحراء «الساحل» من المطر.

ــ إذاً، حان الوقت لتتغير، لودو. لا يُجدي أن تتحدث عن نفسك بالسوء.

ــ أستبق الأحداث. بما أن والدي كان يرمي كلماته القذرة، فإنني أستبق الأمور حذراً: أفضلُ أن أكون أنا الذي أستهجن ذاتي على أن يفعل ذلك أصدقائي. وقد يحدث أحياناً مثل ما تفعلين، أن يكذِبوا... أشكرك على ذلك.

لم تلح تيفاني. فهي تعرف أنه لا يقلد النرجسيين الذين يُحقرون أنفسهم كي يمدحهم الآخرون؛ كان لودو أبعد من السعي إلى الإطراء بمسلك وقح، كان يحكم على نفسه بقسوة، وهو مقتنع بأنه لا يملك أية ميزة مستحبة.

ــ إن نظرة كتلك التي ترى فيها نفسك، عزيزي لودو، لا تعطيك أجنحة. فأنت تندد بذاتك بقدر كبير ما يجعلك تكبح انطلاقاتك.

ــ هذا ليس خاطئاً.

حدَّق إلى الدخان الذي يخرج، ببطء، من منخاريه.

ــ لا بل هذا صحيح تماماً.

استفادت تيفاني من ذلك لتقذفه بهذا القول:

ــ إذا كنتَ لا تجرؤ على الاقتراب من الفتيات، فهذا يعني أنك تخاف أن تصاب بخيبات.

ــ ليس من الخوف ولكن من الذاكرة: لم أتلقَ إلّا ضربات. على كل حال، هذا طبيعي. ماذا عندي أقدمه؟ ليس شكلي مجلجلاً وليست لي أية موهبة وعندي قليل من المال ولا أحد يعرف ــ بما فيهم أنا، إن كنتُ أجيد المضاجعة. ونفهم من ذلك أن السوق هادئة...

ــ يمكن لفتاة أن تراهن عليك...

ــ إحدى المولعات بالرهان على الخيل؟

ـ أخيراً، أعرف شباناً لا يتمتعون بثلث مزاياك وقد استقروا.

انزعج لودو من كلمة «استقروا». وقد أسفت تيفاني لهذه الكلمة التي حادت بالمناقشة، فأضافت:

ـ كثير من رفيقاتي يجدنك جذاباً. حقاً. وأنا أيضاً، لودو أجدك رائعاً. لو لم أكن مع جوش، لن أرفض أن...

وضع يده على معصمها ليشكرها وليقاطعها.

ـ لا جدوى للمتابعة، تيفاني. هذا يؤثر فيَّ. لكن المشكلة تكمن في أن الفتيات «المستقرات» والوفيات والعاشقات هن اللواتي يفسرن لي أنه من الأغلب، في حياة أخرى، أنهن قد ينظرن إليَّ باعتبار وأهمية. فالأحرار منهن وأولئك اللواتي يبحثن عن زوج بأي ثمن، لا يرمين بأنفسهن عليَّ. انظري ماذا أنا عليه: إنني الرجل الذي لا يفكر أحد فيه عفوياً، يفكرون فيه حين يصبح الأمر مستحيلاً.

انفجر بالضحك قائلاً:

ـ يجب خلق تعبير جديد. فإذا كان هناك «قد وجد» وتعابير كثيرة شأن «يجب أن يوجد»، فأنا «كان من المحتمل أن أوجد»، إنني أشكل حسرة النساء المخلصات... كنتُ أفضل أن أكون ندمهن.

كان لودو يتحدث بحرارة وبلاغة، وهو يحرص على تنميق جمله وعلى تنويع صياغتها، كأن إخفاقه لا يعنيه. فوجئت تيفاني فتساءلت إن كان هذا التجرد يمتاز به الرجال أو يتفرد به لودو: لا يمكن لفتاة أن تذكر تلك النقاط من دون أن تبكي.

راح لودو يسحب نفساً ممتعاً من سيجارته. هناك، فجأة، أصبحت شفته شحيمة، ونظرته زائغة، فغاص في أريكته التي جعلت جسمه أكثر حضوراً. هل هذه هي متعته الوحيدة؟

كان هذا الشاب يُذهل تيفاني التي تحبه بصدق وبمودة فيها دهشة كبيرة.

دق جرس الهاتف من جديد.

أجاب لودو من دون أن ينظر إلى الرقم الذي ظهر:

ـ نعم أمي؟

صرَّ صوت لدقيقة في الجهاز، ثم قفل لودو الخط قائلاً: « أنا أيضاً، أمي، أنا أيضاً».

أخذ فطيرة ثانية وعلق قائلاً:

ـ تتساءل إن لم تكن قد نسيتْ عندي مرهم شانيل للجسم. علماً أنها لم تستحم هنا أو تأخذ حماماً رشاشاً مطلقاً... توضِّح الطلب.

ـ الطلب؟

ـ طلب ما يجب ألّا أشتريه لها وما عليَّ أن أهديها هذا المساء.

أمسك المفكرة التي كتب فيها نصه ومدها إلى تيفاني.

ـ هيا، كيف تتصرفين بالنسبة إلى إعلاني باعتبارك فتاة؟ كوني صادقة.

قرأت تيفاني المسودة. « طائر ليلي لطيف، ثرثار، مدخن، يحب الشراب، ليس اجتماعياً، لا يحب أن يسهر أكثر من مرة في الشهر ويفضل أن يبقى في بيته، متحذلق، يعشق الموسيقى حتى الإفراط ويتحدث عنها حين لا يصغي إليها، يبحث عن عصفورة بطبيعة تعادل طبيعته وعرضة للكآبة، متطرفة ـ أهلاً بها إذا كانت هستيرية ـ غير موهوبة في مجال الطبخ، عاجزة في مجال التنظيف، تحب المناقشات المثيرة. على المهووسات جنسياً ألا يجبن عن هذا الإعلان وكذلك الراغبات في الزواج. الشرط الوحيد الذي يجب أن يتوافر فيها هو أن تكون ذات صوت جميل وألّا تتحدث بصوت عالٍ. إرسال شريط أصغي إليه. تُفحص جميع الطلبات بالاهتمام ذاته».

وابتلعت لعابها.

ـ كم استغرق ذلك من وقتك؟

ـ ثلاث دقائق وحياة كاملة. كيف تجدينه؟

ـ كارثياً.

سُرَّ لودوڤيك من جديد، لقد كان حقاً مغتبطاً. تعجبتْ ثانية:

ـ أنت تفعل ذلك عمداً؟ تريد أن يُخفق هذا الإعلان؟

ـ كلَّا، أريد أن يشبهني.

ـ إنك حالة ميئوس منها.

ـ أوافقك الرأي دائماً في هذه النقطة.

نهضت تيفاني، وهي مضطرة أن تذهب إلى مكان عملها، وتنهدت مرات كثيرة وهي تردد: «يا لك من مسكين، صديقي لودو!».

رافقها لودوفيغ حتى أسفل البناية كي يأخذ بريده.

أمسك رسائله وهو نهم ليدخن في الهواء الطلق وجلس على حافة الباب أمام ساحة آريزو حيث كانت الطيور تنعق وفتح المغلفات.

حين اكتشف الرسالة المكتوبة على ورق أصفر ـ « هذه الكلمة لمجرد إعلامك بأنني أحبك. التوقيع: أنت تعرف من».

ارتسمت بسمة رقيقة قطعت وجهه فرفع كتفيه وهو يتمتم:

ـ إنك تبالغين، أمي...

١١

بينما نزل ڤيكتور بخفة ليأتي ببريده، توقف متكوراً في أسفل السلم، وقد تسمر على قرص الدرج، وهو يستند إلى البلاطات الخزفية، لاهثاً في البهو المعتم. كانت يداه ترتجفان.

قرأتْ عيناه الأسطر المكتوبة، مرة أخرى:

«هذه الكلمة لمجرد إعلامك بأنني أحبك. التوقيع: أنت تعرف من».

لا تستطيع أية رسالة أن تعذبه هكذا. لا يهمه من هو الذي أرسلها إليه. أجل، لا يهمه ذلك: لم يكن يريد أن يسمعَ أحداً يبوح له بحبه.

كان يعرف، وهو متضايق، أنه غير قادر على الصعود ثانية إلى الغرفة العلوية حيث ينتظره رفاقه في الجامعة. على كل حال، إن التي ــ أو الذي، قد كتب له تلك الرسالة ربما ينتمي إلى المجموعة التي هي فوق...

هزَّ رأسه، يائساً. «لمَ لا يتركونني وشأني؟ لمَ تنتهي الأمور دائماً هكذا؟»

قرر أن يمشي بذريعة شراء فطيرة، فانتزع ذاته من وهنه وخرج من البناية وتلقى أشعة الشمس.

قال له لودو الذي كان يدخن سيجارة على درج المدخل:

ــ نهارك سعيد ڤيكتور.

غمغم بتحية وانطلق على الرصيف.

أطلقت أيڤ وشعرها في مهب الريح من عربتها السريعة والتي هي بلون دم البقر قائلة:

ــ نهارك سعيد ڤيكتور.

صاح هيبوليت، حين قطع ڤيكتور ساحة الببغاوات:

ــ نهارك سعيد ڤيكتور.

نادى بائع الزهور وهو يصف أزهار الأركيدة على طول واجهة العرض:

ــ نهارك سعيد ڤيكتور.

كان يردّ على كل واحد بإشارة مرتبكة. فالجميع يتأملونه بود. والناس يعشقون ڤيكتور من النظرة الأولى.

إنه يُجسد الشاب المثالي، الجذاب لكنه غير واعٍ لجاذبيته، الممشوق القوام وإن بدا متلبكاً أمام مظهره الفيزيولوجي، فغالباً ما ينحني إلى الأمام لينسى الناس أنه طويل، ويختبئ تحت طبقات كثيرة من الملابس. يمشي، عادة، بمرونة الهر الصامتة، شأن نمر وحشي ضاع في أدغال المدن، إلى أن يوجه أحد إليه الكلام، حينئذٍ يصبح شخصاً آخر، منفتحاً، محدثاً، سعيداً بتبادل الأفكار، يطرح أسئلة دقيقة ويستمر في المحادثة بسرور ظاهر.

سكن في ساحة آريزو منذ عام، فاستقبله أهل الحي كهبة من الله ما دامت الجاذبية تُعد دائماً بالنسبة إلى البشر هدية من السماء. كانت بشرته الفاتحة اللون والمشرقة، أقرب إلى الصدفية، بشحوب يبرزه شعره الأحمر القاتم، فتوحي تلك البشرة بأن إلهاً رساماً قد صنعه في الصباح ذاته.

كان جميلاً، لكن جماله لا يمكن أن يُصنف وفق الرسوم الساحرة: فإذا بدا شَعره «رومنسياً» لكنه بلا تكلف ولا تمحور حول الذات كما هي الحال فيما هو «رومنسي». فإن كان يلبس بذوق مرهف، لم يكن يتعمده لكنه لا يستطيع أن يمتنع عن ذلك. وإن كان ينبعث منه سحر خناثوي، أنثوي من عينيه وفمه وتسريحة شعره أو من يديه، وذكوري من جذعه، ووركيه أو من أنفه، لكنه لم يكن ينمي ذاك الغموض، مكتفياً بأن يكون هكذا. بمجمل القول، كان ڤيكتور يعجب كل الأعمار وكل الأجناس. إلَّا أنه يجب تحديد كلمة «يعجب»: فهو لا يثير رغبة جنسية، بل تعاطفاً عنيفاً مبطناً بمتعة تأمل كائن شجي. لم يكن يظهر عنده أي غرور، بل على العكس، ثمة تحفظ وهشاشة وقلق وحتى التصدع. يظن بعضهم أنهم يعرفون سبب ذلك منذ أن نشرت فتاة ثرثارة النبأ، في الكلية: كان ڤيكتور يتيماً، وهي إشاعة لم يكذبها ولم يثبتها، فحياء ڤيكتور فرض الاحترام.

وصل إلى المخبز وهو غارق في أفكاره. كان البائع وهو هاو رياضة متحمس، بقميص قصير يُظهر صدره الممرن، قد قطب وهو يلمحه.

ــ نعم، ڤيكتور، ماذا تريد؟

ــ فطيرة بالزبيب، من فضلك.

بالنسبة إلى هذا الرياضي المناضل، فإن ڤيكتور يمثل حالة منهج يُؤلمه: لم يكن ڤيكتور مفتول العضلات لكنه يجذب كل الناس بما فيهم هو. غالباً ما تخيل البائع ڤيكتور بكتفين أعرض وصدر بارز وردفين وعضلات نامية؛ يا للأسف، لقد شعر أن ذلك لن يحسنه، بل يجعله عادياً، وأسوأ من ذلك، غير متناسق. كان ڤيكتور يدحض إيمانه بالعضلات المفتولة.

رجع ڤيكتور إلى ساحة آريزو ومعه الفطيرة، وهو يجهل الصراع الذي أثاره في نفس البائع.

كان السير مفيداً له. عليه ألّا يهلع. لم يعلن أحد مسؤوليته عن هذه الرسالة ـ وهذا ما يعطيه مهلة. بعد ذلك، إذا تحددت الهوية، سيتوصل إلى أن يعلن رفضه. ألم ينجح دائماً بالخروج من المآزق حتى الآن؟

غار في البناية ذات الطراز المعماري (Art déco)، صعد الطوابق وسلك الممر الخشبي وسمع صرخات أصدقائه، فسحب نفساً وفتح الباب.

ـ ما الأمر، لقد استغرقت وقتاً!

ـ اشتكوا! انظروا ماذا جلبت لكم.

استقبل تصفيق جماعي ظهور فطيرة الزبيب، الكعكة اللذيذة بعنب كورنت.

أبعدوا أوراق الدروس المصورة وكدسوا كتب القانون جانباً وقطع الشبان مراجعاتهم ليكرموا هذا الفطيرة الشهية وهم يصبون القهوة ثانية.

بينما راح أحد رفاقه يروي ذكرى من طفولته، وآخر يشرح وصفته لصناعة الكعكة بالزبيب، وآخر الفرق بين الكعكة بالزبيب وبسكويت قاس ـ ففي ذاك الصنف يستعاض عن الزبيب بحبيبات من السكرـ، أخذ ڤيكتور يتفحصهم وهو يتساءل إن كان مرسل الكلمة موجوداً بينهم.

هل هي ريجين أم باسكال؟ حتماً لا لأنهما يسهران معاً. أما لويزون، فالكل يعرف أنها مع دافيد، وهو طالب في كلية الطب. وكولين ابتدأت قصة مع تريستان. بقيت إذاً جولي وسالوميه وجيلداس.

بالرغم من أن ڤيكتور قد شحذ أجهزته الدماغية اللاقطة لكنه لم يدرك شيئاً. بدا له أن جواً من الرفقة الصريحة يهيمن في الغرفة، لا يعكرها الجنس.

ـ ماذا بك، ڤيكتور؟ هل ثمة مشاكل تزعجك؟ انحنت ريجين نحوه. ما العمل؟ هل يرغم الطريدة على ترك الغابة؟

ـ إنه البريد.

توقف الجميع عن الكلام.

ـ ماذا؟

ـ هل هناك نبأ سيّئ؟

ـ قل بسرعة!

وقد ارتاع ڤيكتور من اهتمام المجموعة الكبير، تخلى عن هواجسه فوراً:

ـ كلّا... أنتظر رسالة تتعلق بتجديد منحتي و... لم تصل.

أجاب جيلداس:

ــ لا تقلق. إنني في وضعك عينه وأعرف أن ذلك لن يصل إلَّا بعد أسبوعين، إذا استسلمت للأفكار الكئيبة منذ الآن، فستمضي خمسة عشر يوماً جهنمية.

ــ حسناً، شكراً.

ضحك الجميع ارتياحاً وعادت الدردشات.

تفحص ڤيكتور رفاقه كأنه يسلط عليهم أشعة كهربائية. هل تغير أحدهم منذ ذكر البريد؟ هل ثمة واحدة تبحث عن نظره؟

تساءل أليس من الأفضل، ليعمق بحثه عن المرسل، أن يترك الرسالة مهملة على الطاولة بطريقة مرئية؟

نهض بحجة تحضير القهوة وأخرجها من جيبه ووضعها بالقرب من المجلى. هكذا، كان متأكداً أنهم سيرونها، حين يأتون لغسل أيديهم.

عادوا إلى مراجعة الدروس. راح الطلاب التسعة يطرحون على بعضهم بعض أسئلة، متأكدين من سعة معارفهم ودقتها في القانون الدولي. شيئاً فشيئاً، فقد ڤيكتور قلقه. كان يحب أصدقاءه ويسعده أن يكون معهم ويسره أن يعرف أنه ليس هناك أي غموض أو التباس فيما بينهم.

عند الظهر، كانوا قد استوعبوا الدرس، وأعطوا موعداً لبعضهم في الغد.

قبَّل ڤيكتور كل واحد منهم وفتح النوافذ لتبريد الغرفة التي جعلتها كل تلك الأدمغة المتقدة حارة وجمع الفناجين. وحين وضعها في قعر المجلى، لاحظ أن الرسالة قد اختفت.

بحث في كل مكان. لم يكن المطبخ أكبر من خزانة عريضة، فاضطر بخمس ثوانٍ إلى أن يستنتج أن أحداً ما قد أخذ الرسالة معه.

إذاً، أحد الحاضرين قد أرسلها وحرص على أن يثبت ذلك بالاستيلاء عليها. فالنتيجة واضحة: ستكشف قريباً عن هويتها، وستبدأ المشاكل.

وقد استشاط غضباً، رغب في أن يكسر كل شيء. لكنه تذكر في اللحظة الأخيرة أن كل شيء، هنا، قد أهدي إليه. من دون أن يتردد، أمسك بالهاتف ونادى عمه قائلاً:

ــ باتيست، أعتقد أنني سأرحل.

ــ ثانية... ماذا تروي من حكايات؟

ــ مغادرة بروكسل.

ــ لماذا؟

ـ أهناك حاجة لسبب؟ إنني أترك بروكسل.

ـ أي شيء قد خيب أملك، ڤيكتور؟ بروكسل أم جامعتك؟

ـ لا أعرف.

ـ كنتَ تقول أمس لجوزفين إنك تعشق الحياة هنا.

ـ كان ذلك يوم أمس.

ـ وماذا حدث اليوم؟

ـ أريد أن أرحل.

١٢

للمرة الثالثة، راحت تقرأ تلك الصفحة لنيتشه. فإن كانت تفهم الجملة الأولى، إلَّا أن اهتمامها ينزلق عند الجملة الثانية ويقع قبل نهاية المقطع؛ يبدو أن النص يُقدم سلماً وعراً تحاول أن تنزله لكنه يهرب ويجعلها تقع؛ في كل مرة، وهي مكتئبة، لا تكتشف إخفاقها إلَّا بعد أن تعي وتدرك أن عليها أن تبدأ من جديد.

تأوهت قائلة:

ــ ماذا يحدث صديقي نيتشه؟ إنك تثير شغفي أقل مما اعتدتُ عليه... بينما كانت يدها تفرك أسفل بطنها تحت الكيمونو (المئزر الياباني) لتؤكد لها أن عملية نزع الشعر قد تمت ببراعة.

ابتسمت ديان للربيع الذي استقبلته كأن «الصيف قد أقبل». كانت مستلقية على كرسي طويل وسط سطح بيتها، أمام الأشجار الملأى بالببغاوات، تحميها من نظرات السكان أحواض الأزهار التي صُفِفَت بحكمة، فكانت تعرض وجهها ونحرها العاري وكذلك كتفيها لأشعة الشمس الدافئة. وهي ترفع ذقنها خوفاً من ألَّا يسمر عنقها. وضعت كتابها هذا هو الإنسان«Ecce Homo» إلى الأعلى وتابعت القراءة:

«إن الدعوة إلى العفة هي تحريض جماعي ضد الطبيعة. فاحتقار الحياة الجنسية وإضفاء القذارة عليها عن طريق فكرة النجاسة، هو جريمة حقيقية ضد الحياة ــ إنها الخطيئة الحقيقية ضد روح قدس الحياة».

ثمة وقع أقدام على الرصيف! انتصبت، نافدة الصبر.

تذمرت قائلة:

ــ ألَّا أغش، وألَّا أنظر. لقد وعدت ذلك.

ــ يا له من إغراء، مع ذلك. ما عليها إلَّا أن تنحني قليلاً لترى الرجل من بعيد. انتصب نحرها، وهي مرتعشة وتشنجت أصابعها على المساند وتمالكت.

استمرت الخطوات ودخلت الممر الضيق الذي يؤدي إلى بيتهم.

ــ كلَّا، ومن دون أية طرفة عين! عليها أن تحترم الاتفاق المحدد.

ارتعشت غبطة. ليس لمجرد احترام وعدها فقط بل لسرورها بضبط نفسها. إن أية امرأة عادية تحرص على أن تتبين الشخص الذي ستضاجعه بلا شك في الدقائق اللاحقة. ولكن ليست ديان.

حبست أنفاسها بانتظار رنين جرس البناية الداخلي.

عوضاً عن ذلك، سمعت باب المدخل الثقيل يُفتح ويُغلق. « إنه جار... بالطبع، كنتُ على صواب لأنني لم أنظر»، فكرتْ هكذا لتُخفي خيبتها.

لم تكن قادرة على متابعة قراءتها، فأزاحت مجلد نيتشه، وقرأت ثانية الرسالة التي تسلمتها ولم تفهمها:

ــ «هذه الكلمة لمجرد إعلامك بأنني أحبك. التوقيع: أنتِ تعرفين من»، فاستنتجت أن الذي كبَّدها ذاك المزاح التافه سيكشف عن نفسه قريباً وقررت أن تحتفظ بالورقة كعلامة لصفحات كتاب هذا هو الإنسان.

بعد ذلك، فتحت قليلاً مئزرها كي تتفحص جسمها. فحركتها، شأن نظرتها، ليس فيهما أية أنوثة: إنها نظرة رجل يُعرِّي المرأة التي سيتمتع معها.

وقع الحكم:

ــ لا بأس...

كانت تُعجب دائماً بلحمها الناعم والمشدود على قامتها النحيلة. «في الواقع، إنني أمتاز ببشرة امرأة لحيمة، وحتى سمينة، بينما ليس عندي كيلو غرام زائد. يا لحسن الحظ!» بينما كثير من البشر يعانون من أجسادهم ويتحملونها أو يسيئون معاملتها، كانت ديان تحب جسمها، وتشكر الطبيعة ووالديها أو لا أدري من، لمنحها أنوثة فنية وشهوانية والتي، بالإضافة إلى ذلك، لا تعاني أضرار الزمن. وهي في الأربعين من عمرها، تعتبر نفسها هدية لذاتها ولغيرها. وهذا ما سيتذوقه، هذا المجهول، قريباً.

أكدت لنفسها، قبل أن تغلق مئزرها ثانية:

ــ حقاً لا بأس!

دوى جرس في الشقة. جُنَّ جنونها. كيف يستطيع المجهول أن يرن الجرس قبل أن يُفتَح له باب البناية الخارجي؟ ركضت خلف مصراع المدخل.

ــ نعم؟

قال صوت لم تكن تعرفه، صوت رخيم، ملتهب، نجس، صوت عملاق براحتين خشنتين:

ــ هذا أنا.

همست ديان:

ـ العنوان صحيح.

ـ هل وضعتِ قناعك؟

ـ إنني أضعه.

ـ حسناً جداً. افتحي.

ابتسمت ديان: ليس لأن هذا الصوت الذي بدا قد عرك الحياة يروق لها فقط ولكن هذا «الحسن جداً» الجاف والقاطع قد ظهر لها ذا فأل حسن، معلناً عن سيد صارم يعرف أن يقدر طاعة تلك التي ستخضع له.

أمسكت شريط الحرير الأسود الذي حضَّرته في جيب مئزرها الياباني وربطته على عينيها. هكذا وقد عميت، فتحت مزلاج الباب.

قالت في الخواء:

ـ أهلاً وسهلاً.

ـ لا تقولي ترهات.

أمسكتْ يدٌ ذقنها ورفعته. التصقت شفتان باردتان على شفتيها. وشق لسان ممراً في فمها، فملأه مدفوعاً بتطلبه القهري والمكتسِح؛ أحست ديان على الفور أنها ستعيش لحظة ممتعة.

حين أرادت أن تتعلق بكتفي الرجل، قطع الملامسة ودفعها إلى وسط الممر، وهو يصفق الباب خلفه.

ـ عندي معداتي. أين نذهب؟

ـ أية معدات؟

ـ طرحت عليك سؤالاً!

ـ نذهب إلى غرفة نومي.

ـ قوديني.

لقد لامت نفسها لأنها لم تفكر في التدرب على المسافة بعينين مغمضتين، فتلمست الطريق للوصول إلى غرفة نومها. دفعها الرجل بتنهد استياء، وهو يؤكد لها أنها تبدو بلهاء.

ما إن تعرفت إلى الممر الصحيح حتى تقدمت بسرعة أكبر، وأصابعها تلامس الجدار حتى باب غرفتها.

دخلا الغرفة، ومن دون أن تحرك ساكناً، وجدت نفسها عارية أمامه. انزلق مئزرها الياباني تحت أصابع الرجل المجهول، كأنه بتأثير سحر.

سرت ريح منعشة على كتفيها.

فكرت بإخفاء عورتها ثم تمالكت. على العكس، قوست بعناد خاصرتيها.

لم يكن ينبس ببنت شفة.

قسا نهدا ديان. كانت تعشق تلك اللحظة، حيث تقدم نفسها شأن بضاعة، إلى شخص مجهول تماماً، فهو يلائمها بقدر ما مزج حتى الآن بطريقة محببة العذوبة والخشونة.

مضت دقيقة، طويلة، غنية، متوترة.

كانت تعرف أنه يتأملها وأنه يلتهمها بعينيه. فالصمت مقياس الرغبة التي تنمو. عليها بخاصة ألَّا تسأله إن كانت تعجبه وألا تتفوه بأي تعبير غير ملائم.

لم يكن يتحدث قط. تذوقت انتصارها. كلما طال صمته زاد تقديسه لها.

لو كانت امرأة عادية، لأعطاها أمراً. لكن لم يكن يتحرك شيء في الغرفة.

ارتعشت لمعرفتها كم هي جميلة ومبجلة. سرت قشعريرات في جلدها بينما كانت نظرة الرجل المجهول تداعبها. ومن دون أي تلامس بينهما، راحت تسلك طريق المتعة.

كأن الرجل قد استشف ذلك، خاف أن تبلغ شريكته النشوة فتضعف سلطته عليها، قطع المشهد بأمر قائلاً:

ـ اجلسي على ركبتيك. سأهتم بك.

جلست القرفصاء. سمعت، بالقرب منها، صوت حقيبة معدنية صغيرة تُفتَح. ترى ماذا يدبر؟

قبضت يدان غليظتان على يديها وأحست شيئاً بارداً ومزعجاً يطوق معصميها، ثم جرها الرجل نحو السرير ومدَّ ذراعيها إلى الأمام فسمعت طقطقة.

أغلال. اغتبطت ديان في سرها.

لا شك أن تلك التي تبجل الإخراج المسرحي نالت ما تبتغي. ارتعشت بهجة... تتلذذ لأنها في منتهى السلبية...

رجع إلى حقيبته وأمسك أشياء معدنية كثيرة. ماذا سيفعل لها الآن؟

استمر الضجيج. هل كان متردداً؟ لم يكن ذلك نمطه. إذاً، ماذا يُحضر؟

لم يكن هناك أي سبب للتباطؤ...

فجأة، ذُعرت ديان. تعرفت إلى صوت نصل سكين! سكين بنصل طويل وعريض... سكين جزَّار... سكين لتقطيع اللحم! كانت متأكدة من ذلك! كان يشحذ الحد القاطع.

أدفأ القلق صدرها وصدغيها. تتابعت الأفكار مرعبة، ازداد تهديدها. وإذا كان مجنوناً؟ وإذا كان يتظاهر باستعمال ممارسات جنسية مرهفة ليشبع دافعاً آخر، هو دافع القتل؟ هل تركتْ مريضاً نفسياً مختلاً يدخل بيتها؟ لا أحد يعرف أنه هنا. راحت تئن. لا مجال للتحرك لأنها كانت مكبلة اليدين.

بلحظة، غرقت ديان في العرق. يبدو أن عرقها قد نشر عطراً حامضاً في الحجرة لأن الرجل قال ساخراً:

ــ آه، يدب الخوف، فجأة؟ يُتساءل عما سيحدث. لقد أصبتِ، صغيرتي، معي، لا أحد يعرف شيئاً على الإطلاق.

أرادت أن تطمئن نفسها بإلقائها جملة وقحة لكن الوقت لم يسنح لها. فقد أدخل كتلة من الكاوتشوك في فمها، مربوطة بشريط مطاطي.

لفظ الصوت برضا:

ــ هكذا، إذا خطر لك أن تنادي، لن يعود في استطاعتك ذلك.

احتجت. بالطبع، تخص هذه الكمامة الألعاب الجنسية التقليدية السادية/المازوشية؛ لكن تلك الكمامة تستطيع أن تثبت رغبة شريكها لمنعها من الصراخ وطلب النجدة حين سيقطعها بالسكين.

ــ لا تهتزي!

لم تكن تتحرك، كانت ترتجف.

وضع بغتة على ظهرها شيئاً سائلاً ومتجمداً. ارتاعت، فتساءلت. يا للغرابة... شيء يصعد وينزل. ببطء. بسبب الهلع الذي هزها، استغرقت عدة ثوانٍ لتدرك أنه نصل السكين. شعرت بارتياح عنيف: هكذا كان يلهو. إنه حقاً شريك، وليس قاتلاً.

ركَّزت على الأحاسيس التي يقدمها لها. كان النصل يتبع خطوط جسدها، يترك منطقة ظهرها المصقولة ليحاذي النتوءات والثنايا. تطور الأمر بطريقة خطرة. كان من الملزم ألَّا تتحرك.

تابعت تجواله وارتعشت لتفحصه لها هكذا. أدركت أن الوضع قد انعكس: فهو الذي يشتغل الآن في خدمتها، صار السيد عبداً للعبدة وهو يتفنن ليفاجئها ويفزعها ويجعلها ترتعش.

شُغفت خصوصاً باللحظة التي اجتاز النصل فيها نهديها وعنقها. ففي نحرها، تسارع نَفَس الرجل، مخنوقاً. هل كان يتذوق المتعة؟

حدث ذلك مرة ثانية، كأنه قد سمعها تفكر، فابتعد.

حمحمت لتشير إليه أنها تريد أن يعود. تعمد ألّا يَبدو منه أي رد فعل.

«لا شك أنه سادي حقيقي، ذاك الذي يشمئز من خدمة ضحيته».

مرَّت ديان من دور إلى دور آخر، باعتبارها مُغامِرة تبحث حقاً عن المتع. وقد أسفت لبادرة طلبتها، فخشيت أن يشك من تقلبها وتحولت ثانية إلى خاضعة.

في نهاية دقائق كثيرة لا تُحتمل، شعرت بدغدغة غريبة. تعرفت إلى منفضة ريش. هكذا قرر أن يفرض عليها العنف تارة والدغدغة طوراً؛ فالريشة جاءت بعد النصل! ارتعشت، وهي تعرف أن لا شيء أكثر إزعاجاً من جلسة دغدغة، وقد يؤدي بها ذلك إلى حافة الجنون.

فعلا، كان هذا اللعب مرعباً.

فجأة، ماذا حدث؟ أهو إصبع الرجل أم أداة أو لسانه؟ لم تكن تعرف شيئاً. لكن شيئاً مجهولاً دخل بين ساقيها وأوصلها إلى النشوة في ثلاثين ثانية.

كانت دائخة، فبقيت لحظة خائرة القوى.

أثناء ذلك، أدركت أن الرجل يرتب أدواته في حقيبته الصغيرة.

ـ تحية حسنائي. أقدم لك الأغلال للذكرى. لم يتسع لها الوقت لتصرخ وهي تُخَبِّط، كان قد اجتاز الشقة وأغلق الباب خلفه. لقد تركها النذل وحدها، عارية، معماة، خرساء، على ركبتيها، مكبلة إلى سريرها. كم من الساعات عليها أن تنتظر هكذا ريثما يعود زوجها؟

١٣

كانت كزاڤيير، وقد اختفت بين الزنبق وأزهار سيف الغراب، ترتب باقات أعواد الصليب في أصص وتراقب من مخزنها رقم ٨ حيث تسكن فوستينا فاليت، الملحقة الصحافية، لتعرف إذا كانت تلك المومس قد غيَّرت من جديد عشيقها. حين رأت الخلاسي الأنيق يظهر فجأة، عضتْ على شفتيها.

ــ آه كلَّا!

تعرفت إلى المحامي داني داڤون الذي شهَرَته أجهزة الإعلام حين دافع عن مهدي مارتان، الشاذ جنسياً، والمهووس الأسطوري التعيس بسبب سلسلة الجرائم التي ارتكبها على فتيات صغيرات، فهو وصمة عار على بلجيكا.

ــ هذا كثير جداً، هذا مبالغ فيه.

ــ بالنسبة إلى كزاڤيير، تجاوزت فوستينا الخط الأحمر: فمضاجعة المُدافع عن مهدي مارتان تعني كأنها تضاجع مهدي مارتان. لم يعد المحامي جديراً بأن يُعَاشَر. إن الاقتراب من مهدي مارتان، وإن كانت الأسباب مهنية، يكفي كي يستعيد هالته الجهنمية، ويصبح هو مجرماً.

ــ كزاڤيير، ألم تسافري في عطلة عيد الفصح؟

ثارت كزاڤيير لإزعاجها، فاستدارت ونظرت إلى الآنسة بوفير شزراً.

ــ كلا، لا أستطيع أن أسمح لنفسي بذلك.

فجبينها المتغضن وحاجباها المتقاربان ونظرتها الفظة تشير إلى المرأة البرجوازية بأنه لم يكن في حياتها مكان للبطالة.

ــ إن يوماً من إغلاق المحل يكلف غالياً. فالأزهار لا تفهم أنه يوم عطلة: فبدلاً من أن تستريح تذوي.

كانت نبرتها تعني: «إنني لا أتصرف كمجرم، لكن شأن كائن مسؤول».

ختمت قولها:

ــ إذاً، بخصوص العطل، لا نحلم بها! ربما في حياة أخرى... من العسير جداً كسب المال.

كانت توحي لزبونتها، من خلال تلك الصيغ: « كلَّا، خلاف ما يقوله أهل الحي، لا أبيعهم أزهاري بسعر غالٍ. لا أتجاوز حدود الربح، ولو فعلتُ، لكنتُ «كريزوس»[1] لكنني فقيرة».

أضافت، بثقة الخبير الذي فحص كل قطع الملف:

ــ لا سيما في هذا الوقت!

لقد استخدمتْ هذا التعليق، منذ بدايات حياتها المهنية، إلَّا أنه منذ شخَّص المختصون أن أوروبا في أزمة، أزمة اقتصادية عالمية بائسة، فإن هذا التعليق يحدث أثراً كبيراً.

سخرت الآنسة بوفير بانزعاج قائلة:

ــ تهانيَّ، كزافيير، وأنت من دون عطلة، تمتازين بسحنة رائعة.

أعجبت الزبونة من بشرتها الذهبية، ذات اللون الواحد، المنتظم والذي يبرز عينيها الزئبقيتين.

تأثرت كزافيير بالملاحظة، ففكرت بالإقامات التي كانت تمضيها سراً في بحر الشمال، كل أسبوع، يومي الأحد والاثنين في الفيلا الظريفة التي يمتلكها صياد والتي رتبتها؛ ولكن، بما أنها كانت تحرص على أن تخفي عن الجميع نمط حياتها الحقيقي، رفعت كتفيها.

ــ قليل من الزينة. ونتدبر أمرنا بالوسائل التي بين أيدينا.

ــ إنك تتمتعين مع ذلك ببشرة رائعة.

سُرت كزافيير من الإطراء، فكانت النتيجة مبتكرة: اجتاحها الغضب. من تظن نفسها، تلك البوفير! يا لتلك الألفة التي لا تُحتمل! تحدثها عن بشرتها، تسعى لأن تكون لطيفة معها... إذا استمر الحديث على هذا المنوال، فعليها أن تبتسم، وأن تظهر دماثة. مستحيل! لن يرغمها أحد على الرقة واللطف.

ــ حسناً، هل قررتِ أخيراً ماذا تريدين من الزهور؟

إن ما يزعج كزافيير لم يكن وحده شعور الناس بالارتياح معها، لكنها لا تتحملهم إلَّا وهي تعضهم أو تخدشهم.

أشارت الآنسة بوفير، مرتاعة، إلى أصيص.

ربما تشكيلة أعواد الصليب: الوردية والياقوتية؟

---

(١) Crésus. آخر ملوك ليديا، نحو ٥٦٠ــ ٥٤٦ ق.م. اشتهر بثروة أسطورية جمعها من مناجم الذهب الغنية في مملكته القديمة الواقعة في آسيا الوسطى- (المترجمة).

ــ اختيار ممتاز.

انطلقت الكلمات من تلقاء ذاتها لأنها كانت قد اعتادت تدوين اختيارات زبوناتها الفنية، وهكذا تحافظ على توتر ثابت في محلها.

صرخت باتجاه الغرفة الزجاجية، في الباحة الخلفية:

ــ أوريون، باقة!

برز عجوز طويل القامة، مُخَلَّع المشية، بملابس غير مرتبة، هزيل الجسم إلَّا على مستوى المعدة، أشعث الشعر، فاغر الفم، بعينين متسائلتين، شأن مستغرق في النوم قد أوقِظَ تواً.

ــ باقة للآنسة بوفير، أترغب في ذلك، أوريون، من فضلك؟

حمل معه الباقات التي مدتها له وذهب لينفذ الأمر. قبل أن يجتاز الباب، استدار، وقد مسته إشراقة مباغتة، فاقترب، بود، من الزبونة.

صرخ بحرارة:

ــ كيف حالك، آنستي العزيزة؟

ــ بأحسن حال، أوريون، بأحسن حال.

ارتجفت، مضطربة، وقد انحنى ليقبلها على خدها، تدفعه مودة عفوية.

فالاشمئزاز الذي أحسته الآنسة بوفير بسبب احتشامها المتطرف الذي لا يتحمل مظاهر الود قد راق كزافيير. ذهب أوريون في حركته حتى النهاية وأغمضت الآنسة بوفير جفنيها حين دوت القبلة.

ختم أوريون قوله:

ــ إن الآنسة بوفير دائمة النضارة والأناقة.

أجابته وهي تأمل ألَّا يطول هذا التماس:

ــ شكراً، أوريون، شكراً.

ــ سأصنع لك أفخم باقة ممكنة، آنستي. لن تناسب مقامك مطلقاً لكنني سأبذل قصارى جهدي.

تكلفت الآنسة بوفير بضحكة قصيرة حادة، وهي متضايقة من أوريون ومحرجة من نظرة كزافيير.

حين ابتعد، انتفضت ثم توجهت نحو بائعة الزهور قائلة:

ــ كيف حاله؟

ــ أوه...

رفعت كزافيير عينيها إلى السماء، وهي توحي بأن وضع زوجها يتفاقم.

ـ يا لتعاستك...
ـ هو الذي يدعو إلى الشفقة... أنا... أخيراً، حالياً، لا يعي شيئاً.
ـ آه نعم؟ هذا أفضل.
ـ طبعاً... ولكن إلى متى؟

كي تدرك الآنسة أن الحديث، المؤلم جداً، ينتهي هنا، انشغلت كزافْيير بتصفيف أزهار الترياق.

قبل أربعة أشهر، وقد هبط عليها الوحي فجأة أمام زبونة ضايقتها وهي تعدد مختلف أنواع السرطانات التي أصيبت بها أسرتها، ادعت فجأة أن أوريون مصاب ببداية مرض ألزهايمر.

أحدثت القصة بالغ الأثر. ليس لأن الزبونة بكت على الفور، لكن توافَد جميع أهل الحي بعد ذلك ليروا المسكين. فبالرغم من عدم وجود كلمة صحيحة في تلك القصة، إلّا أنها بدت مقبولة من كل واحد، فزوج بائعة الزهور لم يكن يوماً ذا تصرف طبيعي.

كان أوريون يفيض وداً ولطفاً. شأن كلب، يظهر فرحاً لكل شخص يعرفه. ما إن يميز وجهاً مألوفاً، حتى يشعر بأن لا شيء أكثر أهمية في نظره من الركض نحوه. كم مرة قطع الشارع من دون أن يحذر السيارات وقفز على حواجز حديقة البلدية، مجازفاً بفقدان الباقات التي يسلمها، ليلقي تحية حارة؟ فإذا ما تُرك على سجيته، انطلقت منه جوقة الهتافات والمدائح. فهو يكرر فرحه بتلك اللقاءات، ويهنئ الناس على كل ما لديهم من روعة ـ من اسمرار جلدهم وتسريحة شعرهم ووشاحهم ومعطفهم وكلبهم الصغير. لقد كان ودوداً حتى الغرابة، ويبتسم مرة أخيرة ثم يبتعد من دون أن يلاحظ أن العابر قد أجاب باقتضاب على تحيته.

ما إن تُطلب منه خدمة، حتى يتحمس للمهمة الموكلة إليه ويُقسم بأنه سيبذل أقصى جهده ليلبي الطلب على أكمل وجه. مع الأسف، لم تكن استطاعته بعيدة المدى، وأقل بكثير من حسن نيته، وبما أنه كان يضيف ضرباً من الطيش إلى عدم الكفاءة المطلقة، فإنه يخفق في تنفيذ وعوده.

تبدو المحادثة معه بالأمر العسير. فإما أن يجعله فرحُ رؤيتك يكرر عشر مرات الجمل ذاتها، وإما أن يتركك لأنه لمح أحداً ما عليه أن يحييه. إن الذين استقبلوا الزوجين بائعَي الزهور على العشاء لاحظوا أنها هي وحدها التي تتحدث، أما هو فيصمت، ويصغي بعينين يقظتين، وحتى مندهشتين إلى المتحدثين. نادراً ما يتدخل في الحديث، ودائماً خارج السياق. في الواقع، تكفيه كلمة كي يشطح ذهنه. هكذا، حين سمع، ذات مساء، مناقشة عن الدين، قاطع المدعوين قائلاً: «يسوع؟ إنه رائع،

يسوع! دائم الجمال، دائم الصبا. هل رأيتم يسوع دميماً في كنسية أو في لوحة؟ كلّا. لم يره أحد قبيحاً، فالفنانون يصورونه رائعاً. يا له من نجاح! لا يمكن أن تكون الديانة المسيحية بلا قيمة، أليس كذلك؟» من أية روح خرجت تلك الكلمات؟ أية أفكار عصفت بذاك المخ المختل؟ فأوريون يَعصى على أي فهم.

كانت كزافيير قد صادفته قبل خمسة وعشرين عاماً، في فترة كانت تعيش فيها حياة متحررة، فغالباً ما تسهر. ذات مساء، لاحظته، في ملهى ليلي، واقفاً على طاولة، ثملاً بعض الشيء، يقوم بعرض يخلع فيه ملابسه وهو يغني «La vie en rose» بشكل خاطئ على كل حال. فابن الثلاثين، الممشوق القوام والمعروف والأنيق وعاشق اللهو والسهر كما يستطيع البلجيكي وحده ربما أن يكونه، قد جذب تلك الفتاة المحاسبة، ابنة محاسب. قدرتْ أنه مجنون، مختلف عن الآخرين، خيالي كالروايات. بالإضافة إلى ذلك، كان يُخرج دائماً أوراقاً مالية من جيوبه، فيُمتع أصدقاءه بطيب الطعام ويقدم جولات من المشروبات الملكية إلى مجهولين.

تقاربا، من مبادرة وحيدة لكزافيير.

ذات ليلة، اعترفت له أنه يبدو لها غريب الأطوار. أجاب بحركات كبيرة، كأن ذلك مسألة طبيعية:

ــ هذا طبيعي. إنني هكذا منذ قفزة الملاك التي قمت بها.

ــ عفواً؟

ــ ذات مساء، في منتصف الليل، حين كنتُ ثملاً تماماً، رجعت إلى بيت والديَّ مع أصدقاء رافقوني لأنني لم أكن في حالة تسمح لي بقيادة السيارة. صحبتهم إلى الحديقة وأردت أن أقفز من شرفة الغطس إلى المسبح. لكن...كنتُ قد نسيتُ أن المسبح قد أفرغ عشية تلك الليلة.

ــ هل تكسرت؟

ــ عشقتُ قفزة الملاك هذه، إنني أتذكرها جيداً، فهي بلا مناقشة أكثر علواً من كل قفزات الملاك التي قمت بها طوال حياتي. كانت صافية، واضحة، باندفاع مذهل، وبضبط كل لحظة، فهي أشبه بتوقف معلق. المعجزة! إلّا أنني شعرت أن الارتطام بالبلاط كان قاسياً، ثلاثة أمتار في العمق. أعتقد أنني فقدت الوعي.

ــ ماذا حدث بعد ذلك؟

ــ آه، بعد ذلك، كانت تلك قضية الأطباء. بصراحة، لقد عالجني أفضلهم. كان والدي يعرف المسنين منهم والشباب في مستشفى سان ــ لوك. كانوا واثقين أنهم قد نجحوا في ترميمي، وبدوا مسرورين من أنفسهم. في الواقع، منذ ذاك الحين، لم يعد شيء يماثل ما كان من قبل.

بناءً على ذلك، ضحك، مرحاً، وقدّم الويسكي إلى زبائن المشرب.

أصبح أوريون وكزافيير عشيقين، عشيقين في الصباح الباكر، فهذان الجسدان المرهقان يتركان السهرة حين يُغلِق الملهى أبوابه، وحين لم يكن النهار قد طلع بعد، هذان العشيقان اللذان يريدان تجنب لسعة العزلة. لم يكونا يجيدان تعاطي الغرام. كانا يتناكحان بأدب، ويظهر كل واحد امتنانه للآخر لمساعدته على تمضية الساعات الصعبة بعد صحوة الشراب.

حين فهمت كزافيير، بطرح أسئلة وتحقيقات، أنه لم يكن لأوريون أية مشاريع مستقبلية، وأنه يبذر إرث أبيه، عجّلت من تقاربهما، وهي تقدر أنه إذا استمر أوريون يصرف وفق هذا الإيقاع، فقريباً لن يبقى فتات من المال.

ذات يوم أحد، حوالى الساعة السادسة صباحاً، بينما كان المطر يضرب الزجاج بشدة، بعد نشوة بلا أهمية لكنها ودية، عبَّرت عن أمنيتها بالزواج منه. أعجب هذا الرجل الغريب الأطوار بالفكرة.

كان زواجهما فخماً. لم يبخل أوريون. وقد عهد بمهمة نجاح الحفلة إلى أرستقراطية عجوز بلا عمل، فكان حفل الإكليل في كنيسة سانت ــ غودول، مع جوقات تراتيل وفرقة موسيقية وعربات خيل مكشوفة، تلت ذلك حفلة استقبال في قصر ذي حديقة ضخمة امتلأت بملاءٍ وتسليات متنقلة.

أخيراً، غداة الليلة الأولى لم يتبادلا فيها أية مداعبة لأنهما قد أفرطا في الشراب، سافرا في رحلة شهر العسل إلى البرازيل، فسكرا متنقلين في الفنادق الفخمة وعاشرا المجتمع الراقي بفضل تلك الأرستقراطية.

عرفت كزافيير، إثر عودتهما، أن ثروة أوريون قد تبددت. لم يبقَ له إلّا شقة مؤجرة في إكسل ــ طردا منها المستأجرين ليقيما فيها ــ ومقراً تجارياً بالقرب من ساحة آريزو.

منعته من بيع هذا المكان، وهي تعرف مسبقاً، أنه ما إن يأخذ المبلغ بين يديه، حتى يذوب شأن الزبدة في أشعة الشمس. بما أن إحدى عماتها تدير مخزناً تجارياً في مدينة لييج، فقد استقت كزافيير بعض المعلومات واقترحت على أوريون فتح مخزن للزهور. بدت له الفكرة بالغة الغرابة لذا قبلها.

لقد فوجئا كلاهما بنجاحهما لأنه لم يكن في هذا الحي الميسور محلٌ كهذا. لم يكتفيا بأن برهنا على ذوق مرهف لفنهما، لكن كزافيير أثبتت أنها مديرة أعمال حصيفة وأوريون لا يعرف الكلل. كان في التحول ما يُفاجِئ: فالمتأنق، المولع بالفنون يذهب فجراً إلى سوق «كرو مابرو» ويأتي بالزهور ويرفع الستارة الحديدية

الساعة التاسعة صباحاً، ثم يُغلق الأبواب في الساعة العشرين، وذلك لسبعة أيام في الأسبوع.

في الوقت الحاضر، صار شاب الثلاثين المُنحط عجوزاً مصاباً بعُدَّة وردية ـ ترقطات بسبب الذهابات والإيابات اليومية في الغرف الباردة ـ، وبرأس أجرد وشعر ملتصق على الأطراف، ما يعطيه مظهر فزاعة وسط النباتات.

أما كزافيير، الأصغر منه سناً، فقد اجتازت السنوات بشكل أفضل. بقيت نحيلة ـ كانت تكره أن تطبخ ويأكل أوريون قليلاً جداً شأن مدمن على الكحول ـ وتلبس ثياباً لطيفة بسبب ترددها شأنها كمحترفة في فترات تنزيلات الأسعار، فتبدو أختاً صغيرة لزوجها، هذا الزوج الذي لا تعتبره قريناً بل كطفل عجوز يقع على عاتقها، كضرب من العبودية العائلية، والذي عليه أن يشتغل كثيراً ليبرر الجهود التي يكلفها إياها.

كانت كزافيير تصرخ، وقد استاءت من طول الانتظار:

ـ إذاً أوريون، هل تأتي بتلك الباقة. من المخزن الخلفي، سُمع صوت منتشٍ:

ـ تقريباً... التحفة الفنية قيد الإعداد.

قررت كزافيير متابعة الحوار مع الآنسة بوفير.

ـ إنه لا يتصرف إلّا وفق هواه. والأمر يزداد سوءاً.

ـ هل يفقد ذكرياته؟

ـ من وقت لآخر... فأمس مثلاً، لم يجد طريق المحل.

ـ يا لتعاستك كزافيير... ما رأي الأطباء؟

ـ إنهم لا يتوقعون شيئاً. كما تعرفين، فإن ألزهايمر هو اسم يجمع أنواعاً كثيرة من الانحطاط المختلف والمتنوع.

في تلك اللحظة، برز أوريون، سريعاً كقذيفة.

ـ تفضلي، آنستي العزيزة، لقد بذلت قصارى جهدي.

وضع ركبة على الأرض، وبحركة مسرحية لكنها صادقة، مدَّ الباقة. أثناء ذلك، كانت كزافيير تعد أوراقها المالية.

شكرت الآنسة بوفير، أخذت باقتها ورجت أوريون أن ينهض وابتعدت، مرتاحة لاجتيازها امتحان الشراء من دون اصطدام كبير في هذا المخزن.

قال أويون بدهشة:

ـ يا لجمالها، هذه الآنسة بوفير!

تابعت كزافيير مهمتها من دون أن تجيب. لم تكن تصغي مطلقاً إلى ما يقول؛

مقتنعة أن هذا اللغو في أغلب الأحيان لا يحوي أية فكرة مثيرة للاهتمام، فكانت تمنحه اهتماماً أقل من اهتمامها بنباح كلب.

عاد أويون إلى المخزن الخلفي حين استرعى انتباهه مغلف أصفر على طاولة المحاسبة.

ــ هل رأيتِ ما وصلك من بريد؟

لم يظهر أي رد فعل من كزافيير، فأمسك الرسالة وأحضرها لها:

ــ خذي.

قطبت كزافيير حاجبيها، بعدوانية:

ــ شكراً، لدي الوقت. لن أرتمي على بريدي.

ــ قد يحمل نبأ ساراً.

ــ أتعتقد ذلك أنت؟ طوال خمسة وأربعين عاماً، لم ألاحظ أن ساعي البريد قد حمل إلي أنباءً سارة. أوريوني المسكين...

طأطأ رأساً مثيراً للشفقة. إذا رغبتْ في إنهاء مناقشة مع زوجها، تطلق عبارة «أوريون المسكين» بانزعاج. فيعود، جريحاً، إلى مخزنه الخلفي.

حين اختفى، فتحت الرسالة: « هذه الكلمة لمجرد إعلامك بأنني أحبك. التوقيع: أنتِ تعرفين من». ابتلعت كزافيير ريقها، مغتاظة، وتأكدت أن لا أحد يراها، فدست الورقة في جيبها، وغادرت المخزن.

في ساحة أزيرو، صعدت درج مدخل رقم ٦. ابتسمت سِڤرينّ دو كوفيني حين اكتشفت وجودها.

في البهو، وقد أغلِق الباب، وقفت كزفيير أمام سِڤرينّ، ودمدمت ببعض الأصوات المبهمة، ثم، وقد فقدت أعصابها، صفعتها صفعة رنانة على خدها.

بعد انطلاق الصفعة، استعادت قدرتها على الكلام، وقد ارتاحت:

ــ وبعد، سِڤرينّ، هل جننتِ؟ لا تكرري ذلك معي: كاد أوريون أن يقرأ رسالتك.

١٤

توقف طوم فجأة وهو يجتاز ساحة آريزو، إذ رأى البستاني. تقطعت أنفاسه ذهولاً.

فهذا الجذع التام وهاتان الساقان الرشيقتان وهذا الوجه الواضح المعالم، النقي، الرجولي... لماذا يكابدونه عظمة كهذه؟ من دون أن يُعلموه مسبقاً؟ تفحص خلسة ما حوله، ليتأكد من أن لا أحد قد لاحظ الانفعال الذي أتى على طعنه بخنجر في قلبه.

كانت روعة الرجال تعذبه كثيراً، فتسبب له بلبلة عميقة يجهل إن كانت تعيسة أم سعيدة؟؛ بلا شك الاثنتان معاً، لأن الرغبة تكهربنا بقدر ما تقلقنا.

راح طوم يتأمل هيبوليت، منبهراً. كان قلبه يخفق كمن ركض بينما غُرزت ساقاه في الأرض. سعى، للحظة، كي يسيطر على انفعاله، إلى أن يزيل الانبهار الأولي، وأن يرغم عقله على انتقاد الرياضي وعلى انتقاص قيمة كماله. عبثاً. فبقدر ما كان يبحث عن تفصيل منفر يزداد اكتشافه أن الكل، بدءاً من شعره الحالك السواد حتى رهافة كعبيه والقوة العضلية البارزة تحت الجلد المرن، تجعل هيبوليت لا يقاوم.

حرك دماغ طوم فوراً السؤال الذي غالباً ما كان يشغله كثيراً: هل يحب هذا الشاب الفتيات أم الصبيان؟ كان يحذر طوم من الأجوبة السريعة جداً، تلك التي يعطيها بقابليته التي تحثه على رؤية المثليين في كل مكان، لكنه يتعجب بنرجسية قائلاً: «إنه أجمل من ألّا يكون لوطياً».

تابع طريقه، مبطئاً ودار حول هيبوليت مصوباً إليه نظرة منزعجة ومتقدة ومحمومة، بينما تشنج فكاه، واضطربت عقدة حنجرته، وهو دليل ازدياد إفرازها الجامح، كأنها تقول «إنني مستعدة لآكلك». رفع عامل البلدية رأسه ثم أرسل إليه ابتسامة عريضة.

ارتبك طوم من ذلك. فترنح، خلال بضع خطوات، وهو يتابع تقدمه مندفعاً، لأن هذا الاستقبال قد أظهر حرارة من دون تحفظ ولا حماية: فالرجل ذو الجسم الرياضي قد قدم ذاته تقريباً.

«إن من يعاشر الجنس الآخر ويخلو من قصد خلفي يبتسم هكذا».

مع ذلك، وبالضبط، قبل أن يترك طوم الساحة، تسمر في مكانه، واستدار ثانية وانتظر مزهواً كي يلاحظه هيبوليت ويلقي عليه ثانية نظرة إغراء. اضطرب تعبير هيبوليت واختفت ابتسامته يفتتها التساؤل.

خلص طوم إلى تلك النتيجة: «إنه أجمل من ألّا يكون يحب النساء» وقد نسي أنه يناقض ذاته.

قطع الشارع، وليُعزِّي نفسه، أخرج من جيبه الرسالة التي تسلمها هذا الصباح: « هذه الكلمة لمجرد إعلامك بأنني أحبك. التوقيع: أنت تعرف من».

كانت تلك الأسطر مطمئنة، وقد حملت إليه انفعالاً مختلفاً عما اعتراه تواً، إنها موجة من العذوبة واليقين أمدته بثقة بالمستقبل.

دخل طوم إلى البناية رقم ٧ ونادى ناتان من الهاتف الداخلي، ثم صعد إلى الطبقة السادسة.

كان ناتان، وهو في الثلاثين من عمره، يلبس قميصاً قصيراً أخضر اللون على جسم نحيل، ببنطال جينز ضيق جداً وبخصر منخفض، وصرة ظاهرة، ينتظره في إطار الباب وهو يتمايل.

ــ نهارك سعيد.

إن ناتان يلقي التحية شأن من يرسل قبلة، وهو يمط شفتيه المنذهلتين بطريقة شهوانية. تبادلا القبلات ثم أغلق ناتان خلفهما الباب.

ــ أتريد قهوة؟

ــ ابتلعتُ ثلاثة فناجين في المدرسة الثانوية هذا الصباح.

كان طوم عائداً من درس فلسفة أعطاه من الساعة الثامنة حتى التاسعة.

تأوه ناتان، منهاراً:

ــ لا أفهم كيف تستطيع أن تسرد أشياء ذكية في الساعة الثامنة صباحاً. إنني أعجز عن ذلك. لا حظ، ولا حتى ظهراً، لن ألقي درساً عن كانت أو أفلاطون. ولا الساعة الثمانية عشرة.

ــ وفي الساعة الثالثة والعشرين؟

ــ في الساعة الثالثة والعشرين، إنني قادر على كل شيء. وفي الساعة الثالثة والعشرين، وإذا كنتُ سكران، أستطيع أن أتحدث حتى باللغة الصينية.

اقترب طوم منه وعض أذنه. استسلم ناتان له وهو يطلق صرخات جفلى.

همس طوم ضاحكاً وهو يستمر:

ــ آه أحسنت، كم هو رجولي هذا النقيق!

ــ إذا كنت ترغب بذكَر أكثر رجولة، فاذهب إلى مكان آخر. وإذا أردتَ نساءً بأثداء منتفخة، فعليك أن تذهب إلى مكان آخر أيضاً، أيها المغفل!

قطع طوم تقريظه بتقبيله ملء فمه. تظاهر ناتان، لاهياً، بالاحتجاج ودفع بلسان طوم وصرخ من جديد، ثم حين ترك طوم اللعب، أمسكه ولصق شفتيه على فمه واستسلم إلى قبلة.

تنهد وهو ينهض قائلاً:

ــ حسناً، هذا، قد تم! شطبنا على مربع الملاطفات. الآن، سأشرب قهوتي.

وقد ترك طوم مستغرقاً في الأريكة، اختفى خلف مشرب مطبخه ذي الطراز الأميركي وعاد مع فناجين شاي براقة، بلون زهر الفوشيا ومنقطة بأخضر فاتح.

رأى عيني طوم تستدير دهشة أمام الطقم المقتنى.

ــ جبار، أليس كذلك؟

ــ نعم...

ــ إنه دافيد ماكلورن الذي يصنع ذلك. كما تعرف، إنه هو الذي فرض النبات الدهني اليابس.

ــ أجل... أجل...

كان يهرب طوم من هذا النوع من الثرثرة لأنه لم يكن يهتم بقدر كافٍ بالزخرفة المنزلية لكي يتذكر تفصيلاً ما. تظاهر ناتان بالاستنكار قائلاً:

ــ أستنتج منك أنك لا تحبه.

ــ لقد فوجئت... فهذا ليس ذوقي بشكل عفوي.

أعلن ناتان وهو يبلع ملعقة من المربى:

ــ ذوقك؟ ذوقك؟ أنت عديم الذوق.

ابتسم طوم. لم يكن يسمح لأحد أن يصب عليه كل تلك الكلمات الوقحة؛ أما بالنسبة إلى ناتان، فلم يقتصر على أن يغفر له فظاظته الدائمة وحسب، بل يطلبها منه، كبرهان عن حنانه ومحبته.

لم يكن ثمة شيء مشترك بين هذين الرجلين إلّا أن كل واحد منهما كان يروق الآخر. كان ناتان طويل القامة نحيلاً كأنه قد نُحِت في عصا، مغطى بملابس على أحدث الطراز، بنبرات صوت واضحة وبأحكام متطرفة وبوضعيات متصنعة، بينما كان طوم قوي البنية، مقتصداً بكلماته، مظهراً سلوكاً دمثاً. فإذا كان كل واحد

يستشف من النظرة الأولى أن ناتان الغريب الأطوار يحب الرجال، فإن لا أحد يكتشف عند طوم هذا الجاذب لأنه كان يظهر رجولة هادئة ولا يَعتق طرازه، فيوحي بأنه إنسان لطيف في الثلاثين من عمره وسيتزوج قريباً ويؤسس أسرة.

إن ما كان يغيظ طوم، في ناتان، يجذبه إليه بالقدر ذاته. كان يعشق نبراته الموسيقية الناعمة ويدينها، كما كان يحب مفرداته المصبوغة بالبذاءة بسخاء وكذلك انصياعه لأحدث طرز للملابس وحرصه على تغيير تسريحة شعره ــ شكلاً وطولاً ولوناً ــ، وتعلقه بالمشارب التي يسميها «نزعته» وهوسه بالتردد على أماكن اللوطيين. كانت مثلية ناتان أبعد من أن تقتصر على حياته الجنسية، فلقد اجتاحت كل مجالات وجوده: فمن الصباح حتى المساء، كان يعيش مثلياً ويفكر مثلياً ويتحدث مثلياً ويلبس مثلياً ويسهر مثلياً ويسافر مثلياً. أما طوم، فكان يكتفي بالمضاجعة مثلياً. ويحب ناتان، ــ وهذا ما يدهشه. لحق طوم بعشيقه إلى الطاولة وملأ فنجاناً من القهوة وتناول فطوراً معه. كاد يختنق حين رأى زوجي حذاء على الأرض.

ــ ما هذا؟

قال ناتان وهو يهز كتفيه:

ــ إنه صاروخ إلى المريخ.

ــ لن تلبس هذا؟ علو كلٍ من الكعبين عشرة سنتيمترات. ستبدو...

ــ شأن راع في المستنقعات؟

ــ شأن مخنث متنكر بملابس امرأة من المدينة.

ــ عبقري! هذا بالضبط الأثر الذي أسعى إليه.

ــ وأنا، سيظنني الناس حارسك الشخصي.

ــ هذا هو الأثر الثاني المقصود.

بابتسامة ماجنة، أمسك طوم ذراع ناتان.

ــ اقسم لي إنك لن تلبس هذين الحذاءين مطلقاً.

أمسك ناتان بيده وداعبها.

ــ أجل، أجل. أقسم لك إنني سألبسهما هذا المساء بالضبط.

ــ سأخجل منك.

ــ كف عن مديحي، فهذا يثيرني.

كان طوم وهو مسحور ومرتبك، قد قبّل أصابع ناتان.

ــ ألا تعتقد أنك ستشبه صورتك الكاريكاتورية الخاصة بك؟

عبس ناتان ورد عليه قائلاً:

على كل حال، إني أجذبك لأنني مجنون.

ــ كلّا.

ــ بلى. وهذا يبهجك.

أراد طوم أن يحتج لكنه لم ينجح في ذلك لأنه راح يتساءل إذا لم تكن رؤية ناتان صائبة.

ختم ناتان:

ــ الخلاصة، يقول المثل «وشبه الشيء منجذب إليه» لا تتعب فكرك. على كل حال، ليس هذا المثل لوطياً.

هزَّ طوم رأسه موافقاً: إن لم يكن يريد أن يكون سلوكه لافتاً للنظر شأن ناتان، فإنه كان معجباً بناتان لما هو عليه.

تابع قائلاً:

ــ لا يمكن أن يجد أحدٌ أشخاصاً أشد اختلافاً منا. حين يلتقون بنا يكتشف الناس فيَّ ملكة اللفائف لتجعيد الشعر وفيك هاوي كرة القدم.

ضحكا. في الواقع، كان ناتان مختصاً بالإعلانات وذا نفوذ، يحمل شهادات كثيرة، أما طوم، فكان أستاذاً في الفلسفة ولا يبدي أي اهتمام بكرة القدم.

فكر طوم بإحد الدروس التي أعطاها حديثاً لطلابه:

ــ يجب أن يبقى الفرد غريباً عن المثلية ليعتقد أن الإنسان لا يحب إلّا ذاته في نهاية الأمر، ويبحث عن صورته وينميها. إنها أحد رواسب فرويد القديمة التي تعتبر المثلية نوعاً من إثارة جنسية لصورة الذات في المرآة.

ضرب ناتان الطاولة بفصوص خواتمه الضخمة.

ــ بما أنك جديٌ، فسأستفيد من ذلك! إن ما يقلقني، طوم، هو أنك لا تستهدف البلهاوات المخنثات فقط، لكنك ترنو كذلك إلى مفتولي العضلات من صنف المصارعين.

ــ عفواً؟

ــ أتنكر ذلك؟

ــ لكنني...

ــ كان يجب رؤيتك، في الساحة، أمام البستاني. يخالك المرء باحثاً عن الذهب وقد وجد التبر العملاق.

ــ آه، كنت على النافذة...

ــ نعم، تصور: كنتُ أنظر إلى ما كنتَ تنظرُ إليه.

ــ إنه قطعة رائعة، أليس كذلك؟

ــ قطعة رائعة، لكنه قطعة ملكة، وليس قطعة ملك.

ــ ماذا يعني ذلك؟

ــ هذا يعني: عدم اللمس! إنه منجذب إلى الجنس الآخر، بشكل مطلق. منجذب إلى الجنس الآخر مئة بالمئة. هذا قاس، هذا حقيقي.

ــ كيف عرفت ذلك؟ هل حاولتَ؟

ــ عنده فتاة صغيرة.

ــ إنك تخادع...

ــ صبية صغيرة ترافقه غالباً في الساحة.

ــ ربما ابنة أخيه...

ــ آه، طبعاً، ابنة أخيه التي تناديه «أبي».

خفض طوم عينيه، منزعجاً. تابع ناتان وهو يضخم هستيريته الطبيعية:

ــ رد فعلك لطيف. إنني آسف لتخييب أملك، صديقي، فسبارتاكوس[1] مدينة بروكسل، تنظر إليه، لكنك لا تضاجعه.

ــ كما تفعل أنت؟

ــ كما أفعل. هذا لا يمنع أن ذلك قد أقلقني. هناك، تواً، كان مظهرك شأن القديسة برناديت تتأمل السيدة العذراء في أعماق المغارة. هل أنت قادر على أن تذهب مع هذا الرجل.

ــ أذهب معه؟

ــ تضاجعه.

ــ أجل.

ــ إنك نذل!

ــ أنت لا تستطيع؟

ــ نذل!

ألح طوم قائلاً:

---

(١) Spartacus . قائد ثورة العبيد ضد روما، اشتهر بجمال جسمه وقوته البدنية- (المترجمة).

ـ أجب، أنت الذي تبقى صباحاً على النافذة كي تتأمل البستاني وتشتهيه وتستعلم عن وضعه العائلي، ألا ترغب في مضاجعته؟

ـ بلى، طبعاً. بالنسبة إليَّ، هذا طبيعي.

ـ آه نعم؟

ـ أجل، لأنني لست إلَّا مومساً تحب الشوارب. تجذبني الرجولة. بينما أنت... لا أتوصل إلى فهم كيف يمكنك أن تضاجعني وتلتهمه بعينيك.

ـ لستُ محدوداً.

ـ تصور عينيَّ تخرجان من محجريهما حين ألمح قريدساً على شاكلتي! أقسم لك إن هذا سيخيفك ويخرجك عن طورك وستلتهب ساقاك شهوة.

ـ ارتمى طوم عليه، وقد طرب لتمسرحه الثابت والوفي.

ـ أهواك، أنت...

تمتم ناتان:

ـ أجل... أجل... يقولون ذلك.

بجفنيه المطبقين، وهو يتصنع الرفض غنجاً. تبادلا القبلات ثم ابتسما. وقد تبددت الغيوم بينهما.

نهض ناتان، وهو عائد إلى المطبخ، فهمس في أذن طوم:

ـ لقد عشقت كلمتك.

ـ كلمتي؟

ـ الرسالة التي بعثتها لي.

ـ أنا؟

ـ لا تتكلف الغموض. لا تحتاج لأن توقع كي أستنتج أنه أنت. أخرج ناتان من جيب بنطاله الجينز الضيق رسالة بورق أصفر وقرأ بصوت عالٍ:

« هذه الكلمة لمجرد إعلامك بأنني أحبك. التوقيع: أنتَ تعرف من».

بغبطة، علَّق صوت يخن:

ـ لقد كشفتك، سيدي « أنت تعرف من».

ـ ناتان...

ـ آمل أن ترسل لي قريباً كلمة أخرى تبشرني فيها أننا سنعيش معاً. أجد عبثاً أن نسكن في الساحة ذاتها وليس في الشقة عينها. وأن ندفع إيجارين!

ـ وإذا...

ـ أجل، ليس لنا توقيت مشترك لأنك تحب أن تنهض باكراً، أما أنا فأحب أن أتباطأ في السرير ولا أحب أن أعمل إلّا فيها بعد. بالضبط، بما أن برنامجنا ليس متزامناً، فإن السكن المشترك يسمح لنا غالباً أن نكون معاً كثيراً.

غرق ناتان في موضوعه المفضل؛ فمنذ معاشرتهما بعضهما لبعض ـ منذ سنتين ـ كان يتمنى أن يعيش مع عشيقه. وطوم يقاوم بسبب تعلقه بعادات متحجرة لعازب مسن، فهو لا يشعر بأنه في بيته إلّا وسط مئات الكتب المصفوفة على جدران مسكنه الصغير.

نهض طوم ليوقف طوفان العتاب المتوقع وأشهر الورقة الصفراء التي سحبها من جيبه.

ـ خذ، لقد تسلمْتُ هذا. وأعرف أنه قد أتى منك.

اقترب ناتان. نظر الاثنان إلى رسالتيهما. فإذا كان ثمة فروق لا تُذكر في الخط أو في القدرة التي حركت قلم الحبر، لكن النشاط والخط الرفيع هما ذاتهما وكذلك الجمل متماثلة تماماً.

ابتسم ناتان قائلاً:

ـ إنك تسخر مني.

ابتسم طوم بدوره قائلاً:

ـ كلّا، إنك أنت الذي تسخر مني.

حمحم ناتان قائلاً:

ـ لقد كتبت الرسالتين لتجعلني أعتقد أن الرسالة لم تأتِ منك.

هزَّ طوم رأسه ضاحكاً:

ـ أنت الذي لعبت تلك الحيلة عليَّ.

ـ تفحص كل واحد صديقه ليبرهن أن الآخر هو الذي يكذب.

صرخ ناتان:

ـ يا لك من ممثل!

أكد طوم قائلاً:

ـ إنك ماكر كالقرد.

ـ كالقردة، من فضلك. لأن القردة أكثر دهاءً من القرد.

عادا إلى الجلوس حول الطاولة.

ـ الآن، قل لي الحقيقة.

ـ كلّا، قلها أنت.

١٥

كان موظفا البلدية، تحت جوقة الببغاوات والدرَّات العابثة، يقصان العشب للمرة الأولى في الفصل. انبعثت رائحة غضة من القش المقطوع، أقل حموضة واخضراراً عما سيكون عليه فيما بعد، أي أكثر ثقلاً وأشد تعباً، فيصبح بساطاً من العشب في نقاهة إثر عبوره الشتاء.

كان هيبوليت وجيرمان يعملان كشريكين، لكن السكان لا يلاحظون منهما إلَّا واحداً فقط. بعض الأسباب تفسر هذا الخطأ: فجيرمان قزم أما هيبوليت فأبولون[١]؛ لم يكن يخفي زميله بطول قامته وحده لكنه يمحوه ببريقه أيضاً.

لم يكن يسبب ذلك لجيرمان أدنى انزعاج. على العكس. فمنذ تعرفه إلى هيبوليت، اتسعت حياته حتى وصلت إلى بعد انتصاري: لقد كان صديق أجمل رجل في بروكسل، هو القصير القامة، والمُعاق والمشوه، هو الذي تتجنب النساء النظر إليه بقدر ما كان ينبعث من تقاطيعه القبح والعذاب. كان يعيش بالقرب من هيبوليت انعداماً موقتاً لذاكرة دمامته، وهو يخفيها على نفسه وعلى الآخرين الذين لا يعيرونه اهتماماً. حين يَعْبر جيرمان بصحبته باب مقهى أو صالة ألعاب الكرة، كان يتأثر بإحداث بسمة اندهاش، فيترنح سعادة بمجرد أن يسمع «سلام يا شباب»، وهو تعبير يَفترض عنصراً مشتركاً بينه وبين هيبوليت.

تابع هيبوليت وهو يملأ العربة اليدوية للنفايات قائلاً:

ــ هل تعرف أن ابنتي عبقرية؟ اضطررت أن أسجلها في ثلاث مكتبات لأوفر لها كتباً تقرؤها أسبوعياً. ثلاث مكتبات! في العاشرة من عمرها! وتنزل، أحياناً، عند الجارة، المعلمة، كي تستعير كتاباً إضافة إلى ذلك. إنها لمعجزة تلك الصبية الصغيرة. لا أفهم كيف استطاعت أن تأتي مني.

وافقه جيرمان الرأي. فلا فائدة من دحض تواضع هيبوليت الطبيعي وإلَّا غضب. لأنه كان الأخير في المدرسة دائماً؛ فهيبوليت يعتبر نفسه شأن حيوان محدود الفكر، بذكاء أدنى بكثير من المتوسط. خلافاً لكثيرين يعزون إخفاقهم إلى المحيط

---

(١) Apollon . : إله النور والفن والجمال عند اليونان- (المترجمة).

أو إلى الظروف، فهو يعتبر نفسه المسؤول وحده عن تقصيره. فإذا ما أخرجه أحد من التواضع الذي يحاذي به الحياة أفقده توازنه وأحزنه.

فهيبوليت سعيد. وإن كان دخله قليلاً، وإن لم يكن يستأجر إلّا شقة صغيرة جداً يسكنها مع ابنته. وبالرغم من أن والدة صغيرته قد هربت إلى أميركا اللاتينية تاركة الطفلة على ذراعيه، كان يبتسم بلا انقطاع. كان عمله كبستاني/ مرمم يغمره غبطة؛ أولاً لأنه «موظف»، وهذا يمثل نوعاً من الشرف والتكريم بالنسبة إلى صبي يتيم نشأ في مؤسسة المساعدة الاجتماعية؛ ثم لأنه يعمل في الهواء الطلق، مؤدياً مهمة جسدية تمنحه تعباً صحياً، وليس في مكتب حيث سيضجر وحيث سيلاحظون بساطته وريفيته. ففي رأسه المحدود والكريم، كان له ربَا عمل، البلدية والطبيعة، فهو يشعر بأنه مدين إلى كلتيهما، إلى البلدية التي أمنت له المال والأمان، وإلى الطبيعة الرائعة التي تطلب منه السهر عليها في المدينة حيث يهددها الإسمنت والطرق المعبدة والتلوث.

هكذا، في ذاك اليوم، في ساحة آريزو، لم يكن يجد غضاضة في لم البراز ولا في التقاط علب البيرة الفارغة ولا في تلقي براز الببغاوات الطري على كتفه أو على ذراعيه، قبل أن يقطع العشب. جَعَل الساحة جميلة، بعنايته، شأن امرأة عليه إرضاؤها.

برز شاب، بجبين منخفض ومظهر ينم عن بال منشغل.

صرخ هيبوليت:

ــ نهارك سعيد ڤيكتور.

مرَّ الشاب من دون أن يجيب حقاً، أصم لما يحيط به. لم يمتعض هيبوليت، وهو متشوق إلى معرفة ما يكدر الطالب الذي هو عادة ودود ولطيف.

أمام الرقم ١٢ كانت سيارة من طراز ليموزين تنتظر في صف مزدوج.

يعرف هيبوليت أن زاكاري بيدرمان، السياسي الشهير يسكن هنا. استهواه المشهد، فلم يكن ينظر إلى سلم المدخل إلّا من خلال الأشجار، كأن ليس له الحق في النظر مباشرة إليه. في رأيه، إنسانيتان تتجاوران: إنسانية العظماء وإنسانية الوضعاء. فزاكاري بيدرمان ينتمي إلى فناء العمالقة وهيبوليت إلى فناء الصغار. لم يكن ذلك يكدِّره لأنه لا يطمح إلى أن يتغير حاله. فإذا كان زاكاري بيدرمان قادراً بدهياً على أن يقطع عشب المرج، فإن هيبوليت لا يستطيع أن يترأس مجلساً اقتصادياً.

وقد احتمى بشجرة غار أرجوانية اللون، رأى زاكاري بيدرمان يلبس طقماً من ثلاث قطع بخطوط، ورداءً رقيقاً يتهدل على جسمه الضخم. نزل السلم وحيَّا بحركة سريعة سائقه الذي أمسك الباب مفتوحاً وغاص في السيارة. أمام هذا

الثراء في الملابس، شعر هيبوليت فجأة، وقد لبس بنطالاً قصيراً، بأنه عار، قابل للجرح، أعزل اجتماعياً.

على الشرفة، كانت روز بيدرمان، الجميلة والممتلئة لحماً، تشير إلى زوجها بحركة وداع.

«يا للمرأة المسكينة! ليس مسلياً أن تكون زوجة دماغ. لا شك أن هذا الرجل لا يفكر بالجنس مطلقاً».

ألقى هيبوليت نظرة على منزل الكاتب باتيست مونيه. كان هذا أيضاً يثير دهشته. ففي كل مرة كان يُميز فيها أعلى رأسه خلف النافذة، يفكر أن من هذه الرأس تخرج آلاف الصفحات التي تحركها حكايات وشخصيات. كيف يستطيع أن يبقى كل تلك المدة الطويلة بلا حركة؟ ففي نظر هيبوليت، يشكل ذلك وحده انجازاً وبراعة. أما فيما يخص موهبة الكتابة... فلقد كان هيبوليت يكد ويشقى ليُدَوِّن جملة من دون أن يكرر ذلك مرات كثيرة ويملأها بالأخطاء الإملائية والنحوية.

«كان يلزم ابنتي أب كهذا، وليس أنا. ففي جعبتها ألف شيء تقوله لكاتب».

وقد انحنى على تلعته، شعر فجأة بحضور أحد. نهض ورأى رجلاً يراقبه. حيَّاه هيبوليت بابتسامة عريضة. لم يجب الشخص وتابع اجتيازه الساحة، ثم توقف واستدار وهو يحدق إليه ببغض.

قلق هيبوليت. كان هذا الصنف الماكر والعدائي نادراً في الحي. عن أي شيء يلومه؟

انحنى ثانية، بانزعاج، مدفوعاً لأن يكون شفافاً عن أن يكون حقوداً. لاحظ هيبوليت، بالنسبة إلى غالبية ساكني الساحة، أنه لا يوجد أحد شأن هذين المراهقين اللذين يتخاصمان منذ ربع ساعة وهما جالسان على المقعد. لم يكن يحمل أية ضغينة نحو اللامبالين: على كل حال أية غرابة تدفعهم ليهتموا بعامل طريق أقرب إلى البساطة، بالإضافة إلى ذلك؟ بدا له هذا التجرد مبرراً، بينما كانت عين هذا العابر الساخطة قد هزَّته.

حينذاك، شعر باستياء من جهته اليسرى. فأرستوقراطي المسكن رقم ٤، والذي كان أولاده في منتهى الكمال، بسيارة 4x4 ، والأداة اللغوية (دو) في كنية النبلاء واسم ممتد، قد حدق إليه هو أيضاً، بوجه شرس ومقطب.

تأكد هيبوليت، وهو قلقٌ، أن لا أثر عليه من قذارة أو دماء، يثير النقد ويجعل مظهره مريباً... كلَّا. إذاً ما السبب؟

إن المحامي الخلاسي الذي شهره التلفزيون إثر قضية مهدي مارتان قد قطع الحديقة الصغيرة بخطوته الرشيقة. ولم يلاحظ جيرمان ولا هيبوليت.

طمأن هذا السلوك هيبوليت. فخلص إلى أنه لم يكن ثمة ما يلوم نفسه عليه، وابتدأ ينظف الممرات بسلام.

تحت أكبر شجرة، كان مغلف أصفر موضوعاً. أمسكه البستاني. فاسمه مكتوب عليه «هيبوليت».

«من فكر بي؟» تصورَ، عفوياً، أن أحد السكان قد دس ورقة نقدية على سبيل الشكر، كما يحدث ذلك أحياناً.

فتح المغلف واكتشف الرسالة:

«هذه الكلمة لمجرد إعلامك بأنني أحبك. التوقيع: أنتَ تعرف من».

اشتد احمرار وجه هيبوليت.

أجل، كان يعرف من أين أتت الرسالة. لا مجال للشك. رفع رأسه وفاجأ المرأة التي كانت تراقبه، شبه مختبئة خلف الستارة. إنه دليل على أنها هي المرسلة، اختبأت في العتمة حين لاحظت أنه قد رآها.

احمرّ وجه هيبوليت ثانية، وهو يستنشق هواء الربيع بملء رئتيه.

لم يأمل مطلقاً أن تكون قصة كهذه ممكنة. لم يكن يصدق البتة أن الميل الذي يشعر به قد يجد تجاوباً عندها. يا للصباح الرائع! الحياة دللته، قطعاً.

ــ جيرمان، عندي مهمة أقوم بها، سأعود.

هزَّ القزم رأسه.

أمسك هيبوليت منشفة في حقيبته ومسح العرق من على جذعه، ثم ألبسه قميصاً قصيراً ناصع البياض.

بخطوة واثقة، دخل عند بائعي الزهور واشترى من أوريون باقة أزهار الفوانيا الحمراء والمكتنزة ثم دخل البناية رقم ١٣ وصعد، بهيئة حازمة، حتى باب تلك التي يتشهاها.

الجزء الثاني

نشيد السيدة مريم[1]

(١) Magnificat: «تُعظِمُ نفسي الرب...». كلمات قالتها مريم العذراء ووردت في الإنجيل. لحَّن تلك الكلمات كبار الموسيقيين الكلاسيكيين - (المترجمة).

تمهيد

كان وجود المناقير المعكوفة على ساحة آريزو مُحَيّراً.

كيف استطاعت تلك الطيور التي تعيش في البلاد الحارة أن تحطَّ رحالها في قارتنا الباردة؟ لماذا استقرت تلك الحيوانات الاستوائية في قلب مدينتنا؟ بأي جنون تندفع الصرخات الوحشية وصيحات السفد والفجور الجامح والألوان الصارخة والواضحة والهمجية لتثير هدوء العاصمة الأوروبية الكئيبة؟

كان الأطفال هنا وحدهم يعتبرون إقامة الببغاوات والدرَّات أمراً طبيعياً فالكل يعرف أن ضعف العقول الفتية ــ وقوتها ــ يكمن في قبول كل وضع.

ثمة أسطورة عند الراشدين كانت تسعى لتبرر التنافر.

قبل خمسين عاماً، في الرقم ٩، وهو القصر الذي كان يسكنه حينذاك قنصل البرازيل، أعلمت برقية الدبلوماسي ضرورة رجوعه بسرعة إلى «ريو». اضطر أن يأخذ الطائرة عوضاً عن الباخرة، فأجبره ذلك على تقليل أمتعته، واصطدم باستحالة اصطحابه مجموعة طيوره. وقد تعذر عليه إيجاد من يؤوي نماذجه النادرة، فتح إذاً الأقفاص، صباح رحيله، بقلب ينفطر ألماً، ومن نوافذ صالونه العالية، أعاد طيوره إلى السماء. وسط صخب متعدد الألوان، لم تكن تلك الطيور ــ من ببغاوات مختلفة الحجوم والأصول: من أميركا الجنوبية وإندونيسيا والهند...[1] ــ معتادة الطيران مسافات كبيرة، فقدرت أنه لم يكن من الضرورة أن ترهق ذاتها لتحلق أبعد من أشجار ساحة آريزو، وحطت على أشجار الساحة.

هكذا، كان يشعر الزائرون حين تطأ أقدامهم الرصيف أنهم يدخلون إلى فيلم هذياني، تأتي الصورة فيه، بتنضيد جهنمي، من الحضارة، وينبعث الصوت من الطبيعة.

---

(١) نذكر على سبيل المثال أنواع تلك الببغاوات كما وردت في النص الفرنسي - (المترجمة).
cacatoès-caiques, conures, aras, touïs, amazones, loriquets, quakers, calopsittes, kakarikis.

١

حين فتحت بتريسيا الباب واكتشفت هيبوليت، على صحن الدرج، مبتسماً، طويل القامة، واسع المنكبين، سعيداً، وبين ذراعيه باقة من زهر أعواد الصليب، مكثت مذهولة.

مد لها الباقة قائلاً:

ــ إنها لك.

نظرت إلى الأزهار، غير قادرة على تسلمها، فجعلتها شأن سورٍ بينهما.

وقد أدرك تحفُّظها، أصبح فجأة خجولاً.

ــ ألا تريدينها؟

استشفت من وجه البستاني الجميل والمتناسق، وقد خطه القلق، أنه قد يرحل، ففوجئت بتريسيا بأن أخذت منه الهدية بلهفة.

تنفس الصعداء، متأثراً وقد هدأ بعض الشيء.

ــ لماذا؟

لم تتعرف إلى صوتها في هذا السؤال المنقبض.

ردد كالصدى قائلاً:

ــ لماذا أي شيء؟

ــ لماذا تلك الزهور؟

أكَّد بشكل بدهي قائلاً:

ــ لأنني أحبك.

برمت بتريسيا ذراعيها في الفراغ وجحظت عيناها وفغرت فاها وقد شعرت بالرغبة في الهرب... وفي البقاء.

تلعثم قائلاً:

ــ إنني أحبك منذ ثلاث سنوات.

تساءلت بتريسيا وهي تبحث عن النجدة حولها، متى تعود ابنتها؟ أعليها أن

تطلب الشرطة ولماذا لبست ثوب المضيفة هذا الذي يُعرّض ردفيها؟ وفي أية لحظة ستصفق الباب؟ اجتاحها الهلع فشعرت بساقيها تخوران تحتها.

لكن ضجة مخنوقة قد قطعت وهنها: كان العملاق مستلقياً عند قدميها، في حالة إغماء وقد اصطدم بالعتبة.

منذ ذاك اليوم، تغيرت بتريسيا. وقد عجزت عن أن تحيد بأفكارها عن هيبوليت فراحت تعيش حياة ثلاثية.

فمن جهة، كانت تلتقي، بانتظام، البستاني في الساعة الخامسة، في مقهى في «المارول»، وهو حي شعبي لا يتعرف أحد فيه إليها. يتجاذبان أطراف الحديث وتستسلم لنظرته المداعبة التي تدفئها وقد تتلامس أيديهما أحياناً؛ فتغتبط سعادة.

من جهة أخرى، كانت تؤدي دورها المعتاد كأم بالقرب من ألبانّ الشرسة، والتي كانت تخفي عنها مغازلتها.

أخيراً، كانت تشغل ساعاتها المتبقية للتنحيف. وقد أدركت أنها لن تقاوم طويلاً مبادرات هيبوليت، تحول تبدلها الفيزيولوجي إلى الهوس: كان عليها أن تمحو البقرة السمينة التي تراها في المرآة. بينما كان يتشهاها رجل رائع، راحت تكره جسدها؛ فلو فُتحت لها صالة الجراحة لاندفعت داخلها كي يسحبوا شحومها ويصقلوا عظام حوضها ويجعلوا معدتها بحجم بيضة السُّمّان ويقتطعوا أمتاراً كثيرة من أمعائها تحت البطن الذي يشدونه بالمبضع. ونظراً لعدم توافر هذا الحل الجذري، راحت تقسو على نفسها. فبدلاً من أن تتبع نظاماً غذائياً للنحافة، انقطعت عن الطعام، مكتفية يومياً بتفاحتين خضراوين وثلاثة ليترات من المياه المعدنية. وعوضاً عن القيام بفعالية رياضية، كابدت السير كيلومترات وأخرجت من تحت المفرش الأدوات الرياضية التي كانت قد طلبتها بالهاتف، فملأت الشقة بكل جرأة بأجهزتها لتنحيف البطن والردفين وبأثقالها وبمجموعة الأدوات لتمرين العضلات وبمختلف أدوات التعذيب.

لم تحتج ألبانّ، لأنها على اقتناع أنها أصل تلك الثورة، فاغتبطت لشعورها بسلطتها على أمها التي لم تعد تصادفها إلا وقد لبست قميص التعرق.

بمجرد أن تبقى بتريسيا وحيدة ترتقي درجة في الألم فتُوصل مسارات كهربائية على الأجزاء التي تحتاج إلى أن تُشَدَّ كما ترسل إلى جسدها شحنات كهربائية، وتتألم من ذلك حتى الصراخ. كم من مرة ذهبت إلى غرفة الحمام، لاهثة، منهكة، بعينين محمرتين، لتتحدث إلى المرآة ــ التي تلعب دور هيبوليت ــ وتُصرح لها «أترى ما أنا فاعلة، أترى ذلك حبي؟» وهي تقدم إليه دموعها!

لكنها حين تذهب إلى المقهى، تخفي آثار جهودها وتكتم الاستشهاد الذي دابدته وتسترجع الخفة الواثقة التي كانت تميزها. على كل حال ـ يا للمعجزة الرائعة ـ تبخرت آلام الأطراف وأوجاع المفاصل كلها في حضرة هيبوليت.

كان كل شيء يعجبها في هذا الرجل، لطفه، عذوبته، إيقاع حديثه المتراخي. أما كماله الجسدي فكان وحده يُطير لبها. أسفت بتريسيا لأنها لم تعد في العشرين من عمرها؛ ذلك أنها لو في العشرين، أي حين كانت في العشرين من عمرها ـ متناسقة، مرنة، بمقاييس مثالية ـ لكانت تجنبت الحكم على نفسها. إن ما يتلفه الزمن، ليس الجسد، ولكن الثقة التي نكنُّها له؛ اكتشفنا أن أرجلاً وسيقاناً وأكتافاً أو أردافاً يمكن أن تختلف عنا، فلقد استسلمنا إلى مرض المقارنات، وتعلمنا، إثر اكتشافات قاسية، أننا قد تغيَّرنا نحن أنفسنا. فمنذ أمجاد سنواتها العشرين، لم تعرف بتريسيا إلَّا الهزائم. وإظهار جسدها الآن تَلِفاً، مُهملاً أمام هيبوليت المثالي يبدو لها اختلالاً غير لائق.

لكن المجابهة بدأت تظهر تباشيرها... كان، كل يوم، يزداد تعبيره عن رغبته فيها؛ وكل يوم، تتفتت موانعها؛ قريباً سيتبادلان القبل ويمران إلى السرير، وهو منظور تعادل جاذبيته خوفها.

إذاً، راحت تتكئ على تلك الفكرة الثابتة وهي إعداد نفسها.

ذات يوم من بعد الظهيرة، وقد حبست نفسها في الحمام الذي أقفلت بابه بطقة مزدوجة، صبغت بالأحمر الغامق شعر المنطقة الحميمية من جسمها. استرسلت بالبكاء لأنه قد حكم عليها بأن تغش: كان عليها أن تصلح نفسها باستمرار وأن تتنكر وأن تغير شكلها. لن يضم المسكين هيبوليت بين ذراعيه إلَّا خداعاً.

حوالى الساعة الثامنة عشرة، وهي تشرب الشاي، كادت تسأله: «إذاً، ماذا تجد فيَّ؟» وراء هذا السؤال، أوشكت أن تصب عقدها، بل وتعرض مجموعة عيوبها ونواقصها؛ لذا تداركت الأمر. فإن كان هيبوليت يُنَمي أوهامه، فلن تتكفل بهدمها. «وإذا كان يُقدر أفراس النهر فليس على ملكة تلك الأفراس أن تثبط عزيمته».

إذاً، كانت تلجأ إلى الغموض؛ فعاشقها يتحدث إليها شأن من يوجه كلامه إلى امرأة رائعة، وعيناه تبرقان بشعلة الرغبة، فتخفض جفنيها، احمراراً شأن محظية اعتادت إحداث كل ذاك التأثير. أما الغموض الآخر فيخص الرسائل المجهولة: حين أدركت أنه لم يجرؤ على الاقتراب منها إلَّا حين عزا إليها رسالة الحب، لم تكذبه ولم توطد الحقيقة وأهملت أن تحدد له أنها تسلمت رسالة مماثلة.

كان يحمل هيبوليت هذه الرسالة معه، واعترف لها قائلاً: «إنه أثمن شيء يملكه». كانت بتريسيا، من جهتها، قد أخفت رسالتها في كتاب أوفيد «فن الحب» الذي تملك نسخة منه غالية الثمن وبصور رسمها فنان. ففي بعض الليالي، وألبانّ

نائمة، تتأمل الورقة الصفراء وتداعبها باحترام مقدس، وهي أقرب الظن إلى أن هيبوليت هو الذي أرسل إليها تلك الرسالة. ماذا يهم من أين جاءت؟ إن تلك الرسالة قد سببت تقاربهما.

كانت تتذكر لحظة أنعشت هيبوليت المغمى عليه على عتبة بابها: استهالها هذا المشهد أكثر من أية كلمة أو فعل. لأنه كان مستلقياً بلا حراك، أخذته بين ذراعيها ورفعت رأسه الثقيل وداعبت شعره الخشن وأحست متانة عضلاته تحت القميص القصير واكتشفت ــ وهي مذهولة ــ عذوبة جلده المدهشة. لقد أتاحت لها الحياة أن تلمس الرجل الذي تشهته من دون أن يعرف ذلك وأعطتها الانطباع العابر بأنها استسلمت إلى فعل مُحَظرِ. إلَّا أنه قبل ذلك، استسلم جسمه لها؛ والأفضل هو أن جسمه يحتاج إلى جسدها.

حين فتح عينيه ثانية، ابتسم أولاً، ثم أثقله الضيق والانزعاج.

ــ اعذريني. أنا...

ــ لا تقلق. إنني هنا.

نظر كل واحد منهما إلى الآخر. في تلك اللحظة، تخيلت بتريسيا أنها تستطيع أن تحب هذا الرجل زمناً طويلاً وتعتني به، وأنه ذات يوم سيموت بين ذراعيها. قبِلت، في ثانية، كل ما قد يأتي منه. لماذا تحذر عاشقاً مرهفاً يغمَى عليه من الانفعال، وهو جبار وطفل في آن واحد؟ كانت هشاشته تغريها بقدر ما تستهويها قوته، بل وأكثر... في تلك الدقيقة، وطدت مصيرها بمصير هيبوليت، تشهته من قبل، ومن الآن فصاعداً فقد أحبته.

يوم الخميس، أعلنت ألبانّ لأمها أنها تنوي الذهاب يوم السبت إلى سهرة في منطقة «كنوك ـ لو ــ زوت» بصحبة كانتان.

سألت بتريسيا:

ــ كانتان؟

ــ كانتان، لقد حدثتك عنه مئة مرة! إننا معاً منذ أربعة أسابيع.

ذكَّرتها بتلك الحقيقة الأساسية بسخرية فظة. ما أعظم مفاجأتها، حين ارتمت أمها عليها وقبلتها.

ــ كم أنا مسرورة، عزيزتي.

تأثرت ألبانّ فلم تقاوم أمها مطلقاً. ألحت بتريسيا قائلة:

ــ أربعة أسابيع، هذا رائع. أربعة أسابيع، هذا ... هائل!

عادت بتريسيا تحرك مدوس دراجتها الثابتة في الشقة وهي ترسم خطة: إذا كانت ألبانّ لن تعود السبت مساءً، فربما تستطيع أن تدعو هيبوليت؟ ومن يدري إذا...

بلونها القرمزي، بلغت أقصى سرعة على الدراجة. وجب التصرف ببراعة. فبين الأم والابنة انعكست المواقف: الراشدة، شأن مراهقة، تخفي قصص حبها وتسعى بالحيلة إلى أن تتحرر من حضور مربك.

أعلنت لها ذاك المساء قائلة:

ــ ألبانّ، أين تُقام سهرة السبت؟

مكتبة
t.me/t_pdf

ــ عند زويه، في «كنوك ــ لو ــ زوت».

ــ المكان بعيد. من سيرجعك؟

ــ سيرفان.

ــ يا للأسف! ستضطرين إلى أن تتركي الحفلة باكراً. لماذا لا تنامين عند عمتك متيلد؟

ــ عند متيلد؟

ــ سبق أن نمتِ عندها مرات كثيرة.

ــ أجل، ولكن بعد سهرة؟

ــ أضيفي إلى ذلك أنك ستشربين وترقصين وفي منتصف الليل ستكونين تعبة. وبعد ذلك، تمضين ساعة بالسيارة.

فكرت ألبانّ وابتسمت، ثم تعجبت قائلة:

ــ أنت أم بالغة التساهل...

ــ إنني أثق بابنتي الصغيرة. وأرغب في أن تكون سعيدة. أتريدين أن أتصل بمتيلد؟

ــ كلّا أمي، لا تهتمي، سأقوم بذلك. يجب أن تقولي لها بالضبط إنك موافقة.

أضافت بارتباك، وهي ممتعضة:

ــ آوه... شكراً.

في اليوم التالي، اقترحت بتريسيا على هيبوليت أن يأتي للعشاء عندها يوم السبت. ارتعش، وقد أدرك ما تلزمه به تلك السهرة.

ــ سأكون محط سخرية مرة أخرى، يا بتريسيا.

ــ عفواً؟

ــ سأكون في منتهى السعادة: أخاف أن يُغمى عليّ ثانية.

أمسكت يده، ولم تجرؤ على أن تقول له إنه لا شيء يثير فيها البلبلة والاضطراب أكثر. في ذاك اليوم صعب عليهما متابعة حديثهما، فكل واحد يفكر بتلك السهرة البالغة الأهمية.

كانت بتريسيا تكرر في نفسها وهي عائدة إلى بيتها: «ستكون البداية أو النهاية. فإما أن يُدرك أنني وحش، أو لا يعي ذلك وسيكون الحظ إلى جانبي».

قلقت ألبانّ، على العشاء، لأن أمها لا تذوق الأطباق التي أعدتها.

ــ أمي، إذا لم تتغذي، فستنهارين.

ــ مم...؟

ــ بامتناعك عن الأكل، يمكن أن تفقدي شعرك وأسنانك.

أبعدت بتريسيا تلك الملاحظة بضحكة كبيرة رنانة، ولكنها في تلك الليلة، حلمت أن أسنانها تفلت وتسقط حين تبتسم لهيبوليت، فكان ذلك كابوساً أيقظها مرات كثيرة.

كان يوم السبت مرهقاً بالنسبة إلى بتريسيا. وقد تخلصت من ابنتها منذ الصباح إذ أعطتها مالاً لتشتري ثياباً ثم تذهب مع رفيقاتها إلى السينما قبل أن تأخذ طريق «كنوك ــ لو ــ زوت»، قامت بترتيب شقتها كأن الشرطة ستفتشها. كابدت إنزال الأدوات الرياضية إلى القبو لأن عرضها بدا لها مدعاة إلى السخرية، أي تقديم صورة فوتوغرافية تشدد على عيوبها.

أعدت بعد ذلك وجبة طعام فاخرة. وجدت نفسها في هذا المجال أكثر ارتياحاً لأنها كانت تعرف أنها طباخة ماهرة.

أخيراً، اختفت في غرفة الحمام واغتسلت مرات كثيرة وطلت جسمها بالمراهم وتنشفت وطلت جسمها ثانية وسرحت شعرها ثم خربت التسريحة وأعادت الكرة وهي تعي أنها تبالغ لكنها عاجزة عن أن تعمل أقل من ذلك. غيرت بعد ذلك ثيابها مرات كثيرة، وهي مرتاعة، تكره الثياب التي تقدمها لها خزانة ملابسها وقررت أن تلبس ثوباً حريرياً قرمزي اللون.

ــ أحمر؟ أليس هذا مبالغاً فيه؟

لا يهم! فميزة هذا اللون الصارخ أنه يبهر؛ فلن يعود أحد يهتم مفصلاً بأشكالها تحت الثوب.

صفت في غرفتها ثلاث شمعات معطرة ووضعت قماشاً رقيقاً وشفافاً على المصابيح بالقرب من السرير ليستر النور، فيخلق جواً مريحاً، مطمئناً أقرب إلى السريّة ويمتاز بأنه يحافظ على الحياء.

حين رن الجرس، ارتجفت. كان هيبوليت واقفاً خلف الباب، وبيده باقة، وشكله مؤثر جداً بطقمه القاتم، البسيط والأنيق.

صرخت ضاحكة:

ـ إنه عيد ميلادي.

ـ آه، حقاً؟

ـ كلَّا، إنني أمزح...

ـ آمل أن يأتي عيدنا يوماً.

قال تلك الجملة بنبرة في منتهى الجدية والرزانة والشدة حتى أن بتريسيا مكثت جامدة.

وضع الباقة ببطء على طاولة صغيرة بالقرب من المدخل، ومن دون أدنى تردد، اقترب منها وضمها وقبلها على فمها.

لم تجرِ السهرة كما كان متوقعاً. فبدلاً من أن يذهبا إلى الصالون ليتحدثا ثم ليأكلا الأطعمة اللذيذة التي حضَّرتها، توجها وهما يلهثان إلى غرفة النوم.

خلع عنها ثيابها ببطء وهو يُقَبِّل كل سنتيمترٍ من بشرتها وفق إيقاع أصابعه التي تكشف عنها. راحت بتريسيا ترتعش بقدر ما كانت شفتاه الحريريتان تمتعانها، وكذلك لأنها تعرف وقد التصق بها أنه لم يكن يراها.

ارتجفت، مرات كثيرة حتى أنها كادت توقفه. في كل مرة، كان يطمئنها بقبلة طويلة ثم يتابع اكتشافه، شأن الناسك الورع في عبادة طوطمية.

حين لم يبقَ عليها إلَّا قميصها الداخلي، أوحى إليها أن تعريه بدورها. وهذا ما فعلته والقلق يخنقها. منذ متى لم تفك أزرار قميص رجل؟ متى فكت فيها آخر مرة حزاماً؟

قامت بالعمل أسرع منه، رغبت في أن تلتحم بجسده الحار.

حين أصبح بسرواله فقط، خشيت ألَّا تستطيع الذهاب أبعد من ذلك. لا شيء كان يخيفها أكثر من اكتشاف عضوه التناسلي. بالرغم من قلة خبرتها، عرفت أن تلك اللحظة يمكن أن تكون مريعة: هل سيعجبها؟ أتجده أكثر... أو ليس كافياً...؟ وأسوأ ما في الأمر، هل سيذكرها بعضو رجل آخر؟ أو سيفاجئها...؟ ولونه، ماذا سيكون؟ فجأة أصبح تقاربهما في منتهى المحسوس والجنسي، مهدداً بتحطيم حلمها.

رفعها هيبوليت بين ذراعيه، كأنه قد قرأ أفكارها ودخل إلى السرير وحمى جسديهما بالشراشف وتمدد فوقها. وهو يغطيها بقبلاته ويتموج برقة فوقها، عرَّاها فدخل عضوه التناسلي فيها من دون أن تراه.

٢

إثر اللقاء الأوروبي، أحاط بزكاري بيدرمان الوزراء ورؤساء مكاتبهم وهم في حالة توتر فكري شديد. هنأوا الاقتصادي بثلاث وعشرين لغة، نادوا باللحظة التاريخية وأظهروا توافقاً متحمساً. بهرت محاضرته الحضور: فهذا الرجل الألمعي، وقد تجاوز الورطات التي تؤدي إليها الإيديولوجيات السياسية، أتى على رسم مخطط توازن وتنمية للسنين الخمس عشرة الآتية. أصابوا بدعوته إلى تلك الندوة التي تسبق مجلس الاتحاد الأوروبي. كان ذكاؤه يحتوي على صفات موزعة عموماً على أشخاص مختلفين: حدة بصيرته في التحليل، قدرته الفكرية التركيبية، الدقة والصرامة، التخيل واختراع فرضيات جديدة، مقدرته على تحديد خطة ملموسة وتعريفها وحسه في التواصل. كان يملك عدة رؤوس في رأس واحد، فهو ضرب من وحش فكري وحيوان أسطوري[1] لا تهزمه أية صعوبة، بل على العكس، يتجدد وينمو من كل ضربة تستهدفه.

كان المفوض الأوروبي للمضاربة يتمتع بالمدائح بمكرٍ، واعياً أن عليه أن يتذوقها لأنها لن تُقَدم إليه إلّا في ذاك اليوم: فمنذ اليوم التالي، يستولي المسؤولون السياسيون على نظرياته، وينسبونها إليهم وينسون مصدرها. لا يهم ذلك زكاري بيدرمان! فما يحرص عليه وحده هو مصلحة الشعوب والأفراد. فعلاً، إن هذا البرجوازي الكبير ذا الأذواق المترفة يخفي مواطناً كريماً وجمهورياً يخلص للخير العام. بما أنه كان يكره البلاغة الديماغوجية، لأنه يخشى الانفعال والاستعراض العاطفي، فقد أخفى جوهر رسالته. لم يكن يدرك أحد كرمه، وهذا ما يلائمه؛ وقد اختبأ خلف قناع الذكاء التقني البحت، ليستطيع بشكل أفضل أن يؤثر في معاصريه.

بعد تلك الدقائق العشر من الضجيج، أخذ ليو أدولف، رئيس مجلس الاتحاد الأوروبي ذراع صديقه القديم وانفرد به.

---

(١) hydre de Lerne: أفعى أسطورية كانت تسكن بحيرة «ليرن» في أرغوليد (مقاطعة جبلية في اليونان القديمة) وهي ذات رؤوس سبعة تنبت من جديد بعد قطعها. شكَّل قتلها إحدى اثنتي عشرة مهمة لهرقل- (المترجمة).

ـ زكاري، إن وجودك معنا بالغ الضرورة، سواء هنا أو في الحزب الليبيرالي، كي أخفي عنك الحقيقة.

ـ ماذا؟

ـ تلقينا شكوى ضدك.

ـ من المشتكي؟

ـ إيلدا بروج.

وقد ارتسمت على فم زكاري بسمة سخرية، تحقق فوراً من الخطر.

ـ شكوى من أي شيء؟

ـ مضايقة وإزعاج.

ـ أيضاً!

ـ كما تقول: أيضاً! إنها الموظفة الخامسة التي تقدمت بشكوى.

حاول زكاري تغيير الموضوع.

ـ اسمع ليو، لم نعد نستطيع اليوم مغازلة امرأة من دون أن تَعتبر ذلك تحرشاً جنسياً. حولتني ملاطفة النساء إلى فظ.

ـ إذاً، أنت لا تنكر ذلك.

ـ ولو، هذا لا معنى له!

ـ ربما هذا مدعاة إلى السخرية لكنه سيؤذيك.

ـ في أي شيء؟ أفعلُ ما أريد... وإذا ذاع الأمر، فإن روز ستفهم الانحراف ـ أظهر الماضي ذلك ـ ولا أسمح لأحد أن يُملي عليَّ الخير والشر في مجال الأخلاق. لسنا في أميركة، والشكر لله! تعرف أوروبا أن تبعد الشيطان المتزمت. أولاً، ماذا تروي تلك التي تدعى إيلدا بروج؟

ـ أنك لاحقتها كثيراً من المرات بعد الاجتماعات واتصلت بها على هاتفها الخاص وأوكلت إليها مهمة كي تراها وحدك في مكتبك وهناك، حاولتَ مرات كثيرة...

ـ أن أغتصبها؟

ـ كلّا، أن تداعبها، وتقبلها.

ـ هل هذا جريمة؟

ـ في نظرها، أجل، لأن سبب لقائك الوحيد لها يعود إلى العمل، وهي ترفض المغازلة. هذا تحرش، أيجب عليَّ أن أذكرك به؟

ـ هل هذا كل شيء؟

ـ ما معنى، هذا كل شيء؟

ـ أليس لديها عنصر آخر في ملفها؟

ـ كلَّا.

ـ أليس لديها تسجيل صوتي؟ ولا صورة؟ ولا رسالة؟

ـ لا شيء.

ـ إذاً، فشهادتها ضد شهادتي؟

ـ أجل.

انفجر زكاري بالضحك. تعجب ليو أدولف، وإن اطمأن فقال له:

ـ ألا تقلق أكثر من ذلك؟

ـ اسمع، ليو، سيكون من السهل إظهار أن تلك المرأة تثأر لأنها لم تتقدم في السلم الوظيفي كما كانت تتمنى. سأبرهن بسهولة عن عدم كفاءتها المهنية. سيفكر الناس أنها عمدت إلى الانتقام نكاية. ثم بخاصة...

ضحك ثانية قبل أن يتابع حديثه:

ـ ثم بخاصة، هل رأيتها؟ إنها دميمة! حقاً دميمة!

جحظت عينا ليو أدولف. ألح زكاري قائلاً:

ـ لنكن جديين! حين سترى لجنة انضباط، أو مجلس إداري أو أي شيء آخر ظهور هذا الشكل المخروطي بمؤخرتها الضخمة وبرقبتها كرقبة الديك الرومي، لن تصدق أنني رغبت فيها. لا سيما إذا عرضتُ صور روز. سيبدو ذلك غريباً. إنك تتحدثُ عن إغراء جنسي! ستصبح تلك المرأة مثار سخرية.

كان ليو أدولف قد صُدم من موقف صديقه، حتى أنه مكث أخرس. بينما كان زكاري قد أقر تواً أنه غازل تلك المرأة مرات كثيرة، ففكر ليو أن رغبة صديقه قد تبدو غير معقولة.

ـ لكن... لكن...

سأل زكاري ببراءة:

ـ نعم؟

ـ أنت بغيض! لقد أردت مضاجعتها وتؤكد الآن أنها دميمة.

ـ ألم يحدث ذلك معك مطلقاً؟

أدار ليو كعبيه، فأمسك به زكاري.

ـ ليو، لا تمثل دور الساذجين: لا يوجد أفضل من العاشقات اللواتي هنّ أنصاف ـ الحسناوات ـ أو أنصاف ـ الدميات، وذلك وفق النظرة التي تراهن بها. فعلى خلاف الجميلات، هنَّ في منتهى الكرم، يعطين ذواتهن تماماً ويرفضن الحدود. وهذا طبيعي: فأنصاف ـ الجميلات يرغبنَ في أن يبرهنَّ أنهنَّ يساوين أكثر من الجميلات!

ـ اسكت!

ـ في نهاية الأمر، ليو، أنت تعرف ذلك جيداً بما أنك كنت عشيق كارلوتا فيسبريني.

استدار ليو، مذهولاً، وقد شحب وجهه وارتجفت ذقنه وحدج زكاري.

ـ تصور أنني كنت أجد كارلوتا فيسبريني رائعة، أنا.

خفض زكاري عينيه، شاعراً بأنه ارتكب خطأ لا يمكن التراجع عنه.

ختم ليو أدولف قائلاً:

ـ فلنكف عن الحديث في ذلك.

وافق زكاري مردداً:

ـ فلنكف عن الحديث في ذلك.

التحق رئيس المجلس بفريقه، بينما توجه زكاري إلى مائدة الطعام المعدة في الممرات، وهو مرتاح من أن المُتهِم قد وضع حداً لتلك المناقشة السخيفة، وحيث يجتمع الأعضاء الرئيسيون للبناء الأوروبي.

دفعه قلق خفي إلى شرب ثلاثة أقداح من الشمبانيا. ثم سمحت له مناقشات تقنية بين خريجي المعهد الوطني للعلوم الإدارية أن يستعيد زمام أمره وأن يتوسع في بعض الأفكار الغريبة فزال توتره.

اقترب حينذاك من مستشارة التمثيل الدبلوماسي السويدي. فقَبْلَ أن ينبس ببنت شفة، كانت عيناه البراقتان ومحجراهما القاتمان يصرخان لها بأنها رائعة. احمرّ وجهها وبدأت الحديث. كان زكاري وهو يحافظ على مستوى رفيع في تعليقاته، يتفحص برغبة، قوامها النحيل، وصدرها الكروي، وأذنيها الصغيرتين جداً... أحست أن شخصين هما زكاري يتحدثان إليها، أحدهما يُسهب في نظريات لامعة والآخر يشمها شأن كلب يستعد ليسافد أنثى. لم تتوصل، وقد ارتبكت، أن تجعل شخصها اثنين كما فعل؛ فإما أن تفضل فكره ولا تهتم إلّا بالحوار الفكري وإما ألّا تصير إلّا جسداً مشتهى فتهتز.

كان زكاري يربكها ويغتبط لذلك. انحنى شاب أشقر بنظارتين.

ـ أستغلُ مناقشتك مع خطيبتي، سيدي المفوض، لأشكرك على محاضرتك.

تبع ذلك دفق من المدائح لم يصغِ زكاري إليها. فمماطلة الغزل مع السويدية قد توقف، وقد أعادها حضور خطيبها إلى جادة الصواب؛ فتركت جسدها لتعود فتصبح السياسية التي تتحدث مع رجل اقتصاد مشهور عالمياً.

ما إن أمكن لزكاري بيدرمان الانسحاب، حتى حيّاهما وراح يبحث عن فريسة في مكان آخر. أثناء الثواني التي طاف فيها انتباهه عبثاً على الحضور، أحس ضيقاً يضغط على حلقه. لحسن الحظ، لمح امرأة طويلة القامة في الأربعين من عمرها، التقى نظره نظرها. لحق بها بلا حياء، كأنها كانت تدعوه.

هناك أيضاً، أرسل جسده لها بشائر رغبته. ترجّح واضعاً رجلاً فوق الأخرى، واقترب من وجهها كثيراً، وهو يبتسم مظهراً لها أنه يتشهاها.

أدركت رغبته فارتبكت فجأة وترجّحت، وهذا ما خوَّل زكاري الشروع في الحديث.

كان موقف رجل الاقتصاد الجسدي يشير إلى عكس تجرده، فصرخت المرأة فجأة:

ـ أتغازلني؟

ابتسم بلطف ورقة.

ـ ماذا يدفعك إلى قول ذلك؟

تلعثمت، محرجة، واحمرّ وجهها بشكل يثير السخرية.

ـ أرجو عذري، لا أعرف ماذا حدث لي.

ـ أرجوكِ. في المقابل، إنني مستعد أن أغازلك إذا سمحتِ لي بذلك.

ـ لست متأكدة من أنني أحسنت فهمك.

ـ أجدكِ جذابة بشكل لا يُقاوم.

راحت المرأة الألمانية ترتجف. سعت لتمتلك زمام نفسها وبحثت عن مخارج النجدة، ثم صرخت وهي تفرقع أصابعها:

ـ أمنعك أن تعاملني هكذا!

ـ مثل ماذا؟

ـ مثل لحم النقانق. إنني مُجازة في العلوم السياسية وأحمل شهادة دكتوراه في علم الاجتماع، وأعمل أكثر من ثمانين ساعة في الأسبوع لبلدي ولأوروبا: أقدر أنني أستحق تصرفاً مختلفاً.

أدرك زكاري فداحة خطئه: إن مغازلة تلك الموظفة يعني أنه يجردها من هويتها

ويحطم الصورة التي بنتها وينكر مسارها المهني ويعدم جهودها ويعيدها إلى الجسد الذي كانت عليه قبل كل تلك الجهود.

من دون أية كلمة، ابتعد عنها، بطريقة فظة حتى أنها شكَّت إذا لم تكن قد فسرت بشكل صحيح المشهد الذي عاشته؛ كادت لو أسعفها الحظ أن تأتي لتعتذر منه.

اقترب من مضيفة لن تنزعج إذا نظر أحد إليها بشهوة. في تلك اللحظة، مرَّ الرئيس ليو أدولف بالقرب منه. شعر زكاري بوطأة الاستنكار تثقل على رقبته.

ترك المضيفة التي كانت في مخططه، مغتاظاً، واندفع حتى المكتب الذي وضِع تحت تصرفه. حبس نفسه فيه وقد أقفل الباب بطقة مزدوجة، فتح الحاسوب ودوَّن اسم موقع إباحي.

حين ظهرت الصور الأولى من نهود تقفز وأفواه على شكل شرج وأرداف قُطِّعتْ... أطلق تنهد ارتياح وقد نجا من ضغط الآخرين، دُعي أخيراً إلى أن يشعر بالمتعة.

اختار عنواناً. لقد كان يعرف تلك المواقع ويقدرها جميعاً، وفك أزرار شق بنطاله وداعب نفسه فوصل إلى المتعة.كان مغتبطاً، مرتاحاً، مبتسماً وعلى أتم الاستعداد لينطلق فيغيِّر العالم أو يهدم الجبال، تسلى إذ لاحظ على شاشة الساعة الجدارية أن سبع دقائق كانت كافية لتخلصه من توتره. آه، إن لم تكن لديه هذه الملذات، هل لا يزال على الأرض؟ سيموت ضجراً حتماً، أو من الاكتئاب لأن اليأس يحوم في الجوار، صبوراً وعنيداً.

حدث في بعد الظهر أن زكاري بيدرمان قد قدم أفكاراً جديدة مبهرة وأثر في العقول التي التقته.

في الساعة الثامنة عشرة والنصف دعا سائقه ليغادر المؤسسات الأوروبية حين هرع ليو أدولف إلى مكتبه.

ــ زكاري، أود أن أتأكد من أنك تفهمني. إننا نعلق عليك أمالاً عظيمة. إن فندربروك الهلامي لا يملك كتفين قويتين ليدير بلجيكا أثناء الأزمة. فالسكان يحتقرونه ووسائل الإعلام تهينه والنواب ينتقدونه انتقاداً لاذعاً. لقد فقد مؤيديه وداعميه، باعتباره رئيساً للوزراء. أنت تعرف حق المعرفة أن ثمة من يتحدث عنك لتشغل منصبه. لن أجري تحقيقاً لأحدد مصدر تلك الإشاعة...

قهقه زكاري. وقد اعتبر ليو أدولف هذه الضحكة كتأكيد، تابع ليو قوله:

لا بد من الإشارة إلى أن تلك الإشاعة قد رسخت. هذا وحده يهمني! إنك تُعتبر المُخَلِص المناسب، زكاري، وبحق لأنك ألمعنا. سندعمك في الحزب الليبرالي. إلّا أن عاداتك تستطيع أن تسيء إلينا بشكل مأسوي.

ــ كيف تجرؤ على أن تعود إلى هذا الموضوع؟

ــ إنه يتعلق بسلامتك كما يتعلق بسلامتنا.

ــ مغازلتي للنساء هنا أو هناك لا يغير شيئاً بالنسبة إلى سلامة البلد.

ــ لا أوافقك. وإن كنتَ تتوصل، في كل مرة، إلى أن تلغي الفضائح الأخلاقية أو أن تلفلفها، إلّا أن سؤالاً ينبثق من تلك البلبلة، سؤالاً يلح من الآن فصاعداً على بال أنصارك.

ــ ما هو هذا السؤال؟

ــ هل زكاري بيدرمان قادرٌ على السيطرة على نفسه؟

بقي رجل الاقتصاد فاغر الفم. لم يطرح هذا السؤال على ذاته مطلقاً.

تابع ليو أدولف قائلاً:

ــ أحياناً، لا تبعد القابلية الجنسية عن الإدمان الجنسي.

ــ آه حقاً؟ هل أنت مختص في هذا المجال؟

ــ إنني قادر على أن أعدد لك الأسئلة التي ستكشف لك أجوبتها إن كنتَ مدمناً أم لم تكنْ. هل تستطيع التوقف؟ هل سبق أن توقفت؟ هل تكذب أحياناً لتخفي ممارساتك؟ هل تحس قلقاً يسري في أوصالك وشعوراً بالنقص والحاجة بين الفترات التي تستسلم فيها إلى ممارساتك.

وجه إليه تحية وداع من يده.

ــ لستَ بحاجة لأن تجيبني اليوم. أجب على نفسك، أولاً.

إثر تلك الكلمات، اختفى الرئيس.

أغلق زكاري بيدرمان مكتبه بمزاج شنيع. إذا دخل في لعبة ليو أدولف، فسيعتبر نفسه مريضاً، بينما هو في أحسن حال. ليس لأحد أن يحكم كيف يسيطر على توتره.

وقد صعد في سيارته الليموزين، أمر السائق، حين وصل إلى مفرق «روبير ــ شومان» أن يصحبه إلى البيت.

دمدم متذمراً:

ــ تمالك الذات، لا أحد يملك زمام أمره مثلي. لو عرفوا... يا لقصور أدمغتهم! جفت أفكارهم شأن جفاف طاقتهم الحيوية. زمرة بلهاء! إنني أزعجكم!

انتعش وإن بقي حانقاً، ربت كتف السائق.

ــ شارع «ديه مولان»، جورج. سأذهب إلى ساحة آريزو فيما بعد.

حين دخل حمَّام المياه الحارة «ليه تروبيك»، وجد المكان حقيراً لا يليق به وتنهد ارتياحاً. في الواقع، هذا ما كان يقدره؛ فالزينة بدائية وأشجار النخيل من الكاوتشوك وصور الغروب على الجدران ورائحة ماء جافيل الحامضة. لم يكن أحد من زملائه يمكنه أن يتخيل أن شخصاً من الأعيان شأنه يقصد مكاناً كهذا. وهذا بالضبط ما أراده فهو لا يرغب في أن يكون ذاك الرجل الوجيه.

بعد أن رتب ملابسه في خزانة ثياب صُنعت من صحيفة حديدية حدبة، لف خصره بمنشفة بالية، ونزل إلى باطن المبنى.

في آخر الدرجات، أسكرته رائحة نبت الأحراج المتفسخ والعرق والفطر المتعفن. قطع الممرات المعتمة مصادفاً أزواجاً وبعض أفراد وحيدين. ثمة حشرجات مستمرة قد ألهبته. وصل إلى الحمَّام وقد تنبهت أذنه ومنخاره؛ بينما كان يتقدم، أكملت إثارته رائحة الزعتر التي صبغت البخار: هذا العبير، وقد ارتبط طوال طفولته بمستخلصات الأعشاب الطبية التي تحرر القصبات، قد أصبح بالنسبة إليه دعوة مثيرة للشهوات ووعداً بالسعادة. دفع الباب الزجاجي المغشّى بالبخار. في غيمة منتشرة، تحت نور محتضر، كانت أجساد بلا ملامح تتحرك. كانت خمسة أشباح ذكورية تهتم بخمسة أشباح أنثوية. اقترب وفك منشفته، عارياً، بلا هوية وقد انتقل إلى حالة حيوان شهواني، ارتمى بدوره في كتلة اللحم.

بعد ساعة، نزل الأنيق زكاري بيدرمان إلى الرقم ١٠، ساحة آريزو، صرف سائقه ودخل غرفته ليأخذ حمَّامه الرشاش المعتاد كي يمحو كل عطر مثير للشبهة وغيَّر طقمه وظهر في طابق الاستقبال، متأنقاً يبتسم لروز التي كانت تنتظره بفارغ الصبر.

ــ ألستَ تعباً جداً، عزيزي؟

ــ في أفضل حال.

ــ إنك حقاً خارق. كيف تفعل؟

طرب زكاري بيدرمان لكونه إنساناً يفوق البشر، فقبَّلها من دون أن يُجيب.

٣

ــ بماذا تنصحني؟

رفعت جوزفين رأسها نحو الخادم الإيطالي، الواقف بالقرب منها، إلى الخلف قليلاً، ليسجل الطلب. أربكها من تنوع قائمة الطعام، فسعت إلى أن تعفي نفسها من التفكير.

ــ لا أعرف ماذا تحبين، سيدتي.

ــ ماذا تفضل أن تختار؟

أخفى باتيست وجهه الساخر خلف الأوراق الطويلة للوجبة لأنه كان يعرف ما سيلي: سيشير إليها الخادم بما يفضل، ستقطب جوزفين، سيقترح طبقاً ثانياً من اختصاص المطعم، ستهز رأسها ثم ستتهمه، وهي كئيبة، أن ليس له «حقاً» الذوق ذاته لذوقها قبل أن تسأله ماذا يأكل الناس على الطاولة المجاورة وتطلب هذا الطبق. بعد تلك التمثيلية الصغيرة التي قد تستغرق أربع دقائق، ستختم قولها:

ــ في الواقع، لست جائعة.

فيبتعد الخادم. تشرب جوزفين وباتيست نخبيهما.

بعد أن شربت جوزفين جرعة من الخمرة الإيطالية، حدقت إلى زوجها:

ــ عندي شيء هام أقوله لك.

ــ نعم؟

ــ لقد وقعت في الحب.

ارتعش جفنا باتيست. كشف رد فعله عن مفاجأة تعادل تعزيته وارتياحه.

فمنذ وصول الرسالة غير الموقَّعة، الرسالة الغريبة الصفراء، استشف أن ثمة مكيدة تُحاك بدونه، بعيداً عنه: لا يحتاج إلى قدر عظيم من الملاحظة ليستنتج أن جوزفين تهرع إلى أقصى الشقة لتتصل هاتفياً، وأنها تختفي طويلاً بحجة التسوق، وأنها تستغرق في أحلامها أمام نشرة الأخبار المتلفزة.

فبالرغم من أن باتيست قد صاغ فرضية، لكنه كان ينتظر أن يأتي التفسير منها. لو كان زوجها رجلاً آخر لتتبع زوجته خلسة ولفتَّش في أشيائها ولسرق هاتفها الجوّال وجرد نداءاتها، وأحدث مشادة لا بل وطلب معرفة الحقيقة.

أما هو فكان ينأى عن هذا التصرف. إنه منحدر من زوجين كانا يتمزقان بالخصومات العائلية، فَكَرِه الغيرة منذ طفولته حتى أنه نجح في تطهير نفسه منها واشمأز من لعب دور المفتشين؛ أما السبب الحقيقي لفلسفة انتظاره فكانت الثقة: لا يمكن لجوزفين أن تخيبه.

كانت تتأمله، منتظرة رد فعله لتتابع حديثها.

تمتم باتيست قائلاً:

ـ كنتُ واثقاً من ذلك.

همست بدورها:

ـ لا بد من القول إنني لم أخفِ ذلك مطلقاً.

هزَّ راسه بالموافقة. فكر في نفسه: « حبذا لو يبقى الحديث على ذلك القدر من الصراحة المحترمة». انحنى نحوها، فكانت تبتسم:

ـ إذاً، عاشقة... هل هذا خبر حسن أم سيئ؟

أمسكت يده بتعاطف.

ـ لا أعرف بعد. في الواقع، لن يُغَيِّر ذلك شيئاً بالنسبة إليك. مهما حدث، أنت الذي سأختارك، باتيست ومعك سأبقى، هذا ما أردت قوله قبل كل شيء. أنت، أنت، أنت، قبل الأرض قاطبة.

شعر باتيست بالارتياح يغمره. وجعلته موجة من المتعة يغوص في مقعده. لقد كان محقاً بإيمانه بصدق جوزفين واستقامتها. يستطيع الآن أن يُصغي إلى كل شيء لأنها أكدت له تواً أنه يبقى المنتخب.

ـ هل هذا حديثٌ؟

ـ منذ أسبوعين.

ـ ماذا تريدين؟

ـ تنظيم لقاءٍ.

ـ عفواً؟

كررت ذلك بفرح:

ـ أن أنظم لقاءً بينكما. هذا طبيعي، أليس كذلك؟ فأنتما الشخصان اللذان أفضلهما في العالم. يسرني أن يقدر كل واحد منكما الآخر.

ــ آه، حقاً؟

ــ من يدري؟

ــ من يدري أي شيء؟

ــ كان لنا دائماً، أنا وأنت، الأذواق ذاتها. ثمة حظ كبير أن تتصرف شأني.

كان باتيست بالغ الذهول حتى أنه انفجر بالضحك:

ــ جوزفين، أنت حقاً لا مثيل لك!

ــ آمل ذلك. على كل حال، أنت أيضاً كذلك.

لمتابعة الحديث، ملأ كاسيهما وحدق إلى السائل الأحمر.

ــ اعذريني إن طلبت منك بعض التفاصيل، جوزفين... هل تم الأمر بينكما؟

ــ أجل. خفضت جفنيها، بحياء.

ــ وكان ذلك رائعاً، إذا رغبت في معرفة بعض التفاصيل. أوه، لا يمكن مقارنته معك. كان ذلك رائعاً. مختلفاً. أنت تعرف أنني بالنسبة إلى تلك الأشياء، يستحيل أن أستغني عنك.

هز باتيست رأسه وهو يعلم أنها صادقة: فلقد كانت تعشق أن يضاجعها. تعجَّب من نفسه كيف لم يشعر بالمهانة أكثر من ذلك حين عرف أنها قد استسلمت إلى شخص آخر.

ــ يا للغرابة...

ــ ماذا؟

ــ ألَّا ألومك على ذلك. فاعترافك يؤثرني ويقلقني ويجعلني هشاً، لكنني لا أشعر بأي حقد نحوك.

ــ ما زِلتَ سعيداً! أنا التي في منتهى الصراحة! أقول لك كل شيء! وأؤكد لك أنك تهمني أكثر من أي شخص كان!

هزَّ رأسه قائلاً:

ــ أرجو أن تحسني فهمي، جوزفين. إننا نعيش معاً منذ أكثر من عشرين سنة وتبلغينني بأسوأ حدث يقع.

ــ كلَّا!

ــ بلى. عند الناس العاديين.

ــ آه! أرجوك، باتيست لا تلعب معي دور الناس العاديين. لسنا أنا وأنت عاديين ولا ننوي أن نكون كذلك.

انفجرت غاضبة، حقاً مستاءة من تلك الفكرة. ضحك، بسرور قائلاً:

ــ هذا ماكنتُ أقوله بالضبط. إنك تربكينني لكنني لا أتوصل إلى أن ألومك.

وقد دفعتها البداهة، أجابت بصوت عالٍ أقرب إلى الصراخ:

ــ لأنك تحبني وأحبك. لا نستطيع، أنا وأنت، أن نحطم كلانا الآخر.

استدار الزبائن نحوهما مبتسمين بلطف وقد سمعوا قولها.

هدَّأها باتيست، وهو يضغط على معصمها.

ــ لا شك في أنكِ على صواب.

شرعا في تذوق بعض المقبلات الإيطالية.

من الغرابة أن باتيست قد شعر بأنه أشد عشقاً مما كان عليه في أي يوم مضى. فتفاهمهما يعود إلى سر أقرب إلى المعجزة. وجوزفين تبهره. فهي بسيطة، مشرقة، تنظر إلى الوجود من دون أن تُشهر المحرَّمات ولا تطلق الأحكام المألوفة. كانت الحياة قد فاجأتها فأرادت أن تتحدث عن ذلك معه.

ــ هل تعرف أنه منذ بداية تلك القصة أدركتُ أنك رجل حياتي. أنا لا أمزح.

قبَّل يدها. تابعت قولها، متحمسة:

ــ إنك رجل حياتي لأنك أشد ذكاءً من الآخرين وأعظم موهبة وأكثر رهافة.

ــ تابعي، إنني أتلقى المدائح بشكل ممتاز.

ــ أنت رجل حياتي لأنني أجدك وسيماً، فأنت تعجبني منذ عشرين عاماً وأتشهى أن أقبلك حين ألمحك، إنني في حاجة إلى أن تضمني بين ذراعيك وأن تضاجعني.

ــ انتبهي، حذارِ، أخشى ان أصدقك.

ــ أنت رجل حياتي لأنني أريد أن أهرم معك.

ــ وأنا أيضاً.

ــ أنت رجل حياتي لأنك تفوقهم كلهم، ولأنك تشغل مكانهم جميعاً.

ــ لا تبالغي، جوزفين: لقد اتخذت تواً عشيقاً.

ــ كلَّا، على الإطلاق!

ــ ولكن...

ــ إنها امرأة تلك التي أعشقها.

تراجع باتيست إلى أعماق كرسيه، وقد تجمد.

حدقت جوزفين، بعينين تبرقان ولهاً قائلة:
ــ تُدعى إزابيل.

في تلك الليلة تبادل باتيست وجوزفين الغرام بشكل مختلف. فرهافة ذوق المطبخ الإيطالي ووفرة الخمر وسكرة نتجت من وضع غريب، كل ذلك قربهما إلى بعض تحت الشراشف، لأنهما أدركا أنهما لو كانا عاشقين آخرين لثارت ثائرتهما، بل وافترقا، بعد حديث كهذا. أما هما فقد أحسا حباً يتجدد أمام الخطر. كان باتيست يشعر، وهو يرتجف قلقاً وفرحاً أن تلك المرة هي الأخيرة لوصالهما، بينما كانت جوزفين تعتقد أنها المرة الأولى التي تجري بها الأمور بتلك الروعة؛ فمنذ زمن طويل، لم يعودا يشعران بخشية كل منهما أمام جسد الآخر، فهذا الحس بما هو قدسي، وهذا الاحترام للحميمية التي يقدمها كل واحد منهما للآخر، وهذا الانبهار أمام مكافأة المتعة؛ فكان اتصالهما الروحي يعادل ضمتهما.

في اليوم التالي، انعزل باتيست. لا يهمه إذا كان لا يستطيع أن يكتب، كان يحتاج إلى تلك الساعات من الوحدة.

لم يكن يعرف الكثير عن إيزابيل، سوى أنها في سنّهما، أي في الأربعين من عمرها وأنها ربت أولادها الذين يتابعون دراستهم في الولايات المتحدة وتعيش بالقرب من زوجها الذي لا يشاطرها إلّا مصالح مادية وبعض العادات.

أكدت له جوزفين قائلة:

ــ سترى، ستعشقها. فحين لا تنظر إلى أحد، تبدو شخصاً عادياً؛ وما إن تبتسم حتى تكشف عن هالة.

كان على باتيست أن يقر بذلك لنفسه: كانت علاقة جوزفين بامرأة تصدمه أقل من علاقتها برجل. هنا لا يتحمل، أقله، منافسة موضوعية. لم يكن هو وإيزابيل على الصعيد ذاته ولن تتيه جوزفين في مقارنات. مع ذلك، فإن وجود عشيقة يُقلقه أيضاً... ففي تلك القارة المجهولة، لا يستطيع منافستها.

فتح النافذة وتأمل طيور ساحة آريزو، التي كانت تطارد بعضها بعضاً من غصن إلى غصن، فكانت أقرب إلى قرود ساخرة من طيور فخمة.

فمجرد أن تجتذب امرأة رفيقته لا يفاجئه، ليس لأن جوزفين قد أظهرت قبل الآن هذا الميل لكنه من الطبيعي، من وجهة نظره، أن تنجذب إلى الجنس الجميل. بدا له أن لا شيء أكثر شهوانية من فتيات عاريات متعانقات في سرير. «لو كنتُ امرأة لكنتُ سحاقية. لقد صعب عليه، طويلاً، أن يفهم كيف يفلت أصدقاؤه المثليون من هذا السحر إلى أن اكتشف أنهم يقدرون بهاء السيدات ــ فبعضهم

يبدعون في إلباسهنّ وتزينهنّ وتصوريهنّ أو إظهار مفاتنهن بشكل فريد ــ من دون أن يتشهينهنّ. لتوضيح تلك الفجوة، لم يكن أمامه إلّا أن يحلل نفسه: إذا ما أعجِب برجل فهو لا يشعر برغبة في إغوائه. ففي نظر باتيست، لا تشكل أية متعة مشكلة. ما دام الجنس هو تجربة الرغبة، فكل الممارسات الجنسية تبدو طبيعية، حتى الممارسات القليلة. إن الجماعة التي ينتمي إليها الفرد لا تعود كثيراً إلى اختياره أو تاريخه، إنه بالأحرى يانصيب بيولوجي: مهما كان جنسه، فهو يتلقى جينات تدفعه نحو أجسام الجنس ذاته أو الجنس الآخر وحتى نحو الجنسين.

أغلق النافذة.

ظهرت جوزفين.

ــ أتوافق على مساء الغد؟

ــ عمَ تتحدثين؟

ــ عن اللقاء مع إيزابيل...

تنهد باتيست. كان يخشى تلك اللحظة.

ــ دعي لي بعض الوقت، أريد أن أفكر.

ــ أن تفكرَ؟ بأي شيء تريدُ أن تفكرَ؟

ــ في أن أعتاد الوضع.

ــ تعتاد أي شيء؟ وأي وضع؟ إنك لا تعرفها.

التَفَّت به.

ــ عزيزي باتيست، ليس هناك أي سبب لتغتم... يبقى الوضع بين يديك. ستقررُ المستقبل. أما أنا، فموقفي واضحٌ: أرفض أن تكون لي حياة موازية لحياتي، لا أريد أن أحبس نفسي في خزانة الزنى. فإن لن تتحمل إيزابيل، وإن أعلنتَ لي أنك لن تريد أن تراها مطلقاً فستبتعد. أقسم لك على هذا. فإما أن تدخل في حياتنا، وإما أن تختفي منها.

ــ هل الأمر بتلك البساطة؟

ــ لا تخفْ. فأنت لا تخاطر بشيء، حبيبي.

داعب ذراعها بشكل آلي.

ــ ولكن، هل ترغب هي في أن تراني؟

ــ إنها لا تنتظر إلّا ذلك.

ــ ألا تخشاه؟

ــ إنها ترهبه!

ضحكا. قرّب هذا القلق إيزابيل وباتيست بشكل غريب، وقد أحس بعض التعاطف نحوها. «لي النصيب الأكبر، فإن خشيتُ المجابهة، خرجتُ منها، أقله منتصراً».

ــ سأترك لك ساعة لتقرر. إنه الوقت الذي يلزمني لأنهي إعداد الفطيرة.

ــ فطيرة بأي شيء؟

ــ فطيرة بالليمون.

ــ مفضلتي! إنك تتحرشين بي. هربتْ، نشيطة ومتمردة ورشيقة.

هل يمكن عشقُ كائنٍ بهذا القدر؟ كانت توحي جوزفين إلى باتيست حباً في كل لحظة. كانت الفعالية المبدعة وحدها تلهيه عنها، لكنه كان يروي لنفسه أنه يكتب أولاً ليغريها وليسحرها وليحتفظ بها.

منذ اليوم الأول، وقع في هوى تلك الشخصية القوية، ذات الطبع الحاد. بثانية، كانت جوزفين تقوم بتشخيص مشكلة أو تصرف بينما كان على باتيست أن يتداول المشكلة ويفكر فيها كي يتوصل إلى نتيجة مماثلة. كانت تتقدم مدفوعة بالحدس، أما هو فبالتفكير. بينما كان يضاعف المحاكمات العقلية والمراجع قبل أن يصل إلى حكم نقدي، كان يراها تصل إلى الهدف بومضة، شأن من مسته النعمة. بينما كان يمثل المفكر الأول في صفه، والذي يحضر الامتحانات بجلد ومثابرة، وقد جمّع شهادات كثيرة، كانت جوزفين وقد تجنبت أن تتقدم لشهادة البكالوريا، تبدو له أشد ذكاءً منه. إذا بدت فريدة، فإن ذلك لا يرجع إلى أية خطة، وأية ثقافة؛ وقد وعت اختلافها، فكانت هي، لا شيء إلّا ذاتها، عميقة، لا تستطيع أن تتصرف بشكل مغاير؛ لم تكن أية سلطة، أو سمعة، أو إجماع يؤثر فيها؛ فإذا اصطُحِبت لمشاهدة مسرحية لمؤلف كرسته أجيال، وهو ويليام شكسبير، صرخت عند الباب «يا لشناعة تلك المسرحية!»؛ تحاذي رئيس دولة ومهما كان شهيراً أو ظريفاً تقول: ــ إننا نعرف أن رجال السياسة هم أولاً محترفو التملق والخداع ــ، وتبرهن له من دون إزعاجه أنه يخطئ في سياسته. ولم تكن للمليونير قيمة في نظرها أكثر من جامع القمامة: على العكس، إن امتلاك ثروة تجعل خطيئة ذوقه لا تُغتفر، لذا فهي لا تتردد في فضحها. بسرعة كبيرة، أطلق عليها أصدقاء باتيست «السيدة من دون تكليف»، وهم يذكرون زوجة الماريشال التي كانت مفعمة بالحس السليم والجرأة، سليطة اللسان، وتتصرف في بلاط نابوليون كما تفعل في دكان غسّالة ثيابها. حين تزوجا، ابتكر الرفاق لقباً جديداً أطلقاه على الزوجين الشابين، «غافروش[1] والمثقف».

---

(١) Gavroche إحدى شخصيات رواية البؤساء لفيكتور هيغو. يمثل فتى الشارع في باريس، وهو شجاع وساخر - (المترجمة).

ثم ابتعدا عن رفاق الدراسة الذين لا يحكمون عليهم إلّا من خلال أحكامهم المسبقة الضيقة؛ والآن لم يعد باتيست وجوزفين يعاشرانهم، فكانا حرين، سعيدين، مستقلين، وعزا هؤلاء هذا الابتعاد إلى النجاح المتكبر الذي صادفه باتيست في مسيرته ككاتب.

لم يكن باتيست يضجر مع جوزفين مطلقاً لأنه يجهل دائماً كيف ستتصرف، كانت تستمد طالعها من سلوكها غير المتوقع. لم تكن تكتفي بتصرف يختلف عن جميع الناس، لكنها لم تعد تتصرف شأن ذاتها. فما إن تُحَدَّد أذواقها أو هواجسها حتى تُفَنِّد هذا التصنيف بتفصيل ما. هكذا لم يكن يستطيع أحد أن يستشف ما سيروق لها أو لا يروق: فظن بعضهم، وقد أبدت إعجابها بموباسان أو بستيفان زفايغ، أنها تفضل الفن المباشر، بلا ادعاء، والمُجرد من الخزعبلات الأدبية، بينما تطرب لزخرفات بروست أو تردد قصائد مُثقَلة ببلاغة الشاعر سان ـ جون بيرس. وبعد أن تكون قد انتقدت مثقفين ضبابيين، ذوي أسلوب غامض وغير مفهوم، تشرع في نقل حكم لرونيه شار، وهي جمل بقسوة الماس وبوجوه متعددة لا تُفضي برسالة آنية لكنها تكشف عن معان كثيرة تظهر مع الزمن.

كانت تسيطر على قلب باتيست بتقلبها شأن سماء المحيط، فهي في آن واحد مُتهَكِّمة ومُتَحذلِقة، مُرَحِّبة ومُتَطلِّبة، يقظة وغير مُتساهلة، انفعالية ومُفكرة، حزينة ومُبتَهِجَة، عاشقة ولعوب. إنها شأن سماء غير متوقعة، تستطيع أن تحل مكان جميع النساء لأنها كانت تجمع في شخصها كل النساء. غالباً ما كان يقول لها «لست امرأة واحدة، إنك بالأحرى جدول لكل النساء».

كانت جوزفين تُحدث ردود أفعال متناقضة، وكان باتيست على علم بذلك: فإما أن يعشقها الناس، وإما أن يكرهوها. ويبدو أن الذين يكرهونها أكثر عدداً. لكن ذلك لا يؤثر في باتيست. على العكس، كان هذا الإقصاء يقدم غربالاً للتعرف إلى ضعاف العقول وإلى التقليديين. فبفضلها، تخلص من كثير من الأوغاد. كان يخلص إلى القول: طبعاً، إن جوزفين لا تُحتمل؛ لكنه لم يكن يتحمل سواها؛ كان الآخرون يُضجرونه.

عادت إلى الغرفة وهي تُشهر أحد أرباع فطيرة محترقة.

ـ حسناً، لا أستطيع تركيز أفكاري: حلوى مُفَحمة. لن أعطيك منها إلّا إذا كنتَ متأكداً من رغبتك في الإصابة بالسرطان.

أمسكها وضمها إليه.

ـ اتفقنا على الغد مساءً.

أشرق وجه جوزفين:

ــ هل هذا صحيح؟ آه، كم تسرني...

بقي باتيست، في الساعة العشرين من ذاك المساء، في مكتبه أطول وقت ممكن. لم يكن يعرف أين يجلس: إلى طاولته، فهذا يُذكره أنه غير قادر على كتابة سطر؛ إلى النافذة، فقد يلمح إيزابيل أبكر من اللازم.

أعدت جوزفين الطعام وأشعلت الشموع. وقد بدا له ذلك ساخراً أو لذيذاً حسب الثواني.

أخيراً سمع الجرس. انقبض قلبه.

أعلنت جوزفين:

ــ إنني ذاهبة.

سَمع الباب يُفتَح، وثمة زقزقة غير واضحة للامرأتين. أكانتا تتعانقان؟

هل كانتا تستفيدان من غيابه كي تتصرفا كعشيقتين؟

وقد نفد صبره، تحقق من مظهره في المرآة. كان قد تردد طويلاً: فمن جهة، أراد أن يتجنب إثارة السخرية بتأنقه؛ ومن جهة أخرى، شعر بالحاجة إلى أن يكون على مستوى جوزفين، وألّا يكابدها مظهر زوج مُهمل الهندام. حين استشف صورته، وجد نفسه بلا أدنى أهمية حتى أنه تساءل لماذا تهتم به جوزفين بالرغم من مظهر جسدي كهذا. ثم اجتاز الممر، بنفس متقطع، كي يصل إلى غرفة الاستقبال.

ما إن دخل الغرفة حتى استدارت إيزابيل، شقراء، متلألئة، فأشرق وجهها.

ــ طاب يومك. إنني سعيدة بلقائك.

ترنح، وقد غمره سحر عظيم وجاذبية فائقة. بدت إيزابيل التي لم تكن أطول قامة من جوزفين كأختها الشقراء.

من دون تردد، انحنى نحوها وأمسك كتفها وزلق قبلة على خدها. ارتعشت إثر ملامسته. وحدث الأمر ذاته معه. كان عطر لذيذ ينبعث منها. ابتسم كل منهما للآخر من جديد، من دون أن يتحركا، وبينهما عدة سنتيمترات.

صرخت جوزفين:

ــ أتريان، كنتُ واثقة أنكما ستروقان بعضكما لبعض!

التفت باتيست ونظر إلى زوجته.

كانت عيناه الفرحتان تقولان لها: «لقد وقعتُ أنا أيضاً في حبها».

٤

ــ غيوّم، لا تستلم للإهمال!

إثر أمر والده، جلس الصبي منتصباً أمام مكتبه الصغير. تابع فرنسوا ــ مكسيم دو كوفينيٍّ بلطف قائلاً:

ــ في كل لحظة من حياتك، غيوّم، تَخيل أنك تركب حصاناً. عليك أن تبدو مرناً ومستقيماً، وإجادة الاثنين معاً. يقتضي ذلك تمالك النفس، من دون أدنى تصلب.

رنا غيوّم إلى أبيه الذي أظهر هيئة محترمة، بظهر مستقيم ورقبة رشيقة.

قال لميري بالإنكليزية، وهي الشابة المقيمة عندهم:

ــ أطلب منك أن تذكريه بذلك، إذا ما اقتضت الضرورة.

أجابت الشابة الإيرلندية:

ــ نعم سيدي، يمكنك أن تثق بي.

ــ يمكنك أن تتركينا، أرجوك، سأبقى معه.

خرجت ميري من الغرفة لتذهب إلى طابق الفتيات كوفينيٍّ.

تابع فرنسوا ــ مكسيم:

ــ هيا، أرني دفتر التمارين. هل تقدمت في الخط؟

تفحص الأوراق المغطاة بالكتابة الرديئة. لقد بذل ابنه قصارى جهده لكنه اصطدم بألف عائق: فالريشة تعلق والحبر يُحدث لطخات والورق يتمزق. ثمة مؤامرة تتحامل عليه.

حاول الصبي تغيير الموضوع وقد استشف أن تقييم أبيه سيكون صارماً:

ــ في المدرسة، اليوم، كنتُ على وشك أن أقاتل.

ــ لماذا؟

ــ لأن بنجامان ولوي قالا عن كليمن بأنه لوطي.

ــ آه، وماذا بعد؟

ــ قلت لهما إن هذا سيئ. أولاً لأن هذا غير لائق. ثم أعلمتهما أن أبي هو كذلك، وإنني لا أسمح أن يتحدث أحد بالسوء عنه.

بقي فرنسوا ــ مكسيم دو كوفينيٍّ مذهولاً، وقد غمرته موجة من الهلع.

تابع الصبي كلامه، وكله ثقة بنفسه، مشيراً بإصبعه قائلاً:

ــ شرحت لهم أيضاً أنه لا يُقال «لوطي[1]» ولكن رئيس ــ مدير عام. ثم علينا ألَّا ننتقد أحداً لأنه يربح مالاً. وإذا كنتَ رئيساً ــ مديراً عاماً للمصرف، فإن أسرتنا فخورة جداً بك...

انفجر فرنسوا ــ مكسيم دو كوفينيٍّ بالضحك، بضحكة عنيفة، قوية خرجت من حنجرته، فانقلب رأسه إلى الوراء. أدرك، طبعاً، أنه بالغ في موقفه لكن ما أهمية ذلك: بعد أن أحس الرصاصة تُصفر فوق رأسه، عاد إلى الحياة.

مدت سِڤرينّ رأسها، وقد فوجئت من ذاك المرح قائلة:

ــ ماذا يحدث؟

نقل فرنسوا ــ مكسيم كلمات ابنه. كذلك ضحكت سِڤرينّ، بضيق. فبين والديه تصارعت في نفسه رغبة تسليتهما وحدسه بأنه قد ارتكب خطأً.

انتهى به الأمر أن سأل:

ــ ماذا قلتُ ممّا يدعو إلى الضحك؟

توقف الوالدان عن الضحك، وقد أخطرا بتوضيح نقطة حساسة. أشارت سِڤرينّ لفرنسوا ــ مكسيم أن عليه، وهو الأب، يرجع دور إعلام ابنهما.

ــ حسناً، غيوّم، «لوطي» هي كلمة سيئة تشير إلى شيء شنيع.

ــ ماذا؟

يوصف باللوطي الرجل الذي لا يعيش مع امرأة ولكن مع رجل.

ــ لا أفهم ما تقول.

ــ حسناً، هذا الرجل ينام مع رجل آخر في السرير ذاته، ويتقاسمان طعامهما، ويذهبان معاً في عطلتهما.

ــ إنهما صديقان، أليس كذلك؟

ــ أكثر من ذلك. إنهما يفعلان ما يفعل أب وأم: يداعبان بعضهما بعضاً، ويتبادلان القبل على الفم.

ــ يا للهول! قفز الطفل من كرسيه وعبَّر وجهه عن القرف.

يا لرضى فرنسوا ــ مكسيم إذ لاحظ أن ابنه يشعر بهذا الاشمئزاز العفوي! يا

---

(١) Pédé أي لوطي وP-DG منصب رئيس مجلس إدارة - مدير عام. يقع الالتباس في القسم الأول من الكلمة الثانية أي P-D - (المترجمة).

له من إنسان طبيعي مُطمئن! ألقى نظرة زهو على سڤرينّ، التي بدت أكثر ارتباكاً من رد فعل ابنها عنها اطمئناناً. رأى أنه من الفطنة إضافة مسحة من التعليق:

ــ ثم، ما ليس بخير، غيوّم، هو أن رجلاً كهذا، لا يتزوج من امرأة، لا ينجب أطفالاً ولا يؤسس أسرة. في الحقيقة، لا يجدي نفعاً. فيبقى بالنسبة إلى المجتمع وإلى الجنس البشري عديم الفائدة، بل طفيلياً.

وافق الطفل برصانة بحركة من رأسه.

أكمل مكسيم ــ فرنسوا:

ــ إذاً لا علاقة لهذه الكلمة مع (P-DG) وهي اختزال للرئيس ــ المدير العام. أجل، لا علاقة بين (P-DG) و... ما قلتَه.

لم يتوصل إلى لفظ تلك الكلمة؛ ليس لأن هذا التعبير وحده يخص لغة سوقية يستغني عنها فرنسوا ــ مكسيم، بل لأن مجرد لفظها قد يمثل مجازفة كبرى، عدوى أو الطريق إلى اعتراف... كان بالغ الرغبة في أن يجهل ذلك الواقع حتى راح يدفع بعيداً الكلمات التي تصفه.

تابع الصبي:

ــ إذاً، هل كليمن لوطي؟

ــ ربما لا، غيوّم. هذه الكلمة ــ التي عليك ألّا تستعملها ــ، هي شتيمة مألوفة بين صبية سيّئي التربية. فكر: حين يصفن أخواتك بالبلهاوات أو بالغبيات، فهن لا يقلنَ الحقيقة.

ــ اتفقنا.

تنفس الطفل وختم كلامه قائلاً:

ــ على كل حال، لن أكون لوطياً مطلقاً.

نظر فرنسوا ــ مكسيم إلى غيوّم بتأثر. هكذا، لم ينقل إليه ميله، فقد أمّن له جينات نظيفة، ربما توقفت اللعنة هنا، لن يكون ابنه مرغماً على أن يعيش حياة سرية للحظة. فرجل الأربعين، الذي تقض مضجعه اضطرابات متناقضة، غبَّط الطفل البالغ سبعة أعوام على يقينه الواضح. بالتالي، ترك الدفتر من دون أن يبدو متطلباً كما كان عليه أن يُظهِر.

ــ إنك تشكل أحرفك بشكل أفضل، غيوّم. تابع التقدم في هذا الاتجاه.

خرج، مغتبطاً، ولحق بسِڤرينّ التي أمسكت يده ونزلت السلم معه.

ــ أشكرك لكنني أتساءل...

ــ نعم؟

احمرّ وجه سِفْرينّ. أحست صعوبة في متابعة جملتها:

ــ فرنسوا ــ مكسيم، ألا تبالغ حين تقول له: ... أن يكون الإنسان هكذا... ليس محمودٍ؟

تشنج فرنسوا ــ مكسيم متسائلاً:

ــ عفواً؟

ــ سيتعرف إلى أناس هكذا.

ــ حسناً، إذاً سيعرف أن يختار من هو على صواب ومن هو على خطأ.

أغلِق الموضوع، ولحق فرنسوا ــ مكسيم ببناته. اعتاد، كل مساء، التحدث مع كل واحد من أولاده عن اليوم الذي انقضى وعن واجبات اليوم التالي.

رأته سِفْرينّ يبتعد، منتصب القامة، واثقاً من ذاته وأسفت لأنها لا تستطيع، شأنه، أن تقبل من دون تردد بعض «البداهات». «منْ على صواب ومنْ على خطأ»! ... وقد استفادت من أن أحداً لا يلاحظها، فذهبت إلى غرفة الاستقبال، وملأت كأساً من الويسكي ابتلعته بسرعة.

منذ عدة أيام كانت منزعجة جداً بسبب تينك الرسالتين الكريهتين، تينك الورقتين المتماثلتين اللتين تسلّمهما فرنسوا ــ مكسيم وكزافيير. لم يتردد أي واحد منهما: زوجها وعشيقتها فكّرا على الفور أنها هي سِفْرينّ التي أرسلتهما. عبرت كزافيير عن ذلك بصفعة، وفرنسوا ــ مكسيم بحقيبة يد فخمة حيث وجدت الرسالة الأصلية: «هذه الكلمة لمجرد إعلامك بأنني أحبك. التوقيع: أنت تعرفين من. وقد أضاف عليها بخط يده: «أنا أيضاً».

لم يكن ما يُقلق سِفْرينّ هو الهوية الفعلية للمرسل، لكن أن يفكرا بأنها هي المرسلة! لو عرفا... هل كانا يُقدِّران أنها غير قادرة على مبادرة كهذه؟

هل يحسان غياب مشاعرها ولامبالاتها المزمنة؟ أوجب أن يحبها فرنسوا ــ مكسيم وكزافيير بشدة لينسبا إليها تلك الفكرة؟ ولنفترض لو أن سِفْرينّ قد تسلمت تلك الورقة، لما شعرت، هي، بأية بداهة. لأنها لا تشعر بشيء. أو لا تشعر إلّا بالنزر اليسير. فهي ترى ذاتها غير قادرة على بادرة قطعية نحو أي شخص وتبقى مذهولة فلا أحد قد وعى ذلك. وإذا كان فرنسوا ــ مكسيم قد صار زوجها، فلأنه اقترح عليها ذلك: لم تقم إلّا بالموافقة عليه. وإذا كانت كزافيير قد دربتها على متع الحب السحاقي، فذلك لأنها قد أخذت المبادرة: استسلمت لقيادة كزافيير. فمن تلقاء نفسها، لم تكن تشعر بالاندفاع، مكتفية بتأمين الصدى لاندفاعات الآخرين. أما دورها كأم، فلقد رضيت أن تقوم به، فكانت تتمم واجبها وتعطي بدقة إشارات الحب. لم يكن الموضوع يقتصر على السلبية وحدها ولكنه كان خواءً

داخلياً. وفق عادتها، أمام الرسالتين، سمحت بالظن بأنها هي المرسلة. ما أهمية ذلك؟ لم تكن الحقيقة هي التي تهم ــ فهي بالغة القبح كي تُقال، على كل حال، حقيقتها ــ ولكن يجب حماية الأوهام. فبعد أن صفعتها كزافيير، وقد اتقدت رغبة، جرتها إلى أريكة الصالون. وبعد أن قدم لها فرنسوا ــ مكسيم هديته، أظهر مزاجاً أكثر بهجة عن المألوف. وإن لم تكن سعيدة، لكنها جعلتهما سعيدين.

صبت كأساً ثانية من الويسكي. ملأتها هذه المرة إلى أقصى حافتها وغبته ادفعة واحدة. تلك ظاهرة لا تُصدق: لا أحد يشك بأنها قد صارت مدمنة الكحول. بالطبع، كانت تُموه شربها الخفي بأن تتغرغر بماء الزهر فتتلاشى رائحة الكحول، ولكن كيف لم ينتبه أحد!

نزلت إلى جناح الخدم:

ــ ماذا أعددتِ، كريت؟

كانت الطباخة الماهرة تعدد الأطباق وتحصي التوابل الرئيسية. «هنا، أيضاً، لستُ قادرة على القيام بدوري». لم تُحضر سِفْرينّ يوماً الطعام. كانت ابنة أثرياء فلم تتعلم أن تطبخ على الإطلاق لا سيما وأن المهمة قد بدت لها فوق طاقتها: فالعمل طوال ساعات ما يبتلعه فم بعدة ثوان، يا لها من عبثية! فإذا كانت تُعجب بالطهاة أو بالطاهيات، فلم يكن ذلك لمهارتهم مطلقاً، ولكن لتقديسهم لما لا جدوى منه ولتلك العبادة لمهمة غريبة ألا وهي إعداد وليمة ستُبْتَلَع على الفور. فهم أبطال ما لا جدوى منه!

تجتمع الأسرة في غرفة الطعام الفسيحة. وبطريقة تقليدية، كان الإكساء الخشبي للجدران يشكل إطاراً لمشاهد صيد رُسِمت باليد. على الطاولة، كانت الصحون كثيرة جداً وكذلك الأقداح والملاعق والشوك والسكاكين والتي تُظهر يومياً ثراء تلك المائدة المعدة للوليمة. كانت تنزلق خادمة خلف المدعوين وتسكب لهم الطعام، وفرنسوا ــ مكسيم يدير الحديث. كان على الأولاد أن يعرفوا أن تناول الطعام لا يعني لحظة يقتات فيها الإنسان، لكنه الوقت الذي يلمع فيه المرء ببريق حديثه ويهتم بفعاليات الآخرين.

تضايق حين تأخر غيوّم في الإجابة عن سؤال بذريعة أنه يمضغ قطعة من سمك الغادس.

ــ أرجوك، غيوّم، تعلم أن تتحدث وفمك ملآن.

ــ لكن...

ــ أن تجعل مستمعك ينتظر بحجة المضغ يشكل فظاظة هائلة. إنه تصرف خنزير!

ــ أبي!

ــ يجب ألّا يسيطر العامل الفيزيولوجي على الروحي، يا ابني. عليك أن تعتاد التحدث وفمك ملآن من دون أن يشعر أحد بذلك. انظر.

حمل بشوكته، إلى شفتيه، شريحة مستديرة من الكوسا وتابع بعفوية، من دون أن يرى أحد قطعة في حنكه:

ــ لست بحاجة إلى أن أبلع بسرعة أكبر. عندي مكان كافٍ في جوف فمي لأخفي الأطعمة وأستفيد من النطق لأطحن الغذاء. هكذا أشارك في المناقشة وأنا أكرم الوجبة بتذوقها.

تفحص الأخوات أخاهن بشفقة متعالية: فهن يقمن بتلك الرياضة الاجتماعية منذ سنوات ويفكرن « حقاً، يا لهذا المسكين غيوّم، يجب أن يعلمه الآخرون»، وقد نسينَ أنهن قد اضطررن التعود على ذلك.

بعد الحلوى، جاءت ميري الفتاة المقيمة في البيت، لتصحب الأولاد.

جلس فرنسوا ــ مكسيم وسِڤرينّ في غرفة الاستقبال. بحث في البرامج المسجلة عن برنامج يسليها. أثناء ذلك، كانت عينا سِڤرينّ تهيمان على الجدران: لم تكن تستطيع أن تحدد إذا كانت تقدر الزينة أم تكرهها. فمجمل الأشياء تعطي انطباعاً بالثراء والترف والوفرة لأن الأقمشة ــ من القواطع حتى الستائر مروراً بالأرائك والمقاعد ــ تُظهر رسوماً متعددة وأنواعاً مختلفة من الكشمير، والمصابيح الكثيرة توزع أنواراً تتموج على تماثيل حيوانية وعلى علب من صدف أو من حراشف السلحفاة. منذ عشر سنوات، أعدت هذا الديكور مهندسة معمارية إنكليزية. ولدّت النتيجة شعوراً بالراحة لكنها لم تكن تجد ذلك فيه. منذ أن اكتشفت بيت كزاڤيير الصغير على شاطئ بحر الشمال، البالغ التميز والتناسق واللطف، استنتجت عجزها: فداخل بيتها فُرض عليها من الخارج من بريطانية تهتم الآن بلا شك بأمير قطري. بمجمل القول، هنا أيضاً، أملوا عليها سلوكها وتصرفها.

وإذا رمت بعيداً تلك الأبهة لتستبدلها بطراز بسيط ومجرد، أغرتها الفكرة. ألم تدوّن عنوان مهندس ديكور ممتاز يُعرف بأسلوبه البسيط الذي يقتصر على الحد الأدنى من الأثاث؟ « يا لبؤسك، تعاودين الكرة!» فكرت أن شخصاً آخر، مرة ثانية، سيرتب عالمها... عدلت عن الفكرة إذاً وتمنت أن يختار فرنسوا ــ مكسيم برنامجه بسرعة كي تذهب لتشرب كأساً من الويسكي.

ــ « الحق في الكلام» عن السياسة الأوروبية! أيلائمك سِڤرينّ؟

ــ ممتاز.

نظراً إلى استعراض سياسي سُجل ليلة أمس. تابع فرنسوا ــ مكسيم المناقشات بحماسة وتحيز؛ أما سِفْرينّ، الأكثر تحفظاً، فأظهرت اهتماماً مهذباً، مستفيدة من جدالات حامية لتذهب وتغب خفية بعض الكحول.

في نهاية البرنامج، لم يبقَ أمامهما، منطقياً، إلّا الصعود إلى غرفتهما. كانت تلك الفكرة ترعب سِفْرينّ التي سمعت نفسها تقول لفرنسوا ــ مكسيم:

ــ هل رويتُ لك سر والدي؟

حدَّق إليها، منذهلاً، حين أدرك أنها تنتظر، بنهم، جواباً. أغلق التلفاز وجلس أمامها.

ــ سر والدك؟

لم يكن فرنسوا ــ مكسيم قد عرف أبا سِفْرينّ. حين التقيا على مقاعد كلية الحقوق الباريزية، في شارع «أساس»، كانت قد فقدت أباها منذ عام.

أمسكت سِفْرينّ القنينة، أخرجت كأسين وأحضرت الصينية على طاولة منخفضة. هكذا، إذا شم رائحة الويسكي تنبعث منها فيما بعد، يكون ثمة سبب. وإذا ما شرب معها، فلن يشعر بالرائحة.

وقد استشف أن المسارَّة ستكون جسيمة، قَبِل الكأس التي قدمتها له.

ــ كان لوالدي سر. فحين اكتشفه أخي البكر، كانت تلك بداية النهاية.

ــ نهاية أي شيء؟

ــ نهاية الأسرة. ففي خمسة أعوام تغير كل شيء: توفي أبي وأصيبت والدتي بالسرطان ورحل أخي إلى الهند حيث أصيب بأميبات قاتلة، وتزوجت أختي من زنجي، لم يكن هذا الأمر جسيماً في حد ذاته، لكن والديَّ شعرا بأن ذلك أسوأ ما كابدتهما سيغولين وهما على قيد الحياة. ألم تتساءل لمَ كل تلك المجزرة في أسرتنا؟

هزَّ فرنسوا ــ مكسيم رأسه بالنفي. حين بدأ يغازل سِفْرينّ، ثم يعاشرها، رافقها في كل تلك المآسي، ومنذ خطبتهما، حضر مآتم كثيرة. في الحقيقة، عرف أسرة سِفْرينّ حين تلاشيها. النتيجة؟ بعد عامين على زواجهما، كانت تشارك مع أختها الوحيدة الباقية لها ثروة عائلية ضخمة؛ ثم، بما أن أختها قد تخلت عن حصتها، استرجعت سِفْرينّ الثروة كاملة.

تابعت قائلة:

ــ كان والدي محط الإعجاب والرهبة دائماً. ففي نظرنا، جسَّد الامتياز والتفوق. كان عادلاً ومثقفاً وصارماً ودؤوباً على العمل فكان النجاح نصيبه دائماً،

وكان يثير دهشتنا. لم يكن يُظهر وداً على الإطلاق كما لم يكن يطلب ذلك. لم أكن متنبهة إلى ذلك، ومحللي النفسي هو الذي لفت نظري إلى تلك النقطة. ولكن والدي قد هوى، ذات يوم، من عليائه.

ــ هو؟

حدث ذلك في الصيف. كنا نقيم في بيتنا في «هوسِغور» على شاطئ المحيط الأطلسي، باستثنائه هو الذي بقي في باريس. لم يكن يمنح لنفسه أية عطلة بتاتاً، يفضل أن يعمل، والنتيجة أننا كنا نشعر بشيء من الذنب، ونحس بعض الخجل. ذات يوم خميس، صعد أخي، البالغ اثنين وعشرين عاماً، إلى باريس لأن واحداً من أعز أصدقائه يحتفل بخطبته. كان قد نسي أن يُعلمنا مسبقاً وكذلك أبي، ولم يعلمنا بذلك إلّا صباح رحيله. وصل إلى باريس في فترة بعد الظهر، وليتجنب حديثاً لا ينتهي مع حارس بنايتنا البالغ الثرثرة تسلق إلى الشقة من مدخل سلم الخدم. هناك رأى والدي.

صبتْ كأساً أخرى من الويسكي قبل أن تضيف قائلة:

ــ أو بالأحرى، رأى امرأة مرعبة تشبه أبي.

ــ إنني لا أفهم...

ــ هو كذلك لم يفهم في الحال. فمن خلال قضبان الدرابزين، لمح امرأة مسنة مربعة الشكل، عريضة، وغير أنيقة تخرج من بيتنا. تعجب من الأمر. ظن للحظة أن والدي قد اتخذ عاملة تنظيف أخرى. كانت تنزل وهي تدق بثقل كعبي حذاءيها على الدرجات. ثم ميَّز تقاطيع المرأة؛ فبالرغم من الشعر المستعار والتبرج والزينة، تعرف إلى والدنا.

ــ كان أبوك يتنكر بشكل امرأة؟

ــ لم يشأ بيير لأول وهلة أن يصدق ما رأى، فهرول نازلاً السلم وهرب، وقد جُنَّ جنونه. بعد ساعة، عاد إلى البيت وسمح لنفسه القيام بما لا يمكن تخيله: فتش في جناح أبي ــ كان كل من والديَّ ينام وحده في غرفة. هناك، اكتشف المصراع الخفي داخل الخزانة، ذا القعر المزدوج الذي يحوي أثواباً وتنانير وقمصاناً نسائية بقياس كبير جداً، وأحذية خفيفة بقياس ٤٤، ومحفظة خاصة لمستحضرات التجميل. امتنع عن التحدث بذلك وذهب ينام عند رفيق له. لكنه راح يعود كل يوم في الساعة عينها، ويجلس صابراً في مقهى ويرى أبي متنكراً بزي امرأة يخرج من باب الخدم.

ــ فتبعه...

ــ أجل.

ــ و...؟

كان والدنا يتنزه باعتباره امرأة. فيجلس في مقهى ويشرب قهوة كامرأة، ويتسكع شأن النساء في المخازن الكبرى في أجنحة الأثواب والملابس الداخلية للنساء، ومستحضرات التجميل حيث كان يشتري أشياء تافهة. كان يعيش ساعة نسائية.

ــ هل قال بيير لكُنَّ الحقيقة؟

ــ في ذاك الصيف، لم يقل بيير شيئاً. لكنه في السنة التالية راح يهرب من دروسه. كان ينام خارج البيت من دون إعلامنا. كنا نخشى من تعاطيه المخدرات. ذات يوم أحد، على مائدة الغداء، كان والدي في طرف الطاولة يهيمن كبطرك، فوبخ أخي أمامنا. حينذاك شحب وجه أخي ونهض واختفى ثم عاد بعد دقيقة، يحمل ملابس أبي التي يتنكر فيها ليظهر كامرأة ورماها على الطاولة. بعد ذلك، كشف ما كان قد رأى.

ضبطت سِفْرينّ رجفة في يديها.

ــ في الحال، تحول المُتَهِم إلى مذنب. بما أن أبي قد شحب وجهه، وصمت، وقفت والدتي، مستاءة، وطلبت من أخي أن يرحل، وألّا تطأ قدماه ثانية بيتنا. أطاعها بيير. خلال عدة ساعات، أردنا أن نعتبر أخانا كاذباً وملفقاً ووحشاً. إلّا أن أبي اعتصم بالصمت. أدركنا، خلال أسبوع، أنه خاتلنا طوال سنين. بعد ثلاثة أشهر، أعلنت أختي أنها ستذهب لتعيش في النيجر مع رفيقها بوبكّار. طردتها والدتي. أما بيير الذي كنتُ أراه خلسة، فلقد طار إلى الهند. بعد سنة، كان والدي الذي لم يلفظ عشر جمل منذ ذاك الأحد المأسوي، قد صدم سيارته بشجرة دلب، وهو حادث، فسّرناه ــ من دون أن نقول ذلك ــ بأنه انتحار. أما التالي، فتعرفه. علمنا موت أخي في بومباي. أصيبت والدتي بسرطان الثدي فأراحها ذلك واستسلمت للموت بسبب الورم في أربعة أشهر. أخيراً، تنكرت سيغولين، من نيامي، لأسرتنا ورفضت حصتها من الإرث.

اقترب فرنسوا ــ مكسيم من سِفْرينّ وضمَّها بين ذراعيه لكنها تخلصت منه لأنها كانت ترغب في متابعة الحديث. لم ينزعج وجثا بالقرب منها.

ــ إذاً، إنك الوحيدة حقاً التي نجت من تلك الكارثة.

ــ في الظاهر، نعم.

ــ ماذا تريدين قوله؟

ــ إنني أشك، في قرارة نفسي.

غاص نظرها في عينيه.

ـ إنني أشك في أن الناس يظهرون على حقيقتهم. أشك في أن يكون أهلي يطابقون مظهرهم. أنتظر دائماً كشفاً مروعاً.

نهض فرنسوا ـ مكسيم بحركة غريزية. ماذا أرادت إلى أن تقول له؟ هل تعلن قصتها له أنها لم تعد تجهل دناءته ولا أفعاله الحقيرة؟

ـ تصور، فرنسوا ـ مكسيم، أن يعلم أولادنا، يوماً، أننا لم نكن كما ندعي؟

هذه المرة، تراجع فرنسوا ـ مكسيم أكثر: ليس ثمة شك، كانت تعرف!

ـ ماذا... ماذا تريدين قوله؟

ـ لا شيء.

ـ هل لديك... كشف محدد تطلعينني عليه؟

نظرت إليه مطولاً، من دون تعبير، وقد أثقل عليها جُبنها: لم تكن عندها الجرأة لتعترف بعلاقتها بكزافيير. تمتمت، نادمة:

ـ كلَّا.

ـ كلَّا؟

ـ كلَّا.

أسرع فرنسوا ـ مكسيم، وقد اطمأن، فضمها بقوة إليه.

ـ أحبك، سِفْرينّ! أنت تجهلين كم أحبك.

كانت حميته تكمن في صدقه بقدر ما تنبعث من اطمئنانه. خلال عدة ثوانٍ، خشي أن يفقد كل ما يعز عليه، زوجته، أسرته، نجاحه، أسراره. كرر، بوجدان ونشوة، مرات كثيرة أنه يحبها، راقصاً بفرح على حافة الهوة التي أتى على تجنبها.

فاضت دموع سِفْرينّ.

شدَّ عزمها ثم، برهافة كأنها كانت بهشاشة مزهرية من الخزف، أخذها إلى غرفتها ومددها على السرير.

كان ذلك لا يُصدق... دائماً هذا التأثير الغريب وغير المنتَظَر. فحين تبكي زوجته يتشهاها. لماذا؟ أفي ذلك بعض من السادية التي لا يستطيع ضبطها؟ أو ربما كما يفترض، شأن الذكر الحقيقي للعصور العتيقة، تهدئها مداعباته.

وقد شعر بأن عليه أن يتصرف بصبر، ألصقها به ولاطفها وهمس لها بألف كلمة لطيفة. في اللحظة التي ابتسمت له، تسلَّى بمداعبة أنفها. فماءت كالقططة، مستأنسة بطيبته، ثم أسندت رأسها إلى صدره وطوقته بذراعيها.

حين أيقن أنه وصل إلى غاياته، حاول رؤية نظرتها: نامت تواً، مرهقة.

أبقاها ملتصقة به ليدعم دخولها في السُبات، ثم وقد يتيقن أنها لن تستيقظ من حركة، انزلق خارج السرير وذهب إلى غرفة الاستقبال.

من دون أن يفتح النور، صعد على مرقاة من الخشب، وأمسك كتاباً عن الفن في آخر جناح من المكتبة، أسدل بعد ذلك الستائر وأغلق أبواب الغرفة، ثم أضاء مصباحاً واحداً يساعده على القراءة. فالكتاب، وقد خُصص للمصور الفوتوغرافي العظيم «مابلوتورب» النيويوركي، أظهر الأجساد الخارقة والمألوفة تحت التعذيب، والأعضاء التناسلية السود المنتفخة، وذاك الغموض في الروابط والقيود حيث يتكبل الكمال الفني بالأحلام الشهوانية. شكر فرنسوا ـ مكسيم الخالق الذي أتاح له أن يُدخل بيته مثيرات جنسية بشكل كتب عن الفن، وشرع في تهدئة توتره الذي كان يمنعه من النوم.

٥

ــ خرجتِ للسهرة أمس مساءً؟

ــ عفواً؟

رفعت الآنسة بوفير رأسها لتسمع ثانية السؤال الذي طرحته عليها مرسيل التي تسلحت بخرقة، فراحت تبحث في الصالون عن شيء تهاجمه.

ــ إيه نعم، أتيت أحمل غسيلك الذي لمتُه من مكان الكي على البخار. رننتُ الجرس مرات كثيرة. وكذلك الليلة السابقة، صعدت لأعيد إليك المجلات التي أعرتني إياها.

كانت مرسيل تعشق المجلات المخصصة لحياة الملوك والأميرات، فتمضي في مقصورتها ساعات رائعة تتأمل الأثواب وأذيالها الطويلة والتيجان والقصور المزينة بورق الذهب، كل ما كانت تصل إليه عن طريق الصور.

خلصت قائلة:

ــ في نهاية الأمر، أنت تسهرين كثيراً!

احمرّ وجه الآنسة بوفير. راح الببغاء يروي بصوت صارخ:

ــ ما معنى ذلك، أيها السيد ذو الأنف المعكوف؟ ما معنى ذلك؟

حدجته الآنسة بوفير بنظرة حادة. وهذا ما خول الببغاء أن يصرخ:

ــ النجدة! النجدة، سيرجيو! النجدة!

نظرت مرسيل إلى الطائر بذهول.

ــ إنه مجنون، ببغاؤك كوبرنيك.

أضافت فوراً «أفضل صديقي الأفغاني».

وقفت الآنسة بوفير ودارت على نفسها، ثم اقتربت من مرسيل وهي تفرك أصابعها قائلة:

ــ يجب أن أفضي إليك بمسارّة.

أجابت مرسيل باهتمام:

ـ اه أصحيح؟

ـ لقد التقيت شخصاً.

جحظت عينا مرسيل وهزت رأسها ببطء. بضحكة قصيرة حادة، عبَّرت الآنسة بوفير عن غبطتها.

ـ إنه موسيقي ذو شهرة عالمية. عازف بيانو. أميركي الجنسية.

ـ هل هو أسود اللون؟

ـ كلَّا، أبيض اللون. لكنه قريب جداً من أوباما.

هزت مرسيل يديها بإعجاب.

ـ كم مضى من الوقت وأنت تعاشرينه؟

ـ سنة.

ـ هل يعيش هنا؟

ـ في بوسطن.

خفضت الآنسة بوفير رأسها بحياء، كأن ذكر بوسطن يخط إحدى الصفات الأكثر إرباكاً لخطيبها. تعجبت مرسيل:

ـ كيف تفعلان؟ هو في بوسطن، وأنتِ هنا؟

ـ في الوقت الحاضر، يُقيم في بروكسل. وإلَّا، نتصل هاتفياً.

ـ إنك إذاً، آنستي، تدهشينني في هذا المجال.

كانت مرسيل منبهرة: فما يذهلها هو إمكانية الحب بالهاتف. كيف يمكنها أن تتصرف مع صديقها الأفغاني الذي لم يكن يتحدث كلمة بالفرنسية كما لم تكنْ تنطقُ بكلمة من لغة «الباتشو»؟

ـ بأية لغة تتحادثان؟

ـ الإنكليزية...

ـ إنني معجبة بك!

ـ ... وإن كان يُجيد الفرنسية، لأنه تابع دروس ماجستير في باريس لمدة سنتين. أخيراً، صارت الفرنسية بالنسبة إليه لغة الحب.

احمرّ وجهها مرة أخرى، شأنها شأن من باح بتفصيل حميمي جداً.

هزَّت مرسيل رأسها موافقة وختمت قولها:

ـ سأحضر المكنسة الكهربائية.

وافقت الآنسة بدورها، معتبرة أن مرسيل قد اتخذت المبادرة الحسنة.

بينما كانت مرسيل تُخَبِّط في الخزانة كي تُخرج المكنسة العالقة، عادت الآنسة

بوفير إلى مكتبها وأمسكت ورقة صغيرة كتبتْ عليها بالقلم هذه الكلمات: «عازف بيانو. أميركي. دراسة في باريس. تعارفنا منذ سنة».

في تلك اللحظة، ظهرت مرسيل بغتة.

ــ قريب جداً من أوباما، كما تقولين؟

ــ أجل، مرسيل، قريب جداً.

ــ وليس أسود اللون؟

ــ كلّا، مرسيل.

وصلت البوابة مأخذ الجهاز بالكهرباء.

ــ لاحظي، بالنسبة إليَّ، لم أصاحب زنجياً مطلقاً. كان بودي أن أفعل ذلك. بدافع الفضول.

ــ الفضول في أي شيء؟

نظرت مرسيل إلى الآنسة بوفير، ترددت في الإجابة، ثم أدركت أنها ستصدمها، فرفعت كتفيها وأطلقت التهوية الرنانة.

ــ على كل حال، صديقك ليس زنجياً.

حينذاك راحت تفرك بنشاط السجادات الكبيرة.

أضافت الآنسة بوفير كملاحظة «إنه قريب جداً من أوباما لكنه ليس زنجياً». قبل أن تدس الورقة في درجها السري، راقبت ما تحوي تلك الورقة الصفراء الغريبة على الوجه الآخر: «هذه الكلمة لمجرد إعلامك بأنني أحبك. التوقيع: أنت تعرفين من».

« يا لغرابة الأمر. لا أزال أترقب تتمة تلك الدعاية. عرفوا أن يثيروا الفضول لكنهم لن يتأخروا كثيراً بعد الآن. وإلّا لنسي الناس».

وقد ارتاحت، فكرت أن مرسيل ستعدل عن البحث أين تهرب مساءً؛ في المقابل، ستشرع في السؤال بانتظام عن حبيبها. كيف ستسميه إذاً؟

توقف صوت المكنسة الكهربائية. حدقت مرسيل إلى الآنسة بوفير، والسلك في يدها، وقدمها على الجهاز، شأن صياد انتصب أمام فريسته.

ــ سيتزوج ابني في ثلاثة أشهر.

ــ رائع. وبمن؟

ــ بكريستيل بيبرديك.

تساءلت الآنسة بوفير إذا لم يتصدع دماغها.

ــ كريستيل بيبرديك؟

ــ أجل.
ــ «الشهيرة» كريستيل بيبرديك؟
ــ لماذا؟ هل هناك اثنتان؟
وقفت الآنسة بوفير، مستاءة.
ــ مرسيل، لا تتصنعي الغباء: إنني أتحدث عن كريستيل بيبرديك، ابنة أسرة خمر الشامبانيا بيبرديك.
حكَّت مرسيل رأسها قائلة:
ــ إنني اتحدث عنها كذلك.
ــ ماذا! تقولين لي تواً إن ابنك، ابنك سيتزوج من وريثة بيت بيبرديك؟
ــ إيه نعم.
ــ تقولين لي ذلك هكذا؟
ــ كيف عليَّ أن أقوله لك؟
ــ أتتصورين! يتخبط الناس جميعاً ليلتقوا آل بيبرديك. وكريستيل بيبرديك، هي أفضل مرشحة للزواج في بروكسل. ماذا فعل ابنك ليصل إليها؟
ــ كما يفعل الآخرون: غازلها.
ــ أين التقاها؟ وكيف؟ ولماذا؟ هل تدركين إلى أية درجة هذا الزواج...
أرادت أن تقول «يستحيل توقعه» لكنها حادت في اللحظة الأخيرة قائلة:
ــ ... رائع!
رفعت مرسيل عينيها إلى السماء متذمرة:
ــ يجب الانتظار لنرى! فالزواج في البدء نار ولهب ثم يتحول ذلك إلى رماد. سنرى كم من الوقت سيستمر العزيزان في الزواج.
ــ مرسيل، سيصبح ابنك ثرياً!
ــ نِعم الحدثَ لأنه مدين لي بمئتين واثنين وأربعين يورو! لا أعرف إن كنتُ قد قلتُ لك ذلك، لقد سلَّفته مئتين واثنين وأربعين يورو ليصنع لي طاولة صغيرة قرب سريري! يا للشقاء...
وهي تتذمر، أمسكت كرسياً كان يعترض طريقها، فضربته ضربتين برجلها ثم عاقبته بإسناده إلى الحائط.
أمسكت الآنسة بوفير رأسها بين يديها: هذه الأم البليدة العقل تجتر قصتها للمئتين والاثنين والأربعين يورو وطاولتها الصغيرة قرب السرير بينما يقوم ابنها بأشهر زواج للقرن!
أمام فداحة اللامعقول، عاودها الشك:

ـ مرسيل، أين يسكن أهل زوجة ابنك في المستقبل؟

ـ في آخر شارع «لويز»، في الشارع غير تانافذ «للبوا».

ارتجفت الآنسة بوفير: فالشارع المسدود «للبوا»، هو شارع خاص يقع خلف شبك أسود وذهبي، ويحتوي مساكن فخمة جداً من ٧٠٠ إلى ألف مترٍ مربعٍ ويشكل نوعاً من قرية للنخبة حيث تقيم ثروات، قديمة أو حديثة؛ كان يلقبَّ «بالطريق المسدود لأصحاب المليارات» أيام الفرنك البلجيكي، ويلقب الآن «بالطريق المسدود لأصحاب الملايين» منذ الانتقال إلى اليورو.

ـ هل رأيتِ تلك الشابة؟ ووالديها؟

ـ ليس بعد.

ـ ألم يقترح عليك ابنك ذلك؟

ـ لَّمح إلى شيء لم يعجبني، فطردته من البيت. على كل حال، أعطيت الأمر لصديقي الأفغاني ليلقيه خارج البيت، إذا ما وضع قدميه ثانية هنا.

ـ ماذا حدث، مرسيل؟

ـ أراد أن يتحقق من طريقتي في اللباس وماذا عليَّ أن أقول.

لا مجال للتردد، إذاً! فما روته مرسيل حتى الآن حقيقيٌّ.

تابعت مرسيل قائلة:

ـ نعم، آنستي، كأنه يخجل من أمه!

تركت المكنسة الكهربائية، وضربت جبينها بقبضتها المغلقة ثم انفجرت بكاءً. أسرعت الآنسة بوفير وطوقت كتفيها بذراعها وهمست لها كلمات معزية بينما كانت تتعاطف في قرارة نفسها مع هذا الشاب الذي بعد أن حصل على الجائزة الضخمة، يخشى بحق، أن تهدم أمه صعوده.

غمرتها موجة من الطيبة. أجلست مرسيل في أريكة وأخذت كرسياً صغيراً وضعته أمامها بالضبط وأمسكت يديها وتحدثت ببطء قائلة:

ـ مرسيل، يريد ابنك أن يتيقن من أن أمه ستعجب والديّ زوجته. يريد أن يكون على يقين من أنك ستعرفين أن تنشئي علاقة جيدة مع تلك الأسرة. ليس ثمة شيء فظيع في طلبه.

ـ أتعتقدين ذلك؟

ـ إنني متيقنة منه. إذا أردتِ، أعرض نفسي لمساعدتك.

ـ بأي شيء؟

ـ بإعداد المقابلة.

تشنجت قائلة:

ـ في نهاية الأمر، ليس الموضوع إلّا صبية مع والديها بائعي شراب الليمون. لن يُقدمني إلى ملكة إنكلترا!

أخشى أنك تسيئين تقدير آل بيبرديك، مرسيل. يُعتبرون بجانب ملكة إنكلترا، مالكي واحدة من خمسين ثروة أوروبية عظيمة.

شحب وجه البوابة.

ـ لا؟

ـ بلى، عادة، شابة شأن كريستيل بيبرديك ـ وأقول ذلك مع كل مودتي واحترامي ـ تتزوج وريثاً فائق الثراء، أو أميراً، وليس ابنك!

ـ يا إلهي، في أية بلبلة زج نفسه!

ـ ساعديه.

ـ موافقة. ماذا عليّ أن أفعل؟

وقفت الآنسة بوفير ولاحظت المرأة القصيرة والسمينة أمامها.

ـ أولاً نظام غذائي صغير.

ـ لماذا؟

ـ إن الأغنياء ممشوقو القوام. وإن ملكوا مالاً كثيراً فإنهم يستطيعون أن يأكلوا به، لكنهم يبقون جائعين. حين تصل العائدات إلى مستوى عالٍ، لا يكمن الجهد في شراء الطعام ولكن في رفض حمل الطعام إلى الفم.

ـ مسكين ابني هو الذي يلتهم ما يأكله أربعة أشخاص...

ـ إنه شاب، لا يُخزن الشحم، أما نحن، ففي عمرنا...

نظرت مرسيل بتمعن إلى فخذيها، وكرشها وذراعيها وبدت أنها أدركت، للمرة الأولى، أنها كانت بدينة.

ـ حين ستذوبين، مرسيل، سنهتم بشراء الملابس.

ـ بأي مال؟

ـ ربما سيعيد إليك ابنك المئتين والثلاثين...

ـ مئتان واثنان وأربعون يورو! فهذا من مصلحته. تباً، إنه الوقت الذي يجب أن أمر فيه عند السيدة مارتيل. أتركك. سأتابع عملي غداً.

تركت التنظيف كما هو واتجهت نحو الباب. تبعتها الآنسة بوفير آلياً.

ـ لاحظي أنه إذا أعاد إليّ المئتين والاثنين والأربعين يورو، فستبقى دائماً مشكلة الطاولة الصغيرة قرب السرير.

ـ اطلبي إذاً من صديقك الأفغاني أن يصنع لك واحدة.

ـ صديقي الأفغاني؟ ما إن يلمس صحناً حتى يكسره. أصابعه من الزبدة. إنه مثقف، إنه دكتور في فقه اللغة!

صرخت الآنسة بوفير متعجبة من معرفة مرسيل لتلك الكلمة:

ـ فقه اللغة!

بمجرد أن أغلَق الباب، غاصت الآنسة بوفير في وهن طويل. كان القدر يهذي: يا للظلم! اشتهت أن تكون ثانية في العشرين من عمرها وأن تُجري خيارات أخرى. ففي القصة التي روتها لها مرسيل، راحت تتماهى مع شخصيتين: الشابة الغنية التي تحذر الرجال، والشاب الفقير الذي يبني حياته على ارتباط. لكن الآنسة بوفير لم تسيطر قط على خشيتها من الخاطبين غير الصادقين، ولم تجعل من الزواج دعامة وجودها. ما النتيجة؟ ليس ثمة نتيجة «إذا استمر الأمر فسأعود إلى هناك!».

مزَّق صوت العتمة:

ـ سيرجيو! سيرجيو!

ـ اسكت. يا كوبرنيك!

انفجر الببغاء بالضحك، بضحكة شرسة ووقحة. بسطت غطاءً على القفص لتثأر منه قائلة:

ـ يجب أن تنام.

ثم ارتمت على كرسي وهي في حيرة من أمرها. كانت تشكو ضيقاً حاداً. لم يجرِ هذا اليوم كما كانت تتوقع. بينما كانت قد خططت لأن تقرأ وتنظر إلى التلفاز، وجدت نفسها مجبرة على أن تبرر تصرفها فتبتكر خطيباً جديداً، بينما روت لها البوابة زواج ابنها الذي لا يُصدق.

«هذا فوق طاقتي. يجب أن أعود إلى هناك».

كانت على بصيرة، هي التي لم تبالغ في حياتها في الإفراط. فلقد انزوت في شقتها اليابسة والخالية من السحر، فلم تكن تشعر إلّا بالفراغ، سواءٌ في الخارج أو في داخل ذاتها. ما جدوى الاستمرار في تلك الحياة بلا هدف ولا غرض؟ لم يكن هذا الخواء مطمئناً. كان قلق خفي ينخر الملل وغمّ يحز في نفسها، ربما ذلك الأثر الوحيد الحقيقي لحياة لا تزال فيها.

«وإذا ذهبت الآن؟»

أجاب على هذا الصوت الأنا الآخر:

ـ كلّا، ذهبتِ مرات كثيرة هذا الأسبوع. عليك أن تسيطري على رغباتك.

ـ «حسناً».

ناضلت، طوال ثلاث ساعات، وهي تدور شأن حيوان كاسر في قفص. بيدها جهاز التحكم، فتحت عدة قنوات وهي تأمل أن تجد صوراً تثير اهتمامها. شرعت في ترتيب خزانة ملابس. في المطبخ، تحققت من مدة صلاحية الأطعمة ـ مرة، مرتين، ثلاث مرات. حاولت أن تبدأ قراءة « المرأة على حافة الماء»، وهي رواية كتبها جارها الكاتب باتيست مونيه، وقد وجدت أن الفصل الأول غير موفق، ولم تستطع أن تتذكر أسماء الشخصيات.

أخيراً، مع حلول الظلام، لم تعد تستطيع المقاومة.

«لمَ لا؟ من سيعرف، سواي؟» بصوت متآمرة، طلبت تكسي.

حين غاصت في السيارة وأطلقت العنوان إلى السائق، ارتسمت على وجهه ابتسامة تواطؤ؛ رفعت الآنسة بوفير ذقنها، وقد أظهرت زهواً وخيلاء، واتخذت مظهراً محيراً وارتسمت الدهشة على وجهها حتى أن السائق اقتنع بأنه قد أخطأ.

وضع الآنسة بوفير أمام درج مدخل الكازينو.

فكلما تقدمت في صعود الدرجات، عادت الحياة إليها. دخلت الصالة وهي فرحة ومتحمسة ترتعش رغبة حيث استقبلها كل فرد من العاملين باسمها.

« لماذا أردتُ أن أمتنع عن ذلك؟ بدأت أشعر بتحسن».

لكنها حرصت على معاقبة نفسها لأنها تجاوزت جرعتها المعتادة. لقد لعبتْ مرات كثيرة ومتتالية هذا الأسبوع. وكتكفير، قررت أن تتجنب الألعاب المكلفة وأن تقتصر على آلات اللعب النقدية.

جلست أمام آلة من طراز ملون، تلمع بحداثتها وقد زُينت برسوم الفواكه، ودست قطعة نقدية وجرَّت يد الآلة. ليمون، بطيخ، فريز، موز، كيوي، أناناس، تتابعت كلها بجنون. لمحت الآنسة بوفير خلال عُشر الثانية ثلاثة دولارات جنباً إلى جنب، أملت، ثم رأت واحداً يختفي، ثم اثنان، فشعرت بالغضب، عادت الفوضى وفق إيقاع جامح، ثم استقرت الصور: دولاران وحبة أجاص.

«كدت أن أوفق. لا ينقصني إلَّا واحد من الدولاران».

أعادت تشغيل الآلة. هذه المرة، أغمضت عينيها كأنها تقول للآلة «لن تسخري مني بإعطائي أفراحاً زائفة، أنت التي ستطيعين، وليس أنا». حين أشار أزيز رنان إلى أن العداد قد توقف على الأحرف الأولى، فتحت جفنيها. ثلاثة دولارات! ربحت اليانصيب!

سقطت القطع النقدية بصخب، كفيض سائل ومعدني. كانت القطع تتجاوز سعة الوعاء الذي تحمله.

أمسكت ثروتها الجديدة وحملتها إلى الصندوق، بحماسة.

«بحظ كهذا لن أتابع المراهنة في آلات اللعب النقدية: لن أهين الحظ!».

لا شيء قد بدا لها أكثر عقلانية مما أعلنته. فإذا كان الحظ إلى جانبها، فعليها أن تحترمه. اقتربت إذاً بتصميم من الطاولة الخضراء التي تجمع الناس حولها بإجلال. وقد وجدت مكاناً شاغراً، انزلقت إليه بأناقة وحيَّت شركاءها ووجهت طرفة عين إلى مدير القمار.

حين رأت بساط اللعب والقطع البديلة و«الروليت»، أحست وخزاً لذيذاً في رأسها، من دون تردد، وبثقة وبحركة محدودة زلقت كدستها على العدد ثلاثة الأحمر.

ركضت الكرة مجنونة على «الروليت» بهياج.

ارتفع التوتر. راح قلبها يدق بعنف. كانت تعشق هذا الدوار الطويل. فآلات اللعب النقدية تخيب آمالها لأن المرء يربح فيها بمنتهى اليسر وتُفضّل الانفعالات التي تقدمها المجازفة الكبرى؛ فكلما قلتْ فرص الربح زادت لذة الانتظار؛ ما هي أفضل عبوة للمشاعر إلَّا الخطر؟ في كل شوط، كانت تغامر في أن تخسر مالها وشرفها ومكانتها الاجتماعية؛ بحركة، تخاطر بتوازنات حياتها الهشة، إلّا أن هذه الهشاشة، بدلاً من أن تدوخها، تجعلها تتذوق الانفعال الصافي بكثافة أكبر. بينما كانت الكرة تدور، لم تعد في الخامسة والخمسين، لم تعد تعيش وحيدة، لم تعد تأسف لقصص الحب الزائلة، كانت تشغل وسط العالم. يصبح الرهان كونياً: فتجابه إرادتها الصدفة. تمد لسانها ساخرة من القدر. ستبرهن، ليس أن الموقت لا وجود له، لكن إرادتها وذكاءها ومثابرتها ستنتصر كلها على القوى الغاشمة. لن يعطيها الجنس هذا الدوار مطلقاً. فمطارحة الغرام هو لعب مسكين، لا يصل حتى إلى مستوى الآلات النقدية.

ــ توقفت المراهنة في اللعب!

على العكس، إذا سارت الأمور بشكل ممتاز، فستحرق الملل. أحست أنها أكثر حيوية عنها خلال اليوم. بعد عدة قفزات، استقرت الكرة في حقلها النهائي.

أعلن مدير القمار قائلاً:

ــ خمسة سود!

لم تصب. وأسفاه، ستستمر في اللعب. لا تعتمد الصعوبة على المراهنة، ولكن على التوقف عن المراهنة.

٦

انسلت فوستينا بين السيارات وتأكدت من رقم لوحة التسجيل وأخرجت سكين المحار من حقيبتها وألقت نظرة حولها، وبما أن أحداً لم يكن يراها، جلست القرفصاء وهي تغرز النصل في الإطار المطاطي الخلفي الأيمن. بعد ذلك، انزلقت لتعيد العملية على الإطار الأيسر. أخيراً انتصبت واقفة، بشموخ، متصنعة التقاط شيءٍ على الطريق المعبد وعادت إلى الرصيف.

لقد تم الأمر، إن داني محصور. لن يستطيع الرحيل من الساعة الثانية والعشرين كما فعل ذاك المساء، فهي تحتجزه تحت تصرفها طوال الليل. صعدت إلى شقتها، وهي مطمئنة.

ارتعشت من الرضى لسماع صوته العطر؛ ففي الغرفة الرئيسة، كان المحامي ذو الأصل الأنتيِّ، بقدميه الحافيتين، وبكمي قميصه المرفوعين، وقد التصق هاتفه على أذنه، يعالج ملفاً قبل أن ينهي يومه المهني.

نظرت إليه بود. بما أنه سيبقى عندها، فهي تعشقه. في المقابل، بمجرد أن يبتعد، ترفض مهنته وتتهمه بأنه مشغوف بها، تشك بأنه يسخر منها بطبعه الذكوري المنتصر بالقرب من زملائه، وتخشى أن يلتقي عشيقات قديمات، وربما الأسوأ من ذلك أنها كانت تستشيط غضباً من فكرة أنه ينام وحده في بيته وهو ينساها. بمجمل القول، إذا خرج من الباب، لا تشعر بأي فضول فيما يخص بقية حياته، لكنها تشعر بالكراهية.

حين أغلق الهاتف، جلست على فخذيه وأحاطته بذراعيها.

تمتمت قائلة:

ـ امرأة حزينة يجب نجدتها.

أجاب على مداعباتها. ضاعفت ضغطها الحسي. بحثت شفتيهما بعضها عن بعض. في تلك اللحظة، رن الهاتف من جديد.

صرخت فوستينا وهي تضحك:

ـ المحل مغلق! شأن بائعة الخبز وهي تسدل ستارتها الحديدية. انحنى داني ليعرف من يناديه.

أمرته قائلة:

ـ كلَّا!

ـ إنك طفلة.

ـ قلتُ كلَّا!

ـ فوستينا، يجب عليَّ أن أجيب.

بما أنها بقيت تضمه بشدة، استعمل عضلاته وتخلص منها ووضعها من دون مداراة على قدميها، وأمسك الجهاز بشيء من الانزعاج.

استشاطت غضباً، ليس لأنه أبعدها فقط، لكنه سيطر عليها بالقوة. حتى الآن لم تعرف قدرة ضمه لها إلَّا في المتعة؛ هنا هذا الفظ يقلبها على ذاتها. من العنف البحت.

«إنني أكرهه!» في الحال، لم يعد لها إلَّا هدف واحد: أن تعذبه، هنا، وفوراً.

حينذاك، كان داني يتابع مع زميل نقاشه عن ملف شائك حالي، وقد تجنب الاقتراب من فوستينا لأنه أدرك مدى الموجات الفظة التي تبثها.

ذهبت إلى المطبخ وتمالكت زمامها وأعدت شراباً كحولياً مقبلاً ثم عادت بهدوء، مع صينية.

رأت أن داني، من طرف عينه، قد سجل التحول.

حين أنهى المحامي المكالمة، استدار نحوها.

ـ في مهنتي، هناك أمور مستعجلة. بدأت مناقشة، وعليَّ أن أنهيها.

ـ أجل، أجل... مهنتك، مهنتك الخارقة!

ـ برري سخريتك.

ـ حين تذكرها، أشعر بأنني لا أعمل، ونحن معشر الفانين العاديين ليس لدينا جزيل الشرف لنكون الأستاذ داني داڤون، المحامي في محاكم بروكسل، وأننا نفنى عاطلين من العمل.

ـ ذكَّرتك أن لي التزامات مهنية إلزامية.

خطفت هاتف داني وأمسكته معلقاً فوق أصيص الخزامى.

ـ أما أنا، فليس لي أي التزام!

إثر تلك الكلمات تركت الهاتف يسقط في الماء.

أسرع داني، بغضب وسحب الهاتف قائلاً:

ـ يا لك من مجنونة مسكينة!

استرجع هاتفه النقال، مسحه بقطعة قماش وقفز إلى غرفة الحمام ليخرج الرطوبة بمنشف الشعر الكهربائي. نظرت فوستينا إليه يعمل بجد وابتسامتها تُلمِّح له: «لو تعرف كم أنت مثار للسخرية».

حين انتهى، سعى، مضطرباً، أن يفتح النقال. المعجزة: الجهاز يعمل.

وقد اطمأن داني، جلس على حافة المغطس:

ــ لا تفعلي ذلك ثانية!

ــ وإلَّا؟

تنهد قائلاً:

ــ ماذا تبغين؟

بقيت فوستينا مذهولة. لقد هيأت نفسها لتصعيد العنف، وهو نوع من القتال كانت فيه مخيفة. فالغيظ وسوء النية يؤمنان لها أجوبة إلى ما لا نهاية، ولكن أن يسألها، ببساطة، ماذا تبغين، فقد نزع منها وسائلها.

بما أنه كان ينتظر الجواب هادئاً، فهمت أن عليها أن تجيبه، ترددت وتلعثمت قائلة:

ــ لقد دفعتني عنك.

ــ كان ذلك موقتاً، فوستينا، ريثما أجيب على الهاتف.

ــ لم آخذ الأمر هكذا.

ــ كان عليك أن تفهمي ذلك. لماذا تعتقدين أنني أتيت إلى هنا؟ كي أدفعك؟ كي أقول لك إنني لا أريد أن أراك؟

أدركت فوستينا أن تصرفها لم يكن منطقياً؛ على عادتها، غيَّرت على الفور شخصيتها. وقد ارتمت بين ذراعيه، همست بصوت غض قائلة:

ــ إنني أحرص عليك. لقد صدمتني بممارسة قوتك عليَّ. اختال، مسروراً من منحى الأحداث.

ــ هل جرحتك؟

ــ كلَّا.

ــ إذاً كما ترين، هذا يعني أنني كنت أضبط نفسي.

ليثبت لها أنه على صواب، رفعها؛ لم تكتفِ فقط بتركه يفعل ذلك، لكنها جهدت أن تظهر ثقيلة أقصى ما أمكنها. حملها حتى الصالون ووضعها برقة ولطف على الأريكة وشرع في تقبيلها.

نسيت فوستينا فوراً ما حدث من غضبها وحقدها وضغينتها التي هزّتها وانسابت نحوه فتطارحا الغرام.

بعد ساعتين، تذوقا طبقاً من أصداف البحر على طاولة ضيقة تُطوى، جرتها فوستينا حتى شرفتها.

في الساحة، غمر ظلام أزرق قاتم بعذوبة أشجاراً يهدهدها غناء الطيور التي كانت تثرثر بتراخٍ لين، أكثر انخفاضاً، وأقل حدة عنه خلال النهار.

كان داني يبتلع المحار بلذة. وكلما امتص المحتوى، حدَّق إلى فوستينا.

سألته وهي تضحك:

ــ لماذا تبدو هكذا؟

ــ المحار بالغ الأنوثة: كمادة وعطر وتواصل. يُخيل إليَّ أنني آكلك، أنت!

امتص بنهم آخر صدفة.

ارتعشت فوستينا كأنها مرَّت بين شفتيه.

صب لها ثانية كأساً من الخمر البيضاء.

ــ يجب الحذر من الجنس، فوستينا، فهو مخدر.

ــ ماذا تروي؟

ــ المخدر يعني المتعة، الذروة، الهاوية، النقص، الألم حتى معاودة الكرة. إذا استمررنا في النكاح بتلك الروعة، فلن نستطيع الاستغناء عنه.

فكرتْ «الاستمرار في النكاح، الاستمرار في النكاح... ماذا يريد أن نفعل غير ذلك؟». تابع قائلاً:

ــ إذا استمررنا في النكاح هكذا، فسنصاب بالهستيريا أيام الحرمان.

شخَّصت فوستينا ما شعرت به: في المرات النادرة حيث منعتها حياتها المهنية من اللقاء، أصيبتْ بتوتر عصبي لا يُحتمل، كان ذلك ألماً حقيقياً. وقد هزَّت رأسها، اقترحت عليه قائلة:

ــ الحل الوحيد هو إذاً أن نتناكح بشكل سيئ.

ــ طبعاً. إلَّا أنني معك، لن أستطيع القيام بذلك.

ــ ولا أنا، على الإطلاق.

نفخا بقوة أكبر هواء المساء العَطِر. وصل كلاهما إلى أقصى رومنسية يمكنهما الوصول إليها؛ ولكي لا يقعا في البلاهة، تبادلا نظرات متواطئة.

سألته فوستينا:

ــ هل سبق أن عانيتَ هذا الشعور بالإدمان؟

ابتسم:

ــ أنا في الثامنة والثلاثين، فوستينا. حين تعارفنا، لم أكن بكراً.

ــ آه حسناً! لكنك كنتَ بكراً بعلاقتك معي، على كل حال.

ــ موافق. وإن لم أكتشف مطلقاً شيئاً بقوة ما عشته معك، خلال تجاربي الأكثر... كيف أقول... عادية، فلقد أدمنتُ هذا المخدر.

قبلت فوستينا التفسير، ما دام قد أقرَّ بتفوقها. في الحال، لم تتردد عن المبالغة في مفاجأته:

ــ إذا كان للمخدر ضرر واحد وهو أن يخلق التبعية، لماذا لا نتعاطاه؟

انفجر ضاحكاً بغبطة.

ــ اتفقنا.

شربا نخب بعضهما بعضاً.

أقرت فوستينا قائلة:

ــ في نظري، يجب ألَّا يوجد حدود في الجنس.

ــ حددي فكرتك...

ــ حسناً، لقد اختُرِع الجنس ليتجاوز حدوده: الحياء والحشمة واللياقة.

تأملها طويلاً ثم صرخ بصوت طري:

ــ إن ما تقولينه خارق.

تلمس ذاته شأن من يتخبط على حافة انفعال عظيم.

ــ أليست تلك... سوى كلمات؟

تمتمت باستياء:

ــ عفواً؟

ــ نادراً ما عرفت امرأة تذهب إلى نهاية هذه الفكرة. هل تعرفين، إننا معشر الرجال، نحلم بتلك التي تقدر الجنس على طريقتنا، ألا وهو حفلة مستمرة ومتعة بحتة وفرح مشترك مع الآخرين، بقوة وبراءة.

ــ يُخيل إليَّ أنك تتحدث مكاني.

ــ حقاً؟

ـ حقاً!

اختلجت جفون الخلاسي واضطربت شفتاه المنفوختان.

ـ فوستينا، لا أجرؤ على أن آخذ كلامك على محمل الجد.

ـ هيا.

ـ هل تتبعينني في هذياني الجنسي؟

ـ أتحداك!

كان قلب فوستينا في ثورة. لم ترَ داني بهذا الوله قط، يهتز بكامله وهو يدور حولها. أحست، في تلك الدقيقة، أنها قد أصبحت المرأة المهمة، المرأة الأساسية، تلك التي قد تعطيه ما لم تحمل إليه سابقاً أية عاهرة.

ألحت لتشجعه قائلة:

ـ ماذا بعد؟

ـ حسناً، أود أن أري الرجال كم أنت جميلة وكم أنت طيبة وكم أنت عظيمة. هل تدركين ذلك؟ وإن ما يثيرني هو أن أكون فخوراً بك. ليعرف الجميع أنك إمبراطورة.

ابتلعت ريقها، وهي مغتبطة بالدور.

ـ هذا يلائمني!

ـ رائع... هل سبق أن ذهبت إلى «الألف شمعة»؟

ـ إلى «الألف شمعة»؟

ـ إنه أفضل ملهى في أوروبا لحفلات الجنس الجماعي.

انحنى نحوها، فاغر الفم، بعينين تبرقان، وبانتباه. تصورت لثانية، هناك، سيري الجميع كم يحرص عليها... ارتعشت. ثم فتَّشت عما قد تجيب والدتها في تلك الحالة. «كلّا، طبعاً». يا لها من مسكينة، أمها، لم تعد امرأة لكنها مجرد أرملة. في تعاقب الأفكار، حددتْ أية واحدة من صديقاتها تغامر بالموافقة على مطلب كهذا. ولا واحدة. فإما كنَّ معقدات، وإما كنَّ يستأثرن برجالهن. أدركت فوستينا إذاً فرصتها لتكون فريدة. فإذا امتنعت، فستبدو تعادل سابقاتها غباءً؛ وإذا ما غامرت في ذلك، فستجذب داني.

ـ إنني موافقة.

٧

سألت كلودين ابنها:

ــ كيف تحتمل أن تكون لك أم مجنونة؟

أجاب لودوڤيك ببطء:

ــ لا خيار لنا.

كان لودوڤيك قد تعب وتشعث شعره واحمرّت عيناه وشعر بالكلل من التركيز بعد أن أمضى أربع ساعات على فواتير أمه وحساباتها. إذا كانت كلودين تكتفي عادة بارتباكها وتشوشها وإفلاسها وتسديدها المتأخر، لكنها ارتكبت هذه المرة أخطاء فادحة. فرك جبينه بيأس.

ــ أخيراً، أماه، كيف استطعتِ توقيع هذا الوعد بالبيع؟ بنايتك الصغيرة هذه تساوي أكثر بكثير! وإيجاراتها الثلاثة تؤمن لك مورداً تعيشين منه!

رفعت كلودين رأسها، مبتهجة:

ــ إنها هفوة، أليس كذلك؟

ــ إنه غباء جسيم. لن أستطيع، هذه المرة، أن أستدرك الضربة. هذا المحتال قد خدعك.

ــ لستُ سوى امرأة وحيدة، كما تعرف، امرأة بائسة بلا سند. أيام والدك...

كان لودوڤيك يعرف ما ستقول... من قبل، لم تكن كلودين لتخطئ لأنها لم يكن لها الحق في أية مبادرة، كان زوجها يدير كل شيء: شؤون المنزل والأسرة والأمور المالية ــ كمستبد مطلق. في تلك الفترة، كانت تشكو من ذلك وتبكي في غرفتها وتحلم بحياة أخرى، أما اليوم، فمن يسمعها، يدركْ أنها تتحسر على ذاك الجحيم.

ــ هل تركك الكاتب بالعدل تفعلين ذلك؟

ــ أجل.

ــ الأستاذ دومولومستر؟

ـ كلّا، إنها مساعدته. لقد سافر لثلاثة أشهر إلى تايلاند.

ـ أرى كابوساً! كاتب بالعدل يترك زبائنه طوال ثلاثة أشهر لعطلة!

ـ إنه مصاب بالسرطان، لودوڤيك، أخفق معه العلاج الكيميائي. كل ما نجحت فيه المعالجة هي إلصاقه لوناً كرتونياً وانتزعت عنه الشعرات الأربعة التي كانت متبقية له.

نظر لودوڤيك إلى أمه التي صارت بغتة زلقة اللسان، متحمسة، عيناها تبرقان على ذكر الكوارث. كان لها تلك العادة السيئة وهي عشق المصيبة، والبحث عن تطور أحداثها، وتجميع التفاصيل عنها. ما إن يتألم الناس حتى تهتم بهم أكثر من اهتمامها بهم حين كانوا في حالة حسنة. هي التي كانت تتهرب من الخروج مع صديقة، تضع نفسها تحت تصرفها إذا ما دخلت تلك الصديقة المستشفى؛ تُدعى بسهولة أكبر إلى جنازة عن دعوتها إلى عشاء. فجروح الآخرين، وحتى احتضارهم يدفعها لأن تشعر بأنها أكثر قوة، وأشد حياة؛ فتستمد من ذلك نشاطها، شأن الطائر الذي يقتات على الجيف.

سعى لودوڤيك إلى إيقاف هذا المونولوج الذي سيتبعه في الحال هذا السؤال:

ـ أماه، لماذا لم تحدثيني عن ذلك؟

ـ عن سرطان الأستاذ دومولومستر؟

ـ كلَّا! عن بيع بنايتك الصغيرة؟

ـ لم تسنح لي الفرصة. فأنت منهمك في العمل.

ـ ترينني كل يوم، وتتحدثين معي مرات كثيرة في اليوم!

ـ هذا هو انطباعك.

ـ إنها الحقيقة!

ـ لم أرد أن أزعجك.

ـ نجحتِ! الآن أجابهُ مأساة مالية وأتدخل بعد فوات الأوان. وضعك يقلقني...

طربت كلودين إثر سماعها هذه الكلمة. فهي تعشق إقلاق ابنها، وهي طريقة لاجتياحه؛ هكذا، تعلم أنه حين يغادرها إلى منزله، فسترافقه بالفكر.

ـ أمي، أخاف أن ترتكبي حماقات أخرى.

بدت كلودين بمظهر طفل مذنب، وقد امتنعت عن الاحتجاج.

تمتم لودوڤيك محدثاً ذاته وكذلك هي:

ـ لم أعد أعرف كيف أتعامل معك.

برقت كلودين وهي تقول:

ـ يمكنك أن تطلب وضعي تحت الوصاية!

نظر إليها لودوڤيك، فَزِعاً: الحل الذي لم يكن يجرؤ على عرضه عليها مخافة جرحها أو اكتئابها، وها هي الآن تطلب ذلك من تلقاء نفسها! بغبطة!

تابعت كلودين:

ـ أجل، هكذا لن أفعل شيئاً بلا توقيعك. أليس ذلك ممتازاً؟

ـ ولكن...

ـ نعم؟

ـ أماه، لست إلّا في الثامنة والخمسين من عمرك... عادة، لا تتم إجراءات كهذه...

ـ تُتخذ تلك الإجراءات حين تكون مفيدة ويبدو أنك تقول لي إن وضعي يقتضي هذا الإجراء، كما أنك تحتاج إليه.

هزَّ لودوڤيك رأسه موافقاً، بوقار وتأثر. رتب الأوراق في ملفات أعدها وقبل فنجاناً آخر من الشاي وتحدث في مواضيع تافهة ثم غادر بيت أسرته.

قرر أن يعود سيراً على الأقدام لأنه كان في أمس الحاجة إلى أن يفكر بذلك المشهد الذي صدمه. هو الذي كره أباه الميت كثيراً والذي لامه لاستغلال سلطته، والذي اتهمه بمعاملة والدته كطفلة، هو ذا الآن يفحص ثانية قراءته للماضي: ربما لم يكن والده المذنب الوحيد، فكلودين تدعو إلى هذا النوع من السلوك. كانت تلتمس قوة خارجة عنها وترفض أن تتصرف كراشدة وتدعوه إلى أن يعاملها كطفلة.

قطع لودوڤيك الطريق من جهة الحديقة الصغيرة حيث كان صبية مغاربة يلعبون كرة القدم.

إن ما أربك لودوڤيك ليس تقديره إلى أي مدى والدته غير ناضجة، ولكن عليه إنصاف أب وضِع تحت عنوان «نذل»؛ كان هذا المعطى الجديد يزعج الرواية العائلية التي بناها لنفسه. فأبوه، الفظ والوحش الذي كان يضرب زوجته وولديه، لم يكن له الحق حتى الآن بأي ظرف من الظروف التخفيفية؛ حتى موته لم يؤدِ إلى تجميل صورته. إلّا أن لودوڤيك قد اكتشف في كلودين ميلاً لإثارة العنف: كانت ترتكب أخطاءً عن معرفة كي يُقومها وتختبر حدود تحمله وتدفعه إلى الخروج عن طوره وإلى السيطرة عليها. في الواقع، كانت تحث أهلها على الاستبداد.

تكدر لودوڤيك: وإذا كان مخطئاً؟ وإذا لم تكن أمه هي التي تولد تصرفاً قاسياً،

لكنه هو الذي يتصرف بعدوانية؟ هل ورث مزاج والده؟ هل يكرر بنوع من الحتمية الجينية، موقف الشخص الذي مقته؟

توقف في ساحة «بروغمان» ودخل مطعماً من الطراز الأميركي وقد صُنع ديكوره على شكل سيارة «كاديلاك» قديمة، وعلى مقعد صغير من الجلد الاصطناعي (السكاي) بلون الفيروزة طلب فطيرة (هامبرغر) بالجبنة الإنكليزية مع بطاطا مقلية. ساعدته الكوكا كولا على تغيير أفكاره؛ لا شيء أكثر شناعة، وكان يعي ذلك، من هذا الشراب ذي المظهر البترولي والمذاق الذري، ولكن يا للهناء! في طفولته، حين كان يهرب من البيت، يذهب خلسة إلى مطاعم الوجبات السريعة الأميركية ويتناول غداءه وهو يقلد الراشدين؛ أما اليوم، فكان يُتخم ذاته وهو يظن نفسه طفلاً.

هدأ إلى حد ما، فتوقف في ساحة آريزو. كانت الببغاوات والدُرّات تزقزق وتتغوط وتطير كأن لا شيء يحدث في تلك المدينة مطلقاً. يخال المرء أنها لا تعاني حالات نفسية...راقبها لودو وقد تصارع فيه الكره والغيظ: وإن وجدها بلهاء لكنه كان يحسدها على حيويتها الدائمة، ويتساءل لماذا تقدم لها الحياة ما قل من التعقيدات، أما هو فلديه الكثير منها.

حين عاد إلى شقته، وضع اللمسة الأخيرة على مقالين من مجلته الثقافية ثم، وقد ارتاح لأنه أتم واجبه، فتح حاسوبه الشخصي.

في موقع اللقاءات الذي اشترك فيه أخيراً، أجاب أربعة أفراد على إعلانه الغرامي. يا لخيبة أمله! حين تسجل، أغروه بخمسين جواباً: فإما أن التجار غشوه، وإما أن نصه لم يجذب أحداً. أربع نساء في أسبوع؟

كانت المرأة الأولى تشتمه: «لا شك أنك أبله بحق كي تكتب كلمة كهذه. ففي جزيرة خالية، أفضل رفقة السلاحف على هذا النذل. في هذا المستوى، لا يبقى إلا ممارسة الاستمناء».

أمرت الثانية بشطب اسمه من الاضبارة: «عزيزي منظم الموقع، إذا قبلتم أبلهاً كهذا، فإن الأشخاص المحترمين سيلغون اشتراكهم».

أخذت الثالثة منحى آخر: «أتشتهي فاسقة ضخمة؟ ادعُ فرجيني».

كان للرابعة صوت مختلف. «إنني مهتمة جداً بإعلانك. عندي كل المعايب التي تطلبها: لست اجتماعية، مصابة بالأرق، مدخنة، هستيرية، ميولي الجنسية ضعيفة، في اكتئاب منذ سنين. أضيف صفات جديدة: لست بالغة السوء في مجال الطبخ، أميل إلى اللاعقلانية، لا أفقه شيئاً في الموسيقى التي أعشقها مع ذلك. بعد ما تقدم، قبل أن أرسل لك شريطاً، فتلك بادرة خالية من الحياء ومبكرة، إنني بحاجة

إلى معرفة المزيد عنك. ماذا كانت وجبتك الأخيرة؟ أية قطعة موسيقية سمعتها تواً؟ إلى أي برج تنتمي؟ هل العقرب أو الجوزاء، يمكنك ألّا تكلف نفسك عناء الإجابة».

ابتسم لودو من نبرة الرسالة. أخيراً، أحد يفهمه... فك اسمها: فيورديليجي. آه، نقطة حسنة جديدة: اختارت اسماً مستعاراً لشخصية أوبرا لموزار «كوزي فان توته». التهب رأسه. سيدخل في علاقة معها، حتماً. أيجب عليه أن يُجيب الآن أم ينتظر إلى الغد؟

قام بجولة في شقته وعاد إلى طاولته. من الأفضل عدم استنفاد صبر امرأة حسنة كهذه. دونت أصابعه الماهرة على مفاتيح الأحرف:

«طاب يومك، فيورديليجي. إثر قراءة وصفك لذاتك، أنت المرأة المثالية. ألم تُجملي نفسك بتزينك بالعيوب؟ هل تكذبين لتجذبيني؟ هل أنت حقاً الكارثة التي تدعينها؟ أخاف أن أكتشف فيك مزايا حسنة إذا ما قمت بعلاقة معك. التوقيع: ألفونسو. ملاحظة: إنني من برج القوس. أكلت أشياء كريهة. أصغي إلى «سكريابين» كي أطور فنياً سأمي ومللي».

ما إن لامس إصبعه مفتاح «إرسال» حتى دوى جرس المدخل. احمرّ وجهه كأنه فوجئ وهو في ذروة المتعة، أغلق لودو حاسوبه ثم فتح الباب.

ــ تيفاني؟

ــ ماذا؟ إنك لا تنتظرني، أليس كذلك؟

ــ أوه... كلّا.

ــ كنت متأكدة من ذلك. قلتُ للرفيقات: «سترون، سينسى».

ــ ماذا؟

ــ موعدك.

ــ أنا؟

ــ موعدك في معهد (See Me).

ــ لم يدرك ما تقول. ألحت وهي تدور بعينين غاضبتين:

ــ التدليك الذي قدمناه لك هدية عيد ميلادك!

ــ ضرب لودوڤيك على جبينه، مذهولاً: لقد اشتركت رفيقاته ليدفعن له ثمن التدليك، وهذا ما كان يروِّعه، لقد رتب القسيمة في الدرج. لكن مديرة (See Me) أعلمت الفتيات أنه لم يأتِ؛ خلال ثلاثة أيام سابقة، إذاً فرضت عليه تيفاني موعداً وجاءت لأخذه. لم يعد ثمة مجال للتراجع.

تابعت تيفاني وقد لاحظت أنه قد تشنج:

ــ سترى، ستشعر بارتياح كبير.

ــ الأمر هو... سبق أن كررت ذلك على مسامعك... لست متأكداً... من أنني أحب التدليك.

ــ كيف تعرف ذلك بما أنك لم تجربه مطلقاً؟ هيا، لا أستطيع أن أهتم بفض جميع البكارات، أما بكارتك فأتكفل بها.

للحظة، فكَّر لودو بإضرام النار في مطبخه ليحول نظرها لكن تيفاني لم تكن تفارقه قيد أنملة ولم تعد تسمح له بأن يهرب.

سارا معاً حتى شارع «موليير» حيث يُظهر المعهد أناقته الخفية.

دفعت تيفاني الباب، وذكرت هوية لودو إلى عاملة الاستقبال. أشارت له تلك المرأة بصوت معسول بما عليه فعله:

ــ هذا هو مفتاح الخزانة رقم ٦، على اليسار بعد هذا الباب. تجد فيها مناشف وخفين ومئزراً. تعلق فيها ملابسك، من فضلك، ثم تذهب إلى النبع الداخلي لتنتظر المُعالِجة.

رغب لودوڤيك بالهرب لكن تيفاني جرَّته نحو مصراع الزجاج الرملي.

ــ هيا، أتمنى لك تدليكاً هنيئاً، صديقي لودو.

قال في نفسه إنه سيختبئ في حجرة الثياب ثم يخرج راكضاً، من دون أن يسنح الوقت لعاملة الاستقبال لتوقفه.

كأن تيفاني قد سمعته يحضر تلك الخطة، فحددت له قائلة:

ــ سأبقى هنا، لأتفحص اختصاصاتهم وتعرفاتهم وصيغ الاشتراك عندهم.

أخفق! لن يستطيع الهرب إذا مكثت تيفاني في البهو.

بكتفين منخفضتين، دخل حجرة الثياب. كان الهواء يعبق برائحة العنبر، وإنارة محددة وخفية تخلق جواً مريحاً. قال في نفسه وقد بدأ يخلع ملابسه: «هيا، لودو، تشجع!» لحسن الحظ، لم يكن أحد يشاركه المقرّ، وإلّا لكان ذلك كافياً لمنعه. نزع كل ثيابه، وأبقى سرواله ولبس المئزر، الذي كان واسعاً جداً وسميكاً جداً وحاراً جداً ــ وأحسّ أنه قد تنكر بلباس دب قطبي. سعى بعد ذلك إلى لبس الخفين، وهما قطعتان من الإسفنج المُخيط، وهذا ما أكمل شعوره باليأس: فرؤية شعر ساقيه البيضاوين شكل امتحاناً له. كم هو قبيح! وكان هناك أسوأ أيضاً: إنهما قدماه. لا أحد يعرف من أي شذوذ للطبيعة، نبت وبر على كل إصبع قدم، على مستوى المفصل. أيمكن أن يوجد أقبح من تلك الخصلة الهزيلة من الشعر؟ لماذا هذا الدغل موجود عليها، وهو الأمرد في أماكن أخرى؟ يُخَيل للناظر إليه أنه يرى قرداً، جنين قرد، قرداً يتكون، قرداً لم يكتمل. كان عليه أن يحلقه قبل أن يأتي إلى هنا.

كان يفعل ذلك لأنه كان يذهب إلى المسبح، مع ذلك، كان يخشى ممارسة العملية كثيراً فقد أكدوا له أن الشعر الذي يُحلق بانتظام يزداد قوة وكثافة وخشونة، بمجمل القول، يتخذ خشونة اللحية. هذا ما كان ينقصه! لحية على قدميه! هو الذي لم تكن له لحية على وجهه.

ــ نهارك سعيد، هل أزعجك؟ قفز.

كانت شابة شقراء، رائعة، قد أطلت برأسها في حجرة الملابس. اعتذرت بصوت عذب قائلة:

ــ إنني آسفة لكنني دققت مرات كثيرة، فلم تجب.

ــ أدعى لودوفيك.

ــ تَفَضَّل باللحاق بي، لودوفيك. أدعى دوروتيا وإنني مُعالِجَتك.

تضايق لودوفيك، فرغب في أن ينفجر غاضباً. «معالجة»؟ يا للادعاء! ألا تستطيع أن تقول « مُدَلِّكة»؟ فالتضخم اللغوي لا يجنب أية طبقة من المجتمع، لم يعد أحد يسمي المهن بأسمائها. فتلك مدلكة اللحم تتزين بتعبير أكاديمي لتقنعك بأنها خريجة كلية الطب. كتم استياءه واكتفى باللحاق بها بخطى صغيرة متعثرة؛ فالخفان الرخوان جعلا تنقله خطراً. أحس كم هو غريب على هذا المكان حتى أن فكرة خلق بلبلة بدت له خيالية.

وقد نزلت دوروتيا إلى الطابق السفلي، دعته إلى الدخول في غرفة مجاورة تحوي فراشاً عالياً.

ــ أتركك تتمدد هنا.

أعطته كيساً بلاستيكياً صغيراً يحوي مزقة قماش يقطعها شريط مطاطي.

ــ ما هذا؟

ــ ساتر العورة. تلبسه إذا رغبت في ذلك. فالعري لا يزعجني.

شعر لودو بأنه ينهار. « ساتر العورة»، «العري». بدأ التقدم نحو مناطق يكرهها... أوشك أن يزعق أنه يريد الذهاب بعيداً لكنها كانت قد اختفت وهي تُغلق الباب ثانية.

رتب مئزره مغتاظاً، وتمدد على بطنه، محتفظاً بسرواله وأصلح لبسه كي يبقى محتشماً. ثم هدأ وهو يفكر أنه سيكابد هذه المرأة البائسة أسوأ اختبار في حياتها: لم تلمس، حتى الآن مطلقاً، جسماً في بشاعة جسمه. ستدلك المسكينة درنة.

سمع نقرة على الباب، دخلت المعالجة، ثم بصوت كالفأرة استفسرت عن صحته وعن سوابقه الطبية. أكد لها لودو بأنه يتمتع بصحة ممتازة، وهو توضيح أثار فيه الرغبة في البكاء.

أخيراً، أعلنت له المعالجة أنها تباشر في «علاجه» ووضعت يديها عليه، في أماكن مختلفة، مكتفية بضغطة جامدة، مستمرة.

بالرغم من أن ذلك لم يعجب لودوڤيك، لكنه أقر أنه محتمل. أخذ وقتاً حينذاك ليتفحص ما حوله. إنه قبو! إنه محصور في قعر قبو. يُثقِل فوقه بيت من خمسة طوابق يمكن أن يتهدم. فإذا كان ثمة انهيار، فلن يجده أحد لا هو ولا «معالجِته». يا للغباء! وأرادوا إقناعه أن ذلك لذيذ؟ كم هو لذيذ أن ينحبس المرء في حفرة بلا نافذة! لذيذ أن يعرف أنه يشغل مكان سخانة الماء، وإن كان الدهان وبلاط السيراميك وصوت الماء والموسيقى الهندية تجهد كلها في إخفاء ذلك بخلق جو من الانبساط والرفاهية!

سألته الفأرة إن كانت الأمور حسنة:

ــ أتريد أقوى؟ الضغط أقل قوة؟

تمتم لودو كي يتخلص من المشكلة:

ــ ممتاز.

«هل أعترف لها بأنني لا أحتمل أن يمسني أحد؟ فستغتاظ. أو قد تحسبني مريضاً. هذا ما أنا عليه بلا شك. لكن ذلك لا يخص إلّا أنا».

أعلنت له الفارة أنها ستستعمل الزيت. «هيا، حسناً، سأكون لزجاً!».

ــ هل أنت مضطرة إلى ذلك؟

ــ طبعاً. إنها زيوت غريبة. فخواصها وعطرها تُغني المعَالَجَة. ألا تعرف الطب الهندي؟

ــ بلى، بلى.

«إن الفأرة موجودة في أعماق هذيانها كمُعالِجة. صحيح، فمن الطبيعي أن تعيش في قبو: تعيش الفئران هناك منذ آلاف السنين».

كاد أن يضحك، لكن في تلك اللحظة، انهال شيء لزج على ظهره. ارتعش قرفاً. علقت اللزاجة وتحركت من مكانها. كانت تمُرغه من كتفيه حتى وركيه. يا للهول!

شعر لودوڤيك أنه إذا استمر الأمر فسيصبح مجنوناً. كان هذا الزيت يثير اشمئزازه وطلاؤه به يزعجه ويكدره، فالمتطرفة تستخدم لودوڤيك لتوطد حماقاتها. حاول أن يهدئ نفسه بالسخرية: «إنها تحضرني شأن فخذ خروف. فص ثوم في مؤخرتي وأجهز حينذاك للفرن». احمرّ وجهه، لأن كلمة «فرن» ذكَّرته بجديه من أمه آل «زيلبرشتاين» اللذين ماتا في معسكرات النازيين للإبادة وأثارت عنده موجة من الشعور بالذنب. كان حقاً بائساً! بينما كان جداه قد قُتلا بعد عذابات

شتى، كان كل شيء متوافراً له، ويتحرك هو في عالم ينعم بالسلام، ويدللونه في معهد للرفاهية، ومع ذلك فهو ليس سعيداً. فليخجل...

كيف يطلب من تلك الفتاة أن تتوقف؟ كيف يفلت من حركاتها التي تزداد فساحة وضغطاً؟ أحس لودو بتلبك. راح رأسه يدور. أيجب عليه التدخل؟

انتصب فجأة، ووقف على الطاولة، مستنداً بيديه ورجليه وأطلق زئيراً. فوجئت الفتاة، فصرخت وهي تتراجع إلى الوراء.

تقيأ لودوڤيك. تقيأ طويلاً، بتشنجات كثيرة. أمامه، على المنشفة الإسفنجية ظهرت فطيرة الجبنة والبطاطا المقلية والحلوى بالشوكولا، كل ذلك على شكل قطع لم تُمضغ جيداً، وقد غرقت في الكوكا كولا.

أوف، إنه يتنفس بشكل أفضل، انتهى التدليك، لقد نجا.

بعد نصف ساعة، وهو عائد إلى بيته، اعتبر لودو نفسه أسعد الناس، وقد رجع إلى شقته كأنه قد أمضى ستة أشهر في السجن. امتازت تلك الرحلة أن جعلته يزداد تعلقاً بوكره وبعاداته.

لماذا لم يكن يتحمل أن يلمسه أحد؟ كان يجهل السبب. يعود هذا الضيق إلى أحداث: لم يكن جلده يحبذ لمس جلد آخر غريب. إضافة إلى ذلك، كان يحتاج إلى أن يسيطر على المواقف. فحين يسمح المرء بالمداعبات أو بالتدليك فهذا يفترض الاستسلام. كلّا شكراً.

كرد فعل لا إرادي، فتح لودو حاسوبه. ازدادت دقات قلبه حين لاحظ أن رسالة جديدة تنتظره. كانت فيورديليجي قد أجابت:

«عزيزي ألفونسو، القوس هو برجي المفضل. ألتهمُ البطاطا الرقيقة. أصغيت هذا الصباح إلى موسيقى شومان، وهي وصفة مجدية للكآبة تعادل موسيقى «سكريابين أليس كذلك؟ أود كثيراً أن أراسلك. إن واحدة من أمثال فيورديليجي المعتادة على النحس تدهش حين تلمح نجمة سعيدة».

كتب لودو رسالة طويلة. سرته فيورديليجي كما أثر فيه اعترافها الأخير: إذا كانت، شأنه، تجذب الإزعاجات، فلقد خلِق كل واحد منهما للآخر.

٨

بقيتْ ديان منذ ثماني ساعات مربوطة إسريرها، وعيناها معصوبتان وفمها مكموم، بلا شراب ولا طعام. من النافذة، تسرب إلى الغرفة هواء أكثر طراوة، يُعرق برعشات جلدها العاري. كانت ركبتاها، وقد قشطتهما أرض الغرفة، بدأتا تعانيان جراء حمل ثقلها على عدة سنتيمترات.

بعد فترة قصيرة من رحيل زائرها، انتظرت خطته الجديدة ليخلصها. ألم يتصرف المجهول كسيد محترم حين متَّعها بأحاسيس نادرة؟ بخيالها الخصب، رسمت مخططات كثيرة، بدا لها منها اثنان شائقان... وفق المخطط الأول، ينادي المجهول رجال الإطفاء مدعياً أن النار قد اشتعلت في الشقة: يخلع هؤلاء الباب ويكتشفونها عارية، مكبلة اليدين ــ من يدري إن لم تكن تلك الرؤية تحرضهم؟ حسب المخطط الثاني، الأكثر فسقاً، يُعلم المجهول الشرطة عن سماعه صرخات مدوية في الطابق الرابع: يحضر رجال وينقذونها، ثم لأنها رفضت أن تجيب، يوقفونها حيث ينتهي بها الأمر إلى أن تروي كل شيء، هذا المنظور اللذيذ يبعث عطراً مرهفاً من السادية المازوشية كانت تقدره.

خلال ثماني ساعات، خلصت إلى أنها قد جمَّلت الرجل المجهول. يا للأسف! هرب هذا المجهول ــ نقطة على السطر ــ من دون أن يخطط تتمة للسيناريو.

نتيجة لذلك، وقد التهبت مفاصلها، حاولت، بالرغم من يديها المربوطتين إلى السرير، أن تجد أوضاعاً أقل إيلاماً. آه، يا للسادية البحتة! لكنها سادية تافهة، لا رونق لها: كانت تتألم، لا شيء غير ذلك، من دون إضافة المتعة.

في الساعة التاسعة عشرة، عاد زوجها جان ــ نويل من عمله. بعد أن ناداها من الرواق، اجتاز الغرف واكتشفها في غرفة النوم. انتزع عنها فوراً قناعها وكمَّامة فمها.

صرخت ديان:

ــ من فضلك، انزع الأغلال بسرعة، لم أعد أستطيع الانتظار ثانية واحدة: فإما سأبول، وإما أنفجر!

لحسن الحظ، وضع الزائر المفاتيح بشكل واضح على الطاولة الصغيرة قرب

السرير. في خمس ثوانٍ، نجت ديان، فوقفت، متصلبة الجسم، وأطلقت بعض التأوهات ثم ركضت إلى المراحيض.

حين رجعت إلى الصالون، كان جان ــ نويل قد حضَّر كأسين من نبيذ «المارتيني». لبست مئزرها الحريري وجلست وهي تتنهد:

ــ يا له من يوم!

انفجر بالضحك واسترخى في أريكة.

ــ أعتقد أن عندك قصة غريبة ترويها لي.

شربا نخب بعضهما بعضاً ثم، وقد فركت معصميها المتألمين، روت ديان تجربة الصباح. وقد عرفت أنها تجذب زوجها، بدت تتحدث بإطناب، وتعطي تفاصيل وتحليلات لمختلف أحاسيسها، محولة الحادثة إلى ملحمة.

كان جان ــ نويل يصغي، فاغر الفم، بعينين تلمعان بالسحر.

ختمت قولها بطريقة مبتذلة:

ــ حسناً، مع كل ما حدث، لم يسنح لي الوقت لأشتري شيئاً أو أحضر طعاماً: عليك أن تصحبني إلى المطعم.

امتثل جان ــ نويل لطلبها. وقد فتنته المغامرة، اشتهى ديان لكنه كان يعرف تمام المعرفة كيف ستقبل طلبه: بازدراء. « ماذا، هكذا؟ شأن أبي ــ أمي في السرير؟ آه، كلَّا، الرحمة، سبق أن قمنا بذلك، سيكون الأمر مملاً».

كانت ديان تعشق الفعالية الجنسية المبدعة. في الواقع، كان جان ــ نويل يتساءل إن لم تكن تحب الابتكار أكثر من الجنس، مادامت المتعة التي تشعر بها تأتي من جدة المواقف ومن إخراجها. فمضاجعة جان ــ نويل بطريقة شرعية، برجوازية، متكررة تثير تثاؤبها الذي لا تُخفيه. وقد تعجب أحياناً، بل وقد اشتكى. كانت ديان تهمل سماعه قائلة:

ــ آه، كلَّا! لا تردد على مسامعي ذلك، ستسبب لي الكآبة. إذا تزوجتك، فليس من أجل نكاح حزين، بل على العكس للسعي إلى المستحيل. ما جدوى الزواج، إذا لم يسمح بتلمس مئات الطرق للتمتع؟ الرحمة! فالزواج بالنسبة إليَّ هو منشط ومثير وليس منوماً.

كانت صادقة. خلال صباها الإباحي ذي الصبغات الخنفسية[1] وجِدت مع طفلة على ذراعيها وهي تحتقر أبا تلك الطفلة، فكرَّست وقتها لتربيتها وهي

---

(١) Hippy أو Hippie : خنفوس: صفة تُعرف بها شبيبة رفضت القيم الاجتماعية والثقافية في مجتمع الاستهلاك الصناعي وتنشد الحرية الكلية في الملبس والسلوك واللاعنف- (المترجمة).

تقوم بأعمال موقتة وتعيش مغامرات بالغة التطرف. بمجرد أن استقرت ابنتها في الولايات المتحدة ــ بذريعة إنهاء دراستها، راحت ديان تؤكد بفخر أن ابنتها قد هربت بخاصة من والدتها المتقلبة ــ، وإن كانت ذات جسم رائع، لكنها تذكرت أن الزمن ليس في مصلحتها، وسيأتي يوم تصبح فيه أقل جاذبية، فرمت شباكها على جان ــ نويل، المُطَلّق حديثاً، والمهندس ذي الطراز الرفيع والوسائل المالية الميسورة والنظرة البراقة التي جذبتها.

بينما كان رجل الأربعينيات يتوقع أن يعيش علاقة إضافية، أرغمته ديان على مرافقتها في عالم من المجون والشطحات الجنسية: أخذته إلى نواد يتبادل المشاركون رفقاءهم ودعته إلى سهرات خاصة، ووهبت جسدها لرجال تحت نظره، وأدخلته في مشاهد متنوعة سادية/ مازوشية.

بالنسبة إلى جان ــ نويل، كان هذا الاكتشاف انبهاراً. بينما كان يحذر من النساء ويتهمهن بأنهن مراوغات ونفعيات، فلقد منح كامل ثقته إلى تلك المرأة ديان المختلفة تماماً عن الأخريات. لقد أسرت قلبه، بانتصار مطلق بخاصة أنها لم تستعمل أي سلاح شأن مثيلاتها كالحياء والإخلاص والحنان والاعتدال والأمان. على العكس، كانت فظة، مسيطرة، متجاوزة حدودها، حمقاء، عاشقة ما هو طارئ وغير متوقع، راغبة في مجابهة الخطر، فأطلقت محررة لدى المهندس لينجح، كل ما خبأ في مناهضة للأعراف.

هكذا، حين عرضت عليه الزواج، لم يرَ في ذلك فخاً بل نزوة إضافية. تهلل من الزواج من امرأة تُعتبر أقل صلاحية للزواج في العالم، فهي إباحية، غير مخلصة، منتهكة للآداب، تلك التي لن تطيعه مطلقاً، ولن تكون مسؤولة إلّا عن متعه، تلك التي تمنعه من مضاجعتها في السرير وفوق طاولة المطبخ ولا حتى على البيانو، تلك التي تأخذه دائماً إلى مواعيد غريبة حيث يخفق القلب من الحمية بقدر ما يدق من الخشية.

ذاك المساء، ذهبا إلى مطعم «لا تروف بلانش»، أفضل مطاعم بروكسل. حين رآهما رئيس الخدم يصلان، انتابته رجفة ثم بدافع مهني، رضخ وهو يأخذ منهما سترتيهما. بطرفة عين، أمر الخدم بإعداد طاولة في آخر المطعم، تلك التي توجد منفردة في نوع من قوقعة. كان يحرص على عزل هذين الزوجين، لأنه تلقى، في المرة السابقة شكاوى من الزبائن الذين استاؤوا من سماع تلك المرأة توجه سباباً بذيئاً مُذهلاً؛ خلال ساعتين، أخلت المطعم من زبائنه؛ بما أن زوجها قد أدرك ذلك، ودس بخشيشاً بالغ الكرم، فإن صاحب المطعم لم يكن يتصور طردهما لكنه اتخذ احتياطاته.

إلّا أن ديان، أثناء العشاء، لم تتحدث في الجنس؛ انطلقت في موضوع كان يثير

شغفها: دراسة علم اباء الكنيسة اليونانية للقرون الأولى. كانت قد قررت فعلاً أن تكتب أطروحة عن الفيلسوف أوريجنس.[1] كيف اكتشفت أوريجنس؟ لماذا أثار اهتمامها؟ تساءل جان ــ نويل إن لم يكن اسمه أوريجنس هو الذي جذبها... ففي أوريجنس، هناك كلمة «الأصل» و«جينة أو الموروثة» وهذا ما يحوله شعرياً إلى شخصية أساسية، تلك التي ينحدر منها كل شيء...

حدثته إذاً ديان عن هذا اللاهوتي الإسكندري في القرن الثالث بعد المسيح الذي خصى ذاته كي يتكرس إلى الله، وهذا ما بدا لديان خطأ، لكنه دليل على مزاج قوي.

يقول مرقص الإنجيلي «إذا أوقعتك يدك في الخطيئة، فاقطعها». أخصى ذاته كيلا يعود فيقع في التجربة، هذا ما حققه أوريجنس. لا سيما حين كان فتى، رأى أباه يُقطع رأسه أمامه. لم يكن رجلاً رخواً ولا حزيناً ولا كسولاً، كلَّا، كان عنيفاً في عالم من العنف. إن فكره يثير اهتمامي. لا يهم إن كان على خطأ أو على صواب على كل حال.

هنا أيضاً سحرت ديان جان ــ نويل الذي، إلى جانب كونه جامعياً ضعيفاً قد يبحث في غبار المكتبات عن مرمى مهني، يتحمس الآن لأوريجنس ولأمونيوس سكَّال أو غريغوريوس العجائبي؟ فهذه المرأة ــ زوجته ــ كانت تتمتع بموهبة تجنب المبتذل.

حين رجعا إلى البيت، أمسكت بمجلد نيتشه، وعلى وسائدها وتابعت القراءة وقد وضعت الرسالة الصفراء بالقرب منها.

التقطها جان ــ نويل وقرأها: «هذه الكلمة لمجرد إعلامك بأنني أحبك. التوقيع: أنت تعرفين من».

ــ ما هذا؟

ــ أجهل ذلك.

عادت إلى القراءة ثم أضافت بعد عشرين ثانية:

ــ ولست مبالية به.

أيدها جان ــ نويل لكنه دس الرسالة في كتابه: خطرت له فكرة ممتازة.

---

(١) Origène: (١٨٥ــ٢٥٣): ولد في الإسكندرية وأصبح من أشهر أساتذة مدرستها اللاهوتية ومن نوابغ الفكر البشري. ترك آثاراً واسعة في اللاهوت وشرح الأسفار المقدسة. تطرف في تعاليمه- (المترجمة).

بعد يومين، اكتشفت ديان رسالة جديدة صفراء في بريدها، أثارت انتباهها، هذه المرة أكثر من سابقتها:

« موعدنا هذا المساء الخميس، الساعة الثالثة والعشرون، سطح «الفستول» بجانب البناء ذي التوتر العالي، تحت اللاقط. كوني عارية تحت معطفك من الفراء. التوقيع: أنت لا تعرفين من».

عضت على شفتيها وهي تبتسم. «مما لا شك فيه أن الأسلوب النثري يتحسن!» تذكرت أن جان ــ نويل يتناول العشاء مع زملاء له ذاك المساء، فابتهجت لاستطاعتها الذهاب إلى ذاك الموعد المُحرِج.

في الساعة الثانية والعشرين وثلاثين دقيقة، استقلّت سيارتها الصغيرة الإيطالية. سعت حتى اللحظة الأخيرة ألّا تطيع الأوامر وأن تلبس ثياباً داخلية سوداء أو أن تضع حمالات للجوارب فقط؛ لكنها خلصت إلى أن لمحدثها أسبابه ليطلب منها العري، ومن العبث أن تضحي بقماش مُخَرَّم يساوي ثروة.

وقد وجهتها شاشتها الإلكترونية، غادرت بروكسل وقطعت الغابة، ثم الأكواخ الكئيبة ــ بعض منازل حقيرة مجمعة على طول الطريق ــ ودخلت في ممر منحدر بقوة قادها إلى الباب الشبكي. « لا فيزتول»، كُتب على لوحة تآكلت من الصدأ، وهي منحنية، لم تعد تقف إلّا بمسمار واحد.

خرجت ديان وشعرت بالبرد حولها، فدفعت الشبك الذي أنَّ ثم دخلت وهي محبوسة في سيارتها (الفيات)، تلك الأرض الموحلة ذات الطرق المُحفَّرة. لابد من أن المنطقة كانت صناعية فيما مضى لكن لم يبقَ منها إلا أبنية متهدمة سُرقت حتماً واقتحمها أناس سكنوها بلا شك. توقفت السلطات عن إنارة تلك الأماكن الغارقة في ظلام أدكن لا منفذ منه. تقدمت ديان نحو شكل برز عن السماء القاتمة، وقد افترضت أنه اللاقط المحدد لها. وبالفعل، حين اقتربت، كانت أضواؤه الصفراء تكشف، تحت البنية المعدنية، نوعاً من برج مصفح من الإسمنت، مغطى بلوحات كتب عليها «خطر الموت».

أوقفت المحرك. كانت ترتجف.

بالإضافة إلى المجهول، من يؤكد لها أن آخرين لن يخرجوا، غير متوقعين في الحوار، لكنهم يعيشون خارجين عن القانون، في الخرائب؟

نظرت إلى المشهد الكئيب وعربات النقل المبقورة وكومة الحصى ولفائف الأسلاك. تخيلت على الفور عناوين الصحف: « تعرضت امرأة إلى العنف في «لا فيستول»، رأت بومضات صوراً عنها، غائصة بالوحل، رأسها غارق بالدماء،

مقتولة». استشفت التعليقات: «ماذا ذهبت تفعل في تلك المنطقة الخطرة؟ من أرغمها على الذهاب إلى هناك؟ إنها جريمة بمظهر انتحار».

هل تخرج من السيارة؟ من الأفضل أن تعود أدراجها.

في تلك اللحظة ومضت مصابيح سيارة في الليل.

ــ إنه هو.

كانت تجهل من «هو» لكن حضوره قد هدأها. كانت على موعد حقاً.

وصلتها من بعيد نبرة رجل، شوهها مكبر الصوت:

ــ اخرجي!

قررت أن تترك ملجأها وقد بلعت ريقها.

بهرتها مصابيح السيارة. إلّا أنها جابهتها، بعناد.

ــ افتحي معطفك.

فتحت واجهات الفراء، كاشفة عن عريها.

ــ حسناً. الآن سيري في الفسحة من جهة اليمين وتقدمي.

لاحظت الممر الغضاري المؤدي إلى الظلمات ودخلت فيه ببطء، بكعبيها العاليين اللذين لا يلائمان أرضاً غير مستوية، لا بل لم تكن تميز أرضاً.

فجأة أدركت بشكل أفضل العوائق لأن نوراً عنيفاً قطع شبحها المنعكس أمامها: كانت سيارة المجهول تتبعها.

ــ لا تستديري!

وقد استبق رد فعلها، فرض عليها الصوت أن تتابع تقدمها. اقترب منها غطاء السيارة أكثر فأكثر وهو يخر.

تساءلت بقلق « وإذا أسرع فجأة؟».

زأر المحرك كجواب عن سؤالها. طمأنها ذلك. وإذا كان السائق قد فكر بإخافتها، فلقد كان ذلك إذاً لعباً أداه بدقة. تستطيع إذاً أن تخاف، شأن من يشاهد فيلماً مرعباً وهو يقبل الكذب.

تقدمت خمسين متراً ثم أمرها الصوت بأن تتوقف.

ــ ضعي معطفك على غطاء السيارة.

نفذت الأمر وهي ترتجف، لأن ليل نيسان قد برد.

انطفأ النور. خرج ثلاثة رجال مقنعين. ارتموا عليها. قاومت قليلاً. شلّوا حركتها، قلت مقاومتها واستسلمت لهم فوق هيكل السيارة.

بعد عشرين دقيقة، وقد تمالكت زمام نفسها، ساعدتها يد لتقف.

وضع الرجل معطفها من الفراء على كتفيها.

ابتدأت العربة بالتراجع، حاملة الرجلين المقنعين.

أما الرجل الذي بقي، فلقد انتظر اختفاء العربة، وكذلك أن تعتاد عيونهما الظلام، ثم نزع قناعه الذي يغطي رأسه.

رجاها جان ــ نويل قائلاً:

ــ أتعودين بي إلى البيت؟

ــ إنك تستحق ذلك.

حين دخلا في السيارة الصغيرة المعدنية، تنفس برضى.

ــ لقد تمتعتُ كثيراً.

قهقهت ديان صادقة:

ــ وأنا أيضاً. لا سيما حين كنتُ أتقدم في الظلام، وقد التصقتُ بواقيات الصدمات التي كادت أن تقلبني.

ــ لقد تصورتُ أن هذا النوع من التفاصيل يعجبك.

طبطبت على خده لتشكره. ثم انطلقت بالسيارة.

ــ أتريدين معرفة من كان الاثنان...

أجابت ديان مستاءة:

ــ آه كلَّا! ستفسد عليَّ ذكرياتي!

رجعا إلى بيتهما بهدوء وهما يصغيان بكل جوارحهما إلى سيمفونية «لبروكنر»، وقد قررت ديان أن المؤلف الألماني كان موسيقياً فاسقاً.

حين وصلا إلى ساحة آريزو، اقترح جان ــ نويل بصراحة قائلاً:

ــ ما رأيك في أن نذهب، السبت مساءً، إلى ملهى « ميل شانديل»؟

ــ حفلة جنس جماعي؟ ألن يكون ذلك مملاً؟

اغتبط جان ــ نويل لأنه يعيش مع المرأة الوحيدة القادرة على لفظ جملة كهذه: « حفلة جنس جماعي؟ ألن يكون ذلك مملاً؟ «

ــ لا أظن. حدَّثت دوني، صاحب المطعم. دعا طباخاً فرنسياً بثلاثة نجوم.

ــ وماذا إذاً؟

ــ إذاً، عنده اقتراح يخصك.

يوم السبت مساءً، في ملهى «ميل شانديل»، كانت ديان فرحة كما لم تفرح قط بما كان يحدث لها.

طوال ثلاث ساعات، جهزوها في المطبخ. كان الطباخ الرئيسي بطاقيته المدهشة، يرافقه أربعة متدربين، ذوو أصابع سحرية. بينما كان من الممكن أن ينفد صبرها، استسلمت لهم وهي تمزح.

حين أشرفت الساعة على أن تدق منتصف الليل، رفع الطهاة الأربعة الطبق الضخم بحجم نقالة، وعُزِفت موسيقى من القرن السابع عشر الملكي من فرساي، وفُتِحت لهم الأبواب فدخلوا بعظَمة، حاملين على أكتافهم قطعة مميزة: إنها ديان، عارية ومغطاة بمئتي قطعة من المقبلات الرفيعة.

إن تقديمها كوجبة ملكية من رئيس الطهاة ذي النجوم الثلاث قد مثَّل بالنسبة إلى ديان تألقاً توج حياتها الإباحية. هل كان ذلك نابعاً من الزهو ومن عظمة الموسيقى وهتافات الزبائن والنشوة المنبعثة من العطور والمذاقات التي كانت تزينها؟ أحست دموعها تصعد إلى عينيها.

وضعوها على الطاولة الهائلة وقدموها إلى الآكلين.

لو لم يكن جفناها غارقين بالانفعال، لتعرفت إلى زاكاري بيدرمان الذي جاء كعازب، وقد انهمك بسحب القريدس من أصابع رجليها.

٩

ــ طاب يومك، ألبانّ.

ــ ...

ــ لستِ حسنة المزاج؟

ــ ...

ــ هل أنت غاضبة؟

ــ ...

ــ هل... قمتُ بشيء لم يعجبك؟

ــ احزِرْ!

ــ حسناً ماذا؟

ــ أليس لديك أدنى فكرة؟

ــ كلّا.

ــ هل أنت مرتاح الضمير؟

ــ أجل.

ــ إذاً لم يعد لدينا شيءٌ نقوله بعضنا لبعض. على كل حال، لا أعرف ماذا أفعل هنا؟

كانت ألبانّ، بعينيها شبه المغمضتين، تنظر حولها، شأن من سيقفز على أول حصان يجتاز الحديقة. بالقرب منها، تنهد كانتان، وهذا ما جعله يزداد غوصاً في مقعده، ثم مدَّ أمامه ساقيه الطويلتين.

ازادت كثافة الصمت، يموهه ضجيج حاد للببغاوات وللدرَّات.

ــ ألبانّ!

ــ ...

ــ ألم نعد نتحادث؟

ــ كلّا.

ــ هل لم نعد معاً؟

ــ لا.

ــ طيب.

بقفزة، تكور كانتان على رجليه ورحل، ومحفظة كتبه على ظهره. مزَّق رجاء صخب الضجيج الاستوائي:

ــ كانتان، لا تتركني!

توقف فجأة وتردد. أحس فجأة بقدرته وسلطته على إصابة ألبانّ باليأس، فاغتبط من سيطرته. حين استدار، ظهر بصورة سيد عظيم شهم.

ــ نعم؟

ــ تعالَ.

ــ ظننت مع ذلك أن...

ــ تعالَ... من فضلك...

كانت ألبانّ، المتوسلة، تطبطب على المكان الشاغر بالقرب منها، تدعوه إلى الجلوس هناك.

كم كانت جميلة، هذا الصباح... فكر كانتان أن الفتيات يتكشفن متعبات لكنهن يبقينَ مثيرات للولع: فهن مبتكِرات، لا ينضبنَ، يستخلصن مشهداً من كل شيء. ففي كل لحظة، تجري أحداث برفقتهن. إذا كانت ألبانّ تزعجه، لكنه لم يكن يضجر معها مطلقاً. فهي تبقى ظريفة في كل مناسبة، أضحكت، أم غضبت أم بكت. كان يحب كثيراً بكاءها الذي يعطيها مظهراً هشاً يجذبه إليها؛ ثم إنها كانت تنتظر الكثير منه ما يؤكد له أهميته. ففي كل غضب منها ثمة إشادة برجولته. في تلك اللحظة مثلاً، كان يرى نفسه كواحد من ممثلي هوليوود الذي يقدره؛ هكذا يرتقي أدوار الراشدين، ذوي الرجولة، فيرتعش متعة من ذلك. عاد ليجلس بالقرب منها.

ــ كانتان، لمن كانت الرسالة التي تركتها على المقعد يوم أمس؟

ــ كانت لي.

ــ عفواً؟

ــ كنتُ قد تسلمتها في الصباح.

ــ إنك تمزح؟

ــ كلَّا، لماذا؟

هزَّت ضحكة منقذة ألبانّ، ضحكة شنَّجت معدتها وحركت ساقيها، فقطعت

أنفاسها، تهددها بخنقها. حين شعرت بأنها لن تسكب فقط دموعاً لكنها ستقذف مخاطاً. حملت يدها إلى وجهها، ككمامة وحاولت أن تهدأ.

قال لها كانتان ممازحاً:

ــ قبل أن تموتي ستشرحين لي ماذا يحدث.

كان يحدق إليها بورع وعشق: فهي تسليه، ألبانّ تلك التي تقفز من مزاج إلى آخر من دون أن يعرف أحد لماذا، لا يمكن إدراكها، ربما متناقضة لكنها مقتنعة أن مركز العالم موجود حيث تكون هي.

اعترفت قائلة:

ــ قرأتُ الرسالة لأنني افترضت أنها مرسلة إليّ، ثم حين استرجعتَها فهمت أنها لم تكن موجهة إلي.

كان دور كانتان ليتلوى من الضحك. بين الخوار والنخير، بدا أن الأصوات التي أطلقها بالغة القبح حتى أن الببغاوات والدرَّات قد سكتت مرتاعة؛ حين سمع كانتان صراخه يتردد في السكون الخالي للساحة، توقف أيضاً بقلق.

في المقابل، قدرت ألبانّ كثيراً عاصفة ضحكه التي تشبه طوله وقدميه غير المتناسقتين وتصرفه الأخرق كعملاق حديث، وهو مندهش لما يصيبه.

ــ في الواقع، أجهل من الذي أرسل إليّ هذه الكلمة.

ــ فتاة أخرى عاشقة لك.

ــ هل هي أنت؟

ارتعشت ألبانّ. لماذا لم تأخذ مبادرة تلك الكلمة؟ كيف استطاعت أن تترك المجال لومس لأن تسبقها؟ هل ستعترف بالحقيقة؟ فإذا كان الجواب نعم، فستصيب كانتان بالخيبة. فوقها، رجعت الببغاوات والدرَّات إلى صخبها.

ــ بالطبع، إنها أنا.

ابتسمت بعذوبة وهي تلتفت نحوه، وقد خفضت رقبتها، شبه خاضعة.

أظهر كانتان دهشته قائلاً:

ــ هل هذا صحيح؟

ــ شعرتُ بحاجة للكتابة إليك.

ــ يا لمكرك! تصابين بأزمة غيرة وتطلبين مني من المرسَل إليها هذه الكلمة بينما أنت المُرسِلة. آه، أنتن معشر البنات، يا لكنَّ من فاسقات...

ــ الفتيات؟ أنا هي أنا، لستُ معشر الفتيات.

ـ موافق، أفهم ذاتي. إنك بالغة الفسق.

ـ فاسقة؟ هل من السوء البوح بالحب؟

ـ كلَّا، لم أكن أريد...

ـ فاسقة، أشكرك... ما إن أفتح قلبي حتى تعتبرني فاسقة. بالنسبة إليك وإليَّ، ليس للكلمات المعنى ذاته.

سكت كانتان، وهو يخشى أن تكونَ على صواب: ما إن يتبادلا أكثر من ثلاث جمل حتى يتخاصما. كان من الواجب إعلامه مسبقاً أن هناك مجموعة مفردات للفتيات، وأخرى للشبان. لكان استعل، ولكان درس مفردات كل مجموعة منهما على حدة ولما أثار الآن زوبعة لكل تعبير غير ملائم.

استغلت ألبانّ هذا الصمت فتحققت من مصداقية كذبتها: لم يكن يعرف طريقتها في تشكيل الأحرف، لم تحوِ الرسالة إلَّا تعابير يمكن أن تستعملها.

ـ ولو، هذا لطيف. نتلاقى يومياً وبالرغم من ذلك تكتبين لي. هذا يعجبني.

اتخذت ألبانّ مظهراً متواضعاً، خافضة عينيها. فتأثير كذبتها صار في منتهى الإيجابية حتى بدأت تنساها. أجل، إنها حتماً قد كتبت تلك الكلمة...

ـ أحياناً، من الأسهل قول الحقيقة على الورق. حين يتحدث الإنسان، يعاني الخوف، لا يذهب دائماً إلى جوهر الموضوع. أما وهو هادئ، والقلم في يده، فيذهب مباشرة إلى الهدف.

ـ لا شك في أنكِ على صواب، ألبانّ.

ـ ثم هذا أكثر رومنسية، أليس كذلك؟

تأملها: إنها تأخذه إلى عالم أسطوري، عالم المشاعر المرهفة، عالم الشعراء الذين يمدح الأساتذة مزاياهم. لأنه رأى نساءً يذكرن تلك الكلمة في التلفاز، عرف أن «رومنسية» تشكل إحدى مفاتيح الإغراء.

فكر أن عليه أن يظهر لائقاً. بقدر ما كان سريعاً في إيجاد الأفكار، كان كذلك في تنفيذها، وقف قائلاً:

ـ ألبانّ، انتظريني عدة ثوانٍ.

ـ ولكن...

ـ عدة ثوانٍ... سأعود سريعاً... أقسم لك على ذلك.

من دون أن ينتظر موافقتها، هرع راكضاً واختفى وراء الأشجار. حين تيقن من أنها لم تعد تراه، دخل مخزن الزهور.

استقبلته كزافيير بنظرة متسائلة معتبرة دخوله المفاجئ ناجماً عن خطأ.

سألها، من دون أن يتأثر:

ــ هل يمكن شراء وردة واحدة؟

ــ أجل، هذا ممكن.

ــ إذاً، أريد واحدة.

ــ من أي لون؟ أحمر، كما أتصور، نظراً للحالة التي أنت فيها...

لم يفهم كانتان جملة بائعة الزهور، وهذا ما ضخَّم متعة البائعة. توجها نحو الصندوق حيث أعلنت له الثمن.

حين كان يدفع، ظهر أوريون فجأة.

ــ آه، الصغير كانتان، كم كبرتَ، يا ابني! هذا لا يُصدَّق! اليوم، مع ما يغذونكم بالطعام الفاسد، تصبحون عمالقة. هل أصفف لك باقة؟

تذمرت كزافيير قائلة:

ــ بوردة واحدة، سيصعب عليك ذلك.

ــ سألبسها ورقاً جميلاً عاكساً.

أمسك الوردة وبدأ عمله، بينما كانت كزافيير ترفع كتفيها، مقدرة أن هذا الجهد مكلف. التفت كانتان نحو أوريون.

ــ ألديك بطاقة لأكتب عليها كلمة؟

ــ طبعاً!

وضع أوريون بطاقة ومغلفاً وقلم حبر على طاولة المحاسبة. تمتمت كزافيير في أذنه قائلة:

ــ أعطِه الصندوق ومدخراتك، بينما أنت هنا.

ضحك أوريون كأن كزافيير قد همست له بحكمة خفيفة الروح.

خربش كانتان سطراً وقد احمرّ وجهه، ثم لصق رسالته.

أراه أوريون كيف يمكن للشريط الأحمر مسك الكلمة وتمنى له يوماً سعيداً. قال:

ــ كم الصبا جميل!

ختمت كزافيير وهي تستدير، بقرف، في المخزن الخلفي:

ــ إن الصبا جميل لكنه فقير. إن كان ذلك يثير شهيتك، لكنه لن يطعمك!

ركض كانتان حتى المقعد وكبح اندفاعه بشكل متعثر فكاد أن يعور ألبانّ وهو يمد لها الزهرة.

ــ خذي، إنها لك!

ضربت ألبانّ يديها بدل أن تمسك الزهرة، وهي تطلق زقزقات حادة. نظر كانتان حوله، وهو يخشى أن يكون منظره مضحكاً؛ لحسن الحظ، كانت الببغاوات والدرَّات وحدها تستطيع رؤيتهما، ويبدو أنها لا تهتم بهما.

أخيرت تسلمت ألبانّ الزهرة شأن قطعة ثمينة.

ــ شكراً.

ــ أتركك ألبانّ. سأفوت درسي.

ــ إلى اللقاء، كانتان. إلى الغد. إنني سعيدة جداً... جداً... جداً.

احمرّ وجه كانتان وارتعش وتلكأ ثم قرر الرحيل.

تابعت ألبانّ اضطرابه الفرح إلى أن اختفى عن الأنظار. ثم تأملت من جديد الوردة الحمراء. للمرة الأولى، يقدم لها شاب زهرة؛ إنها تدخل في مرحلة رائعة، فسيكون مستقبلها وكل ما فيه من الآن فصاعداً لطيفاً هكذا.

أمسكت بهاتفها ودونت رسالة: «غوين، ك. قدَّم لي أزهاراً». طبعاً، لم يكن لديها إلَّا زهرة ولكن في رسالة، لا أهمية لذلك. لو أرسلت «قدم لي ك. زهرة» لظُن أن كانتان بخيل أو أنه سرق الوردة.

لاحظت ألبانّ أن مغلفاً يتدلى من الشريط.

ــ يا له من رومنسي!

فتحته بنفاد صبر وفكت كتابة الشاب المستعجلة:

«بي رغبة في مضاجعتك. التوقيع: أنت تعرفين من».

١٠

كانت تراقب أوكسانا التي اكتشفت تواً، في المطبخ، الرسالة المجهولة.

فميغ تعرف أنها تغامر بكل شيء: فإما أن تترك أوكسانا، غاضبة من ويم، وإما أن تسترجعه.

إنها حانقة لأنها لم تكن تدرك ما يدور في خلد عارضة الأزياء، جاهدة في أن تفك مدلول لغتها الجسدية، لكن أوكسانا، وقد جلست على كرسي عالٍ، وفنجان الشاي في يدها، لم تكن تعبر عن شيء واضح.

رن جرس الهاتف في مكتب ويم الخاص فركضت ميغ إلى هناك، وهي تطرد هذيانها الشخصي لتعود فتصبح المساعدة الممتازة لبائع التحف الفنية.

أما أوكسانا، فأعادت قراءة البطاقة. وكلما فكرت فيها، شعرت بارتياح. هكذا، لا شك أن ويم قد عاش مع خطيبته السابقة علاقة قوية جداً يمكن استعادتها. لتكتفي بالتوقيع «أنت تعرف من» لا بد من أنها متأكدة من حبهما.

نزلت أوكسانا عن الكرسي العالي وتعلقت بالبرَّاد كي تتجنب أن تلوي كاحلها ووضعت ثانية الماء ليغلي.

لم تعد تشعر بالذنب. فمنذ ثلاثة أشهر، راحت تؤنب نفسها لأنها لم تكن توحي لويم بالحب: لم يأخذ أية مبادرة عاطفية مطلقاً، كما لم يندفع نحوها قط وهو يهمس لها بأن جسمها يطيِّر لبه ولم يحملها إلى الشراشف بتوقد وحماسة بتاتاً. كان يُظهر احتراماً راح يقلقها، بعد أن أغراها؛ كم تساءلت إن لم تكن تنبعث منها رائحة كريهة، أو أنها تهرم بشكل متسارع؛ وأسوأ من ذلك هو تساؤلها إن لم تكن طريقتها في الاستسلام إلى متع الحب...

بما أنها لم تكن تبقى طويلاً مع رجل، لم تناقش هذا الموضوع مع أحد. لماذا لم تكن قصص حبها تدوم إلّا لوقتٍ قصير جداً؟ حتى الآن، ظنَّت أن القطيعات كانت تتعلق بالجغرافيا، فمهنتها تقودها إلى الإقامة في مختلف أنحاء الكرة الأرضية؛ لكنها، منذ ثلاثة أشهر وهي تشارك ويم حياته في بروكسل، ارتابت بأن هذا السبب الرسمي يخفي دافعاً أشد خطورة: هل هي عشيقة رديئة؟ فتحتَ أنظار ويم الذي يتأمل جمالها ويقدمها شأن كنز ثمين يتجنبها مع ذلك في السرير، اتهمت نفسها بالرداءة.

أمّنتْ لها تلك الرسالة موطناً مختلفاً: كان عقل ويم بعيداً وكذلك قلبه، فهو يستمر في الحياة، أو يأمل أن يعيش قصة حب مع امرأة أخرى. ربما سيعيد ارتباطه بها؟ لا شك أنها هي نفسها قد جسَّدت العشيقة الانتقالية!

ــ أوكسانا، سيكون التكسي هنا بعد خمس دقائق.

الأحلام وأن تذهب لتعمل.

ــ قولي له إنني سأكون جاهزة في عشر دقائق.

أجابت ميغ بخبث، أنها ستنقل ذلك، خافية عنها أن التكسي سيصل بعد نصف ساعة، ريثما تلملم أوكسانا ثيابها وهي تصطدم من أثاث إلى أثاث.

في الطابق الأسفل، ابتسم ويم بنشوة أمام صديقه كنود، مدير شركة طيران.

ــ بيترا فون تنانبوم؟

ــ إنها لا تتحدث إلّا عنك منذ أمس مساءً.

ــ لاحظتُ أن التيار يجري بيننا. لكنني لم يخطر ببالي أن...

ــ اسمع ويم، قالت مباشرة وبدقة: «وا أسفاه أن يكون صاحبك ويم يساكن تلك العارضة للأزياء وإلّا لمكثت عنده بكل رضا، فترة إقامتي في بروكسل».

ــ أوه، أوه...

وأضافت:

ــ أقسم لك على صدق ما أقول: «عليك أن تحدثه بذلك».

احمرّ وجه ويم وقد اغتر لأنه جذب اهتمام امرأة ذات الشهرة العالمية.

ــ أتعي ذلك؟ فإذا عُرف في الوسط الذي أنا فيه أنني أعيش مع بيترا فون تنانبوم، يا لها من...

ــ دعاية؟

ــ هائلة! ... فسواء في برلين وباريس وميلانو أو في نيويورك، لا يتحدث الناس جميعاً إلّا عنها.

ففي نظر ويم «الناس جميعاً» لا يعني ذلك الجماهير ولا ملايين الأفراد العاديين، إنه يعني فقط وسطاً ملائماً، متحذلقاً، انتقائياً، إنه وسط الفن الحديث. هذا المكان المغلق ــ مئة شخص في كل عاصمة ذُكرت ــ تحوي الأشخاص الذين يمكن اعتبارهم. فإذا ما قُدم إلى أحدهم مغنية شعبية باعت على الكوكب مليارات الأسطوانات لتجاهلها لأنها لا تعاشر هذا النوع من الأشخاص. فالمجد بالنسبة

إليه لا يُستمد من الشهرة العالمية ولكن من الاعتراف المكتسب في كنف حلقة يمكن تعداد رؤوسها.

هكذا فإن بيترا فون تنانبوم تثير العشق عند المغرمين الطليعيين لأنها أعادت تواً اكتشاف التعري. تلك الممارسة السوقية، وهذا الاستعراض المثير للشفقة والذي تُطليه الكآبة والشهوة، حولت هذا التعري إلى حدث فني أنيق. فهي لا تقدم عروضها إلّا في الصالات الفنية المتميزة، وتشترط جمهوراً مختاراً بدقة، وهناك، بفضل ستين من الكشافات الضوئية المتحذلقة، كانت تقدم بعض المشاهد الخارقة التي تبدؤها لابسة وتنتهي عارية، وإن كان ذلك لا يحدث دائماً، كي لا يكون المشهد بالغ التوقع.

إن بيترا فون تنانبوم التي تتمتع بشكل في منتهى الرفعة تضيف التصنع إلى الطبيعة. فزينتها وشعرها وأظفارها وحتى جلدها المصقول واللامع ذو اللون الواحد التام في شموليته، يبدو كل ذلك كأن قد لمسته ريشة فنان عبقري. فهي لا تظهر إلّا مكللة بهالة من ذلك البرونز الذي يتميز به الفنان العظيم. بالإضافة إلى ذلك، كل مشهد يوحي بلوحة من اللوحات الشهيرة تحولها بشكل يشوهها؛ هكذا أجبرت « المونا ليزا» على أن تخلع ثيابها، أو تمثال «انتصار ساموتراس» على رفع ذراعيه.

ــ اسمع ويم، ستبقى بيترا فون تنانبوم ثلاثة أشهر في بروكسل نظراً لأنها ستقدم عروضاً في الأسابيع القادمة في «أنفير» و«غاند» و«أمستردام» و«لاهاي» و«كولونيا». تصور أنك متأبط ذراعها في معرض «ماسترخت» أو في « بال»!

ضرب ويم الأرض برجليه. فتبختره بالقرب من زملائه التجار مع تحفة فنية إلى جانبه، يشكل ذروة حياته المهنية. ضرب ركبتيه: اتخِذ قراره!

ــ أعلمْ بيترا فون تنانبوم أنني سعيد بدعوتها للعشاء غداً مساءً، ريثما أرتب بعض الأمور.

ــ ممتاز.

ــ هل ستفهم وضعي؟

ــ ستفهم ذلك.

تبادل ويم وكنود معانقة متحمسة.

ــ كيف ستتصرف مع أوكسانا؟

فوجئ ويم فرمقه بنظرة تعني «يا له من سؤال غريب...».

ذهب ويم إلى صالة العرض واستقبل بعض الزبائن وتصفح المجلات وهو يفكر بالوضع. إن ترك امرأة، قد قام به عشرين مرة، إلّا أن الانفصال كان يتم

بشكل طبيعي، من الملل، من تآكل الزمن، شأن الورقة والشجرة في الخريف. يجب عليه، هذه المرة، أن يُعجل القطيعة.

هل عليه أن يستند إلى كآبة مبادلاتها العاطفية وتفاهتها؟ لماذا يحرم نفسه تلك السهولة؟ في نهاية الأمر، كان ضحية ذلك! من غير المجدي أن يعترف لأوكسانا بأن علاقاته الجنسية مع السابقات كانت تعادل علاقتها بؤساً وتعاسة! كان يقول كنود: «يستحيل أن يُقال عن رجل إنه مخفق جنسياً لأن الإخفاق هو عمل الاثنين معاً!» لم يبقَ أمامه إلّا أن يرتجل، شأنه حين يستقبل زبوناً... ألم يسعفه حدسه الرائع دائماً؟

ذاك المساء، طلب طعاماً من أفضل طباخ ياباني في بروكسل واقترح على أوكسانا أن يأكلا في الصالون، على الأرائك وهما يصغيان إلى الموسيقى.

ترددت أوكسانا، وهي مستغرقة في أفكارها، ثم صرخت:

ــ آه نعم، يا لها من فكرة حسنة!

تساءل ويم مرة أخرى إذا كانت أوكسانا تشغل ثواني الصمت لتترجم لنفسها السؤال أو لتبحث عن جواب.

ــ أوكسانا، عندي شيء هام أكشفه لك.

ــ إنني أعرفه، ويم.

أجابت بجدية هادئة. محدقة إليه، أرسلت خصلتها إلى الوراء وتابعت:

ــ إنك تعشق امرأة أخرى.

ــ إن...

ــ أكثر بكثير مما تحبني. على كل، حال إنك لا تعشقني. أنت تفكر فيها حين تنام، وحتى حين نكون...

بما أنها لم تكن تعرف أية كلمات تصف بها الحميمية الجنسية، قامت بحركة غير محددة، كاد عاكس النور يرتطم جراء ذلك بالجدار.

خفض ويم عينيه، متضايقاً، لكنه مغتبط في قرارة نفسه لتفسيرها موقفه على هذا الشكل.

ــ كيف استشففتِ...؟

فضَّلت أوكسانا عدم ذكر الرسالة الصفراء التي التقطتها من سلة المهملات قائلة:

ــ حدس نسائي...

ـ هل تتألمين؟

ـ كلّا، لأنني أعرف الآن لماذا لا أجذبك... ابتسمت بحنان.

ـ أنت محظوظ، ويم. بودي أن أعيش عشقاً كهذا.

هزَّ ويم رأسه موافقاً، وهو يعي أن الموقف يقتضي ذلك. مع ذلك، أعلمته تلك الجملة من أوكسانا أنها لم تكن مغرمة به، وهذا ما جرحه في كبريائه وعزة نفسه. أدرك، في تلك اللحظة، أنه لم يعرفها إلّا سطحياً: لقد عاش تواً معها ثلاثة أشهر، وأخرجها معه إلى جميع الأماكن، مع ذلك فإنه جهل ما كانت تتمنى أو ترغب. انحنى إلى الأمام وسألها بفضول:

ـ ماذا تنتظرين من رجل، أوكسانا؟

رفعت رأسها وحملقت فيه وأجابت بمزيج من الاستنكار والكآبة:

ـ لن أصرح به إلّا لشخص واحد: رجل حياتي. كانت صادقة في مشاعرها.

تلقى ويم الضربة. جمع العيدان الخشبية على الصحنين المسطحين.

أيزعجك ترك الشقة غداً؟ إذا أردت، فإن شقة كنود الصغيرة شاغرة.

حدجته بازدراء قائلة

ـ لدي الإمكانية لأقيم في الفندق، شكراً. موافقة بالنسبة إلى الغد. هذا المساء، إنني في غاية التعب.

من دون أي أسف، ومن دون مجرد نظرة إليه، صعدت إلى العلية.

مكث ويم عشر دقائق جامداً على الأريكة ـ إنها فترة طويلة من الانحطاط لهذا الرجل النزق ـ كان في آن واحد راضياً ومنزعجاً لأن هذا الفراق لم يحدث بالدموع. لم يكن يتصور في أية حالة أنه سيعيش بالقرب من تلك الكتلة من اللامبالاة. إذا كان استخفافه كذكر لا يصدمه ـ لأنه معتاده ـ، فإن استخفاف أوكسانا قد أثَّر فيه. عمَ بحثتْ بالقرب منه؟ عن ملجأ لا يكلفها شيئاً؟ عن رفقة؟ حين ذكر فرضية أنها ربما بحثتْ عن عاشق لا وجود له، وضع حداً لبحثه وانطلق شأن نابض أريكة، وهو يفرك يديه: كان المكان شاغراً لبيترا فون تنانبوم.

في اليوم التالي، طلبت ميغ آخر تكسي لأوكسانا، تلك المرة، على عكس الأشهر السابقة، قامت بذلك بانفعال، مرتبكة، مذنبة لأنها سببتْ رحيل عارضة الأزياء بتركها الرسالة الصفراء مرمية بإهمال.

قبَّلتها أوكسانا وشكرتها لاهتمامها بها واختفت في التكسي الذي بدا سائقه سعيداً بنقل جمال كهذا.

دان ويم يستعد، من جهته ليتناول العشاء مع بيترا فون تنانبوم. فما بدا له مشتهى البارحة قد أرعبه اليوم. كيف سيعرض عليها الإقامة هنا؟ وإذا ارتمت عليه، فما رد فعله؟

خطرت على باله للحظة، فكرة لقاء الدكتور جُمِّل، ثم عدل عنها ووعد نفسه بتناول مهدئات. قد يكفي ذلك لمقاومة التوتر، أليس كذلك؟

في الساعة العشرين، ذهب لإحضار بيترا فون تنانبوم من فندق «أميغو».

كان المسؤول عن صف السيارات وصبي الفندق والخدم كلهم يرتجفون أمام تلك المرأة الأقرب إلى التمثال: كانوا يجهلون من تكون بالرغم من غوايتها لهم. قال بعضهم: «إنها ممثلة من هوليوود معروفة جداً هناك، ولا تزال غير معروفة هنا»؛ وقال آخرون: «إنها كونتيسة ألمانية كانت صورتها منشورة في مجلة Gala». لم يساور أحداً الشك في أنها استعراضية ستريبتيز. ما كان ليصدق أحد ذلك، فحذلقتها وأناقتها وأرستقراطيتها المتعجرفة تفند صور تلك المهنة.

في المطعم، بدت بيترا لطيفة مع ويم، الذي عالج المواضيع بمهارة لكنه راح يتساءل عن طريقة محاذاة المواضيع الأكثر حميمية.

تكفلت بذلك وقت الحلوى. وقد أخرجت مسكة ـــ السيجارة، غرزت ظفراً أحمر في يد ويم قائلة:

ـــ عزيزي، أمتعتي جاهزة، ما علينا إلّا اصطحابها من الفندق.

ـــ بيترا، إنك تشوشينني.

ـــ أعرف ذلك.

ـــ كيف تعرفين إذا كانت ستروقك الإقامة عندي؟

ـــ لقد حدَّثوني عن ذلك. على كل حال، تطيب لي صحبتك.

حمحم، وقد أسكرته الكبرياء. مع ذلك، ثمة تفصيل قد أقلقه:

ـــ إنني قلق لأن أعرف إن كانت غرفة نومك تعجبك...

ـــ غرفتي؟ ظننت أنها غرفتك.

أكدت ما أوحت به، فرفعت ظفرها عن يد ويم وداعبته. احمرّ وجه ويم. حتى العودة إلى بيته، تحدث كما لم يتحدث قط، تحدث ليخفي توتره العصبي.

زارت بيترا فون تنانبوم الشقة المؤلفة من ثلاثة طوابق مع صرخات إعجاب. أخيراً، صحبها إلى الجناح الشخصي.

قالت وهي تكتشف غرفة النوم:

ـــ إنها ممتازة.

أحنى رأسه، شأن خادم متحمس ثم حمل حقائبها إلى الطابق العلوي.

ــ ادخل غرفة الحمام قبلي، ويم، لأنني أحب أن آخذ كامل وقتي.

امتثل ويم وخرج من الحَمَّام بمئزر ياباني أسود.

نظرت بيترا إليه نظرة إعجاب، ثم دخلت إلى الغرفة التي أغلقتها وقد حملت في يدها مجموعات حقائب صغيرة. ذهب ويم ليشرب واستفاد من وحدته ليبلع حبتين مهدئتين ثم تمدد في السرير.

انتظر. بعد نصف ساعة، وهو قلق، نقَّر على الباب.

ــ هل الأمور على ما يرام، بيترا؟

ــ كل شيء ممتاز، عزيزي.

ترقب بصبر اللحظة التي ستلاقيه فيها.

بقيت داخل الحمام ولم تخرج مطلقاً. تحت تأثير المهدئات ووضعيته مستلقياً، راح يشعر بالنعاس يسيطر عليه. يا للخجل! ستراه نصف نائم. قرص جسمه وحاول أن يقاوم موجة الارتياح التي أرادت أن تصحبه حتى النوم الهادئ.

مضت نصف ساعة أخرى ثم سمع بيترا وراء الباب.

ــ في الواقع، عزيزي، اطفئ النور. لا أتحمل الضوء في الليل. لا تُبقِ إلَّا نوراً خافتاً.

نفذ ويم الأوامر، وأعلمها بذلك.

ــ ها إني آتية.

انتظر إخراجاً مسرحياً جديداً كما هو مألوف لديها. بدلاً من ذلك، انسل شبح بالقرب منه.

استقرت على الوسائد كما لو لم يكن ويم موجوداً هناك. حين انتهت، وجد أنه من الضروري أن يقول:

ــ إنني سعيد لوجودك هنا.

ــ هذا أفضل. هذا أفضل. أنا أيضاً. يبدو لي فراشك ممتازاً.

زلق يداً نحوها مؤملاً تشجيعه. ولأنها تجاهلته، تجرأ على مسك معصمها.

انتفضت قائلة:

ــ أوه!

وجهت وجهها الرائع نحوه.

ــ نسيت أن أوضح لك، عزيزي: إنني أكره الجنس ولا أتعاطاه مطلقاً.

حدّق إلى وجهها. لم تكن تمزح. لقد أعلنت هنا تفصيلاً مهماً، وإن لم يكن إلّا تفصيلاً.

ـــ لست حاقداً عليَّ؟ شكراً.

بناءً عليه، تكورت من الجهة الأخرى، ولم تعد تترك لويم إلّا رؤية شعرها الطويل الأسود والمدهش.

نظر إلى السقف، وشهق ثم زفر بانفراج: سيتفاهم مع تلك المرأة.

١١

ـــ هذا الشاب عبقري...

ـــ هذا المساء، ينطلق على سجيته!

كان يثير ڤيكتور تعليقات متحمسة على حافة الحلبة. ففي كنف هذا النادي الليلي البرجوازي الذي يتردد عليه شبان في الثلاثينيات من أعمارهم، كان دخول شاب في العشرين من عمره، مرنٍ ورشيقٍ ووسيم، ذي حركات حوضٍ مثيرٍ، غارقٍ في نوع من الغيبوبة المتحمسة، وعيناه شبه مغمَضتين، وفمه مفتوح قليلاً، قد أعاد حيوية السهرات الكبيرة.

كان ڤيكتور يعشق الرقص. وقد تصالح مع جسمه، فهو سعيد بمطاوعته له، وفقد عدم مهارته فراح يرتجل ألف حركة على وقع الموسيقى، غير واعٍ بالرغبات التي يثيرها حوله.

توجه إلى المجموعة الجالسة حول طاولة والتي كانت ترافقه:

ـــ هيَّا! تعالوا!

قهقهت النساء، منتعشات ببهجة. وقف بعض الرجال، وهم مقتنعون أنهم سيثيرون الشهوات شأن ڤيكتور بمجرد أن يتحركوا.

من دون أن يفقد الإيقاع، وهو يقوم بنوع من رقصة البطن، اقترب ڤيكتور من صديقاته، واحدة تلو الأخرى، بحركة رشيقة من يده، دعاهن إلى الانضمام إليه.

اجتاحت كثيرات الحلبة. كان ڤيكتور يتموج بين أزواج الراقصين وهو يقلد الراقص الذي يريد أن يعجب الزوجة بقدر ما يعجب الزوج. كان كل واحد يدخل في اللعب بطيبة خاطر.

ـــ إنه يُشعل النادي.

ـــ يا له من جو رائع!

ـــ على صاحب النادي أن يدفع له أجراً.

اختار ڤيكتور ألّا يسهر مع رفاقه في الجامعة، فمنذ دخول الرسالة المجهولة ـــ وبخاصة اختفاؤها في المطبخ ـــ، كان يخشى أن تكون لواحدة أو لواحد منهم

تطلعات عاشقة نحوه. لذا فضل أن ينضم إلى مجموعة أكثر نضجاً، أصدقاء ناتان، في هذا الملهى الذي لم يكن من المألوف أن يتردد عليه. إذا كان يثير الاعجاب، ليس لأنه القادم الجديد فقط، لكن لأن أبناء الثلاثين يتوهمون أنهم بعمره؛ كانوا متزوجين، وأحياناً لهم أطفال، وفي خضم انطلاقهم المهني، كانوا يسهرون ليقنعوا أنفسهم أنهم لا يزالون أحراراً. لم يكونوا شباباً ولا مسنين، كانوا شباباً مسنين.

ــ لمن هذا الڤيكتور؟ للفتيات أم للشبان؟

ــ إنه لا يسهر مع أحد.

ــ إنك تمزح! آية جمال مثله، لا بد من أن يجتذب كل ما يمر أمامه. هل لاحظتَ جاذبيته وعفويته؟ إذا كان بكراً، فأنا جان دارك البتول.

انضم طوم وناتان إلى مجموعة الجالسين، فنادتهما رفيقاتهما في الحال:

ــ ستقولان لنا، أنتما! إننا نتساءل إذا كان ڤيكتور يحب النساء أم الرجال؟

استقصى طوم ضاحكاً:

ــ لماذا يهمكُنَّ ذلك؟

تذمر ناتان قائلاً:

ــ وفر عنا دروسك الأخلاقية. هذا السؤال يراود وجودك.

ــ حين يعجبني الشاب فقط.

ــ إنهم يعجبونك كلهم. أنت مُجَمَّع عالمي للمؤخرة!

ــ توقفا عن تخاصمكما، أنتما! وأجيبا عن سؤالنا.

نظر كل من طوم وناتان بعضهما إلى بعض، بارتباك، ثم خلصا، وقد أخفضا أكتافهما:

ــ لا نعرف.

صرخت النساء بتعجب:

ــ ماذا؟ ألم يحاول أحد منكما؟

استنكر ناتان قائلاً:

ــ من تحسبينني عزيزتي؟ أنا سأتزوج قريباً. يتحرق طوم شوقاً إلى ذلك.

قال طوم متعجباً:

ــ لأن فكرة الزواج تجعلك وفياً؟

ــ كنتُ أقول ترهات.

تابع طوم:

ـ الحقيقة، إذا لم نغازله، نسعى إلى معرفة ماذا يحب.

ـ وماذا؟

ـ لا يمكن سبره.

حدد ناتان:

ـ بشكل أدق، يُعطي انطباعاً أنه يحب كل شيء.

ـ ونحن، نظن بالأحرى أنه لا يحب شيئاً.

ـ أنتم مجانين، أيها الشبان: انظروا إليه يرقص.

أشرنَ إلى ڤيكتور الذي لم تعد عيناه مطبقتين لكنه كان يصوب نظرات مدمرة على الراقصين الذين يحاذيهم.

اغتاظ ناتان:

ـ إنه يشعل... عن أي شيء يبرهن ذلك؟ إن المرأة المثيرة ليست بالضرورة تلك التي تضاجع باستمرار.

أضاف طوم:

ـ غالباً ما يحدث العكس. فالفتيات المثيرات يهربن حين يبلغ الأمر المضاجعة. أما القديسات فيتكشفن عن داعرات.

اقترح ناتان قائلاً:

ـ الأم تيريزا، على سبيل المثال.

قهقهن بالضحك ثم رجعنَ ينظرنَ إلى ڤيكتور. بعد دقيقة، صرخ فيهن ناتان:

ـ أيتها الفتيات، تذكرن أنكن متزوجات.

ـ يمكننا أن نحلم، أليس كذلك...

ـ تذكرنَ كذلك، عزيزاتي، أنكنَ تكبرنه بعشر سنوات.

ـ عشر سنوات، في عمرنا، لا أهمية لها.

ـ بالنسبة إلى عمره، بلى!

رمقنه بنظرات حانقة، لقد تجاوز الحد الذي يفصل المسلي بالمزعج. أمسك طوم من يده وأخذه إلى حلبة الرقص.

وراءهم، خطف ڤيكتور زجاجة فودكا وشربها من عنقها، ثم وهو يتابع رقصه، قدم هذا المشروب إلى المقربين منه.

همس طوم قائلاً:

ـ يتكرر ذلك في كل مرة. فحين يكون الناس منجرفين، ينقض على المشروب

وينتهي بالسكر. هكذا يتجنب استخلاص النتائج من إثارته وتحريضه...

صرخ ڤيكتور وهو يرقص (swing) بأروع ما يمكن:

ــ هيا!

ألصق ردفيه بردفي جارته، ثم بردفي جاره. ارتفعت الحرارة. شأن وهج مستنقعي، راح الشاب ينزلق من جسم إلى آخر، بشهوانية وحسية وغواية.

في اليوم التالي، لم يخرج ڤيكتور من تحت غطائه قبل الساعة الحادية عشرة. فحركته الأولى هي جر قدميه حتى غرفة الحمّام والبحث في صيدليته وابتلاع حبات بسبب فمه اليابس والمنتفخ.

استغرق عشر دقائق ليبتلع قدحاً حامضاً من البابونج ثم أقام عشرين دقيقة في الحمّام تحت رُشاش الماء الذي جرى على جلده فأنعشه.

في الساعة الرابعة عشرة، وقد ارتدى ملابسه أخيراً، تذكر أن عليه أن يدعو طوم وناتان ويذهب للقاء خاله.

اتصل هاتفياً بالشابين ليشكرهما على اصطحابه إلى بيته؛ أعلمه هذان بمزاح أن موجة من الانتحارات ستفتك ببروكسل في الأيام القادمة، إلّا إذا كرَّم بمفاتنه النساء والرجال الذين غازلهم ليلة البارحة.

ختم طوم قائلاً:

ــ أنت شيطان!

أجاب ڤيكتور، صادقاً قبل أن يغلق السماعة:

ــ أود ذلك حقاً.

أصبح حتماً، ومن الضرورة الملحة أن يترك تلك المدينة. ليقدم حلولاً مترابطة لخاله، أعدّ مجموعة كتيبات تتعلق بمختلف الجامعات، وقد تعلم غيباً بعض برامج تهدف إلى تقدمة تبرير عقلاني عن رغبته في الرحيل.

بينما كان القنوط قد بدأ يتسرب إليه، لمح، من خلال زجاج سقيفته، درّات تلعب بملاحقة بعضها بعضاً؛ وقد أحس حرارة الأشعة، قرر أن يخرج ليشرب قهوة في أشعة الشمس.

قصد ساحة «بروغمان»، وهي مكان لطيف في الحي، تظلله أشجار الكستناء الكثيفة ويدعى ساحة « ما تو فو» (أي هل رأيتني)، فهناك مقهى بسطح يحب فيه الأثرياء الذين لا عمل لهم أن يظهروا ذواتهم. وجد طاولة على جانب، بالقرب من المكتبة، نظر إلى المارين يتسكعون.

جذبت امرأة انتباهه. كانت طويلة القامة، تترجّح على ساقين لا تنتهيان،

فتوحي بعصفور جريح. بعد أن أضاعت فردة حذاء وهي تقطع ممر المشاة، كادت تقلب اللوحة المتحركة التي استندت إليها كي تعيد شريطها الجلدي. بعد ذلك، أفرغت محتوى حقيبتها وهي تنحني لتداعب كلباً صغيراً، وحين استقرت في آخر مكان شاغر في الهواء الطلق، استطاعت أن تقلب إبريق ماء على الطاولة المجاورة.

من الممكن أن يجدها ڤيكتور مثيرة للضحك لو لم يقدر في البدء أنها بالغة التأثير. لأنها بدت مرتبكة من جسمها الذي في منتهى الكمال، لأنها بدت في كل لحظة منزعجة كأنها معلقة بسبب قامتها الطويلة، فكانت تقدم صورة فتاة صغيرة قد نمت أثناء الليل. وإن كانت جالسة لكنها تفتقر إلى الثبات، فرأسها منحنٍ، وساقاها ملتفتان، وجذعها معوج؛ فجأة، كانت تتلألأ، بالرغم من كل تلك العيوب التي تخلق غلافاً لوجهها النبيل والمرهف والذكي؛ كانت مقاومة الثقل تجعل عنقها النحيف وحمله المرن لرأسها بمثابة معجزة. ظن ڤيكتور نفسه أمام إلهة يونانية تركت قسوة المرمر كي تجرب المغامرة البشرية.

ابتسم لها. أجابت على الفور، ثم بتردد، فتشت في حقيبتها، فأخرجت منها مفكرة ومناديل وزجاجات صغيرة للقطرات وأصابع أحمر شفاه ومحارم ورقية قبل أن تمسك ما كانت تبحث عنه، وهو زوج نظارات وضعتها على أنفها. حينذاك لاحظت ڤيكتور الذي ابتسم لها من جديد وأدركت أنها لا تعرفه؛ مع ذلك أرسلت إليه إشارة ودية.

تذكر ڤيكتور الليلة التي عاشها. « لا تعيد الكرة!».

فكر في رحيله القريب. « وليس معها! تبدو فتاة محترمة».

فجأة، رمى ورقة نقدية على الطاولة وغادر سطح المقهى، وهو يشير بحركة وداع من يده إلى الفتاة الخرقاء.

رجع إلى ساحة آريزو ودق جرس باب خاله.

صرخت جوزفين وهي ترتمي بين ذراعيه:

ــ عزيزي ڤيكتور.

قبّل زوجة خاله هذه التي يعشقها، بكل رضى. كان يتردد عليها منذ ولادته وقد اعتبرها دائماً رفيقة له لا قريبة فقط. وقد حُرِمت من سلوك الأمومة، فغالباً ما كانت تتصرف بطريقة أكثر طفولة منه، فتظهر له حباً عميقاً، من دون تأثر ولا خلل. فكان يجد الحياة بالقرب منها أقرب إلى الخفة.

ــ ينتظرك خالك في مكتبه.

ما كادت تلفظ تلك الجملة حتى انفجرت بالضحك.

ـ كم أحب أن أقول «خالك» وأنا أتحدث عن باتيست. يخيل إليّ أنني أغيّر زوجي وأنا رفيقة عجوز كهل! إن الأمر غرائبي.

ـ كيف حالك، جوزفين؟

ـ سؤال جيد. أشكرك لطرحه عليَّ. ويمكنني أن أجيبك بعد عدة أيام.

ـ هل ثمة مشاكل؟

ـ سأحدثك عنها حين تتوضح لي رؤيتها. طبطبت على خده:

ـ وحين تبدو أقل حزناً، وأقل انشغالاً بذاتك.

بناءً عليه، صحبته عند باتيست واختفت في آخر الشقة وهي تغني.

ضم باتيست ڤيكتور إلى صدره.

أثناء هذا العناق، خشي ڤيكتور ألَّا يعود مالكاً لشجاعة الرحيل. ألم يكن باتيست الشخص الوحيد على الأرض الذي يُدلل ڤيكتور؟ لماذا يبتعد عنه؟ لماذا يُخيب آماله ويقلقه؟

جلسا وتبادلا بعض المجاملات، ثم أخرج ڤيكتور من قميصه بطاقة بريدية.

ـ انظر، كتب لي والدي. إنه في أفريقية الجنوبية، الآن.

اكتأب وجه باتيست قائلاً:

ـ آه، لم يعد في أوستراليا؟

ـ يدعي أنه لم يعد ثمة مستقبل في أوستراليا، وأن في أفريقية الجنوبية تتم كل الأمور الجيدة.

ـ كنتُ قد سمعت سابقاً هذا الخطاب. لم يلح باتيست. وكذلك ڤيكتور.

حين توفيت أمه ـ أخت باتيست ـ لم يكن عمر ڤيكتور إلَّا سبع سنوات. لم يعرف أباه الذي ترك أمه قبل ولادته. لكن والده رفض أن يربي باتيست وجوزفين ڤيكتور وطالب بأبوته وأخذه ڤيكتور معه وشرع يشاركه بمغامراته الرائعة التي تكشفت عن شقاء بحت. كم مرة وصف لابنه كيف يجني ثروة لأنه يدعي أنه يستشعر ذلك؟ إلَّا أن الواقع كان يحرص على عدم إطاعة أحلامه وكان يعيش بالتحايل. حسب هذا الأب نفسه كجوَّاب آفاق حر، جسور، مقدام؛ في الواقع لم يكن إلَّا مخفقاً يهرب من أماكن إخفاقاته.

استوعب ڤيكتور بسرعة أنه يعيش بالقرب من راشد غير ناضج. كما أدرك أنه حين يكون والده في موقف حرج، يصل شيك خفي من باتيست لينقذهما من الرمي في الشارع.

طلب ڤيكتور، حين بلغ الخامسة عشرة، أن يقيم في مدرسة داخلية. سُرَّ أبوه

بالتخلص من نظرة تدينه، فقبل وهو ينتقد مع ذلك اختياره، ثم عاود التطواف بأحلامه في الثروة في البلاد البعيدة، في تايلند حيث حاول أن يؤسس مقراً لتربية الدجاج، في اليونان ظنَّ نفسه وكيل عقارات، في جزيرة مدغشقر حيث نظّم رحلات في الأدغال، في جزر الريونيون حيث عاش بصعوبة يعمل في استثمار الشواطئ، في الباتاغوني حيث بحث عن الذهب. أخيراً في أستراليا حيث أراد تصدير شرحات القَنْغَر.

أخذ ڤيكتور البطاقة البريدية وهزَّها.

ـ لا تزن حياته أكثر من وزن بطاقة بريدية.

انحنى باتيست إلى الأمام قائلاً:

ـ لماذا تريد الرحيل؟

احتفظ ڤيكتور بالصمت.

ترك باتيست الصمت يطول، إلى أن قطعه ڤيكتور:

ـ أرجوك، باتيست، كف عن طلب إيضاحات مني.

ـ عليك ألَّا تعطي الإيضاحات لي، ولكن أن يكون لك إيضاحات أمام نفسك.

قطب ڤيكتور.

تابع باتيست، بهدوء:

ـ أريد أن أكون واثقاً من أنك لا تكذب على ذاتك.

تلعثم ڤيكتور، وقد تأثر فجأة:

ـ وأنا أيضاً.

ـ وأنا أيضاً ماذا؟ أنت تهرب!

ـ كلَّا.

ـ تهرب من مشكلاتك.

ردد ڤيكتور بصوت أشد انخفاضاً:

ـ كلَّا.

ـ أنت تهرب شأن أبيك.

انتصب ڤيكتور غاضباً. يجب ألَّا يُقَارن مطلقاً بهذا الأبله. بتاتاً.

قام بعدة خطوات حول الغرفة كي يطرد غضبه، ثم عاد، شاحباً، نحو خاله.

ـ باتيست، أنت تعرف ذلك، أنت تعرف جيداً ما يجعل حياتي صعبة.

ــ أجل، أعرف ذلك. لماذا لا تستعين باختصاصي بعلم النفس؟

ــ إنني أرى أحدهم. في حالتي، إنني مضطر.

ــ وماذا؟

ــ أقول له إن كل شيء على ما يرام.

ــ لماذا؟

ــ لأنه لا أحد يستطيع أن يفهمني.

ــ أتتوصل، أنت، إلى أن تفهم ذاتك؟

انبثقت الدموع من عيني ڤيكتور.

ــ اللعنة، إنك بالغ الذكاء، لك دائماً الكلمة الأخيرة.

ــ إنني لا أخشى الكلمات.

حينئذٍ فتح باتيست ذراعيه وأسرع ڤيكتور يرتمي على صدره ليبكي.

حين استعاد زمام نفسه، جلس وهو يمخط.

ــ وأنت، باتيست، كيف حالك؟ حدثني عن نفسك.

ــ كلَّا، لن نُغيِّر الموضوع، لا ينطلي مكرك عليَّ. ضحك ڤيكتور بألم.

تابع باتيست كلامه:

ــ تريد أن تترك بروكسل، كما تركت في السابق باريس ثم مدينة «ليل». علماً بأن هناك عشرين جامعة لدراسة الحقوق، فإنني مستعد أن أزور كل الأبنية الجامعية خلال العشرين سنة القادمة. بالإضافة إلى ذلك، بما أنك موهوب في مجال اللغات، فإنني أخشى أن يأخذنا ترحالك قريباً إلى إنكلترة أو إلى الولايات المتحدة، وهذا فيحد ذاته يعجبني لكنه يغير توضع المشكلة. عزيزي ڤيكتور، ستعود إذاً إلى بيتك، وتفكر ماذا يدفعك للرحيل، وتحدد أن ما يدفعك للرحيل من هنا، لن يدفعك للرحيل أيضاً في توقفك القادم. اتفقنا؟

تمتم ڤيكتور:

ــ أحبك، باتيست.

ــ آه، أخيراً! هذه أول كلمة ذكية، ذات معنى أسمعها في بعد الظهر هذا.

شهر باتيست المزاح كي يُخفي الانفعال الذي كان يخنقه. لم يكن له ولد، ويشعر بأنه هش بسبب جوزفين التي وقعت تواً في الحب خارج حياتها الزوجية. تلقى تصريح ڤيكتور بحبه شأن خنجر في قلبه.

تبادل الرجلان النظرات. كان يكفيهما أن يكونا هنا، كل واحد منهما بالقرب

من الآخر، وأن يعرفا أنهما يكنان مشاعر بالغة القوة، ثابتة وأكيدة. رغب باتيست أن يقول «أنت ابني»، وڤيكتور «أود أن تكون أباً لي»؛ لكن الكلمات قد انحبست. بين هذين الخجولين، بقي الحب صامتاً.

خرج ڤيكتور، بقلب أكثر اطمئناناً وأراد أن يمشي من جديد. ساعدته خطواته الواسعة والممتدة على تخفيف توتره. قادته ساقاه إلى ساحة «بروغمان». راحت عيناه فوراً تبحثان عن العصفور الجريح في المقهى.

كانت المرأة الخرقاء هناك، منهمكة في شرب عصير من الليمون والنعناع. لم يكتشف طاولة شاغرة، فاقترب ومن دون أن يتردد، انحنى نحوها.

ــ هل يمكنني أن أجالسك؟

ــ أوه...

ــ لا يوجد أماكن أخرى. مع ذلك ليس هذا هو سبب طلبي.

غمز بعينه. أجابت بمط شفتيها بحرارة، وبيدها، أشارت إليه بالكرسي الشاغر، مسببة وقوع علبة السكر.

ــ أدعى ڤيكتور.

ــ أدعى أوكسانا.

مرت أم أمامهما، تحمل رضيعها بين ذراعيها. تأملتها أوكسانا بحزن لم يخفَ على ڤيكتور.

ــ يبدو أنك مهمومة.

ــ حين أرى طفلاً، دائماً...

ــ لماذا؟

بدت منها حركة متهربة.

مضت دقيقة. تفحصت أوكسانا، بارتباك، نظرة ڤيكتور:

ــ وأنتَ؟

ــ حين أرى طفلاً، أرغب أنا أيضاً في البكاء.

ــ أصحيح هذا؟

ــ لو كنتُ وحيداً، فأنا قادر على ذلك.

سعت أوكسانا أن تقرأ وجهه، فشعرت بأنه يقول الحقيقة. وقد تأثرا، أشاح كل منهما بنظره. أمسك ڤيكتور هاتفه بتحفظ وكتب إلى خاله: «سأبقى».

١٢

في هذا المساء من يوم الأحد، حين عاد هيبوليت إلى شقته، بدا كأنه يسير على الغيوم، كان هوائياً، خفيفاً وعيناه شبه مغمضتين وتقاطيع وجهه منشرحة وعليها سمات الطمأنينة المنيرة.

ــ أبي!

ارتمت إيزيس بين ذراعيه. فحملها ليدور بها في البهو الضيق المجاور.

ــ أبي، كم رائحتك طيبة!

ابتسم، كم كانت على حق: فإما يفوح منه عطر بتريسيا وإما تعبق منه السعادة ــ ألم يكن ذلك شيئاً واحداً؟ تقدم خطوتين واصطدم بطاولة الغرفة المليئة، فهي معاً مطبخ وصالون وغرفة طعام ومهجع، حيث تجري حياته. تقع غرفة الحمَّام منزوية وحدها خلف الباب، وكذلك غرفة المهملات ــ كانت قديماً غرفة مؤونة تحوي كوة ــ رتبها هيبوليت كغرفة لإيزيس.

ــ كيف جرت عطلة نهاية الأسبوع معكما، أنتما الاثنان؟

كان هيبوليت يوجه حديثه إلى جيرمان وإيزيس اللذين سكنا معاً بينما كان هيبوليت يزور بتريسيا.

اقترب جيرمان بصدار على خصره، يحمل وعاءً يُدخن يمسكه بيده.

ــ أنهت إيزيس وظائفها بما فيها الرياضيات، تأكدتُ من ذلك. حوالى الظهر، ذهبنا عند رفيقتها «بيتي» لرؤية فيلم «بامبي» بالرسوم المتحركة. قرأتْ في فترة بعد الظهر بينما كنتُ أجهز الطعام.

انحنى هيبوليت على إيزيس:

ــ هل كان فيلم بامبي جميلاً؟

ــ أجل، بكى جيرمان كثيراً.

انزعج جيرمان فحرك بصخب مخفقة في الحساء الذي أنهى إعداده.

انتصبت إيزيس على رؤوس رجليها وهمست في أذن والدها:

ـ بامبي، الشادن، يفقد أمه في بداية الفيلم. أعتقد أن بعد موتها لم يعد جيرمان ينظر إلى شيء.

تعاطف هيبوليت معها ثم اختفى في غرفة الحمّام ليغير ملابسه، وهو يحرص على الاعتناء بطقمه الوحيد.

صاح جيرمان قائلاً:

ـ انظر، لقد غسلت لك ملابسك وطويتها. أشار القزم إلى كومة ملابس على كرسي.

ـ شكراً، جيرمان. ما كان عليك أن تفعل ذلك...

ـ حسناً، هذا لا يزعجني. لم يكن عندي عمل آخر أقوم به.

حدَّقت إيزيس إلى جيرمان، مرتبكة، وهي تتساءل كيف يمكن ألَّا يكون للمرء شيء يقوم به؛ أما هي، فلديها دائماً شيء تعمله، تفكر، ترسم، تغني، تقرأ.

حقاً، إن تصرف الراشدين لا تدركه. على كل حال، قبل العشاء، يجب أن تصل إلى نهاية روايتها.

سألت:

ـ أتنويان تجاذب أطراف الحديث؟

تعجب هيبوليت وهو يخرج من غرفة الحمام قائلاً:

ـ عفواً؟

ـ أتصور أنكما تريدان أن تتناقشا الآن. أليس كذلك، جيرمان؟

ـ أوه... أجل... لماذا؟

ـ أطرح عليكما السؤال لأعرف إن كنتُ سأتابع قراءتي في غرفتي أم هنا. في رأيي، من الحكمة أن أنسحب.

من دون أن تنتظر، أمسكت مجلدها ودارت حول الطاولة.

ارتبك هيبوليت وذُهل كيف تستطيع طفلة في العاشرة من عمرها قول «من الحكمة أن أنسحب»، فأمسك ذراعها حين مرَّت أمامه.

ـ ماذا تقرئين، عزيزتي؟

ـ «أليس في بلاد العجائب».

بالطبع، كان يجهل تلك الحكاية ـ منذ طفولته، لم يفكر قط أنه من الممكن التمتع بقراءة كتاب. ألح، بلطف قائلاً:

ـ ظريف، بلد العجائب؟

ــ إنه كريه! هناك يركض أرنب في كل الاتجاهات وقط ماكر وصانع قبعات مجنون، وبخاصة ملكة شريرة مع جيش من الجنود البلهاء. بلد العجائب، دعك من ذلك! إنه، بالأحرى، بلد الكوابيس.

ــ إذاً، أنت لا تحبينه؟

ــ أعشقه.

أرسلت قبلة بيدها إلى أبيها ودفعت المصراع، وهي متشوقة إلى لقاء وحوشها.

ارتمى هيبوليت على الأريكة التي هي سرير، وهو مطمئن.

تأمله جيرمان قائلاً:

ــ أتصور أنك إن لم ترجع حتى الآن، فهذا يعني...

ــ أجل.

تبادل الرجلان النظرات.

كان جيرمان، وهو متأثر، مغتبطاً أن صديقه قد نجح. بدافع من مشاركته شعوره، كان يتلقى موجات الطمأنينة التي يبثها البستاني، بجسده المشبع وروحه المنتشية.

أما بالنسبة إلى هيبوليت، فكان بوده أن يصف لجيرمان ماذا حدث، لكن مفرداته لم تكن تسعفه؛ فالكلمات البائسة التي يعرفها تجعل قصة ملحمته العاطفية ركيكة ومبتذلة. قام إذاً بحركة ليوحي بأشكال بتريسيا الأنثوية. داعبت يداه شبحاً. فتنهد من الغبطة والسعادة.

لو كان مزوداً بكلمات جميلة، لروى أنه منذ مساء أمس، كان يرتعش لكل ثانية، وكيف أشبع بالانفعالات ــ من قلق وتجربة وخشية وتلذذ ونشوة وحنين. أجل، شرب تلك اللحظات الغنية والريانة والمتناقضة والعميقة. لقد سحرته بتريسيا. فما استشفه منها من خلال جسمها، أثبت له تلك الساعات الحديثة: لم تكن امرأة ما، لكنها كانت المرأة، التي نأتي منها والتي إليها نعود، فهي رحم الحب، وأم وعاشقة معاً، نقطة الانطلاق ونقطة الوصول.

منذ ثلاث سنوات، ظهرت له بتريسيا في ساحة آريزو، بأبهة وهي ترتدي ثوباً يُستشف من أقمشته المتهدلة حوضها وبطنها وصدرها؛ دُهش أمام كل تلك العظمة ولم يجرؤ على التحدث إليها، وهو ضحية عقدة رجولة وليس عقدة اجتماعية: بالقرب من تلك السنديانة المهيبة، تحول هو إلى غصن كرمة، يابس، ذي عقد، مضفور بالعظام والأوتار والعضلات.

ففي نظر هيبوليت يُمثل الوزن صفة نسائية. يجب أن تظهر الحبيبة عريضة،

بطيئة، لبنية اللون، ضخمة. حين أشار إليه رفيق أنه يحب « النساء البدينات»، اغتاظ هيبوليت: فكلمة «بدينة» تشير إلى عيب؛ وهيبوليت يحب الكمال والتمام والتناغم؛ فهذا التعبير الشنيع «بدينة» يجلد آلهات الأنوثة ويشير إلى أنموذج مرجعي غبي ولا معنى له وهو «النحيلة».

صنفان من النساء يوجدان معاً: الحقيقيات والزائفات. فالحقيقيات يُقدمن جسماً مبتهجاً. أما الزائفات فيسعين إلى الأنوثة لكن لم يعد لهن بطون، ولا أفخاذ ولا أرداف ولا أثداء. إنهن يعانين في لباسهن: فعليهن تتهدل الأقمشة في الفراغ، وليس للملابس مكان للمخططات الواسعة والنبيلة، لأن ثيابهن تلتزم اللون الواحد أو الرسوم الضيقة. على كل حال، تنتهي الزائفات نهاية سيئة: فيظهر تقدم العمر عليهن ويتجعد جلدهن ويقل ضحكهن وينطوين على أنفسهن يلامسن الجدار شأن جرذان هزيلة جداً.

فإذا كان هيبوليت يتردد على «ماتونجيه» حي بروكسل الأسود، فلقد كان ينمو ويترعرع في عالم مدهش: كانت النساء الأفريقيات، وقد التففن بقمصانهن الفضفاضة وهن مكتنزات، مزهوات، واثقات من أنفسهن، فرحات، فيعكسن صورة التفوق الأنثوي. فإذا نظر إلى أزواجهن، ذوي أجسام أعظم رياضية وأشد عصبية وأكثر تصنعاً، يستخلص أن الرجل يبقى مثاراً للسخرية بجانب المرأة؛ بالطبع، يستطيع أن يظهر قوياً أو سريعاً، ولكن أجمل؟ كلّا. أكثر مثاراً للطمأنينة؟ مطلقاً. ففي نظره، كانت بتريسيا ملكة أفريقية تائهة في جلد أبيض في ساحة آريزو.

إذا كان هيبوليت يستنكر النحافة الأنثوية، فإنه كان يراقب وزنه لأن الكيلوات الزائدة لا توافق الرجل: فهي تضيف الشحم من دون أن تحمل الأبهة أو السخاء. البرهان؟

فبدلاً من أن يتوزَع الفائض على كل الجسم، فإن الذكر يُخزِّنه في بطنه فيشبه حشرة مصابة بعسر الهضم، ولا يتوصل إلّا أن يَقبح، وأن يُثقل حركاته وأن تتقطع أنفاسه حين يتنقل. بينما تنتفخ النساء من كل مكان، شأن الكعكات في الفرن.

إذاً، عجز عن أن يروي لجيرمان انبهاره أمام بتريسيا، كيف ضاجعها، ببطء، بعذوبة، بحنان. قدّم الليل لهما استمرار المشاعر الحسية السابقة والانتباه والاحترام والرقة واللطف. بالنسبة إليه، لا تشكل العلاقة الجنسية هدفاً، لكنها تثبت اللقاء. يجب أن يكون تعاطي الغرام عذباً، فيمتد التنهد حتى يصل إلى صرخة السعادة والنشوة المتدرجة. كان يكره أن يأخذ ويغزو مفضلاً الذوبان والانزلاق. حين تنتظر منه امرأة حمية تفاخرية وذكورية بل العنف، يبتعد ـ ليس عن انعدام الشهوة والحزم أو التحمل؛ كان يرفض بالضبط هذا اللهو. ذات يوم، ألم تغوه فوستينا، وهي واحدة من سكان ساحة آريزو بدعوته لتناول المرطبات في بيتها؟ استشف على

الفور إلى أي جنس تنتمي، ذاك الذي يدفع الذكر إلى أن يتصرف كحيوان مفترس، تلك التي لا تضاجع إلّا بدافع الإثارة، تلك التي تنتظر أن تُجلد وأن تُحرث؛ فلكي يُقاوم مغازلتها العبثية، أثار فيها القرف وهو منهمك يلم براز الكلاب والطيور. كم فرحه عظيم لأنه صان نفسه لبتريسيا! حين تسلق تلك الملكة الكريمة، شعر في آن واحد بأنه رجل وطفل، قادر وهش. هل عاودته ذكرى خاطفة لأمه التي فقدها وهو في الخامسة من عمره؟ هل شعر بإحساس قديم، وهو طفل صغير فوق جسم كبير من اللحم؟ كان على يقين من أنه وجد مكانه. قدمت له العاشقة مكان حماية عليه بدوره أن يحميه، إنه معبد سلام وحنان.

تمتم جيرمان قائلاً:

ــ إنك أكثر من عاشق.

ــ ربما...

هزَّ القزم رأسه، وقد اقتنع أنه قد قام بتشخيص جيد.

بحث هيبوليت في محفوظاته عن الموسيقى التي تلائم ذاك الوقت، فوجد أغاني «بيللي هوليداي» واستسلم إلى ذاك الصوت الحالم والجريح، الذي تعادل نضارته واخضراره مزماراً.

حين أعلن جيرمان أن العشاء جاهز، ظهرت إيزيس من جديد.

طلبت منه وهي تجلس أمام صحنها قائلة:

ــ ستقدمها لي أليس كذلك؟

ــ من؟

ــ بتريسيا.

بدا لأول وهلة لهيبوليت شأن معجزة أن تلفظ الطفلة هذا الاسم، ثم سبر زميله فاستشف أن ذاك لم يمسك لسانه قط. رفع جيرمان كتفيه ليبرر نفسه.

ألحت إيزيس قائلة:

ــ إذاً، ستقدمها لي؟

عض هيبوليت شفتيه. لم يفكر في ذلك مطلقاً؛ بالنسبة إليه، بتريسيا وإيزيس ينتميان إلى عالمين مغايرين.

ــ هل بك خوف؟

انحنى نحو ابنته متسائلاً:

ــ خوف؟

ــ خوف من ألّا تعجبني.

هزَّ رأسه، بقلق:

ــ بما أنك تقولين ذلك الآن: أجل!

ــ لا تقلق. سأكون رحيمة.

دُهش هيبوليت، على عادته: كيف تستطيع تلك الصغيرة المدّعية والتي في العاشرة من عمرها أن تقول «سأكون رحيمة»؟ حتى هو، في الأربعين من عمره، استغرق وقتاً ليجد التعبير الدقيق؛ تلك الطفلة تتجاوزه بأشواط.

تابعت قائلة:

ــ ماذا ستفعل إذا لم تُعجبني؟

فكر هيبوليت ثم أجاب بصدق:

ــ إنني... إنني سأراها بدونك.

لوت إيزيس فمها قائلة:

ــ يجب إذاً أن تعجبني.

وافق هيبوليت وجرمان.

ختمت إيزيس:

ــ أعرف ما عليَّ فعله.

طأطأ هيبوليت رقبته. غالباً ما كان يشعر بأن الأدوار معكوسة في تلك الشقة، فإيزيس تصبح الأب وهو الطفل.

أراد جيرمان كسر الصمت قائلاً:-

ــ وأنت، إيزيس؟ لم تعودي تحدثيننا عن سيزار، رفيقك الصغير؟

حددت إيزيس بصوت قاطع قائلة:

ــ لم يعد رفيقي الصغير.

ــ لماذا؟

ــ لقد تركته.

أمام جديتها، امتنع هيبوليت وجيرمان عن الانفجار بالضحك، وقد استشفا أنهما سيجرحانها.

ــ تركته لأنني أضجر معه. فهو لا يهتم بشيء، لا يقرأ شيئاً، لا يتعلم قصائد ولا أغاني، بمجمل القول، ليس لديه أية مادة للحديث.

فكر هيبوليت: « سيأتي يوم تتصرف هكذا معي، ستتركني لأنني أكون قد خيبتُ آمالها؛ سيحزنني ذلك كثيراً لكنني سأكون مرغماً بأن أعطيها الحق».

انتهى العشاء بفطيرة من المشمش صنعها جيرمان. بالرغم من أنه يسكن على بعد مئة مترٍ، فلقد اعتاد زيارة الأب والبنت من دون أن يسألهما إذا كان حضوره يزعجهما، وهو يفرض نفسه بشكل خفي، فيطبخ محل هيبوليت ويهتم بالغسيلِ وبالكوي ويشرف على وظائف إيزيس ويرتب الشقة الصغيرة. من الآن فصاعداً، كانت الأمور تجري بين ثلاثتهم شأن أسرة حيث يلعب جيرمان دور الأم، مع هذا الفرق وهو أنه كل مساءٍ، حوالى الساعة العاشرة، يعود لينام في بيته، ثم يظهر في اليوم التالي الساعة السابعة صباحاً، يحمل خبزاً طازجاً.

ــ اليوم أحد، هيبوليت، ما رأيك في أن نذهب لنلعب «البولينغ»؟

كان جيرمان يغلي شوقاً للخروج.

أدرك هيبوليت أنه أرغم صديقه على البقاء مع طفلة خلال يومي استراحته.

بعد نصف ساعة، كان جيرمان وهيبوليت يشربان البيرة على حافة حلبات طويلة من الألواح الخشبية المطلية.

استمر هيبوليت في التعبير بلغته الجسدية عن السعادة التي يدين بها لبتريسيا. كان جيرمان يتابع، بحماسة، هذه القصة الخرساء بلا غيرة ولا انزعاج، في حين لن يعيش على الغالب قصة تساويها.

ابتدأا جولة لعب. غاب هيبوليت ليذهب إلى المراحيض.

حين رجع، وجد جيرمان تخاصمه مجموعة شبان وصلوا تواً.

قال أضخمهم:

ــ أنا، سأستعمله ككرة.

ــ سيكون رمي القزم!

ــ إنها لعبتي المفضلة.

ــ يجب ألّا نتلفه بسرعة كبيرة. يجب أن يتسنى للجميع اللعب به.

ــ لو يدعو أسرته؟ أليس لك امرأة، أيها القزم، لنلهو بها؟ إخوة، أخوات، أولاد؟ كلّا، أنت تفهم، نرغب في أن نبدأ مباراة طويلة!

اقترب هيبوليت. حين رآه جيرمان بدت منه إشارة نفي ترجوه ألّا يزج نفسه.

فجأة غلت دماء هيبوليت: قفز وسط المجموعة قائلاً:

ــ من هو الأكثر غباءً، هنا، كي أكسر فمه؟

أمسك برقبة من يُشهر مظاهر زعيم قائلاً:

ــ إنه أنت؟

من دون انتظار الجواب، لطمه في رأسه. تراجع العملاق مترنحاً، دائخاً.

سأل هيبوليت وهو يمسك واحداً آخر:

ـ من التالي؟
ـ كنا نمزح.
ـ آه حسنا؟ هل هذا يضحكك أنت، جيرمان؟
رمت الثاني ضربة على الأرض. أوقف الثالث الذي حاول أن يبرر ذاته:
ـ توقف، من المألوف المزاح عن الأقزام، لن تبالغ في تضخيم الأمور.
ـ قزم؟ أين يوجد هذا القزم؟ لا أرى قزماً هنا، لا أرى إلّا صديقي جيرمان.
وضرب الشاب. قبل أن يلتفت نحو الآخرين، الصبية الذين هربوا. فرك هيبوليت يديه ثم نادى جيرمان:
ـ هيا إذاً، سنلعب؟
ـ سنلعب!
ابتهج جيرمان. اعتاد منذ طفولته الكلمات العدائية، فلم يكن يعيرها بالغ الاهتمام، وهو يعرف أن الجبناء وحدهم يعتدون على قزم؛ في المقابل، أن يدافع صديقه عنه بهذا الغضب قد ملأه غبطة وسروراً. ليس ما كان يؤثره هو الثأر، لكنها صداقة هيبوليت.
لعبا مباراة طويلة وغنية بنتائج متقاربة جداً، ربحها جرمان في الشوط الأخير، ثم جلسا في المقهى ليشربا البيرة ثانية.
أقر جيرمان قائلاً:
ـ بي رغبة.
ـ رغبة هنا؟ هذا المساء؟
ـ أجل. هل ترافقني؟
تركا البولينغ (أي لعبة بالكرات الخشبية) وسارا حتى محطة الشمال. هناك، انحرفا وسلكا شوارع تغص بالمشاة بالرغم من الساعة المتأخرة.
كانوا رجالاً، ليسوا غير رجال يتسكعون أمام الواجهات الحمراء حيث توجد مومسات يعرضن أنفسهن بثياب داخلية جريئة. فيتصرفن وهنَّ يتجاهلنَ أن الزجاج يُظهرهن إلى الفضوليين، يسرحن شعورهن ويتزينَّ ويصقلن أفخاذهن ويصغين إلى المذياع ويقمن بخطوة رقص.
قال جيرمان بصوت طفل يذهب إلى حديقة الملاهي:
ـ سنرى إن كانت مفضلتي هنا.
وصلا إلى منتصف الطريق المعبد.
ضرب جيرمان الأرض بقدميه وهو يشير إلى امرأة رائعة من جزر الأنتيل، بعينين واسعتين تلبس ثياباً داخلية قطنية وردية اللون.
ـ إنها حرة!
ـ إنني أنتظرك.

أسرع جيرمان أمام الواجهة، وأشار إلى المرأة من جزر الأنتيل التي ابتسمت له ودعته إلى الدخول. أغلقت الباب ثم أسدلت الستارة.

وفق عادته، انتظر هيبوليت جيرمان في مقهى مجاور. أما هو فلم يدخل عند محترفة مطلقاً، ولم يكن ينوي القيام بذلك لكنه لا يحمل أي حكم على هؤلاء الذين يلجأون إلى المومسات. على العكس، يرى أن العالم قد صُنع بشكل جيد: لو كانت تلك النساء لا يبعن أجسادهن، فكيف يُرضي جيرمان رغباته؟ كان صديقه بالغ الكره لذاته، فلولا إمكانية دفع ثمن خدمات امرأة تقبله، لكان عاش عقدته بألم يتزايد وقد يصبح لا يُطاق.

وقد جلس هيبوليت خلف طاولة من المرمر، وأخذ بيرة أخرى، راح ينظر بود إلى نشاط الزبائن الكثيف والمستمر. كان يحاول أن يستشف ما أتى بهم إلى هنا: إذا كان شكل بعضهم يحمل الجواب ــ مسنون، بشعون، معاقون ــ فبالنسبة إلى الآخرين، كان عليه أن يُشغل خياله. هل هم أرامل؟ عازبون على عجلة من أمرهم؟ أزواج تلبكهم نساؤهم اللواتي يكرهن الجنس؟ أفراد يعشقون القيام بأشياء تشمئز منها نساؤهم؟

كان يتفحص الزبائن حين فتحت فتاة ستارتها، بالضبط أمام المقهى: زبونها، ڤيكتور، شاب ساحة آريزو الجميل غادر كشك المومس الصغير.

لم يصدق هيبوليت عينيه. للحظة، كاد ينادي الشاب. امتنع متخيلاً حرجه.

قطع ڤيكتور ممر المشاة، ودخل المقهى وطلب مشروباً.

صرخ هو أيضاً وقد تفاجأ:

ــ هيبوليت؟

تردد الشاب ثم، وقد رفع كتفيه، جاء يجلس أمام البستاني.

قال له:

ــ لا أصدق...

مكتبة
t.me/t_pdf

أجاب هيبوليت:

ــ ولا أنا.

مرت فترة من الزمن. احنى ڤيكتور رأسه على الطرف، قلقاً.

ــ هل للسبب ذاته؟

ــ عمَ تتحدث؟

ــ هل أتيتَ إلى هنا للسبب عينه الذي أتيتُ أنا من أجله؟ لتجنب أن...

ــ ماذا؟

ـ أخيراً، لأتأكد من أنك لا...

لم يدرك عمَّ يتحدث ڤيكتور، فكر هيبوليت بإعطائه الجواب الحسن:

ـ إنني أرافق صديقي، جيرمان.

انطوى ڤيكتور على نفسه وأدرك هيبوليت بعد فوات الأوان أن الشاب لن يُفضي له بسر وجوده هنا.

١٣

ـ أجل، إنه قصر صغير جميل جداً، أقرب إلى الذوق الفرنسي.

دفعت أيف الأبواب المزدوجة ومرت من صالون إلى صالون، تتجنب صرير الأرض المصنوعة من السنديان، وهي تشيد بالتفاصيل ـ مسكات الأبواب، نتوءات الزينة ـ، تُداعب براقع المدفئات الجدارية المصنوعة من المرمر وتتظاهر بلا مبالاة.

كانت روز بيدرمان تتبعها، لابسة طقم «شانيل» فبدا كأنه قُص على قياسها. كانت الفسحة والنور يسحرانها.

ـ سأسجل هذا العنوان على قائمتي. ستُقَدر صديقتي، حتماً، هذا المسكن، بعد عشر سنوات في لندن. أيمكنني الاتصال بك خلال مرورها القريب؟

ـ طبعاً. آمل ألَّا تتأخر كثيراً لأن هذا النوع من الملك، وإن كان باهظ الثمن، يجد بسرعة مشترياً.

ـ حدثتني عن وصولها في خمسة عشر يوماً.

ـ على كل حال، إذا ظهر زبون مهتم، أتصل بك فوراً.

ابتسمت روز بيدرمان شاكرة.

إذا كانت أيف قد تأثرت من اتصال السيدة زاكاري بيدرمان، فإن لقاءها كان له تأثير أكبر: كانت الزوجة تتمتع بثقة في ذاتها، شأن الناس الذين لم ينقصهم شيء في حياتهم مطلقاً، فهم لطيفون بتربيتهم أكثر من حساباتهم، يلبسون من عند مصممي أزياء منذ الطفولة. إن أيف التي دفعت بجسمها وبمشاعرها كل درجة صعدتها في المجتمع، راحت تراقب هذه البرجوازية الشهيرة. بدت روز كجدة وذات جاذبية جنسية معاً؛ كان طقمها المصنوع من قماش التويد المخطط، بقَصَّة كلاسيكية يسبغ عليها مظهر السيدة رئيسة الجمعيات الخيرية، لكن في الوقت نفسه، كانت تكويناتها الرشيقة لا تَظهر إلَّا أكثر جاذبية، وحتى شهوانية، في هذا الغلاف. في لحظة، حين مرَّا أمام مرآة بأرجل، قارنت أيف شكليهما وما اكتشفته أحزنها: فروز السمينة بدت جذابة ومثيرة معاً، غارقة بالغموض الأنثوي، أما هي، فجاذبيتها الجنسية

عدائية، وتبدو أقرب إلى العاهرة. لامت نفسها لإظهارها من ثوبها عرياً غير لائق، وقد ارتفعت على كعبين عاليين ولبست جزمتين تشدان فخذيها بدلاً من جزمتين حتى ركبتيها؛ تساءلت، لثانية، إن كان من الحكمة أن تكون البشرة مدبوغة والشعر أشقر فاتحاً بلاتينيّ اللون. عند روز، لم يكن يُرى أي جهد لإثارة الإعجاب، وهذا التستر ذاته جعلها رائعة؛ فبشرتها تلمع بشكل طبيعي، وكذلك لون شعرها. أما أناقتها فلا يحيد الانتباه عنها. في تنهد، شعرت أيف أنها أدركت ذلك بعد فوات الأوان.

سألت روز قائلة:

ــ هل تعملين منذ زمن طويل في قطاع العقارات؟

ــ منذ وصولي إلى بروكسل، مضى ستة أعوام.

فعلا، منذ ستة أعوام، حين استقر فيليپ ــ دلوعها ــ مع زوجته وأولاده في بروكسل، بعد ثلاث سنوات في ليون، حملها مع أمتعته واستأجر لها شقة ووكالة عقارات.

إنني أهتم بقطاعي «أوكسل» و«إكسيل». البيوت الفخمة... أعتقد أنني مسحت كل الأبنية التي يتألف منها شارع «موليير» حتى ساحتنا العزيزة آريزو.

ــ آه نعم؟ إذاً لا بد أنك تعرفين أصدقائي، آل دانترومون؟

أجابت أيف بسرعة:

ــ طبعاً.

لم تترد في التبجح، رغبة منها في التألق، بالرغم من أن فيليب دانترومون ــ دلوعها ــ قد حظَّر عليها البوح بأدنى علاقة معه.

تمتمت روز كأنها تغرد:

ــ أوه، هذا العزيز فيليب دانترومون، يا له من غاوٍ أليس كذلك؟ اكتفت أيف، محرجة، بالموافقة وهي تُرف رموشها.

ــ لا أود أن أكون محل أوديل، زوجته. فعليها أن تغفر له كثيراً...

قالت أيف وهي تبلع ريقها:

ــ آه صحيح؟

ــ لا يقاوم فيليب حين يرى امرأة جميلة. ينتقل إلى الهجوم. لا تقولي لي إنه لم يغازلك؟

ــ بلى، طبعاً... لكنني... لم أكن حرة، إذاً، انتهى الأمر بسرعة.

ــ هذا أفضل لك... أخيراً، تكمن استقامته في أنه لا يختار نساءً يشبهن

زوجته. قيل لي إن الأخيرة، فاطمة، كانت امرأة عربية رائعة الجمال. إنها تونسية... حين أفكر أنني أعرف ذلك بينما أوديل تجهله، أشعر بالحرج. أليس كذلك؟

كادت أيڤ تصرخ: «فاطمة؟ أية فاطمة؟» لكنها امتنعت عن ذلك، وهي تحرص على أن تبقى مالكة زمام نفسها. وهي ترتجف، رافقت روز إلى الباب، وتبادلت معها بعض المجاملات واختصرت الوداع مدعية أن عليها أن تصعد ثانية إلى البيت لتتحقق من أن النوافذ مغلقة.

ابتعدت روز، مغتبطة، على الرصيف المشمس، وهي تعدها بزيارة صديقتها قريباً. نزلت أيڤ إلى المطبخ وأغلقت النوافذ، وحين صارت في مأمن، أطلقت صرخة:

ــ النذل!

ما أتت روز على قوله، كانت واثقة منه، ربما سبق أن عرفته، لكنها تلافت التفكير فيه. بالطبع، كانت قد لاحظت أن فيليب لا يأتي ليراها كل يوم؛ لاحظت، بالطبع، أنه يتجنب بعض المخازن وبعض المطاعم حيث لم يكن يحرص على التبختر جنباً إلى جنب؛ بالطبع، كان قد اختفى مرات كثيرة بطريقة سرية متذرعاً بضرورات عمله! لقد خمّن قسم من مخها أن تلك التصرفات الغريبة تعود إلى وجود امرأة، لكن وعيها امتنع عن صوغها، لأنها لم تكن تريد أن تصبح تعيسة. إلّا أن روز بيدرمان أتت على غطس أنفها في الواقع فكان نتناً! ما العمل؟

أثناء ذلك، اتصلت روز هاتفياً بصديقتها أوديل دانترومون، وهي تتنزه تحت شجرات الدلب المزهرة قائلة:

ــ ها أنا، عزيزتي، قد أتممت مهمتي: إنها تعرف أن عندها منافسة!

شكرتها أوديل دانترومون واستفادت من ذلك كي تشبع فضولها بخصوص عشيقة زوجها.

أجابت روز:

ــ أجل، إنها مثيرة جداً، « جميلة جداً» وفق ذوق السيد الغني. فهي تلبس وفق ما يهلوس به الجميع في هذه السن. المسكينة... هي بالأحرى سوقية، أجل. إنها فتاة طيبة، على ما أعتقد. لن تتحمل ما أتت على معرفته، ستثأر، وهذا أكيد. أجل بدافع كبريائها وليس بدافع حبها. في الواقع، أنت على حق، يا عزيزتي: من وقت إلى آخر، يجب القيام بترتيب منزلي يلائم المقام. فهاتان العشيقتان، أيڤ وفاطمة سيطردان فيليب وسيعود إليك...

كادت روز أن تقول«خالي الوفاض» لكنها استدركت في آخر لحظة:

ـ ... كله خجل وارتباك.

أضافت روز في أعماقها «ثم يعاود الكرة»، لكن أوديل لفظت الكلمات مكانها. أصغت روز إلى شرحها ثم وافقت قائلة:

ـ طبعاً، الوحيدة التي تنتظره، الوحيدة التي تستقبله، الوحيدة التي تكن له حباً غير مشروط، هي زوجته. أنت على صواب. أوديل. كنت سعيدة بالمشاركة في خطتك. كلّا، لا تشكريني: إنه من المسلي جداً بالنسبة إلى امرأة متزوجة أن تكشف لعشيقة أنها قد أخطأت.

يوم السبت صباحاً، قررت أيف الذهاب إلى «كنوك ـ لو ـ زوت». تحت هذا الاسم الغريب على أذن الناطقين بالفرنسية، تمتد أفخم مدينة شواطئ بلجيكية، في أعلى البلد.

إن بحر الشمال هو بحر تَعِبٌ و«كنوك ـ لو ـ زوت» هي محطة راحته. فالماء يلفظ كل فعاليته. يمتنع الموج على السابح: فيلعق الشاطئ خجلاً، مشكلاً مستنقعاً فسيحاً يرغم من يريد السباحة على أن يقطع مئات الأمتار كي يغوص بصعوبة حتى كتفيه؛ هناك لا يشجعه الموج مطلقاً، فهو يزعجه ويدفعه لأن حرارة الماء تبرِّد حركاته وموجاتها الصغيرة المالحة تصفعه. ففي نظر المتنزِه، يقع عرض البحر على مسافة، منصهراً مع الأفق البعيد، فقيراً بحضوره بقدر ما هو شحيح بالألوان؛ فالأمواج تختلط أولاً بلون الرمال السمراء الفاتحة، ثم بلون السماء الرمادي، أخيراً بلون اللازورد الذي بيضه الأفق. فبحر الشمال كسول ولو لم يكن ثمة ناقلات نفط وسفن تسير فيه، هادئة، لحسبناه لامبالياً وغير مفيد للناس.

أبحرت أيف بزورق صغير وأثارت الانتباه على الفور الانتباه. وإن كانت من أصل سويسري، فلقد فهمت بسرعة كيف تجري الأمور في الشاطئ البلجيكي: لا أحد يغوص في قسمه الوحشي والمنبسط واللامنتهي، يعرض الناس أنفسهم في فسحة ضيقة بثمن يؤمن الكراسي الطويلة والمظلات التي لا جدوى منها، وبائعي المشروبات، وهناك نوع من ساحة صغيرة أنيقة، بيضاء وزرقاء، أمام الضفة حيث تبث مكبرات الصوت موسيقى لطيفة.

راقب الرجال والنساء تلك الفاتنة التي أتقنت ظهورها، فهرع خادم ظريف ليعطيها مكاناً يليق بجمالها. وضعت نظارتين مستديرتين ضخمتين تخبئان نظرها، بدت أيف كأنها تتردد ثم، وقد بدت تطيع الخادم الذي تصرف معها كفارسها المطواع، أشار عليها بالمكان حيث تريد أن تتمدد. رتب لها الكرسي ووضع المناشف وجرف الرمل ووضع طاولتين صغيرتين لتبسط حوائجها ووعدها أن يُحضر لها كوكتيل الفواكه الذي ترغبه.

استقرت أيف إذاً بالضبط وراء أسرة دانترومون الآتية لتشغل الفيلاّ البحرية.

كان فيليب دانترومون بالطبع أول من لاحظها ــ لا شك في أنه كان يتبعها بنظره منذ ظهورها في أعلى السلم، وهو يصلي إلى السماء كي لا تقترب. كان مضطرباً، متوتر الأعصاب، تذرع بأخذ مرهم واقٍ من أشعة الشمس، فحدجها بحركة كأن لسان حاله يقول: «ماذا دهاك؟ هل أنت مجنونة؟» اكتفت أيف بخلع قميصها القصير، مظهرة ثدييها الرائعين يسترهما مربع خفيف من قماش محبوس بشريط.

كانتان، ابن الأسرة البكر، كان بسرعة أبيه في ملاحظة وصول أيف ولكن، خلافاً لرب الأسرة، انفرج وجهه عن ابتسامة. ومن دون أن يختبئ، أظهر لها فرحه برؤيتها هنا.

أما بالنسبة إلى الصبيين الأصغرين، فلم يعيراها أي اهتمام، حيث كانا مشغولين: واحد بالقراءة، والآخر ببناء قصر رملي.

أما أوديل دانترومون، فكانت تنام تحت الشمس، وقد طلت جسمها بالزيت فبدت كسمكة السردين.

حينذاك أخرجت أيف من حقيبتها سلاحها السري، الذي سيسمح لها بالحصول على كل ما تشتهي: إنه كلب.

وضعت الكلبة اليابانية الرائعة على الكرسي الطويل، تشبه ثعلباً متميزاً بعينين سوداوين وقد خُطتا بالأبيض برهافة، نحيلة على قوائمها، رشيقة ويرقى فراؤها إلى مستوى الزينة بلون أشقر وتموجات كالقشدة.

عرف فيليب أية آلة حربية قد دخلت فجأة في المشهد. فقطب حاجبيه ومدَّ ذقنه، حانقاً لعجزه عن التدخل.

علَّقت أيف عقداً نسائياً، مرصعاً بأحجار زائفة، على رقبة الأميرة اليابانية وذهبت معها إلى حافة الماء.

لم يكن لرجال الشاطئ عيونٌ تنظر إلَّا إليها.

وقد تذوقت أيف نجاحها، هنأت نفسها لأنها أقنعت صديقتها بريسيلَّا أن تتبادلا فترة عطلة نهاية الأسبوع كلبتها مقابل قطتها وشقتها. لا شيء أكثر جدوى من هذا الطُعم، فإذا أرادت امرأة أن يحادثها الرجال، تختصر ساعات بملحق كهذا.

خلال نصف ساعة، من يدعون أنهم سباحون، والذين يُفترض أنهم متنزهون، اقتربوا من الحورية بأربع قوائم. في كل مرة، كانت تستقبلهم أيف بالترحاب دون أن تدعهم يظنون أنهم يستطيعون مغازلتها؛ أفهمتهم، بحزم، بعد دقيقتين أو ثلاث أنهم لن ينالوا أكثر من تلك الدردشة القصيرة.

لم يعد يستطيع فيليب، وقد استيقظت زوجته، أن يلحق بأيف ويأمرها بالرحيل. كان مرتبكاً وهو يرى الرجال يحومون حولها، لكنه شعر بمزيج من الغيرة والزهو وهو مغتاظ لماذا كابدته عشيقته تلك المسرحية.

صعدت أيف إلى مكانها، ولعبتها الرائعة في طرف الزمام، فجلست على الكرسي الطويل لتستسلم إلى أشعة الشمس. بالطبع، كان اسمرارها قد وصل إلى الكمال، مثيراً للشهية شأن كعكة بالتوابل، وأكثر تماسكاً وانتظاماً وعمقاً من أي شخص. بما أن أيف، المتبصرة، لم تكن تذهب إلى الشاطئ لتسمر، ولكن لتعرض اسمرارها الذي أعدته في الشتاء بقوة المقاعد الشمسية والكاروتين والمرهن المصبوغ. أخرجت رواية ضخمة ـ لا تقل عن خمسمائة صفحة، وهذا ما يُميز القارئة المثابرة؛ وأبعد ما يُظهر قارئة عرضية ــ ومدته على طرف ذراعها فوق وجهها وغاصت في قراءته.

لو كانت وحدها، لقرأت بلا شك كتاباً تاريخياً ــ فهي تعشق القراءة ــ ولكن، مع الناس، تؤمن لها قراءة الكتب الرائجة وسيلة لتلاحظ ما يجري حولها.

انتصب كانتان أمامها، يعرض جسده الفتي إلى الهواء الوحشي. فإذا خاتل بترقب جهة اليمين واليسار، وليس الوراء مطلقاً، عرفت أيف تمام المعرفة أنه سيظهر أمامها، وأنه لا يفكر إلّا فيها. وقد غيَّر وقفاته المتعجرفة، راح يداعب من حين إلى حين كتفيه المتناسقتين اللتين كان معتزاً بهما.

أرادت إغاظة فيليب الذي لم ينتبه إلى لعب ابنه، وضعت أيف كتابها جانباً ولم تعد تُخفي ذاتها عن تأمل المراهق.

اعتبر كانتان ذلك انتصاراً. وقد رغب في إظهار قوته؛ دفع أخويه ليأتيا ويلعبا معه نوعاً من المصارعة بكرة المضرب، موحياً إليهما أن يلعبا متصارعين كلاهما ضده. وقد ابتعد عشرة أمتار، قدم إلى أيف دليلاً عن رشاقته وردود أفعاله وسرعته.

لم يفهم فيليب بعد سلوك ابنه البكر، لكنه اكتشف بهلع أنه يثير اهتمام أيف. لو لم تكن زوجته بالقرب منه، لأحدث فضيحة.

حينذاك شعرت أيف بأن عليها أن تقطع خطوة. وقفتْ واقترحت على الكلبة اليابانية الظريفة مرافقتها: تمايلت الاثنتان حتى أبناء دانترومون؛ هناك، توقفتا تتأملان مصارعتهم.

قام كانتان، وقد تكهرب، بقفزات عظيمة ثم، كي ينقذ كرة لا يمكن إمساكها جازف بقفزة خطرة إلى الوراء.

صفقتْ أيف.

حدق إليها، وقد احمرّ وجهه.

ــ أتريدين أن تلعبي؟

ــ بكل سرور. لكن من يهتم بعزيزتي الحسناء؟

سُر الأخوان الصغيران بأن يستريحا، فعرضا خدماتهما.

ــ اصطحباها إذاً إلى حافة الماء، إنني أتساءل إن لم تكن ترغب في التبول.

ــ حسناً سيدتي.

انسحب الشابان، متحمسين، نحو الأمواج.

ابتدأ شوط بين أيف وكانتان. هذه المرة، اتخذ موقفاً مختلفاً: سعى إلى الخسارة، وهذا ليس بالرهان السهل ما دامت أيف قد اجتهدت للقيام بحركات متناغمة، فراح يخفق في ضربات الكرة.

ليس للأمر أهمية! كان تبادل تواطئهما أكثر حدة من المباراة. راح كانتان يرسل غمزات محمومة إلى أيف التي كانت تقاوم الصدمة بخبث ملح. كانا يتسليان، كما كان يقول كل منهما للآخر.

ــ أوف، أتوقف. هذا متعب.

ــ أنت هنا لتمضية عطلة نهاية الأسبوع؟

ــ أجل، وأنت؟

قطَّب وجهه قائلاً:

ــ إنني أرافق والديَّ.

ــ أمك جميلة جداً.

ــ آه صحيح؟

لم يحسن كانتان إدراك جدوى تلك الملاحظة لكنها فرّجت أساريره لأنها أظهرت أنه لا يمكن أن يوجد عداء بين أمه وبين المرأة التي يتشهاها.

ــ إنك أجمل مئة مرة من أمي.

ــ هيا... هيا...

ــ بلى، أقسم لك على ذلك.

ــ إنك تنسى أنني لست أصغر من أمك بمئة مرة.

ــ لا أحب إلَّا النساء الحقيقيات، وليس الشابات الصغيرات.

أعلن هذا التصريح برباطة جأش ذكورية فاجأت كليهما، هو لأنه لم يكن يتوقع أن يقول ذلك مطلقاً، وهي لأنها شعرت بصدقه.

وقد ألقت نظرة من جهة الكراسي، رأت فيليب يتضور في مكانه وهو بالغ العصبية، بينما تتسلى أوديل خلسة من رؤية ابنها يتصرف كرجل.

فكرت أيف أنها قد قامت بما يكفي ورجعت إلى كرسيها الطويل.

ــ سأستريح.

ــ طبعاً.

ــ هل تعلم؟ إنك تذكرني برسالة صغيرة صفراء.

ــ رسالة صغيرة صفراء؟

ــ أجل. رسالة صغيرة صفراء لم توقعها.

بناءً عليه، ابتسمت له ابتسامة لا تقاوم حتى أنه ابتسم لها هو أيضاً، وهذا ما بدا يؤكد لأيف أن فرضيتها صائبة.

استلقت فوق كرسيها الطويل. في تلك اللحظة، توجه فيليب نحو المشرب مشيراً إليها باللحاق به، هذا التحريض تجاهلته أيف بمكر.

لتزرع فتنة كاملة في أسرة دانترومون، أخرجت من حقيبتها الكلمة المجهولة وأضافت إليها عنوانها في «كنوك ـ لو ـ زوت» وانتظرت أن يعيد إليها فتيا أسرة دانترومون الصغيران كلبتها. وهي تتشكرهما، سلمتهما الورقة ليوصلاها إلى أخيهما الأكبر، وهذا ما فعلاه من دون تحفظ. ما إن أمسك كانتان الرسالة بين أصابعه حتى ظهر أبوه فجأة.

ــ أعطني هذا!

انتصب كانتان، وهو مغتاظ من نبرته، ورمقه ببرود.

ــ لا شأن لك بذلك.

ــ ستطيعني، إنني أبوك.

تمتم كانتان:

ــ ليس لأمد طويل!

ترنح فيليب، متزعزعاً، وقد فوجئ بأن يكتشف شخصاً جديداً في ابنه، فذهل من أن الصبي قد تحول، هنا، أمامه، إلى رجل.

قاومه كانتان، واعياً ما يحدث، وقد سكر من شعوره بتلك القوة التي صعدت من أعماقه، قوة اشتهاء امرأة وقوة الوقوف في وجه أبيه.

مكثا عدة ثوانٍ هكذا، جامدين، ذكران يتقايسان؛ أدرك الكبير أنه يهرم، وأن الصغير سيسيطر قريباً. لم يعودا أباً وابناً في تلك اللحظة، لكنهما خصمان.

دوّى صوت أوديل، وفيه بعض النعاس:

ــ ماذا يحدث؟ أثمة مشكلة؟

استدار كانتان نحو أمه وطمأنها بعناد قائلاً:

ــ كلَّا أمي، كل شيء طبيعي: ليس هناك أية مشكلة.

هنا أيضاً، تفوق على أبيه الذي ذُهل من هذا التغيُّر في المواقف، وأرهق من وجود أيف، كما كان حريصاً على عدم إثارة شكوك زوجته، فخفض كتفيه وقبل ــ موقتا ــ أن يكون خاسراً.

من بعيد، لم يفوت أيف شيئاً من مبادلاتهما.

فكرت وهي تحدق إلى فيليب «إنه ناضج. وسيهرع إليَّ متحفزاً للغضب وسأحصل منه على تفسير موقفه».

لَمّت حوائجها. هي التي أشارت إلى فيليب هذه المرة ليلاقيها في المشرب.

بينما كان يتوجه إلى هناك، ودَّعت شبان دانترومون الثلاثة وحيَّتْ أوديل بابتسامة.

حين مرت أمام فيليب، وهو منهمك بشرب عصيره، أبطأت. تذمر قائلاً:

ــ أنت تغازلينهم الآن، وهم في دار الحضانة؟

ــ إن ابنك جميل جداً. وفي عز الصبا...

ــ أمنعك من أن تلعبي هكذا.

ــ تمنعني من ذلك، بأي حق؟

ــ حقي أنني عشيقك.

ــ وعشيق فاطمة أيضاً. وكثير من الأخريات...

إثر ذكر فاطمة، شعر فيليب بالتخاذل وبدا وميض من الهلع في عينيه.

ــ اسمعي، أيف، لا أستطيع أن أحدثك في هذه العطلة وحتى نهاية الأسبوع. عندنا جدول أعمال مليء. لن أفلت من الأسرة.

ــ يجب مع ذلك...

ــ أيف...

ــ بخاصة أنني أستطيع التعاطف مع زوجتك. تذكر كم كان ذلك سهلاً مع أبنائك...

ــ أيف، تجنبي هذه الطريقة!

ــ من يُحدثني؟ عشيق فاطمة؟

خفض عينيه، مرتبكاً. فهذا الرجل الأناني الذي يحقق رغباته بفضل ماله وعبثه قد ظهر جباناً.

أدارت أيف كعبيها وهي تهمس له:

ــ فيللا «كوكياج»، إنك تعرفها؟ رفيقتي كليليا قد أعارتني إياها لنهاية هذا الأسبوع. إنني أنتظرك.

وقد شفت أيف غليلها، رجعت إلى الفيلا واعتنت بنفسها طوال ساعتين في الحمّام، تنزع الشعر عن جسمها وتضع قناع مراهم على وجهها وتدلك جسمها. في الساعة العشرين، جلست أمام التلفاز مع صينية للعشاء.

تابعت بشغف، حتى الساعة الثانية والعشرين وثلاثين دقيقة، برنامجاً يقدم مغنين شباناً غير معروفين، يقومون بعروضهم كيفما اتفق أمام لجنة حاكمة من النجوم، وقد تماهت مع كل واحد منهم، بكت كثيراً من الفرح ومن الخيبة.

أخيراً، في الساعة الثالثة والعشرين، وقد تعبت من كثرة تعاطفها، رجعت إلى حالتها الخاصة وبدأت تقلق. فكرتْ في أن تغتاظ.

دق جرس المدخل.

ــ آه، في تلك الساعة.

أعاد إليها الجرس ثقتها بذاتها. ماذا ستجني من التوضيح مع فيليب؟ أن يترك فاطمة أو أن يعطيها أكثر من المال؟ ربما الاثنان...

حين فتحت الباب، انساب شبح في الردهة.

ــ أغلقي، من فضلك، كي لا يراني أحد.

كان رائعاً، وقد ارتدى البياض، وبيده باقة من أزهار الخزامى، وقف كانتان أمامها.

ــ لقد هربتُ للقياكِ.

١٤

لم تعد النشوة الجنسية تشكل بينهما الهدف، وقد انحبستا في غرفة شاحبة بستائر خجولة، حيث تمضيان ساعات طويلة، متعانقتين، عاريتين، هانئتين، مرتاحتين، محميتين، بعيداً عن الزوجين والأولاد أو الالتزامات الاجتماعية، يمنحهما ذلك وقفة غير منتظرة، خفية وسحرية بروعتها.

إذا كانت الرغبة، في الأوقات الأولى، قد بررت عناقهما، فإن تلك الرغبة قد صفت: لم تكونا بحاجة إلى تعاطي الغرام، كانتا تحتاجان إلى الحب ــ أن تقدماه وتتلقياه. لم تكن الشهوانية إلّا ذريعة، تلك التي دفعت كزاڤيير ذات يوم إلى أن تُقبِّل سِڤرينّ بسرعة وتلك التي أذنت لهذه الأخيرة أن تجذب كزاڤيير حتى غرفة نومها. الآن بقوة المداعبات والرعشات والقُبل، تقاربت كل منهما من الأخرى، فكانتا تكتفيان أحياناً بالتمدد معاً وسط فترة بعد الظهر، تتحادثان، تتلامسان، تتشاركان في أوقات صمت مؤثرة، من دون أن ترغما نفسيهما على المتعة العضوية.

كانت هذه الحميمية تروق لسِڤرينّ، التي اعتادت اعتبار العلاقة الجنسية إنجازاً: كان عليها أن ترضي زوجها وتتمتع أيضاً ــ أو أقله أن تتظاهر بذلك. أليس الالتزام بالنشوة هو ما يسمم علاقات الرجال والنساء؟ تحْتَ الضغط، يرغمون أنفسهم على التوصل إليها، محولين وقتاً مجانياً، حراً، وبلا جدوى، إلى منافسة يجب ربحها. لم تُضاجع سِڤرينّ فرنسوا ــ مكسيم إلّا بالقلق، وإثر كل جلسة، كانت تشك بقدرتها؛ نادراً ما كان يهمها أن تصل إلى المتعة، كما كانت ترتاب بعدم قدرتها على منحها. فإذا كانت تتظاهر، يستطيعُ أن يتظاهر... بالرغم من دلائل بديهية تُظهر أنه وصل إلى نهاية متعته، هل كانت تلك المتعة قوية؟ حادة؟ كانت كلمة تتردد في رأسها: «تشنج». خلال مراهقتها، سمعت شاباً يؤكد أن القذف بالنسبة إلى الرجل يعني التخلص من تشنج. إن المظهر الطبي لهذا التصريح وقد أثر فيها، لم تكف عن التفكير فيه مطلقاً. حين أعطت عذريتها إلى فرنسوا ــ مكسيم، فكرت وهي تكتشف عضوه التناسلي القاسي والمنتصب، «بالتشنج»؛ وبدت لها حركة زوجها في داخلها تشنجية؛ وصرخته النهائية، تبعها انهيار ثم نوم فوري كل ذلك قد أكد لها أن الذكر « يتخلص» من ألم.

بالإضافة إلى هم المتعة، جاءت المشاغل المتعلقة بالإنجاب. كان يحرص فرنسوا ـ مكسيم على أن يصبح أباً، رب أسرة كثيرة الأولاد، ولم يُخفِ ذلك عنها: قبل ولادة ابنتها، شكّت بتلبية أمنيته؛ فمنذ ولادة غيّوم، أصغر أولادها الأربعة، راحت تخشى الخطر الذي قد يسببه لها حمل جديد. الآن، وهي ترى ذريتها تترعرع، تعرف أنها احترمت أساس التزامها نحو فرنسوا ـ مكسيم. إلّا أنها بدلاً من أن تعتز وتهنأ، اجتاحها خوف جديد: هل ستستمر بجذبه؟ ألن يملها؟ فجسدها الناضج، والذي سيصبح عقيماً، لا شك في أن الجاذبية تنقصه! فاللامبالاة الجسدية وقد بدت لها نصيب الأزواج المسنين، تراودها في كل مرة يتحدان فيها وتخشى أن تكون الأخيرة. تسلل هذا الهلع إلى أعماقها، فلوثها ومنعها من أن تسترخي... لم تترك سِفْرينّ، في خمس عشرة سنة، فرنسوا ـ مكسيم يقترب من جسمها العاري من دون أن ترتجف.

مع كزافيير، بعد أن انقضت الرهبة ـ لم تكن تتخيل أن توجد في سرير بالقرب من امرأة ـ، شعرت أخيراً بالأمان. فهي أقرب إلى الحسية منها إلى الشهوانية، اقتنعت بأنها قد وجدت شريكتها.

كانت كزافيير تعيش قصة مختلفة. وقد التفت على عشيقتها، كانت تهرب من جزء من ذاتها لتلاقي جزءاً جديداً. إنها لطيفة، ودودة، ضاحكة، خدومة، وقد هجرت شخصيتها المتذمرة. لو روى أهل الحي إلى سِفْرينّ كيف يرون كزافيير ـ طاعوناً فتاكاً، شحيحة ـ لظنت ذلك مزاحاً: كانت كزافيير تغمرها بباقات الزهر وبالكتب وتهتم بأدنى تفصيل يتعلق بها، تسخر من كل شيء، وقد ظهرت ذا رفقة بالغة المرح وخفة الظل ـ ما عدا الصفعة.

في الواقع، بين ذراعي سِفْرينّ، كانت كزافيير تستريح من نفسها. ولم تكن تقدر الشخصية التي صارتها؛ فكانت أحياناً تلوم نفسها؛ وغالباً ما تلوم الآخرين، لا سيما أوريون، الذي بانهياره وتهاونه وإهماله المَرَضي، قد أرغمها على أن تصبح عاقلة، محاسبة، مسؤولة عن اثنين. فخفته أثقلتها. أجل، هذا العصفور قد جمدها في لعب دور. لا خيار أمامها! لو ركنتْ إليه، لعاشا في الشارع، أو لكانا في عداد الموتى... إنها تحتقر اليوم هذا الزوج الذي حولها إلى امرأة شرسة... بالإضافة إلى ذلك، بنوع من تدريب منحرف، كلما ازداد حذرها، ظهرت جسارته؛ كلما انتقدت الناس، راح يمدحهم. اللهمَّ إلَّا إن كان الأمر عكس ذلك، فكل منهما يدفع شريكه إلى الغوص في عيوبه. إذاً لم تعد تحب شيئاً من حياتها الزوجية، لا هي ولا هو، ومع ذلك كانت تجهد لتبقيها مستمرة. لماذا؟ مدفوعة بالاعتياد، بالكسل، بالمصلحة المالية. إنها أسباب قد تبدو أثيمة لعاشق الحب أما بالنسبة إلى إلى كزافيير فكانت تبدو ممتازة.

ـ هل تعرفين، سفرينّ، أنني خبيرة بالسموم؟

ـ أنت؟

انفجرت سِڤرينّ بالضحك. ففي نظرها، لا يوجد شغف أكثر غرابة.

ـ لماذا؟ أكنت تودين دراسة الكيمياء؟

ـ كلَّا.

ـ الطب؟

ـ كلَّا.

ـ الصيدلة؟

ـ كلَّا، انظري، حين يدرس المرء تلك الفروع، فليعالج الناس. أما أنا، فلكي أقتل. أقتل أوريون.

ـ إنك تسخرين مني.

ـ اطمئني، لم أكن قادرة على الانتقال إلى الفعل. شأن مَخصيّ في حريم: يعرف كيف القيام بالفعل لكنه لا يستطيع فعله.

ـ هل ترغبين في قتل أوريون؟

ـ مئة مرة! ألف مرة! مليون مرة!

ـ وماذا منعك؟

ـ لا شك أن عندي ضميراً. هذا لا يمنع من أن أشعر بالارتياح حين أقتله كل مرة بالفكر. أتخيله وهو يتقيأ ويختنق ويبصق اللعاب، ويتقطع بتشنجات عظيمة. في نهاية الأمر، يكفي ذلك لكي يريحني. يجب كتابة ذلك في قانون العقوبات: ضد القتل، الخيال هو أفضل وقاية.

ـ أنت تكرهينه؟

ـ بما أنني لا أستطيع قتله، فإنني أخونه.

ـ لا أستسيغ ما تقولين. يُخيل إليّ أنك لست معي إلَّا بسببه.

طمأنتها كزاڤيير وهي تضمها إليها.

ـ وأنت؟ ما هي المشاعر التي تحملينها لفرنسوا ـ مكسيم الأنيق؟

ـ إنه وسيم، أليس كذلك؟

ـ يجب أن أقر بذلك. في الوقت ذاته، لا عيب فيه قط، مرتب الشعر، حسن التغذية، حسن التربية، حسن الهندام، رياضي جيد، حتى أنه يسبب لي حرجاً.

ــ يا للغرابة...أنا أيضاً، يُحدث فيَّ التأثير ذاته. شعرت دائماً بأنني لا شيء بالقرب منه. فجأة، فكرت كزاڤيير بالساعة وهرعت نحو هاتفها الجوال.

ــ أتركك، سِڤرينّ. عندي موعد مع الطبيب.

ــ ثمة شيء خطر؟

ــ زيارة رتيبة.

ساعدتها سِڤرينّ على لبس ثيابها، وهذا ما أتاح لهما فرصة تبادل ملاطفات جديدة. اقتربت كزاڤيير من الصوان الذي وضعت عليه حقيبة من الجلد المُحبَّب، بلون الكستناء المُثلج.

ــ يا للروعة!

من دون استئذان، رفعتها وتأملتها وفتحتها. في الجيب الداخلي دُست رسالة صفراء. أمسكتها كزاڤيير بذهول وقرأتها: «هذه الكلمة لمجرد إعلامك بأنني أحبك. التوقيع: أنت تعرفين من». أضافت تحته يد مجهولة: «وأنا أيضاً».

ــ ولكن...

ــ إنها هدية من فرنسوا ــ مكسيم.

ــ سِڤرينّ، تسلمت هذه الكلمة منك.

استدارت، شاحبة لتجابه سِڤرينّ:

ــ تقومين بكل شيء بشكل مزدوج: الحب والبريد!

استاءت سِڤرينّ قائلة:

ــ أقسم لك أن لا علاقة لي بذلك.

ــ هذا هراء!

ــ أقسم لك، كزاڤيير، برأس أولادي.

قبلت كزاڤيير التفسير، وقد أوقفتها كل تلك الحماسة، لا سيما وأن ذكريات أخرى تصاعدت من رأسها. ألم ترَ أشخاصاً آخرين مع رسالة صفراء؟ ركَّزت تفكيرها فوجدت بغتة صورتين: أخرج كانتان دانترومون ورقة مماثلة قبل أن يخط جملة ترافق وردته؛ أستاذ الفلسفة اللوطي، طوم لا ــ أعرف ــ كنيته، كان يقرأ رسالة وهو يقطع الحديقة ويمر أمام المخزن.

كادت تفضي باكتشافاتها إلى سِڤرينّ لكنها أدركت أنه لم يعد لديها الوقت.

بعد عشر دقائق، وصلت عند الدكتور بلاسار، طبيبها النسائي، والذي تشرف عيادته على شارع «لوبوتر»، نزهة تزينها أشجار الكستناء.

ـ حسناً كزافيير، استبقتِ موعدك، لم يكن مقرراً أن أراك إلّا بعد ستة أشهر. ماذا يحدث؟

ـ شيء عادي: ابتدأت سن اليأس.

ـ هذا ممكن تماماً في عمرك.

ـ انقطعت الدورة الشهرية، أشعر أحياناً بتعب عظيم وعندي... كيف أقول... رأس النهدين حسَّاس.

ـ هذا طبيعي جداً. هل ثمة اضطرابات بولية؟

ـ كلَّا، الرحمة! لماذا؟ أيحدث ذلك؟

ـ سأقوم بفحصك.

أثناء الخمس عشرة دقيقة التالية، قررت ألَّا تعود صاحبة جسدها؛ فكانت لا مبالية، أقرب إلى الغياب، تاركة الطبيب النسائي يمارس الاختبارات والأبحاث التي يرغب فيها.

حين طلب منها أن ترتدي ثيابها وتنتظره عدة دقائق، استغلت ذلك لتنام.

أخيراً، أيقظها الدكتور بلاسار ودعاها للعودة إلى مكتبه وطلب منها الجلوس.

ـ إنك لا تبدئين سن اليأس.

ـ آه إذاً؟

ـ أنت حامل.

١٥

ــ إذاً، لا يوجد مغلف أصفر هذا الصباح؟

ــ كلَّا. وأنت؟

ــ ولا أنا.

كان طوم، وبريده في يده، يحمل فطائر على شكل هلال، مذهبة، محمصة وساخنة للفطور. بالرغم من أنه أمضى الليل عند ناتان، فلقد قام بعطفة إلى المخبز ثم إلى شقته الصغيرة وهو يأمل أن تكون رسالة جديدة مجهولة المرسِل في انتظاره.

تنهد ناتان قائلاً:

ــ لن نعرف الحقيقة اليوم.

ــ للأسف...

كانت الظاهرة الغامضة تستهوي الرجلين. حين توصل كل منهما إلى إقناع الآخر أنه لم يكتب الرسالة «هذه الكلمة لمجرد إعلامك بأنني أحبك. التوقيع: أنت تعرف من»، راحا يبحثان من يختبئ خلفها. حرَّض هذا السر نزوتهما وأثار مناقشات لا نهاية لها؛ منذ ذاك اليوم، لم يعودا يفترقان.

وقد تسلم ناتان الفطائر، وضع طاولة حيث يتلألأ البورسلين بكل ألوان قوس قزح.

ــ أجهل من أرسل إلينا تلك الرسائل لكنني أسجل النتيجة الرئيسية: لم تعد تُقتَلَع من هنا.

تلعثم طوم مُحرجاً لأن ناتان قد لاحظ ذلك، وهو يخشى بخاصة أن يشرع في مقطعه الغنائي المفضل عن السكن المشترك قائلاً:

ــ أوه، صحيح؟

ــ أستنتج من ذلك، أن هذا الشخص يتمنى خيرنا. لا شك أنه يعرف أننا سنفسر جملته باعتبارها آتية من الآخر، إذاً فهذا قد يقربنا بعضنا من بعض. أليس هذا أثر يدلنا؟

هزّ طوم راسه، مستغرقاً في التفكير. أحد ما يبغي الخير لهما؟ توقف عن الطعام، وقد فوجئ.

ـ يا له من سؤال غريب! لم أطرحه على نفسي بتاتاً. هل يوجد، على سطح الأرض، فرد يتمنى الخير لنا؟ فرضياً، أستطيع أن أسمي هؤلاء الذين يريدون الخير لي ـ أخواتي ـ أو الذين يريدون الخير لك ـ والداك ـ، ولكن خيرنا... معاً...؟

اتخذ ناتان وضعية مستاءة، ويداه على ردفيه مقلداً مربية سوداء تتحدث بلهجة مائعة:

ـ ماذا، آنستي سكارليت، ماذا تروين؟ أتعتقدين أن لا أحد يحبكما، أنت وخطيبك؟ هذا محزن، ما تدعينه، آنستي سكارليت، وهذا يؤلمني كثيراً!

أمسك طوم ذراعه قائلاً:

ـ توقف عن التهريج وفكر، ناتان: هل تعرف أناساً يحرصون على أن نعيش معاً؟

ـ الناس جميعاً غير مهتمين، طوم. كما أننا غير مبالين بالأزواج الآخرين. سواء أكانوا لوطيين أم لم يكونوا، فالمركبة تدور. كيفما يرغب كل واحد، يصعد إليها أو ينزل منها. كل إنسان يقرر كيف سيكون سعيداً على طريقته.

ـ تتظاهر بعدم الفهم: إننا كزوجين لا أحدَ يهتم بشأننا.

ـ إذاً، ماذا في الأمر؟ بما أن ذلك يهمنا، أنا وأنت!

ـ ألّا تصاب باليأس، أنت، أن لا أحد يُقدِّر أنك مصيري، وأنني مصيرك؟

رفرف ناتان بجفنيه.

ـ أعد.

ـ ماذا؟

ـ كرر تصريحك الغرامي، قل ثانية إنني مصيرك وإنك مصيري. لقد أحدث ذلك رعشات في عصعصي.

ـ في العصعص؟

ـ هنا يستقر فكري. أقله فيما يخصك.

انجذب بشكل لا يقاوم نحو ناتان بحركاته المبالغ فيها، ارتمى طوم عليه وألصق شفتيه بشفتي ناتان.

ما إن استطاع الكلام، حتى تابع ناتان حديثه:

ـ يخيل إليَّ أن ما يغريك هو أسوأ ما فيَّ: سوقيتي وحماقاتي.

ــ أقدر ذرواتك.

ــ هذا لا يمنع! كلما زاد هذياني، ازداد تعلقك بي.

ــ إن محبة الآخر تعني محبة عيوبه أيضاً.

ــ آه كم هذا جميل: كأنه عنوان أغنية للقططة.

ــ كنتُ واثقاً أن ذلك يروق ك.

هذه المرة، كان ناتان هو المفتون بالرغم من تظاهره بالغيظ، والذي اتخذ مبادرة القبلة. بينهما، يلزم الدوي وانفجار التهكم واشتعال الهزء. كانت السخرية تشكل مديحهما الغزلي. لأنهما كانا يخشيان التعبير التقليدي عن الحب ــ لا شك أنهما كانا يتخوفان من الحب التقليدي ــ، فتعمدهما الاحتقار والسخرية أو الكره يبهجهما، وكل بذاءة تمثل هدية. فكلما ازدادت سخريتهما أقرَّا بودهما. كان صدقهما يحتاج إلى أن يكسوه الاستهزاء ليبقى أصيلاً.

تقلبا على الأريكة، متعلقين بعضهما ببعض، يحاول كل منهما أن يسيطر على الآخر، فمن دون أن يتوصل أحد إلى ذلك. كانا يعرفان أنهما لن يتعاطيا الغرام ثانية ــ خرجا من ذلك توّاً ــ لكنهما يلهوان بادعائه.

أخيراً، وقعا على السجادة، وقد انفصلا، وظهراهما على الأرض، وعيونهما في السقف، يحدقان إلى الثريا وكل واحد منهما يمسك يد الآخر.

تمتم ناتان قائلاً:

ــ أعرف من كتب الرسالتين.

ــ من؟

ــ لن تصدقني.

ــ سأصدقك. من؟

ــ الله.

رفع ناتان جذعه، بجدية قائلاً:

ــ الله ذاته نقله إلينا ليثبتنا في الحب.

جلس طوم بدوره قائلاً:

ــ أتؤمن، أنت بالله؟

ــ وما أدراك؟

ــ إنني أطرح السؤال عليك.

ــ قف! لا يكفي أنك ضاجعتني أربعمئة مرة كي تصل إلى قرارة نفسي في أعمق أعماقها.

سخر طوم منه قائلاً:

ــ ما تقوله بذيء.

ــ تباً، ظننت أنه على مستوى عالٍ من الروحانية.

ذهب ناتان ليصب القهوة ثانية، ثم أعلن بلهجة متعاظمة:

ــ أخذ الله ريشته، وغطَّها في حبر الرأفة وقال لنا ألَّا ننتظر أكثر من ذلك.

غيَّر صوته كي يقلد صوت الله، محاولاً استعمال حباله الصوتية الرخيمة:

«عيشا معاً، ولديَّ، لا تدفعا إيجارين ولكن واحداً؛ سيكون هذا الإيجار الوحيد تقديساً لاتحادكما، أقوله لكما. طوم، ابني، أرسل إبطال عقد إيجارك إلى مالك شقتك. ناتان، ابنتي، ارمي مجلاتك الخلاعية ومجموعتك من الذكور الاصطناعية وأخلي مكاناً لطوم في خزائنك. حين تتمان كلمتي، ستكونان سعيدين، ولديَّ، إلى دهر الداهرين».

ختم طوم قائلاً:

ــ آمين.

قفز ناتان قائلاً:

ــ هل أحسنتُ السمع؟

اقترب من طوم، بوجه متشنج، وأعضاء متوترة.

ــ هل قلتَ « آمين»؟

ــ أجاب طوم ببرود:

ــ أجل.

ــ هل قلتها بردة فعل أو لأنك تعني ما قلته؟

ــ في رأيك؟

ــ أعرف، يا طوم، أنك لست كاثوليكياً ولا مؤمناً لكن أتتحدث العبرية؟

ــ ما يكفي لأعرف أن آمين تعني «فليكن هكذا».

ــ إذاً، تقبل أن نعيش معاً؟

ــ إذا كنتَ تقبل بارتباط غير متكافئ مع كافر.

ــ أريد ذلك.

ــ آمين.

لم يستطع ناتان، في الأيام التالية، أن يضبط فرحه: فبدلاً من أن يمشي، راح يقفز؛ وبدلاً من أن يتحدث، كان يغرق تحت سيل من كلماته؛ وبدلاً من أن يضحك، كان يصهل. أحدثت إثارة كل تلك المشاعر عند رفيقه بلبلة في نفس طوم الذي كان بالرغم من مظهره الهادئ مغتبطاً أيضاً.

ذات ليلة، وهما يتابعان مسلسلاً أميركياً في سريرهما، استدار طوم بفظاظة نحو ناتان.

ــ الرسالة المجهولة، أرسلت من شخص يريد التخلص منا.

أغلق ناتان التلفاز وهو يتساءل:

ــ أن يتخلص منا؟

ــ أجل. عشيق قديم يريد ان يتأكد من أننا، أنا وأنت، قد استقررنا معاً.

ــ هراء، لا معنى له.

ــ عاشق لعشيق... غيور بشكل مرضي يعرف أي مكان كنا نشغل بالنسبة إلى عشيقه. فهو يحرص على أن يبعدنا.

ــ إن فكرتك منحرفة وشاذة.

ــ الكائن البشري منحرف، ناتان. فالناس لا يريدون الخير، يريدون خيرهم. إنهم لا يتمنون الخير بشكل عام، لكنهم يبغون الخير لهم.

ــ الترجمة؟

ــ إن الشخص الذي كتب الرسالة لا يريد سعادتنا ولكن سعادته.

أمضيا إذاً الليل وهما يتذكران عشاقهما السابقين. فإذا ما سعيا في البدء إلى إجراء تحقيق عن كاتب الرسالتين، فإن تبادل الحديث صار ذريعة ليكشف كل منهما ذاته، وليتحدث عن نفسه ويصغي إلى الآخر.

لم تكن المسارة لتبعدهما بعضهما عن بعض لكنها قربتهما. راحا يذكران ما بدا لهما في الماضي مجدهما وهو يظهر لهما الآن بؤساً وتعاسة: الإكثار من الشركاء. إن المثلية، باعتبارها أقلية، تتحدد بشكل أوضح على أنها فعالية جنسية أكثر من العلاقة مع الجنس المغاير: هذه المثلية تدفع الشخص الذي يكتشف هذا الميل لديه أن يبحث عن ملامسات أخرى وعن لقاء أجساد وعن المتعة الفظة والعضوية بأي ثمن، فهي تُهمل بسهولة تعقيد المشاعر أو أهميتها. كان طوم وناتان في البدء يحتاجان إلى أن يثبتا لأنفسهما أنهما يعجبان وأنهما يستطيعان أن يعجبا؛ لهذا الهدف، أكثرا من المغامرات، تلك التي لا تدوم أحياناً إلّا زمن المداعبات؛ كانا قد ترددا على أماكن خاصة بتلك العلاقات شأن الحمَّامات البخارية وأقبية الملاهي وملحقات المشارب

وحتى الحدائق العامة حيث لم يكن من الضروري ولا من المحبذ أن يتناقشا، حيث يكفي تبادل نظرات تواطؤ كي يتحد جسدان أبكمان في العتمة. كلاهما قد اختبرا العلاقات الصامتة أكثر من العلاقات الناطقة. تألم ناتان من ذلك، لأنه بطبعه المفرط الحيوية والبليغ اللسان، كان يعشق الحديث ويظهر فضولاً شمولياً. استغرق طوم وقتاً أطول ليجد التكرار رتيباً لأن حاجاته الجنسية كانت ملحة ومهمة بالنسبة إليه، يُضاف إليها شعور غامض بالتفوق: فهو مثقف ومفكر وعاشق للأدب ويشك كثيراً في أن يلتقي شخصاً يضاهيه حتى أنه كان يحاذي كل شاب بحذر متنور من دون أن يطمح إلى معرفته ــ «موافق على مضاجعته، ولكن ليس على محادثته، كلّا شكراً» يمكن أن يشكل قوله المأثور. إذاً عاش ناتان وطوم تلك الخيبات الكثيرة التي تلت المتعة، حين كان الشريك حتى ذلك الحين ليس إلّا بشرة وعضواً تناسلياً وتنهدات، فإذا ما تحدث فجأة: اكتشف صوتاً بشعاً ولهجة تباغته؛ وسمع، إثر مسار حسي بلا غلط، أخطاءً باللغة الفرنسية وقواعد متعثرة ومفردات فقيرة؛ وعند معرفة أذواق مخلوق ومراكز اهتمامه وقد قدرا جسده، يدركان حينذاك أنهما لو عرفا كل ذلك، لما أظهرا له أية رغبة.

لم يكن لكل من طوم وناتان الرؤية ذاتها في تلك الخيبات. سعى ناتان إلى حياة أخرى غير تجميع المغامرات العابرة أو الارتباطات الموقتة وهدفه تجاوز الرغبة بالحب؛ ذلك لأنه كان يبحث عن قصة حب كبيرة ظن، مدفوعاً بنفاد صبره، أنه وجدها في مغامرتين امتدتا. أما طوم، فلم يكن يصوغ تمنيات، كما لم يخلط بين عادة جنسية وحب؛ إن لقاءه ناتان والود العميق الذي أحسه يُعتبران مفاجأة.

صباحاً، كانا يتحابان أكثر من الغروب. لم يعودا بحاجة إلى الجنس، ولكن لمجرد أن يكونا جنباً إلى جنب ليريا بزوغ النهار. كانت تلك الرسائل المجهولة قد عجّلت في تعميق قصتهما.

شرعت الببغاوات بالصياح، فظة، حادة ثم أضافت الدرّات زقزقاتها إلى تلك السيمفونية غير المتناغمة. صعدت ضوضاؤها مع النور. حاول ناتان أن يقلدها. بعد عدة محاولات، توصل إلى محاكاتها. تسليا بذلك. ثم اقترب طوم، عارياً، من النافذة.

ــ إنني أتساءل إن لم نرتكب خطأً في محاكمتنا، ناتان، فيما يتعلق بالرسائل المجهولة. افترضنا أننا لم نكن إلّا اثنين قد تسلمناها.

نهض ناتان، وعارياً أيضاً، جاء يلتصق بجسم طوم. تأملا الساحة والبيوت المحيطة بالحديقة الصغيرة المخضرة، شأن ديكور مسرح.

تابع ناتان قائلاً:

ـ وإذا تسلم كثير من الناس هنا الكلمة ذاتها؟

ـ أنت على صواب، لم أكن قد فكرت بذلك.

تأملا الطيور. كان تأملها يحتفظ بكسل الفجر، فراحت تتمطط ببطء، ينقصها الحبور والنشاط؛ كان كل شيء يستغرق منها وقتاً.

فجأة، وسط صخب تصفيق الأجنحة، وصل غراب أسود أحلك من السواد من السماء الرمادية، فقطع الساحة وطرد الدرَّات من دون مراعاة واستقر على قمة شجرة. نعق رسول الشؤم هذا؛ حول هذا التنبيه القاسي، خُيل أنه قد أنشئت كيلومترات من العزلة. لقد انحنى، ورأسه مائل، وهيئته صارمة، ترقب بعد ذلك الواجهات التي تحيط به. كانت نظرته الثاقبة تخترق داخل كل منزل، لا ترحم، تتربص بعاهات كل فرد.

شعر ناتان بعدائية استقصاء الطائرفاقشعر بدنه. أما طوم، فابتسم وفرك يديه اللتين تستندان إلى كتفيه.

ـ يا للغرابة... بشكل عام، تنقل الرسائل المجهولة الشتائم والاغتيابات والنمائم، فمن الطبيعي أن يُسمى المؤلف بالغراب.

أطلق الغراب صيحة تعجب جديدة.

تابع طوم بعذوبة قائلاً:

ـ هنا يختلف الأمر. يرسل المؤلف كلمات حب، كلمات تُحدث الحب. إنه ليس غراباً...

ـ ماذا إذاً؟

ـ إنه حمامة.

الجزء الثالث

مَرَدّ الجوقة[١]

(١) . مقطع تنشده جوقة مُرَتلين في ترنيمة دينية رداً على المنشد المنفرد- (المترجمة).

تمهيد

كانت الببغاوات تتبادل حك ريش رقابها ورؤوسها، وتدعو بعضها بعضاً إلى الحب. كانت الأصغر وحدها تظهر عدوانية، بعيون دموية، وأجنحة مبسوطة كدرع ومخالب كاسرة وصيحات حربية ومناقير مشحوذة، وهي مستعدة لمعركة مسعورة، تتطارد وتتلاحق وتتباهى ـ بلا شك لتحصل عند وصولها على الدفق العذب ذاته.

كانت بلبلة عظيمة تهيمن وسط الأشجار، بسبب هذا الربيع المثير للغرائز. في حين كانت ببغاوات (1) من السينغال وأخرى رمادية من الغابون، ودرّات بألوان متموجة وزمك حمراء تدور حول مجموعة الأوراق، وكان هناك أزواج لا تفترق تختبئ في أغصانها الصغيرة كأنها قد تجمدت كي لا تثير الانتباه. كانت ثمة درَّة (amazone) بجبهة زرقاء تبني عشها وهي تزعق في وجه على كل من يقترب منها. كانت ببغاوات أخرى مسنات، أفقدها العمر ريشها شأن الناس شعورهم، وهي مقتصدة في طيرانها، تصر إذا ما اقترب من مكانها صغار يتقاتلون أو طيور تلاحق أنثى. ثمة ببغاء نبيل يطير بثوب سكري اللون رافعاً كتفيه أمام تلك البلبلة التي لم تعد تعنيه.

انقضى خمسون عاماً منذ فتح قنصل البرازيل أقفاصها وهو يغادر البلد. لم تغير الطيور أماكنها مطلقاً. فإذا تجرأ مغامر منها، أحياناً، على زيارة حديقة تبعد عدة شوارع، يعود بسرعة إلى ساحة آريزو ليلتحق بالطيور التي هي من جنسه، والتي لا يتحملها لكنه لا يمكنه الاستغناء عنها. كم من أجيال تعاقبت على تلك الدائرة الزاخرة؟ لم يبذل أي مراقب جهداً لدراستها، ذلك أنه، في الفترة الأولى، انتظر كل الساكنين انقراض تلك الطيور الغريبة التي اعتادت الأسر. بعد عشرات السنين

---

(1) أنواع : Youyous , calopsittes , poicephalus, amazone, aras, cacatoès, trion. ببغاوات غريبة لا وجود لها في المشرق- (المترجمة).

ازدهرت الحيوانات في هذا الدغل. ربما ثمة حيوانات موجودة منذ الأصل، لأنه من المؤكد أنها يمكن أن تعيش ثمانين سنة أو مئة؟

كانت حيوية الببغاوات، في ساحة آريزو، تؤمن لساكني الجوار انجذاباً ودهشة يعادلان إقلاق الراحة. بينما يتحالف كل شيء، فيها وحولها ــ منازعات داخلية، عدائية البيئة ــ كي ترحل، إلّا أنها باقية، بثرثرتها وتشويشها وصخبها. أية لغة تتحدث؟ إذا كان أجدادها يتكلمون اللغة البرتغالية أو الفرنسية، فماذا بقي من ذلك بعد نصف قرن؟ هل كانوا يقولون شيئاً ما؟ ألا يزال لهذا اللغو معنى؟ أليست تلك الرغبات والدوافع والحيوية الفظة هدفاً في حد ذاته؟

١

ــ أيزعجك أن أذهب لرؤية فريدريك بعد الظهر؟ أرغب في مضاجعته.

طرحت ديان هذا السؤال على زوجها بالنبرة التي قد تأخذها لتعلمه أنها ذاهبة عند مزين الشعر، نبرة تحوي شيئاً من الملل، وبعض الضيق من تمضية الوقت في ترهات من هذا القبيل.

ــ أرجوك، ديان، افعلي ما تريدين.

شعر جان ــ نويل بالارتياح: رجعت ديان إلى وضعها الطبيعي... فمنذ عدة أيام ــ سهرة «الميل شانديل» ــ، كانت ترغي وتزبد، نزقة، بلا عمل، تدور بين الجدران، مستغلة كل مناسبة لتوبخ وتقرّع. فمزاجها السيئ لأبسط الترهات، وإن كانتْ ضحيتَه الأولى، بدا مُعدياً؛ كانت الشقة كلها تعاني من موجات اكتئابها، فيخفض النبات رأسه، حتى النور الذي ينفذ بجهدٍ جهيد الزجاج القذر، وأكثر من تعرض لمزاجها يبقى جان ــ نويل الذي كانت تخاصمه من الصباح حتى المساء.

أثناء حفلة الجنس الجماعي المترفة، فاجأت ديان جان ــ نويل بإحداثها فضيحة: شرع زاكاري بيدرمان بمداعبتها عندما قُدمت كمقبلات روسية، فانتصبت وصفعته صفعة مدوية. وهي عارية، تقطر من المقبلات، قفزت عن الطاولة، ولحقت به مهددة، وأسندته إلى حائط بضربات من قبضتها. لم تكتفِ بخرق قاعدة التبادل التي تنادي برفض شريك بأدب إذا كان غير مرغوب فيه، لكنها انطلقت بتهجم عنيف تقطعه شتائم مهينة، « خنزير»، «نذل»، «سافل»، «دنيء»، «وباء»، «أتيلا الهمجي»، «باذخ مستبد»، «أفعى»، «شرير» «أدنى من البراز» أو «قاتل» فتنهال الكلمات من فمها شأن شلاّلات نياغرا.

اضطر أصحاب الملهى إلى التدخل وضبطها، منادين جان ــ نويل لنجدتهم. بعد أن قدموا اعتذاراتهم إلى زاكاري بيدرمان، جهدوا طوال ساعة لإعادة جو الحفلة بهيجاً بين الزبائن المنزعجين.

انحبس جان ــ نويل ديان في مخدع كان قد نظفه من دون أن ينجح في امتصاص غضبها.

ــ ما هو مأخذك عليه؟

ــ إنه حثالة. أكره الحثالات.

ــ ماذا فعل لك؟

ــ لي؟ لا شيء. ولن يلمسني. ولكن لآخرين...

ــ عمن تتحدثين؟

ــ دعني وشأني. إن من الشهرة العامة لهذا الأبله أن يرمي النساء كما يفعل بالمحارم الورقية بعد أن يكون قد أفرغ فيهن شهواته.

ــ ديان، إنه إباحي.

ــ آه نعم؟

ــ شأنك أو شأني.

ــ اسكت، أيها الغبي التعيس، وإلّا سحقتك!

لم يلح جان ــ نويل وقد أدرك أن ديان لم تعد تسيطر على ذاتها.

منذ تلك السهرة الكارثية التي غادراها بعجلة، لم يهدأ غضب ديان: كان غيظها كامناً، وأدنى ذكر في صحيفة أو مذياع للمفوض الأوروبي يلهب الحانقة، محولاً إياها إلى مشعل حقد وكراهية.

استناداً إلى ذلك، لم يستطع جان ــ نويل أن يمتنع عن البحث في ذكرياته عن تفصيلين أو ثلاثة قد أربكته. إثر لقائهما، طلبت ديان أن تسكن في منزل يطل على ساحة آريزو مدعية أنها كانت تحلم في أن تسكن هناك منذ طفولتها، وقد أرغمت جان ــ نويل على بيع بيته في «سان ــ جونست» للحصول على سكن كانت قد عثرت عليه. فيما بعد، فاجأها جان ــ نويل مرات كثيرة على النافذة وهي تحدق إلى قصر بيدرمان شأن من يقوم بالمراقبة. أخيراً، هي التي لم تهتم يوماً بما يجذب معاصريها، لم تكن تُفَوت مقالاً أو برنامجاً تلفزيونياً يذكرون فيه رجل الاقتصاد. حين أعلن لها جان ــ نويل ذات صباح أنهما قد تسلما دعوة منه « لسهرة للجيران»، شحب وجهها، وحبست نفسها ثم، طوال الأسبوع التالي راحت تبصق باستمرار على تلك العادة البلهاء لدى الناس وهي استقبال بعضهم بعضاً بذريعة أن الصدفة تجمعهم. حين حلَّ موعد «سهرة الجيران» الشهيرة، رتبتْ أمورها كي يذهبا لتمضية عطلة لطيفة لنهاية الأسبوع في «النورمندي».

الآن وقد انفجر كره ديان على الملأ، راح جان ــ نويل يربط تلك الأحداث. ماذا حدث بين زاكاري بيدرمان وديان؟ فأول ارتياب للزوج يكون عن علاقة زنى، لكن، حين يعرف أحد ديان يجد أن مغامرة من هذا النوع هي في منتهى

التفاهة؛ بالإضافة إلى ذلك، كانت ودودة مع الرجال الذين تسلت معهم. إذاً، هناك شيء آخر... ما هو؟

كانت ديان تقود سيارتها « الفيات» عبر شوارع بروكسل، وهي تتمايل على طرقاتها غير المستقيمة، ولا تنضب شتائمها ضد «كتلة الرخوين» الذين سحبوا أذون قيادتهم في اليانصيب.

حين وصلت إلى أسفل المدينة، بالقرب من سوق السمك، ركنت سيارتها ودخلت إلى باحة صغيرة، دونت الرمز الرقمي ودفعت باب شقة صغيرة تقع مباشرة بمستوى الطابق الأرضي.

كان فريدريك، ينتظرها بابتسامة عريضة على شفتيه.

ـ قولي لي إن كنتُ أحلم يا إلهتي!

قدَّرت ديان هذا الاستقبال واحمرّ وجهها أمام العينين السوداوين اللتين تلتهمانها. حولها، كانت تنبعث رائحة الرجل، فلقد انبسطت فوضى رجل؛ ثمة كتب أو اسطوانات مكدسة، ثياب مبعثرة، صينية طعام البارحة لا تزال على الطاولة المنخفضة.

ـ أعشق شقتك، فريد.

ـ أنت تمزحين! تتصدرين فيها باستمرار، أيتها الأميرة.

على الجدار في آخر الشقة، صورة ضخمة من ثلاثة أمتار على اثنين تمثلها عارية على شرشف ملوث بالدماء.

اقتربت من الرجل الجالس في كرسي متحرك.

همست وهي تعض أذنه قائلة:

ـ اشتهيتك.

خرَّ، وقد طار لبه فرحاً.

تراجعت ديان وأمرته قائلة:

ـ أسمعني موسيقى.

ـ ماذا تريدين؟

ـ قذارة جيدة كما تحبها.

ـ شيء يكسر أذنيك، يا معبودتي؟

ـ بالضبط.

ضغط بيده على جهاز التحكم الذي يحتفظ به في جيبه الأيمن، فوق العجلة، فانسابت عبوة من الأنغام المعدنية، متضخمة، صاخبة، تصم الآذان. كان يصغي فريدريك، وهو مهندس الصوت، إلى أسطوانة الروك العنيف بحجم مدوٍ شأن مثقب.

تراجعت ديان؛ وهي تتبع الموسيقى ـ أو بالأحرى الإيقاع المرتج لآلات الكمان الضخمة والبنية المسموعة لهذا المزيج الرنان وهو ينصهر ـ، وقدمت له استعراض عري.

كان فريدريك يتأملها مندهشاً، وهو سكران من السعادة. كان في الخامسة والثلاثين، بفم جميل وعينين خضراوين ويدين طويلتين، مثال الذكر الصلب والمعافى الذي يجذب النساء؛ قبل خمس سنوات، أطلق دراجته النارية بسرعة ١٨٠ كيلومتراً في الساعة، فانزلقت على الأرض المبللة، مصطدمة بجدار من الإسمنت وانكسر العمود الفقري لسائقها. أصيب فريدريك بالشلل من تحت صرته، فأصبح فاقد الإحساس بساقيه، وعاجزاً عن التحكم بهما. كان صاحب إرادة وعزم، وشجاعة، فذهب في إعادة تأهيله إلى أقصى ما يمكن، وقد نمّى عضلات جذعه وذراعيه وكتفيه؛ مع ذلك، بقيت أعضاؤه السفلية غريبة عنه، وقد حكمت عليه أن يقعد في كرسي متحرك حتى نهايته.

لو كانت ديان قد تعرفت إليه حين لم يكن مُعاقاً، لربما لم تعره اهتماماً، مادام حينذاك يفيض صحة ويعبق بسعادة العيش... في المقابل، لأنه صديقة قدمته لها حين خروجه من المستشفى، اختارته عشيقاً لها.

اعتادت أن تقول لمن لا يسألونها شيئاً «إن تعاطي الغرام مع مَصاب بشلل نصفي يمثل ذروة شهوانية».

وفعلاً، كانت تأخذ على عاتقها العمليات، فتحدد الوقت والإيقاع والحركات.

وقد أعلمته هاتفياً، كان فريدريك قد تناول الدواء الذي يؤمن انتصابه، وهو احتياط يُطمئنه، وإن كان يعلم أن ديان تعرف الوسائل التي تحثه. فلأنها فهمت أنه لا يشعر بشيء تحت الصرة، راحت تهتم بالمناطق الحساسة للجزء العلوي كالفم والأذنين والرقبة والحلمتين. فتشرع في العمل فوراً وهي تلتصق به شأن العنكبوت بنسيجه.

سألها فريدريك وهو يتحدث عن عضوه التناسلي الذي كانت تخفيه عنه:

ــ هل هو غاضب منك؟

ــ على الإطلاق.

ـ هذا أفضل. بالنسبة إليّ، إنه يجرد مني دائماً: حتى لو كنتُ مُثاراً فكرياً، فهو لا يعلمني بذلك.

همست له بصوت معجب قائلة:

ـ لا حاجة لاستعمال مضخة الفراغ، اليوم، فهو يتبعك من دون أية مشكلة.

بسرعة كبيرة، لاحظ فريدريك أنها على صواب لأنه تعرف في أعلى جسمه على الدلائل المحيطية التي ترافق اللذة ـ الحرارة، التعرق، تسارع دقات القلب تليها قشعريرات على طول الجذع وتشنجات عضلات البطن.

كانت عارية فوقه، بساقيها المتباعدتين على شكل زاوية قائمة على المتكأين. تعشق ديان هذه الوضعية الرائعة غير المريحة التي تؤمن لها مزيجاً وحشياً من الأحاسيس ـ من معدن الكروم البارد والمنعش، والجلد الاصطناعي (السكاي) الأملس والبلاستيك الذي يسخن من ملامسة الجلود وحرارة العضو الذي تتذوقه عن كليهما.

ثمة تعبير هناء وارتياح قد مزَّق الوجه الذكري. كانت ديان تصعد وتنزل وتتموج وهي رياضية مختصة بالمتعة، فتتيح للمعوق أن يشعر بأنه رجل. فبفضلها، اكتشف المتعة ثانية، راضياً أن ينسى ما كان قد عرف من ذلك وهو أصغر، مبعداً المقارنات المخيبة. إن طي صفحة الماضي قد سمح له بأن يتعلم التمتع من جديد. كانت ديان تمثل بالنسبة إليه عناية إلهية، نوعاً من ملاك محب ومتجرد يوسع حياته التي ضاقت.

فجأة، وقد استشفت ديان أنها وصلت إلى ذروة المتعة، تعلقت بقضيب جَرٍّ كانت قد وضعته سابقاً في السقف.

لم تعد عيونهما تفترق؛ كانا يستفيدان من اللحظة؛ في هذا الممر الضيق حيث تتقاطع أنظارهما، خُيل لفريديريك بشكل خاطف أنه إنسان طبيعي.

صرخت من اللذة. انفجر بالضحك، وهو سعيد.

ـ ديان، أنت عبقرية الجنس.

لم تكن متواضعة، فأجابت بصدق قائلة:

ـ أعرف ذلك!

خرجت من المقعد، وهي تغمز بعينها، اقترحت عليه:

ـ أتريد أن...

لم تكن بحاجة إلى إنهاء جملتها، فلقد فهم اقتراحها: حقنة إيزيرين تؤدي إلى القذف. هزَّ رأسه، ضاحكاً.

ــ لا حاجة لذلك. لن أشعر بأكثر مما أحسست. كان رائعاً هكذا. ديان، أفضلك، أنت، على كل الحقن!

تمددت، وهي راضية، من دون أن تلبس ثيابها على فراش، بينما كان يسير بكرسيه المتحرك إلى المطبخ كي يقدم لها شراباً، وهو يحرك كرسيه بمهارة حازمة توحي ببعض قيادات رجولية للسيارات.

حين قدم لها كأساً سألها:

ــ لم أفهم مطلقاً إن كنت فتاة حسية أو فكرية. هل أنت أكبر متمتعة شيطانية ظهرت على وجه الأرض أم إن نشوتك فكرية؟

ــ كنت أظنك أكثر دهاءً، فريد. إن عندك الجواب عن هذا السؤال.

ــ آه، أصحيح؟

ــ لو لم أكن إلّا محاراً يكفي لمسه حتى يبتهج لما أكثرتُ من التجارب.

ــ إنك أينشتاين المتعة.

ــ يمكن قول ذلك...

لم يجرؤ على أن يلح. إن ما روته له عن تجوالها ــ الإخراج المسرحي، البحث عن مواقف قصوى ــ، تقديسها لكل ما هو خارق وغريب، لا شك أنه كان يستفيد من ذلك، لكن أليس هذا مؤشر ضعف؟ هل تلزم كل تلك الفوضى للوصول إلى النشوة؟ كانت ديان المُراكمة للتجارب، تستنفدها بسرعة، وهي مرغمة على أن تذهب أبعد من ذلك فيما هو غريب وشاذ. أما فريدريك، فكان بالأمس كما اليوم لا يشعر بأنه أسير الجدّة؛ يستطيع أن يستمتع ملايين المرات بالطريقة ذاتها من دون ملل.

قالت بتعجب:

ــ أنتم معشر الرجال، يصعب عليكم أن تفهموا.

أحس أنها سمعته يفكر لأنها تابعت قائلة:

ــ في الجنس، التفنن هو نسائي.

ــ التفنن أو الانحراف والشذوذ؟

ــ الشذوذ هي الكلمة البرجوازية للتفنن. فنحن النساء، أكثر ابتكاراً، أكثر خيالاً، أكثر مغامرة، لأننا أكثر تعقيداً. ولأن لنا فيزيولوجياً ثلاث طرائق للتمتع.

ــ ثلاث؟

انتصبت عارية، ووضعت عانتها تحت أنفه.

ــ الأمام، الوسط، الخلف. أضف إلى ذلك الدماغ. أربع!

تشممها وفرك منخاريه على جلدها وسال لعابه لأن ديان كانت مُشهية.

ــ حين يدخلنا أحد، هناك حدود بين الألم واللذة، وإننا وحدنا قادرات على تحديد الفاصل، بل على تغيير موضعه.

ــ حقاً؟

ــ الدليل على ذلك هو أن الجنس شيء ذهني، فثمة حركة تظهر إما مؤلمة بشكل لا يُحتَمل وإما ممتعة بعذوبة بالغة، وإن كان الرجل فينا إلّا أن دماغنا يمسك المقابض.

ــ إنك تفسرين هكذا لماذا لا تصل بعض النساء إلى ذروة المتعة؟

ــ لستم أنتم، سادتي، من يعطينا ذروة المتعة، إننا نعطيها من ذاتنا إلى أنفسنا، بواسطتكم.

ــ لا تبالغي. إذا كان الرجل غير كفوء، إذا لم يضف إلى ذلك قدرة التحمل، أشك في أنَّ...

ــ اسكت، أيها المتبجح. حدث أنني قد توصلت إلى ذروة النشوة في ثلاثين ثانية.

سكت، بارتباك.

ــ والآن، لنتحدث عن أشياء أخرى، فريد. من الأفضل أن تقول لي ماذا عليَّ أن أسمع من موسيقى الروك العنيفة أو المعدنية. ضعني في عطر ما هو جديد في الموسيقى.

صحبته نحو أرض تسحر فريديريك. أما بالنسبة إليها، فكانت تعشق تلقي أراء مختصة ودقيقة. بنوع من الدلع الذي تتقنه، كانت تحرص على أن تجهل ما يعرف الشعب وأن تعرف ما يجهله. فإذا ما ذُكر «شارلو»، أجابت «هارولد لويد»ــ ولا حتى «بوستر كيتون»، وإذا ورد اسم «ماريا كالاس»، أجابت «كلوديا موزيو»ــ ولا حتى «روناتا تيبالدي». إذا أبدى أحد إعجابه الشديد ببلزاك، أجابت «كزافيه فورنوريه». فمن المستحيل إثارة اهتمامها بالتراث الشعبي. هذا الذوق بالوقوف عكس التيار يُحدث فيها محيطات من الجهل بالثقافة مزروعة بجزر صغيرة تتردد عليها هي ونخبة. لم يكن يخطر على بالها، في أية حال، شأن كل متحذلق، أنها تحترم مؤلفات عظيمة بالتزامها بالأعمال الهامشية. ربما لو كانت في حياة مختلفة، لعشقت شذوذ «شارلو» الخليع ومأسوية «كالاس» وقدرة بلزاك... وكانت تتصرف كذلك بالنسبة إلى الديانات؛ رفضت طويلاً الديانات التوحيدية القريبة، كاليهودية والمسيحية والإسلام، كي لا تهتم إلّا بتعدد الآلهة الهندي أو روحانية ديانة التيبت؛ على كل حال، منذ أن نفذت البوذية إلى أوروبا، تحول نظرها

عنها، وهي تفضل أن تدرس مذهب آباء الكنيسة اليونانية، وقد أصبح أوريجنس بطلها. في الواقع لم تكن تمارس إلّا تعبداً واحداً: هو تفردها.

إن فريدريك الذي لم يكن يراها إلّا من بعيد، كان يشعر بالفضول: حين لم تكن معه، لم يكن يستطيع أن يحبها، فيحاول أن يفهمها. بعد عدة نصائح موسيقية جيدة، حاد بالحديث إلى منحى آخر قائلاً:

ــ حدثيني ثانية عن أبيك.

بقيت ديان مذهولة:

ــ ما هي العلاقة؟

ــ ليس ثمة علاقة. كنتِ ترغبين في أن أحدثك في الموسيقى، أما أنا، فبي رغبة في أن تحدثيني ثانية عن أبيك.

ضربت ديان صدرها قائلة:

ــ لا أتحدثُ عن أبي مطلقاً.

ــ ذات يوم، حدثتِني عنه.

ــ هذا غير معقول.

ــ بلى!

ــ حتى حين أكون سكرانة، لا أتطرق إلى هذا الموضوع.

ــ هذا يتوقف على أي شيء تسكرين به. في تلك الليلة، لم تفرطي في شرب الخمر أو الكحول، ولكنك تعاطيت مواداً لا يسمح بها القانون.

ــ آه، تباً...

عضتْ على شفتيها، وهي لم تعد تتذكر ما ثرثرت به تحت تأثير المخدرات.

ــ ماذا قلتُ؟

ــ إنك لم تعرفي أباك. كانت له علاقة مرتين أو ثلاث مع أمك ورحل من دون التعرف إليك. عاودت أمك الاتصال به، فاعتبرها ملفقة أساطير.

فكرت ديان «مسكينة أمي» وقد فوجئت بتلك الذكريات تصعد إلى فكرها.

ــ قلتِ لي أيضاً إنك، طفلة، قد أطلقوا عليك « بنت الزنى». مضت عشرات السنين لم تصفعها تلك الكلمة. سعت إلى أن تسيطر على انفعالها بالتبجح:

ــ بالضبط، بنت الزنى. إنني أطالب بتلك التسمية. لأن أولاد الزنى يحملون ملح الأرض. انظر إلى المسيح.

تابع فريدريك بحثه، غير منخدع بتلك الثقة بالنفس الكاذبة:

ــ هل تثأرين لأمك بتعدد علاقاتك بالرجال؟

طُرح السؤال بعذوبة بالغة حتى أن ديان قد قبلته وأخذت وقتاً للتفكير.

ــ ربما... لست متأكدة. إنني أبحث... تحددت أفكارها للمرة الأولى:

ــ أسعى ألَّا أتمرغ وسط الغالبية العظمى وأن أبقى مختلفة وأطالب بوضعي «بنت الزنى». صبت لنفسها كأساً آخر لتشربها.

ــ لقد لفظتني الامتثالية. إذاً ألفظ الامتثالية.

ــ هل تعرفين من هو أبوك؟

استغرقت عدة ثوانٍ قبل أن تقرر الإجابة:

ــ أجل.

هزَّ رأسه.

ــ هل له أسرة؟ هل لك منه إخوة وأخوات؟

وقفتْ مُرهَقة، ثم تصنعتِ اللامبالاة.

ــ ما جدوى العودة إلى ذلك؟ هل أفتشُ في ماضيك؟ هل أسألك لماذا تهوى الدرَّاجات النارية؟ ماذا دفعك إلى الجري بسرعة مئتي كيلومترٍ في الساعة؟

انطوى على نفسه. لقد ربحتْ. قد يسكت.

من دون أن تنتظر، لبست ديان ثيابها. كم غريب هذا الطقس البارد، فجأة.

طوال دقائق كثيرة، لم يتبادلا كلمة. حين أصبحت ديان مستعدة للخروج، جاءت تقبل فريدريك على فمه، شأن رفيقة طيبة أكثر منها كعشيقة.

ــ قولي لي، ديان، ماذا تفعلين في بيتي، بينما عندك كل شيء؟ هل تشفقين عليَّ؟ هل تعتبرين نفسك كاهنة المتعة العظيمة التي تأتي لتلتقط النعجة الضالة، أو أحد الرعايا العنيدين؟ هل تأتين لتستسلمي إلى عبادتك الشهوانية؟ هل أخذَ الجنس هذا الحيز الكبير في حياتك حتى أنك تعتبرينه رسالتك؟ هل تكونين، في نهاية الأمر، الأم تيريزا للجنس؟

لم يعد يحسب حساباً للنتائج، فأفضى بأفكاره التي كررها في نفسه ألف مرة. سارت ديان حتى الباب، فتحته وتسمرتْ على العتبة.

ــ أتريد معرفته؟

ــ أجل.

ــ إن عضوك ملتوٍ قليلاً، ومنحنٍ من جهة اليسار ــ إنك الشخص الوحيد الذي أعرفه بتلك الخصوصية ــ، وهذا يثير فيَّ أحاسيس لا تُصدق.

إثر تلك الكلمات، غادرت فريد وهو منتشٍ وسعيدٌ لثلاثة أسابيع قادمة.

٢

كانت أيف عادة، في لعبة الإغراء، هي التي تثير الرغبة وهي تحث الرجل على التقدم. في ذاك المساء، في فيلا «كنوك ــ لو ــ زوت»، سرق كانتان منها دورها. كان جافلاً، شديد الحذر، حر التصرف، ماكراً، يكتفي بوجوده هنا، قريباً، رائعاً بجسمه الطويل المتناسق الذي يكشفه من دون تحفظ قميصه المشدود على خصره وبنطاله المنطبق على جسمه، كان يقظاً ثم حالماً، صامتاً وفجأة ثرثاراً، أما عيناه اللوزيتان، فقد كانت تقطعهما انفعالات متناقضة من خشية وشهوة ويأس وتحدٍ وشبق وارتباك.

وجدت أيف ذاتها في وضعية عشاقها المسنين فارتبكت. إن هذا العرض الذي يُنفِّذه كانتان، والذي يلعب فيه دور القط الذي يريد أن يهب نفسه وهو يحجم عن ذلك قد بدا لها إلى حد ما مدعاة للسخرية. لكنه مجدٍ، لأنها تشهته.

هل تقبل مناورته؟

فمنذ ساعتين، منذ أن انبثق من الليل، كان كانتان وأيف يراوغان وهما يشربان ويتناقشان.

حين دخل البهو، قدَّرت جرأته، كما أن الرغبة الوجلة التي كانت تُضيء وجهه الممتلئ قد أثرت فيها. وقد فكرت أن تُعيده إلى سهرته للمراهقين، نظرت إليه مطولاً بصمت وقررت أن تدعه بدخل: هكذا إذا برز أبوه، يضيف كانتان مكسباً جديداً كي تزعجه وتسيطر عليه وتروِّض العاشق الذي خدعها.

الآن وقد اقتربا من منتصف الليل، لا شك أن فيليب قد التحق بالسرير الزوجي ــ لم تعد تستطيع أن تعطي لنفسها تلك الذريعة. فإذا أبقت كانتان عندها، فإن ذلك من أجلها.

تظاهرت، حالياً، بتجاهل الطلب الأخرس للصبي، وهو البقاء هنا، ليقبِّلها وليضمَّها بين ذراعيه. نجحت، إثر بذل جهود كبيرة، في إطالة الحديث الذي كان يدور عن مواضيع مختلفة، من دراسة ومسلسلات تلفزيونية ورياضة وأغانٍ مفضلة. أحياناً، لم تكن تسمع شيئاً من الأجوبة التي يقدمها لها، فكانت تتأمل

شفتيه الممتلئتين والمرنتين والدمويتين وتعجب من طول رموشه وتحدق إلى منبت رقبته حيث شامة صغيرة جداً شأن زبدة مذهبة.

من جهته، كان كانتان يصرخ لها، بنظرات ملحة تختفي بمجرد أن تلاحظها، فيُحلّق بها فوق الغيوم.

إثر دقات منتصف الليل الاثنتي عشرة، ارتعشت أيف. ماذا يفعلان معاً؟ حان وقت تحديد ذلك. فهما يدخلان في القسم الوحشي لليل، واللا اجتماعي. كان رنين الجرس الرخيم يشع على القرية ويذهب ليلاقي لانهاية الموج.

كانت أيف ترتجف. وتعرف أنه يتوقع منها كل شيء، ولن يُقرر هو. أمامه، شغلتْ وضعية الرجل.

شُحنت الغرفة بتوتر ملموس؛ عادت العتمة لتصبح تلك الفسحة التي تتيح للعشاق أن يتَّحدا؛ بدا الصمت صاخباً بالأفكار والدوافع والزخم والحرمان.

أقرت أيف أن عليها القيام بشيء ما، أياً كان، لمجرد أن تتخلص من ذلك الجو المفعم بالظمأ الهستيري.

حدقت إليه. صمد أمام نظرتها. كان تراخي الشاب يصرخ «هيا، إنني موافق».

لكن أيف قد اعتادت أن يأتي الرجال نحوها، وأن تمتد الأيادي: رأت من البؤس أن تؤدي هذا الدور كأنها تعاني انحطاطاً وتقهقراً، فلم تبدِ حراكاً.

هل كانت تتشهاه؟ أجل، طبعاً. لأسباب كثيرة. لم يكن... غير مستحب، وإذا ما فتحت له ذراعيها، تثأر من الأب الذي تجرأ فسخر منها باعتبارها كمية مهملة. بهذا الفعل، لا بل تمحو عمرها، وهي تبرهن لفيليب أنها تنتمي إلى معسكر الشبيبة ــ عالم ابنه ــ، بعيداً عن الستين عاماً من عمره.

هل كان ذلك لا أخلاقياً؟ حين صاغت ذاك السؤال في ذاتها، اعتبرت نفسها رائعة: أن تهتم باللياقة بينما يضرب فيليب القواعد عرض الحائط وهو يخدع زوجته وعشيقته. ليس لها أن تقدم حساباً إلى سيد من هذا القبيل! عليها إذاً أن تأخذ المبادرة.

لكنها، ماذا تفعل بهذا المراهق بعد ذلك؟ ربما سيتعلق بها؟ لا شك أنه سيلزق بها؟ بالطبع لن يتصرف بتحفظ الرجال المتزوجين الذين تعاشرهم... هل ستعرف...

هوت شفتا كانتان، واسعتين، ملتهبتين على شفتيها.

في الصباح، استقبلت أشعةُ النهار أيف جديدة وكانتان جديداً.

في الخارج، كان نور أبيض كالزجاج النقي والشفاف يغمر الأفق. بدا البحر كـأنه لايزال نائماً، بلا حراك، يرفض استرجاع الألوان.

خرج كانتان من الشراشف كمن يخرج من تموج المياه، وعيناه شبه مغمضتين، وشعره أشعث. احتضنها بعينيه العذبتين اللتين تتوسلان بلهفة.

أجابت أيف على رجائه وهي تهمس قائلة:

ــ إنني سعيدة.

همهم من الرضا والتصق بها.

أثناء الليل، وجدت أن دورها كمبادِرة كما قبلت القيام به، هو دور يقتضي كثيراً من الحب، ليس بالضرورة حب كانتان، بل حب البشرية. لأنها تؤمن بأن العلاقة التي تربط الرجل بالمرأة مقدسة، فلقد أغدقت نصائحها ومارست صبرها وأتاحت للشاب أن يضبط اندفاعه وتأثره ليصل إلى طريق نشوتها.

طوال ساعات، ارتبطا وتباعدا، وقد سكر كل منهما بالآخر، وتقطعت أنفاسهما وهما يرتعشان.

أعلن كانتان قائلاً:

ــ سأبقى هنا، ولن أعود إلى بيتي بعد الآن.

ــ موافقة. أنا أيضاً!

هذا التمرد على برمجة الوقت قد كرس مغامرتهما: أعلم كانتان والديه أنه سيعود إلى بروكسل مع صديق فلا مجال ليقلقا؛ أما أيف، بتكتم أكبر، ألغت مواعيدها ــ مكتب العقارات، رفيقات، عشاق ــ وأغلقت هاتفها كي تتجاهل نداءات فيليب.

الأيام القادمة تخصهما؛ كان ذلك يبهجهما؛ اتخذا عطلة من حياتهما العادية، وهما يعيان أنهما يدخلان إلى ما بين قوسين سحريين.

أمضيا أوقاتهما في كسل بين الجدران التي خبأت لقاءهما، لأنهما كانا يخشيان التقاء وجوه معروفة، في الخارج. راح كانتان يقطع الغرف، وهو يلبس سرواله القصيرــ وهذا ما لا يجرؤ عليه مطلقاً رجل ناضج ــ تُزين صدره عضلات جديدة. كان يُخيل أحياناً لأيف أنها تلامس خصماً أكثر منه عشيقاً بقدر ما كان يبدو لها كاملاً وواعياً بذلك.

لكنه كان يكدرها. فبعد كل قبلة، تبقى رعشة على وجهه، نوع من رجفة خفية، مُنحبسة. أثناء تعاطي الغرام، كانت المتعة تطفح منه، فتنتزع صرخات فجائية مذهولة. وقد اكتشف متعة الحواس، أعاد إلى أيف نضارة الأحاسيس، التي أضعفتها السنون والعادة فخففت من عنف المتعة المحبب.

حين كانت تمر أمام المراة، تلمح على وجهها جدية حديثة. كانت ممارسة الكذب في الماضي تجمد تقاطيعها بابتسامة دائمة؛ إلا أن هذا القناع قد فقدته بما أنها قللت من مراقبة ذاتها.

يوم الاثنين، وهي تعرف أن سكان بروكسل الذين أرادا تجنبهما، قد غادروا الحمامات البحرية، خرجا. قاما بنزهات على ضفاف الماء وركبا الدراجة في الريف الأخضر والمسطح، وتناولا أقداحاً في المقاهي ولعبا الغولف، فأكثرا من تقليد مشاهد الفيلم العاطفي. فعل كانتان ذلك للمرة الأولى كما قامت أيف بذلك بأصالة جديدة. كانتْ عادة تُمثل العلاقة الغرامية أكثر من شعورها بها، من دون تهكم وباجتهاد: يمكن أن يُقال إنها تقلدها بصدق بقدر ما كانت تحتاج إلى الإيمان بما تقوم به. مع ذلك، فإن المشاهد الرومنسية رافقتها دائماً الحسابات: كان السادة يدفعون كل شيء وهم يضيفون إلى ذلك هدايا كثيرة ـ إن التكفل بها لا يكفي، يجب تدليلها. مع كانتان شعرت بمتعة لم تحسها حتى ذاك الحين وهي إخراج محفظة نقودها في نهاية الطعام، ودفع ثمن فطيرة وعصير كوكتيل أو قرن بوظة. أحست أنها أكثر قوة، أكثر حباً في كل مرة. قبل كانتان الوضع بعفوية تفوق العفوية التي أظهرتها طوال حياتها لأنه لم يكن يقوم بحسابات، أما هي فقد كتبت باستمرار حساب جمع داخلي كي تستطيع قياس مدى ارتباط السادة.

في المقابل، حين كانت مدفوعة بحميتها، عرضت على كانتان أن تهديه ملابس، فاستشاط غضباً. وقد اقتنعت أنها مست كبرياءه الذكورية، فسعت إلى أن تبرر نفسها لكنها كفت عن ذلك حين أدركت أن، بالنسبة إلى كانتان، شراء الملابس يعود إلى وظيفة الأمومة.

ما أهمية ذلك! كان لكانتان تصرفات خشنة رائعة؛ قليل الثقة بنفسه، يجرؤ على إلقاء نظرات سريعة متوسلة لا يلقيها أي رجل ناضج. حين يأخذها، يظهر مشبوب العاطفة، محموماً، مرتجفاً ومندفعاً معاً، وهو بالغ الدهشة بالأحاسيس التي يشعر بها أو تلك التي يثيرها فكأن ألف انفعالٍ يخترقه.

لقد اتفقا على ثلاثة أيام من السعادة. منذ اليوم الثاني طرأ تحول على أيف. بمقدار ما كان كانتان ينشرح، كانت تستغرق في التفكير. فعدم الاكتراث لدى تلك التي يصفها العالم ببرقش فرح، كان ظاهرياً؛ فهي مهووسة باستمرار بأمانها ومستقبلها؛ فطائر البرقش يُخفي سنجاباً.

أحزنها اليوم الثالث. فكلما كانت أوقاتهما المشتركة ناجحة، ازداد حزنها. حوالى الظهر، أدركت ما حدث لها: بالقرب من المراهق، اكتشفت تقدمها في السن. لم تكن نظرة كانتان ولا نظرة الآخرين تعبر لها عن ذلك؛ هي نفسها أحست انعدام حماستها ولاحظت أن فرحها يستجيب لفرح كانتان عوضاً عن أن يستبقه. كانت

هي، عادة، الحورية الصغيرة، والشابة الفتية واللعوب المفعمة بالحيوية؛ هنا، كانت تعقل وتفكر وهي ذات خبرة. في منعطف جملة، تفاخر بعلاقته مع «امرأة ناضجة». كادت تختنق: حتى الآن لم تكن تعتبر نفسها «امرأة ناضجة». ماذا سيكون الغد؟ إذا كان يتمنى كانتان الاستمرار في تلك العلاقة، بعد ستة أشهر، بعد سنة، وفي أفضل حال بعد ثلاث سنوات، سيتركها لشابة في عمره. تفحصت، في غرفة الحمام، وجهها: إذا استمرت العلاقة، فستصبح امرأة مثيرة للشفقة، تخشى انحطاطها وتترقبه. بينما تظن نفسها في الربيع، سيدفعها نحو الخريف. يجب أن تحميها الكبرياء من الانهيار.

القطيعة، القطيعة بأسرع ما يمكن. يجب حصر تلك المغامرة العاطفية؛ اكتفت أيف بثلاثة أيام؛ إن تجاوزت تلك المدة فستصيبها الكآبة.

إن أبعدت كانتان، فستعود شابة ــ على كل حال طفلة أمام عشاقها المسنين. إن أبعدته فستعود ثانية تلك التي تستخدم الرجال، وليس تلك التي تقيم بأود أمير. إن أبعدته، فستصبح ثانية مركزاً لحياتها.

في الساعة الخامسة، حين عادا من نزهتهما على الدراجة على طول القنوات، لم تسمح له في أن يحلم بسهرتهما.

ــ اذهب كانتان، عد إلى بروكسل. إنك تعرف الآن أن تتصرف كرجل بالقرب من امرأة. فالحياة ملكك.

ــ متى سنلتقي ثانية؟

ــ مطلقاً.

أصيب بالذهول فشد جلد جبينه كمن يمسك بقبعة تقتلعها الريح وخفق جفناه، وهو مقتنع أنها تمزح.

أمسكت راحته الحارة والملساء والمتشوقة.

ــ انسَ هاتفي، لن أحييك إذا صادفتك، لن أجيبك إذا ما وجهتَ إليَّ الكلمة، سأتركك أمام بابي إذا دققت عليه. لن نلمس بعضنا بعضاً بعد الآن، كانتان. من الآن فصاعداً، ستحتفظ لي بمكان جميل في ذاكرتك حيث سأكون واحدة من ذكرياتك، الذكرى الأولى لامرأة لك... وأنت... ستصبح إحدى ذكرياتي...

اغرورقت عيناها بالدموع وقد فوجئت بذلك. حددت قائلة:

ــ واحدة من أجمل ذكرياتي...

تكسر صوتها. يا للهول! عليها أن تقاوم الانفعال! من دون حزن! ليس هنا! سترثي لحالها وتشفق على شبابها الذي ولى، على تلك الفترة المجهولة والمقلقة لمرحلة

النضج التي انفتحت أمامها. المسدس على الرقبة، تتقدم المحكوم عليها بالموت، مرغمة، على الدرب الذي يؤدي إلى فنائها.

ارتمت بين ذراعيه لتبكي من دون أن يراها. استقبلها على صدره الفتي المقعر، داعب وجهها بيديه الكبيرتين، وقد دُهش من هذا الحزن الخاطف. من بكى إذاً من أجله حتى الآن؟ ألبان، ولكن ليس هكذا. ليس لتبحث عن ملجأ ضد جلادها.

رفع صدره، مزهواً. حين ضم تلك المرأة ليواسيها، قطع أيضاً مرحلة من تدريبه الرجولي، وبالرغم من أن هشاشة أيف قد أحدثت فيه بالغ الأثر، فلقد استمد منها فخراً واعتزازاً.

أما بالنسبة إلى الفراق، فلم يكن يؤمن بذلك. دوَّى جرس.

إن التاكسي الذي أوصت عليه أيف جاء يطلب زبونه.

لم يتوصل كانتان إلى أن يقبل أنها قررت كل شيء. لكنه صمت.

قبلته أيف للمرة الأخيرة، وصحبته إلى الباب بعظمة. استسلم لها كانتان وهو مربك وخجول.

اختفت السيارة.

حين أصبحت وحيدة، وقد أغلق الباب، بقيت أيف جامدة كالتمثال، وقد اجتاحها ألم تعرفه بالغ المعرفة، والتزامها بعدم البوح لأي شخص بما كانت تتمنى أن تصرخ به عالياً.

ثم، وقد تمالكت نفسها، بعد دقيقة، تنهدت بارتياح. لقد نجت تواً من خطر هائل، من قوة مجهولة قد تقضي عليها، قوة خفية قد تؤدي بها إلى أن تفضل سعادة كانتان على سعادتها، قوة لا تحتمل قد تقودها إلى نسيان ذاتها، قوة كريمة قد تهدم مصالحها بدلاً من أن تدعم تلك المصالح.

هذه القوة الغريبة، لو لم تنتصر عليها فوراً، لأمكنها أن تطلق عليها اسمها الصحيح: الحب.

٣

لم تكن المعجزة عسيرة...

تعانق العشاق الثلاثة وانضموا بعضهم إلى بعض، تلامسوا وتداعبوا وتداخلوا. كانت ساق تلاطف ردفاً وذراع تنفذ في المعمعة وفاهان يرتبطان إلى أن يأتي فاه ثالث يحكم الوثاق؛ فالأجساد تتلامس من دون تسمية وتفقد الجلود هويتها لكنها تُغدق النشوات التي تعرف كيف تقدمها بسخاء ولهان.

في البدء، إذا كان باتيست يتأمل جوزفين تُقَبل عشيقتها من دون انزعاج، إلَّا أنه كان يرتجف حين يرى نظر زوجته مسلطاً على لهوه الخاص مع إيزابيل، فيحجم وهو غير واثق من الاستمرار، شاعراً برفض يجتاز مناطق الضمير الحضاري الواضحة ليعبر عن تملك غريزي ينحدر من إرث عتيق في الدماغ. كانت جوزفين تتألم من رؤية رجلها تضمه عشيقة، وإن كانت تلك عشيقتها. وقد أدركت تناقضها، لجأت إلى إرادتها لنجدتها لتفرض عليها تصحيح ردود أفعالها وتحمل المشهد. النتيجة؟ كانت جوزفين هي التي تقود أحياناً حركات باتيست نحو إيزابيل، كي تقنع ذاتها بأن الوضع لا يفلت منها. فيلتصق الثلاثة ويندمجون، مشكلين ثلاثياً يزداد تجانسه ساعة بعد ساعة.

في الصباح، أحسّوا أن الكون قد تغير. هجروا عالماً ضيقاً، شحيحاً، متاهة أحكام مسبقة ومُحَرمات لينفذوا إلى عالم آخر، فسيحٍ ومشرقٍ ومنفتح.

تابعوا ممارسة الحب، بلطف، وبضعف شأن من يدندن أغنية كان قد صرخ بها ملء الصوت، كان لا بد بخاصة من تبرير بقائهم في السرير.

استغرقت الامرأتان في النوم، متعانقتين. كانت وضعية إيزابيل في الوسط تعني أنها تخص الزوجين.

انزلق نحوها وألصق منخاريه بقبضتها وتنشق بقوة وهو يصعد من المرفق حتى الإبط، ثم يبطئ في قعر الرقبة الغض: كان يطبع رائحتها، آمراً دماغه بأن يحتفظ بالأثر، ويربطه إلى الأبد بالشهوانية. كان يتمنى، وقد فوجئ شخصياً بذلك، أن يُسجل إيزابيل في مستقبله.

نهض جائعاً باندفاع، وقد أشبع بالمتعة. لقد حل الارتياح بشكل واسع مكان

النوم. فمنذ زمن طويل، لم يتعاط الغرام مرات كثيرة في ليلة واحدة، فكاد أن ينسى إمكانية ذلك. إن العيش خمسة عشر عاماً بالقرب من امرأة، يفقد المرء الشعور بالحاجة الملحة مادام يُهدهده إيقاع الحياة الزوجية. ذكرته تلك الليلة أن الرغبة لا تفنى في اللذة، وأنها تدوم بعدها حتى أنها تستمر بالتثبت إلى أبعد من قواه.

مع ذلك فالنضارة التي أحسّها باتيست هذا الصباح تأتي من خفة جوهرية: لقد تخلص من الغيرة. إذا كان فكره قد حمل دائماً ذلك القلق، لكنه توصل إلى أن يعيش باختفائه الكامل.

مشى نحو حاسوبه، متذرعاً بموسوعته عن الحب ليفتحه، ووجد المقال «الأمانة الزوجية» فارتجل بسرعة كبيرة:

ماذا هناك أشد غباوة من أمانة تسبب الحرمان؟ تكمن الأمانة الحقيقية بهذا الوعد: سأعطيك غداً بقدر ما أعطيك اليوم. هذا هو الحب! يجب تجنب: لا أعطي إلّا لك، لن أعطي بعد اليوم للآخرين. الحب المُقتّر، الحب البخيل، الحب الذي يُقصي، ألا يزال هذا حباً؟ بأي عدم تجانس تبترنا الاستقامة؟ كيف ربط المجتمع الالتزام بالعفة خارج الزوجين؟ إلّا أن الثبات والتقشف لا علاقة لهما بذلك. ثمة بعض الأزواج ينتهي بهم الأمر ألّا يناموا معاً: أيعتبر ذلك أمانة زوجية؟ بعض الأزواج يصلون إلى كره بعضهم بعضاً أو إلى الاحتقار: أيُعتبر ذلك أمانة؟ بالنسبة إليّ، يعني عدم الإخلاص نسيان قَسَم الحب مدى الحياة. إلّا أنني أحب من دون أن أضعف أو يقل حبي لجوزفين، وأحب أيضاً إيزابيل. بشكل مختلف. من الضلال حصر الحب بين الزوجين.

وقف واقترب من النافذة التي تطل على ساحة آريزو. ثمة ببغاء يغازل أنثى جميلة من جنس (ara) متعددة الألوان تحت رقابة درّة خضراء بلون العشب.

لماذا يخلط الناس بين الحب والتناسل؟ بالطبع للحفاظ على النسل، يلزم ذكر وأنثى. ولكننا لسنا مجرد حيوانات تتناسل. فخارج التناسل، ما هي ضرورة الثنائي؟ لماذا أقاموه كأنموذج وحيد؟ « عبثاً!»

عاد باتيست إلى مكتبه وأغلق حاسوبه، وهو يعي أنه لن ينشر ما أتى على كتابته، ذهب إلى المطبخ ليعد فطوراً عارماً. فمن المهم نصب الطاولة وتسخين الفطائر وإعداد البيض المخفوق والحلوى؛ بعد ليلة دغدغت رجولته هكذا، لم يرد أن يُعتَبر ذكورياً بالنسبة إلى عشيقتيه؛ فالقيام بالطبخ بدا له تصرفاً أنثوياً لا يمكن الاستغناء عنه.

كان الثلاثي يزدهر. فكل ليلة تثبت انبهار الليلة الأولى. أثناء النهار، تتشارك جوزفين وإيزابيل في الساعات التي لا تعمل فيها هذه الأخيرة. أما باتيست، وقد غاص أخيراً في موسوعته عن الحب، فراح يكتب في مواضيع مختلفة، مداعبة، قبلة، دونجوانية، بثقة جديدة.

كان هو وإيزابيل يتآلفان بعضهما على بعض. ما إن يتواجدا من دون جوزفين حتى يغمرهما الخجل: كانا يقدران التباعد بين حميميتهما الجنسية وحميمية نفسية بعيدة عن المس شأن ثلج حديث العهد. كانا يجهلان تاريخهما. وإن كانت تُستشف رهافة باتيست من خلال كتبه، فإن للرجل سمات مميزة وحياءً وخجلاً ومرحاً وبهجة ووساوسَ لم تشك إيزابيل بوجودها.

كلما ازداد تآلفهما كانت جوزفين تقلق. تلك التي أرادت هذا الثلاثي تتعذب في قبوله، وقد أدركت ما سلبتها تلك التجربة وهي التفرد بباتيست والتفرد بإيزابيل. فوضعُ كل شيء مشترك جعلها تخشى أن تفقد كل شيء. كان الشك ينخرها أحياناً بشكل مؤلم: فإذا مكثت إيزابيل وباتيست ساعة بعيداً عنها جعلها ذلك تفترض أنهما سيرحلان بدونها؛ وإذا تباطأا في السرير بعد أن تكون قد نهضتْ، تخيلتهما يستفيدان من غيابها، ومن ثم، تظهر فجأة من دون إعلامهما، بنظرة متفحصة. فبعد هذيان الحماسة حين تشيد بذلك النجاح الذي لا يُصدق ـ الثلاثي ـ تليها حركات غاضبة لا مبرر لها.

اقترح عليها باتيست أن يتحدثا بذلك قائلاً:

ـ إذا لم نستعمل ذكاءنا، فلن نعيش ثلاثتنا معاً. يجب أن نصوغ صعوباتنا، جوزفين، وأن نُعَبر حين نشعر بالحرمان وبالتعاسة أو بالحزن.

إثر تلك الكلمات، ارتمت جوزفين بين ذراعيه.

ـ سامحني، باتيست، سامحني. لقد حطمتُ ما كان بيننا من قبل، حطمتُ حبنا العظيم، حبنا كلينا.

قاوم باتيست انفعاله.

ـ لنكف عن التحدث هكذا. يستمر حبنا وهو يأخذ شكلاً جديداً.

ـ لقد خرَّبتُ كل شيء!

ـ فلنبنِ. إننا كزوجين موجودين في الثلاثي، جوزفين. تعي إيزابيل أنها العنصر المُضاف. على كل حال، لا أعرف كيف تتحمل ذلك.

ـ أنا وأنت، ارتباطنا مدى الحياة.

ـ والبرهان.

تعانقا، لحقت بهما بعد ذلك إيزابيل ثم عادت جوزفين إلى مزاجها المرح والجسور، الذي كانوا بأمس الحاجة إليه.

ذات مساء، بينما كان ثلاثتهم يعدون الطعام وهم يدردشون، في اللحظة التي وضع طبق المعجّنات داخل الفرن، عبرتْ ذكرى في خاطره:

ــ إلهي! المحاضرة...

أفلتت جوزفين سكينها قائلة:

ــ آه، لقد نسيتُ أن أذكرك بها.

هرعت نحو دفترها:

ــ في عشرين دقيقة، في مركز المؤتمرات.

تجرأت إيزابيل قائلة:

ــ أخبرهم أنك مريض.

صرخ باتيست:

ــ أفضل أن أموت عن أن أعتذر!

أمسكت جوزفين يد إيزابيل لتوقفها قائلة:

ــ لا يعتذر باتيست عن موعد مطلقاً. يتفاقم مرضه حين يعتذر عن مقابلة إذا كان مصاباً بنزلة برد حادة، أو حتى أن كان يُحتضر.

كان قد اختفى في الغرفة ليغير ملابسه بينما كانت جوزفين تطلب تاكسي.

سألت إيزابيل:

ــ أترغب في أن نرافقك؟

بينما كان باتيست يتمنى أن يرد بالإيجاب، بادرت جوزفين قبلها:

ــ آه كلَّا! سنزعجه. بالإضافة إلى ذلك، بصراحة، أنا، طوال خمس عشرة سنة، أعرف الأسئلة والأجوبة وكل القصص التي سيرويها. يكفي!

تذمر باتيست، وهو يناضل كي يضع أزرار قميصه، قائلاً:

ــ اذهبي مكاني، إذا كنتِ ماكرة هكذا.

انفجرت جوزفين بالضحك قائلة:

ــ لا ترتع: ستكون في منتهى الكمال.

حين وصل إلى مكان المحاضرة، عبَر باتيست من مدخل الفنانين، فلم يلتقِ أحداً، نادى في الممرات الخالية وقرر الصعود إلى المجمع في الطابق العلوي. هناك

أحس هيجاناً؛ بمجرد أن لمحه منظمو اللقاء تهافتوا نحوه، مضطربين، متوترين. فكر باتيست وقد ارتاح لفكرة الرحيل:

« سيقولون لي إنهم لم يبيعوا بطاقة واحدة».

على العكس، كانوا مغتبطين وقد أثرت الكحول فيهم، فأعلموه أنهم استقبلوا جمهور السهرات الكبيرة، كما لم تجذب محاضرة كل هذا الجمهور منذ عشر سنوات مطلقاً. لم يكن ثمانمئة شخص وحدهم يشغلون المدرج، لكنهم وضعوا شاشات بث في الصالتين المجاورتين، لأنه عدد المشاهدين الذين اشتروا بطاقاتهم بلغ ألفاً ومئتين ليروا باتيست ويستمعوا إليه.

رغب في الهرب: لم يكن قد حضَّر شيئاً.

ـــ أليس عندكم مكتبٌ أنعزل فيه؟

ـــ ماذا؟ ألا تشرب معنا؟

نظر باتيست إلى العمدة الفرح والمتوَرد الذي قدَّم له قدحاً بلطف. كاد أن يقول له إنه إذا اعتلى المسرح في حالته فلن يأتي مشاهد واحد المرة التالية.

تمتم بابتسامة متواطئة كمن يُشير إلى أنه في نهاية المناقشة، يُسمح بالنزوات:

ـــ فيما بعد...

بعد أن سدد ضريبته من حسن المزاج والمجاملة، صحبوه إلى غرفة ليستعد. كانت نشرة المحاضرة تعلن « ما نفع الأدب؟».

طوى ورقة إلى قسمين وخط بعض النقاط. شأن عازف بيانو يُدوِّن الأنغام التي سيرتجل انطلاقاً منها، فسجَّل النقاط التي سيطرحها. إن المؤلف الذي يتوجه إلى الجمهور ينتمي أكثر إلى عازف الجاز منه إلى المؤلف الموسيقي الكلاسيكي؛ فبدلاً من أن يكتب نصاً وينفِّذه، عليه أن يَخلق لحظة فريدة أمام المشاهدين وهو يجازف، وينطلق في استطرادات ثم يستعيد زمام أمره فيتلقى الصيغة التي تنبثق، تاركاً الانفعال يلوِّن فكرة ما قبل أن يقفز ثانية ليقطع النبرة والإيقاع. إن كان باتيست لا يكتب محاضراته، فليس لأنه لا يحترم الجمهور أبداً بل لأنه يحترمه. في الماضي، في كل مرة دوَّن مداخلة، تفقد تلك كل حياة حين يتلجلج في قراءتها على المنبر، وأنفه بين الصفحات، قاتمٌ لا حضور له؛ وهو قارئ، لا يمس قلوب الناس الذين يشعرون بأن باتيست الحقيقي بقي في البيت مرسلاً أخاه التوأم، الأقل حمية، والأدنى تألقاً، يتلعثم بكلمات مكانه. خلص باتيست إلى أنه يمثل ذاته بشكل رديء.

في المقابل، حين يؤخذ على حين غرة أو يُحرم من أوراقه الضائعة، يضطر إلى أن يرتجل، ويثير الصالة. فالتحدث، بالنسبة إلى كاتب، ليس في أن يقرأ نصاً أَلِفه لكن

أن يجد أمام الجمهور الجرأة المبتكرة للعزلة، ويقدم مشهد الفكر وهو يعمل. عليه أن يظهر النار لا أن يشير إلى الشيء البارد؛ الفعل وليس النتيجة.

في ذاك السبت مساءً، خلص باتيست إلى أن عليه أن يثق بنفسه كي يظهر أمام الملأ في مصهره. هنا تكمن الصعوبة: في الآونة الأخيرة، إذا كانت ثقته قد ازدادت في قدرته على الإغراء والتمتع وتمتيع الغير، فإنه أهمل مهنته الثانية ــ الكاتب الذي يتحدث في خدمة الكاتب الذي يكتب.

جاؤوا لاصطحابه. دخل أمام مستمعين يصفقون له بأقصى قوتهم.

فوراً، كانت الوجوه المتطلعة نحوه تشجعه... حلَّق على أجنحة الإلهام، مترجّحاً بين السذاجة والثقافة العالية. لم تكن سذاجته كاذبة، كما لم تكن ثقافته إلّا رفيعة، مع ذلك كان يلعب على وتر الاثنتين.

بعد ساعة، هتف الحضور بنجاحه الباهر وصحبه حتى البهو ليوقع كتبه.

حول طاولته، كان كثير من الكتاب يجالسونه وممثلون عن دار النشر وصاحب مكتبة وفوستينا الملحقة الصحفية التي ينظر إليها كشخصية من قصص الخيال لكنها لم تكن تجذبه ــ كان ينتظر اللحظة التي تذهب فيها بعيداً وقد تخلت عن المزاح إلى الخبث والرذالة، كما تركت الظرافة إلى النميمة.

إلّا أنه حدث، بينما كان يوقع المجلدات، أن أظهرت فوستينا وزملاؤه لطفاً مندفعاً إن لم نقل مبالغاً فيه حيث أحس مسحة من الشفقة.

«ماذا الشيء المؤثر فيّ؟ هل كانت محاضرتي مدعاة للسخرية؟».

راحوا يقلقون عنه، أرادوا أن يكون في أحسن حال، عرضوا عليه الشراب والطعام والدخان، كل ما يتشهى.

أثنى عليه صاحب المكتبة بطريقة ملحة عن السلطة التي يمارسها على النساء اللواتي يوقع لهن كتبه.

ــ حقاً، إنك تغري من تريد، سيد مونيه.

أضافت فوستينا:

ــ إنهن مدلهات به.

ــ لن يستطيع هذا الرجل أن يبقى يومين وحيداً.

تابعت فوستينا قائلة:

ــ على كل حال، لي صديقة، واحدة، بلا شك، من أجمل النساء اللواتي أعرفهن ــ بالإضافة إلى ذلك، لسوء الحظ، فهي ثرية وذكية ــ ولا تحلم إلّا بلقائك، باتيست. لا ترغب في رجل سواك. هل أقدمها لك؟ هذا لا يُلزمك بشيء...

ــ لا تزعجي السيد مونيه، فوستينا. إنه يعرف ما يتمنى. لا يحتاج إلّا أن يفرقع أصابعه كي تركض إليه النساء.

أدرك باتيست فجأة ماذا حدث: يعتقدون أن جوزفين تخونه. لا شك أنها مع إيزابيل قد تنزهتا في الشوارع وهما تتبادلان القبل فشاع الخبر. تفحص الناس المحيطين به، والمتفقين جميعاً، يحنون بشفقة رؤوسهم نحوه.

فكر وهو يقاوم موجة عارمة من الضحك: «ها أنا الآن أعرف كيف ينظر الناس إلى الرجل المخدوع».

بعد أسبوع، في منتصف فترة بعد الظهر، قُرع الباب.

ذهب باتيست ليفتح وتعجب من اكتشافه جوزفين وإيزابيل على قرص السلم:

ــ ماذا دهاكما؟ أليست معكما مفاتيحكما؟

أشارت جوزفين إلى الأكياس العديدة والحقائب المصفوفة على قرص السلم وقد امتلأ حتى آخر درجة.

ــ إننا نلتمس إذناً.

بنبرتها الخاضعة، كانت توحي بفتاة صغيرة تستجدي من والديها حق الخروج للسهر.

ــ نعم؟

أشارت جوزفين إلى إيزابيل، المستندة إلى الحائط، منهارة، والتي تتردد بين الابتسامة والدموع.

ــ رحلتْ من بيتها.

خشي باتيست أن تكون إيزابيل قد تعرضت لتصرفات عنيفة.

ــ هل تخاصمتما؟ هل أهانك؟ هل طردك؟

اقتربت إيزابيل وقالت بصوت جعله نفسها مرتجفاً:

ــ لا يعرف زوجي شيئاً حتى الآن. تركت له رسالة على طاولة المطبخ. سيكتشفها حين يعود هذا المساء.

لم تجرؤ على أن تمس باتيست، مع أنها كانت تتشهى ذلك. تمتمت:

ــ لم أعد أتحمل العيش هناك. لم يعد مكاني هناك. إنني...

بما أنها لم تستطع أن تكمل جملتها، تابعت جوزفين قائلة:

ـ إنها تود أن تعيش معنا. هل أنت موافق؟

تفاجأ باتيست من الطريقة التي جرى فيها المشهد. هل الكاتب في أعماقه هو المتعجب؟ سأل عن الشكل أكثر من المضمون وأشار إلى الأكياس.

ـ يبدو لي أنكما قد اتخذتما قراركما من دوني.

احتجت جوزفين باستنكار:

ـ على الإطلاق. لهذا السبب دققت الجرس. كي أرجوك أن تستقبل إيزابيل، وليس لأفرضها عليك.

ـ بماذا فكرت في حال رفضي؟

ـ أضع الحوائج في القبو ونبحث عن شقة صغيرة في الجوار.

أكدت إيزابيل قائلة:

ـ لن أعيش بعد اليوم مع زوجي.

هزَّ باتيست رأسه.

صحيح أن... من دون التحدث عن جوابي... أجد أن الطريقة التي جرت فيها الأمور ينقصها...

صرخت جوزفين بتعجب:

ـ ينقصها؟

ـ رومنسية.

انفجرت الامرأتان بالضحك. تراجع باتيست خطوة وهو منزعج.

ـ كلَّا، باتيست... لا تنزعج. ضحكنا لأننا تراهنَّا أنك ستقول ذلك... سعت إيزابيل إلى أن تسترجع جديتها فقالت محددة:

ـ هذا صحيح، توقعتْ جوزفين رد فعلك.

أشارت جوزفين بسبابتها نحو باتيست قائلة:

ـ أتذكر يوم طلبتك للزواج: كنتُ ألبس قبعة حمَّام رشَّاش على شعري ـ إلَّا أنك تكره قبعات الحمَّام الرشَّاش ـ وكنتُ أطلي أظفاري ـ إلَّا أنك تكره القطن بين أصابع رجليَّ. كنتَ بالغ الانزعاج لأنني اخترتُ وقتاً كنتُ بلباس مضحك حتى أنك لم تجبني.

استدارت ساخرة، نحو إيزابيل قائلة:

ـ سيدي بالغ العاطفية في الحياة الواقعية. فإذا كان يبحث من أجل كتبه عن مواقف ليست تقليدية، فإنه ينتظر أن تنتج حياته مسلسلاً هوليودياً.

ـ هل انتهيتِ من السخرية مني، جوزفين؟

أوقف باتيست زقزقة زوجته التي أدركت على الفور أنها قد أهملت الموضوع الرئيسي. نادى إيزابيل قائلاً:

ـ إنني سعيد، إيزابيل، بقدومك لتعيشي معنا. في الواقع، كنتُ آمل ذلك منذ المساء الأول. لم يكن عليك أن تنتظري إلّا...

ـ ثمانية أيام! صرخت وهي تقفز بين ذراعيه.

انضمت إليه جوزفين وهمست في أذنه:

ـ إنني فخورة جداً بك، حبيبي باتيست. فأنت الرجل الأكثر حرية الذي أعرفه.

ـ إنني لست حراً لأنني عبدك.

ـ هذا ما أردت قوله.

حملوا الأكياس ودخلوا فرحين، إلى الشقة، وهم يبحثون كيف ينظمون الشقة من جديد ليعيشوا فيها معاً.

٤

كان ڤيكتور يرى دمه يسيل في أنابيب زجاجية مختلفة وقد تمدد على سرير مائل. عملت الممرضة بمهارة، مستمرة في أخذ الدم ناظرة إليه بحنان.

ــ ألا أؤلمك؟

ــ كلّا، على الإطلاق، شكراً. إنني معتاد ذلك.

هزّت الممرضة رأسها، متأثرة بما استشفت وهي تراجع الفحوصات المسجلة على الوصفة.

رفع ڤيكتور نظره عن ذراعه كي يتفحص الغرفة. كم من غرف رأى، منذ طفولته، من تلك الصالات المطلية بألوان فاقعة، تضيئها مصابيح النيون، وتزينها خزائن بيضاء، حيث تحمل لوحات من الفلين، مثبتة بدبوس، بطاقات بريدية بهيجة أرسلها المرضى إلى الطاقم المعَالِج؟ بشكل متناقض، كان يحس أنه في البيت في تلك الكهوف للعناية لأنها كانت نقطة ثباته الوحيد طوال الأعوام حيث كان يتبع أباه من شقاء إلى شقاء. فالمستشفى يُطمئنه. كان يعشق المشمع المرن الذي يغطي الأرضية، وكذلك صالات الانتظار بأحواض الزهور البلاستيكية، والطاولات المنخفضة المغطاة بصحف عتيقة تعود إلى ما قبل الطوفان، ورائحة المُطهِّر، وصوت واقيات الأحذية؛ كانت تستهويه بشكل خاص الأنثوية التي تعبق في الأماكن؛ وقد احترم باكراً أمه، فاعتبر الممرضات، والمساعدات والمختصات بعلم النفس والمشرفات الاجتماعيات شأن نساء حياته.

قالت وهي تضغط بالقطن على الوريد:

ــ هيا، يمكنك الذهاب لرؤية الدكتور موران .

شكر الشاب السيدتين وتوجه نحو المقصورات حيث الاستشارات الطبية.

دعاه البروفسور موران للجلوس، وهو رجل قصير القامة بحاجبين فحميي اللون، وبسمة لا تنقطع على شفتيه المحمرتين.

ــ نبأ سار، ڤيكتور: نتائجك ممتازة. فالفيروس الحاضر أبداً، لم يعد يتكاثر.

لقد توصلنا إلى حصره بالرغم من تنقلاته المتعددة. إن لم يختفِ لأننا هاجمناه كثيراً لكنه الآن مُحيدٌ.

كان الطبيب مغتبطاً شأن من يشارك في لعبة بالفيديو.

ــ إن تناقص الفيروس في جسمك يهمني أكثر من دفاعاتك المناعية، التي بقيت، على كل حال، ثابتة، على مستوى كافٍ. أما بالنسبة إلى الشحوم الثلاثية، فمستواها جيد. الكبد ممتاز. لا يوجد شحوم في الدم.

راح يفرك يديه.

كان يعرف ڤيكتور أن هذا الرجل اللامع والشجاع، يعالج الناس بتفانٍ، لكنه لم يستطع أن يمتنع عن جرحه قائلاً:

ــ إنك تعلمني الآن أنني مريض يتمتع بصحة ممتازة؟

حدق إليه الطبيب بلطف:

ــ ما دمنا لا نستطيع القضاء على فيروس «السيدا»، فإننا نجهد لنتيح لك أن تعيش معه. إنه نصف نصر، ليس نصراً تاماً، يؤمن لك حياة شبه طبيعية.

ــ إن هذا « الشبه» هو الذي يتعبني.

ــ ماذا تشعر؟ هل ثمة أعراض جانبية؟ ألم تعد تتحمل العلاج؟

ــ إنني أتحمله.

ــ ألم تعد تتحمل أخذه؟

ــ ولا ذلك مطلقاً.

ــ اشرح لي.

أيجب شرح ما هو بديهي؟ أصيب ڤيكتور بالسيدا، وهو في بطن أمه، فكان طفلاً ذا مصل إيجابي (séropositif)، ومراهقاً ذا مصل إيجابي؛ وإذا أصبح، بفضل تقدم الطب، راشداً ذا مصل إيجابي، فإن التدريب السابق لم يجدِ نفعاً: كان يتألم بشكل لا يُطاق حين يحاذي امرأة. بالطبع، كان يضاجع وهو يستعمل الأكياس الواقية، لكنه اكتشف أن العشاق ينسون بسرعة الحذر ليلهوا في عناقات خطرة؛ فبمجرد أن يظهر هذا النوع من الحميمية المشبوبة يُصاب ڤيكتور بالهلع. لم يكن يريد أن يكذب ولا أن يخفي وضعه، بدافع الشرف، فكان يعلن عن مرضه، ولسان حاله يقول: « لستُ مستقبلكِ؛ لن نستطيع ان نستغني عن جدار من الكاوتشوك بيننا؛ فالخوف سيتعقبكِ، وأنا أيضاً؛ ولن أكون أباً لأولادكِ». بقدر ما أنهى قصص حب ابتدأت بداية حسنة، وصل إلى قرار بصد الفتيات قبل أن تبدأ العلاقة. أصبح كل ممكن مستحيلاً. في العشرين من عمره، انسحب من ميدان الحب.

ـ إنني نتن. إذاً، حياتي نتنة. الآن، لم يعد في استطاعتي الارتباط.

ـ هل أنت عاشق؟

رفع ڤيكتور رأسه، وقد تفاجأ من حصافة السؤال. أجل، كان عاشقاً لأوكسانا. لم يستطع أن يقاوم هذا الشعور وتشاركا الفراش منذ عدة أيام.

ـ أتساءل، في كل لحظة، متى ستكون لي شجاعة تركها.

ـ قبل أن تصل إلى ذلك، أفضِ إليها بوضعيتك في إيجابية المصل.

ـ ما الفائدة؟ سترحل. أفضل أن أستبق الأحداث.

ـ بدافع الكبرياء؟

ـ كي لا أتألم كثيراً. لا أريد أن يُنظر إليَّ هكذا.

ـ كيف؟

ـ شأن مريض.

ـ أن يكون الانسان مريضاً ليس في ذلك أية مهانة. وكذلك لا فضل لمن يتمتع بصحة جيدة. لو كانت أمك لا تزال من هذا العالم، هل تخجل منها لأنها التقطت هذا الفيروس؟

ـ لا.

ـ هل تعتقد أن خطيبتك ستلومك لأنك، وأنت جنين، تلقيتَ هذا الفيروس بدورك؟

ـ حسناً، إن كلمة « خجل» ليست مناسبة. لكنها سترحل.

ـ كيف تعرف ذلك؟

ـ التجربة.

ـ إنك تتحدث عن الماضي بينما الموضوع عن المستقبل.

ـ سيان.

ـ برهن لي عن ذلك.

بقي ڤيكتور فاغر الفاه. حتى الآن، لم يتطرق الدكتور موران إلى ما هو أبعد من النتائج السريرية.

ـ إنني ألح. برهن لي أنها لا تستطيع أن تقدرك كما أنت. برهن لي أن ودك المزمن يجعلك فجأة دمياً، غبياً، شريراً، لا يمكن معاشرتك في نظرها. برهن لي أن لا وجود للحب.

انتصب ڤيكتور واقفاً، وضرب المكتب بقبضته.

ــ هل تتسلى بصوغ جمل جميلة؟ وبتحريك مشاعر نبيلة؟ هذا ممتع! أليس كذلك؟

استدار نحو الحائط، وضربه بقدميه، وبكف يده، وكل ضربة كانت تزداد عنفاً، وهو غير قادر على تهدئة نفسه. ثم، وقد نفدت قواه، وشفتاه ترتجفان غضباً، كرر جملة الطبيب:

ــ برهن لي عن وجود الحب! ترهات!

ختم حديثه:

ــ من السهل قول ذلك حين لا يكون المرء مريضاً!

ــ ما أدراك بذلك؟

ــ ماذا؟

ــ أنني لست مريضاً؟

أوقف هذا الرد ڤيكتور. تردد، ويده في الهواء، ثم ترنح وحاول أن يستعيد توازنه، فتأوه وانهار على سرير الاستشارة.

ــ يا لي من غبي!

اقترب منه الطبيب، وطبطب على كتفه.

ــ اطمئن، اعتدت أن يحدثني الناس كما يتحدثون إلى كوة الضمان الاجتماعي، كأنني لم أعد إنساناً. كن شجاعاً، ڤيكتور. قل ما بك للمرأة التي تحبها.

طوال الأسبوع الذي تبع تلك المقابلة، إن لم ينفذ ڤيكتور نصيحة الطبيب، فلقد حاول، بالقرب من أوكسانا، أن يعتاد فكرة أنه سيعمل بنصيحته ذات يوم. في بعض اللحظات، كانت تدق الحقيقة الحكم عليه بالموت، وفي لحظات أخرى تمهد لسعادته.

فمنذ حبهما من النظرة الأولى في ساحة «بروكمان»، كانت أوكسانا وڤيكتور قد أحرقا المراحل. فبالرغم من أن عارضة الأزياء قد احتفظت بجناح في الفندق، لكنها لم تكن تترك شقة الطالب، متمتعة بمباهج الاكتشاف. فبقدر ما كانت تجد متعة، شعرت بالمفاجأة: للمرة الأولى لم تقاوم مبادرات الشاب، ووهبت ذاتها في المساء عينه. كانت عادة تراوغ وتفرض مهلاً بدافع الحذر والكرامة، ولا سيما لتختبر رغبتها الخاصة. أمام ڤيكتور، ثمة حس داخلي غامض قد همس لها أنها إذا لم تقبل أن يضمها بين ذراعيه بعد عدة ساعات من لقائهما، فلن يحدث ذلك بعد الآن. كان توتر مؤلف من استعجال، وعدم صبر يشنج هذا الشاب وكذلك نهم قلق لا علاقة له بالأنانية المألوفة أو بشبق الذكور العادي.

لم تكن سعيدة بهذا الشكل مطلقاً وهي في كنف التكنة الضيقة التي تذكرها بسقيفة جديّها في « لفوف»، وهو مكان كانت تشعر فيه بأنها محمية، تظللها السماء بالسطح ويقيها العلو من الناس، ويجنبها الخيال الواقع. كانت تتربع على السرير، تقرأ الروايات التي تعثر عليها في الرف وهي مرتاحة ومطمئنة. فلولوج عالم شخص لا تعرفه، ما هو أفضل دخول إلَّا مكتبته؟ كانت مؤلفات جول فيرن التي لم تتصفحها تجاور مؤلفات كونراد وستيفنسون ومونيه وهِمنغواي. كانت تبدو لها تلك العناوين من اختيارات شاب، وأصداء ڤيكتور جوَّاب الآفاق الشخصية التي تراها في صور مختلفة مطروحة هنا وهناك، وهي اختيارات بالغة الرجولة حتى أنها حين تفتح المجلدات يُخَيل إليها أنها تتشرب رائحة حبيبها، رائحة جلد وعشب مقطوع.

إن إقامة أوكسانا العفوية قد أبهجت ڤيكتور. فرؤيتها وهي جالسة على السرير، منشرحة، منهمكة في القراءة، وشعرها المرن محبوس بمشبك صدفي، تحمل إليه الغبطة. كي يسترجع هذا الشعور بالكمال كان عليه أن يعود إلى أعوامه الثمانية، حين ينظر إلى القط الصغير الذي اشتراه له باتيست والذي يُعَرِّض بطنه الوبري، ذا البياض النقي، إلى النور.

كان ڤيكتور يرى أوكسانا كإلهة بربرية لها القدرة على التهام الزمن. بالقرب منها، لم يعد للماضي وجود، وكذلك للمستقبل: إنها تُكَثِف كل شيء في الحاضر، وهي عميقة ومشعة. فلأنه كان يُخفق في الانفصال عنها أو أن يتخذ مسافة عقلانية منها، نسي مغامراته السابقة ولم يكن يفكر بالغد. كانت نصف الساعة التالية، في أقصى الحالات، تشغل فكره لأنه كان يتساءل ماذا سيطبخ أو أي فيلم سيذهبان لرؤيته في السينما؟

اكتشفت أوكسانا تواً، بمشاركتها حياة طالب أنها شابة. كانت في عمر ڤيكتور: عشرون عاماً. لكنها اعتادت وهي عارضة أزياء منذ سنوات كثيرة، تكسب المال والعوم في وسط مهني عدواني، ففقدت نضارتها، ليس لمجرد أنها تجمع عشاقاً أنضج منها. غالباً، أمام صعوبات مهنية تعترضها يخامرها إحساس بالإنهاك وباليأس؛ والأسوأ أنها كانت ترى، لدى توزيع أدوار على مراهقات في الخامسة عشرة، أنها تبدو في نظرهِن مسنّة، فخططت أن تتقاعد. أعاد إليها ڤيكتور النضارة بحميته وإعجابه وبساطته الأخوية، لا سيما وأنه كان يتبع دراسة طويلة الأمد، وهو مقتنع أن مستقبلاً فسيحاً ينبسط أمامه إثر شهاداته. ذلك هو الصبا: التخبط على حافة الحلبة.

ــ ماذا يمكنني الشروع به بعد مهنتي في عرض الأزياء؟

انفجر ڤيكتور بالضحك قائلاً:

ــ عفواً إن الكلمة المصدرية[1] هي التي تسليني «عرض أزياء» شأن «عذوبية» أو «دكتوراه».

ــ هل تحتقر مهنتي؟

ــ ولا لثانية واحدة، أوكسانا، إن لي عيباً هو الضحك من الكلمات.

ــ حسناً، والآن، كن جدياً: ماذا يمكنني ان أعمل بعد تركي عرض الأزياء؟

ــ إنك تطرحين سؤالاً، أنت وحدك تعرفين الجواب عنه. ماذا تحبين؟

ــ ما عداك؟

ــ ما عداي.

ــ أنت.

ــ و؟

ــ أنت.

قفز عن كرسيه إلى السرير ــ لا يمثل ذلك قفزة واسعة ــ وغمرها بالقبل.

ــ أريد جواباً، أوكسانا.

ــ لنرَ، ما هي ميزاتي؟ أعرف لغات كثيرة. مترجمة؟

ــ أترغبين في ذلك؟

ــ سأكون قادرة على القيام بهذا العمل.

ــ أوكسانا، إنك تواربين في الإجابة: ماذا ترغبين؟ أتظنين أنني أدرس الحقوق لأنني قادر على ذلك؟ كلّا. أقوم به لألتزم في أعمال تتعلق بالمنظمات الإنسانية أو في العدالة الجنائية الدولية. ما يهم هو الرغبة؛ بعد ذلك يحاول الإنسان أن يبدو على مستوى رغبته.

كانت أوكسانا قد فكرت، حتى الآن، بأن الإنسان لا يعيش إلّا بالتحايل: إنها اليوم تتدبر أمرها ببيع جمالها، غداً ستتدبر أمرها بتحويل مهاراتها اللغوية إلى مال؛ فالعيش يقتصر على الاستمرار في البقاء، لا شيء غير ذلك. حين أصغت إلى ڤيكتور يُفَصِّل طموحاته كمحامٍ في خدمة قضايا سامية، أدركت أنه يمكن للمرء إعطاء معنى لوجوده.

لم يتوصل ڤيكتور قط إلى قول الحقيقة لأوكسانا لكنه قدر أن تقديم خطيبته إلى خاله سيساعده على النجاح. فكلما اشتد ارتباطه اضطر إلى الصدق.

---

(١) ــ Mannequinat كلمة لا وجود لها بالفرنسية وقد صاغتها أوكسانا على وزن كلمات أخرى أتينا على ذكرها- (المترجمة).

كشف للشابة الأوكرانية ما كان يُخفيه عن زملائه وهو رباط القربى مع باتيست مونيه، الكاتب الشهير. بما أن أوكسانا قد أتت على قراءة كثير من رواياته، بدت متأثرة جداً وجعلته يُكرر ذلك مرات كثيرة.

ــ أخيراً، أوكسانا هل تحسبينني كاذباً؟

ــ كلّا، عفواً. أكتشف أنكاتباً كبيراً هو كاتب ميت، بالنسبة إليّ.

ــ بالنسبة إليَّ، باتيست هو أولاً خالي. حين كنتُ مراهقاً، رفضت اكتشاف كتبه. بما أن كل الناس يستطيعون الوصول إلى رواياته، كنتُ أشعر بأنه يخصني أكثر إذا لم أكن أقرأه.

وصل ڤيكتور عند باتيست من دون إعلامه مسبقاً. فتحت له الباب امرأة شقراء بابتسامة مشعة، وهذا ما أربكه.

ــ أوه... نهارك سعيد، أنا ڤيكتور، ابن أخت...

ــ ڤيكتور، الشهير ڤيكتور، ذاك الذي يتحدث عنه باتيست غالباً جداً؟

ــ أوه...

ظهرت جوزفين، مرحة، فقبلته وأمسكت المرأة الشقراء من خصرها.

ــ أقدم لك إيزابيل. وليست عاملتنا الجديدة في البيت...

ضحكت المرأتان. شعر ڤيكتور بأنه التقى مراهقتين منشرحتين. وقد أدركت جوزفين وإيزابيل تلبكه، شعرتا ببعض الحرج من سطحيتهما ودعتا باتيست لنجدتهما.

وصل وهو منبسط جداً. استنار وجهه لروية ابن اخته.

ــ زيارة مفاجئة؟ زيارة يكرهها الكاتب ويعشقها الخال. تعالَ معي، ڤيكتوري، عندي أشياء جديدة كثيرة أرويها لك.

أجاب ڤيكتور:

ــ وأنا أيضاً، وقد انتقل إليه المزاج الحسن المحيط بهم.

توجها نحو مكتب باتيست، الذي صرخ كأنه لا يخاطب شخصاً معيناً:

ــ اذهبا إلى السوق، من دوني، يا بنات، سأبقى مع ڤيكتور.

استغرب ڤيكتور تعبير «البنات» الذي لم يكن قد سمعه من فم خاله قط.

ماذا كان يحدث في هذا البيت؟

وصف باتيست لابن اخته، بحبور، الثورة العاطفية التي يعيشونها، هو وجوزفين برفقة إيزابيل. تلك المرة الأولى التي يروي قصته ويغتبط لأنه يرويها لابن اخته. رد فعل ڤيكتور المرح والمبتهج حمل له تثبيتاً لسعادته.

اكتشف ڤيكتور، بقلب خافق، مظاهر أخرى لخاله: حميته ونزوته وشهوانيته، وهذا ما سره لأنه كان يميل إلى اعتباره تمثالاً يثير فيه الرهبة، مثالاً مجسماً للذكاء وكذلك للموهبة وللسلطة. فإدراكه تحت المرمر المنحوت عاشق جوزفين، وعاشق إيزابيل الجديد قد قربه إليه أكثر.

وبالتالي، لم يجد أية صعوبة في أن يعلن له أنه يحب أوكسانا ويريد أن يقدمها له. لا شيء يمكن أن يثير باتيست أكثر من هذا الخبر الذي أعلن أن الانتظار لن يطول أكثر من ذلك.

ــ هذا المساء، سآخذكم إلى المطعم. اتفقنا؟

ــ اتفقنا.

إن تلك البساطة، وتلك الحماسة قد أحدثتا في ڤيكتور بالغ الأثر، الذي كان لا يجرؤ على إزعاج الآخرين، فأبعد من حياته اليومية ما يتعلق بالارتجال واللذة المباشرة والبرامج العفوية. إثر معانقته لخاله، أحس أنه لن يتأخر، بقوة اندفاعه، بأن يقر لأوكسانا عن إيجابيته المصلية.

كانت السهرة رائعة. أو بالأحرى استثنائية. كانت تمثل للجميع مرة أولى: المرة الأولى يظهر ڤيكتور وأوكسانا كزوجين، المرة الأولى حيث باتيست وجوزفين وإيزابيل يعرضون الثلاثي الذي يؤلفونه. كان كل واحد يغتبط من وجوده هنا برفقة الآخرين. كان الود، وهو السبب الوحيد لاجتماعهم، يسري بينهم بقوة، ونسمة من الحب تنقل التواطؤ والمسَّارات والانفعالات والتنهدات المسموعة والضحكات اللاإرادية.

كانت أوكسانا بالغة التأثر بهؤلاء الذين يقدمون أنفسهم كأسرتها الجديدة، فالدموع تجتاح عينيها باستمرار. وتجهل أنه يمكن للمرء أن يشعر براحة كهذه وبتقارب على هذا النحو. شكَّتها وخزة حنين لتعيدها إلى طفولتها الأوكرانية، بالقرب من جدَّيها قبل أن يرغمها والداها على اللحاق بهما في ضاحية في كييف، في شقة صغيرة جداً بُنيت في عصر خروتشيف ومع هموم العوز.

أما بالنسبة إلى إيزابيل، فقد كانت نظرة الشابين تهزها: لقد قبلاها، وهما لا يحكمان عليها، ولا يعاملانها كمتطفلة خطرة، شأنها شأن تلك الساعة التي تقضيها

في كَنف أسرتها الخاصة حيث لم تكن تصادف إلّا عداءً، فقد حملت إليها تلك المنادمة البهيجة الشجاعة والاطمئنان.

في نهاية العشاء وقد استغرقوا في تجاذب أطراف الحديث حتى أنهم أخذوا وقتاً ليدركوا أن المطعم قد خلا، وأن الخدم قد رفعوا كل ما على الطاولات وأن صاحب المطعم يتثاءب وراء صندوقه.

سدد باتيست الحساب. طالت نزهة العشاء، ورافق الثلاثي الزوجين ساحة آريزو.

في الحديقة المزرقة، بين أشجار القبس والغار البنفسجي، كان يهيمن صمت مائع، منبسط، مطبوع بطعم سكري، إنه طعم تنشره باقة ياسمين وضعتها بائعة متجولة على المقعد بالقرب منها، بينما كانت تتأمل القمر. لم يعد يُسمع من الببغاوات والدرَّات إلّا حركات صغيرة طفيفة، ورعشات أجنحة أو مداعبات ريش كأن سلام النجوم قد انبسط على الحيوانات الوحشية.

تمتم باتيست قائلاً:

ــ أتصدقونني إذا قلت لكم إنه يوجد، على الشجرة أمام نافذتي ذكران من الببغاوات يعتنيان بأنثى؟

ابتسموا. حاولوا رؤيتهم ــ عبثاً ــ وفكروا أن للطبيعة حتماً خيالاً أعظم من خيال المجتمع البشري. افترقوا سعداء.

في اليوم التالي جابه ڤيكتور امتحاناً في القانون الدولي في الجامعة. ترك إذاً أوكسانا باكراً، وراجع المادة في المكتبة طوال الصباح وابتلع سندويشاً ثم تقدم إلى الامتحان في فترة بعد الظهر في مدرج بلا نوافذ، تضيئه مصابيح النيون حيث يسبح عطر اليوسفي فوق عفن البساط العتيق والرطب.

أخيراً، في الساعة التاسعة عشرة، رجع إلى ساحة آريزو وصعد إلى السقيفة. هذه المرة، سيعترف بوضعه الصحي لأوكسانا. منذ سهرة الأمس، أحس أنه على استعداد لذلك، وهو مقتنع بأن علاقتهما لن تستمر فقط بعد البوح بالحقيقة لكنها ستقوى بها.

حين دخل، اكتشف أن شقته الصغيرة خالية. فكل أثر لأوكسانا ــ ثياب، أكياس، حقائب ــ قد اختفى. كانت ورقة صفراء تنتظره على السرير:

«اعذرني، لم أحب أحداً بقدر ما أحببتك. إنني أرحل».

لم يكن يستطيع أن يصدق تلك السطور، وهو يبحث حوله عن البرهان بأنه كان يرى كابوساً.

من دون أن يفكر، نزل السلم أربعاً بأربع، وركض عبر الشوارع حتى بيت خاله فدق الجرس بنفاد صبر.

فتح له باتيست، بوجه شاحب. هرع ڤيكتور إلى الداخل.

ــ ساعدني. لقد رحلت أوكسانا!

تقوس حاجبا باتيست. بحثت عيناه عن شيء في الأرض.

لوَّح ڤيكتور بالرسالة الصفراء التي قرأها باتيست.

حتى ذاك الوقت، لم ينبس الكاتب ببنت شفة. رفع رأسه ووضع يده على كتف ڤيكتور، ليقول بتردد:

ــ رحلت جوزفين تواً أيضاً.

٥

ــ تباً، هذا الأبله ثانية!

ــ من هو؟

ــ باتريك بروتون ــ مولينيون، مدير صحيفة «Le Matin». إنه يُغازلني منذ سنوات.

في اللحظة التي لفظت فيها فوستينا تلك الكلمات، وقد خرج الرجل من سيارته، أرسل إشارة مستعجلة إلى المرأة الشابة التي كانت تتقدم على الرصيف برفقة عشيقها.

حاول داني، وهو يجرّها من مرفقها، أن ينعطف إلى زاوية الشارع كي يتجنب الرجل المزعج لكنها قاومت.

قال داني متذمراً:

ــ سيحاذيك.

وصل باتريك بروتون ــ مولينيون بعجلة. بما أنه كان طويل القامة، غير متناسق، كانت مشيته الخرقاء توحي بجَمل في منطقة جبلية.

أمرها داني، بصوت منخفض، قائلاً:

ــ تخلصي منه.

بدلاً من أن تطيع رفيقها، تخلصت فوستينا منه واقتربت من الرجل متصنعة المفاجأة وهي مبتهجة:

ــ آه، باتريك، يا لسروري!

قال وهو يسترجع أنفاسه:

ــ ظننت أنك لم تريني.

نظر داني داڤون بازدراء إلى الرجل السمج الذي لم يكن يستطيع أن يحث خطاه من دون أن يصير قلبه في حالة يُرثى لها.

قفزت فوستينا إلى رقبة العملاق الأخرق الذي ضربها بذقنه على جبينها قبل أن يصل إلى وجنتها.

ـ عزيزي باتريك، أقدم لك المحامي الأستاذ دانييل داڤون.
أجاب باتريك بروتون ـ مولينيون وهو يمد يداً رخوة ورطبة:
ـ من لا يعرف المحامي الأستاذ دانييل داڤون. هل ستخرج كتاباً قريباً؟
أجاب داني:
ـ عفوا؟
صرخت فوستينا:
ـ نحن نتحدث عن ذلك، نتحدث عن ذلك بمنتهى الجدية.
ـ عن قضية مهدي مارتان؟
أضافت:
ـ ممنوع الإجابة.
ـ إذاً، عن قضية مهدي مارتان. أحسنتَ أستاذ. حينئذٍ، أطلب الأوراق الجاهزة، فوستينا، أنشرُها في الصحيفة اليومية.
ـ سنتحدث عن ذلك فيما بعد...
ـ الأستاذ داني داڤون ومهدي مارتان، هذا من الديناميت! أعتمد عليكِ، فوستينا، أليس كذلك؟
خفضت فوستينا عينيها وأخذت مظهر طالبة ستؤدي القَسَم الأول في حياتها قائلة:
ـ أتعهد بذلك، باتريك.
ـ رائع!
وجه كلامه إلى داني:
ـ هل تعرف أنك بين أفضل الأيادي؟
أجاب داني ببريق مسلٍ في عينيه:
ـ الأفضل في أي شيء؟
تمالكت فوستينا نفسها أمامه كي لا تنفجر بالضحك. لم يلاحظ باتريك بروتون ـ مولينيون شيئاً من تواطئهما الساخر.
ـ أفضل ملحقة صحفية! تتمتع فوستينا بمستوى لم تعد واحدة تنافسها فيه.
اضطرت فوستينا أن تحتج:
ـ لا تصغِ إليه أستاذ داڤون، يقول ذلك ليمدحني.
استاء داني من لهجتها الرسمية.

وقد أدار باتريك بروتون ـ مولينيون ظهره إلى داني، اقترب من المرأة الشابة، مغرياً، ملحاً كأن الخلاسي غير موجودٍ.

ـ متى أستطيع أن أدعوك إلى الغداء؟

ـ سأرى مفكرتي وأدعوك.

ـ أسمع في كل مرة هذا الجواب ذاته.

ـ حين تتلقى هاتفي، تدرك أنني قلت لك الحقيقة مرات كثيرة. بناءً عليه، وقد وقفت على رؤوس أصابعها، طبعت قبلة خفيفة على خده ثم رحلت، يقظة، باتجاه بنايتها، يتبعها داني.

ـ اشرحي لي لماذا تسمحين لهذا الغليظ الثرثار أن يُغازلك؟

ـ إنه مدير أهم صحيفة يومية للبلد.

ـ يريد أن يُضاجعك.

ـ هذا طبيعي، أليس كذلك؟

ـ إنك تشجعينه!

ـ ما دام يدير «Le Matin»، له الحق أن يأمل. يجب أن أشتغل...

ـ من يقول لي إنك، في الماضي، لم تكوني قد...

ـ آه كلَّا، الرحمة من فضلك. هل تعرف ماذا لقبوه في الوسط المهني، بقدر ما يُرثى لحاله في الفراش؟ كرَّاث مسلوق.

ابتسم داني، باطمئنان، وهو يرفع ذقنه.

ـ بالطبع ليس رجلاً يناسبك.

ـ إنك متبجح!

لكنها وافقته وصعدا إلى شقتها.

كانت الساعة الخامسة. فقامت فوستينا بدور ربة البيت الممتازة وهي تعصر الفواكه ليشربا خليطاً من العصير الاستوائي.

ـ إنني أصنع لنا عصيراً ينسجم مع ببغاوات الساحة!

كان داني، مستغرقاً في التفكير، يراها تعمل من دون أن يفكر في مساعدتها.

ـ لقد غازلك في حضوري، كأنني لم أكن هناك...

ـ فلنقل بالأحرى، كأنك لست عشيقي.

ـ لم تخطر تلك الفكرة على باله؟ أيعتبرك قديسة فوق الشهوات الأرضية؟

انفجرت بالضحك. ألح قائلاً:

ـ إذاً ماذا في الأمر؟

ـ في رأيي، لا يفكر لثانية أنني أستطيع أن أخرج مع خلاسي.

تشنج داني. نهض وقطع الممر بخطوات عريضة، شأن رجل يقاوم تدفق طاقة، ثم، وهو يفرك ذقنه، عاد نحوها.

ـ أتضاجعين خلاسياً؟

ـ مرتين بدل مرة، أجل. أرادت تأكيد جملتها بملاطفة دفعها عنه.

ـ بالنسبة إليك، هل أنا خلاسي؟

وقد أدركت أن العدوانية تتصاعد، حاولت أن تضع حداً لذلك:

ـ داني، إنك تخطئ الهدف. إنني أفسر لك أن هذا المغفل باتريك بروتون ـ مولينيون عنصريٌ لأنه لا يتخيلنا معاً فتثور عليَّ.

ـ أجل أهاجمك لأنني لا أبالي بباتريك بروتون ـ مولينيون. إنه عنصريٌ لكنني أكتشف أنك أنت عنصرية أيضاً.

ـ أنا؟

ـ أنت. تضاجعين خلاسياً.

ـ هل أرى كابوساً؟ بالضبط، إن كنت أضاجع خلاسياً، فإنني أنجو من العنصرية.

ـ كذب. يجب أن تقولي«أضاجعك» وليس «أضاجع خلاسياً».

ـ لأنك لست خلاسياً، ربما؟

رفع يده، مستعداً لضربها. شوهت تكشيرة وجهَه، صرَّ بأسنانه وعلق حركته ثم ابتعد.

استشفت فوستينا، خلال ثانية، طريقتين للخروج من هذا الوضع: الأولى عذبة وتعتمد على أن تدرك لماذا يكره ذكر خلاسيته، ما هي الآلام الدفينة التي تبرر غضبه، ما هي أحزان الطفل التي تصعد إلى وعيه بمجرد ألّا يُلاحظ إلّا من مظهره الجسدي؛ والطريقة الثانية، هجومية، وتعتمد على نسف مجموعة براهينه.

قطع ترددها قائلاً:

ـ هذا ما تقولينه وأنت بين ذراعيَّ: إنني أتذوق خلاسياً.

مكثت فوستينا مذهولة لأن ذلك ما قالته حرفياً لنفسها في الليلة الأولى وهي تكتشف مندهشة جسم داني. لو اعترفت له بذلك لثارت ثائرته.

ـ ماذا عليَّ أن أقول: إنني أتذوق بابا نويل؟

ـ كم أنت سوقية، يا مسكينتي.

ـ سوقية ولكنني لست عنصرية! إنك تهذي، داني. لو لم أجب على مبادراتك، لعاملتني كعنصرية. إنني أجبت وتعتبرني مع ذلك عنصرية. ماذا كان يجب عليَّ أن أفعل؟ أن أضاجعك من دون أن أدرك أنك خلاسي، أليس كذلك؟

إنني آسفة لأنني لست تلك المغفلة.

ـ إنك لا تفهمين...

ـ وأنت، ماذا تفكر حين تضاجعني؟ «إنني أتذوق شقراء»؟

بقي داني لحظة قصيرة فاغر الفم، شأنها سابقاً. استنتجت أنها أصابت.

ـ الآن، ستقول لي الحقيقة، أستاذ داني داڤون: أكان لك عشيقات سود؟

ـ إنني أمنعك...

ـ أجب.

ـ أنا...

ـ ليس هناك زنجيات! أكان لك عشيقات خلاسيات؟

ـ أنت...

ـ لا فائدة من الكذب، لأن هؤلاء اللواتي حدثتني عنهن كنَّ بيضاوات.

ـ أجل.

ـ إذاً أنت عنصري.

ـ ليس الأمران سيان. ففي أوروبا كل الناس بيض. ولا يلاحظ ذلك، إنه المألوف.

ـ آه صحيح؟ مع ذلك، كنتُ أظن أن المألوف، في الأمور الجنسية، ليس من أفضلياتك. إذاً، نجرؤ على المبالغات والتطرف شرط أن يكون ذلك مع النساء البيض. أتريد أن تعرف؟ إنك أنت العنصري البحت، إنك أنت الذي تكره السود والخلاسيين. أما أنا، فأقله، أستطيع أن أؤكد أنني لم أذهب نحو الرجال مع أفكار مسبقة، أما أنت، فقمتَ بذلك.

ـ من حقي ان أحب البيضاوات.

ـ ألأنك تحبهن؟ أم إنك تتقرب منهن لتنسى أنك خلاسيٌ؟

إذا كانت فوستينا قد سُرَّت، في حينها، من ردها الأخير، فإنها أسفت لذلك في اللحظات التالية: وقعت الجملة، على داني، شأن قنبلة، فصرخ، وقد تشوهت تقاطيعه من الحنق وراح يضرب كل ما يحيط به وما يصادفه من أصيص زهر، صحون، هاتف، تلفاز، صور بأطر، رمى كل شيء على الأرض. إلى أن استرد أنفاسه، فقفز إلى الغرفة المجاورة حيث، بصفعات كبيرة عنيفة، أوقع الكتب عن

الرفوف قبل أن يدوسها. وقد التصقت فوستينا بالحائط، راحت تطلب منه التوقف وهي تصرخ، واعية أنه إذا اقتربت، فسيقتلها.

بغتة، وقد نفد ما يمكن تحطيمه، تجمد، مباعداً ساقيه، فاهتز صدره بنفس واسع، وكانت يداه المفتوحتان مستعدتين للّطم. حدق إليها بعينين محتقنتين بالدم.

صمدت أولاً أمام نظرته، ثم خفضت جفنيها وقد أدركت أن عليها أن تحترم قانون الخضوع القديم.

أطلق حينذاك تذمراً كالنخير، ثم استعاد تمالكاً للذات يليق بإنسان وغادر الشقة وهو يصفق الباب.

حين تيقنت فوستينا من بقائها وحدها ــ وحدةٌ تحميها ــ، جلست على الأرض الخشبية لتستسلم للبكاء؛ لم تكن تعرف عن أي شيء تبكي لكن البكاء بصوت عالٍ قد أمدها بشعور يطمئنها في ما هو مألوف.

طوال أربع ساعات، رمت ما أتلفه داني، ورتَّبت ما نجا من المذبحة. فبقدر ما كانت تمحو آثار العنف، شعرت بتحسن. عدلت عن فهم أصل الأزمة. فهو (بسيكوباتي) أي مضطرب الشخصية، هذا ما يُلخص داني. و(بسيكوباتي) يعني «محظور، لا يمكن معاشرته»، ويعني أيضاً «لا جدوى من تحليل ما يتجاوزنا»؛ فهو ينتمي إلى معرض الوحوش كهتلر وجنكيز خان وستالين وحتى مهدي مارتان قاتل المجموعة الذي دافع عنه الأستاذ داؤون ــ لا مجال للتعجب، فالمعتوهون يتوصلون إلى التفاهم في ما بينهم!

أتت قصتها مع داني على نهايتها. وهذا أفضل. بدأت تمل... بالطبع، كانت متعة مضاجعته بحمية، طوال ساعات وساعات، في ثمانية عشر ألف وضعية. لكن التكرار كان يُضجر، لا سيما أنهما بالغا في تعاطيهما الغرام حتى أنها أصيبت مرتين بالتهاب المهبل (vaginite). كانت الإصابة الأولى مدعاة اعتزاز لها كأنها قد نالت وسام صليب الحرب في ساحة المعركة: فتهيج الأغشية المخاطية كان يمثل ميدالية، وهي البرهان على أنها كانت شجاعة في معركة الحب. لكن ضرورة الامتناع قد أربكت حياتهما في الأيام التالية بقدر ما كانت هي وداني يتشهيان أن يعض بعضهما بعضاً حين لا يستطيع أحدهما أن يتحد مع الآخر. وبالتالي، فإن التهاب المهبل الثاني قد دفعها إلى ارتجال رحلة حذرة عند أمها. حين سحبت بالمكنسة الكهربائية شظايا الزجاج بين ألواح الأرض وعت أنها قد خاطرت بصحتها. أما بالنسبة إلى نادي تبادل الأزواج، فلقد تسلت لفترة قصيرة. كانت تلك مشكلتها دائماً: كانت تستهلك بجولة سريعة الكائنات والفعاليات. فاجأها صوت القفل. انزلق خيال في الممر. ظهر داني ثانية أمامها. تسمرت في مكانها.

تمتم قائلاً:

ــ سامحيني.

لم تبدِ أية ردة فعل.

ــ فوستينا، اعذريني. لم يكن غضبي موجهاً نحوك، لقد دفعتِ عن الآخرين.

ــ أي آخرين؟

ــ هؤلاء الذين لا يرون فيَّ إلّا خلاسياً.

حمل صمت طويل سلاماً مترجّحاً. أحست فوستينا صدق داني: كان يتألم وكان خجلاً.

تساءلت إذا كانت هي أيضاً تتألم وأدركت أنها كانت منزعجة خصوصاً لأنها كرّست أربع ساعات للتنظيف.

ــ أتوسل إليك، فوستينا، سامحيني. سأشتري لك كل ما كسرتُه. وأشياء أخرى أيضاً. أرجوك...

نظرت إلى شفتيه اللحميتين والورديتين وإلى تقاطيعه الدقيقة على جلد صلب، وعينه ذات البياض اللافت. صعدت موجة قوية من أعماقها، حسبتها عفواً وكانت بلا شك تحوي الرغبة. فتحت ذراعيها. فجاء يلتجئ إليها.

«أرجو ألّا يبكي. أكره الرجال الذين ينوحون».

ضحكتْ: كانت أصابع داني الماهرة قد بدأت تسعى لنزع تنورتها.

في اليوم التالي، أوجبت فوستينا داني أن يشارك في السهرة التي تنظمها في بيتها.

ــ سترى، ستتسلى مع أصدقائي: إنهم كلهم لوطيون.

ــ عفواً؟

ــ أجل، لا أعرف كيف يحدث ذلك، كل أصدقائي لوطيون. إنهم سيعشقونك، هذا أكيد.

في الواقع، كانت تعرف جيداً لماذا كان أصدقاؤها يحبون الرجال: كان ذلك يعطيها سلطة الهيمنة. ففي نظرهم، كانت تُجسد المرأة المغوية والمغرية التي يحبون لا أن يحصلوا عليها ولكن أن يكونوها.

لقد علمتها أمها باكراً تلك السلطة: «اعتباراً من الخمسين عاماً، فتاتي الصغيرة، لن تعودي امرأة إلّا في نظر المثليين. أما بالنسبة إلى محبي الجنس الآخر، فستصبحين حثالة». لم تنتظر فوستينا طويلاً جداً للإشادة بأنوثتها، فتعاطفت مع اللوطيين الذين أتاحت الحياة لها مصادفتهم. فإذا تسلت بالحديث عن الرجال بفظاظة تعادل فظاظتهم، تربح حرية معرفة أنهم يُعجبون بها من دون أن يتشهوها، مُقدرة أنهم

يخففون من دورها، الذي يُثقل عليها أحياناً كشيء جنسي: كانت تضحك، بينهم، وتمزح من دون حساب.

قلق داني سائلاً:

ــ هل أنت متيقنة من بقائي؟

ــ متيقنة. هل تخاف أن يفترسوك كطبق شهي؟ هذا ما سيحدث، مع ذلك. إذا نظروا إليك وشموك وأصغوا إليك، فلن يقفزوا عليك.

صرخ بتعجب ضاحكاً:

ــ يا لك من مغفلة!

ــ أعرف، يشكل ذلك جزءاً من جاذبيتي.

حين وصل هؤلاء الذين تسميهم فوستينا «الشبان»، شعر داني بالارتياح.

فالجمل تسيل، مضحكة، لاذعة وأحياناً غريبة؛ والأنظار التي تتركز عليه تشبع غروره. كانت فوستينا تلاطفه وتقدم له الأطباق أولاً وتمدح بسالته القضائية فتعامله معاملة ملكية ووافق المدعوون الثمانية على هذا الامتياز.

تحدث طوم وناتان عن قضية الرسائل المجهولة، الغامضة التي تشغلهما.

ــ لقد اكتشفنا أربع رسائل مجهولة. رسالتينا، ثم، ونحن نتناقش مع بائعة الزهور، لا شك أنها المرأة الأكثر اغتياباً في بروكسل...

صحح ناتان قائلاً:

ــ في العالم، عزيزي، في العالم!

ــ ... اكتشفنا اثنتين إضافيتين، رسالة تسلمتها كزافيير، وأخرى ــ عرفتْ بها من زوجته بمحض الصدفة ــ تلك التي تسلمها الأرستقراطي، آخر سلالته والذي يسكن في الرقم ٦.

ــ إذا كان ذاك الرجل يحب الجنس الآخر، فإنني ملكة اسبانية.

ــ ليس هذا هو الموضوع، ناتان!

ــ إنه الموضوع! يا للوقاحة! أن يوَبِّخ مهووسٌ لا تُفارق يده فتحة بنطاله، مستعداً لإخراجه، أجد ذلك مبالغاً فيه!

تابع طوم:

ــ بمجمل القول، نلاحظ، في كل مرة، الصيغة المعتمدة ذاتها: مغلف أصفر، ورقة صفراء، الرسالة عينها: «هذه الكلمة لمجرد إعلامك بأنني أحبك. التوقيع: أنت تعرف من».

ارتجفت فوستينا قائلة:

ــ أنا أيضاً تسلمت واحدة من تلك الرسائل!

أحدث تصريحها بالغ الأثر. قفزت إلى غرفتها، وبعد عدة شتائم عبرت الشقة، عادت مع الورقة.

هلل طوم وناتان: تأكدت فرضيتهما عن شخص فريد يكتب تصريحات غرامية إلى سكان الساحة.

ــ كيف كان رد فعلك حين تسلمت تلك الرسالة؟

أجابت فوستينا وقد شحب وجهها:

ــ هل عليَّ أن أجيب؟

ــ أجل، إن ذلك أساسي للتحقيق.

التفتت، آسفة، نحو داني:

ــ ظننت أن داني هو الذي أرسلها إليِّ.

اقترب هذا الأخير وقرأ الكلمة:

ــ إنه ليس خطّي.

أكد طوم:

ــ نصدقك، داني. بخاصة، لا أرى لماذا ترسل لنا هذه الكلمة.

قال ناتان:

ــ وأسفاه، لكنتُ أحببت ذلك كثيراً.

ضربته فوستينا بكف صغيرة على رأسه:

ــ أنت، لا تسرق مني عشيقي!

تأوه ناتان وقد اتخذ لهجة الخادم الزنجي في فيلم «ذهب مع الريح»:

ــ لا تضربي، معلمتي، لا تضربي.

أمام استعراضه، سرى الحرج في المجموعة. تحرر ناتان من الخطاب الصحيح سياسياً من فرط ما درَّب نزوته الساخرة حتى أنه نسي أن تقليد لهجة عبد أمام خلاسي ليس لائقاً... خشيت فوستينا أن تسيء الأمور.

قرر داني، باعتباره سيداً ذا مكانة رفيعة، أن يتجنب الحادث، فأمسك الورقة تفحصها وقلبها قائلاً:

ــ أخاف، أصدقائي، ألّا أساعدكم كثيراً لأنني لم أعالج ملفات تتعلق بغراب.

ـ كلّا، ليس الموضوع هنا عن غراب ولكن عن حمامة. فالرسائل تعبر عن الود وليس عن الكراهية.

ـ في المقابل، أستطيع أن أؤكد لكم أن كاتبها أعسر. انظروا إلى خط «t»، النقط، النبرة الحادة... لقد خُطت من اليمين إلى اليسار.

ـ الحمامة عسراء!

تابع داني:

ـ لنفكر. إن الغراب عامة شخص يعاني الحرمان وعدم الرضى والهامشية.

علّقت فوستينا قائلة:

ـ الحلقة تضيق.

ـ غالباً ما يكون للغراب عاهة جسدية.

ـ لا أرى أحداً في المحيط المجاور.

حدَّق إليها طوم قائلاً:

ـ هل كان لتسلم تلك الرسالة عواقب؟

ـ إنك تمزح! ولا أية نتيجة.

ـ إنكِ فكرتِ أن داني قد كتبها لك. إذاً. دفعك ذلك نحوه.

ـ على كل حال، كنتُ قد ذهبت نحوه قبل الرسالة. لنقبل أن هذا قد رسَّخه، لا أقول في قلبي ما دمت بلا قلب، ولكن في حياتي.

ـ الأمر ذاته بالنسبة إليَّ وإلى ناتان، كان لهذا أثر إيجابي. لم نفترق منذ ذاك الحين.

حدد ناتان قائلاً:

ـ إنني الآن أختار ثوب عرسي. لون السكري، بالطبع،

لأنني لا أجرؤ على لباس اللون الأبيض.

فكروا. صاغت فوستينا ما كان يحسه كل واحد قائلة:

ـ أرى بالأحرى أنه يزعجني أن يريد الخير لي مجهول. هذا يربكني.

تغيَّر موضوع الحديث؛ فاستعادت السهرة إيقاعها الفرح.

حوالي الساعة الحادية عشرة، افترقوا. ليتجنب تقبيل الثمانية الذين لم يكونوا ينتظرون إلّا ذلك، لوح لهم داني بإشارة وداع من يده والتجأ إلى داخل غرفة النوم بذريعة اتصال هاتفي مستعجل.

رافقت فوستينا مدعويها حتى الباب وهم يهنئونها على اختيارها. كانت

ترقص طرباً، وعيناها تتلألأن، فقبلت الإطراء كأنها هي التي ابتكرت جمال داني، ثم أكدت لهم ببعض التنهدات المعززة أن ما لم يروه يستحق المجيء.

قال ناتان:

ـ يا داعرة! ما يعزيني هو أنك، أقله، تستطيعين إرضاءه. فحين أرى تلك العشيقات يحظين برجال كالمدافع ويعيِّشونهن الحرمان، تنتابني شهوات القتل.

صاح طوم:

ـ اهدأ، ناتان. لندع صديقتنا فوستينا مع صاحب التهاب المهبل.

ضحك ناتان:

ـ آه، أجل أعشق هذا اللقب.

تمتمت فوستينا، وقد امتلأت رغبة بالزهو والافتخار:

ـ اسكت.

ـ فوستينا، حين أطلقت عليه هذا اللقب، ضحكت طوال اليوم. على كل حال، هكذا يُدعى في رأسي. كدت أقول، مرات كثيرة هذا المساء، «قليل من الخمر يا صاحب التهاب المهبل؟»، أو «أتأخذ ثانية من النقانق، يا صاحب التهاب المهبل؟»...

ضحكوا. قطَّبت فوستينا حاجبيها ووضعت سبابتها على فمها.

ـ هيا، عودوا إلى بيوتكم، أيها الشبان، ولا تكونوا عاقلين.

ـ طابت ليلتك مع صاحب التهاب المهبل، عزيزتي.

وهي تُغلق الباب سمعتهم يَهذون في السلم. كانت تعشق طوم وناتان لأنهما كانا يشاركانها سخريتها البذيئة الضارية.

رجعت إلى الصالون حيث كان داني، بوجهه المتشنج، يجمع حوائجه.

سألته فوستينا بقلق:

ـ ماذا حدث لك؟

ـ سمعت كل شيء.

ـ ماذا؟

ـ «صاحب التهاب المهبل».

ارتجفت وتمتمت قائلة: دعك من ذلك، إنه... بالأحرى إطراء. هذا يوحي... بقدراتك... بالنسبة إليهم، كما تعرف، هذا مهم...

مرَّ داني أمامها، من دون نظرة ورمى المفتاح في الجيب الفارغ المعلق في المدخل وخرج.

ـ الوداع. إنك لا تكنين لي أي احترام.

٦

ـ هل تعمل جيداً، نقطتك ج؟

كانت مرسيل، وقد أمسكت طبقاً تفركه بشدة بخرقة من الكتان بذريعة تنظيفه، قد عادت من المطبخ لتناقش مع الآنسة بوفير ما كان يشغلها.

ـ أقول ذلك لأن النقطة ج، كانت عندي قبل أن يكتشفوها. كنتُ رائدة. منذ أعوامي السبعة عشر، بينما لم يكن أحد يتحدث عنها في ذاك العصر، فلقد اكتشفتها. هذا لا يُصدق، أليس كذلك؟

وقد رفضت الآنسة بوفير أن تشجع المسارة، لم تحر جواباً. تابعت مرسيل وهي تفرك الآنية الخزفية بنشاط متجدد:

ـ يجب القول إنه ليس لي فضل في ذلك: لقد خُلقت من أجل ذلك. بمجرد أن يلج أحد فيَّ، حتى أنطلق.

هزَّت رأسها عدة مرات، لتتيقّن وسط ذكرياتها أنها تعلن الحقيقة تماماً.

ـ في كل مرة، باف! تعلقي بالستائر!

أبدت رأيها، ثم رفعت عينيها، مسرورة من حالها، وتعجبت من صمت معلمتها:

ـ وأنت، آنستي، النقطة ج؟

ـ مرسيل، هذا النوع من الحديث...

ـ حسناً، فهمت: النقطة ج، لا تهمك. يوجد نساء على شاكلتك. بوفرة. يبدو أن ذلك يشكل الغالبية. البائسات... لسنا كلنا متساويات على هذا الصعيد. أخيراً، في الوقت ذاته، تتمتعين بمزايا لا أملكها.

ـ ما هي، إذاً؟

ـ المال والتربية ورفعة المكانة الاجتماعية.

ـ شكراً، مرسيل.

ـ أجل، بصراحة، كنتِ مدللة. لأنني، في نهاية الأمر، إذا وضعنا جانباً جاذبيتي للرجال وإنني أملك النقطة ج، لم يسعفني الحظ.

نظرت الأنسة بوفير إلى مرسيل بشفقة ساخطة: كيف لهذا الحيوان القصير والسمين، المقطِب، والأقل رشاقة من الخنزير البري أن يجذب الرجال؟ كانت تغويهم ــ بلا شك، فالعشاق يتتابعون عندها بدقة منتظمة، فلا تُمضي البوابة أكثر من شهر من الوحدة. أما الآنسة بوفير فكانت تقدس الحب والاتحاد الذي تعجب به كان اتحاد الجمال الأنثوي بالجمال الذكوري؛ بينما تبدو لها التقاربات الأخرى غريبة وغير مقبولة، لا بل بذيئة. إذا كان كل ضفدع ينتهي به الأمر إلى أن يجد ضفدعته، فلم يعد الحديث عن البشر، ولكن تُذكر العادات والحيوانات.

لا شك أن الطبيعة قد ابتكرت جواذب فتنة مختلفة كي تتشكل الأزواج وتستمر الإنسانية؛ أجل، لا بد أن تعوم في الجو عناصر غير مرئية، روائح، خمائر، جزئيات، بمجمل القول، ظواهر كيميائية تدفع ذكراً يبدو سليماً ليقفز على حيوان الخلد مرسيل. فالآنسة بوفير قد حُرِمت هذا الإشعاع غير المرئي. لحسن الحظ! منذ وعت وجودها، لم ترَ نفسها كزوجة ولا كأم، بالأحرى «كابنة فلان»، ومرتبطة بوالديها اللذين تعشقهما. إن الواجس الذي تلقته وهي شابة بتجنب قصص الجسد قد تثبت.

نجت من التصرف الحيواني. بالنسبة إليها، وقد واءمت تلك اللامبالاة بالآلام الجسدية المبرحة، راحت تعيش في جو سليم، لم يفسده الشبق. كان جسدها طاهراً أيضاً، وروحها حرة بشكل رائع. لم تكن تشعر بأحزان بلهاء ولا بالحرمان المستمر، فتلبس وفق ما يطيب لها، تداعب جلدها الذي لا يمسه أحد ما عدا مزينة شعرها والمدلك الطبي ومقلمة الأظفار ــ محترفي الرفاهية. والأفضل من ذلك: على خلاف النساء اللواتي في مثل سنها، لم تشعر بأنها تهرم، كما لم يُشكل انقطاع طمثها إلّا توقف ألم بلا نفع. أما بالنسبة إلى التجاعيد أو السمنة الخفيفة، فلم يُعلق عليها أحد، ولا حتى هي.

من وقت إلى آخر، كانت تراهن على أن حيويتها المرحة تعود إلى الحفاظ على عذريتها. ألم تتعرف عند بعض الأخوات والمترهبات (في بلجيكا وهولندا) إلى هذا الفرح البريء الذي يسكنها؟ يُشك في أن ممارسة الجنس تنعش المرأة... أما بالنسبة إلى الأمومة، فهي ترهقهن، ولا شيء غير ذلك.

ــ كيف أمضيتِ عطلة نهاية الأسبوع في جنيف؟

ابتسمت الآنسة بوفير قائلة:

ــ رائع...

ــ هل جنيف مسلية؟

ــ لاقاني جون.

ـــ جون؟

ـــ جون...

ـــ آه، خطيبك، القريب جداً من أوباما؟

ـــ ليس عندي سواه، مرسيل.

ـــ آه، كم بودي أن أكون مكانك. عطلات نهاية الأسبوع هنا وهناك، في العواصم... حلمت دائماً في الذهاب إلى روما وموسكو واستنبول.

ـــ سيأتي يوم، مرسيل.

ـــ بأي مال، آنستي؟ بأي مال؟ فمثلاً، كم كلفتك بطاقتك إلى جنيف؟

خطرت فكرة فظة لديها؛ فلم تقاومها:

ـــ كلفتني مئتين واثنين وأربعين يورو.

ـــ مئتين واثنين وأربعين يورو؟ كلّا! هذا لا يُصدق: إنه المبلغ الذي أعطيته لابني كي يصنع لي طاولة صغيرة! وفق مسار الأمور، لن أرى جنيف ولا طاولتي الصغيرة ولا المئتين والاثنين والأربعين يورو.

ـــ متى يُعلن زواج هذا الرجل المقدام؟

ـــ الخطبة أولاً، آنستي! إن أسرة بيبرديك تحرص على ذلك. فهؤلاء الناس يتصرفون وفق الطريقة القديمة.

فكرت الآنسة بوفير: «إنهم يسعون لكسب الوقت: ليس من دواعي سرورهم أن يُزوجوا الوريثة من ابن بوابة بناية».

استرسلت مرسيل في الضحك.

ـــ في الواقع، ما هو مسلٍ، هو أنني سأتزوج قبله.

ـــ عفواً؟

ـــ من أفغانيّ، لقد تقدم للزواج بي.

بحركة مباغتة شأن فتاة صغيرة، وضعت يديها على خديها المحمرين.

تسمرت الآنسة بوفير في مكانها. كلّا، لن تسمح بحدوث خطأ كهذا! من واجبها التدخل. حاولت أولاً أن تلف وتدور حول العائق:

ـــ انتظري أقله أن يتزوج ابنك.

ـــ آه كلّا، أجد أكثر ظرافة أن أذهب إلى عرس ابني متأبطة ذراع أفغانيّ. لن أظهر كامرأة بائسة وحيدة... ظنتْ أنها جرحتْ ربة عملها.

ـــ أوه عفواً، لا أقول ذلك من أجلك، آنسة بوفير، لأن لا أحد يحكم عليك

بأنك وحيدة، ذلك أنك تتمتعين بمكانة اجتماعية رفيعة، ثم إنك تستطيعين أن تذهبي إلى العرس مع رفيق أوباما، خطيبك الأسود عازف الساكسوفون.

ــ إنه ليس أسود ويعزف على البيانو.

منعتها الآنسة بوفير من الجواب بحركة آمرة.

ــ لم تقبلي عرضه للزواج، كما آمل؟

ــ ولماذا أرفضه؟

ــ لم تتزوجي السابقين.

ــ لم يطلب أحد منهم ذلك مني. بينما يحلم أفغانيٌّ بذلك.

ــ ألم تتساءلي لماذا؟

سكتت مرسيل، مرتبكة. وقفت الآنسة بوفير وقد أفْعِمَت بأهمية ما ستقول:

ــ ألا يخطر ببالك أن أفغانيكِ له مصلحة؟

ــ ما هي مصلحته؟ إنني لا أملك شيئاً.

ــ إنك تملكين شيئاً ثميناً في نظره.

ــ سقفاً؟

ــ جنسية، فبالزواج منك سيكتسبها. فيحق له إذاً البقاء هنا.

ــ هذا طبيعي.

ــ كم أنت ساذجة، أيتها الطيبة مرسيل... ألا تخشين من أنه يتزوجك ليهرب من بلده الأصلي، كي لا يبقى مقيماً متخفياً، فيترك وضعه الهش والذي هو بلا أوراق نظامية، ويحصل على بطاقة إقامة؟

ــ إنني أمقت ما تقولينه.

ــ أقوله لأنني أعزك مرسيل. اعرفي أنني لن أكون الوحيدة بطرح تلك الفرضية: بمجرد إعلانكما الزواج، تحط الخدمات الاجتماعية رحالها هنا، في ساحة آريزو، لتقوم بتحقيق.

ــ ماذا؟

ــ في كل مركز من مراكز بلدية بروكسل، موظفون كثيرون يلاحقون الزيجات الظاهرية.

ــ زواج ظاهري، أنت تمزحين! أنا وأفغانيَّ، لم ننتظر الزواج كي...

ــ ليس الزواج الظاهري زواجاً عفيفاً. إنه زواج مُدَبَّر للحصول على أوراق

نظامية. سيبحث المحققون ليعرفوا إن لم يكن أفغانيك قد يدفع لك لتتزوجيه.

ــ أنا؟ دُفِعَ لي؟ على العكس، إنني أدفع كل شيء. ليس معه قرش.

ــ إنهم سيتساءلون عن دوافع أفغانيكِ. لا تنسي أنه يصغرك بعشرين سنة... ليست تلك حجة وهي الفرق في السن التي ستدعم صدقه.

ــ عفواً؟

ــ إنني أنقل إليك ما سيفكر به الناس، مرسيل، وليس ما أفكر أنا به، أعرف أنك تجذبين الرجال كثيراً. أرسم لك مستقبلك القريب: فالخدمات الاجتماعية سيلطخون قصتك، وسيعتبرون رفيقك محتالاً وأنت بلهاء.

ــ إلهي!

ــ سيكون ذلك مؤلماً، مرسيل. أنت قوية، أما هو فليس له سواك.

ــ أفغانيّ...

دوّى جرس المدخل. بقيت الامرأتان مذهولتين، غير قادرتين على القفز إلى موضوع آخر. رنّ الجرس مرة ثانية. كشّرت مرسيل.

ــ حسناً، سأذهب لفتح الباب. على كل حال، حان وقت الذهاب عند السيدة مارتيل. مدت إلى الآنسة بوفير الصحن الخزفي قائلة:

ــ خذي، سأتابع غداً.

كعادتها، تركت الشقة في فوضى. بعد ثوانٍ، أدخلت أيف إلى الصالون.

ــ الزيارة لك، آنستي.

ــ شكراً، مرسيل، إلى الغد.

قدرت مرسيل أيف متفحصة إياها من الأعلى إلى الأسفل وتحققت من كمال اسمرارها، ودقة قوامها تحت صدر عامر؛ ومنخارين مرفوعين، وحواس مستنفرة، مستعدة للقتال، كانت تحدج منافسة. ثم لمحت عيناها الكعبين اللذين يعلوان خمسة عشر سنتمتراً، فألقت عليهما نظرة ازدراء وخرجت من الغرفة وهي ترفع كتفيها.

قالت أيف بتعجب:

ــ كم بيتك جميل!

وقد تيقنت الآنسة بوفير من أن مرسيل قد غادرت، شكرت أيف لعناء مجيئها ودعتها للجلوس.

ــ قبل أن تزوري الأماكن، سأشرح لك وضعي.

ترددت الآنسة بوفير بمتابعة الحديث... صعد انفعال من أعماقها جعلها في

منتهى التأثر. توجهت نحو كوبرنيك وأخرجته من القفص. فرك الببغاء جسمه بها، معترفاً بجميلها. مدها حنانه ثانية بالشجاعة.

ــ التقيت رجلاً أشاركه عشقاً عظيماً.

قالت أيف صادقة:

ــ هذا رائع!

ــ لكنه فقط يسكن بوسطن. عليَّ أن أفترق من كل ما أتمتع به هنا. هذا الأثاث... هذا المسكن... بئس الأمر بالنسبة إليَّ، إنني أجازف!

ــ أنت على صواب...

راح الببغاء يزعق:

ــ سرجيو! سرجيو!

انحنت الآنسة بوفير عليه وتمتمت:

ــ كلَّا، عزيزي، ليس سرجيو.

رفعت رأسها وأضافت بنبرة قلقة:

ــ في رأيك، كم يعطيني ثمناً؟

سألت أيف بعدم انتباه:

ــ من قبل من؟

ــ من شقتي. ألست وكيلة مكتب عقارات؟

ــ إنك تقيمين في مثلث بروكسل الذهبي، حيث يُباع المتر المربع بأغلى ثمن. بالإضافة إلى ذلك، أنت تشرفين على ساحتنا الجميلة، ساحة آريزو.

كررت الآنسة بوفير سؤالها:

ــ كم؟

ــ دعيني أقوم بجولة وسأجيبك.

ــ هيا. إنني أنتظرك هنا.

كان ينقص الآنسة بوفير الشغف؛ هي التي تعرف أن تُرائي كثيراً لم تعد تجد القوة للقيام بذلك. في عطلة الأسبوع هذه التي ادعت أنها أمضتها خارج الحدود، شأن نهايات الأسابيع السابقة، ذهبت إلى كازينو لييج، على بعد مئة كيلومترٍ وخسرت مبالغ هائلة. وقد ذاب إرثها في ديونها في اللعب، لم تعد تملك قرشاً واحداً، ولا دفتر سندات، ولا تأميناً على الحياة، ولا احتياطياً من السيولة ولا ذهباً في الخزينة، لا شيء! أما بالنسبة إلى حليِّها، فلقد رهنتها منذ زمن طويل. الآن، رفض المصرفي

الذي تتعامل معه القرض الذي طلبته. لم يعد لديها إلّا هذه الشقة ومحتوياتها. إذا لم تستعجل الأمور، فسيأتي المحضرون ليأخذوا الأثاث، ويشرعوا في بيع قسري.

بينما كانت أيف تقدر الأماكن، رجعت الآنسة بوفير إلى مكتبها وببغاؤها على كتفها، وأخذت صيغة وزارة الداخلية التي ملأتها هذا الصباح ولم يبقَ أمامها إلّا أن توقعها لتُمنع من دخول الكازينو على أرض بلدها.

همس صوت في أعماقها: «لا أبالي، سأذهب إلى مدينة ليل» الفرنسية.

أرعبتها تلك الفكرة. ألن تتوقف إذاً على الإطلاق؟ هل سيدفعها الشيطان باستمرار لتخسر كي تجهد لتربح؟

وضعت توقيعها بسرعة، كما لو أن حياتها كانت تتوقف على ذلك، وأدخلت الكلمة في المغلف وأغلقته. حين تخرج، ستضعه في البريد. حمل إليها هذا القرار ارتياحاً موقتاً، ذاك الذي يشعر به المصاب بالوباء حين يبتلع أول حبة من المضادات الحيوية.

قفز الببغاء على المكتب واقترب من يدها وهو يرقص من قائمة إلى أخرى، ثم، فجأة تجشأ حباته في راحة سيدته.

ــ كلّا، كوبرنيك، كلّا. عليك ألّا تعطيني طعامك. وإن لم يعد لديَّ شيء. أوه، عزيزي... داعبت سبابتها بطن الطائر بنظرته الملتهبة والذي انفتح عليها فأطلق زغردات حادة.

عادت أيف معلنة لها أن الشقة، في نظرها، تساوي بدءاً من مليون يورو.

تسمرت الآنسة بوفير: مليون يورو، إنه المبلغ المدينة به. ماذا سيبقى لها لتعيش؟

صرخت:

ــ بانكو[1]! تستعمل دائمًا تلك الكلمة حين تكون خائفة جداً.

انضم إلى مكتبة اضغط اللينك t.me/t_pdf

(١) Banco : يعني هذا التعبير في اللعب المقامرة بكل ما يملك أو هيّا بنا- (المترجمة).

٧

بمجرد أن دخل لودو إلى الغرفة، أدرك الفخ: أربع نساء شابات مقوسات، جالسات على طرف مقاعدهن، تمتزج عطورهن المدوخة وهن يشربن الشاي. كنَّ يتناقشن برخاوة يمنحها إشراق بعد ظهر مشمس.

ــ حبيبي لودو!

تصنعت كلودين الدهشة ــ بينما استعجلت الشاب كي يصل في الساعة السابعة عشرة والربع تماماً. بحركة سريعة، أمرته أن يدخل والتفتت إلى مدعواتها، متلهفة كي يستفدن من تلك المفاجأة.

ــ ابني لودوڤيك.

نهضت النسوة، خُرْقٌ. ذُكرت أسماؤهن، جرى تبادل الابتسامات، والقبل ــ ما عدا لودو وأمه ــ ليوحين أنهن شابات ومرحات. حين تسلم لودو كأساً من الشاي صرخت الصهباء بصوت كالرعد:

ــ آه، أخيراً، رجل يشرب الشاي!

ــ يستحيل مع أمي الهرب مما هو طقسي.

سُرَّت النسوة من تلك الجملة، بينما حدجت كلودين ابنها بنظرة سريعة حانقة، وهي تعرف إلى أي شيء يُلَمِّح: فمنذ سنوات كانت تُكثر من انضمامها إلى أندية أو جمعيات بهدف وحيد هو أن تعثر على شابات تقدمهنَّ إلى ابنها حول عصرونية تصنعت ارتجالها. كم من نشاطات قد جربت، وهي التي لم تكن تتمتع بأية مهارة يدوية؟ تطريز غرزة الصليب والرسم على الحرير وشغل المخرز وصناعة الفخار والخزف وفن ترصيع الخشب، وطي الورق التقليدي الياباني وفن باقات الزهور، كما سبقت ذلك ممارسات أكثر رياضية شأن اليوغا وتنمية العضلات والرقص الإفريقي والبيلات والرياضة في الماء، من دون أن تنسى دروس اللغة ــ لم تختر إلّا رموزاً مستقبلية شأن اللغة الصينية والروسية والبرازيلية والكورية كي تعثر على شخصيات ديناميكية. حين لاحظت عزلة ابنها المزمنة، ظنت أن من واجبها أن توجد له المرأة المثالية وتُعرفه إليها. قامت، في البدء، باختيار دقيق، مُخضعة اللواتي انتقتهن إلى تحقيق قاسٍ؛ مع الزمن؛ وقد أضعفت نشاطها الإخفاقات المتكررة، قلّ انتقاؤها فراحت تُجمِّع كل العازبات اللطيفات.

سأل لودوڤيك:

ــ أين التقيتنَّ؟

أجابت واحدة:

ــ في رأيك؟

ــ إنكن تشكلنَ فرقة من راقصات الروك؟ انفجرنَ ضحكاً.

ــ فرقة ألعاب بهلوانية؟ ضحكنَ أيضاً.

ــ فرقة ترتيل رعوية؟ وجهنَ إليه تقطيب ملامة.

فسرت كلودين:

ــ نشارك في الدروس ذاتها لتمرين عضلات البطن والأرداف.

شجَّع لودوڤيك باحترام، وهو يمتنع عن ملاحظة نتائج الدروس على المؤخرات التي كانت قد اصطفت حوله، لأنه بدا قد تعرف إلى واحدة منهنَّ، شقراء رائعة مصبوغة بالمياه الأوكسيجينة، انحنى نحوها ليتحقق من أنهما قد التقيا سابقاً. حين أعلمته أيف أنها تسكن ساحة آريزو، أدرك لودو من هي وقرر أن يثأر من أمه.

تَغير في ثانية. استدار نحوها كمن شُدَّ بلولب، وكف عن الاهتمام بالأخريات، فثبَّت نظره عليها ووجّه حديثه إليها. فإن سُرت المدعوات أولاً من اهتمام لودو بأيف، لكن موقفه انتهى بإذلالهن، صار لودو أصم وأعمى عنهنَّ. كانت كلودين تشعر برضى عظيم يدغدغ غرورها: بعد سنوات كثيرة، كانت قد نجحت! لودوڤيك وقع في الحب. كان قلبها كأم يهتز كثيراً من الانفعال حتى أنها لم تعد توجه حديثها إلى المدعوات الثلاث، اللواتي أهمِلنَ أكثر من أوانٍ خزفية، فرحن يتنحنحنَ وهن يتبادلن غمزات ملل.

من جهتها، كانت أيف، متراخية، حالمة، تبدو لا تعي شيئاً. كانت حرة بالرغم من استئثار لودو بها، تجيب بتقتير على نار أسئلته، وكانت تحلم وهي تتظاهر بمتابعة الحديث. لم يكن الشاب لا يهمها فقط، لكنها لم تكن تدرك العشق العابر الذي توحي به، كما لم تكن تهتم بغزله إلّا أدباً.

كانت هي فجأة، وقد تلقت رسالة على هاتفها، قد وقفت متذرعة بموعد بوجه راح يحمرّ. أما النسوة الثلاث وقد انشرحنَ، فانتصبن واقفات معاً، وهن يغدقن الشكر على كلودين، فهربن بأسرع ما أمكنهنَّ.

وقد بقيت كلودين وحيدة مع ابنها، لم تتمالك نفسها أكثر من ثلاثين ثانية. صرخت، وقد احمرّ وجهها من السعادة:

ـ قل لي إن كنتُ مجنونة: يبدو لي أن أيف قد أعجبتك.

رفع لودو كتفيه قائلاً:

ـ كيف يستطيع رجل أن يقاوم؟ نبدو شديدي البلاهة أمامها.

ـ ماذا عندها أكثر من الأخريات؟

ـ أماه، إنك تخجلينني. ألم تريها؟ ألم تسمعي صوتها الأجش؟ ألم تنتبهي إلى تواضعها وبساطتها؟ ألم تلاحظي أنها تشاهد كل المسرحيات الجيدة وتحضر كل الحفلات الموسيقية التي تُعطى في المدينة؟ إنها ليست امرأة، إنها درة، إنها كنز.

ـ لم أرك قط عاشقاً هكذا.

كاد لودو يفقد جديته، فادعى أنه يُصلح عاكس نور كي يدير ظهره، ثم استمر بإثارة الحماسة عند أمه:

ـ يجب ألَّا أحلم. إن امرأة كهذه لا تهتم برجل على شاكلتي.

صرخت كلودين باستنكار:

ـ لمَ لا؟

ـ أرأيتها، هي؟ أرأيتني، أنا؟ الوضع هو: الجميلة والوحش.

ـ أمنعك من أن تتحدث هكذا عن ابني. ليس الجمال هو كل شيء في الحياة. هناك...

ـ ماذا؟ لستُ الملك كريزوس البالغ الثراء ولا العالِم آينشتاين.

ـ كف عن الحط من قدرك. لو رغبتْ تلك المرأة لتزوجتْ من كريزوس أو من آينشتاين. لكنها عزباء.

ـ ما الذي يجعلني أكثر تحبباً؟

ـ هذا يعني أن الأمر لا يزال ممكناً...

ـ إنك تهذين.

أثار التحدي كلودين، التي كانت ترغب في أن تبرهن لابنها أنها بعد ما عرَّفته إلى امرأة حياته، ستقوم بتزويجها له.

لكي يكمل حيلته ألح قائلاً:

ـ أمي، اسمعي، لو أعطي لي نصف ثانية للزواج من تلك المرأة، فسأقول نعم من دون تردد.

فركت كلودين يديها شأن مزارعة تهنئ نفسها على صفقة رابحة. وهو خارج من الباب، بالضبط قبل أن يتركها، قطَّب لودو جبينه قائلاً:

ــ يُستحسن أن تستعلمي عنها...

ــ سأهتم بذلك، عزيزي.

ــ أظن... من كان... أحد ما قد حدثني عن أيف... ولكن من... لنرَ... آه أجل، رفيقتك كزافيير!

ــ كزافيير، بائعة الزهور؟

ــ أجل.

ــ أنت على حق. تعرف كزافيير كل شيء عن كل الناس. سأتصل بها فوراً.

ــ شكراً، أمي.

ــ إنه من النادر، عزيزي، أن تقول لي شكراً.

ــ لعدم وجود المناسبة. أعتمد عليك، أليس كذلك، هل تقسمين؟

ــ أقسم! إن أمك تهتم بخطيبتك.

ــ غادر لودو متصنعاً الفرح، شأن عاشق يود أن يرقص. في الواقع، كان فرحاً، بسبب عشقه للدور الذي لعبه على أمه.

حين عاد إلى الشقة، لم يقاوم إغواء التأكد إذا كانت فيورديليجي قد كتبت له. كانت رسالة قد وصلته قبل ساعة:

«إن علاقتنا بالغة الغنى وفي منتهى الكمال حتى أنني لا أريد أن أقطعها. لماذا نجازف بأن نلتقي ما دمنا نتفاهم بشكل رائع هكذا؟»

دوَّن:

«عزيزتي بالروح التي لا يمكن فصلها عني، إنك تتمتعين بكل تلك العيوب والنقائص المغرية حتى أنني أحلم بلقائك».

وقد فوجئ كثيراً، إذ أجابت من فورها:

قرر أن يتابع المحادثة، وقد تسلى:

«ما أدراك بأذواقي الجسدية؟ ماذا أعرف عنها، أنا نفسي؟

ــ إنني متيقنة من أنك تحب الشقراوات».

ابتسم لودوفيك وهو يفكر بالمشهد الذي أداه لأيف أمام والدته.

ــ «الشقراوات الحقيقيات أم الزائفات؟
ــ الزائفات، اللواتي همهن الشقرة.
ــ عزيزتي فيورديليجي، قولي فوراً إنني أحب العاهرات!
ــ ستكون أول شخص إن لم تكن تحبهن!».

فكر عدة ثوانٍ.

«فيورديليجي، هل لك مظهر العاهرة؟».

وصل الجواب شأن الوميض

«كلَّا.
ــ كيف تصفين نمطك؟
ــ نمط جدة.
ــ ما معنى ذلك؟
ــ يتساءلون في أي مخزن أجد كنزاتي الصوفية التي لا شكل لها، وتنانيري المنثنية، وأنسجة ملابسي المطرزة وقمصاني المُطبّعة بالرسوم.
ــ إذاً، أنت جدة من طراز موسيقى الروك العنيفة؟
ــ بالضبط. وأنت؟
ــ جد، ولكن ليس من طراز موسيقى الروك العنيفة...
ــ من طراز كنزة ضخمة وبنطال جينز متهدل؟
ــ أضيفي بناطيل بلا شائبة لكنها واسعة جداً.
ــ أعشق ذلك.
ــ لماذا؟
ــ أجد من الوقاحة في عصر حيث يظهر الرجال بتأنق يعادل تأنق النساء. أرى ذلك غير سليم جنسياً.
ــ بالنسبة إليَّ، لا يعني ذلك تمرداً ولا تأنقاً مبالغاً فيه، بل مجرد لامبالاة.
ــ كف عن إظهار محاسنك، فسأجن. وكيف هي أحذيتك؟
ــ الطراز ذاته منذ سنواتي الخمس عشرة، حذاء جيد مستدير من الجلد المخملي

بنعل مطاطي. عندي نماذج كثيرة على سبيل الاحتياط. وفي اليوم الذي لا يُصنع هذا الطراز، أقطع ساقيّ. وأنت؟

ــ أحذية خفيفة ملونة، عندي خزانة ملأى بها أن قدميّ هما الجزء الوحيد مني الذي أراه طوال اليوم، فإنني أهتم بهما وألبِّسهما بعناية.

ــ لوحة حديدية تحت النعل كي لا يخرب؟

ــ طبعاً. أعشق هذا الصوت. أشعر بأنني المشرفة العامة التي تأتي لتوبخ الأولاد. هذا يغذي ساديتي.

ــ أوقفي ملاطفاتك الخبيثة، فيورديليجي، إنك تثيرينني. أعشق أسلوبك: ذاك المثير للسخرية الذي تتقبلينه باعتزاز! تتمتعين بجاذبية عظيمة!

ــ حسناً سأتركك، أيها الماكر. عندي ما أعمله أهم من إرضائك».

نظر لودوفيك إلى ساعته ورأى أنه يحسن به الذهاب إلى المسبح. كان يمارس السباحة، وهي إحدى عاداته الصحية النادرة. بالرغم من ممارسته إياها بانتظام، لم يكن له جسم سبَّاح، بل على العكس؛ كان جسمه دائماً أقرب إلى المطاط، فليس له أية عضلة ترتسم تحت جلده الأبيض. لا يهم. يكفيه، كي يحتمي من السخرية، أن يمارس تلك الفعالية بسرية أكثر تكتماً من ممارسة معيبة وأن يذهب إلى الحوض في ساعات لا يغامر فيها بلقاء أحد.

ففي تلك الساعة، بالضبط، لم يكن البناء مفتوحاً إلّا للتلاميذ، سيكون معزولاً في الممر الخاص بالمترددين المألوفين.

حين انحبس في الممر، ابتسم لرائحة ماء «جافل» النضرة والمنشطة وغير المثيرة. لبس سرواله الأزرق القاتم للسباحة والذي لم يكن ملتصقاً بالجسم ولا مقوراً، ثم وصل إلى صالة الحمامات الرشَّاشة التي كان يُقدر بلاطها الأبيض، وجوها البالغ الدفء، وروائح الصابون السائلة السكرية، فهو مكان يترجّح بين العيادة الطبية ومخزن مستحضرات التجميل.

أخيراً، وصل إلى حوض السباحة وهو يحرص على تجنب حوض غسل الرجلين، فهو مستنقع ميكروبات يثير قرفه. تأمل الأولاد الذين يتبادلون رش المياه.

كان الماء المسخن يشكل بخاراً تحت قبة تبعثر الأصوات التي تتحول إلى أصداء مخنوقة، كأن الكلمات والصيحات تتكسر بتأثير البخار.

حدق إليه بنظرة عدائية معلم السباحة الرئيس، ذو عضلات الصدر البارزة

بوضوح. لم يفهم لودو قط سبب عدائه المتواتر، فاستنتج أن هذا العداء يعبر عن الجميل بالنسبة إلى القبيح، إلى بطل العدمية. لأن معلم السباحة كان ذا جسم رياضي، عريض المنكبين، بحوض ضيق وعضلات بارزة، ومغزلي الشكل حتى عضلات الكتف شبه المنحرفة. إن ما يسحر لودو في الوقت ذاته، كانت مشية الرجل: فبالرغم من نحافته، كان يجر قدميه بتثاقل وهما مثبتتان بقبقابين من الخشب، فكان يرجّح كتفاً ثم كتفاً أخرى، وهو يستند إلى الساق اليسرى قبل أن ينقل ثقله إلى اليمنى، شأن عملاق أنهكه سباق ما.

يخيل لمن يراه يتحرك ببطء وعظمة ومشقة أنه يبسط جهوداً تخص جسماً أكثر ثقلاً وأشد كثافة وأكبر حجماً من جسمه، حاملاً هيكلاً عملاقاً يزعج حركاته ويفلت من النظر.

دخل لودو في الماء وتحرك حتى وصل إلى الممر الضيق المفتوح. فلكي يتجنب الأولاد، أراد الذهاب بسرعة؛ لم ينجح في ذلك، وأدرك فجأة سلوك المشرف: فمعلم السباحة يتحرك على الأرض شأنه وسط الماء، وهو يدفع الهواء كما لو كان موجات ثقيلة.

وضع لودوفيك قبعته ولبس نظارتيه وهو واثق أنه يبدو الآن كذبابة، ابتدأ يقطع المسافات. كان يسبح بلا منهجية لكنه سبح طويلاً.

إلّا أنه، في ذاك اليوم، لم يتوصل إلى تجاوز الخمس دقائق، بعدها تتلاءم عضلة القلب مع الجهد الذي يقوم به؛ كان قلبه يدق بسرعة ويرفض التلاؤم مع الإيقاع الثابت. وقد كان معتاداً ذاك التمرد، قرر لودو الخروج والتنفس ومعاودة الكرة بمجرد أن يهدأ تنفسه.

تسلق أعلى السلم، مسترجعاً في كل قضيب كيلوات أخذها منه الماء. كان في الحوض بخفة قنديل البحر، وهو يزن ثمانين كيلوإراماً على البلاط.

اقترب سهواً من الحوض الصغير. ثمة أب هزيل، بارز العظام، تبدو عضلاته شأن حبال، يهتم بابنته الصغيرة. كانت تلك الفتاة تكره الماء، وهذا ما لم يكن يهتم به مطلقاً. لأنها كانت تصرخ لأقل رشة وتبكي حين يرغمها أن تتقدم في الماء، فقد الأب صبره فصفع الطفلة. توقفت عن البكاء مذهولة.

شعر الأب أنه اجتاز مرحلة فغطسها من جديد. راحت تصرخ كالرعد. سدد إليها بكفه ضربتين رنانتين. سكتت الطفلة، هذه المرة، من وقع الصدمة.

حين استردت أنفاسها، راحت تئن. انهالت عليها أربع صفعات. تحول الوضع إلى مشهد عبثي: بطريقة آلية، كانت الضربات تزيل العويل. والعنف يهوي بانتظام، كأن الرجل قد نسي أن، تحت الضربات، يتنفس كائن بشري.

أراد لودو أن يتدخل، فتح فمه: لم تخرج منه أية كلمة. أمر جسده بالوقوف: لم يتحرك شيء. دارت الجدران، فانهار وتدحرج على الأرض، ثم استقر، وهو عاجز عن القيام بحركة أو بصوت.

لم يعد يسمع بوضوح ما يحدث، ويجهل إذا استمر الرجل في ضرب الطفلة أو توقف عن ذلك. إذا كان سلوكه قد أثار رد فعل. تجمد كل شيء. كان لودو يتلقى إحساسات مرئية غامضة ــ ألواناً بلا أشكال محددة ــ وكذلك إحساسات سمعية أشد غموضاً أيضاً، رنين كاتدرائية يشوش أصل الأصداء.

كم استغرق هذا التشنج من الوقت؟

راحوا ينادونه... كانت أيدٍ تلمسه... هدير مُلِحٌ بدأ يتحدد وانتهى إلى أن أصبح: « سيدي؟ سيدي؟ هل أنت بخير؟ ».

حينئذٍ أدرك أن وعكته قد لفتت الأنظار، وأن ثمة من يعتني به.

مددوه على ظهره: لمح وجه معلم السباحة الذي كان يسأله. بعينيه الجاحظتين، لم يتوصل لودو إلى أن يجيب.

وضِع غطاءٌ على جسمه. وصل رجال الإطفاء. وضعوه فوق نقالة ثم حملوه إلى غرفة في منأى عن الأحواض. هناك شعر بأنه استرجع سمعه. وضعوا على وجهه قناعاً طالبين منه أن يستنشق بقوة: شحنة من الأوكسيجين قد أنعشته. ارتخت عضلاته. عادت إليه الحياة. ابتسم.

نصحوه أن يستنشق بعمق. ابتعد المنقذون. سمع لودو معلم السباحة يتحدث إلى رجال الإطفاء:

ــ أصابته تلك الوعكة وهو يخرج من الماء.

ــ هل يأتي إلى هنا بانتظام؟

ــ هاوي الأولاد؟ أجل. إنه مواظب. يسبح شأن قبقاب ولكن لمدة طويلة.

ــ لماذا تسميه هاوي الأولاد؟

ــ أنا وزملائي نسميه هكذا لأنه لا يأتي إلّا في الوقت ذاته الذي يأتي فيه التلاميذ.

ــ هل قام ببادرة...

ــ كلّا، لا شيء من ذلك قط. مع ذلك، إنك تُقر أن ذلك غريب: اختيار الوقت الذي يشغل فيه الأولاد الحوض ويحدثون ضجة جهنمية. أنتزع من رأسي أنه... على كل حال نراقبه عن كثب. بسبب ذلك، أدركتُ بسرعة أنه ليس على ما يرام...

كان لودو يرغب في الضحك، وهو ممدد على النقالة، ومخدر بجرعة

الأوكسيجين. ها هو قد فهم الآن نظرة معلمي السباحة القاسية والفاحصة حين كان يصل إلى حافة الأحواض: يحسبونه شاذاً جنسياً يهوى الأولاد! هو! هو الذي لم يكن ينظر إلى الأولاد ويعتبر نفسه ولداً صار يافعاً خطأً.

وجه رجال الإطفاء كلامهم إليه:

ــ سيدي، أتسمعنا؟ إذا كنتَ تسمعنا، رفَّ عينيك. بكل طاعة رفَّ لودو عينيه.

ــ هل تستطيع أن تتكلم؟

ظن لودوڤيك ذلك مستحيلاً لكنه سمع نفسه يقول بصوت متهدج:

ــ كلّا، أنا... بلى.

ــ ماذا حدث، سيدي؟

تدفقت الدموع. فجأة عاد إلى لودوڤيك مشهد الفتاة الصغيرة التي كان يضربها أبوها، رد فعله، عجزه. كلّا، لن يُجيبَ عن السؤال.

ــ أيمكنني أن أحصل... على قليل من الأوكسيجين؟

قام رجال الإطفاء بحركة من شفاههم تعبر عن حرج. قلقوا لأنهم يتعاملون مع متعاطي مخدرات، وإن كان بالأوكسيجين؛ أمسك واحد منهم أنبوب الغاز وثبت القناع وأرسل رشقة.

غمر الانشراح لودوڤيك، تبع الشعور بالكمال نوع من الإشراق الداخلي: إذا كانت حياته كارثية ومخفقة، فإن ذلك يأتي من طفولته.

شأن الفتاة الصغيرة، كان هو طفلاً يُضرب. ثمة رجلٌ راشدٌ قد أطلق عنفه عليه من دون أن يفهم لماذا. يقين وحيد: بمجرد أن يظهر والده، لأي سبب كان، يتلقى ضربات. وبعد الضربات، يأتي الأسوأ: قبلات الندم. كان أبوه المذنب يغمره بالملاطفات بعد أن يكون قد صفعه حتى الورم الدموي. لودوڤيك اليوم كان ابن ذاك الطفل. إذا كان لا يتحمل أن يلمسه أحد، فلأن أباه قد ربط كل تماس بالعنف. بما أن أمه لم تكن تلمسه، فلقد راح يشك بأن يكون الجسم شيئاً آخر إلّا مكاناً تكتسحه بفظاظة أمزجة الآخرين وتنقلاتهم العبثية. لقد خنقه والداه من دون أن يُفَتِّحاه.

انفجر لودو بالضحك وهو يبكي: كان حالة ميئوساً منها. فسَّر رجال الإطفاء هذا التناقض كأثر للأوكسيجين فقرروا الرحيل.

عاد لودوڤيك ببطء إلى بيته. كان يشعر بتراخٍ سعيد. اكتشف على هاتفه، وهو

في الطريق، أن أمه قد نادته عشرين مرة. أصغى إلى الرسالة الطويلة التي قررت أن تتركها له:

« لودو، بما أنك لا ترفع السماعة، فلن أضع قفازات. سأقول لك الحقيقة كما هي وبئس الأمر. إنني آسفة أن أعلن لك ذلك: عليك ألَّا تحلم بتلك الفتاة بعد اليوم، مطلقاً. أمنعك من معاشرتها. أنت تفهم، لودو، أن هناك حدوداً. حدَّثت كزافيير: هذه الأيف هي... آوه، كيف أقول... إنها... اصغ، سأنقل لك كلمات كزافيير... إنها عاهرة! هكذا. خليلة يصرفُ عليها عشاقٌ أثرياء، لأنهم كثيرون. لم أصدق في بادئ الأمر ثم أعطتني كزافيير تفاصيل. أجل، أنت مُحق، من المؤكد أن تلك الفتاة جذابة، لكننا نعرف ما تفعل بتلك الجاذبية! حسناً، لودو: إذا صادفتها فلا تحييها بعد اليوم. بمجرد أن أفكر أنني عرفتك إليها حتى أرتجف من ذلك... على كل حال، وفق ما فهمتُ، لستَ متقدماً في العمر ما يكفي ولست غنياً ما يكفي بالنسبة إليها. تجنب المصيبة. ألست حاقداً عليَّ، عزيزي؟ أنتظر اتصالك الهاتفي. كانت أمك».

ابتسم لودو. لقد سارت خطته كما رسمها. تشعر أمه بالذنب لأنها عرَّفت الشيطان إلى ابنها، سينخرها الندم أسبوعين أو ثلاثة فتؤجل تقديم الخطيبات. وهذا ما ربحه...

في بيته، وهو يكاد لا يفكر، جلس على مكتبه ليكتب:

«عزيزتي فيورديليجي، يجب أن نفترق. تبقى حالتي ميئوساً منها. التزمتُ معك لأننا لن نلتقي أبداً. أعرف أنني سأضاعف الحمى وأختفي من عشق جاء من العدم الرقمي. إن ما أحب في الإنترنيت، هو أنه غير ملموس.

إلَّا أن ما أتألم منه في الحياة هو أنني كائن غير مادي ولا ملموس.

فلنقطع اتصالنا، من فضلك. عندي، كل ما هو قوي لا يوجد إلَّا في الروح. أما المشاعر فأعيشها من خلال الكتب. والعلاقة الجنسية، أعيشها فوق الشاشة — حتى ذكرياتي في الحب لا تخصني، فهي تبقى ذكريات غرباء. لم أعش حتى الآن إلَّا بالوكالة. لن أخرج من هذا السجن الافتراضي.

ما هو الكذب؟ إنه الحقيقة التي نتمناها والواقع الذي لا نجربه. لا شيء أصدق من خداعي. حين كنتُ أقول لك إنني أريد أن نلتقي على شاطئ بحيرة، كنت أعرف أن ذلك لن يحدث لكنني كنت أتمناه بشدة. حين كنت أبتكر وجوداً بالقرب منك، كنت أنشد المستحيل الذي كان يغريني. بمجمل القول، إن الذي يعد كان لودوڤيك الكامل. ذاك الذي لن يحافظ على وعوده مطلقاً، إنه لودوڤيك

الواقعي. فالطموح نحو الأفضل كان يروي مراسلتنا. أليس الأكثر أخلاقية هو المخاتلة لأنها تحمل المثالية؟

لا شيء أكثر كرماً إلّا كذبة. لا شيء أشد بؤساً من الواقع.

للأسف، أكتشف أن أفضل ما فيَّ سيبقى أثيرياً. يحبسني شيء ما في عدميتي ــ إنه بلا شك الماضي ــ ضحية العنف الأبوي وضحية سوء التصرف الأموي.

عزيزتي فيورديليجي، أوقف هنا شكواي. حين أعاود القراءة، أشعر بأنني قد وضعت نفسي كشهيد بينما أنا وضيع.

بناءً على ما قلتُ، أليس أكثر وضاعة ألّا أبرر ذاتي؟ سامحيني. الوداع».

ضغط لودو على مفتاح «إرسال» من دون أن يحس ارتياحاً. لم يكن يشعر بشيء. وهو منهك، ذهب إلى المطبخ وبحث عن أسوأ أنواع الأطعمة ــ بطاطا مقلية، شوكولا ــ، قضم الاثنين بالتناوب وشرب صودا ذات طعم محمض قليلاً.

حين عاد إلى الصالون، رأى على النافذة التي تومض على شاشته، أن فيورديليجي قد أجابت. فقرأ بصوت عالٍ:

«عزيزي لودو، استلمت رسالتك وأدركت إلى أية درجة أنا وأبوك قد جعلناك تعيساً. إنني أقفز في سيارتي وأصل».

شحب وجه لودو.

ــ أمي؟

٨

في ساحة آريـزو، اقترب طوم وناتان من قصر آل بيدرمان. موكب من السيارات يسير هناك: كانت سيارات «الليموزين» تنقل الزائرين، وسيارات أخرى تأخذ هؤلاء الذين يغادرون، وجميع السائقين يؤدون أعمالهم بحمية بطقومهم السود، وينسق هذا التحرك موظف مهيب على أعلى السلم. تأمل الشابان الواجهة الفخمة التي تخلط القرميد بالحجر بانتظام أبَّهيّ، والشرفات من الحديد المشغول بتقنية لافتة للنظر والمزاريب المزينة بأحواض ذات أشكال حيوانية؛ من الرصيف، خلف النوافذ العالية، كانت تُرى عن بعد الثريات والخشب الذي يغطي الجدران والزخارف المذهبة وحتى الإطار العلوي من القماش المرسوم الفخم، ومن المذهل أن السقوف وحدها تروي الثراء الذي تحميه؛فسقف الفقير أبيض، عارٍ بلمبة تتدلى في نهاية شريط مبروم...

فجأة ترددا، وقد تأثرا من الفخامة. انحنى ناتان نحو طوم.

ــ لن أذهب إلى هناك: سيحسبوننا من شهود يَهوه.

تأمل طوم لباس ناتان المضحك: بنطال خمري وحذاءان مدببان وقميص قصير بجلد العصاية الكاذب وبلون الفوشيا.

ــ لا أظن ذلك، كلّا.

أدار ناتان ظهره إلى البناء وتمتم بسرعة:

ــ أكان ذلك هنا أم هناك، هل تجد نفسك، أنت، تدق باب الناس لتسألهم إن كانوا تسلموا رسالة مجهولة؟

هزّا الورقتين الصفراوين اللتين وجِّهَتا إليهما. رد طوم قائلاً:

ــ عند اللزوم، سيكونون سعداء جداً بمعرفة أنه إرسال إلى مجموعة.

ــ آه صحيح؟ سعداء جداً؟ بينما فسَّر كل واحد تلك الرسالة على طريقته، وعدَّل حياته إثر تلك الرسالة؟

ــ إنك تبالغ!

ــ إطلاقاً، طوم. انظر إلينا: لم نعد نفترق، لأن كل واحد منا ظنّ في البدء أن الكلمة أتت من الآخر، ثم وقد أدركنا الخطأ، أردنا أن نحدد أصله.

ــ إن كان قد أغنى وجودنا، فلا نأسف على ذلك.

ــ من يؤكد لك أن الأمر كان كذلك عند جيراننا؟ يمكن أن تحدث رسالة كهذه كوارث.

ــ رسالة حب؟ لا أرى كيف...

ــ لا تُحتمل، رسالة حب، حين لا يكون الإنسان راغباً في ذلك.

ــ كل الناس يتمنون الحب.

ــ هراء! كثير من الناس يحتمون من الحب. يعيشون بدونه بشكل أفضل. في أغلب الأوقات، إذا قبلوا تلقي الحب، فهم لا يحرصون على أن يعطوه. فالحب يُقلقل. إنه خرق للأنانية، انهيار قلعة، موت سيادة: كائنٌ يُعتبَر أهم من الذات! يا للمصيبة... علاوة على ذلك، تلك الثغرة التي يُحدثها الحب، يمكن أن تَدخل منها الغيرية وتُغيّر التوازن الداخلي.

ــ إنك تهذي!

ــ أتريد برهاناً على أن الحب لا يُحتمل؟

ــ أراهن...

ــ قصة شاب شجاع، أعزب، ترك مهنته كنجار ليقطع الطرقات قائلاً للناس إن الله يحبهم وعليهم أن يحبوا بعضهم بعضاً. إضافة إلى ذلك، أظهر الشاب انسجاماً مع أقواله: هو ذا يعتني بالبرص، ويعيد النظر إلى العميان، ويبعث رفيقه لعازار من بين الأموات ويمنع الناس من رجم امرأة بائسة بحجة أنها أخطأت مع ملتحٍ غير زوجها، إلخ... وأكتفي بما ذكرت وإن تركت قصصاً أفضل لا تحصى من معجزات وأمثال وحكم وأعمال حسنة. هذا كان برنامجه، يسوع. حسناً، ماذا جنى الشاب في نهاية المطاف؟ أوقفوه وهو في الثالثة والثلاثين لأنهم لم يعودوا يحتملونه، فارتجلوا له محاكمة صورية وصلبوه على ألواح خشبية. أنت تتحدث عن مكافأة! إذاً بحكم الضرورة، منذ ذاك الحين، نجد أن الدعوات إلى الحياة الرهبانية تتناقص. يجب أن يكون المرء قديساً ليلعب دور يسوع بعد ذلك.

ــ ماذا تريد أن تبرهن لي، أيها الأخ الراهب ناتان؟

ــ أن الحب من الديناميت، هذا ثوري. فالناس الذين ينادون بالحب يبدون إرهابيين في مجتمع تحكمه المصلحة ويسيطر عليه الرعب. ألّا تكون الرسالة المجهولة قد أحدثت سوى قصص حب جميلة. لا نجول في حكاية من حكايا الجنيات!

وضع طوم يدين مسالمتين على كتفي ناتان.

ــ إنك تروي لي هذا الهذيان لأنك لا تجرؤ على أن تدق باب زاكاري بيدرمان.

ــ اقرع، أنت.

ــ لا أجرؤ مطلقاً.

ــ آه!

فرقع ناتان أصابعه، كأن الاعتراف بالهزيمة قد أصبح انتصاراً له.

فُتِح الباب لتخرج منه امرأة تلبس من دون تبرج طقماً سكرياً ببنطال.

أشرق وجه طوم.

ــ نجونا!

هرع لاستقبال القادمة الجديدة في نهاية السلم.

ــ السيدة سينجر، يا لها من مفاجأة!

نظرت إلى طوم ثم ابتسمت.

ــ السيد بيرجيه... نسيتُ أنك تسكن ساحة آريزو.

ــ أكثر ما تُثير الذهول في العالم، إذا أردتِ رأيي. السيدة سينجر، جئتِ في الوقت المناسب لأنني أقوم بتحقيق. لكنني لا أريد أن أضايق السيد بيدرمان، ربما تستطيعين مساعدتي.

قطَّبت حاجبيها، وهي مستعدة أن تحمي معلمها.

ــ نعم؟

ــ الموضوع هو أن كثيراً من الأشخاص الساكنين هنا قد غُمروا برسائل مجهولة. إننا نحتاج إلى أن نحدد من هو المعني، كي نبحث ونصل إلى كاتبها.

مد لها الرسالتين الصفراوين.

ــ هل تسلم السيد بيدرمان أو السيدة بيدرمان شيئاً ما من هذا القبيل؟

أمسكت السيدة سينجر الورقتين بتحفظ وقرأتهما بسرعة بنظرة مرتابة، ارتسمت على وجهها حركة اشمئزاز.

ــ إنني لا أهتم ببريد السيدة.

أعادتهما إليه وهي تضيف:

ــ أعتقد أن السيد بيدرمان قد فتح رسالة بمغلف مماثل. لم أقرأها لكنني لاحظت لونها الغريب. لم يحدثني عنها.

ــ شكراً، سيدة سينجر. لقد قدمتِ لنا خدمة ثمينة.

هزت رأسها، وهي تأسف أن أفضت بعنصر من حياتها المهنية.

ــ على كل حال: يبدو لي أن تلك الرسالة المجهولة لا معنى لها.

وراء طوم، على بعد مترين، لم يستطع ناتان الذي سمع هذا الحوار، أن يتمالك عن القول عالياً:

ــ آه، هذا ما يُظَن للوهلة الأولى!

تعجبت السيدة سينجر من رؤيته ينبثق فجأة، فتفحصت مظهره وأطلقت تنهداً ورحلت بخطوة ثابتة.

ــ طاب نهاركم، يا سادة.

اقترب ناتان من طوم، ببهجة.

ــ إنها سحاقية، بالطبع، أقصد الرقيب الأول؟ إن لم تكن سحاقية فأنا القديسة برناديت. كيف لك أن تعرفها؟

ــ كان ثلاثة من أولادها تلاميذي في الثانوية. عودي إلى مغارتك، برناديت.

ــ لا نضيع الخيط. لدينا تأكيد على رسالة جديدة مجهولة. هيا نسأل مرسيل.

ــ مرسيل؟

ــ بوابة البناية رقم ١٨.

تعجب طوم من تلك الحمية المباغتة.

ــ أنت الذي لم تجرؤ على أن تدق باب زاكاري بيدرمان، تهرع لتزعج البوابة؟ هذا احتقار اجتماعي.

رفع ناتان كتفيه وهو يسير نحو البناية.

ــ أولاً، إن ناطورة البناية هنا كي يزعجوها. ثانياً، ينبح تنين آريزو بدلاً من أن يتكلم ويعض قبل أن يفكر. لو كان عندك رؤية أصوب عن هذا الكلب الضخم للحراسة والعدواني الذي يختبئ تحت أثواب غريبة مُطبعة، لأدركتَ أنني أظهِر في تلك اللحظة شجاعة رائعة كي أؤمن حسن سير تحقيقنا. الآن، طوم، أطبق فمك وضع قبعتك: سأعرفك إلى مرسيل.

دخلا البهو وقرعا الباب الزجاجي الذي تخفيه ستارة ذات ثنايا.

ــ طاب يومك، مرسيل، هذا ناتان.

أزَّ المصراع وظهرت مرسيل منهارة، بجفنين متورمين ومنديل رطب في يدها. ألقت نظرة سريعة على ناتان فتعرفت إليه واندفعت من مقصورتها وارتمت وهي تبكي.

ــ رحل...

ـ من إذاً، مرسيل؟

ـ أفغانيّ.

بينما كانت تنتحب على صدرية ناتان، شرح هذا لطوم بصمت، وبإشارات قوية وبحركات من وجهه أوضح الأفغاني لم يكن كلباً لكنه كائن كث الشعر يضاجع البوابة. أمام حركات ناتان البذيئة، صعب كثيراً على طوم التماسك عن الضحك.

بعد عدة شهقات، ابتعدت عن ناتان ونظرت إلى الصديقين كما لو كانا صديقيها الحميمين منذ الأزل.

ـ كنا سعيدين، أنا وأفغانيّ. حسناً، صحيح أنه لم يكن يقوم بأي عمل. أراد أن نبقى معا، وأنا ايضاً ـ كان عليّ بالضبط أن أحل مشكلة طاولتي الصغيرة. في تلك الأوقات الأخيرة كانت الحياة رائعة. عرض عليّ الزواج. كنتُ سأوافق قريباً. وها هو يختفي.

ـ من دون تفسير؟

ـ إنك تتحدث عن تفسير! ترك لي كلمة: «شكراً»، سيتذكرني كما يتذكر «ملاكاً»، واحدة من الأشخاص الأكثر «لطفاً» تسنى له التقاءها في حياته.

كان إصبعها مصوباً، تتهم غاضبة وتأخذهما كشاهدين:

ـ «لطيفة»، هل تجدان أن تلك كلمة ملائمة لهجر... عشيقته؟

ـ كلّا. « لطيفة» هذا ليس لطفاً منه. ولا كلمة «ملاك»، على كل حال.

ـ آه، سيد ناتان، إنك تفهمني. لا يقال لامرأة... أخيراً، أنت تدرك ما أريد قوله، وإن كان ذلك ليس من اهتمامك... لا يُقال لعشيقة...

لمعت عيناها: فبكلمة «عشيقة» أدركت الكلمة المناسبة.

ـ ... لا يُقال لعشيقته «شكراً، كنتِ لطيفة». كلّا. ليس لعشيقته.

انتصب ناتان وهو يرتعش وفرض عليها السكوت:

ـ مرسيل، إنك تسيئين الفهم!

ـ عفواً؟

ـ لا تنسي أن صاحبك... هيا، ماذا كان يُدعى؟

همست بدمعة:

ـ غنشا كول.

ـ إن غنشا كولك لا يجيد الفرنسية! فما كتب لك بلا شك هو خطأ في الترجمة. إنني متأكد من أنه باللغة الأفغانية، لا يقولون...

صححت مرسيل، والتي برهنت لطوم أنها مالكة زمام قضيتها قائلة:

ــ لا توجد لغة أفغانية، كان يتكلم الباتشو.

تابع ناتان بلهجة آمرة:

ــ في لغة الباتشو، ليس للكلمات هذا الوقع، مرسيل. ربما كلمة «شكراً» و«لطيف» هما رائعتان بلغة الباتشو. لا شك أنها أجمل كلمات اللغة. أما بالنسبة إلى «ملاك» فيبدو لي الأمر بديهياً!

تسمرت مرسيل وهي تفكر وقد أغرتها تلك الفكرة. خف ألمها. برق وميض في حدقتيها.

أمرت قائلة:

ــ ادخلا لشرب كأس.

كاد طوم يحتج لكن ناتان قاطعه قائلاً:

ــ بكل سرور، مرسيل.

دخلا المقصورة الملأى بالتحف.

صرخت:

ــ اجلسا حيث تشاءان، مشيرة إلى الأريكة الوحيدة ذات المكانين. أمسكت بزجاجة دبقةأخرجتها من الخزانة.

ــ أيناسبكما الكرز بالكحول؟ على كل حال، لم يعد لديَّ غيره. إنه مُقَبِّل قبل الطعام. من دون أن تنتظر جواباً، ملأت الكأسين وقدمتهما لهما وجلست هي أمامهما على كرسي صغير جرَّته بشكل خارق من تحت الطاولة.

ــ هيا، بصحتكما!

ــ صحة!

ــ إننا نشرب نخب أي شيء؟

ــ إننا نشرب نخب المثل، مرسيل.

ــ أي مثل؟

ــ «نفقد واحداً، فنعثر على عشرة».

هنا، فكر طوم أن ناتان قد تجاوز حدود الوقاحة. لكنه تفاجأ كثيراً بأن مرسيل بدلاً من أن تستاء، انفجرت بالضحك ملء شدقيها.

ــ إنك تبالغ، سيد ناتان. عشرة أفغانيين في سريري! كم هو مسلٍ...

بجفنيها المغمضين، راحت تضحك على كرسيها الصغير وهي ترشف خمرها الساخن المكثف.

استفاد ناتان من ذلك، ليهز بمرفقه طوم: وبحركة من عينيه، أشار إليه، بمغلف أصفر،على الرف حيث تضع مرسيل بريدها الهزيل.

بعد عدة كؤوس، خرجا من المقصورة، مرهقين.

اقترح ناتان متابعة التحقيق في الطوابق، لا سيما أنه يعرف كثيراً من الناس من وجوههم ومنهم عانس لطيفة ومسلية، الآنسة... ما اسمها؟

سأل ثلاثة رجال أجلاف، دقوا باب البوابة:

ــ في أي طابق الآنسة بوفير؟

أجابت مرسيل:

ــ في الثالث.

ــ هل هي هنا؟

ــ أجل.

أغلقت مرسيل بابها وصعد الرجال على السلم.

همس ناتان في إذن طوم وقد رآهم يبتعدون

ــ مم، ثمة رائحة كريهة...

ــ ماذا تقول؟

ــ عرفتُ رئيس رجال الشرطة الثلاثة: إنه مُحْضر استعانت به شركتي لاسترجاع ديون. لا أدري ماذا فعلت تلك الآنسة بوفير المسكينة...

ــ لا تجعل من الوضع مأساة. يمكن أن يحمل إليك مُحْضرٌ مستنداً باليد.

ــ ليس حين يأتون كثراً. هنا بالأحرى لطرد أو لجرد.

هربا، حذرين، كأن ثمة خطراً في البقاء في بناية ستحدث فيها مأساة.

بعد أن قطعا الشارع، قررا الاستراحة فترة تحت الأشجار. فالمحادثة بين مرسيل وناتان أنهكت طوم؛ فطريقتهما في الاستدارة من المؤثر إلى الإباحي المضحك بتلك السرعة قد أربكته. كان يحتاج إلى رشقة صمت.

فبدلاً من ذلك، عانيا صخب الببغاوات. ماذا كان يحدث في الأغصان الملتفة؟ كان جنسان من الببغاوات (Aras, cacatoès) لا يتحدثان بل يصرخان. فتدور بين الأغصان عاصفة من الأصوات، حادة، ثاقبة، مُصَرصِرة، ضجيج صاخب ومتنوع يخدش الآذان.

لكن هذا الهرج والمرج، وبشكل متناقض، أمّنا لهما ارتياحاً بقدر ما كان سليماً،

واضحاً، متنوعاً، حياً، فرحاً، فوضوياً. فتنافر الأصوات خلق تناغماً. ورؤية طائر بألوان أكثر تنوعاً من ألوان قوس قزح تُحدِث شعوراً بالغبطة، وكذلك صخب الطيور الفاقع واللماع ينقل بهجته.

حين شعرا بالارتياح، لخص طوم الوضع قائلاً:

ــ أنا وأنت وڤيكتور وبائعة الزهور والأرستقراطي وزاكاري بيدرمان والبوابة، سبعة أشخاص تسلموا تلك الكلمة. ما هي النقطة المشتركة بينهم؟ يسكنون ساحة آريزو. إشارة أولى: يوجد، في هذا المحيط، أحد يتمنى الخير لجيرانه. إشارة ثانية: هذا الشخص هو طيب ولطيف وكريم، وهذا يقلص حقل البحث.

ــ وما يحذفه، أجل. أناس من هذا القبيل لا وجود لهم.

ــ من كان يحدثني عن يسوع المسيح وعن قديسين؟

نظر إليه ناتان.

ــ حسناً، لنفرض أن حمامة كتبت لنا. كيف نبحث عنها؟

في تلك اللحظة، انسل شاب في الخامسة والعشرين من عمره، مرتاحاً، رشيقاً، تشع شفتاه بهجة، وهو يترنم في الممر. ما إن رآه الرجلان يختفي حتى قطعا حديثهما. علَّق ناتان قائلاً:

ــ إنه مثير للشهية، من أين جاء؟

وافق طوم قائلاً:

ــ إنه مَرِحٌ، أيضاً.

تنفسا. التفت ناتان نحو عشيقه سائلاً:

ــ قل لي، طوم بيرحيه، تبدو ملتهباً شأن كوخ للبطاطا المقلية. أعليَّ أن أستنتج أنه، حين سأعيش معك، سأحمل قروناً؟

ــ القرون ذاتها التي ستُحَمِّلُني إياها، ناتان سانكلير، ألفتُ نظرك إلى أنني لست أنا الذي سكتُّ حين ظهر الشاب الظريف.

ــ حسناً. أطلب فقط احتياطاً واحداً: افعل ما شئت، ولكن ابقَ كتوماً ولا تحدثني بذلك مطلقاً.

ــ أعدك بذلك.

ــ أعدك بذلك.

حلَّ صمت. أمسك طوم بلطف يد ناتان قائلاً:

ــ أود ألّا أخونك...

راقبه ناتان، بتأثر:

ـ إنه تصريح غرامي جميل يعجبني.

ابتسم إلى الدرَّات بعينين مغرورقتين بالدموع.

ـ هذا ما يجب قوله أثناء الزواج. فبدلاً من القيام بوعود لا تُحترم، يجب صياغ تلك الأمنية البسيطة: «أود ألَّا أخونك».

حمل يد طوم إلى فمه وقبلها.

ـ لماذا، طوم، يخطئ الناس على الأرض بهذا القدر العظيم؟

ـ السؤال الجيد يكون: لماذا يرغمون أنفسهم على وعود لن يحترموها؟ لماذا يريدون أن ينكروا الطبيعة البشرية؟ لماذا يحلم الرجال والنساء بشكل مغاير عما هم في الواقع؟

ـ إنه معنى المثالية. لسنا حيوانات. على كل حال، لست أنا حيواناً.

ـ إنك تخلط معنى المثالية ونفي علم الأحياء. شأن الببغاوات والدرَّات اللواتي فوقنا، تُحركنا دوافع، أقوى منَّا، وأكثر عدداً مما نتمنى، في الاتجاهات التي تختارها هي، وليس نحن. فالخيانة طبيعية؛ أما نحن، خلافاً لذلك، نحجم عن كوننا خونة ونحن نقسم على الحرمان.

ـ لا يهم. أود ألَّا أخونك.

ـ وأنا أيضاً، ناتان.

تنفسا الصعداء، وقد ارتاحا.

دخل ثلاثي الساحة، آتياً من شارع «موليير». شد طوم على يد ناتان.

ـ أترى ما أرى؟

كان البستانيان هيبوليت وجيرمان، تتبعهما إيزيس، يحملان لوازمهما إلى الساحة. ظن ناتان أن طوم يشير إليه بهيبوليت.

ـ آوه، أرجوك، امنحني عطلة. تهمس لي بكلمات الحب، وبعد ثانية يثيرك أول فحل يتبختر.

ـ إنني لا أتحدث عنه، أيها الأبله!

ـ ماذا؟ ألا تنظر إلى أجمل رجل في بروكسل؟

ـ كلَّا! أتحدث عن تحقيقنا...

بدرت إشارة من ناتان تعني أنه لم يعد يفقه شيئاً.

ـ هل أنت موافق أن هذين البستانيين يأتيان غالباً إلى هذه الساحة، وأنهما يشكلان جزءاً من الحي؟

استدار ناتان نحو الرجلين اللذين صفّا أدواتهما على المرج، أما إيزيس الجالسة على مقعد، فكانت غارقة في كتابها. رأى هذا المشهد عشرات المرات في تلك السنوات، الأخيرة. إذاً، هزَّ رأسه موافقاً. تابع طوم حديثه:

ــ وأتذكر ما قاله لنا داني داؤون عند فوستينا؟ الغربان هم أفراد منعزلون عن المجتمع بسبب اختلاف أو عاهة.

ــ القزم؟

ــ ها قد فهمت!

نظرا إلى جيرمان نظرة مختلفة. كان هذا، مبتسماً لأشعة الشمس، يلم الحصى بالمقشة.

صرخ طوم بتعجب:

ــ كيف ستتصرف؟

ــ شيء بدائي، عزيزي واطسون[1]: تقنية حوض الرمل.

ــ ما معنى ذلك؟

ــ الطفلة! أكدت رفيقة ذلك لي، هكذا يُغازَل الآباء الجذابون في حدائق البلدية: تتدبر النساء أمرهن كي يلعب الأطفال معاً ثم يتحدثون عفوياً.

ــ ممتاز. هل أحضرتَ أطفالك؟

نهض ناتان وهو يتمايل:

ــ إنك تنسى أنني بقيت في منتهى الطفولة.

اقترب ناتان من إيزيس، وبعفوية راح يتحدث معها. بما أنه كان قد قرأ وعشق « حكايات هكذا» لكيبلينغ التي أنهتها، شرعا يتناقشان عنها.

لمح هيبوليت وجيرمان المشهد فوجها تحية إلى ناتان وتابعا عملهما.

كان طوم يغلي من نفاد الصبر. لماذا لم يلحق بناتان؟ يصعب عليه من الآن فصاعداً، أن يبرر تدخله، لا سيما أنه يشعر على رقبته نظرة البستاني المثيرة للفضول، والذي لم يكن مسروراً من مغازلته له ذاك اليوم.

كان ناتان، من جهته، قد جلس بالقرب من إيزيس، يضحك معها وهو يذكر «تنين الصخور ذا اللونين».

فجأة، قاطعته إيزيس:

---

(١) Watson: إشارة إلى مساعد المحقق شرلوك هومز بطل الروايات البوليسية للمؤلف الإنكليزي كونان دويل- (المترجمة).

ـ لماذا يبقى صديقك هناك؟ أأنتما متخاصمان؟

ـ كلَّا.

ـ قل لطوم أن ينضم إلينا.

انتفض ناتان قائلاً:

ـ أنت تعرفين اسمه؟

ـ طبعاً، وأعرف اسمك أيضاً، ناتان.

ـ ماذا؟ هذا مذهل!

ـ أنا، أدعى إيزيس.

حيَّاها ناتان بطريقة عسكرية:

ـ تشرفنا، آنسة إيزيس. كيف تعرفين ذلك؟

ـ أوه، إنه جيرمان... لا يتحدث مع أحد لكنه يعرف كل الناس.

غاص ناتان في المقعد، وقد تأكدت شكوكه.

ـ هل يحب جيرمان أن يأتي إلى ساحة آريزو؟

ـ يقول إنها الساحة الأكثر سحراً في العالم.

ـ آه أجل...

ـ هذا رأيي. وأنت؟

ـ أشاركك حماستك، آنسة إيزيس.

فكر ناتان، وهو يحك رأسه، أن شبكة من الإشارات قد لاحت في الأفق.

ـ هل يستطيع جيرمان أن يُسمي الناس الذين يسكنون هنا؟

ـ إنني متيقنة من ذلك.

أصاب ناتان الهدف. وقد قرر أن يُغامر بكل شيء، أخرج الرسالتين الصفراوين من جيبه.

ـ قولي لي، هل سبق أن رأيت جيرمان مع رسالة أو ورقة كهذه؟

قطَّبت الفتاة الصغيرة حاجبيها وقد شحب وجهها. من البديهي أن ذلك يثير فيها ذكريات.

ألح ناتان بلطف قائلاً:

ـ إنها رسائل رائعة، كما تعرفين. رسائل رائعة أمَّنت كثيراً من الخير للناس. هل رأيتِها بين يدي جيرمان؟

رفعت الطفلة رأسها وحدقت إلى ناتان:

ــ تسلم أبي واحدة منها.

ــ هل أبوك هو أجمل رجل هناك؟

هزَّت رأسها:

ــ تسلَّم واحدة. وكذلك خطيبته. لم يكونا يتحدثان مع بعضهما مع بعض، فبسبب الرسائل، التقيا. أستشفُّ أن أبي الآن سعيد جداً.

كاد ناتان يصرخ من الفرح. فبعد البوادر، أتى على إيجاد الدافع: استعمل الرجل تلك الخطة ليرضي صديقه المفضل! كان جيرمان القزم الحمامة!

٩

حدَّقت كزافيير، متجمدة، إلى الطبيب النسائي. كان الذهول يمنعها من التفكير.

نهض الدكتور بلاسَّار وأتى ليقف أمامها، أسند ردفاً على مكتبه وانحنى وأمسك يدها قائلاً:

ــ هيا، تمالكي.

فوجئ براحة كزافيير الباردة، وبدا وجهها قد أفرِغ من دمائه. أخيراً خفق رمشاها.

ــ هذا لا معنى له.

ــ أنت حامل: إنني على يقين من ذلك.

هزَّت كزافيير رأسها ببطء. قال ممازحاً:

ــ كزافيير، لن تقنعيني بأنه لم يعد لديك علاقات جنسية؟

ــ بلى، لي علاقات.

ــ إذاً!

ــ مع امرأة.

رفعت عينيها نحوه، بمسحة طفولية، مؤثِرة بغتة من هشاشتها.

ــ هل هذا ممكن مع امرأة؟

ــ اسمعي، بالرغم من علاقتك بامرأة، ضاجعتِ رجلاً.

ــ مطلقاً! لم أعد أشتهي رجالاً.

ــ وزوجك؟

ــ مع أوريون؟ لم يعد هناك شيء! لا علاقة بيننا منذ زمن طويل. منذ عشر سنوات. ثم إن هذا يثير اشمئزازي. لهذا السبب لم أعد ألجأ إلى منع الحمل. لست بحاجة إلى أن أحمي ذاتي من هذا الكائن الهيولي.

ــ على كل حال، ليس ما في بطنك كائناً هيولياً لكنه جنين.

ـ كلّا.

وقفت وحدجته بنظرها.

ـ هذا مستحيل، إلّا إذا التُقط الحمل بالجلوس على الكرسي في المراحيض أو بالشرب في كأس شخص آخر.

كانت كزافيير تُكذِّب بعناد كبير حتى أن الطبيب النسائي قد تأثر من ذلك.

ـ هل تريدين تلقي رأياً ثانياً؟ أتريدين ان أرسلك عند زميل.

ـ كلّا.

ـ كزافير، إنك تنكرين الواقع.

ـ كلّا.

ـ إنك حامل، أقوله لك، لا تريدين أن تصغي إليَّ لأنك مقتنعة أنني أضِلُ.

ـ من البديهي أنك تخطئ.

ـ إذاً، إن كنتِ واثقة من نفسك، فستتحققين لدى زميل أنني أقول ترهات.

ـ حسناً، بالضبط كي تخجل من رأيك!

رجع الدكتور بلاسَّار إلى كرسيه، وأمسك ورقة وكتب عنواناً ومدها لها.

ـ ستلاحظين أنني لا أنزعج.

ـ لا ينقص إلّا ذلك: جئتُ من أجل سن اليأس وأعود مع حمل. إنك تتحدث عن خدمة الزبائن!

بعد ثلاثة أيام، أكد الطبيب النسائي الثاني رأي الأول. هذه المرة، تحملت كزافيير الضربة. نصحها الطبيب وهي على الباب أن تعود إلى زميله بلاسَّار.

ـ سترين معه إذا كنتِ تبقين الطفل. لا تتأخري كثيراً. لم يبقَ لك إلّا قليلٌ من الوقت لقرار كهذا.

نسفت تلك الجملة كزافيير. بعد ان أغْلِق الباب، مكثت على صحن سلم العيادة، متقطعة الأنفاس. «الطفل»؟ وضعت يدها على بطنها... بتلك الكلمة، لم يعد حملها يُمثل مرضاً وسلسلة وعكات وضيق وانزعاج، ليترك مكاناً إلى رؤية لا معنى لها: سكن إنسان في أحشائها، إنها تحمل طفلاً.

بدت لها الفكرة لا تُحتَمل. عادت أدراجها وراحت تضرب الباب بقبضتيها.

فتحت المساعدة الباب، متعجبة من تلك الضجة.

صرخت كزافيير:

ـ فلينزعوه مني فوراً!

ـ عفواً، سيدتي؟

أرادت كزافيير أن تدخل عنوة وبدأت تخدش الموظفة التي تسد طريقها؛ لحسن الحظ، وصل الطبيب النسائي فوراً، وقد نبهته الضجة، وأمسك كزافيير من كتفها قائلاً:

ـ اتبعيني.

فات الوقت: تقيأت على سجادة صالة الانتظار.

حين دخلت إلى العيادة، راحت ترغي وتزبد. غريب تماماً، جاء لا أحد يعرف من أين، واختار لحمها سكناً.

ـ يجب اقتلاعه مني. لا أتحمل فكرة أن أكون مُحتلة.

ـ سنقوم بما ستقررينه، سيدتي، لكنك لن تتخلصي منه بالتقيؤ.

خدَّشت بطنها.

ـ الآتي من كوكب آخر، هنا، سينمو ويأخذ راحته، وسيمزق جلدي ويثقب أمعائي. إن لم تطردوه، فسأنهار.

ألصقت وجهها، المتوعد، بوجه الطبيب.

ـ من أين جاء؟ لم أضاجع أي رجل.

ـ نقل لي زميلي، هاتفياً، هذا العنصر من الملف وقمت ببعض التحقيقات. إن الحمل بلا ذكر يدعى الحمل بلا إخصاب ذكر (la parthénogenèse).

ـ آه!

ـ لا يحدث ذلك إلّا لدى النبات أو الزواحف وليس عند الثدييّات. لكن ـ يناقش بعض العلماء ذلك ـ ربما عند الأرنبات.

ـ الأرنبات؟ هذا رائع، شكراً.

حاول الطبيب أن يثبت انتباهها قبل أن يسألها:

ـ اشرحي لي لماذا لم ترزقي بأطفالٍ حتى الآن.

ـ الأطفال، شأن التلفاز: ليس إلزامياً. لا أحد مرغماً على أن يُفسد حياته.

ـ أسعى إلى فهمك. أجهشت كزافيير بالبكاء.

ـ ماذا يحدث؟

ـ لا تخافي. لقد طرأت على جسمك تغيرات هرمونية تؤثر في انفعاليتك. ابكي ما تشائين ثم اشرحي لي.

بنبرة نائحة، والمنديل في يدها، بدأت كزافيير قصتها، وعيناها تقدحان غضباً، وإن كانتا مغرورقتين بالدموع.

ـ لم أرد أطفالاً لأنني تألمت بالغ الألم من كوني طفلة. كنتُ أضجر في أسرة صارمة. بدا لي أنني، بدوري، إذا وضعت طفلاً، فسأحكم عليه بالعذاب ذاته، وأنه سينتظر بلوغه سن الرشد ورحيله أيضاً بفارغ الصبر كما فعلتُ.

ـ ربما أخطأتِ، لكن هذا حقك في أن تفكري ذلك. تفاجأتْ بتلك الرحمة، فاستنشقت كزافيير، وقد تشجعت.

ـ تزوجتُ شخصاً غير كفء ولا مسؤول.

ـ إذاً، تزوجت رجلاً كنتِ واثقة أنه لا يصلح لأن يكون أباً؟

لم تفسر كزافيير قط اختيارها أوريون بذلك الوضوح. وافقت وهي تفكر. تابع:

ـ هل لكما علاقات جنسية متكررة؟

ـ لم أعد أضاجعه منذ سنوات.

ـ هذا منطقي: إن لم يعد عشيقاً، فليس هناك خطر كي يصبح أباً.

ـ لقد خنته مع عشيقات.

ـ طريقة أخرى لتحمي نفسك من الأمومة.

انزعجت. فتح نفاذ بصيرة الطبيب لها آفاقاً، وإن تألمت من تحمل فكرة أنه، في دقيقة، رأى شخصاً مجهولاً بذاك الوضوح في نفسها. ألح قائلاً:

ـ في قرارة نفسك، كنت تنتظرين انقطاع الطمث بفارغ الصبر، أليس كذلك؟ يوجد فيك امرأة قادرة على الحمل تتمنين رؤيتها تختفي.

اغرورقت عينا كزافيير ثانية، وقد تأثرت بالغ الأثر لظهورها مقروءة بهذا الوضوح من الرجل، هي التي لم يكن أحد يستطيع أن يدرك شيئاً فيها لأنها قد أحاطت نفسها بأسلاك شائكة من الحديد، شراستها، سخريتها اللاذعة، فظاظتها، احتقارها لأوريون، حياتها المزدوجة مع سِفْرينْ.

أردف الطبيب الذي أحس بانفعالها العميق قائلاً:

ـ هل أستطيع أن أتابع؟

عاد إلى الحديث بصوت أكثر رقة:

ـ إن ما تقولينه لي يشير إلى أنك ستطلبين قطع الحمل. مبدئياً، أقترح عليك، قبل ذلك أن تتخيلي العكس، مجرد تخيل... حصل فصال في أعماقك، جعل تلك الولادة ممكنة، لأن في بطنك، ولادة. هذا يعني أن جزءاً حميمياً منك يعارض فروض وعيك، وأن جزءاً خفياً يطمح في محاولة المغامرة التي رفضتِها له دائماً. فكري، سيدتي، وأصغي إلى ذاتك بكل جوارحك. إن في يدك فرصة أن تغيري وأن

تتحرري من مخاوفك وأن تتممي مصيرك. يمكن أن تؤدي مرافقة هذه الولادة لك بتجدد حياة.

للحظة، تركتْ هذا الخطاب ينفذ إليها، ثم رفعت كتفيها قائلة:

ــ سألد طفلاً لا أعرف من أين أتى، طفلاً لا أعرف من هو أبوه وأسميه يسوع. أهذا هو المخطط؟

جمعت حوائجها وألنت له وهي تغادر الغرفة:

ــ سأعود عند زميلك لأرتب الإجهاض.

في بعد الظهر هذا، على غرار الموعدين السابقين، كانت كزاڤيير ستلتقي سِڤرينّ. حتى ذاك اليوم، قامت بذلك بكل سرور لأنها أنكرت حملها؛ هذه المرة، خشيت لقاءها.

راحت تراقب أريون خلسة، وهي تتباطأ في المخزن، بهيئته المضحكة ــ كرش منتفخ على ساقين هزيلتين ــ، جذع مُخلَّع ولا سيما هذا الرأس المدمن الكحول بعينين متورمتين، ورأسه المصبوغ بالاحمرار كأن الخمر قد لوَّنت الجلد. كان يتحرك كثيراً ليؤدي عمله، وهو يركض من المخزن إلى المستودع، من المزهريات إلى لفائف الورق، وهو يصرف مئة مرة أكثر من الطاقة التي تقتضيها فعاليته. للحظة، انتبه إلى نظرتها فوجه إليها غامزة: خفضت رأسها، حانقة. أعليه أن يكابدها، بالإضافة إلى دمامته، حسن مزاجه الذي لا يُحتمل؟

اقتلعها اهتزاز هاتفها من أفكارها السود. «أفتقدك. تعالي. أنتظرك. سِڤرينّ». اكتفت كزاڤيير بأن تجيب: «لا أستطيع».

لمحت بتريسيا تعبر الشارع فتمتمت من دون أن تعي:

ــ لو كان لي مثل ساقيها لما لبست تنانير مطلقاً. تدخّل أوريون:

ــ في نهاية الأمر، كزاڤيير، إنها تفعل ما تريد.

ــ يجب إقرار قانون يمنع الناس ذوي العيوب الجسدية من تحميل الآخرين رؤيتها. على كل حال، إنني غبية، فهذا القانون موجود أصلاً: المس بالحياء. فحين تعرض بتريسيا لحمها الخنزيري من تحت ركبتيها، فإنني أسمي ذلك المس بالحياء.

خرج تاجر التحف ويم من بيته، وقبل أن يركب سيارته، أشار بتحية ودية إلى كزاڤيير التي لمحها خلف زجاج واجهتها.

ــ يا له من منافق! لمَ تلك الابتسامات؟ أيظن أنه لا يُقاوم أم ماذا؟

ـ إنه غالباً طيب المزاج.

ـ مخبول... لو كانت لي أسنان رمادية كأسنانه، لابتسمت أقل.

ـ إنك لا تبتسمين كثيراً.

امتنعت كزافيير عن الرد على ملاحظة أوريون لكنها فكرت: «هذا، يا رجل، ستدفع لي ثمنه».

في تلك اللحظة، ظهرت امرأة شابة.

ـ السيدة دومون لم تعد هنا؟

ـ كلَّا، دفعت ثمن باقتها وذهبت.

ـ في أي اتجاه؟

ـ لم تحتمل من عابرة لم تشترِ شيئاً أن تحول مخزنها إلى وكالة استخبارات، أجابتها كزافيير:

ـ ما عليك إلَّا أن تتبعي رائحتها.

ـ عفواً؟

ـ لا يمكنك أن تضيعي أثرها. هل لأن لديها كلاباً تنبعث منها رائحة كريهة؟

بقيت الفتاة الشابة مذهولة في فتحة الباب ثم تركت المكان مسرعة.

في قعر جيبها، أزعج الهاتف كزافيير ثانية. «إذا كان عندك مشاكل، فلنتحدث بذلك... سِڤرينّ».

وقد حبست تنهد انزعاج، تخيلت كزافيير مشهداً: عارية بين ذراعي سِڤرينّ، كانت تشرح لها ما قد حدث معها، وقد ارتاحت لأن أحداً أصغى إليها وفهمها. لمَ لا؟ إذا كانت سِڤرينّ عشيقتها، ألن تصبح أيضاً أفضل صديقة لها؟

تذرعت بمشوار ضروري، فتركت المخزن وهرعت إلى الرقم ٦ من ساحة آريزو.

سألت سِڤرينّ وهي تغلق الباب:

ـ هل عندك مشاكل؟

فكرت كزافيير فجأة بلا معقولية ما سترويه لها: إقناع صديقتها أنها لم تضاجع رجلاً لكنها حامل. كجواب عن سؤالها، ألصقت شفتيها على شفتي سِڤرينّ، شأن من يفرض كمامة. ثم طلبت، وهي تلح بحركاتها، أن تصعدا إلى غرفة نومها. بالرغم من تفاجئها من تلك الحمية، استسلمت سِڤرينّ لطلبها.

ما إن صارتا في الطابق العلوي، حتى طارحتها كزافيير الغرام بعنف، شأن محارب يغتصب امرأة أثناء غزوة. كانت نظرتها البعيدة تخترق الحدود التي تفصل المداعبة عن الضربة. قبلت سِفْرينّ. والأفضل: وصلت بسرعة إلى المتعة. هل حدث ذلك كي تتجنب أن يستغرق ذلك كثيراً؟

حدقت إليها كزافيير من دون مودة:

ــ هذا لا يضايقك!

ــ ما دام هو لهواً.

ــ ما أدراك بذلك؟

ــ كنتِ ستحدثينني عن مشاكلك.

ــ ليس عندي مشاكل. إنني مشغولة بواحدة من صديقاتي التي تعاني من ضائقة.

ــ هل هي عشيقة قديمة؟

لم تستطع سِفْرينّ أن تسيطر على لدغة غيرتها. قطبت كزافيير.

ــ صديقة، إذاً ــ ليست عشيقة قديمة ــ عندها مشكلة. هي في سني، وبالصدفة، تجد نفسها حاملاً.

تجنبت أن تضيف «للمرة الأولى»، لأنه يكون من البديهي حينذاك أنها تتحدث عن نفسها.

ــ إنها لا تعرف ماذا تفعل...

ــ ماذا تفعل؟

ــ أجل. أن تبقي الطفل أو تتخلص منه.

ارتجفت سِفْرينّ قائلة:

ــ باعتباري كاثوليكية، إنني ضد الإجهاض. لكنني في تلك الحالة، مع ذلك، أنصحها به.

سألت كزافيير بتعجب:

ــ لماذا؟

ــ إنجاب طفل في الخامسة والأربعين؟ فما عدا أن الحمل محفوف بالأخطار بالنسبة إلى الأم، هناك احتمالات أن يكون الطفل مصاباً بعاهة. فلتنظر رفيقتك إلى المستقبل: ستقترب من السبعين عاماً حين يبلغ ولدها العشرين. ليس ذلك هدية لها وكذلك له.

قالت كزافيير في نفسها «يا لها من حمقاء. لم ألحظ حتى الآن أنها بهذا الغباء». حاولت بقدر ما تستطيع أن تضبط عداءها كي لا تكشف عن نفسها.

ـ هل هذا ما عليّ أن أقوله لرفيقتي؟ «إنك متقدمة جداً في السن، أجهضي، لستِ قادرة على أن تنجبي طفلاً طبيعياً. وإذا استطعتِ ذلك، بالرغم من كل العوائق، سيلومك فيما بعد على ذلك»؟ ألا تريدين أن أقترح عليها أن تنتحر، كي تستعجل الأمور؟

ـ كزافيير، لا تغتاظي بلا داع: سألتني رأيي.

ـ وها أنت قد أعطيتِني رأيك. إنه غبي، رأيك.

اغرورقت عينا سِفْرينّ. ارتجفت شفتاها قبل أن تلفظ:

ـ إنك تؤلمينني.

انفجرت كزافيير:

ـ هذا هو أسوأ ما في الأمر. تروين حماقات وعلاوة على ذلك، يجب أن أواسيك؟ إن ما أرى كابوساً.

ـ أنا... أنا... لا أعرف ما بكِ. لم أعد أتعرَّف إليك.

ـ هذا بالضبط هو الأمر: لم نعد نعرف بعضنا بعضاً. سلام!

قطعت كزافيير ساحة آريزو وهي تمتم «نِعمَ التخلص».

حين عادت إلى المخزن، استرجعت في ذاكرتها المناقشة: بينما كانت تفكر هي نفسها بالإجهاض، لم تتحمل أن تنصحها به سِفْرينّ ذلك أن أسبابها تختلف عن أسباب الأخرى. لم تكن تريد طفلاً أولاً بسبب طفولتها هي؛ بعد ذلك، لأنها تجهل من أين جاء هذا الصبي. في المقابل، الحجج التي تتعلق بالشيخوخة، وبسوء النمو وكذلك بالعاهات، رفضت أن تسمعها. والأسوأ من ذلك، لقد كانت لديها رغبة أن تلد لا لشيء إلَّا لتبرهن لتلك البلهاوات شأن سِفْرينّ وتلك الحمقاوات التقليديات اللواتي يضِنَ أطفالهن وهن شابات، أنها تستطيع أن تنجب طفلاً جميلاً وأن تربيه. كلّا ولكن!

عاد أوريون من المستودع، وشعره في مهب الريح، أو بالأحرى تاج شعره الذي يمتد من أذنٍ إلى أخرى.

اضطرب من تحديقها إليه، فأرسل إليها غمزة. أشاحت بوجهها. «يا إلهي، كيف يمكنني أن أعيش مع هذا؟»

فجأة، اتجهت نحوه.

ـ أوريون، متى كانت آخر مرة تطارحنا الغرام؟ ضحك.

ـ ألا تتذكر ذلك؟

ـ آه كلّا، هذا ما أوكد لك أنني لا أتذكره. منذ شهرين ونصف، بعد الحفلة عند دوران ـ دوبور.

خفض رأسه، بحياء. وقد أدركت أنه كان يقول الحقيقة، ارتجفت كزافيير: لم تكن تذكر إلّا بداية السهرة، الناجحة جداً على كل حال.

ـ أين فعلنا ذلك؟

ـ حسناً، كعادتنا.

ـ كعادتنا؟ أين كان ذلك، أوريون؟

ـ في السيارة. قبل أن نعود إلى البيت. بقيت كزافيير فاغرة الفاه.

ـ أنا؟

ـ أجل أنت.

ـ أنا معك؟

هز رأسه، بسرور. تنهدت:

ـ الله، لا أذكر شيئاً من ذلك على الإطلاق!

ـ هذا طبيعي، كنتِ سكرانة.

ـ كنتُ قد شربتُ قليلاً، ولكن...

ـ منذ سنوات لا نتطارح الغرام إلّا حين تكونين سكرانة.

ـ ماذا!

ـ أعشق ذلك. فأنت مسلية جداً، ومرتاحة من دون تشنج، وبالغة اللطف، في تلك الأوقات. أجدُك كما كنتِ في البدء.

في المساء، أخذت كزافيير طريق «كنوك ـ لو ـ زوت». بدا لها طريق الفلاندر المنبسط لا نهاية له.

بخصوص حالتها، لم تقل أدنى كلمة لأوريون، أعلمته فقط أنها ذاهبة لتستريح على شاطئ البحر وأنه سيهتم بالمخزن وحده. على كل حال، لا يبدي رأياً في شيء أبداً، لا في ما يخصها، ولا في ما يعنيه.

عند غروب الشمس، غاصت في بيتها الصغير ذي طراز بيت الصياد. هناك، على طابقين ضيقين، شعرت أنها أفضل سكناً وحماية عنها في بروكسل. كان المسكن يشكل ملجأ يُمَثِّل هويتها الحقيقية. زينته بنفسها، كانت تلك الغرف الثلاث المطلية بالقماش القطني الأحمر، وبأشرطتها وشرّاباتها وحيواناتها الخزفية ورواياتها العاطفية الضخمة على الرفوف الخشبية المطلية

بالأبيض تعبير عن أنوثة أنيقة وعن رهافة وحنان؛ بمجمل القول عن مزايا مدفونة في أعماق الشخصية الجليدية التي تقدمها كزافيير إلى العالم. بقي المكان سرياً والسبب الرسمي ــ بالنسبة إلى أوريون ــ هو أن لا أحد يجب أن يعرف مستوى معيشتهما، أما السبب الحقيقي فهو أن كزافيير لا تحب أن تستقبل فيه أحداً. قامت، حديثاً، باستثناء بالنسبة إلى سِفْرينّ حين استطاعت تلك أن تتغيب يومين.

في البراد، تجد شيئاً ما يؤكل وتعجب من شهيتها، ثم لا يبقى لها متَّسع من الوقت إلَّا لتصعد السلم الضيق الذي يؤدي إلى السقيفة القديمة التي أصبحت غرفة نومها قبل أن تغرق في النوم.

في اليوم التالي، بمجرد أن خرجت، رطَّب الهواء المالح وجهها فرأت الحياة بطريقة مغايرة.ممَ تشكو؟ لها ما أرادت، وتفعل ما تحب فعله. إذا كانت تلك النفحة من التفاؤل تفاجئها، فهي تقبلها.

كانت تقوم بمشترياتها، سلتها بيدها، بطريقة جديدة: هي التي كانت تعد كل قرش يخرج من محفظة نقودها، تصرف بسخاء، تزيد الكميات، فتشتري طعاماً لشخصين. وإن أدركت ذلك، فلقد كانت محمولة بنوع من النشوة، وتستمر على هذا النحو.

في الساعة الرابعة عشرة، شعرت برغبة طاغية لتأكل رقاقة مشوية من عند «ماري سيسكا» وهي متعة تمتنع عنها عادة لأنها تخشى أن تلتقي وجوهاً تعرفهم ولا يتوانون عن سؤالها عن سبب وجودها في «الزوت». إلَّا أنه كان يوم الثلاثاء، والناس يعملون في العاصمة، لذلك يمكنها أن تسمح لنفسها بهذا الترف من دون مجازفة كبيرة.

إلَّا أنها على حذر، كانت تتجنب سطح المقهى، فتحشر نفسها خلف البيانو ذي الذنب في أعماق الصالة الزجاجية.

كانت تتذوق الفطيرة المشوية، لحظة وصول زوجين ظريفين إلى المكان نفسه.

جلسا على السطح، يديران لها ظهريهما، ولكن بما أن الرجل كان ينحني نحو المرأة ليقبلها، ميزت ملامحهما وتعرفت إلى كانتان دانترومون وأيڤ. ظنت للوهلة الأولى أن خيالها يغشها، وانتهى بها الأمر أن لاحظت أنهما حقاً الشاب والفتاة الفاتنة.

كان رد فعلها الأول الاستنكار ــ «إنها تصطادهما الآن في الروضة!» ــ

الثاني هو أنها فكرتْ بالاغتياب الذي ستنشره من مخزنها عن المرأة المسنة التي تصادق الشبان على طول ساحة آريزو. بشكل غريب، جاءت موجات إيجابية تبعد تهكماتها. لِمَ لا؟ كانا يبدوان سعيدين. سعيدين جداً. كانا يبثان الفرح. باسم أي شيء تنتقدهما؟ هل ستؤنبهما بحجة أن كانتان ذات يوم، وهو في الأربعين، سيعيش بالقرب من امرأة في الستين؟ هذا بالضبط نوع الحماقات التي قد تتفوه بها سِفْرينّ، وهي تذكر تقليدية العمر.

ــ يا للسم، تلك المرأة!

من دون أن تتوقع ذلك، شتمت كزافيير بصوت عالٍ. إنّ ما جذبها نحو سِفْرينّ يدفعها عنها من الآن فصاعداً، بسبب رخاوتها التي حسبتها هرباً وتلاشياً وكآبتها التي تكشفت عن لا مبالاة فتاة ثرية.

طمأن هذا الغضب كزافيير لأنها كانت تشعر، خلال أوقات مختلفة، بهبات من الرقة والدماثة. فهي تعرف ما سبب ذلك: كان الطفل العدو فيها يغيرها ويُخَرِّب الهرمونات.

حين رجعت إلى بيت الصيَّاد، لاحظت أن سِفْرينّ قد تركت عشر رسائل على هاتفها، فلم تسعَ إلى قراءتها.

في الساعة الخامسة، انفجرت عاصفة، وهذا ما حمَّس كزافيير لأنها كانت تعشق أن تتكور في الدفء حين تثور عناصر الطبيعة، لم تكن تشعر بأي خوف ولكن بالارتياح لعلمها أنها في مأمن، متمتعة بالجدران الأربعة وبسقفها شأن أعظم اختراع على وجه الأرض.

ستنظم إذاً بقية يومها هكذا: قراءة جين أوستن، طعام. في الواقع، تجري الأمور بشكل مختلف: ستنام قليلاً ثم تأكل أطعمة خفيفة بين قيلولاتها. ما أهمية ذلك؟ كانت على موعد مع المتعة. في الخارج، المطر والريح يتحاملان، محدثين طقطقات في العوارض الخشبية. راح البيت يئن. كانت كزافيير تتسلى، تلعب من حين إلى آخر بإخافة نفسها وهي تفترض أن الكوخ سيهوي من عنف العاصفة.

أرخى الظلام سدوله والعاصفة ضاعفت من عنفها، فانتزعتها من قراءتها. رأت أن تلك العاصفة أكثر خيالاً من الرواية، فهي عنيفة وغير متوقعة. بعد كل وميض، راحت تعد الثواني كي تحدد مسافة الصاعقة التي تهوي. إذا كانت، في بدء حساباتها، الصاعقة تلامس الأرض على بعد أربعة كيلومترات، فلم تعد توجد الآن أبعد من ثلاثمئة مترٍ. بحيث أنّ مركز الهبوط وصل إلى «كنوك ــ لو ــ زوت».

اطمأنت كزافيير للمرة الأخيرة متذكرة أن الكنيسة المجاورة لا بد من أن تتلقى نار السماء على برجها، حين جعلها صوت مختلف تقفز.

نهضت وهي ترتجف.

عاد الصوت أكثر تقارباً. ثمة ضربات.

اتجهت نحو الباب وألصقت أذنها عليه. ميزت هذه المرة أن أحداً يدق المطرقة على الباب.

فتحت واكتشفت في الظلام سِفْرينّ بمعطفها الواقي من المطر والتي ضربتها الزوابع.

ــ أيمكنني الدخول؟

ــ كلَّا.

ظنت سِفْرينّ أنها تمزح ودخلت إلى العتبة.

أمسكتها كزافيير، بفظاظة، وألقت بها في الممر، في المطر والريح تحت سماء متوعدة.

ــ ماذا؟ ألا تستقبلينني؟

ــ هل دعوتك؟

ــ أخيراً، كزافيير، ماذا حدث لك؟ مع كل ما يجري بيننا...

ــ ماذا يجري بيننا؟

ــ إننا نحب بعضنا بعضاً.

ــ آه وماذا بعد؟

صُدمت سِفْرينّ، فحدقت إليها. كانت كزافيير، برباطة جأش، وقد تحصنت خلف درع من اللامبالاة، تمنعها من الدخول.

تمتمت سِفْرينّ:

ــ ألم تعودي تحبينني؟

ــ أيتها البلهاء! لم أحبك على الإطلاق.

صفقت كزافيير الباب.

١٠

قدَّم فرنسوا ــ مكسيم غياب سِڤرينّ كحدث لا أهمية له. في المساء، على العشاء، حين بررها أمام أولاده، كاد يصدق تفسيراته:

ــ ذهبت أمكم لتستريح. لم تعلمكم مسبقاً لأنها لم ترد أن تثير قلقكم.

ــ متى ستعود؟

ــ قريباً.

ــ هل هي مريضة؟

ــ كلَّا، إنها تعبة.

سأل غيوم:

ــ هل نحن نتعبها؟

ــ بالضبط، يا ابني، لهذا السبب ذهبت على رؤوس الأصابع: كانت تخشى أن يطرح أحد منكم عليها هذا السؤال.

ــ إذاً هذا صحيح: إننا نُتعبها.

ــ هذا خاطئ. لو كنتَ قلتَ ذلك، لبقيتْ لتبرهن لك عن خطئك.

ــ آمل أن تعود بسرعة.

حين وصل فرنسوا ــ مكسيم الساعة الثامنة عشرة، وقد فوجئ بعدم وجود زوجته في البيت، طلبها على هاتفها وترك رسالة بسيطة على المجيب. بعد ذلك حين صعد ليأخذ حمَّامه الرشاش، اكتشف كلمة على صوان غرفتهما:

«اعذرني، إنني أهرب لفترة. لم أعد أستطيع أن أحتمل». هنا زادت حيرته؛ منذ ذلك الحين، راح يناديها كل عشر دقائق، وهو يرغي ويزبد على المجيب الآلي حيث صوت سِڤرينّ المتراخي يطلب منه بصيغة الجمع أن يسجل كلمة بعد الرنة المتقطعة الآلية.

بعد أن نام الأولاد، اتصل بأقرب الأشخاص إليهما ليعرف إن كانت قد التجأت إلى بيوتهم، وهو مسعى خطر لأنه كان يحرص على الحصول على المعلومة من دون أن يقر بهربها. كانت نتيجة الجرد غير مجدية.

في منتصف الليل، وقد ارتأى أنه من غير اللائق أن يُزعج الناس، التجأ إلى الصالون ليفكر. كانت سِڤرينّ في حالة انهيار عصبي، وقد أصبح ذلك واضحاً للعيان: فكآبتها الثابتة وعجزها عن اتخاذ القرار ولامبالاتها شبه العامة، يُظهر كل ذلك أنها قد فقدت ما يجعل الكائن الحي واقفاً: وهو الرغبة. لماذا لم يفهمها قبل الآن؟ لماذا لم يتدخل؟

وقد راجع مفكراته، فكَّر بالمختص الذي يمكنه أن يرسلها إليه منذ الغد. طبيب نفسي أم معالج نفسي؟ على ضوء الحديث الذي طرأ تلك الليلة الماضية، حين أقرت له خلالها بقصة أبيها، فإن المعالجة النفسية تَفرض بالأحرى نفسها. لكن ذلك قد يستغرق وقتاً، شأن كل المسارات النفسية... من الأفضل، لتحسين وضعها بسرعة، اللجوء إلى الطبيب النفسي الذي يصف لها أدوية. والأمثل أن يكون الطبيب النفسي معالجاً في الوقت ذاته، يجمع مزايا الأسرع من الاقتراب من الهدف إلى مزايا عدَّاء مسافة ما. وعد فرنسوا ــ مكسيم نفسه أنه غداً من الساعة الثامنة سيتصل بفرنيه زميله في المصرف والمشهور بوسوسته على صحته الذي، وهو قلق بامتياز، يعرف أفضل المختصين لكل مرض.

حين رجع إلى غرفته، لم يكلف نفسه عناء خلع ملابسه وارتمى على الغطاء كيفما اتفق. إن عدم مشاركة الفراش مع سِڤرينّ جعل النوم عدائياً بالنسبة إليه. منذ سكنا هذا المنزل، نادراً ما نام وحيداً.

حدَّق طويلاً إلى السقف القاتم، الذي ينيره بشكل خاطف وميض بعيد. وقد صعدت العاصفة نحو الشمال الغربي، فابتعدت عن بروكسل، ولم تُبقِ إلَّا ذيلاً من المطر الرخو والرتيب.

أيجب أن يلوم ذاته عن تقصير؟ طبعاً، كان عليه أن يُظهر انتباهاً أكبر وأن يكرس وقتاً أطول لسِڤرينّ، وأقل للعمل أو لأولاده؛ مع ذلك، وبالرغم من أنه كان مستعداً لينقد ذاته، فلقد اعتبر نفسه زوجاً صالحاً. كان يعاملها معاملة حسنة لا سيما وأنه كان يُخفي سراً وهو ممارسته الجنسية الخاطفة والواقعة خارج محيط المدينة، مع رجال عابرين. لو لم يكن قد حصل على تلك المتع السرية، لكان غاص نوماً في عادات الزوجين، شأن أزواج كثيرين. أما هو، بما أنه لم يكن يجد حياته الزوجية إلَّا إثر متع محظورة، وجب عليه أن يُظهر كمالاً.

هب فجأة. هل اكتشفت سِڤرينّ سره؟ خفق قلبه بشدة ثم تمدد فرنسوا ــ مكسيم: مستحيل! كان يتخذ احتياطات كافية. ثم، لو جاء أحد يروي ذلك لسِڤرينّ، لكانت طردته.

إذاً، كانت تعاني من انهياراً عصبياً.

من وقت إلى آخر كان يفلت تنبهه، فيغفو. وفي كل مرة يستيقظ فيها، يلوم نفسه: عليه أن ينتظرها من دون أن يستسلم للتعب.

إثر أحلام يقظته المتراخية، راح يكرر ما كشفته له عن أبيها المتنكر بلباس امرأة. كيف استطاعت ان تكتم ذلك عنه طويلاً جداً؟ تساءل إن لم تكن حياتهما الزوجية مكونة من ألغاز، إن لم يكن كل منهما بالأحرى قد بنياها على الصمت بدل الكلام. ماذا كان سيحدث لو أقر لها دفعة واحدة أنه يتشهى الرجال أكثر مما يتشهى النساء، لو اعترفت له بصعوبتها في أن تثق بأحد؟

قفز من جديد. هذا هو أصل انهيارها العصبي: لم تكن تثق به. إنها على خطأ، لأنه كان يحبها ويهتم بها. وهي على صواب: لأنها كانت تعاشر زوجاً بقي جزءٌ منه مجهولاً بالنسبة إليها. هل شعرت به؟ هل تألمت من ذلك؟

في الساعة السادسة صباحاً اهتز هاتفه. تمسك به. بعثت له سِفْرِينّ رسالة: « سامحني».

طلب رقمها في الحال، وترك على العلبة الصوتية جواباً: «ليس ثمة شيء أسامحك عليه. أحبك».

حين كتب «أحبك»، اغرورقت عيناه بالدموع لأنه نادراً ما كان يقولها، بعد ذلك، ثمة حدس أوحى إليه أنه قالها لها بعد فوات الأوان.

بقي ينتظر جواباً. بعد ساعة، نهض بخيبة، وقد قرر أن يهتم بالأولاد.

بعد الحمَّام الرشَّاش والفطور والتأكد من محفظات الكتب، صحبهم إلى المدرسة؛ على خلاف الأيام الأخرى، لم يكن بمزاج كي يركض في الغابة.

رجع إلى البيت، فكر في البقاء فيه بانتظار سِفْرِينّ وهو يشتغل مع فريقه بالهاتف أو بالبريد الإلكتروني.

حين صف سيارته في ساحة آريزو، كان رجال شرطة يصعدون سلم المدخل. قفز من السيارة وناداهم:

ــ سادتي، هل تبحثون عني؟

استدار أكبرهم سناً قائلاً:

ــ فرنسوا ــ مكسيم دو كوفينيِّ.

ــ نعم.

ــ متزوج من سِفْرِينّ دو كوفينيِّ، المولودة فيلمين؟

ــ طبعاً.

ـ لدينا خبر سيئ، سيدي. هذا الصباح، الساعة السادسة والنصف، ألقت زوجتك نفسها من أعلى البرج. توفيت.

بقي طويلاً فرنسوا ـ مكسيم مذهولاً لفترة طويلة. لم يعد يستطيع التفكير، معيداً في ذاكرته إحياء المشهد: سِفْرينّ تصعد الدرج الحلزوني، تصل إلى الطابق السابع من مكان صف السيارات، ذاك الذي ينتهي بالسطح؛ هناك، تغلق سيارتها، تضع مفتاحها في جيب معطفها الواقي من المطر ثم تتسلق الدرابزين.

هل ترددت؟ كلّا بالطبع. حين يشرع الإنسان في التفكير، لن يقفز. تحققت في أسفل الشارع أنه لا يوجد أحد على الرصيف حيث ستُدهس ثم تركت نفسها تقع في الفراغ.

علم فرنسوا ـ مكسيم أنها ماتت حين وصولها إلى الأرض، إثر الصدمة.

«هكذا أفضل في قرارة الأمر».

عاد ثانية يعيش المشهد كشريط. لم يكن شيء يشغل وعيه. لم يعد هو ذاته لكنه سِفْرينّ، ساعياً إلى أن يفهم آخر لحظات صحوها.

جلس بالقرب منه فرنيه، الشخص الثاني في المصرف. لأن فرنسوا ـ مكسيم، وقد علم بالخبر الفظيع، لم يقم إلّا برد فعل واحد: إخطار مكتبه أنه لن يأتي إلى العمل. هرع زميله، فوراً ليساعده ويبقى معه في الغرفة المغلقة.

أمسك فرنيه الهاتف وقطّب حاجبيه وخرج من الغرفة.

عاد مع امرأة في الأربعين من عمرها، ذات وجه عذب وصريح.

ـ فرنسوا ـ مكسيم، أقدم لك ماري ـ جان سيمونّ، طبيبة نفسية، مختصة بالصدمات النفسية. وكما قلت لك، يجب إعلام أولادك.

خرج فرنسوا ـ مكسيم من غفلته وتمتم برعب:

ـ لن أستطيع! لن أستطيع مطلقاً!

اقتربت المرأة ووضعت يدها على كتفه.

ـ هذا طبيعي، سيد كوفينيٍّ. لا ينجب المرء أولاداً ليُعْلِمهم أن أمهم ماتت.

ـ هل ستقولين... لهم... كيف ماتت؟

ـ على نقطة بتلك الأهمية، لا شيء أخطر من الكذب. يحق لأولادك أن يعرفوا. يبنون أنفسهم بشكل أفضل على الحقيقة من على أسطورة.

ـ هل رجعوا؟

مكتبة
t.me/t_pdf

ـ إنهم يتناولون عصرونيتهم في المطبخ. رأيتهم تواً: يطرحون أسئلة على أنفسهم، يشعرون بتوتر، يطلبونك.

ـ هيا اذهبي إليهم، أرجوك. سآتي لاحقاً.

حين خرجت من الغرفة، ترقب فرنسوا ـ مكسيم كل صوت: الخطوات في السلم، انجرار الباب، ثرثرة الأولاد، ثم، فجأة، الصمت. لا شك أنها تحدثهم. هل كانت تفعل ذلك؟ ماذا تقول؟

أوشك أن يهرع إلى الأسفل، وقد اعتصره القلق، كي يوقف المأساة حين سمع صراخ ألم الأولاد.

سدَّ أذنيه، ضاغطاً على رأسه كأنه يريد سحقه.

تمتم فرنيه، وقد شحب وجهه، وهو عائد:

ـ لقد تم الأمر.

أدار فرنسوا ـ مكسيم رأسه. كان صمت بارد يهيمن من الآن فصاعداً على البيت. مع ذلك، استمر صراخ الأولاد يرن في ذهنه.

ـ سِفْرينّ، لماذا فعلتِ ذلك؟

اقترب فرنيه متأثراً، وهو مستعد لأن يغمغم أي شيء ليحمل له تعزية؛ أشار إليه فرنسوا ـ مكسيم بأن يبقى جانباً.

ـ سأسعى أن أتمالك قبل أن أرى الأولاد. ابتعد، أرجوك.

تراجع فرنيه، محترماً رأي صديقه، وأغلق الباب.

راح فرنسوا ـ مكسيم يدور في مكانه وهو يأمل أن تنشيط ساقيه يرتب أفكاره.

عبثاً...

كان بلا عمل، منهكاً، حدَّق إلى خزانة سِفْرينّ، فتحها قليلاً وأجال عينيه على حوائجها. لا شيء يسمح بقبول موتها. اليوم، شأن البارحة، كان هناك عطرها بزنبق الوادي، ومناديلها الحريرية، وكنزاتها من صوف الكشمير، وقمصانها من القطن الرقيق. لامس تلك الأشياء التي خففت ألمه.

فتح خزانة ثيابها، وبحركة لاإرادية أخرج ثوباً سكري اللون. وهو يداعبه ويشمه، قرر أن يبسطه على شرشف السرير. بعد ذلك، أخرج ثوباً آخر وبسطه قرب الأول ثم آخر وآخر...

منذ الآن فصاعداً، على السرير، أربع سِفْرينّ تنتظره، خاضعات، مستسلمات.

وهو يفتح الخزانة ثانية، وقع على ملابس السهرة التي يفضلها، وهو خليط

مرهف من الحرير الأسود وقطيفة من المخمل. لبستها سِفْرينَ بمناسبة أحداث فخمة. وقد فكها من تعليقتها، ألصقها بجسمه.

وهو يتأمل ذاته في المرآة على طوله، استرجع صور الأوقات السعيدة، حيث، على ذراعه، غير مبالٍ، شعر كم هو فخور بزوجته.

دوىً صوت صغير رطب خلفه:

ــ أبي؟

حين استدار فرنسوا ــ مكسيم لمح غيوم، بعينيه الحمراوين، وقد ظن للحظة أنه لمح خيال أمه التي كان يبكيها.

١١

فجأة، حلَّ صمت، شقت موجة من نفاد الصبر الحفل.

أدار الثلاثمئة مشارك رؤوسهم: من الرواق المغمور بالنور، دخل نعش سِڤْرينّ إلى الكنيسة، يحمله أربعة رجال بطقوم قاتمة. لم يبدُ صندوق السنديان يثقل على أكتافهم. وبتواطؤ مع هذا التقدم بدأ الأرغن بموسيقى باخ لتنشد الجوقة، بإيقاع موزون، وبعمق مؤثر، مفعم بالاحترام اليقظ الذي ندين به إلى الحياة كما ندين به إلى الموت، فكانت الموسيقى تنشر معاً الحزن والحزم أي الرجاء. وكانت الأنغام العذبة والرخيمة والناعمة تنسج في الجو انفعالاً خاشعاً.

خفض هيبوليت رأسه، غير قادر على تحمل تلك الرؤية؛ إن تصورَ امرأة ممددة بين تلك الألواح كان بالنسبة إليه شيئاً لا يُحتمل. عن يمينه، كانت ابنته إيزيس تحدق إلى عينيها الزرقاوين الفاتحتين، فلا تُضيّع تفصيلاً من المأتم، وهي تتأمل، مندهشة، سير الحمالين البطيء الذي يذوب بالموسيقى. في الصف ذاته، انكمش جيرمان لأنه كان يتمنى كثيراً ألّا يكون هنا؛ لو لا حدوث هذه المصادفات لكان يتسكع في مكان آخر، في إحدى حدائق المدينة، بذراعيه العاريتين، ورأسه تحت أشعة الشمس، وهو يعتني بسياجات؛ إلّا أنه سيتحمل الظل البارد لهذا المكان، ويرى مئات الأزهار المقتولة، مرمية حزماً على الهيكل.

في البدء، أراد هيبوليت أن يذهب وحده إلى الجنازة. صُدم وهو يعرف تلك الأم التي يلمحها منذ سنين، نحيلة وكئيبة وبالغة التهذيب توجه دائماً إليه تحية بيدها، قد انتحرت. تترك العالم حين لديها أربعة أولاد؟ هو، بسبب إيزيس، لن يقتل نفسه مطلقاً. عن مسؤولية وعن حب. حين صاغ تلك الاستحالة، قدَّر سعة الانزعاج والضيق اللذين أصابا سِڤْرينّ التي لا شك قد نفذت إلى منطقة من الألم لم تعد مَحَبَّةُ أسرتها تعني شيئاً بالنسبة إليها...

مجرد تخيل هذا اليأس قد هزَّ البستاني في أعماقه. بحضوره الجنازة، فهو يعرب عن تعاطفه معها لكنه حاول أن يبرهن لها أنها قد أخطأت: فالناس يحبون بعضهم بعضاً ويتساعدون، فهو يثق بالتعاضد. لم يحرص على أن يفهم، أراد أن يطمئن.

ففي نظره، كان أساسياً أن يبرهن أن سِڤْرينَ قد أخطأت لأنها ظنت نفسها وحيدة في العالم. ألم تكن الكنيسة ملأى؟

ليشارك في الجنازة، أخذ إجازة مدة نصف يوم. ولكن، في الصباح، أعلنت له إيزيس أن أساتذة مدرستها مضربون، فلن تذهب لحضور الدروس. فوراً، اتصل بجيرمان الذي كان يتبع دورة تأهيلية في الطرف الآخر من المدينة ولا يستطيع إذاً أن يهتم بإيزيس. فقرر مضطراً اصطحاب ابنته إلى الجنازة.

أثناء رحلتهما في الحافلة الكهربائية، كان يخشى التطرق إلى الموضوع. هل تعرف إيزيس ما هو الموت؟ حتى ذاك الحين، لم تكن قد فقدت أحداً من أقربائها... إلَّا أنها من علياء سنواتها العشر، كانت تسيطر على الموقف:

ــ من أي شيء ماتت، تلك السيدة من ساحة آريزو؟ هل كانت مسنة؟

ــ كلَّا.

ــ هل كانت مصابة بمرض؟

ــ لا أعرف.

ــ هل ماتت في أريكتها أم في سريرها؟

ــ لا أعرف. ما يهم هو أننا نقدم لها تكريماً أخيراً.

ــ هل ستدرك ذلك؟

ــ لا أعرف.

أرغى هيبوليت وأزبد ضد ذاته: لم يكن يتوصل إلَّا إلى تكرار «لا أعرف» إلى ابنته، فسواء كان يجهل الجواب، أو لأنه كان يُخفي الحقيقة. «يحق لها أن تحسبني أبلهَ».

بعد تفكير، تابعت إيزيس:

ــ في الواقع، لا يهم أن تعي ذلك أو لا تعيه. المهم هو أن نقوم به.

في ساحة الكنيسة، لحق بهما جيرمان في آخر لحظة واقترح على هيبوليت أن يصحب إيزيس إلى مكان آخر. فات الوقت: أرادت الفتاة الصغيرة، وقد أثير فضولُها أن تحضر المأتم. النتيجة هي أن جيرمان قد تبعهما وهو يجرجر قدميه.

حطَّ الحمَّالون الأربعة النعش بالقرب من الهيكل ثم وضعوا صورة سِڤْرينَ على الغطاء.

صرخت إيزيس بتعجب، وهي مذهولة:

ــ آه، إنها هي!

لاحظ هيبوليت أن ابنته راحت ترتجف.

ــ هل أنت على ما يرام، ابنتي؟

تمتمت الطفلة، وقد شحبت وجنتاها:

ــ كنتُ أعرفها. أنا...

استدارت نحو أبيها، بمنخاريها المرفوعين من الأسى قائلة:

ــ لماذا؟

ــ كل الناس يموتون ذات يوم، عزيزتي.

ــ لماذا؟

توسلت إليه بكل جوانحها حتى أنه أحسّ أنه لم يعد يستطيع أن يجيب «لا أعرف». وقد ارتاع، بحث عن سند له من جهة جيرمان؛ استغرق هذا الأخير في تأمل حذاءيه.

شرع الكاهن في الكلام مستقطباً الاهتمام.

بدأ القداس. الآن لم يعد يخشى أن تسمع إيزيس تفاصيل مُكَدِّرة: فمقيم الصلاة في الكنيسة الذي يُدين الانتحار، تظاهر بجهله ظروف الموت الدقيقة.

انبسطت أسارير هيبوليت ونظر حوله: ثمة مئات من الناس الذين لا يعرفهم بالطبع، لكن سكان ساحة آريزو قد اجتمعوا.

كانت هناك الآنسة بوفير التي في منتهى الأناقة، برقبتها الصلبة وعينيها المحمرتين، وفاتنة وكالة العقارات بوجه تخفيه نظارتان مستديرتان سوداوان، ولودوفيك وأمه اللذان يهتزّان لكل كلمة مأسوية يلفظها الكاهن، أما روز بيدرمان، الهادئة والمتنبهة، فكانت تسبغ أبهة على الحفل، مجيبة على التحيات التي يوجهها إليها كل فرد. من بعيد، في زاوية، تعرف إلى باتيست مونيه، من دون زوجته القصيرة القامة، برفقة امرأة شقراء. ثم في الأمام، كانت البوابة مرسيل تسحب محارم ورقية من حقيبتها، وهي تشعر بمتعة حانقة في البكاء. جاء المهندس جان ــ نويل فانون مع زوجته ديان التي نادراً ما تُرى، والمشدودة في طقم أسود رائع، والتي راحت تتثاءب من دون أن تتمالك. مكث ويم صاحب صالة العرض عدة دقائق، ثم نظر إلى ساعته، وهمس بكلمة إلى مساعدته، وهي شابة فلمنكية ظريفة، ثم اختفى وهو يُظهر وجه رجل لا يستطيع أن يُخل بموعد هام. أما اللذان فاجآه، فهما بائعا الزهور، أوريون وكزافيير التي هي، عادة، قليلة التأثر، بدت فريسة حزن عميق؛ فتقاطيع وجهها مشدودة، وعيناها كابيتان، وجلدها أشد رمادية من الكرتون، وكانت تعض على شفتيها، شأن امرأة تريد أن تمتنع عن الصراخ؛ أما أوريون، الذي كان عادة لا مبالياً، فقد أدرك وضعها فأمسكها من ذراعها.

راح هيبوليت يبحث عن بتريسيا في كل مكان ولا يجدها. التفت من الجهة الأخرى، على يمين إيزيس وجيرمان، فلمحها في صفه. كانت تترقبه. من دون أن يفكر، تبادلا الابتسامة. لفترة ثانية، نسيا أين كانا ولماذا؟

صعدت فتاة صغيرة ووقفت أمام مكبر الصوت بمواجهة الجماعة: كانت غواندولين، بكر الأولاد الأربعة اليتامى. شُحذ الصمت بالخشية.

اقتربت من الجهاز، بورقة في يدها. حبس الجمهور تنفسه.

أمسكت إيزيس بمعصم والدها وتمتمت بهلع:

ــ أبي، إن متَّ، أعتقد أنني سأموت. وقد تأثر هيبوليت، انحنى وضمها إليه.

بدأت غواندولين خطابها بصوت حازم، واضح، شجاع. باسم أخيها وأختيها، ذكرت الأم التي تركتهم تواً، أم رائعة، حاضرة، عذبة، متفرغة دائماً لهم؛ ذكرتْ حبها الهادئ، والذي لم يثقل قط. بقدر ما كانت تودع أمها المعبودة، يقوى صوتها والحضور يبكي. كانت شجاعة تلك المراهِقة تَمَس النفوس، فتجعل انسحاب سِفرينّ أشد قساوة وأكثر غموضاً، كما أظهرت رحيلها فظاً، عاقاً وبلا تفسير ولا تبرير. ثم جرؤت غواندولين أن تتقدم في أرض أكثر هشاشة. أمام النعش، أخذت جثمان أمها كطرف:

ــ لماذا لم تحدثينا عنك إلَّا قليلاً جداً؟ لماذا لم تفضي إلينا بأحزانك ولا بأسرارك التي كانت تؤلمك؟ لماذا أردت مراعاتنا لدرجة أنك أهملتِ ذاتك؟ لماذا افترضتِ أننا لا نستطيع أن نفهمك؟ لماذا اعتقدت أن حبنا لك سيضعف لو عرفنا هشاشتك؟ لماذا، أمي، لماذا؟

تكسر صوتها. وكصدى لهذا النداء، تعمق الصمت، تكدره بعض الشهقات: حدقت غواندولين إلى النعش، وإلى الصورة الخرساء وانتظرت الجواب الذي لن يأتي على الإطلاق.

شعر هيبوليت بضغط قوي على ساقه: أمسكتها إيزيس بين ذراعيها، ودست رأسها في ثنايا بنطاله، وراحت تبكي بكاءً ينفطر له الفؤاد.

لم يستطع أن يمتنع عن إدارة رأسه نحو بتريسيا، التي كانت تتأمل الطفلة بانفعال. تلامست نظراتها الدامعات: في تلك اللحظة، عرف أن بتريسيا مستعدة لأن تحب إيزيس.

عن يساره، هزته ضربة مرفق. طوم وناتان، متأخران، كانا يحاولان أن يجدا مكاناً في الصف وهما يعتذران.

ابتسم لهما هيبوليت بلطف ودعا جيرانه للإفساح لهما في المجال. رفعت إيزيس رأسها، وقد ابتهجت من رؤية هذين الوجهين المعروفين واللطيفين.

استمر الطقس الديني. طلبت إيزيس من أبيها أن ينحني وهمست في أذنه:

ــ لقد قتلت ذاتها، أليس كذلك؟

تمتم هيبوليت، وقد اطمأن إلى أنه لم يعد عليه أن يكذب:

ــ أجل، إنه انتحار.

ــ كيف؟

وفق اندفاعها، لم يعد هيبوليت يتردد قائلاً:

ــ لقد ألقت بنفسها في الفراغ من أعلى برج. بقيت إيزيس فاغرة الفاه.

أعلن الكاهن أنه سيبدأ المناولة. ترك ناتان طوم ليذهب إلى الهيكل. تردد هيبوليت. فهو يمارس الشعائر الدينية في المناسبات وإن كان مؤمناً، تساءل إن كان سيتقدم. حين رأى بتريسيا تلتحق بالممر، عهد بإيزيس إلى جيرمان وقرر أن يُضَخِم رتل المتقدمين إلى المناولة.

كانت بتريسيا تتبعه، وهي شبه ملتصقة به. لم يقولا شيئاً لبعضهما، ولم يسعيا لأن يريا بعضهما بعضا، مغتبطين بهذا القرب. لأنهما كانا يفكران بعلاقتهما، فلم يشعرا بالحركة الجديدة: كان الناس يحددون من هو كاثوليكي من بين الحضور ومن هو لا. في بلد شأن بلجيكا، مقسم إلى قسمين ليس من الناطقين بالفرنسية ومن الناطقين بالنيرلندية ولكن بالخط الذي يفصل المؤمنين عن الملحدين، فلحظة المناولة ستشكل مادة أحاديث الأشهر التالية. كان يساعد الكاهن شماسٌ، انقسم الرتل المتراص إلى فرعين على الدرجات الأخيرة. فجأة، وهما منبهران، وجد هيبوليت وبتريسيا نفسيهما جنباً إلى جنب أمام الكورس، كل واحد منهما أمام رجل الكنيسة الذي يقدم لهما القربان. انحنيا معاً. وقبِلا القربان معاً. معاً تلقيا البركة. أمدتهما تلك الثواني بانفعال عميق، ومنذر لكليهما: وقد نسيا الظرف الذي هما فيه، لم يعودا يريان إلَّا الزجاج المرسوم والمشع، والزنبق الأبيض النقي، والمسيح الضخم والمذهب، وقد حملتهما أنغام الأرغن القوية، شعرا بأنهما يتدربان على حفل زواجهما.

عادا إلى مكانيهما، وعيونهما منخفضة، وقلباهما يخفقان، يمسكان بالقرص الملتصق على لسانيهما، وقد أفعِما بذاك الوعد المُستَشَف.

اقتربت مغنية من عازف الأرغن وارتفع غناء رائع تحت القبة: «لنمجد الرب». كانت موسيقى موزار تشكر؛ تُبارك الإله الذي وهب لنا هذه الحياة، البالغة الهشاشة والقيمة، فتغتبط تلك الموسيقى لأنه منحنا ذلك الحظ وتختلط مع النور الرقيق الذي يغمر الكنيسة.

لم يعد يشعر هيبوليت بالحزن ولكن بفرح حقيقي، فرح وجوده هناك، فرح وجود ابنته بالقرب منه، وبصديقه، وبزوجة المستقبل. هل كان عليه أن يأتي إلى

جنازة ليدرك ذلك؟ تذكر حينذاك تلك الجملة الغريبة التي سمعها في طفولته: يجب أن يموت الواحد ليحيا الآخر. وهو يحدق ثانية إلى الصورة التي هي على النعش، بدا له أنه يدرك تعبيراً جديداً على الوجه من الورق المصقول؛ أضيفت إليه الطيبة، ونوع من الحنان المشع؛ صارت سِڤرينّ ملاكه الطيب، الساهر على حبه.

من جهة اليسار، فاجأ ضجيج كل الناس. هوت كزاڤيير، وقد أغمي عليها؛ لم يسنح الوقت لزوجها كي يمنعها من الوقوع، فانهارت بين المقاعد. تمتم ناتان بين أسنانه، بشكل يسمعه جيرانه:

ـ ماذا تريد تلك أن توحي إلينا؟ أن لها قلباً؟ يا للوقاحة! سيداتي وسادتي، المرأة الأكثر شراً في بروكسل تمثل علينا الإغماء.

أوقفه طوم بضربة حادة. فات الوقت. سمع هيبوليت بعضهم يتعجبون معاً: كانت كزاڤيير آخر شخص يمكن تصوره وقد أغمي عليه.

كان أوريون يتحرك باضطراب بالقرب منها، هلِعاً، غير قادر على القيام بشيء. ولا أحد يمد له يد المساعدة. فجأة، تسلل الدكتور بلاسَّار قائلاً:

ـ يجب إخراجها كي تتنفس.

أمسك الطبيب كزاڤيير من تحت كتفيها وشرع يجرها إلى الخارج. وقد أراد أوريون مساعدته، راح يُضاعف العوائق، وهو يقلب الكراسي وكتب الصلاة. سأل الطبيب:

ـ ماذا بها، دكتور؟ لماذا أغمي عليها؟

ـ إنها حامل، أيها المسكين!

مكث أوريون فاغر الفاه وسط الممر، وقد تجمد.

نظر كل من طوم وناتان وهيبوليت وجيرمان بعضهم إلى بعض مذهولين. لم يجرؤ أحد أن يصدق ما أتى على سماعه.

راح أوريون يركض ليمسك بالطبيب وبزوجته، اللذين اجتازا المدخل.

تمتم ناتان:

ـ يا لهذين الزوجين. ألطف رجل في العالم يعيش مع المرأة البالغة الشر.

ـ يمكن لأوريون أن يكون الحمامة.

ـ أنت على صواب. كان يمكن...

في تلك اللحظة التفتا نحو جيرمان الذي طأطأ رأسه.

تابع الكاهن الطقس المأتمي وشرع في تعليق يسمح بالفهم أن الميتة قد قتلت ذاتها.

داعبت إيزيس يد أبيها قائلة:

ــ هل ستقدم لي بتريسيا؟

ــ كيف؟ منذ اليوم؟

ــ أبي، كف عن الاختباء.

ولتدعم فكرتها، أشارت إلى النعش على الهيكل قائلة:

ــ الحياة قصيرة.

تساءل هيبوليت مرة أخرى، كيف تستطيع طفلة في العاشرة من عمرها أن تبدي رأياً كهذا ووافق قائلاً:

ــ بعد قليل.

موسيقى جديدة غمرت المكان. تقدم الرجال الأربعة لابسين السواد، رفعوا النعش، ثم ساروا نحو الخارج برزانة وأبهة، تتبعهم أسرة الفقيدة.

كان فرنسوا ـ مكسيم يسير في المقدمة، ممسكاً بيد ابنه غيوم، مقدماً صورة عن الحزن. يتقدم كإنسان آلي، بنظرة ثابتة، وبمظهر تائه بعيداً، وقد استنفر طاقته لرسم حركات تقتضيها المناسبة. للمرة الأولى، أحس هيبوليت ميل تعاطف نحو الأرستقراطي ذي الكمال المتغطرس الذي كان يجمده.

أما البنات الثلاث، فكنَّ يتبعنَ الصندوق الذي يحوي أمهن، وكأنهن منومات مغنطيسياً، يرفضن قبول أن تلك ستتركهن مرة جديدة.

شدَّت إيزيس يد أبيها قائلة:

ــ أبي، ماذا يمكن أن نفعل لأجلهن؟

كاد هيبوليت أن يجيب «لا أعرف» ثم سمع ذاته يقول:

ــ أن نصلي، عزيزتي. ففي بعض الأوقات، يجب أن نقبل التألم وكذلك أن يتألم الآخرون. بينما كان يحاول هو نفسه أن يدرك ما قاله، تأملته إيزيس ووافقت، مرتاحة.

همس طوم إلى هيبوليت وجيرمان:

ــ أتنويان الذهاب إلى المقبرة؟

ــ كلَّا.

أعلن ناتان:

ــ ولا نحن. سنكتفي بكتابة كلمة في سجل التعازي.

أشار إلى كتاب ضخم مفتوح على مكتب موجود في آخر الكنيسة. ذهبت المجموعة بالقرب من السجل قبل أن يأتي الجمهور.

قال طوم لجيرمان:

ــ هيا.

أمسك القزم بالقلم الحبري باليد اليمنى وكتب بضع كلمات. تراجع طوم وهمس في أذن ناتان:

ــ لا شيء على ما يُرام، إنه أيمن.

ــ أنت تمزح؟

ــ انظر.

لاحظ ناتان أن طوم يقول الحقيقة لكنه لم يستسلم.

ــ إنه يجهد كي يضللنا.

اقترب ناتان من هيبوليت وسأله بصوت خفيض:

ــ هل زميلك عادة أيمن؟

ــ آه، لا يوجد شخص أيمن أكثر منه. أما يده اليسرى فكأنها مشبك.

حدق طوم وناتان بحنق بعضهما إلى بعض: فنظريتهما التي جعلت من جيرمان مؤلف الرسائل المجهولة سقطت في الماء!

ظهرت بتريسيا حينذاك وجثت أمام إيزيس. تفحصت الطفلة الراشدة بشيء من ال شدة.

خجلت بتريسيا، فارتجفت؛ أمسكت إيزيس من يدها:

ــ طاب يومك، أنا إيزيس.

ــ أنا بتريسيا.

ــ إننا معاً في حياة أبي، أليس كذلك؟

١٢

ـ طاب يومك، ألبانّ.

ـ هذا أنت، كانتان... أنت موجود دائماً؟ ظننت أنك مُتَّ.

في ذاك الصباح، كانت الببغاوات، المهتاجات والجهنميات، تصرخ صراخاً حاداً شأن منشار يهجم على خشب قاسٍ. كانت السماء المنخفضة حيث تلوح عاصفة وشيكة في الجو تحمل معها سنونواً يطير تائهاً، ويرغب في أن يحط على الساحة لكنه يقفز على شكل أسراب قبل أن يلامس الأرض لأنه كان يخشى كثيراً رد فعل الببغاوات، كما لم يكن مصمماً كذلك على الابتعاد.

ـ أيمكنني الجلوس بالقرب منك؟

ـ هذا المقعد ليس ملكي.

ـ هذا يعني نعم؟

بين الفينة والفينة، كانت خفقات أجنحة مخنوقة، غاضبة، تُظهر حروباً جنسية وإقليمية تجري في الأشجار.

ـ اعذريني، ألبانّ.

ـ عفواً؟

ـ لأنني لم آتِ في تلك الفترة الأخيرة. تسلمتِ كلمتي، تلك التي أقول لك فيها لا داعي لأن تقلقي، لستُ مريضاً وإنني سأعود قريباً؟

ـ ...

ـ هل كنتِ هنا، في هذه الأيام؟

ـ أجل.

ـ هل كنتِ ... تنتظرينني؟

طارت درَّة، مرهقة، وقامت بجولة في الساحة وهي تصرخ غاضبة.

ترددت ألبانّ بين البكاء والتحامل. فاختارت الحل الثالث وهو السخرية:

ـ أيعجبك، أليس كذلك، أن أنتظر عبثاً شأن بلهاء بينما لم تأتِ؟

ـ ألبانَ...

ـ حسناً، أعرف أنني جئت إلى هنا لأنني معتادة ذلك، وليس من أجلك. لماذا أنتظرك؟ إننا لسنا متزوجين. لسنا مخطوبين. حتى أننا لسنا معاً.

ـ بلى، إننا معاً. أخيراً، كنا...

ـ ما معنى أن نكون معاً، بالنسبة إليك؟ الاختفاء من دون أن تُعطي أخباراً؟ تعودُ شأن غريب بالقرب من غريبة؟ أنا وأنت، لن نستطيع التفاهم مطلقاً.

تعجب كانتان. بالرغم من ألبانّ المقطبة، غير العادلة، المشاكسة، المثيرة للمشاكل، إلَّا أنها تجذبه دائماً. كان بإمكانه الرحيل، واعتبارها مزعجة ـ وهذا ما هي عليه ـ لا سيما أنه لن يحصل منها على ما انتزعه من أيف، لكنه بقي هنا، أخرق، مثقلاً بأسراره الجديدة، منجذباً إلى الوجه الجميل المتحرك، وهو عارف أنه سيخطئ بالكلمات وسيغوص في سوء تفاهم بلا نهاية.

كانت ألبانّ متيقّنة من أنه يصغي إليها، فشرعت في شكواها:

ـ لا أعرف من أنت، كانتان دانترومون. في يوم سابق، كانت كلمتك الأخيرة «أود أن أضاجعك» ويوم السبت في كنوك ـ لو ـ زوت، هربتَ حين وصلنا أنا وسيرفان إلى الحفلة.

ـ لم أهرب بسببك.

ـ هراء! لم آت إلى زوت إلَّا من أجلك... أهِنتُ! جعلتَني أفقد ماء وجهي. في كنوك كما في بروكسل، الكل يعرف أننا معاً... كنتُ أضحوكة السهرة.

ـ ألبانّ، أقسم لك إنني لم أتجنبك. كان... عليَّ أن أكون في مكان آخر...

ـ أين؟

ـ ...

ـ مع من؟

ـ ...

سكتت الببغاوات: ثمة طائر هائل، لم تتعرف إليه، ذو طنين مرعب، حلَّق فوق الساحة، بطيئاً، مهدداً.

ـ أليس عندك شيء تقوله لي، كانتان دانترومون؟

ـ لم أقم بأي شيء يؤذيك، ألبانّ، لا أسيء التفكير فيك، على العكس.

اختفت الطائرة المروحية في الغرب، وراء الأسطحة، وتابعت الببغاوات مناقشاتها وهي تهمس.

ـ ليس لك مأخذ عليّ؟ إنني أحلم... تتصرف كخنزير وتؤكد لي أن ليس لك مأخذ عليَّ؟ إنه العالم المعكوس... يا للوقاحة!

كانت ألبانّ تقذف الشتائم. أمسك كانتان بمعصمها قائلاً:

ـ أحبك، ألبانّ.

كانت تشتهي أن تصرخ طالبة النجدة. بينما تلقت أخيراً الكلمات التي كانت ترغب في سماعها، هزَّت رأسها كي تطردها. كان هذا التصريح بالحب يثير اشمئزازها. لا يمكن قبول هذا الحب. لم يعد يَحمل كانتان إليها إلَّا العذاب.

ـ إنكَ تقول كلاماً لا تعنيه!

ـ أقسم لك، ألبانّ.

ـ لماذا لم تقله لي من قبل؟

ـ لأنني لم أكن قبل الآن ناضجاً.

ـ ما الذي جعلك تنضج منذ يوم السبت؟

ـ إن قلته لك، فلن تفهميني.

ـ إنني غبية، أليس كذلك؟

ـ كلَّا، أنت فتية وأنت بنت.

انتزعت ألبانّ ذاتها من ضمته، جابهته، وقد تجعد جبينها وجحظت عيناها.

ـ أجل، من الأفضل أن يكون المرء في السادسة عشرة وأن يكون صبياً!

ـ كلَّا...

ـ بصراحة، إنني أسقط من علٍ. لم أكن قد أدركت أنك ذكوري متبجح.

ـ ألبانّ، ليس هذا ما أردت قوله...

ـ هكذا! لا تريد أن تقولَ شيئاً، وحين تقول شيئاً، فليس هذا ما تقصد.

«ذكوري متبجح»، وكنتُ بعيدة عن أن أدرك: يجب إضافة نذل.

بقدر ما كانت ألبانّ تتوتر، هدأ كانتان. رغب في الضحك لأن هذا الغضب يحرك مشاعره حنواً. يحس أن قلبه سيذوب أمام هذا الهيجان. فيكبر عشقه.

ـ ألبانّ، إن رحلتُ... فلأعود بشكل أفضل. أعرف أين أنا، الآن.

ـ أنت لا تسخر مني!

ـ مطلقاً.

ـ إنك تحتاج إلى أن ترحل لتعود! هل أقبل ذلك؟ هل أرغب في شاب يدعوني

إلى سهرة على بعد مئة كيلومترٍ من بيتي ثم يختفي حين أصل؟ أريد حقاً أن أكون عاشقة، ولكن لا أن أكون بلهاء أو ضحية، كلّا!

انفجر كانتان بالضحك، كمن يحضر مسرحية هزلية. واثقاً من ذاته، متيقناً من مشاعره، عاشقاً كما لم يكنه يوماً، لم يُدرك أن ألبانّ ظنته متهكماً.

ــ ماذا؟ أتضحك؟

أمام وجهها المعذب، اشتد ضحكه، وتقطعت أنفاسه. كم كانت ظريفة، وقد أشعلها هذا الغيظ المؤثر... راح يتسلى من غضبها شأن من يلهو أحياناً من طفل يحتج أو من حيوان محبوب تجاوزه الموقف: ضحك حنواً ورقة.

ــ إنك وحش حقيقي!

حين انبثقت الدموع من عيني ألبانّ، لم ير كانتان فيها إلّا نهاية المشهد المسرحي الذي اشترك فيه: لم يدرك أنه يهين الشابة.

ــ الوداع، لا أريد أن أراك بعد اليوم!

على دوس قدمها الحانقة، انطلقت من دون أن تلتفت. ضرب كانتان على بطنه ليهدئ ضحكه وصرخ نحوها:

ــ عودي، ألبانّ، إنني أحبك.

ــ كذّاب!

ــ لم أحبك يوماً بقدر ما أحبك الآن.

ــ فات الوقت!

ــ ألبانّ، أقسم لك أنني أحبك.

ــ اذهب إلى الجحيم، أيها المغفل!

أبردت حميته الكلمات الأخيرة. لم تَظهر يوماً ألبانّ سوقية. صُدِم، فمكث عدة لحظات على المقعد، وقد عدل عن اللحاق بها. اختفت عن الأنظار.

عاد الضحك يهزّه. أصبح هذا الضحك من الآن فصاعداً مريحاً... يا لها من لحظة جميلة! كم كان سعيداً أن يكتشف معاً انفعال ألبانّ وعمق مودته لها. منذ ما حدث مع أيف، كان يخشى من رؤية المراهِقة؛ لكن لقاءه بها قد أكد له أنه نضج وأنه يحرص عليها أكثر من حرصه على أي شخص... ربما أرضاه هذا الاكتشاف فأهمل انزعاجها ولم يأخذ ضيقها على محمل الجد؟

طاردت ثلاث درّات ببغاءً عبر الجذوع، ملامسة كانتان الذي خفض رأسه.

«أحبك». «فات الوقت». «لماذا لم تقل لي ذلك من قبل؟» كانت تلك الأصداء تدور في رأسه. بالرغم من كونه بالغ السعادة كي يتوقف عند تلك الكلمات، فكر

كانتان أنه في الحب يلفظ كل الناس الجمل ذاتها، ولكن نادراً في الوقت المناسب. تتكشف الحياة عن مؤلف تافه: الكلمات هنا والمشاعر أيضاً، ينقص الترتيب فقط. يجب أن يكتب أحد القصة ويأخذ على عاتقه تطور الأحداث بحكمة ونباهة. يجب أن نستطيع سماع «أحبك» في الوقت الذي نحتاج فيه إلى ذلك، «أريدك» تصل إلى أذنين مستعدتين، أن تُقطعا الأقفار معاً وأن تُكتشف الواحات بالتزامن، بدلاً من انتظار ما لا يأتي ويجيء ما لا يُنتظر. إن قصة الحب المتناغمة عبارة عن قصة تروى بروعة، ويظهر زمنها متواطئاً مع ظروفها.فرك كانتان يديه، ساعياً إلى ترسيخ الهدوء في أعماقه. بالطبع، لقد أخفق في عودته بالقرب من ألبانّ لكنه اليوم ليس غداً. سيستدرك الأمر. سيلاقيها. منذ البداية، ألم يقوما إلّا بالمخاصمة؟ من الآن فصاعداً، الثقة تغذيه، ثقة الذي يحب، ثقة جسم عرف أخيراً الحب الجسدي، ولم يعد يعوقه من التفكير.

اعتمد كانتان على الزمن. فاجأه يساراً صخب لدن. كان براز طائر، بلون الصمغ، يسقط على كتفه. رفع رأسه صارخاً:

ـ لا تنزعجوا. تغوطوا عليَّ!

سقطت ضحكات من الأغصان. صاح بهم:

ـ مجموعة منهكين!

بمنديل، نظَّف خيوط كنزته الزرقاء والتي امتصت البراز.

تمتم قائلاً:

ـ لحسن الحظ لم يحدث ذلك من قبل. عاود الضحك لتلك الفكرة.

كان ببغاء أحمر، وقد حط على غصن قريب، خنخن مندهشاً بجملة موجهة إلى كانتان. وافقه هذا الأخير:

ـ شكراً، أيها الشباب، لانتظاركم. من أجل هذا، من الأفضل أن أكون أنا عن أن تكون هي. لأنكم، أتعرفون، أن الفتاة التي رأيتموها تواً، حسناً، أعلن ذلك لكم: ذات يوم، ستصبح امرأتي.

بقائمة مرفوعة، أحنى الببغاء رأسه إلى اليمين، بلا حراك، مرتبكاً.

١٣

هل السعادة محتملة؟ وقد سكنت بتريسيا واسترخت، فركت أنفها على ذراعيها العاريتين حيث لا تزال رائحة الرجل. أطبِق جفناها، وهي تطلق أحاسيس حُبست في ذاك العطر؛ كانت تشعر بيديّ هيبوليت تقطع كتفيها، بأصابعه المرهفة المعتادة الزهور، حتى أنه يداعبها شأن تويجة؛ كانت تتذوق العرق اللذيذ والمالح الذي ستقطفه، شأن الندى، على عنقه المحموم حين يخترقها؛ بشفتيها، تلامس عضو هيبوليت ذا الجلد الأطلسي ثم تعجن بملء راحتي يديها ردفيه القويين والمرقطين؛ كانت تسمع ثانية صوته المسكر والأسمر يرافق لهوهما بتعليقات مدهشة، لأن هيبوليت يتحدث وهو يطارحها الغرام، وهي ظاهرة لم تعرفها حتى ذاك الوقت. استسلمت بتريسيا لأبولون جسداً وروحاً، فقبلت أن تعطيه ذاتها متى شاء، وبالطريقة التي أرادها، وبالمدة التي رغبها. غالباً ما كان عاشقها يقلق من تلك السلبية وقد وخزه الشعور بالذنب، يطلب منها أن تملي عليه أذواقها؛ فكانت تجيب بلا خبث أنه بخصوص الأذواق، لم يكن عندها أي ذوق إلّا تذوقها له. كانت تستسلم، وهي أبعد ما تكون رغبة في السيطرة؛ هكذا كانت تصل إلى القمم. أن يقدم الإنسان ذاته لا يعني أن ينسى نفسه لكنه يجد ذاته في نهاية الأمر، تحت نظر الآخر.

كان هيبوليت قد تركها تواً ليعود إلى بيته. وهي تستنشق الليل العذب الذي يغمر ساحة آريزو، تساءلت بتريسيا إن لم تكن سعادتها بالغة العنف.

كانت تتمنى أن تموت، في تلك اللحظة، في الجمال، لأن الغد لا يضمن جودة اليوم. فإذا انطفأت هذا المساء، تكون قد أنجزت حياتها بنجاح، فتترك العالم بأوج المجد. ماذا يجدي انتظار الانهيار القادم؟

غموض الارتياح والسرور... بقدر ما يمثل الرضى انتصاراً يمثل كذلك استسلاماً: فإذا شكّل ازدهارَ الرغبة، فهو يوقّع قرار إعدامها أيضاً. وقد توصلت إلى ذروة المتعة، فأسكرتها اللذة، وطحنتها نشوة الجماع، خيل لبتريسيا أنها لن تشتهي ممارسة الجنس بعد اليوم. سَرَت في جسدها وخزات. فغالباً ما ترتعش، وهي لا شك طريقة لتؤجّج أثر هيبوليت على لحمها.

بومضة، فكرت بسرّة رجلها، ذاك القفل الصغير على بطنه اليابس والقاسي، كم تود أن تفتحه لتدخل بكاملها فيه وتركن إليه...

في نهاية الأمر، ستبقى على قيد الحياة. أولاً، لأن قوة رخوة من الجمود تمنعها من القيام بحركة خطرة. ثم، ــ تذكرت ذلك ــ لأن اللذة لا تقتل الرغبة: ستشتهي هيبوليت من جديد. «مشكلتي هي أنني لا أقبل السعادة. أسعى إلى التفكير، بينما أن يكون الإنسان سعيداً يعتمد على ألّا يفكر».

تنهدت بارتياح، وهي مفعمة بالتسامح، ورجعت إلى داخل شقتها.

كانت ألبانّ قد عادت قبل ساعة ــ أي ساعتين أو ثلاث قبل الوقت الذي أعلنته! ارتجفت بتريسيا وهي تسمع ضجيج المزاليج في المدخل لأن هيبوليت كان يرتاح على كتفها؛ خشيت أن تأتي ابنتها لتدق باب غرفتها؛ لحسن الحظ، حبست تلك ذاتها في غرفتها. دعت بتريسيا هيبوليت إلى الذهاب من دون صوت ثم رتبت لنفسها مظهراً أقل إثارة. الآن، تجرجر قدميها بثوب للبيت، شأنها قد أمضت سهرة عادية.

وهي تجتاز الممر، لاحظت أصواتاً غير مألوفة خلف باب ألبانّ.

ــ هل أنت على ما يرام، عزيزتي؟

لم تُجب ألبانّ؛ استمرت التأوهات.

ــ ألبانّ، ماذا يحدث؟ ألبانّ...

ألصقت بتريسيا أذنها على المصراع الخشبي. كان تأوه حاد يرن في الغرفة. دقت الباب.

ــ ألبانّ، افتحي لي، من فضلك.

لم يصدر أي رد فعل. أمسكت المقبض الذي ــ ويا للمفاجأة الحقيقية ــ دار وانفتح الباب. ماذا حدث؟ تحبس عادة ألبانّ نفسها!

لمحت بتريسيا ألبانّ تتلوى من الألم على سريرها، وقد أسندت يدها على بطنها. حين هرعت، لاحظت أن ابنتها لا تنزف ولكن، من لون وجهها الأصفر، وعينيها المطبقتين، وشفتيها الشاحبتين، عرفت أنها تعاني وعكة.

ــ لا تنامي، عزيزتي، تماسكي، أمك هنا. سأدعو الطبيب.

بعد عشرين دقيقة، خرج الدكتور جمّيل من الغرفة حيث كان يتحدث مع ألبانّ وحقنها بإبرة.

اقتربت بتريسيا، قلقة، من الشاب اللبناني المتخرج حديثاً في الجامعة.

ـ إذاً؟

ـ فلننعزل لنتحدث، بتريسيا.

أقاما في الصالون. بما أن بتريسيا لم تضئ إلّا المصابيح الخافتة، كانت الغرفة دبقة، ذات جو مأتمي، والأضواء الحية الوحيدة آتية من ساحة الببغاوات.

ـ حاولت ابنتك الانتحار.

ـ ماذا؟

ـ اطمئني، هناك نبآن ساران. الأول، لم تنجح في مسعاها. الثاني أنها، لم تكن تنوي النجاح ـ وإلّا لكانت أغلقت بابها بالقفل ولجأت إلى طريقة مختلفة.

ـ ماذا فعلت؟

وقف الدكتور جمّيل ليصب كأساً يشربها لأن بتريسيا، منهارة، قد فقدت ردود أفعالها للقيام بواجب الضيافة. شرب قدح ماء كبيراً واستدار نحوها.

ـ انتحار بكريم الشوكولا (نوتيللا).

ـ عفواً؟

ابتلعت ألبانّ خمسة عشر وعاءً من النوتيللا، وكما تعرفين، هذا الكريم بالشوكولا والبندق، نجحت ألّا تتقيؤه. النتيجة؟ أصيبت بعسر هضم وبأزمة كبد حادة. لن تذهب لتقيم في القبر، بالأحرى على كرسي المراحيض. صب كأساً أخرى ليشربها. كانت بتريسيا تختنق وهي تحاول أن تقدر الوضع.

ـ هذا... هذا مثار للسخرية.

ـ إنه مثار للسخرية بلا شك، لكنه ليس غبياً. إن ابنتك ذكية، بتريسيا. أرادت أن تجذب الانتباه. من العبث المخاطرة بحياتها لذلك. أعرف بعضهم شربوا ماء «الجافيل» أو سائلاً لفتح مجالي المطابخ المسدودة: هؤلاء تمكنوا من الانتحار. فالهواية لا تحمي دائماً من الفعالية. ألبانّ، هي، قد أخفقت في ذلك بشكل تام، فلنمنحها تلك الميزة.

ـ من تنادي لنجدتها؟

ـ لم تقله لي.

ـ أنا؟

ـ ذكرت مشاكل عاطفية.

بشكل غير مفهوم، ضربٌ من الحمى صبغ وجنتي بتريسيا بالأحمر. تسارعت دقات قلبها. تابع الدكتور جمّيل قائلاً:

ــ ربما تشكل قصة الحب الحزينة قناعاً لاضطرابات أخرى. تحتاج ألبانَ إلى التحدث عن ذلك. ماذا تفكرين بخطيبها؟ أو بخطيبها سابقاً؟

فركت بتريسيا جبينها، متضايقة من غياب ذاكرتها.

ــ أوه... لم أعد أعرف... لألبانّ خطيب جديد كل شهرين. أعترف أنني لم أعد أهتم بذلك.

ــ آه! ربما تكمن المشكلة هنا.

أدركت بتريسيا وقد ارتاعت، أنها أهملت ألبانّ. أجل، منذ أسابيع كثيرة، وقد استحوذ عليها هيبوليت، أظهرت أنانية هائلة، فلم تكن تتوجه إلى ابنتها إلّا لتتحقق من غيابها كي تستقبل هيبوليت، ولا تسمعها تذكر خطيبها إلّا لتضع مكانه انعكاس هيبوليت.

ــ أوه، إلهي...

صعد الشعور بالذنب من أعماقها. حاولت ابنتها أن تقتل ذاتها من دون أن تشكَّ هي بأي شيء. انفجرت بالبكاء.

أسرع الدكتور جمّيل نحوها قائلاً:

ــ هيَّا، بتريسيا، لا تفسري بالعكس. لم أقل إنها غلطتك...

غاصت بتريسيا في هاوية من اليأس. ها هي تحصل على جواب عن سؤالها السابق: حين توصلت أن تتحمل السعادة، لم تستطع ابنتها ذلك. ليس من حقها أن تكون سعيدة. هل عليها أن تتخلىَّ عن هيبوليت؟

في اليوم التالي، عادت من جديد لتصبح أماً يقظة، متفانية، وكرست ذاتها للمريضة. استسلمت ألبانّ لعناية أمها من دون أن تُقطب، وهذا ما بدا إشارة حسنة. مع ذلك، كانت بتريسيا تشتم انتظار بادرة.

ــ ماذا تريدين، عزيزتي؟

ــ لا شيء.

ــ بلى، أشعر بأنك ترغبين في شيء ما.

حدقت ابنتها إليها، وقد دُهشت من نفاذ بصيرتها.

ــ هذا الشيء، هل أستطيع أن أعطيكِ إياه؟

خلصت ألبانّ، بعد فترة من التفكير كي تجيب بصدق:

ــ يمكنك مساعدتي.

ــ كيف؟

ــ أن تُعلمي كانتان بما فعلتُ.

تلا صمت. طبعت بتريسيا قبلة على جبينها وتمتمت:

ــ أكان ذلك من أجله؟

طأطأت ألبانّ رأسها علامة الموافقة.

تنفست بتريسيا. ربما ليس عليها أن تتخلى عن هيبوليت؟

ــ هل تحبين هذا الشاب؟

ــ أجل.

ــ هل تعرفين لماذا تحبينه؟

ــ كلّا.

حين نعرف لماذا نحب فلاناً، فهذا يعني أننا لا نحبه.

ذُهلت ألبانّ لأنها فوجئت من رؤية أمها خبيرة في هذا المجال.

ــ عزيزتي، أستغل الوقت الذي نمضيه معاً لأعلن لك حقيقة ما يحدث معي.

ــ هل يحدث شيء معك؟

ــ هذا أقل ما يمكن قوله.

وأفضت بتريسيا إلى ابنتها بلقائها مع هيبوليت. من دون إعطائها تفاصيل، لم تخفِ عنها أنهما كانا عشيقين وغير قادرين عن الاستغناء عن بعضهما بعضاً. كانت ألبانّ بالغة الدهشة حتى أنها نسيت أن تسخر؛ اكتشفت غريبة خلف تلك التي حكمت عليها، امرأة خفيفة الظل، مفعمة بالحيوية، شهوانية.

من دون أن تدرك ألبانّ، هذا التحول قد أعطاها الأمل. إذا كانت بتريسيا، بعد الأربعين، في وضعها من الإهمال الجسدي، تثير العشق، فعليها أن تفكر بمستقبل آخر غير الانتحار.

إن مغامرة الأم انتهت بنيل إعجاب ألبانّ. لم تنتقد اختيار البستاني في البلدية؛ بل على العكس، أن تكون أمها قد جذبت هذا الأنموذج الجميل الذي تنظر إليه كل امرأة بشهوة قد أسبغ عليها ميزة إضافية. وقد تحمست لقصتها ولانتباه ابنتها، اتقدت بتريسيا ولم تعد تخفي الفتنة التي أثارها فيها الرجل. في البدء، وضعت ألبانّ كانتان مكان هيبوليت. ثم، بقدر ما كانت بتريسيا تصف ردود أفعاله كرجل ناضج، متزن ومع ذلك مشبوب العاطفة، ذي خبرة وفي الوقت ذاته متحمس، أقرت ألبانّ لنفسها أن حبها كمراهقة لمراهق يعود إلى مهمة مستحيلة: لا تتوصل هي ولا كانتان إلى أن يقاوما أمزجتهما، ونفاد صبرهما أو تحاملهما.

ــ هل ستقدمينه لي؟

ــ أناديه.

همَّت بتريسيا بالخروج حين توقفت على العتبة.

ــ سامحيني، عدت إلى أنانيتي وأنا أروي لك ذلك. كنتِ قد أوكلتِ إليّ مهمة: أردتِ أن أقول كلمة إلى كانتان.

عضت ألبانّ على شفتيها، ترددت، ثم أطلقت ابتسامة على شفتيها:

ــ كلّا، في نهاية الأمر لا شيء.

فسرت بتريسيا تلك الابتسامة كدليل على شفائها. هل تخلت ابنتها عن أن تأمل؟ إذاً عن أن تتألم؟

بعد يومين، قرع هيبوليت جرس الباب للتعارف.

من جديد أمرت بتريسيا ألبانّ أن تخرج من غرفتها ــ طلبت ذلك منها ست مرات خلال الساعة الأخيرة ــ وفتحت لهيبوليت. كان هذا الموعد، يسبغ بالنسبة إليها، الصفة الرسمية على علاقتهما: بما أنه في مثل عمرهما يُقدّم الخطيب إلى الأولاد وليس إلى الوالدين، أثبتت لهيبوليت أنها مستعدة للارتباط.

أحضر البستاني، وهو الأمين على عادته، أزهاراً رائعة: كانت هذه المرة أزهار (الأوركيدة) البيضاء ذات القلب (الفوشي اللون)، اشتراها بثمن غالٍ من عند كزافيير.

عانقته بتريسيا، وقد ارتاعت بمجرد سماع خطوة ابنتها في ظهرها.

ظهرت ألبانّ، بتنورة بالغة القصر، وحطت على كعبين عاليين، لابسة قميصاً شبه شفّاف يكشف عن جذعها الفتي، الممشوق والكامل. كشفت، باقترابها، تبرجاً لافتاً للنظر: خطَّ الكحل عينيها، والأحمر القاني كثّف شفتيها. هنا وهناك، أضاءت شذرات بشرتها الذهبية، مثيرة الانتباه إلى خديها وجيدها وصدرها وفخذيها.

لم ترَ بتريسيا يوماً ابنتها قط، متحولة إلى غاوية.

تمتمت ألبانّ بهيئة مرتبكة لتعوض عن وقاحة مظهرها:

ــ مساء الخير.

ذهل هيبوليت، فابتسم لها وقبلها بطريقة ودية. ضحكت فرحاً من ضمته.

قررت بتريسيا ألّا تتفوه بكلمة نقد: ما يهم هو إنجاح هذا اللقاء.

جلسوا في الصالون. كانت بتريسيا وهيبوليت المعتادان التحرك وحدهما في الشقة، شعرا بأنهما يعرضان مودتهما أمام جمهور؛ فنبرتهما الأليفة، وتعابيرهما

وحركاتها بدت لهما فجأة مثيرة مشتبهاً فيها ومدروسة. تحت نظر تلك المراهقة، كانا يقلدان تقاربهما أكثر من أن يعيشاه. لكن يبدو أن ألبانّ لم تنتبه إلى هذا الارتباك؛ ثرثارة، تشارك في الحديث، تساعد أمها أكثر مما تأمل، أثناء المشروب ثم وقت الطعام، كانت تسعى إلى استقطاب الانتباه. ثم، قررت بتريسيا وهيبوليت أن يصمتا وأن يصغيا إلى الشابة المتحمسة.

اكتشفت بتريسيا، بضيق، جاذبية ألبانّ الجنسية، منتبهة للمرة الأولى، لطول ساقيها، وجمال شكلها، وبخاصة الجسارة التي تدفعها لفتنة البستاني.

فكرت في ذاتها «تمالكي نفسك، بتريسيا. أرادت ابنتك أن تنتحر قبل عدة أيام، وترينها الآن سعيدة أمام عشيقك. إذا كانت قد لبست شأن العاهرات وتظهر سلوكاً شائناً، فلا تلومي إلَّا ذاتك! تحملي ذلك هذا المساء. ستصلحينها في الأسابيع القادمة».

أما هيبوليت، فكلما تقدم الوقت في السهرة، ازداد ذهوله. مما لا شك فيه هو أن ألبانّ تحاول مغازلته. أبعد محاولاتها للتقرب، فلعب دور الساذج.

بعد الحلوى، استغلت لحظة حملت أمها فيها الصحون إلى المطبخ كي تلتصق به وقرَّبت كرسيها بفظاظة.

تظاهر باكتشافه الوقت المتأخر، صرخ أنه أقسم على تحرير جيرمان من دوره كمربية قبل منتصف الليل.

همهمت ألبانّ قائلة:

ــ واأسفاه! وكم إيزيس محظوظة. على كل حال، إنه لسحري جداً هذا الاسم، إيزيس. هل أنت الذي اختاره؟

ــ أجل.

ــ كان بودي أن أدعى إيزيس.

ــ ألبانّ أسم رائع.

ــ حقاً؟

ــ حقاً.

ــ وهل يُناسبني جيداً؟

من دون أن يرى كيف تصرفت، كان فمها على بعد عشر سنتيمترات من فمه. كانت ألبانّ مهووسة برغبتها في الإغراء حتى أنها لم تعد تضبط ذاتها.

قفز هيبوليت نحو خزانة الثياب في المدخل وشكر الامرأتين عن السهرة وأمسك ألبانّ من كتفيها أثناء السلام الأخير ليمنعها من الالتصاق به.

قالت بتريسيا:

ــ سأرافقك حتى المصعد.

كانت ألبانّ النشوى والسكرى من ذاتها، تدور مرات كثيرة في مكانها، وذهبت تلتقط أخر حبات الفريز على الطاولة، ثم وقد أدركت أن أمها لم تعد، اقتربت من الباب يدفعها فضولها لتكتشف ما يحدث على قرص السلم.

وقف هيبوليت وبتريسيا بالمصعد المفتوح يتناقشان بصوت منخفض.

ــ لن أبقى، بتريسيا، انحرف الوضع إلى جو موبوء وخليع.

ــ إنني آسفة. لم أتصور قط أنها ستتصرف هكذا. أنت تفهم ذلك، إنها طفلة كان ينقصها أب. لا شك أنها رأت فيك أباً بديلاً حتى أنها...

ــ كلَّا، بتريسيا، ليس أباً. اعذريني، لم تنظر إليَّ كأب. إنك واهمة.

ــ لا أستطيع أن أصدق أن...

ــ ليس للأمر أهمية، بتريسيا. فنزوة بنت صغيرة لن تغضبنا. سنرى بعضنا بعضاً بدونها بانتظار أن تنضج. إنها فتاة غرة تقنع نفسها أنها تتصرف كامرأة لأنها تسلقت على كعبين عاليين، إنها طفلة مقتنعة بأن المساحيق التي طلست بها وجهها تمنع من رؤية حبات الشباب عليه، إنها عذراء تفكر أنها باحتكاكها برجل ستصبح راشدة.

ــ إنني منهارة.

ــ كوني يقظة. إنها تعتبر ذاتها منافستك.

ــ إلهي...

ــ أرجعيها إلى مكانها، بتريسيا. إنها أجمل هدية تقدمينها لها. كرري على مسامعها أنها في الخامسة عشرة، وأنها تتفوه بترهات حين لا تتحدث إلَّا للتحدث، وأن هيجانها مثيرٌ للسخرية ولن تجذب أحداً بتصرفها هكذا.

لم تستمع ألبانّ إلى أكثر من ذلك. قفزت إلى غرفتها، تبحث حولها عما تستطيع كسره. لكنها كانت تحرص على أشيائها... من الأفضل أن تحطم ذاتها! حبات منومة، لم يكن عندها منها، كما لم يكن عندها أدوية مطلقاً. ماذا ستبلع؟ آه أجل، ماء الجافيل. لقد أخطأت والدتها حين قالت لها: «لحسن الحظ أنك لم تبلعي ماء الجافيل».

هرعت إلى المطبخ وأمسكت الزجاجة. حين فتحتها وجدت الرائحة كريهة.

لا جدوى، لن تستطيع أن تشربه. إنه سام جداً. ما العمل؟

وقد سمعت باب المدخل يصفق، استشفت أن بتريسيا ستأتي عندها لتؤنبها. الحل الوحيد هو الهرب.

فتحت باب الخدم المقفول الذي يؤدي إلى السلم الحلزوني واختفت بينما كانت والدتها تناديها من خلال الغرف.

حين وصلت إلى الشارع بذلت قصارى جهدها كي تبتعد واضعة مسافة بينها وبين هذا الحي حيث يعرفها كل واحد.

وقد قطعت ساحة آريزو، حيث سيارات تذهب وأخرى تعود من دون انقطاع أمام مسكن آل بيدرمان الذين كانوا قد نظموا سهرة فخمة، سلكت شارع «موليير». وهي تشق الهواء النضر، خُيل إليها انها تتقدم عارية في الليل؛ كانت عصابة القماش التي تلبسها كتنورة بالغة القصر وقميصها الرقيق المفتوح قد ظهرا لها فجأة رخوين بلا كيان.

حين وصلت إلى طرف شارع «دالزمبيرغ» في مدخل شارع أقل أناقة، أطلقت سيارة زموراً. استدارت. كان أربعة رجال فرحين داخل السيارة، وهم يمرون، أشاروا إليها بأنها مدفع. وقد تسلت من ذلك، اعتبرت مظهرها بشكل مختلف. في نهاية الأمر، كانت جميلة وإن كانت ترتعش من البرد. كان هؤلاء الرجال يقولون لها ذلك بلا مواربة. يا لغبائك هيبوليت!

أبطأت سيارة رمانية اللون وانطلق صوت. صرخ شبان في العشرين من عمرهم، ضاحكين، ثملين بكلمات بذيئة أطربتها. لو كانت في وقت عادي، لأصابها خوف، أما هذا المساء، ونتيجة إهانات هيبوليت المُحقرة، فكل تكريم لمظهرها يلائمها.

اقتربت من حديقة شبه بارزة تنحدر نحو المحطة. وقد نسيت هالة المكان الخطر، دخلت تحت أشجار السنديان وهي تدوس العشب الرطب.

في البدء، لم ترَ خيال الرجال، لم تلمح إلّا جذوعاً. ثم لاحظت أن الأشجار تغير أماكنها وخلصت، وهي تضحك، أنها خيالات بشرية. بقي مئة مترٍ، وتصل إلى الشارع العريض حيث تسير القاطرات الكهربائية.

فجأة، برز ثلاثة أشخاص.

ــ حسناً، حلوتي، ألا تخافين من لقاءات شريرة؟

أمسكت يد ردفيها. ويد أخرى فخذها. وأخرى صدرها. أطلقت ألبانّ صرخة.

ــ انظروا إلى تلك العاهرة. لا تلبس شيئاً على جسمها، تلبس تنورة بمحاذاة مؤخرتها، وقميصاً ليس أكبر من منديل وتغتاظ كقديسة بلهاء!

ــ اتركوني.

هوت يد قوية على فمها ومنعتها من الصراخ.

١٤

قرَّب الطبيب الابرة الدقيقة والطويلة والحادة من رأس ويم. بثانية، توقع صاحب الصالة أن المحقنة ستثقب جبينه بسهولة شأن اختراقها زبدة وتصل إلى دماغه، تفتش في السحايا. يا للهول! سيتلف السم خلاياه العصبية، فيفقد مقدراته ويتحول وجوده إلى حالة نباتية مزمنة...

تمتم الطبيب المختص بالجلد بين أسنانه:

ـ لا تتحرك من فضلك. كن مطمئناً. إنني أمارس هذا التدخل الطبي مرات كثيرة في اليوم ولم يمت أحد من ذلك.

فات الوقت للتراجع... أطبق ويم جفنيه، وهو يحرص على أن يجابه برجولة تلك العملية التي تتحملها نساء كثيرات. شعر، وهو يشد فكيه، بالفولاذ ينفذ إلى وسط تجعد جبينه. اعتراه البرد. «يا إلهي، حين أفكر أن تلك المادة تشل العضلات وأحقن بها». وجد نفسه بائساً، فالحياة تذله: ليس لأنه تلقى شكلاً جسدياً رديئاً، لكن عليه أن يناضل كي يحافظ على رداءته. فهذا التدخل المعروف «بالبوتوكس» لن يُجمِّله. لكنه يمنع بالضبط التآكل. هل وجب عليه أن يصرف أموالاً طائلة ويتحمل تلك الآلام، كي يحافظ على رأس يكرهه؟ اشتد الصداع، رغب في البكاء...

ـ لو تنفستَ؟

ابتلع ويم الهواء وأدرك أن ضيقه ناشئ عن خمود عدم تنفسه من رؤية الإبرة. فركَّز على تنفسه وتأكد من انتظامه. فأراحه هذا التفريج.

ختم الطبيب المختص بالجلد قائلاً:

ـ إن تثبيت عضلاتك يجب أن يستمر لستة أشهر أقله. والآن لنرَ ما يمكنني نفخه ثانية.

قرر ويم الاستسلام: فمهمة هذا المُعذِب الجلَّاد تقوم على الحفاظ على الوجوه أو على تصليحها.

كان ويم، منذ المراهقة، واجماً من شكله. إذا كانت الطفولة سعيدة لأنها غير مبالية، فإن سنواته الخمس عشرة قد قادته إلى أن يتفحص أمام مرآة ما حدث له:

كان الشعر ينبت في كل الاتجاهات وبشكل فوضوي؛ ففي مكان يغطيه الشعر، وفي مكان آخر ينمو وفق قدرية لا يسيطر عليها. كم من مرات، جلس إلى مكتبه ليرسم، بعض النماذج التشريحية تحت العينين، والجسم والوجه الذي يحفه، وهو يأمل بتحديد تلك النماذج، وبتركيزه عليها، أن يرغم الطبيعة على الطاعة. عبثاً... في السابعة عشرة من عمره، اضطر إلى اعتبار وجهه وهيئته نهائيين: وقد أصيب بخيبة، خلص إلى أن ذلك لن يرتقي به عالياً: وجب عليه أن يكون أكثر حيلة، وإلّا... نمّي إذاً ذكاءه وطاقته كمشوه بشع، فأصبح نشيطاً، يقظاً، مثقفاً، خفيف الظل، غنياً بقصص وفكاهات يرويها ليبهر بالمعنى الفعلي ــ أي يمنع الآخر من أن يرى.

منذ معاشرته للوسط الفني الحديث، راح يأسف لكونه عادياً وليس قبيحاً. فالقبيح، هو الذي يبدو لافتاً، فيجذب النظر والاشمئزاز والفتنة والرفض، بمجمل القول، الانفعال. ففي الفن شأنه في الحياة، يشكل القبيح تحدياً للجميل، أي داود ضد جوليات، البطل/ الضد يصبح بطلاً. إثر اندفاع حمية، فكر ويم أن يشرط وجهه بحزوز عميقة، وبآثار مرعبة تجعل وجهه لا يُنسى. لكنه، وقد جرب محاولات على صورته، خلص أنه سيشبه ناجياً من حادث، أكثر منه قبيحاً فريداً. لا يكفي أن نشق لوحة لرسام هاوٍ كي تتحول إلى قطعة فنية.

كان المختص يوخز وجهه، منذ تلك اللحظة في أكثر من موضع، كي يقوي اللحم.

ــ لا تنسَ أن تضع على وجهك مرهم (الأرنيقا). وإلّا تَكثُر البقع الزرقاء.

ــ حسناً، دكتور.

بالرغم من أن ويم لم يكن يرغب في رؤية النتيجة، فلقد وضع الطبيب مرآة بين يديه.

ــ انظر، ما رأيك؟

لم يتعرف ويم إلى ذاته، لمح أمه في مكانه. فالتدخل الجمالي قد قربه أكثر من تلك المرأة الطيبة الفلمنكية والعادية والتي تمنى ألّا يشبهها.

أبدى نقداً خفيفاً:

ــ مصقول ومستدير، إنه أكثر...

ــ شباباً.

ــ أنوثة؟

أخذ الطبيب مكان المرآة وتفحص ويم من دون مراعاة. بعد صمت دام ثلاثين ثانية، خلص:

ـ كلّا، مطلقاً!

ـ إذاً كل شيء على ما يُرام.

كان ويم يكذب ويعرف أن الأمر كذلك بالنسبة إلى الطبيب؛ مع ذلك، لم يلح، وهو يعي أنه ليس هناك حياة اجتماعية من دون جرعة قوية من الرياء.

كانت ميغ تنتظره في صالة العرض، وقد سوَّت ثلثي المشاكل التي تصادف المؤسسة. وعلى عادته، راقب العمل ثم أثنى عليها.

ـ إنك لؤلؤة ثمينة، ميغ.

وقد تأثرت المرأة الشابة، خفضت ناظرها وحمحمت بضيق. ولكي تبدو متماسكة، أمسكت صرة في حقيبة يدها وأخرجت أنبوباً مدته إلى ويم.

ـ خذ. بما أنك كنتَ على موعد عند الدكتور بيللي، فقد تحتاج إلى (أرنيقا).

تلقى الدواء وقد تأثر بكل هذا الاهتمام.

ـ شكراً، ميغ. لا شك أنك رائعة بشكل لا يُصدق. أنت التي وجب عليَّ أن أتزوجها.

نهض، وهو يفكر وكرر وهو يغادر الغرفة:

ـ أجل، غالباً في الواقع ما أقول لنفسي: أنت التي وجب عليَّ أن أتزوجها.

ثم، من دون أن يلتفت، ابتعد ليلاقي زبائن كانوا يتأملون لوحات «روتكو».

بقيت ميغ منهارة على كرسيها. كانت تلك الجملة الأخيرة تعذبها كثيراً: بما أنه لفظها بكل تلك البراعة، فلأنه يقدر أنّ الفكرة مستحيلة الحدوث! يجب ألّا يكون بينهما أي غموض أو التباس ليجازف بها. لماذا يرى الاقتران بها مدعاة سخرية؟ ماذا فيها يُثبط الشخص عن حبها؟

بعد أن أضاع ويم ساعات كثيرة مع زبائن مترددين، رجع إلى ساحة آريزو، متسكعاً. لم يكن مستعجلاً للقاء بيترا فون تاتانبوم التي ظهرت رفقتها أقرب إلى الملل خارج الاجتماعات العامة. كانت تمضي أيامها تهتم بنفسها، بجسدها وهي تمارس الرياضة، بنظامها الغذائي فتأكل حبوباً، ببشرتها وهي تضاعف عنايتها ومراهمها، بثيابها وهي تعذب خيَّاطة للمسرح؛ فإذا ما بقي لها بعض الوقت، تقتطع الصور والمقالات من الصحف قبل أن تلصقها على دفاتر شأن مراهقة مُغرَمة؛ معجبة بشخصها، تجمع كل ما يتعلق بها.

أما حديثها فيُستنفد بعد وجبتين أو ثلاث. عرف ويم الآن ما تقبل أن يُعرَف

عنها؛ أما الباقي، فلم تكن تعيش شيئاً ولا تهتم بشيء. هو الذي في منتهى البلاغة والطلاقة يشعر أحياناً بأنه لا يوجه حديثه إلّا إلى الصمت، بقدر ما كانت لا تُصغي إليه.

تبقى أوقاتهما الوحيدة المشتركة الحفلات العامة. هناك، أثناء حفلة كوكتيل، أو أول عرض لمسرحية ولاستقبال ولافتتاح معرض، كانت هي وهو يشعان فيجذبان الانتباه والثرثرة أكانت مُريبة، أو مُحرجة. بتواطئهما، كانا يتذوقان بنهم الضجة التي يحدثانها.

حين وصل ويم إلى الشقة لاحظ على مرمر المطبخ مغلفاً أصفر يحمل اسمه. في داخله يختبئ مقال من صحيفة.

فتح الورقة وتلقى العنوان كطعنة في قصبات صدره: « القذف المبكر: أتسعون لمعالجته؟».

ألقى نظرة حوله، قلقاً. من كبَّده هذه الخدعة؟ أدار المغلف وقلبه وتذكر أنه قد رآه وخلص أنه أعيد استعماله. جاء أحد ما في الشقة ودبر هذا الفخ...

ميغ؟ كيف يمكن أن تكون على علم؟ وهي لا تتدخل في هذا الحقل الخاص به، فهي مساعدة مثالية لأنها تُظهر احتراماً وتكتماً. عضو من العاملين؟ العاملون الفيليبينيون في المطبخ أو الفليبينيات عاملات التنظيف لا يفهمون الفرنسية ويتم التواصل معهم بالإنكليزية. إذاً بيترا؟ لكن بيترا تجهل هذا التفصيل الحميمي طالما لم يتضاجعا مطلقاً؛ ليس لأنها لا تحب الجنس فقط لكنها لا تبالي بالآخرين ولا تكترث لحياتهم على الإطلاق.

بانزعاج، قرأ بسرعة الخطوط العريضة التي تحدد المقال: « ٨٠٪ من الرجال الأقل من الثامنة عشرة من عمرهم هم قاذفون مبكرون. لا يعانون أي تشويه جسدي. لا جدوى للأدوية. يجب ضبط الانفعال. إقناع زوجك أنه يعاني مشكلة».

مصدر الصفحة مجلة نسائية، وهذا ما زاد قلقه. هل هي ميغ؟ بيترا؟ من المستحيل.

تابعت عيناه المقال: «القاذف المبكر يُفلت غالباً نُطفه في أقل من دقيقة بعد الولوج ومن دون أن يستطيع تأخير ذلك». أقل من دقيقة، هكذا الأمر.

سمع خطى فدس الورقة بسرعة في قعر جيبه. وصلت بيترا، بعلبة في يدها قائلة:

ــ آه، أنت هنا، عزيزي. جئت أخلط الكرياتين.

وضعت ملعقتي مسحوق في كأس، وأضافت إليه الماء ثم قامت بتحريكه.

أدرك ويم أنه ترك المغلف مفتوحاً على المرمر. لمحته كذلك.

قالت له:

ــ آه، رأيتَ المقال الذي اقتطعته من أجلك.

شحب وجهه. وهي تطرق الملعقة الفضية في كأس الكريستال، تابعت من دون أن تنظر إليه:

ــ أجل، عرفت من رفيقة في لندن أن تلك مشكلتك. عارضة الأزياء «بولِيْثي»، أتتذكرها؟ جميلة جداً، أجل. ثرثارة جداً. لا سيما حين يبدو عليها السكر. كلّا، لا تلمْ تلك البائسة، فبفضلها نحن اليوم هنا لأن هذا التفصيل الصغير جداً قد لفت نظري إليك.

شربت خليطها، وقطبت ثم أرسلت جُشأة خفيفة.

ــ بالنسبة إليَّ، ليس لهذا النوع من الإعاقة أية أهمية، وأنت تعرف جيداً لماذا. ولكن قلت في نفسي إنه بالنسبة إليك، ربما يشكل ذلك مشكلة.

احمرّ وجه ويم، وقد عجز عن الإجابة.

تابعت قائلة:

ــ أجل، كما تقول، إنه لطيف من طرفي. تجشأتْ من جديد.

ــ آه، هذا الخليط من الكرياتين، لم أعد أهضمه. يجب ان أذهب إلى نيويورك، يتحدثون عن خليط جديد له تأثير مماثل على العضلات من دون هذا الطعم الكريه. اكتشفتُ ذلك في مواقع الرياضيين الذين يهتمون بعضلاتهم.

في الوقت العادي، لو لم يكن ويم قد أهين، لكان تسلى من المشهد: المتحذلقة بيترا فون تانانبوم تكتشف الأسرار الرياضية لذوي الجمال الجسماني الضخمين، المفرطين في تناول الفيتامينات والمقويات.

أخيراً نظرت إليه بإمعان. بمجمل القول، كل ذلك لأعلمك، عزيزي، أنني أعرف ان أحافظ على سر. آمل أنك كذلك. وصل التفسير.

ــ سأترك لك ذكرى شريكة ملتهبة. وأنا، حين سأذكرك، سأفترض أنك... كنتَ رائعاً. هل اتفقنا؟

اقترحت بيترا على ويم بألا تذكر مشكلاته الجنسية إذا كان هو، في المقابل، يسكت عن لامبالاتها الخاصة بالجنس.

ــ موافق، بيترا. هذا ما سأؤكده من دون أن تضعي هذا المقال بين يديَّ.

ــ أجل، بلا شك، لكنتَ فعلت ذلك بدافع التبجح. أفضلُ أن تفعل ذلك بدافع الخوف. بناءَ عليه، غادرت الغرفة.

للمرة الثانية في اليوم، أدرك ويم أن الوجود عبثياً وبلا نهاية. كم تُبذل جهود لإخفاء الواقع الدنيء...

في مساء ذاك السبت، كانت بيترا فون تانانبوم ستُقدم عرضها في صالة «بيترودوسيان» أمام حفل أناس جمع الأكثر أناقة في بروكسل.

كان تهيب الجمهور قد جعلها مقيتة؛ راحت تصرخ بلغات مختلفة قاصدة العاملين الفيليبيين، وعاملت ميغ شأن بقرة ضخمة بلا كفاءة حين لم تحصل الأخيرة في الهاتف على المسؤولين عن الحدث وشتمت ويم بفظاظة مرهفة ولاذعة ومتكررة.

تحملا الضربات من دون أن يجيبا، بقدرية هؤلاء الذين ينتظرون نهاية العاصفة. أخيراً، أرسِلت ملحقات العرض إلى الصالة وبيترا، وقد حبست ذاتها في غرفة الحمَّام التي شكلت معبدها، أكملت استعداداتها.

حين عرض عليها ويم أن يوصلها إلى مكان الحدث، اكتفت بأن همست:

ــ لا تتصرف كزوج عجوز. سأصل وحدي إذا كانت تلك البلهاء ميغ قد نجحت في أن تحصل لي على تاكسي.

التفتت نحوه فجأة وحدَّقت إليه.

ــ في المقابل، أريد أن تلاقيني في الكواليس بمجرد أن ينتهي عرضي. هناك، تتصرف كعشيق غيور، أعطيك الحق في ذلك. فستكون تلك أفضل وسيلة لأهرب من الشبقين.

هزَّ ويم رأسه موافقاً، وهو لا يدري إذا كان عليه أن يستسيغ طريقة بيترا بتوزيع المهام بطريقة عسكرية أم يكرهها.

ترك العلية، والتحق بميغ في الطابق الأرضي الفسيح.

ــ هل أنتِ على علم بخصوص التاكسي؟

ــ أجل، لقد طلبتُه منذ ثلاثة أيام وذكّرتهم أقله أربع مرات لأتأكد من أن السيارة ستصل في الوقت المحدد.

ــ شكراً، ميغ.

ــ أتريد كأساً من الويسكي؟ (Lagavulin) عمره خمس عشرة سنة؟

ــ أعتقد أنني بحاجة إلى ذلك.

أحضرتْ له المشروب.

ــ مع قطعة من الثلج، كما تحبه.

ـ شكراً، أنت المرأة التي كان عليَّ أن أتزوجها.

لم تسعَ ميغ إلى أن تقرأ على وجه ويم الكتيم ما يخفيه هذا الفرق الطفيف الأخير: «كان عليَّ». كم من الوقت تستطيع الصمود بالقرب من رجل تحبه، وهو لا يحبها والذي ابتدأ يذكر في كل آن زواجهما المُتمنى لكنه مستحيل؟

حسب عادتها، ذهبت تلتجئ إلى المراحيض، بمعنوياتها المنهارة.

في الساعة التاسعة عشرة، وصلت بيترا شأن قنبلة، فهاجمت ويم وميغ والمنظمين، وهذا «البلد القذر بلجيكا» مع «جمهوره المُغفل» وتساءلت للمرة الأخيرة لماذا تكابد نفسها كل هذا العناء لترضي بشرية جاحدة عديمة الذوق، ثم صفقت الباب ونزلت لتأخذ التاكسي الذي ينتظرها.

تبادل ويم وميغ النظرات، وقد صارا وحدهما، شأن جمّالين بعد مرور إعصار رملي.

اقترحت ميغ:

ـ كأساً أخرى؟

أجاب ويم:

ـ ضروري جداً.

وهما يشربان بتمهل السائل العنبري اللون ذا المذاق الترابي والمدخَّن، تناقشا بأمور صالة العرض، ببعض الزبائن، بفنان جديد اكتشفا أعماله وهما يحرصان على تقديمها. لا شيء أمتع لكليهما من تلك المحادثة الهادئة التي كانت تدور عن أمورهما اليومية. لم يعد ويم يرغب في الذهاب واضطرت ميغ إلى أن تشير إلى العقارب على ساعتها.

ـ لا تفوِّت العرض.

تنهد ويم ونهض بتثاقل، هو النشيط عادة.

ـ ولا تنسَ مفاتيحك.

ـ نعم، ميغ.

ـ سأطفئ الأنوار.

ـ شكراً، ميغ، شكراً على كل شيء.

لمَّ مجموعة المفاتيح واختفى.

قطعت ميغ الطوابق الثلاثة، وأغلقت المصاريع وفتحت جهاز الأمان واستعدت للخروج.

اختفت مفاتيحها. وقد ارتاعت، فتشت في جيوبها، في حقيبة يدها، ثم خوفاً

من أن تُصفر إشارة الإنذار، أغلقت نظام الأمان ضد السرقة وشرعت في بحث منهجي عن مفاتيحها.

للأسف، حملها معه ويم عن سوء انتباه.

لم يعد لها وسيلة للخروج. طبعاً، تستطيع أن تصفق الباب، لكن كيف تقوم بتلك المجازفة في حين هناك ملايين كثيرة من اليورو للأعمال الفنية معلقة على الجدران؟ الموضوع غير وارد. عليها أن تصبر حتى عودة ويم وبيترا. وقد أمسكت زجاجة الويسكي الإيقوسي، صبتْ ثانية كأساً كاملة، وليس كمية باريزية هذه المرة، كلَّا، بل كمية فلمنكية حقيقية.

في الواقع، ماذا يُغير في حياتها إن بقيت هنا؟ لا أحد ينتظرها.

كان عرض بيترا فون تانانبوم قد فتن جمهور بروكسل الاجتماعي الرفيع.

ــ لا شيء من السوقية!

ــ إنها ثورة في الفن الاستعراضي!

ــ إنه في آن واحد الدرجة الأولى للروعة والعظمة الأنثوية، والدرجة الثانية للتلميح والإيماء والدرجة الثالثة للابتذال والرداءة.

بسماعه تلك التعليقات المتفق عليها والمألوفة، استمر ويم يشرب. أثناء العرض، أدرك انه لم يعد يحتمل بيترا؛ حتى هيئتها كتمثال منحوت لم تعد تجذبه: كان يعرف كل تدريب لعضلاتها الذي يخطط أشكالها، ويستشف العرَق الذي يخفيه جلدها المطلي بالمساحيق. فتحت بطنها المسطح بشكل مثالي، كان يشعر بجهودها لتدخل أحشاءها.

كما كان متوقعاً، مثَّل ويم كلاب الحراسة أمام مقصورة الفنانة، ثم صفّى المادحين واحداً تلو الآخر محدقاً إليهم بعين عدوانية وبما أن تلك الملهاة تخدم سمعته كذكر ينجح في كل شيء، فلقد نفذها ببراعة.

لم يستسلم للملل إلَّا حين وجد نفسه وحيداً في السيارة مع بيترا التي وقد انشرحت من نجاح العرض، كانت ذات مزاج ثرثار، وهو حدث استثنائي.

ــ عزيزي، في أي سن يجب أن أتوقف؟ ثمانية وثلاثين، هذا ما قررته.

ــ ستكونين كذلك رائعة في الثامنة والثلاثين.

ــ هذا بالضبط ما أقوله: سأنهي حياتي الفنية وأنا في قمة جمالي. لا أقبل أية صورة عني وقد ضعفت. إن ما لا يطاق بشكل وافٍ هو رؤية صور طفولتي ومراهقتي تنبثق هنا وهناك.

ـــ ماذا ستفعلين حين تتوقفين؟

ـــ يا له من سؤال! إذا توقفت، توقفت. أوقفتُ كل شيء. الوداع النهائي!

ـــ لا أفهم.

ـــ أنتحر، عزيزي.

ـــ بيترا...

ـــ طبعاً! إن أسطورتي كي تكون كاملة، تقتضي نهاية مأسوية.

ـــ أتمزحين؟

ـــ كلّا أتكلم بكل جدية. الموت وحده سيحَوّل حياتي إلى مصير.

ـــ انتظري حتى يأتي الموت.

ـــ لن أقبل مطلقاً الانحطاط، ليس بعد كل التضحيات التي فرضتها على نفسي. في الثامنة والثلاثين، أقتل نفسي، قررت ذلك منذ زمن طويل.

ـــ بيترا، أتوسل إليك أن...

ـــ انظر تلك المسكينة كريتا كاربو: كانت ذكية بإيقاف تصوير أفلام لها وهي في تمام كمالها لكنها كانت جبانة باستمرارها في العيش. هل رأيتَ الصور التي سرقها الصحفيون في أسفل بنايتها، في نيويورك، حيث نكتشف وجهها الرائع وقد هده الزمن؟ يا للعار. أما أنا، فسيكون عندي الشجاعة.

سكت ويم. كانت بيترا تثير غيظه حتى أنه كاد يأسف أنها لم تبلغ بعد ثمانية وثلاثين عاماً كي يتخلص منها.

ـــ اطمئن، عزيزي، أكون قد سبق ونشرت مذكراتي. كي أمنع أن تُقال سخافات عني. على كل حال، أفكر في كتابة بضعة سطور ودودة جداً عنك.

ـــ شكراً، بيترا. هذا يؤثرني.

ابتسمت ابتسامة خفيفة ساخرة. لم يكن جوابه ما كانت تنتظر. ألحت إذاً:

ـــ وأنت، هل ستكتب يوماً مذكراتك؟

ـــ بالطبع، بيترا. حين التقى رجل فنانة مثلك، فإن الناشرين يطلبون أن يكتب مذكراته. لا تخشي شيئاً.

برضى، ختمت قائلة:

ـــ شكراً.

وصلت السيارة إلى ساحة آريزو التي كانت مسدودة بسبب حفلة فخمة تُقام عند آل بيدرمان. كانت النساء بثياب السهرة الطويلة والرجال بطقوم رسمية

يدخلون إلى القصر المضيء حيث تتناهى أنغام تعزفها فرقة وترية.

حرص ويم، أدباً، على أن يشرح إلى اللامبالية بيترا هدف هذا الحدث:

ــ جارنا، المفوض الأوروبي زكاري بيدرمان، وهو مختص بالاقتصاد ذو شهرة عالمية، سيُعين رئيس وزراء بلجيكا.

ــ أجل، أجل، إنني على علم.

ضبط ويم صرخة مفاجأة. هل كانت تتبع الأخبار السياسية؟ هل أساء الحكم عليها حين ظنَّ أنها تكتفي بقراءة الأوراق التي تتحدث عنها؟

ــ هل أنت مدعو، عزيزي؟

ــ كلّا.

ــ لماذا؟

ــ لا أحرص على أن أحمل أية علامة لانتماء سياسي.

ــ اتصل هاتفياً، أود أن أذهب إلى هناك.

أعطته بيترا هذا الأمر كمن يرمي عنواناً إلى سائق تاكسي. ارتجف غيظاً.

ــ إنني آسف، بيترا، لست معتاداً على أن أتسول دعوات.

ــ إنك وضيع، عزيزي.

لم يصدر أي رد فعل من ويم على الإهانة. فالشعور بالراحة الذي غمرته به أقداح الكحول الكثيرة قد خفف من غضبه نحو بيترا.

حين وصلت إلى الشقة، لبست معطفاً فخماً من ريش النعام وأعلنت له:

ــ إنني ذاهبة إلى ذلك الاستقبال.

ــ من دون دعوة؟

ــ أشك في أن يمنعوني من الدخول. اعلم أنني منذ سنوات لا أدعى إلى أي مكان، ويجري في كل الأماكن. بالطبع، لن تأتي؟

أجاب ويم:

ــ طبعاً.

رفعت كتفيها واجتازت الباب.

اقترب ويم من النافذة وتسلى بمتابعتها بعينيه أثناء عبورها الساحة. بجلال وعجرفة، شأن ملكة في المنفى، صعدت السلم وتناقشت مع الخدم، ثم دخلت.

علَّق ويم قائلاً:

ــ ابقِي هناك.

وهو سعيد، بحث عن ويسكي (Lagavulin) فلم يجده، عثر على ويسكي (Jameson) صب قدحاً ممتلئاً وهو يصغي إلى «دوك إيلنغتون».

بعد ساعة، وهو ثمل لكنه خفيف، صعد إلى العُلية وارتمى على سريره.

هناك، اصطدم بجسد. وقد ارتاع، أضاء المصباح الذي هو بجانب السرير واكتشف ميغ، السكرى، تنام على الفراش.

تسلى من ذلك، فتأملها. كان لحمها الوردي والغض والمكتنز والأملس يدعو إلى المداعبة. اشتم شعرها الذي تفوح منه رائحة التفاح الحامض، وهي رائحة مدوخة. أدرك، وهو مندهش، أنه يرغب في المضاجعة.

انتصب واقفاً، وقد قرر أن ينزل ثانية حتى أريكة الصالة.

استدارت ميغ وفتحت عينيها، فاكتشفته.

قالت وهي تبتسم:

ــ لقد أسرفتُ في الشرب.

أجاب ويم بغبطة:

ــ وأنا كذلك.

أمسكت رأس ويم بكلتا يديها ومن دون أن تفكر، أخذته إليها وقبّلته.

أجاب على تلك القبلة بابتهاج. تلامس جسداهما.

حين تبادلا النظرات انفجرا بالضحك. وفق فكريهما اللذين حررتهما الكحول من كبتهما، رأيا أنهما لا يرتكبان شيئاً جسيماً أو هاماً، كانا يلعبان على بعضهما بعضاً حيلة ظريفة. على كل حال، كانا متفاهمين بروعة...

فمن ملاطفة إلى ملاطفة، عرّى ويم ميغ ثم تعرى هو أيضاً بكثير من الضحكات وداعبها ببطء. وكذلك ببطء دخل فيها. فاستسلمت.

بدأ ويم يطارحها الغرام. لم يخامره هذا الشعور مطلقاً؛ هو الذي، عادة، يتعب بسرعة، قد تحول إلى حيوان مرن يتموج في جسد الأخرى، فيضاعف الأوضاع لينوع الاتصالات اللذيذة.

تركت ميغ ذاتها يفعل بها ما يشاء، وهي سعيدة باكتشاف عشيق رائع.

بعد عشرين دقيقة من الضمات العذبة، شعرت بحرارة كبيرة تجتاحها.

ــ سوف... سأبلغ ذروة المتعة.

لم يُبطئ ويم ولم يسارع، اكتفى بمتابعة الحركة التي جعلتها في منتهى السعادة، برهافة ومن دون توقف.

صرخت من النشوة وضمته بذراعيها، تعبة ومتلألئة.

خرج ويم من جسدها. للمرة الأولى، كان الذكر الذي يؤَمن لذة للأنثى. وإن خدم امرأة وقدم لها المتعة، فلقد شعر بقدرته. تلك هي السلطة القصوى: أن يضبط ذاته.

همس لها:

ــ جاء دورك لتمتعيني.

حينئذٍ جثت ميغ على يديها ورجليها وأتاحت لسيدها ولمعلمها أن يصل إلى النشوة.

١٥

كان البث التلفزيوني قد ضرب رقماً قياسياً بعدد المشاهدين ــ أدركت القناة ذلك من سيل الرسائل الإلكترونية والنداءات الهاتفية التي تدفقت أثناء النقل المباشرــ لأن زكاري بيدرمان، فضلاً عن أن الأمة ترى فيه الرجل القادر على السيطرة على الأزمة، فلقد كان يتمتع بموهبة إثارة اهتمام المشاهدين. فأمامه، سواء أكان المشاهد أمياً أو حاصلاً على أرفع الشهادات في العلوم الاقتصادية، فإنه لا يغير القناة.

كان يُطَمئِن. ويعود ذلك ليس لما يقول ولكن لما تعبر عنه لغة جسده. كان قوي البنية، متجمعاً على ذاته، عريض المنكبين، ثخين الرقبة، فيبدو كأنه حيوان نادر، متكور على نفسه قبل أن يقفز. قليلة هي العناصر التي تجعله يختلف عن رجل الستين الثقيل لكن هذا القليل يغير المعطيات. كانت يداه الصلبتان، البارزتا العضلات، القادرتان على كل شيءــ على أن تمسكا وتقطعا، أن تداعبا أو تخنقا ــ تقفان أمام جذعه، وهما حارستا سيدهما، مستعدتان للتدخل، تستنكران، تغليان، تعلقان على الأرقام أو تدعمان القرارات. كانت رقبته تثبت القوة، فهي عريضة، صلبة، تقطعها عروق ظاهرة؛ إنها مدخنة ترسل الطاقة من الجذع إلى الدماغ. أما عينه وقد تحولت إلى نصف قمر بسبب الجفن الثقيل فكانت تُخَدِّر بفضل زرقتها البحرية التي تميل إلى لون الرماد الفولاذي؛ فهي جامدة، ثم تحدق إلى اتجاه آخر من دون أن يراها أحد تتحرك؛ كان البؤبؤ يخضع لإيقاعه الخاص، غير مبالٍ بالإغراءات الخارجية. وبينما يُظهر الشعر بياضاً ناصعاً، كان الحاجبان السوداوان يشهدان على شباب متقد وحيوية كاملة. أما الفم، فإما أن يتهدل، ساخراً، وإما يرتفع عند الزوايا ويرسم ابتسامة وحشية، بل نهمة، شأن شفتي الذئب. كان زكاري الضاحك يختلف عن زكاري المفكر، وهذا التناقض يسحر. كان تعارضاً حياً، فهو مثقفٌ من المستوى الرفيع يقبع في جسد وحش.

كانت الصحفية التي تُجري المقابلة، متأثرة بتلك الجاذبية، رغماً عنها، وإن كان يرافقها في صالة التحرير، فريق من زملائها الصحفيين، فلقد تهيأت لأن تظهر مُهاجِمة، لم تستطع خلال الجدال، أن تمتنع عن شرب كلمات محدثها؛ وفي بعض

الأحيان، قد يحدث أن يحمر وجهها حين يثني عليها عن سؤال طرحته. تدخّل، فيما بينهما، نوع من التوتر الشهواني، وهو توتر كانت تعانيه، أما هو فكان يضبطه. على كل حال، كانت الرسائل التي تصل بالإنترنيت تُظهر أن المفوض الأوروبي لا يثير الصحفية وحدها؛ تدفقت تصريحات غرامية ملتهبة.

أي سحر يستعمل هذا الرجل الذي لم يكن دمياً ولا جميلاً ليروق هكذا؟ كان يُظهر للصحفية أنه لا ينسى مطلقاً كونها امرأة، حتى في مناقشة بالغة العمق، وفي أشد الهجاء قوة؛ كانت بعض الخطوط على وجهه تقول بحمية: «فلننتهِ من هذا النقاش الذكي، لدينا ما نفعله معاً أفضل من ذلك». بالرغم من حديثه إلى عقلها المثقف، فلقد كان يوقظ عند محدثته في غياهب الدماغ، ذاك القسم المرتبط بظلام الغريزة الذي يبحث عن الراشد القادر والحامي، والذي ستكون بذرته خصبة، عن القائد الذي سيؤمن لها الطعام والأمان والارتباط والخضوع. فتحْتَ طقمه المؤلف من ثلاث قطع، والمقصوص على قياسه، وخارج الخطاب الاقتصادي العقلاني، كان ذَكَر كهوف العصر الحجري (Neandertal) يتوجه إلى أنثى (Cro-Magnon).

أما الرجال، فكانوا يرون فيه قائداً أكثر منه منافساً، زعيماً طبيعياً. من دون التواءات سياسية، لا يتصنع أي تواضع كاذب، مقتنعاً بالاقتراحات التي يقدمها، كان زكاري بيدرمان يُشع شأن الزعيم المُرسل من العناية الإلهية الذي ينتظره العصر المضطرب.

في صفوف الجمهور الذي يشغل الاستوديو، كان ليو أدولف ورفقاؤه في الحزب يتبادلون التهاني عن هذا البرنامج: مما لا شك فيه أنه سيسمح لهم أن يفرضوا زكاري بيدرمان على رأس حكومة يُقال عنها «تقنية» تدير وضع الأزمة. وإذا كان بعض المحتجين يعترضون على هذا الاختيار، فبعد نجاح هذا الأداء لن يعود هناك إلّا فاقدو الصبر.

بقي من البرنامج ثلاثون ثانية: وصلت الصحفية إلى الموضوع الذي كان يراود فكر الجميع:

ـ سيدي المفوض الأوروبي للمضاربة، لم تعد كفاءتك تحتاج إلى دليل ويتحدثون عنك لتشغل أعلى مناصب المسؤولية للبلد. ما رد فعلك؟

ـ في خمسين عاماً، لم يكن عندي إلّا فكرة ثابتة واحدة: خدمة بلدي وأوروبا.

ـ إذاً، أنت مستعد؟

ـ منذ البارحة مساءً.

ـ عفواً؟

ــ أمس مساءً، حصلت على الموافقة من زوجتي روز. سمحتْ لي أن أكرس وقتي وطاقتي لخدمة الوطن.

ــ ألن تكون غيورة؟

ــ وعدتني أن تتحلى بالصبر ولكن، من أجلها، من أجلكم، من أجلنا جميعاً، يجب أن أنجح بسرعة.

ابتسمت الصحفية، مسرورة أن ينتهي البرنامج بنبرة شخصية تسبغ على العرض طابعاً إنسانياً وذلك بتكريم الزوجات. حين بدأت نهاية البث تُعرض على قرع الموسيقى، تشكرته بفيض:

ــ أحسنتَ، كنتَ رائعاً.

ــ بفضلك، آنستي.

كانا كلاهما لا يفكران إلّا بمصالحهما التي التقت، في تلك الساعة: فمدعو لامع يعني برنامجاً تلفزيونياً لامعاً.

وقد ترك كرسيه الصغير، قبل أن يهرع الجمهور ليطلب تواقيع، أغلقت الصحفية مذياعها وهمست في أذن ضيفها على حدة:

ــ إنني صديقة قريبة من كارمن بيكس.

بذلك أوحت إليه أنها لا تجهل شيئاً عن علاقته الملتهبة مع الإسبانية. سجل الرسالة، أثنى جفنيه وأضاف بصوت مخملي:

ــ إنك تحسنين اختيار صديقاتك، آنستي.

في تلك اللحظة، فهمت الصحفية إغواء هذا الرجل: إن ما كان يُجمِّله، هو أنه يجد النساء بالغات الجمال.

في ذاك المساء، أعدت روز بيدرمان استقبالاً في قصرهما ساحة آريزو للاحتفال بالسير نحو السلطة. اعتبر الموالون أن البرنامج التلفزيوني الأكثر متابعة في بلجيكا يمثل نصراً سياسياً لزكاري بيدرمان: في الأيام القادمة، سيبدأ بدراسة القضايا الوطنية باعتباره رئيساً للوزراء.

في مدخل قصرهما، كانت تتلألأ روز وهي تستقبل أوائل ضيوفها لأنها كانت مقتنعة دائماً أنها ستزهو هنا، ذات يوم، على ذراع الرجل الأكثر نفوذاً.

حين وقعت في غرام زكاري، أحست عشقاً صادقاً لكنه يخدم طموحاتها المعلنة: فهذا الاقتصادي اللامع سيأخذها إلى العلياء.

كانت روز من هؤلاء النساء اللواتي يرين السلطة شهوانية. ففي رأيها، يجب

أن يظهر الرجل بارعاً في كل شيء، في السلطة والمال والثقافة والذكاء والجنس. إن هؤلاء الذين عرفوا زكاري في الماضي يصفونه بأنه موهوب جداً، مولع بالفنون وانفعالي، أقرب إلى الكسل؛ في تلك الفترة، لم يكن يستثمر مواهبه، يحب أن يتمتع بالحياة. لقد غيرته. لأنها اكتشفت فيه إنساناً خارقاً، فسعى كي يصبح كذلك. فمنذ عهد روز، بفضلها أو بسببها، كان النجاح هاجسه، أراد أن يكون الأفضل، متمنياً أن يبرر النظرة التي تلقيها عليه. وبالمناسبة، لا شيء يغبط روز أكثر من صديق قديم لزكاري يقيس هذا الشوط الذي قطعه ويهنئها على تأثيرها عليه. لكنها تكاد لا تشك بالأضرار الجانبية لطموحهما المشترك.

وبما أنها لم تكن تتخيله إلّا في القمة ــ أفضل رجل اقتصاد، أفضل سياسي، أفضل رجل دولة ــ، ترك العاطل من العمل المكان إلى كدّود، وهاوي المتع تحول إلى مسؤول لامع. فداخل زكاري، مع الضغط جاء الإكراه. كان ينخره خوف متفشٍ، وهو ألّا يكون على مستوى المسؤولية. كان هذا الرجل الفاعل والنشيط، يقع في الكآبة، مرات كثيرة في اليوم؛ لم يعد يعرف التعب، بل القلق وحده. والطريقة الوحيدة لمحاربته تكمن في التمتع؛ فاللذة تطرد أفكاره القاتمة وتهدئه، بفضل موجات النشوة التي تشع في جسده. في البدء، كانت تلبي روز حاجاته الملحة؛ لكنه، بقدر ما نمت قدرته على العمل والنجاح، زادت متطلباته الجنسية. فصعوده الصاعق قد دفعه إلى الزنى وإلى التردد على العاهرات، ثم إلى الطلب أحياناً، بطريقة مباغتة، أية واحدة من الجنس اللطيف.

كانت روز تجهل تماماً هذا الهيجان، بل إذا جازف أحد أمامها بتلميح، نكرته. كيف لزوج يضاجعها بكل هذا القدر ــ مرة أو مرتين في اليوم ــ يمكن أن يكون له حياة موازية؟ بالإضافة إلى ذلك، فإن ثقتها بالقدر كانت تدفعها لأن تثق بزكاري؛ فبحجة أنه لم يرتكب أي خطأ في سباقه نحو السلطة، تصورته فاضلاً بشكل شامل. فالمرأة المخدوعة أكثر ما يمكن في بروكسل كانت تُظهر إذاً اطمئناناً مزدهراً لتلك التي تظن نفسها الوحيدة...

كانت غرف استقبال ساحة آريزو تزداد امتلاءً في كل لحظة. فمن مفوضين أوروبيين، إلى كبار موظفي الدولة، إلى الوزراء والطامحين لتولي منصب وزير يتهافتون إلى الحفلة ليقولوا فيما بعد «لقد كنتُ هناك».

كانت روز وزكاري قد عدلا عن الوقوف في المدخل لاستقبال كل مدعو. فعهدا إلى العاملين أن يوجهوا القادمين الجدد، وكانا يمرّان، منفصلين، من مجموعة إلى مجموعة.

تعجب زكاري بصوت منخفض موجهاً حديثه إلى شخص في الستين من عمره لطخت الكحول أنفه:

ـ ماذا تفعل هنا؟

ـ فوجِئتَ برؤية ديديه؟

قطَّب زكاري بيدرمان. كان ديديه من مدينة أنفير، بقبعته ذات الرسوم المربعة وطقمه للصيد من قماش «التويد»، يُدير كثيراً من المواخير في بلجيكا. أشار إلى روز، الواقفة عن بعد، تضحك مع ليو أدولف.

ـ يا للعجب، لم أكن أعلم أن السيدة بهذا الجمال! إذاً، تهانيَّ صديقي: عندك، بالضبط من كل الخانات، أنت.

ـ ماذا تفعل هنا؟

ـ جئتُ أشرب جرعة. تصور، سأصبحُ قريباً صديقاً لرئيس الوزراء.

ـ لا تتبجح بذلك.

ـ هيا، إنك تعرف ديديه. إذا لم يكن المرء كتوماً، في مهنتي، يتدهور. كلَّا، مررتُ لأنني كنت أقول في نفسي... الآن بما أنك ستستقر في العلياء، ستساعدني في مشاكلي مع الضرائب.

ـ أصحيح؟

ـ أتريد أن أشرح لك؟ يطالبونني بأربع...

وضع زكاري يده على كتفه.

ـ اسمع، ديديه، سنتحادث برجولة، من رجل إلى رجل، كي نوضح الوضع: فسواء عرفتك أم لم أعرفك، لن أساعدك. وبشكل أبسط، لن أساعد أحداً. بعد عدة أيام لن أعود أنا، لكنني رئيس الوزراء. عادل وبلا وصمات.

ـ هذا جميل ما تقوله...

ـ ديديه، إنك أول من يعتبر السياسيين « بفاسدين».

ـ حسناً، مع ذلك...

ـ حصلتَ على كلمتي النهائية، ولن أغير شيئاً. في المقابل، سأتردد دائماً على بيوتك، أدفع من دون مساومة لأن عندك فتيات رائعات. هذا وعدي الوحيد.

ديديه الذي كان سريع التأثر، اغرورقت عيناه بالدموع وتمتم فجأة مفعماً بالإعجاب:

ـ إنك رجل رائع، زكاري.

أمسك يده وهزَّها. شكره ديديه أكثر مما لو كان ساعده. هو ملك الحيلة، أمير الغش، قاسٍ كلحية تيس، كان وجه رجل نزيه يفتنه: شعر بأنه يتحدث بود إلى الملك سليمان.

حين ابتعد، ابتسم زكاري وهو يفكر أنه إذا جرت الانتخابات، فسيحصل أقله على صوت ألمع قوَّاد في بلجيكا.

حيًّا جاره الأرمل فرنسوا ـ مكسيم دو كوفينيّ، بتقاطيعه المتشنجة، وتحدث عدة ثوان معه عن مراجعة حساب المصارف، ثم حاذى مجموعة جديدة.

ألقى نظرة شمولية ليرى إذا كان جاره الشهير، الكاتب باتيست مونيه، قد تعالى عليه كعادته. إن تكتم هذا الرجل ورفضه الحياة الاجتماعية يصدمان زكاري. لماذا يعتزل هذا الروائي ذو المكانة العالمية في بيته؟ ما هي المصلحة بألّا يعاشر أحداً؟ والأسوأ، أن بعد عشرات السنين ينسى الناس زكاري بيدرمان ورجال السياسة الحاضرين هنا لكنهم يستمرون في قراءة باتيست مونيه الذي يكون قد أصبح شاهداً حقيقياً على قرنه، هو الذي لم يكن قد رأى شيئاً منه.

تنهد حين رأى شخصاً مجهولاً يقترب.

ــ طاب مساؤك، سيد بيدمران. أنا سيلفان غوميز.

ــ هل سبق أن تعارفنا؟

ــ أجل، في نادي «ميل شانديل».

لم يتحرك لزكاري رمش إثر ذكر نادي تبادل الأزواج.

ــ هل دعتك زوجتي إلى هنا؟

ــ سمحتُ لنفسي بالمجيء. أود التحدث معك.

ــ بكل سرور. أعطني خمس دقائق.

ابتعد زكاري، بانشراح، وانعزل في غرفة مغلقة عن المدعوين واتصل هاتفياً بسينجر سكرتيرته الوفية وتناقش معها.

عاد، بشوشاً، وسط البهو حيث كان ينتظره سيلفان غوميز.

ــ حبذا لو نلتجئ إلى مكتبي، سيدي العزيز؟ اتبعني.

رافق سيلفان غوميز زكاري بغير تأثر حتى مكتبه الذي يطل على ساحة الطيور. في ذاك المساء، غطى صخب الحفلة أنغام الببغاوات والدرَّات.

جلس زكاري بيدرمان خلف مكتبه الصلب وانتظر أن يتكلم الرجل.

كان هذا الأخير مرتبكاً من الصمت فحمحم وبدأ:

ــ تتساءل لماذا أتيت أزعجك؟

تابع زكاري بيدرمان التحديق إليه من دون أن يجيب.

كنتُ في تلك الليلة في ملهى «ميل شانديل» وعن لهو، أخذت بعض الصور.

كانت كلمة «لهو» تبدو نشازاً، ذلك أن مسؤولي ملهى «ميل شانديل» يطلبون أن يضع كل فرد عند المدخل كل جهاز تصوير قادراً على التقاط ذكريات؛ على كل حال، في تلك الأماكنِ الإباحية، فُرضت القاعدة للمحافظة على تستر كل فرد وإغفال هويته. إذاً لقد غشّ هذا الرجل.

ــ عندي بعض صور لك. أتريد رؤيتها؟

بقي زكاري لا يتحرك. ألح محدثه وهو يعرض صوره على شاشة هاتفه.

ــ ألا تحب الذكريات؟

ــ أفضل ذكرياتي.

دوَّى صوت زكاري الفولاذي، واضحاً، كاسراً في الغرفة الفسيحة.

كشَّر الرجل عن ابتسامة.

ــ لنرَ، من تهمه تلك الصور؟ ربما زوجتك؟

بقي زكاري صامتاً.

ــ أصدقاؤك في الحزب؟ كلَّا، بل أعداؤك السياسيون. وهم كثر.

تأمل زكاري السقف بملل. أصبح الرجل عدائياً، وبدا عليه الاضطراب:

ــ أو الصحافة، إذاً؟ أجل، تعشق الصحافة هذا النوع من الأنباء المثيرة. شرب زكاري بهدوء قدحه من المشروب الفاتح للشهية والذي كان بيده.

قال الرجل باستياء:

ــ إنك لا تساعدني كثيراً. عليك أن تسألني: كم؟

في الحال، ردد صوت زكاري من دون اقتناع:

ــ كم؟

ــ عشرة آلاف.

ــ هل هذا كل شيء؟

ــ بالنسبة إلى اليوم...

ــ آه، إنك تُطمئنني...

اضطرب الرجل، وهو متضايق. لم يأخذ الحديث المنحى المتوقع.

انحنى زكاري إلى الأمام.

ــ إنني أقترح عليك أفضل من ذلك.

مدَّ للرجل كوباً صغيراً من الفستق السوداني.

ـ أقترح عليك حبة فستق سوداني.

ـ عفواً؟

ـ حبة فستق مقابل صورك. هكذا، لن تكون قد جئت عبثاً.

وقف الرجل وقد أهين، ودار دورتين حول الكرسي، ثم، وقد استرد إلهامه، ضحك غيظاً.

ـ يبدو أنك لا تقدر إعصار «تسونامي» الذي أستطيع أن أثيره...

ـ وأنت كذلك، سيدي العزيز، استمر في مقاصدك وستتلقى، منذ الغد صباحاً، سيد سيلفان غوميز، تفتيشاً ضريبياً عن كل واحدة من مؤسساتك:

(Lafina, Poliori, les Bastonnes, Découverte asiatique)

إضافة إلى ذلك، سأسمح لنفسي بالاتصال هاتفياً بصديقي ماير، وزير المال في اللوكسمبورغ، لمجرد التأكد أنك لا تحتفظ بحسابات، وهو معروف لن يتردد في إسدائه لي، صدقني حقاً. ثم، إذا لم أكتشف مالك هناك، فسأتصل بمعارفي في سويسرا وباناما وجزر الكايمان، جنون عدد الأصدقاء في كل مكان بالنسبة إلى مفوض المضاربة، لا أحتاج لأن أكون رئيساً للوزراء.

شحب غوميز، مرتاعاً.

ـ لكن... هذا ابتزاز!

ـ من ابتدأ؟

وقد رفض الهزيمة، تبجح غوميز قائلاً:

ـ لن تخيفني!

ـ آه، صحيح؟

ـ كلَّا. لأنك تفترض أنني بلا شرف.

ـ إنني لا أفترضه، فلديَّ الدليل على ذلك.

أثار زكاري اللجوء إلى الابتزاز، بينما خلص غوميز أن بيد زكاري معلومات تعرّضة للخطر.

بلع ريقه وجلس ثانية.

ـ حسناً، أوقف التصوير.

ـ فكرة ممتازة، ليس لك أية موهبة. تفضل حبة فستق سوداني. ألا تريد؟

وقف زكاري بيدرمان وأمر غوميز بمغادرة الغرفة معه.

ـ لن أرافقك: ستجد وحدك باب الخروج.

تبخر الرجل.

انضم زكاري بيدرمان، بخطى واثقة، إلى مدعويّه، وهو يزلق قبلة إلى روز أثناء مروره.

انفصل ليو أدولف عن المجموعة حيث كان يتحدث وسطهم ليمسك زكاري من ذراعه.

ـ نجاح عظيم هذا المساء، نجاح يطيح آخر التحفّظات. تحدثتُ مع رؤساء مجموعة مجلس النواب، إنهم موافقون ليؤَمنوا لك غالبية الائتلاف. لم يعد يبقى لدينا سوى الحصول على استقالة هذا المسكين فاندربروك، وهذا ما سيتحقق في اليومين القادمين. بمجمل القول، سنشرع منذ الغد بالإجراءات التي تجعلك رئيساً للوزراء. تهانيَّ.

ـ شكراً.

خفض رئيس اللجنة فجأة نبرته وهو يدفع زكاري إلى زاوية هادئة.

ـ اليوم، هيبة السياسيين واعتبارهم قد تقلصا كثيراً حتى أننا نغامر مغامرة كبرى. على المسؤول أن يتصرف بشكل مثالي. وحتى حين يكون كذلك، فإن الشعب سيكرهه بالسرعة ذاتها التي عشقه فيها. لن ندوم أكثر من محارم ورقية. في رأيي، بعد عشرين عاماً، لن يجدوا أبله واحداً ليقوم بالعمل.

ـ إلى أين تريد أن تصل؟

ـ زكاري، أنت أملنا الأخير. إذا أخفقتَ، فإن الطبقة السياسية ستُلام. أما إذا تعثرتَ قبل أن تنجح، فسيكون ذلك أشد خطراً. وستنعدم الثقة.

ـ « تعثر»؟

ـ أقسم لي أن تتصرف بطريقة مثالية. أتحدث عن النساء، طبعاً...

انفجر زكاري بالضحك:

ـ أقسم لك بذلك.

ـ تقول ذلك لي بكل سهولة بينما من الصعب جداً أن يتغير المرء.

شعر زكاري، في قلبه، بتشنج صغير مزعج.

ـ ما أدراكَ بذلك؟ ربما أنّ تنقلي ليس إلّا تعبيراً عن طموح لم يرتوِ؟ الآن سأكون أقل حرماناً من السلطة، فسأتخلى، بلا شك، عن تلك التعويضات.

كان الرئيس مقتنعاً بأن زكاري يطلق الكلام جزافاً، لكنه، بدافع الحذر، امتنع عن الإلحاح: في نهاية الأمر، إن كان ثمة فرصة من مليون أن يكون زكاري مؤمناً بما أعلنه فإن ليو سيكون داعماً له.

ـ وإن غيرتَ سلوكك، زكاري، فإن مشاكلك تجازف بالعودة إلى الماضي.

ـ يا لك من مصاب بعقدة الاضطهاد!

ـ أخيراً، زكاري، كيف تستطيع أن تقاوم هذا الابتزاز؟

فكر زكاري في نفسه: «كما فعلتُ منذ عشر دقائق»؛ اكتفى بطمأنته:

ـ اسمع، حتى الآن، توصلت دائماً إلى مقاومة الابتزاز...

ـ كلما علا المرء، صار أكثر هدفاً.

ـ كلما ارتفع المرمى، اشتدت صعوبة الوصول إليه.

ـ أود أن أشاركك تفاؤلك.

ـ أرادوا أن يعهدوا إليَّ بتلك المهام، لأنك لا تشاركني فيها، أيها الرئيس العزيز.

قَبِل ليو الضربة، وقد اعتبرها خصومة شريفة. فمنذ خمس وعشرين سنة، يركض الرجلان سباق المئة مترٍ سياسياً جنباً إلى جنب، يتعارضان غالباً، ويتحالفان أحياناً ولا يفترقان مطلقاً. توطّدت بينهما رفقة المنافسين: فهما يحبان بلدهما، يبنيان أوروبا، يعاشران ذوي النفوذ كما يخالطان بشكل مماثل عديمي الكفاءة. طوال حياتهما المهنية، حين يُخفق أحدهما، يفكر بالإخفاقات التي ذللها الآخر؛ وحين كانا ينتصران، يتذكران هشاشة هذا النصر. وهما في الستين من عمرهما، وإن كانا مختلفين، فإنهما يشعران بخاصة بالأخوة تحديداً، أخوة جيل اجتاز الأخطار ذاتها.

كان ليو بطبعه مصالحاً، أما زكاري فمهاجماً. كان الأول يلمع في التحليل والتركيب، أما الثاني فبالابتكار. الأول يدير، والثاني يُبدع. في تلك المرحلة الفوضوية، لم يعد رجال شأن ليو أدولف يكفون: ففي ما يتعدى الحاجة إلى المدير كان الشعب يحتج إلى من هو صاحب رؤية بعيدة ثاقبة، الفنان الإيجابي والمتفائل الذي يقترح أفقاً.

ـ حسناً، عليك أن تذهب، زكاري، لتمدح كوستينر، فذلك يضع زيتاً في مجموعة الدواليب.

ـ سمعاً وطاعة، صاحب السيادة.

تابع زكاري طريقه متنقلاً من مدعوٍ إلى مدعوٍ، ودوداً، بليغاً، بسيطاً وإن كان ملكياً. كان يتصرف ظاهرياً بيسر؛ أما في أعماقه، فقد استقرت الكآبة. فمنذ حديثه مع ليو، أصبح منظور السلطة واقعياً وبدأ ينخر فيه. إذا كان مع ديديه من دانفير ومع غوميز، قد شعر بأنه يؤدي مشهداً من ملهاة، فسيوضع الآن على رأس مأساة: شؤون البلد المالية. هل سيكون قادراً على فرض الإجراءات الضرورية؟ سيضطر إلى إقناع الخادمة في أقصى البلد ببراعة تعادل براعته في إقناع النواب الفلمنكيين. أليس هذا مستحيلاً؟

شعر بحاجة ملحة إلى الجنس. روز؟ لن تترك مدعويها. بحث عن ديديه واكتشفه بالقرب من زجاجات الشمبانيا الاحتياطية.

ــ ديديه، ألديك وسائل عملك في متناول يدك؟

ــ ماذا تحتاج؟

ــ إلى الحد الأدنى.

ــ واحدة تمصك ؟

ــ أجل.

ــ إنني آسف، زكاري، لم أحضر معي أحداً. انظر حولك. ففي هذا النوع من الحفلات، ليست العاهرة غائبة، إذا أردتَ رأيِي.

صعد زكاري درجة وألقى نظرة على مدعويه. لم يسعفه الحظ، كان الرجال هم الذين لوَّحوا له، متحمسين لتهنئة بطل اللحظة.

شعر بالصداع يُرهقه. في تلك اللحظة، كانت خادمة تمشي بخطوات صغيرة أمامه. كان للشقراء القصيرة القامة مظهر الضحية، لطائر بلا جناح، وكانت تنزل إلى القبو لتأتي بزجاجات الشمبانيا.

لحق بها، من دون أن يفكر. وقد وصل بين الجدران القرميدية الرطبة، ذكَّرته رائحة الفطر المتعفن بنداوة الحمَّامات البخارية وأثارته. أسرع الخطى ليلتقي الخادمة بين صفوف الزجاجات.

هناك، أمسك بها وفرض عليها قبلة. قاومته لكنه استعمل قوته. حين نجحت بالتراجع، اكتشفت سيد المنزل واشتد هلعها.

ــ لا تصرخي صغيرتي، ومتعيني.

وهو ممسك بخناقها، أخذ يدها ولصقها على عضوه التناسلي. ارتعشت أهداب الشابة وفهمت مراده.

ــ أتريدين أن تمتعيني، هل ترفضين؟

ضمها بقوة كبيرة حتى إنها فكَّرت أنه من الأفضل أن تنصاع، وإلَّا فستموت خنقاً. وقد انحنت، فتحتْ شق بنطال زكاري وأطاعت.

بعد سبع دقائق، وقد ارتاح زكاري، شكر الخادمة. وهو يرتب هندامه، سلك السلم المؤدي إلى صالات الاستقبال.

كانت الشابة، منهارة ومشمئزة فمكثت جالسة القرفصاء، وكلها رغبة في البكاء.

خرج شبح من زاوية القبو واقترب منها.

كان أحد ما قد حضر المشهد.

انحنت نحو الفتاة امرأة طويلة القامة أنيقة، لها وجه تمثال السيدة مريم.

ــ لقد تهتُ وأنا أبحث عن المراحيض ورأيتُ كل شيء. سنبلغ عنه.

ــ كلَّا، سيدتي. سأفقد عملي.

ــ لا مجال للسكوت عن ذلك.

ــ أرجوكِ، سيدتي، لا أريد مشاكل. إذا تكلمتِ، فسأنكر.

هزت المرأة ببطء رأسها بالموافقة ثم مدت لها منديلاً.

ــ خذي، امسحي ذاتك.

حوالى منتصف الليل، كانت السهرة في أوجها، والفرقة الموسيقية الوترية تعزف مقطوعات أكثر حداثة وأشد إيقاعاً وبدأ بعض المدعوين الرقص.

كان زكاري بيدرمان يبذل جهده في المحادثات، وهو فرح. وجده الناس في قمة تألقه. كان مصورو الصحافة يطلقون أنوارهم ما إن يحاذي إحدى الشخصيات.

طلب زكاري فجأة أن يُميز روز. فشرع كلاهما بجلسة تصوير فرحة، عاشقة، صفق لها المدعوون.

وسط الهتافات، دخل بغتة ثلاثة رجال من الشرطة.

ــ اعذرونا، سيداتي، سادتي، تلقينا نداءً من ضحية عنف. خرجت بيترا فون تنانبوم من خلف ستار.

ــ أنا التي اتصلت هاتفياً.

فوجئ الناس بتلك الإنسانة الرائعة التي لم يلاحظها أحد حتى الآن: فمظهرها يتناقض مع حذلقتها البالغة. كانت حمَّالات ثوبها قد انتُزِعت وبدت تسريحة شعرها في بلبلة من تدخل لا أحد يعرف مصدره.

أشارت إلى زكاري بإصبعها، وهي ترتجف:

ــ إنه هو الذي اغتصبني.

اجتاح الحضور رعشة.

أخرجت منديلاً من حقيبة يدها وأضافت وهي تبكي:

ــ عندي الدليل على ذلك.

الجزء الرابع

يوم الغضب[١]

---

(١) Dies Irae = يوم الغضب: الكلمات الأولى لإحدى الصلوات الخمسة التي تُرتَّل في الطقس الجنائزي- (المترجمة).

تمهيد

في تلك الليلة التي أثقلت فيها على المدينة حرارة منبسطة لن تزول إلَّا مع العاصفة، كانت الببغاوات تتحدث لغتها الأصلية، تلك التي بقيت غامضة عن الناس. فتبجحها النشيط أطلق معابر صوتية بين الأغصان، وألقى عرائش من شجرة إلى أخرى، معيداً تشكيل دغلٍ في الساحة المستديرة، منذ العش الفخم الذي يسيطر عليه ببغاء (ara) حتى زورقٍ هائل من الأغصان اليابسة النحيلة حيث أقامت أسرٌ كثيرة من الدرَّات الصغيرة الخضراء. وأضافتْ تلك الضوضاء لغوها على ضبابية الأدمغة البشرية.

يجعل الناس الببغاوات تقول ما يريدونه لكن الببغاوات تقول ما تريد. ماذا تشرح ببغاء حين تتحدث؟ وعمَّ تعبر ببغاء حين تسكت؟

حيث توضع الببغاوات في أقفاص الحضارة، يمكن اعتبارها قروداً صوتية ـ إلَّا إذا قدَّرنا القرود على أنها ببغاوات بهلوانية.

لنكفَ عن النظر إليها بعيني الإنسان.

فهي تشي وتقوقئ وتلغو، ثم، فجأة، تحترم دقيقة صمت. ينطلق الضجيج وتختلط به، من هنا وهناك، نتف من الفرنسية والبرتغالية والإيطالية. هل هي أصداء جملنا تنتجها من دون أن تفهمها، أو تكشف عن قدراتها الاستثنائية؟ أذن مرهفة، لغويون ممتازون، يصلحون لأن يكونوا عملاء مزدوجين، قادرين على التلاعب بلغة الناس وبلغة الطيور. لماذا نحن مقتنعون أننا متفوقون عليهم، نحن الذين نمشي على قدمين بلا ريش وبلا ازدواجية مفردات؟

حين يستعملون الفرنسية، هل يوجهون كلامهم إلينا فقط أم يتابعون النقاش فيما بينهم؟ ربما يتجسسون على الأفعال البشرية ويفضحونها وينتقدونها، باعتبارهم حراس الشوارع الثرثارين، وألسنة السوء ذات الرشقات السامة...

كلما تردد المرء على ساحة آريزو، ازداد اقتناعاً بأنه يشق طريقاً في السرِ والغموض. فاسم تلك الساحة في حد ذاته يعود إلى ما لا يُصدق لأنها تكرم راهباً

بينديكتي، يدعى غي آريزو، وهو الذي ابتكر نظام التدوين الموسيقي ليضع حداً لضبابية النقل الشفهي. كان يقول: « إن الذي يُنَفِّذ من دون أن يفهم ليس إلّا حيواناً. ففي الموسيقى، كان غي آريزو قاتلاً للببغاوات. والتكرار لا يكفي، أراد وضع حدٍ للتقليد وليسمح لنا أن نحلل وندَوّن ونكتب. حوالى العام ألف، سمَّى العلامات الموسيقية:

... ut, ré, mi, fa, sol, la

بأية سخرية قررت الببغاوات والدرَّات بالضبط أن تستثمِر تلك الحديقة الصغيرة؟

في تلك الليلة، كان هناك أناس بقدر عدد الطيور. بدا الجو على وشك الانفجار. ثمة شعور بأن شيئاً ما سيحدث.

«ولكن ماذا؟ صرخ ببغاء رمادي من غابون. ولكن ماذا؟»؟.

١

أدركت ديان، ما إن سمعت الأصوات، أن الأمر ليس مجرد لعب. فحولها، وما وراء الأشجار والمروج، تضج المدينة بصخب متموج يحسبه السكان صمتاً. لكن نداء الألم كان يشق الليل.

بالرغم من العتمة وبالرغم من جزمتيها بكعبين عاليين يعيقان ركضها وبالرغم من تموجات الأرض ــ حطب، تلع، جذور ــ وفجوة الغابة التي تعترضها، نزلتْ بسرعة إلى المكان الذي تنطلق منه الصرخات.

بين أشجار الكستناء، ميزت ثلاثة أشباح كثيفة تجلس القرفصاء على فتاة طُرحت أرضاً. كانت الضحية تقاوم بكل قواها، وهذا ما كان يثير الرجال، وقد أسكرتهم الضربات التي يتلقونها وهم مستسلمون إلى متعتهم. كان أحدهم يمسك رأس الفريسة ويحاول أن يكمم فمها بذراعه التي تبعده بوحشية. ثمة معركة. انتشرت رائحة الدم والجنس. أدركت ديان فوراً جسامة الخطر. فلكل معركة مخرج منها! وبما أن ميزة النضال تكمن في الوصول إلى غايته، يمكن الخشية من أن تلك المجابهة قد تؤدي إلى الموت.

من دون تردد، انقضت على المغتصبين. وحده، الذي أمسك الرأس، رآها آتية لكنه ما كاد يناديها حتى ضربت ديان برِجل فظة رقبتي الآخرين. فتدحرجا على الجنب، وقد فوجئا، متألمين، صوبت ديان ضرباتها على أعضائهما التناسلية. فصرخا بشدة، ثم ركنا إلى العشب وهما يئنَّان.

أما الذي بقي، فعضته الشابة، حينذاك خار صارخاً وهو يسحب يده، وهذا ما أتاح لديان أن تسدد له لطمة على أنفه.

ذُهِل الرجال الثلاثة، المنطرحين أرضاً، من أن تهاجمهم امرأة واحدة، فاستعدوا يدفعهم زهوهم الذكوري كي يردوا عليها.

حينذاك دوَّى صوت صفارات الإنذار من الشارع العريض من المستوى الأدنى. كرد فعل، تكوروا على سيقانهم مولين الإدبار.

ابتلعهم الظلام.

توقفت صفارة الإنذار.

لم يستطع قلب ديان أن يبطئ في خفقانه. كانت ترغب في أن تقاتل، وأن تستمر في الضرب.

قطع أنين وحشيتها المستعرة. كانت الضحية تتأوه.

انحنت ديان واكتشفت الشابة الفتية. كانت ألبانّ تبكي والكدمات تغطي ساقيها في حين كانت شفتاها تدميان وجسمها يختلج، وهي تحمي عانتها بيد وتخفي وجهها باليد الأخرى.

تصرفت ديان بحكمة فلم تُعِد المراهقة في الحال إلى أمها.

بالرغم من المدعوين الذين كانوا يفدون إلى ساحة آريزو لحضور حفلة استقبال آل بيدرمان، نجحت ديان في صف سيارتها في شارع موليير، وفي اصطحاب ألبانّ متخفية تحت غطاء ثم صعدت إلى بيتها. لن يزعجهما جان ــ نويل لأنه كان في مهمة في مدينة شتوتغارت.

في الشقة، ساعدت الشابة على ترتيب وضعها.

وقفت ألبانّ تحت رشَّاش الماء الحار، عاجزة عن الحراك، زائغة وتستعيد عافيتها معاً، كما لو أن الماء سيخلصها مما حدث لها تواً، وسينزع دفقه عن جلدها ذكرى المعتدين عليها، وسيعطيها هذا الاغتسال ثانية نقاءها المفقود. في هذا الجو الرطب، استطاعت أن تبكي أيضاً.

وراء الباب، استبد القلق بديان. لقد حبست الشابة نفسها ــ وكان ذلك طبيعياً ــ وخشيت ديان أن ترتكب الفتاة بادرة مشؤومة. وإن كانت قد رفعت في دقيقة كل ما هو قاطع ــ من آلة حلاقة، مقص ــ لكنها كانت تعرف أنه يجب ألا تسيء تقدير إبداع فتاة يائسة.

إن ما كان يطمئنها، هو سماع نواح ألبانّ بانتظام: كانت تلك الشهقات تثبت لها أنها على قيد الحياة.

بعد ساعة، توقف الحمّام الرشَّاش.

سألت ديان:

ــ هل أنت على ما يُرام؟ أتريدين أن تشربي شيئاً ساخناً؟

جاءها «نعم» ضعيف.

ظهرت ألبانّ، ملتفة بمئزر حمّام، ومنشفة حول رأسها. طمأنت العمامة الإسفنجية ديان: إذا كانت الشابة تفكر بشعرها، فهي لا تريد ترك هذا العالم.

جلستا في المطبخ حيث أعدت ديان كأساً من الليمون والماء الساخن مضافاً إليها كمية وافرة من (الروم الكحولي).

روت ألبانّ محنتها. كان الأمر صعباً عليها. فالذهول والغضب أوقفا قصتها مرات كثيرة. وفي أوقات أخرى، كانت الشهقات تخنق المراهِقة.

أصغت إليها ديان ثم طلبت تفاصيل. بدا لها رئيسياً أن تصوغ ألبانّ بكلماتٍ الاعتداء عليها، وهي وسيلة تساعدها إن لم يكن في السيطرة على هذا الاعتداء، فإنها تسمح لها بأن تألفه وأن تقتلعه من العنف الرهيب بإعادة صوغه في نظام اللغة.

أنهت ألبانّ قصتها، أثناء الكأس الثانية.

شعرت بارتياح بهيمي، أقرب إلى الخدر: صاغت كل شيء لكنها لم تتخلص من الهول. كانت تعاودها الصور والأحاسيس، ممزقة لحمها.

ــ هل تريدين رؤية طبيب؟

ــ لست أدري.

ــ سنناقش ذلك مع أمك.

إثر ذكر أمها، فقدت ألبانّ شجاعتها فانهارت.

صرخت ديان بتعجب:

ــ ماذا يحدث؟

ــ أمي... ستتألم حين تعرف ذلك... أوه...

ساعدت ديان الشابة وحثتْها على التفكير والتعقل:

ــ ألبانّ، لا تخلطي الأمور. لن تتألم أمك أكثر منك.

ــ بلى!

اكتشفت ديان أن الصبية صادقة. وقد كانت مفاجأتها كبيرة لأن تلك الملاحظة قد أرجعتها عشرات السنين إلى الوراء حين كانت هي تلك الصبية وأرادت أن تحمي أمها من قساوة الحياة وصعابها. فالبنت المُحِبَّة تجابه ألمها لكنها تأبى أن تعذب والديها. رتبتْ تلك الذكرى في درج المشاعر الميتة وأخذت ألبانّ إلى خزانة ملابسها. وبما أن الشابة لا تستطيع أن تلبس ثانية ملابسها الممزقة، فلقد وجب إكساؤها قبل أن تعود إلى بيتها.

كفت ألبانّ عن كونها شهيدة لتندهش عدة لحظات. نظراً لأن ديان الغريبة الأطوار والمتقلبة المزاج كانت تعشق أن تلعب في مشاهد متنوعة، كان هناك كل شيء وعكسه في قلب خزانة ثيابها، من جلد أو قماش «التويد» وصوف «الأنغورا» أو القماش الكاوتشوكي، بدءاً من طقم البرجوازية الخشن إلى زي الممرضة المثير، من دون نسيان اللباس (hippie) أو الفستان الضيّق اللمّاع. بدت خزائن ملابسها

شأن غرفة ملابس مسرح، أو خزّان إنسان تحولي متنكر أكثر من كونها خزائن امرأة مقيمة في مدينة بروكسل.

اختارت ديان بنطال جينز وكنزة عريضة ثم، صحبتها عند والدتها، وقد أمسكت ألبانّ من يدها.

بعد نصف ساعة، حين غادرت شقة بتريسيا، أحست حزناً أقرب إلى الارتباك والضيق، ولد من سؤال طرحته ألبانّ: «ماذا كنتِ تفعلين هناك؟». بالطبع، لم تستطع ديان أن تكشف الحقيقة فارتجلت رواية عن الموضوع تقول: «كنتُ أسير في سيارتي، فتوقفتُ لأدخن سيجارة، ونافذتي مفتوحة». صدّقت الأم والبنت الكذبة وهما تصرخان: «لحسن الحظ...».

إلّا أن ديان لم تكن خرجت لتدخن. كانت تجرجر قدميها في حديقة «فورست» وهي منطقة مشهورة بخطورتها، لأنها كانت تتمنى، ذاك المساء في غياب زوجها، أن تجري في تلك الحديقة لقاءً مشتبهاً فيه. في الواقع، كانت تتسكع هناك لتعيش الحدث الذي أتى على تحطيم الشابة. هي، بمحض إرادتها! أيمكن الاعتراف بذلك، أيمكن سماع ذلك بشكل خاص؟ كان من العسير عليها أن تفهم ذاتها هي أيضاً...

فجأة، أدركت أنها مرهقة وقد استنفدت قواها. لاحظت، وهي أمام ألبانّ، أنها قد عاشت كل شيء، وخبرت كل شيء، واستهلكت كل شيء. فبحثها عن كل ما هو جديد، عن أقصى ما يمكن، عن الخَطِر قد قادها إلى نقطة من الإنسانية ـ أو اللاإنسانية ـ الحرجة حيث كانت تمارس التهكم الشامل. بطبعها الساخر، كانت تلهو بما يُفزِع الآخرين. هل لا يزال لديها بعض الإحساس؟ ألم تُضعِف انفعالاتها؟ حتى العنف لم يعد يبدو لها اعتداءً بل لعباً، ما دامت تحوله فوراً إلى إخراج مسرحي. فكل حدث يصبح طقساً وهي ممثلة صامتة للطقس. «إنني عدسة أراقب تصويري. أتحول إلى الحارس الليلي الذي يلهو وهو خلف شاشاته بمراقبتي في أوضاع غريبة وشاذة. في الواقع، لم أعد أحيا، بل أنظر إلى نفسي وأعيش».

من كانت؟ تلك التي تمضي أكبر وقت خارج ذاتها منه داخل نفسها؟

حين قطعت ديان ساحة آريزو، أحست بلبلة مختلفة. وإذا كانت قد شعرت سابقاً بنفاد صبر مرح ينبعث من المدعوين الذين كانوا يهرعون إلى الحفلة، أدركت الآن إيقافاً متوتراً: كانت الموسيقى التي تنساب من النوافذ قد انقطعت، فعدم الحركة قد جمَّد الحديقة الصغيرة.

رأت الباب الكبير للقصر يُفتح وينبثق منه رجال شرطة مع زكاري بيدرمان.

ظنت ديان أنها ضحية هلوسة: فالمزهو والمتعالي زكاري بيدرمان، يطوقه أربعة رجال شرطة، شأن مثير للشبهة أخِذ للتوقيف. كان يدير عينيه المستنكرتين ويتبع إيقاع هؤلاء الذين يقودونه. أخيراً، ضغطوا على رأسه قبل أن يحبسوه في إحدى السيارات البيضاء ذات الفوانيس الزرقاء المبهرة. شأن مجرم!

ظهرت روز في أعلى السلم، بوجه شاحب، وبمنديل في يدها، يسندها بعض المقربين ومنهم ليو أدولف، رئيس المجلس الأوروبي.

إذا كانت رؤية زكاري قد أذهلت ديان، فإن منظر روز قد هزّها في الصميم. أشاحت برأسها، شبه متخفية، مولية الإدبار وهي تسير بمحاذاة الأشجار والتجأت إلى بيتها.

في اليوم التالي، منذ الفجر، علمتْ من وسائل الإعلام بالفضيحة التي حدثت في ساحة آريزو.

حوالى الظهر، وقد عاد جان ــ نويل من شتوتغارت، وجدها مسمَّرة أمام شاشة التلفاز. بإصبعها، أشارت إليه بصينية اللحم البارد التي أعدتها له وعادت لتغرق في إصغائها. توصل بصعوبة إلى أن يتبادل معها عدة كلمات لا تتعلق إلّا بمجريات الحدث.

صرخت ديان بتعجب:

ــ يا للمرأة المسكينة!

دمدم جان ــ نويل:

ــ لقد أجبرها، بلا شك، على أن تمصه لكنها ستتمالك زمام نفسها. يجب عدم المبالغة في الأمر.

ــ إنني أتحدث عن روز.

ــ روز؟

ــ روز بيدرمان، زوجة هذا النذل. إنها أكثر من يتألم في هذا الوقت.

ــ آه؟

ــ الآن، إنها تعرف أنه خانها. سيقع على رأسها كل ما أنكرته طوال سنين.

انفكت الألسن من عقالها منذ هذا الصباح، والتفاصيل تنهال عن هواجسه الجنسية. يعبئ الصحفيون المركب ويجدون الشهود بوفرة.

ــ ديان، بصراحة: هل هذا يصدمك؟

ــ ماذا؟

ــ هذا التصرف الجنسي القهري...

تمتمت وهي ترفع الصوت:

ــ لا تستطيعُ أن تَفهم.

في ذاك الصباح، استيقظت ديان وأحست صفير الدرَّات وزقزقتها التي تهذر على الساحة وقالت في نفسها حان الوقت للتدخل. فما لم تقم به مطلقاً في تلك الأعوام الأخيرة، ستفعله اليوم.

بعد أن هيأت ذاتها، وسرَّحت شعرها وتزينت كما لو كانت ذاهبة إلى سهرة رفيعة، شكَّلت الرقم الذي حصلت عليه منذ سنين خلت.

أجابها بصوت جاف: مكتب زكاري بيدرمان، هنا السيدة سينجر. إنني أصغي.

ــ أود أن آخذ موعداً مع روز بيدرمان. حل صمت منزعج ثم تابع الصوت:

ــ من قبل من؟ وبخصوص أي موضوع؟

ــ من قبل ديان فانون.

ــ هل تعرفك سيدتي؟

ــ كلَّا.

ــ وبخصوص أي موضوع؟

ــ عندي أمور أكشفها لها.

سبقت جواب سينجر دمدمة منزعجة:

ــ اصغي، سيدتي، نتسلم كميات هائلة من مُسارّات النساء. الخليلات، والعاشقات، السابقات واللاحقات والمرغمات والمترددات أو اللواتي يتمنين ذلك. تصوري، لا يشغل هاتفي حالياً إلَّا ذلك. أرجوكِ، بعض الحياء! إن بوحك لا يهم السيدة بيدرمان مطلقاً، ولا أفهم كيف تستطيعين أن تتجرئي لتعرضيه عليها. تعلمي أن تحترمي ألم الناس، سيدتي.

ــ إنني أحترمه! أعشق روز.

ــ كيف؟ ... لقد قلتِ تواً إنها لا تعرفك...

ــ اسمعي، لا أريد أن أحدثها عن زكاري بيدرمان، أريد أن أتكلم معها في موضوع آخر.

ــ ما هو هذا الموضوع؟

ترددت ديان. هل تستطيع أن تلفظ الكلمات التي تجنبتها منذ سنين؟ وجدت مخرجاً للتخلص:

ــ قولي لها إنني أود أن أحدثها عن... زوزو.

ــ زوزو؟

ــ زوزو! قولي لها ذلك...

ــ إنني لا أفهم.

ــ هي ستفهم.

ثم أملَت ديان رقم هاتفها وقفلت الخط.

راح قلبها يدق كأنه سينفطر. بدا لها أنها قد قامت بالفعل الأكثر وقاحة في حياتها والأشد مجازفة. ومن دون أن تستطيع الابتعاد، أخذت تدور حول الهاتف، تترقب نداء الرد.

لم يتأخر الرد، وذلك رحمة بأعصابها. بعد عدة دقائق، اقترحت عليها السيدة سينجر موعداً بعد الظهر، في الساعة الخامسة.

قدَّمت ديان نفسها بتهيب عند باب المدخل، متجاهلة المصورين والصحفيين الذين يشغلون الأرصفة. كانت خافضة رأسها، صماء عن تساؤلاتهم، وقد ركَّزت فكرها على هدفها.

حين ذكرت هويتها، دعاها رئيس الخدم إلى أن تمرَّ إلى الداخل، وهو يحرص على أن يمنع تصويراً متطفلاً، ثم قادها إلى الطابق الفخم، حيث كانت روز بيدرمان تنتظر. وسط الغرفة المزهرة بالفارونيا، انتصبت تلك المرأة وتصرفت بطريقة رائعة. كانت بتسريحة جيدة وزينة جميلة وقد لبست ألواناً فاتحة، وبصوت ذي نغم رائع وبابتسامة على شفتيها، كانت تُكذِّب برقتها ويسرها المأساة التي تُضَيِّق خناقها.

قبلت ديان دعوتها للجلوس، كما قبلت فنجان الشاي والحلوى باللوز وتبادلت معها مجاملات عن الطقس الساطع؛ فجأة، تكورت على نفسها ولفظت بوضوح:

ــ زوزو، هل يعني لك ذلك شيئاً؟

تشنجت روز ثم ابتسمت.

ــ أجل، كان هذا اسم والدي. بالأحرى، لقب له. بالنسبة إلى المقربين. أنا ووالدتي حصراً.

ــ كان هذا لقب أبي أيضاً، فقط للمقربين. بالنسبة إليَّ وإلى أمي حصراً.

حلّ صمت. أرادت روز أن تتأكد من أنها قد فهمت، بل أن تطمئن متيقنة أن هناك سوء تفاهم.

تابعت روز قائلة:

ــ بالنسبة إلى أبي كان زوزو هو تصغير غريب لصمويل. ليس هذا بديهياً، أليس كذلك؟

ــ بالفعل، ليس بديهياً. والأمر كذلك بالنسبة إلى والدي.

حل صمت من جديد. اضطربت روز.

ــ من كان والدكِ؟

ــ صمويل فان إيكار، أبوكِ ذاته.

فقدت روز زمام أمرها.

أخرجت ديان صورة من حقيبة يدها ومدَّتها لها.

تلك هي الصورة الوحيدة التي في حوزتي عن والدي بصحبة أمي. لقد قطع علاقته بسرعة. أما أنا فلم أره إلَّا مرتين أو ثلاثاً، لأنه لم يعترف بي. كان يرسل من حين إلى حين بعض المال والهدايا ويمنُّ علينا بزيارة سريعة كي يريح ضميره. كان محظراً عليَّ بخاصة أن أناديه «أبي».

أمسكت روز بالصورة.

ــ إنه حقاً والدي.

ــ مع والدتي.

ــ ماذا يبرهن لي...؟

ــ لا شيء. صدق نيتي. وصدق قول أمي. إنها بالطبع عناصر هشة جداً كان والدكِ يحتقرها.

شعرت روز بانفعال ديان يتصاعد ولم تعد تعرف ماذا تفكر ولا كيف تتصرف.

تابعت ديان قائلة:

ــ آه بلى، يوجد هذا، أيضاً...

كشفت عن كتفها اليمنى وأشارت إلى شامة عند ثنية الذراع.

ــ كان عنده هذا. وأنا أيضاً. وأنت؟

شحب وجه روز. وكجواب، أزاحت ببطء قميصها وأظهرت شامة مماثلة في المكان عينه.

اغرورقت عينا ديان بالدموع. وراحت تلهث.

ــ إذاً، لم تكن أمي تكذب... مسكينة أمي...

التفت على ذاتها في الأريكة وأصبحت من جديد، بعدة ثوانٍ، الفتاة الصغيرة التي كانت تتساءل عن هويتها وهي تشهق بالبكاء.

اقتربت روز ومدت يدها، وهي تتردد في مواساة تلك المرأة المجهولة. وقفت أمامها وقد سيطر عليها ضيق حزين، وهو اكتشاف كذبة جديدة، لم تأتِ هذه المرة من زوجها ولكن من الرجل الآخر المهم في حياتها، والدها.

بالرغم من أن ديان قد هدَّها ألمها، لكنها رفعت رأسها ولاحظت أن روز كانت تعض على شفتيها، وهي فريسة الارتباك والحرج.

سألت روز:

ـ لماذا؟ لماذا الآن. لماذا ليس من قبل؟

ـ لأنني لم أكن في حاجة إليك. لكن، بالنسبة إلى ما حدث لك في تلك الأيام، قلت في نفسي ربما أنت في حاجة إليَّ.

ـ إليك؟

ـ إلى أخت...

تلعثمت روز، مذهولة. اعتادت، وهي المرأة السيدة أن الاهتمام بالآخرين وإصلاح الأوضاع. فغريبة تعلن أنها أصغر منها وتريد أن تساعدها...

فتحت ديان ذراعيها وارتمت روز بينهما، ضائعة، منهكة، وقد تركت الحزن يفيض من امرأة خُدعت، وخانها زوجها، وأهينَت، وسُخر منها، تلك المرأة التي كانت هي عليه والتي رفضت أن تكونه.

في ذاك المساء، حين رجعتْ إلى البيت، استقبل جان ـ نويل ديان بعينين تبرقان رغبة وهو يهز بطاقة سوداء وذهبية.

ـ عزيزتي، عندي دعوة إلى «تي فور تين» حيث ينظّمون سهرة إباحية. وكما تعرفين، هناك ذاك الحمّام الضخم المتدرج حيث كل شيء مباح.

نظرت ديان إلى جان ـ نويل ووضعت يدها على كتفه.

ـ اسمع، جان ـ نويل، هذا لطيف منك ولكني سئمت من مص قضبان ذكورية يصل مجموع طولها إلى كيلومترٍ. لو نذهب إلى غرفة نومنا.

٢

سقوط رجل، هل ثمة شيء أكثر جاذبية؟

لم يعد فرنسوا ــ مكسيم يغادر الصالون حيث التلفاز، المفتوح باستمرار، يفيض بأنباء عن زكاري بيدرمان. سواء أكانت المحطات عامة أم متخصصة بالأحداث الحالية، فلقد كرسَّت إرسالها لحدث ساحة آريزو. كانت الصور والنقاشات وشهادات الناس والندوات تتتابع، وهي تسعى إلى شغل الفراغ الذي نشأ عن ذلك الانفجار، وتحاول أن تمحو شعور الذهول والبلادة الذي أثقل على المواطنين. أوقِفَ النسر السياسي في أوج تحليقه: بينما كان سيصل زكاري بيدرمان في الأسبوع السابق إلى السلطة العليا، جرى توقيفه وحققت الشرطة معه وبقي موقوفاً أربعاً وعشرين ساعة ثم جُرِّم. بعدة ساعات، حَطَّم تفصيلٌ صعودَه، فنزل إلى حضيض السلم الاجتماعي، أدنى من الأدنى لأن الكل لا يتحدثون إلَّا عنه، عن جريمته التي أشْهِرَت على الملأ. فالفيض من الأمجاد حل مكانه فيض من المهانة.

كان فرنسوا ــ مكسيم حاضراً الاستقبال حين وقع ما يُفترض اغتصاباً وحين حددت الضحية جلَّادها إلى رجال الشرطة. تحمس للقضية. لم يكن اهتمامه بمجرد الجوار، لكنه نتج من جوارٍ أساسي: كان فرنسوا ــ مكسيم يُسقط وقوعه على وقوع زكاري بيدرمان.

ففي عدة ثوانٍ، هو أيضاً فقد مكانته وسعادته وتوازنه: إن قفزة سِفْرينّ قد حولته إلى أرمل، مسؤول عن أربعة يتامى. وما وراء ما حدث له، لا يزال الأسوأ ممكن الوقوع: وهو تبين واقع عاداته ومواعيده الهاربة في أماكن المغازلات الذكرية حيث يبحث جسده، من دون أية كلمة، عن الاتصال بأجساد مماثلة. ماذا سيكون رد فعل مصرفه على هذا الاكتشاف؟ والأوساط المالية؟ وأولاده؟ وأسرته؟

للحظة، غبَّط سِفْرينّ على ذهابها مع أسرارها: أقله، لم تعد مُهدَّدة بشيء. يبقى الموت أقل ألماً من الذل والمهانة.

فوجئ مفاجأة كبرى إذ اكتشف أنه لم يكن الوحيد في البيت الذي يبقى ملتصقاً بالتلفاز لسماع نشرات الأخبار؛ فالطاهية والنساء اللواتي يعملن في تنظيف البيت

وقيّم المنزل ومجموعة العاملين يمكثون طويلاً أمام شاشة ومذياع ومواقع إخبارية رقمية: كان زكاري بيدرمان يستقطب كل انتباه.

ــ ماذا كان يسحرهم؟ ليس عندهم شيء يفقدونه، هم، مع ذلك...

افترض فرنسوا ــ مكسيم أنهم يروون غليلاً اجتماعياً: يشعر الناس الصغار بمتعة في سقوط إنسان ذي سلطة ونفوذ.

في ذاك الصباح، عند سيارته، بانتظار الأولاد الذين سيصحبهم إلى المدرسة، لمح على الرصيف مرسيل، بوابة البناية المجاورة، التي اقتربت وهي تتمايل بكتفيها.

ــ هل تابعتَ ما حدث للسيد بيدرمان؟

ــ كنتُ هناك.

ــ ماذا! هل رأيتَ الاغتصاب؟

ــ كلّا، كنتُ أشارك في الاستقبال، حضرتُ التوقيف.

ــ هل هو مذنب، في رأيك؟

ــ لا أعرف شيئاً من ذلك. كثير من العناصر تشير إليه.

ــ المسكين... إنه حادث مفتعل.

ــ إنها نظرية مقبولة أيضاً.

ــ لم يغمض لي جفن، سيدي، لم أنم طوال الليل. كنتُ ملتصقة بتلفازي لأن ما حدث قد أصابني بالدوار.

لم يكن يحرص فرنسوا ــ مكسيم على الخوض في مسارّة مع الثرثارة، فقد أحجم عن الاعتراف بأن الأمر كان كذلك بالنسبة إليه.

سأل بصوت أقل حزماً:

ــ لماذا؟

ــ إنه الخراب، سيدي، الخراب... يا له من سقوط! كنتُ أقول في نفسي إنه من الممكن أن يحدث ذلك لي.

عضّ على شفتيه وهو واعٍ أن عليه ألّا يسخر. بالطبع، يستطيع كل واحد أن يقع، من علو أكان هذا العلو كبيراً أم صغيراً...

سألها:

ــ هل لديك ما تخفينَه؟

أجابت مرسيل بصيحة:

ــ ليس عندي ما أخفيه.

ـ إذاً؟

ـ ليس لكل الناس شيءٌ يخبئونه ولكن عند كل الناس شيء قد يفقدونه.

عند ذلك، وبختْ متنزهاً لم يَلم براز كلبه.

ـ حسناً، لا تنزعج! هل سأذهبُ لأبول أمام بيتك، أنا؟ أيها المُقرف، ابتعد!

كانت تنبح على صاحب الكلب الذي حاول أن يبرر ذاته، كما لو أن فرنسوا ـ مكسيم لا وجود له مطلقاً.

هرولتْ بناته وابنه من السلم واستقروا في السيارة. سابقاً، كانت سِفْرينّ ترسل إليهم من الباب إشارات الوداع؛ تذكَّرَ كل واحد ذلك وجَهد لينساه.

كانت السيارة تسير وهم صامتون حين بدأت غواندولين البكر بالتحدث:

ـ أبي، لقد فكرت ملياً بأمي. أعتقد أنني أعرف ما حدث.

نظر فرنسوا ـ مكسيم بقلق في المرآة العاكسة ثم شجعها على المتابعة.

ـ لقد أصيبتْ أمي بمرض مميت لا شفاء منه، وكانت تعرف ذلك.

ـ من قال لك هذا؟

ـ لقد استشففته.

ـ تابعي، عزيزتي.

ـ هكذا. علمتْ أنها لن تشفى، حينذاك استبقت الأمور لتتجنب العذاب. ولقد فكَّرت فينا بشكل خاص.

ـ فينا؟

ـ لم تكن ترغب في أن نتألم ونحن نراها تعاني الآلام.

شغلت الفكرة الأذهان خلال صمت طويل. أوقف ضوء أحمر السيارة.

قال فرنسوا ـ مكسيم بتمهل:

ـ إن ما تقولينه جيد، ليس محتملاً فقط، لكنه يشبهها كثيراً.

أجاب غيوّم بانفعال:

ـ أوه، حسناً.

أكدت الفتاتان الصغريان ذلك بخرخرة. تابعت السيارة طريقها.

ترك فرنسوا ـ مكسيم تلك الفكرة ترسخ في النفوس. تمتاز تلك الفرضية أقله بأنها تحمل تعزية أكبر من الفرضيات الأخرى: لم تترك سِفْرينّ الحياة، لكن الحياة هي التي تخلت عنها. لماذا تكذيب ذلك؟ أليس التناغم أهم من الحقيقة؟

وضع الأولاد في المدرسة، وقبّلهم بقوة، وبجدية، كأنه يرغب في أن يطبع محبته على أجسامهم، ثم صعد إلى سيارته 4x4.

كان عليه الذهاب إلى المصرف، بشكل طبيعي. ولكن، كلَّا. كان يمر، عادة، بالغابة قبل الذهاب إلى المصرف...

أيفعل ذلك اليوم؟ حكَّ رقبته. في أعماقه، لم يكن يتشهى ذلك. لم يكن يتشهّى مطلقاً: لا الشعور بالحصان بين فخذيه. ولا مداعبات شاب.

هزَّ رأسه. أليس بالضبط لأنه لم يكن راغباً في ذلك عليه القيام به؟ يمكن أن يساعده ذلك على أن يشفى...

أن يشفى من أي شيء؟

بقي لحظة واقفاً، باضطراب، ويداه على المقوَد، وهو يبحث في فكره ليعرف بأي شيء يرغب...

لا شيء.

انطلق بسيارته، وهو يأمل أن تقوده السيارة من تلقاء ذاتها.

كانت 4x4 تسير ثم توقفت عند التخوم. لا سبيل إلى الوصول إلى الاصطبلات. إذاً، لن يركب الخيل. كان عليه أن يصل مشياً بقدميه.

ترك فرنسوا ــ مكسيم سيارته وتقدم تحت الأغصان الملتفة واقترب من الممرات الضيقة حيث كان أفراد يحومون قبل أن يختفوا، اثنان معاً أو كثيرون بين الجذوع.

توقفَ عن المشي. فجأة، بدت له تلك المناورة مدعاة للسخرية. والأسوأ من ذلك، أنها كانت تثير اشمئزازه. ففي هذا الذهاب والمجيء لرجال وحدهم، لم يعد يشعر بقابلية ولا بمتعة، أدركَ فقط البؤس الجنسي والحكم بالتستر والمتعة الطفيفة العابرة والسخط وعدم الرضى. لم يكن هناك إلَّا تعساء يريدون الحفاظ على ضيقهم وعسر عيشهم، مرضى يشربون ماءً مسمماً، بالضبط ما يكفيهم ليبقوا مرضى، وليس ما يكفي ليموتوا من ذاك الماء. لا أحد سعيدٌ هناك. كانت الأجساد تتشنج إثر ما يشبه المداعبات والتي غايتها ألَّا تدوم، بل بالأحرى أن تكف. كانوا يمارسون عَدْواً نحو المتعة بأقصى السرعة واستعاراً يركض من المقدمات إلى القذف. كان المني يسيل، طبعاً، ولكن إثر صرخة، أو تقطيب وجه، كي يتخلصوا من الرغبة، وليس ليتوجوا ذروة. كما بدا له قبحهم، في ذاك اليوم، قبح بهؤلاء الصيَّادين الوحيدين، بأكتافهم المنخفضة، وبأيديهم في جيوبهم، وبنظراتهم المضطربة التي لا تتفحص عيني المتنزه، بل حوضه حصراً.

اقترب شاب، تسمّر، ثبَّت نظره على فرنسوا ــ مكسيم ومدَّ شفتيه إلى الأمام.

بصق فرنسوا ــ مكسيم.

قفز الشاب، غير مُصَدِّقٍ.

صرَّ فرنسوا ــ مكسيم بين أسنانه قائلاً:

ــ لوطي!

ثم دار على كعبيه، وبخطوة ثابتة، رجع إلى سيارته.

«انتهى! انتهى الأمر! لن أعود إلى هنا بعد اليوم! فالمكان بالغ القذارة».

جعلته فورة مزاج ينسى أنه ترك ألف مرة الفروة التحتية باسماً، يفيض حيوية جديدة، شاعراً بأنه أكثر سعادة ورجولة وإغراءً. لو ذكَّره أحد بذلك، لأنكره.

ذهب إلى المصرف. من تحية الحرَّاس، ومن الاحترام الذي أظهره له الموظفون، ومن الإفراط في مجاملة المدراء له، استعاد حياته. «صاحب مصرف ورب عمل، أوف، إنني هكذا دائماً».

حين وصل إلى مكتبه، أخذ بعض الوقت ليتحدث مع سكرتيرته المتشنجة، التي ترددت، بين تصرف عادي، أو سلوك يقتضيه ظرفه. حدَّثها برقة عن أولاده وعن المشاريع التي يفكر فيها لتمضية العطلة القادمة معهم.

بناءً على طلبه، التحق به مساعدوه وتداولوا مشاكل الساعة.

حوالى الظهر، وقد انتهى الاجتماع، لم يستطيعوا الامتناع من التحدث عن فضيحة بيدرمان. راح كل واحد يسهب في تعليقات، أكثر كشفاً لبيدرمان من القضية في حد ذاتها، طرح عدد منهم الحياة الزوجية المتحطمة، وبعضهم الآخر المكانة الرفيعة التي توقفت، افترض بعضهم مؤامرة، وندَّد زميلٌ بالجنون الذي تأخذنا إليه السلطة، وبحث أخيرٌ في العلاقة بين الشبق والسياسة.

انتظر ڤارنيه الملاحظة الأخيرة قبل أن يختم قوله:

ــ يا له من هدر!

ــ أجل! يا له من هدر...

أنهوا مناقشتهم بغموض تلك الجملة، ذلك أنه لم يحرص أحد على تحديد كلمة هدر، أهي تُمثل طموح بيدرمان الذي تحطم، أم العنف الذي عانته امرأة أو استحالة الأمر على الأمة لتعيين قائد أفضل.

ربتَ ڤارنيه كتف فرنسوا ــ مكسيم.

ــ بما أنك هنا، لماذا لا تختبر معي المسؤول عن الأسواق المالية الذي أرسِلَ إلينا من باريس؟ سأستقبله في خمس دقائق.

أجاب وهو راغب في تجنب العزلة:

ــ سأرافقك.

حين جلس فرنسوا ــ مكسيم وڤارنيه في الصالون المكسو بالخشب والمخصص للزبائن المتميزين، طلبا إدخال طالب الوظيفة.

ما إن دخل هذا، حتى استاء فرنسوا ــ مكسيم: كان ابن الثلاثين يُظهر هيئة مثلية. كيف بان ذلك؟ لم يكن طقمه يُظهر التفصيل ولا البساطة المألوفة، وكانت ربطة عنقه تحمل عقدة ضخمة، أقرب إلى الخلاعة، وحذاءاه الحادان يشيدان بالتفرد. كرهه فرنسوا ــ مكسيم من النظرة الأولى، لا سيما وأن المسؤول عن الأسواق المالية لم يُخفِ، بنظرته، جاذبيته نحوه. تلك الوقاحة أكملت إغاظة صاحب المصرف الذي قرر أن يصمت ويلاحظ.

أجرى ڤارنيه المقابلة. كان الشاب يجيب عن الأسئلة بشكل لامع، ولم تكن أية صعوبة أو أي جديد يبلبله. حتى أنه كان يظهر لسائله مدى مهاراته وكفاءاته. أعجب به ڤارنيه، فانتهى به الأمر بأن ضحَّى بحيادية القاعدة؛ فبحرارة كبيرة، شكره وأعلن له أنهم بلا شك سيدعونه بسرعة.

استدار نحو فرنسوا ــ مكسيم وسأله إن كان يرغب في أن يضيف شيئاً.

أشار فرنسوا ــ مكسيم إلى خاتم الزواج في إصبع الشاب.

ــ ما هذا؟

لم يضطرب المسؤول عن الأسواق المالية:

ــ خاتم زواجي.

ــ هل أنت متزوج؟

ــ أجل.

ــ هل عندك أولاد؟

أعلن المرشح بضحكة لا مبالية:

ــ يصعب ذلك عليَّ: زوجي يُدعى شارل.

غاص فرنسوا ــ مكسيم في مقعده.

صوَّب الشاب فوراً نظرته المتقدة نحوه.

ــ هل يسبب ذلك مشكلة بالنسبة إليكم؟

ــ أجدك عدوانياً جداً...

ــ طمئنّي وسأكف عن عدوانيتي: هل يسبب ذلك مشكلة بالنسبة إليكم؟

أجاب ڤارنيه:

ــ كلّا، بالطبع!

هزَّ الشاب رأسه بالموافقة ثم أشار إلى فرنسوا ــ مكسيم.

ــ أتحدث إلى السيد دو كوفينيّ.

نهض فرنسوا ــ مكسيم وقد رأى موقف طالب الوظيفة مزعجاً جداً.

ــ إننا مؤسسة عائلية، سيدي.

ــ عندي أسرة أيضاً، سيدي.

ــ إنها ليست أسرتنا.

تلقى المسؤول عن الأسواق المالية الضربة ووقف بإباء. صافح ڤارنيه.

ــ كنتُ سعيداً بلقائك، سيدي، ولكن بما أنني لن أجد أية صعوبة في الحصول على عمل، اعلم ــ وإنني آسف ــ أنني أفضل الانتماء إلى مؤسسة تستقبلني كما أنا. اعذرني لأنني أضعتُ وقتك.

ثم، من دون أدنى كلمة إلى فرنسوا ــ مكسيم أو نظرة إليه، غادر الغرفة.

حين أغلِق الباب، هاج فرنسوا ــ مكسيم صارخاً:

ــ استرحنا منه!

انتفض ڤارنيه قائلاً:

ــ من فضلك، لا تكرر ذلك.

ــ ماذا؟

ــ هذا الفصل.

ــ أي فصل؟

ــ كرهك للمثليين.

ــ أنا أكره المثليين؟ إنه ليس مثلياً. إنه صورة كاريكاتورية عنهم.

ــ اسكت، فرنسوا ــ مكسيم! إني خجل. هذا المرشح أفضل من قابلنا. لقد عانيت صعوبات جمة لإقناعه بالمجيء إلى بروكسل، وها أنت ترميه كقذارة. عذرك هو أنك تائه وسط حداد فظيع. لهذا السبب وحده، إنني أسامحك.

صفق ڤارنيه الباب.

مكث فرنسوا ــ مكسيم وسط الصالون من خشب السنديان المُرمَّل. لم يُخطئ ڤارنيه: لم يعد يطيق المثليين ولا يريد مصادفتهم ويتمنى إبادتهم.

إن وجوده ثانية مع أولاده على العشاء قد أنعشه؛ فأمامهم، لم يعد يطرح أسئلة؛ كان يعرف أن يصغي إليهم وأن يحادثهم، مؤدياً دوره كأب.

جرى العشاء من دون أي صدام، بحيوية نشطة. كانت بناته وابنه يطيب لهم أن يرووا نهارهم، وأن يتبادلوا المعلومات عن فيلم جيمس بوند الجديد الذي يحلمون برؤيته على الشاشة الكبرى. أثناء الحلوى، بعد الطعام، وعدهم فرنسوا ــ مكسيم أن يصحبهم إلى السينما يوم السبت مساءً.

رافق كل واحد إلى غرفته، ودردش عند قدم السرير، ثم صرف الخدم، ذهب إلى الصالون حيث ما زال التلفاز يتقيأ أنباءً عن قضية بيدرمان.

راحت وسائل الإعلام تهتم من الآن فصاعداً بالضحية، بيترا فون تنانبوم، عُرِّفت على أنها «فنانة معاصرة» تقدم «عروضاً رائعة» في أرفع الصالات الفنية،وكما يبدو، وزَّع ملحقٌ صحفيٌ متحمسٌ معلومات. كانت توصف بأنها امرأة متزنة، مالكة زمام أمرها، وقد استطاعت أن تحول جسدها إلى تحفة فنية، أو بالأحرى أداة للتحف الفنية، بتلك الاستعراضات التي تقدمها.

تفحص فرنسوا ــ مكسيم، بِحَيرة، بعض صورها التي تُعرَض كشريط. جذبه تحذلق تلك المخلوقة الواضح. ليس جنسياً، بل بطريقة أخرى... بدا له أنها على صواب وأن التصنع يشكل هدفاً، بل ملجأ. سرت في رأسه أفكار رائعة. في ساعة، ظن أنه نسي حزنه وهمومه وقد فتنته بيترا فون تنانبوم.

إثر عودة المقتطفات ذاتها والتعليقات، أحس بالإرهاق، فذهب إلى غرفته.

كانت الغرفة ملأى بحوائج سِفْرينّ.

جلس فرنسوا ــ مكسيم، آلياً، مكانها، أمام منضدة الزينة، حيث كانت تجلس كل مساء لتنزع منهجياً حليها وتُسَرح شعرها.

نظر إلى ذاته في المرآة، أمسك الفرشاة واستعملها. نشرت تلك الحركة هدوءاً لذيذاً. استقرَّ وقد فُتِن وفتح الأدراج التي تحوي مستحضرات التجميل.

وقد تأثر برائحة زهر المضعف الذي ذكَّره بسِفْرينّ، طلى وجنتيه بمسحوق. يا للغرابة... كان لهما لون بشرة شبه متماثلة. وقد أخِذ بتجربته، وضع على وجهه بودرة، ثم مسحوق تجميل للأهداب، وقلم تخطيط الجفون، واختار أخيراً أحمر شفاه.

حين نظر إلى النتيجة في المرآة، وجد ذاته مثاراً للسخرية، بخاصة ليس جميلاً ولا قبيحاً: لم يعد رجلاً ولا امرأة. مع ذلك، وجد متعة حقيقية في تأمل ذاته، شأن من يهرب من خطر، أو من تهديد...

وقد وقف، فتح خزانة الملابس واختار بين أثواب سڤرينَ ذاك الذي يناسبه. أنهى التحول، بلبس جوارب نسائية ولبس حذاءين خفيفين ــ هنا، اقتصر اختياره على الحذاءين اللذين اشترتهما في الولايات المتحدة وقد أخطأت في المقاس.

تأمل ذاته في المرآة ذات الأرجل. أي شيء يشبه؟ امرأة؟ كلَّا. متنكراً بزي امرأة. رفع كتفيه. في نهاية المطاف، لِمَ لا...؟

إثر عدة خطوات في الغرفة، أعجب بجسده المشدود في ثوب على كعبيه: لم يكن التوازن ولا الأحاسيس لتذكره بما كان يعرف.

نظر إلى الساعة على المدفأة الجدارية. منتصف الليل وثلاثون دقيقة...

من دون صوت، وحذاءاه بيده، نزل السلم، واتخذ احتياطاته كي لا يُمَيّز، قطع البوابة ولبس ثانية حذاءيه ورحل في الظلام.

لم يصادف أي جار خلال مئة مترٍ. حين لمح إحدى صديقات سِڤرينَ تخرج فجأة من فيلَّا، اختبأ وراء شجرة؛ بعد انتهاء الخطر، نادى على تاكسي كان يتسكع وطلب منه أن يصحبه إلى القسم المنخفض من المدينة، إلى الحي الفلمنكي حيث كانت فرص محاذاة وجوه مألوفة شبه معدومة.

في الليالي التالية، تابع البحث في تحوله. بعد انقضاء منتصف الليل، كان يلبس ويضع قبعة ويسرح شعره وينادي على سائقٍ ويغوص في أحياء الناطقين باللغة الهولندية. لم يكن لتسكعه الليلي أي هدف، اللهُّم إلَّا إخراجه من ذاته. لم يترك رجلاً يحاذيه، ولا أن يغازله مطلقاً؛ كما لم يسمح لامرأة أن تحادثه بتاتاً. لم يكن يرغب في الجنس، لم يكن يتمنى أن يتألق. كان يرغب في أن يكون فقط. أن يكون مختلفاً. أن يضع جانباً شخصية فرنسوا ــ مكسيم دو كوفينيِّ الذي يسكن ببهاء في ساحة آريزو، وأن يهجر الأرمل الحزين، والأب المتفاني وصاحب المصرف اللامع؛ كان يفضل أن يكتفي بهوية غير محددة، أن يوجد فقط لأنه يمشي على كعبيه ويحس القماش المُخَرَّم على فخذيه أو الحَمّالات الرقيقة على عظام صدره. كان يُقَدم للهواء وجهاً مطلياً بالمساحيق، أسمر فاتحاً، أملس، تاماً، سميكاً حمل إليه الكمال.

فبتردده على المخازن الليلية، وعلى متاجر الأطعمة المقلية والحانات، وبمناقشاته السريعة مع الباعة، اكتشف شعب الليل، المختلف والمنفتح على الاختلاف. لم يبدُ له الآن أن بروكسل تحوي مدينتين، الناطقة بالفرنسية، والناطقة بالفلمنكية، ولكن هناك أربع مدن تتنضد على مدينة النهار ومدينة الليل. ولأوج غبطته، اكتشف مخزناً كبيراً صينياً يفتح حتى الساعة الثانية صباحاً حيث كان يجول شأن زبونة عادية وهو يتفحص الملابس الداخلية ومستحضرات التجميل ومنتجات لنظافة الجسم.

قبل كل هرب، كانت إقامته أمام المرآة تشغله بشغف. صار خبيراً في التزين، متمتعاً باستعماله، شأن ممثل من المسرح الياباني «نو»، ثم، في آخر لحظة، كان يضيف بعض العيوب ليعطي انطباعاً طبيعياً، من حمرة الخدين، إلى الظلال على الصدغين، وإشارات عند قصبة الأنف. كان رسمُ أحد آخر على وجهه يمنحه الطمأنينة.

ذات مساء يوم جمعة، الساعة الواحدة صباحاً، كان يصعد شارعاً مبلطاً. في أعلى الطريق، وكانت مجموعة تخرج من حانة. تَمَهل كي يتجنب الصاخبين، ثم تابع تقدمه بصعوبة بسبب الأرض غير المستوية.

حين مرَّ أمام الحانة، نزل رجل مسرع، للحاق بالآخرين:

ــ هيه، انتظروني!

وجد فرنسوا ــ مكسيم نفسه وجهاً لوجه أمام المسؤول عن الأسواق المالية الذي اختبره قبل فترة وجيزة.

توقف الشاب، مذهولاً، فكر ثم تردد. كان المصباح يقع بالضبط عليهما ولمبته الضاربة إلى اللون البرتقالي تُظهر بوضوح كل تقاطيعهما وكل نتوء من وجهيهما، شأن ضوء طبي. تعرَّف إلى المصرفي الذي أساء معاملته.

ــ هذا... هذا... هذا لا يُصدق!

هزَّت ضحكة ساخرة شفتيه واجتاحت عينيه، وشكله الخارجي وجسده... راح المسؤول عن الأسواق المالية يصرخ من الضحك.

لم يبدِ فرنسوا ــ مكسيم أي رد فعل، وقد تسمر في مكانه.

كان المسؤول عن الأسواق المالية يمسك بطنه، ثم انثنى وحاول التنفس مغتبطاً من اكتشافه.

انتزع فرنسوا ــ مكسيم ذاته من الموقف وراح يركض. للأسف، لم يكن الركض من عاداته بحذاءين نسائيين بكعبين، فالتوى كاحلاه مرات كثيرة، وهذا ما ضاعف ضحك الرجل عن بعد. أخيراً، دار في شوارع كثيرة واختفى عن الأنظار ونجا من مرحه الصاخب وسخريته المريرة.

نادى تاكسي ورجع إلى بيته. فبالرغم من المهانة، ووراء الغيظ، كان يشعر بارتياح غريب: كانت تلك الرحلة الأخيرة، وهو يعرف ذلك؛ لن يلجأ بعد الآن إلى التنكر؛ لقد أتى على استنفاد متع هذا التنكر وكذلك الحاجة إليه.

فالسخرية الجهنمية للمسؤول عن الأسواق المالية، وإن جمدته لكنها كانت فعالة ومجدية أبرأته.

حين وضعته السيارة في ساحة أريزو، شعر بأن شبحاً يتحرك على سطح منزله. ظنَّ أنه يحلم، واستشف من جديد الشكل بين المداخن. في تلك اللحظة، أقبل منزه كلب فالتجأ فرنسوا ــ مكسيم إلى بيته خوفاً من أن يُجازف بالتعرف إليه. صعد مسرعاً إلى غرفته وخلع ملابسه وأزال المساحيق بسرعة بمنشفة ساخنة ولبس مئزر الرجال وتسلح بعصا لعبة الغولف وصعد إلى السقيفة. بلا أدنى شك، أحد ما يدخل منزله من الأسطحة. حين رفع الفتحة التي تظهر منها السماء، تلقى الهواء الندي ولم يجد أي شيء غير عادي. سواء كان ضحية سراب، أو أن الرجل قد هرب.

نزل ثانية وهو يفكر وزار كل غرفة ليتحقق من أن ليس ثمة دخيل يختبئ، فتح شبه فتحة باب كل غرفة ولد، ثم، وقد اطمأن، عاد إلى غرفته.

استعادت الأيام شكلها الطبيعي. وكذلك الليالي. مساءً، كان فرنسوا ــ مكسيم يتفرغ لأولاده ثم يصعد لينام، مرغماً ذاته على قراءة رواية إلى أن يفاجئه النعاس.

ذات صباح، وصلت رسالة من النيجر سارعت بدقات قلبه. نيامي؟ أليست المدينة حيث ابتعدت أخت سِفْرينَ، منذ عشرين سنة خلت إثر تفكك أسرتهم؟

بواسطة الخدمات الدبلوماسية، سعى إلى أن يعلمها موت أختها.

بالفعل، كانت تحمل الرسالة توقيع سيغولين. قرأها فوراً:

عزيزي فرنسوا ــ مكسيم،

اسمح لي أن أدعوك «عزيزي» لأنني أشكرك على الاتصال بي وعلى الاهتمام بأولاد أختي الذين من الآن فصاعداً لم يعد لهم أحد غيرك.

سأعبر باختصار. إن دخلت في أدنى تفصيل، تصير تلك الرسالة رواية.

كنتُ أحب أختي سِفْرينَ. ولقد بكيتُ طويلاً حين علمت موتها المأسوي.

إن لم أعد على اتصال بها منذ زمن طويل، فليس ذلك بسببها، بل بسبب البيئة التي كانت تنتمي إليها، أي والديَّ. لن أسهب في الكلام عن شعوري بالذنب الذي يرافق حدادي لأنه: ١) هذا بديهي ٢) لا أشعر بأي ندم.

هربت من أهلي منذ زمن طويل. لماذا؟ أردتُ أن أنقذ نفسي. أحسنتُ صنعاً: أما أختي فهلكت. أسرتنا ملعونة. إن كنتُ أكتب إليك، لتتوقف تلك اللعنة.

لا أذكر أنهم علَّمونا ونحن أطفال، أن نتحدث؛ في المقابل، أتذكر جيداً أنهم علمونا أن نسكت. يجب علينا ألَّا نعبر عن مشاعرنا وألَّا نطلب من الآخرين أن يصفوا مشاعرهم، كان علينا ألَّا نطرح أسئلة غير متحفظة، وأدنى من ذلك ألَّا

نقدم أجوبة عن أي سؤال. بمجمل القول، ترعرعت بالقرب من والديّ ومن أخي وأختي شأن بقرة في الإسطبل.

لم تكن أسرتنا مؤلفة من الحب ولكن من الصمت والسكوت. حين علمتُ بنهاية سِفْرينّ المأسوية، فكرتُ أن من واجبي أن أنبهك إلى ذلك.

كنْ يقظاً، فرنسوا ـ مكسيم، لأن ما جرى في الماضي قد حدث تواً من جديد وسيحدث ثانية.

إن جدتنا من جهة والدي قد ألقت بنفسها من النافذة. لم أعرف ذلك إلّا حديثاً، وأجهل إن كانت أختي على علم به. هل كررتِ القيام بهذا الفعل عن وعي؟ أم إنها خزَّنت في قرارة نفسها ذاكرة نُقِلَت بقناة أخرى غير الكلمات.

أجل، إن جدتنا قد ألقتْ بنفسها في الخواء، شأنَ سِفْرينّ. كانت تعيسة. وعلى درجة عالية من الجمال، تفضل النساء على الرجال. اكتشف زوجها ذلك، هددها باحتجازها في مصح. ففضلت أن تقتل نفسها.

كان والدنا يعشق تلك الأم التي فقدها وهو في السابعة من عمره. كيف عرفتُ ذلك؟ حين توفي، اكتشفنا صوراً كثيرة لها في غرفته؛ حتى أنه كان يحتفظ بصورتها في محفظة نقوده. بمجمل القول، حزن والدي على رحيلها بألم ولم يُشفَ منه.

هل روتْ لك سِفْرينّ ذلك؟ لقد تفككت سلالتنا حين اكتشف بيير، أخونا البكر أن أبانا يتنكر بزي النساء. آه، لم يكن يبيع جسده، كلّا، كان يكسوه بملابس امرأة ويتسكع في الشوارع. حينذاك، حطمنا ذاك الخبر ودق ناقوس نهاية توازننا. لأنه كان يكشف وحشاً تحت هيئة أب نخشاه ونجلّه. ولأنه أظهر أن لا أحد يعرف أي أحد آخر في بيتنا. ولأن هذا الخبر صرخ أن كل الناس يكذبون. ابتعدتُ عن فرنسا مع بوبكّار، خطيبي حينذاك وزوجي اليوم.

ألا آسف لأنني هربت؟ آسف أنني لم أحاول أن أفهم. لماذا كان يلبس أبونا ثياب امرأة؟ الآن، أربط خيوط الشبكة العائلية: كان والدي يسعى لإيجاد أمه وللقائها عن طريق ثيابها، وتسريحات شعرها، وملحقات زينتها، أي الأنوثة؛ استمر والدي يحب أمه الراحلة؛ إن لم يكن يجعلها تحيا من جديد، فإنه كان يقترب منها. كان ذلك مؤثراً ومدعاة للسخرية ورقيقاً وجميلاً ويائساً. لكننا لم ندرك ذلك، هل كان هو يفهمه؟ لا يبرأ المرء من ذاته.

بعد وفاة والدنا ووالدتنا ثم أخينا، رفضتُ الإرث. نصحتُ سِفْرينّ أن تُقلدني. لو كانت عملت بنصيحتي، لكنا شقيقتين مرتبطتين، ولما كانت بلا شك ميتة اليوم... لقد قبلتِ الحِمل. لا أزال مقتنعة أنها لم ترث المال فقط لكنها ورثت مصير الأسرة وقدرَها. حيت تسلمتْ الملايين، تسلمتْ أيضاً المشاكل وعقدَ الصمت ولعنتنا.

إن الصدمات النفسية تتكرر، فرنسوا ــ مكسيم، لا سيما حين تكون مجهولة أو غامضة. يرث الإنسان ما لا يعرف. فالصمت يقتل.

في ذاك اليوم، تظاهر فرنسوا ــ مكسيم بأنه يتمم عمله؛ في الواقع، لم تكن تفارقه فكرة سِفْرينّ ولا فكرة أولاده مطلقاً.

كان لا يزال يفكر بذلك، وقد حلَّ منتصف الليل وهو جالس على الشرفة، أمام ساحة آريزو حيث الببغاوات والدرَّات وقد هدأت أخيراً، غطت في النوم.

فجأة، قطع السلام طيران مستعجل. في خفقات الريش والزعيق، راحت الطيور التي تجثم في أعلى الأشجار تطير بسرعة، وقد جنَّ جنونها وهي تخاف شيئاً ما أمامها.

حاول فرنسوا ــ مكسيم أن يرى ماذا يحدث، فاقترب وانحنى وهو يرفع رأسه ليرى أعلى واجهة بيته.

ظهر، من جديد، شبح من المداخن.

في تلك المرة، اندفع فرنسوا ــ مكسيم إلى الطابق الأخير وخرج إلى السطح في أقل من دقيقة بعد الضوضاء.

تحت نور القمر الرمادي، نظر غيوم، مرتاعاً، إلى أبيه ينبثق من الفتحة. كاد أن يتعثر من الخوف وتمسك بشريط.

ــ أبي؟

ــ غيوّم، عزيزي، ماذا تفعل هنا؟

بدا الطفل وقد فوجئ لسماع «يا عزيزي» بدلاً من توبيخ. حين رأى ابنه على شفا الهاوية، أدرك فرنسوا ــ مكسيم ماذا يجري: كان يسعى الطفل إلى أن يفهم أمه بشكل أفضل، أن يُشبه أمه، وربما أن يَجد أمه. كان يغازل الخواء. كان يداعب الانتحار.

اندفع وضمَّ الصبي بين ذراعيه:

ــ تعالَ، يا ابني غيوّم، يجب أن تحدثني.

ــ لستَ مع السيدة؟

ــ أية سيدة؟

ــ تلك التي حلَّت مكان أمي؟ تلك التي تأتي لتراك ليلاً؟

ابتسم فرنسوا ــ مكسيم، بألم.

ــ تعالَ، عزيزي. أنا أيضاً، لديَّ ما أقوله لك. لا أحدَ كاملٌ.

نزل فرنسوا ــ مكسيم من السلم الصغير المؤدي إلى السقيفة المثقلة بالأشياء وابنه بين ذراعيه وهو يقسم أنه لن يُخفي عنه مطلقاً مدى تعقيد البشر، لا سيما أمه وأبيه وإن فقد في ذلك كبرياءه أو الصورة المثلى التي صنعها عن نفسه.

٣

كان غياب جوزفين يَهدُّ إيزابيل بقدر ما يُدَمِّر باتيست، هي، لأنها لم تكن تعرفها جيداً، والآخر لأنه كان يعرفها تمام المعرفة.

في تلك الأيام الأخيرة ــ وهم في غاية السعادة ــ لم تشك إيزابيل مطلقاً بأن جوزفين تستطيع أن ترحل؛ على العكس، كانت تلك العفريتة المرحة، والتي ألهبتها الجِدة، تنظم حياتهم، وترتب الشقة كي يستطيع كل واحد أن يجد فيها علاماته وتخطط للعطلة القادمة. بالطبع، بين دوامتين من الغبطة، كانتْ تُظهر جوزفين تظهر هنا وهناك بعض الضيق والتبرم والكآبة التي كانت تعزوها إيزابيل إلى مزاجها المُتَصَلب، والمُفْرِط والمسرحي. كانت جوزفين تعبر، عن كل ما تشعر به، بنبرة حادة ــ على عكس باتيست المتحفظ. فطبق سيّئ التقديم يصدم قابليتها إن وصلت إلى المائدة جائعة؛ أو رائحة مزعجة تجعلها تترك المخزن بشكل مُعلَن ووقح؛ وخطيئة باللغة الفرنسية تحجب عنها معنى خطاب؛ ولهجة خاصة بإقليم تحول محدثها إلى مضحِكٍ لا يُقاوَم؛ وبثرة على الوجه وحمرة وشعرة تجعلها متحفظة. ففي نظرها، كان التفصيل مهماً بقدر المجموعة. إن لم يكن أكثر... كانت عاشقة للمطلق، تهوى الكمال، فلم يكن الواقع إلّا مُخيباً لها. سواء أكانت متحمسة أم مُنهكة، فتتناوب عندها القابلية والسخط، مُظهرة حيوية لا تنقطع تفتن أتباعها وتمنع عامة الشعب من حسن تقديرها. تلك الرهافة البالغة التي حرمتها من متع كثيرة قد آلمتها أحياناً. وبما أنها الضحية الأولى لمزاجها، كانت تلتفت نحو باتيست، مرشدها وفيلسوفها كي تنطبع باعتداله، حتى يساعدها على وضع الأمور في مسراها الطبيعي ــ وهذا ما كانت تطلبه أيضاً باندفاع وتثور ثائرتها إذا ما تباطأ. كانت إيزابيل الرقيقة بالغة العشق لتلك السماء المنذرة بالعواصف حتى أنها أهملت كثافة الآلام التي تخفيها.

أما باتيست، فلقد اشتم الأزمة. منذ الليلة الأولى، عرف أنه مُترصدٌ له ومُراقب ومدروسة تصرفاته. إذا كانت جوزفين قد سُرَّت من استقباله إيزابيل، فلقد تعجبت بالتالي، ثم ارتابت. كيف قبل زوجها ما لا يُمكن قبوله؟ هل استقبل إيزابيل في كنفهما الزوجي لأنه كان يضجر فيه؟ هل كان بدافع عشقه لها أم من

السأم؟ كانت ترى في بعض الساعات في ثلاثتهم معاً انتصاراً للحب، وفي ساعات أخرى، خيانة له. وبينما كانت تعطي لنفسها الحق في أن تحب شخصين معاً، كانت أقل منحاً لرجلها لهذا الحق. أدرك باتيست هذا الحرج في نظرة جوزيفين، التي كانت تنسحب أحياناً من الأوقات المشتركة بين ثلاثتهم كي تضع ذاتها كمشاهدة ومتفحصة وقاضية ووكيل نيابة. حتى أنها اعتادت، حديثاً، أن تدخل الغرف بشكل مباغت، كما لو كانت تريد أن تفاجئ الحقيقة؛ فبمجرد أن يقرر باتيست وإيزابيل أبسط مشروع بدونها، كانت تنكمش، مقطبة؛ وقد تنهض قبلهما، فتروح ترغي وتزبد لأنهما يتلكآن في السرير بعد أن تكون قد أعدت لهم الفطور. في الأوقات التي يعمل كل من باتيست وإيزابيل على حدة، كانت تعتبر ذلك إهانة شخصية لها. على كل حال، كانت قد هاجمت جوزفين، في الماضي، فعالية باتيست: «إنني أموت مللاً حين تكتبُ، باتيست. أشعر بأنه لم يعد لي وجود».

لكنها مع السنين، تعلمتْ أن تقلل تلك الغيرة، وألاّ تعتبر تلك الساعات للخلق أنانية بشكل فاضح أو عقاباً كابدته، لكنه أساس حياتهما، وكذلك الأمر بالنسبة إلى المسار الأدبي الذي تخدمه بتخفيف الفنان عن المشاغل الملحقة. في الواقع، وجدت مكانها في كتابة زوجها.

إن دخول إيزابيل المفاجئ قد أبطل هذا التوازن، وكان يعرف ذلك. الآن، مجالان يفلتان من جوزفين: باتيست في مكتبه وباتيست مع إيزابيل. وبالرغم من طبيعة جوزفين البهيجة، كان ذلك فوق تحملها لأنها تسيء تقدير ذاتها.

إذاً، عادت إلى هواجسها القديمة، تلك التي حاربها باتيست: كره ذاتها، اليقين من خوائها، قلقها الميتافيزيقي الذي يقودها إلى أن تشك في وجود سبب وجيه لتبقى على قيد الحياة. فجوزفين البالغة الحيوية والحاسمة والوقحة والمخيفة، كانت تعتبر نفسها بلا فائدة. بينما كانت تظهر كشمس، ترى ذاتها أكثر رمادية من القمر. ففي نظرها، لا قيمة لها، وتقتصر على الأهمية التي يُعطيها الآخرون لها. كان حب باتيست غير المشروط وحده قد أعطاها كياناً؛ أما وقوعه فجأة في غرام امرأة أخرى فقد حطّم تلك الثقة الهشة التي اكتسبتها بمشقة.

في المساء الذي اكتشف فيه باتيست وإيزابيل رحيل جوزفين، مكثا معاً في الصالون يتناقشان ويتبادلان مخاوفهما. بالرغم من أسئلة إيزابيل، احتفظ الكاتب بتحليلاته؛ وإن امتنع عن الإدلاء برأيه، فليس ليحتفظ بنوع من التفوق قط، ولكن بدافع الأمل: كان يتمنى أن يكون على خطأ ويحلم بأن تفهم إيزابيل الوضع بشكل مختلف.

ــ هل أظهرتْ لك أسباباً للرحيل؟

ــ لم أنتبه إلى ذلك حينذاك... كانت تكرر: «أنتِ وباتيست، في الواقع، تتسليان

بشكل رائع حتى أن وضعكما لأفضل بدوني!» وجدتُ ذلك بالغ العبثية حتى أنني لم أجب. وأنت؟

ــ أوه، أنا... كانت تحذر من الكلمات أمامي... في المقابل، لاحظتُ عدائية، مرات كثيرة.

ــ عدائية؟

ــ كانت تحقد عليَّ.

ــ عن أي شيء؟

ــ لأنني قبلتك، بلا شك. ولأنني أشتهيك، وأظهر تعلقاً بك.

ــ لكن، هذا ما أرادته!

ــ لا ينقص جوزفين التناقضات. كلَّا، إن ما يروِّعني...

ــ نعم؟

ــ هو أنها رحلت لتفكر... لا شيء أشد خطراً عليها من التفكير.

ــ باتيست! هذا شنيع!

ــ أقسم لك إنني أقوله من دون ازدراء. فجوزفين تفكر، هذا يعني أن جوزفين وحيدة، بلا معونة، فريسة لأن تحط من قيمة ذاتها. إن لم تشعر بحضور إنساني، إن لم تلمح حاجزاً، تفلت وتدور في دوامة وتقع في الهاويات. هذا ما يقلقني...

في تلك اللحظة، قُرِع الباب. ارتعشا وهما يظنان أن جوزفين قد عادت.

كان القادم ڤيكتور يعلن لهما، وهو حزين، أن أوكسانا قد اختفت.

بعد أن شاركا الشاب تعاسته كما أعربا عن تعاستهما، جلس باتيست وإيزابيل، قلقين لأن عليهما أن يمضيا ليلة من الشك والمخاوف والتساؤلات.

ــ أتدركين ذلك، إيزابيل؟ في مساء ذاك اليوم، كنا نتناول العشاء خمستنا ونحن سعداء، سكارى، لا نُقهَر، والآن هربت أوكسانا وجوزفين... كم السعادة هشة.

نهضت إيزابيل بنشاط.

ــ بلا محاباة، باتيست! لن نستغرق بعد الآن في المأسوي. عليك أن تكتشف الحل.

ــ أنا؟

ــ أنت.

ــ ولمَ ليس أنتِ؟

ــ لو كنتُ أستطيع ذلك... أنت تعرف جوزفين منذ خمس عشرة سنة: لا بد أن تعرف أين هربت.

ــ كلّا!

ــ باتيست، أنت تتفاخر بالنفاذ إلى الإنسانية بفضل عملك ككاتب، إذاً، تستنفر دماغك وتحفر! اجلس في مكتبك وابحث!

أذعن باتيست وهو بالغ الدهشة ليحتج. إن ما أمرته به إيزابيل، لم يكن لجوزفين أن تسمح به لذاتها مطلقاً، وهو ما كاد أن يشير إليه، كي يشكو من موقفها.

حددت إيزابيل قائلة:

ــ أثناء هذا الوقت، سأستريح في الغرفة.

ــ آه صحيح؟

ــ إنها طريقة أبرهن لك فيها عن مدى ثقتي بك.

كانت بالغة العذوبة بقدر ما كانت تواً حاسمة، قبَّلته على رقبته بحنان.

ابتسم ورفع كتفيه وفتح حاسوبه.

فكر قائلاً: «يا للعبث! لا يوجد أي صفحة كتبتها لتساعدني. لماذا تصنع تلك الحركات الطقسية؟».

بعد عدة دقائق، لعب الحاسوب والكرسي والمكتب دورهم: سمحوا له، وهم دعامة تركيز لذهنه، في أن يستنفر قدراته الفكرية التي أوقفها القلق سابقاً. شأن الموضوع يدور حول شخصية خيالية، جمع المعلومات والأحاسيس والصور المتعلقة بجوزفين. بدأ ترابط منطقي يظهر شيئاً فشيئاً. لأن الروائي يحب شخصياته ــ يمكن تسمية حب تلك المساكنة الحميمية، وتلك المجازفة بفتح أبواب في أعماق تسمح لكائن أن يُقيم، وأن يستمد ماهيته مما جمَّع المؤلف في نفسه ــ، استعرض ذكرياته وتجاوز السلبية البحتة للذاكرة ونادى خياله لنجدته. ماذا قد تفعل البطلة جوزفين في موقف كهذا؟

لن تعود إلى والديها لأن العودة تعني، بالرغم من تقديسها لهما، تراجعاً وعودة إلى الطفولة. لن تحط رحالها عند أصدقاء أبداً لأنها حتى الساعة حرصت على إبقاء الثلاثي الذي شكَّلوه بالغ السرية. هل ستذهب على غير هدى؟ لم تكن تستسيغ الموقت، على كل حال، ليس لمدة طويلة، لأنه يضاعف شعورها بعدم سيطرتها على شيء. هل ستحجز في فندق في مدينة كبيرة، في عاصمة صاخبة، مفعمة بالحركة حيث تخدع الملل؟ جعلته تلك الفرضية يتردد... بالطبع، تستطيع أن تلتجئ في مدن تعز عليها، شأن سان ــ بطرسبرغ، أمستردام، استنبول... إلّا أنها اكتشفت تلك المدن معه؛ فالغوص في ماضٍ مشترك سيزعجها. يجب أن يكون ثمة خيار آخر... كان باتيست يقترب من الحقيقة ويلمحها شأن امرأة عابرة عن بعد، يحاول أن يشير

إليها بيده كي تلتفت لكنه لا يتوصل إلى ذلك. يكمن حل في مكان ما ــ وهو مقتنع بذلك ــ، كان على موعد مع البداهة.

كانت إيزابيل على صواب: إن تحقيقه عن جوزفين يشبه كتابة رواية. فالحكاية تقبع في أعماق روحه، يجب الذهاب لجذبها. لا يوجد شيء يُبتكر، ولكن كان كل شيء موجوداً ليُكتَشَف. لم يكن باتيست يدعي بأنه مبدع، لكنه مجرد عالم آثار، الرجل الصبور الذي يُخرج الكنوز المدفونة.

ليساعد وعيه على الغوص في المناطق الأشد حماية في فكره، لجأ إلى حيله المعتادة: الموسيقى والسيجار.

وقد تمدد على أريكة، أطلق من مكبرات الصوت قداس موزار ب (ut mineur)، لم يكن يرغب في سماعه ــ كان يعرف كل نغمة فيه ــ، أراد ترك روحه تهيم بالقرب منه وتتيه في المجموعات الغنائية وتختلج مع الأوتار وتطير محلقة على أجنحة الغناء. لم يكن العمل الموسيقي يصلح إلّا كوسيلة تقفز منها أحلام يقظته.

لكن موزار دخل الغرفة وجلس عند رأسه وراح يُحدِّثه، بحضور قوي، جذّاب، زلق اللسان، متنوع. تابع باتيست أفكار المؤلف الموسيقي وليس أفكاره. ليوقف هذا السحر، قفز على قدميه وغيَّر الأسطوانة، وهو يبحث عن قطعة أكثر هدوءاً، وأقل استثاراً، ناقلة لا تمنعه من أن يفكر بحرية. بدا له شوبرت كاملاً، بألحانه المتكررة، باعتداله، بأطواله الإلهية؛ دوَّت بكل زخرفتها (la sonate Arpeggione) وأشعل باتيست سيجاراً ثخيناً.

وهو يتابع دوائر الدخان ويستدفئ بالأنغام الدائرية والمتقلبة، عاد ثانية إلى التأمل. أين ذهبت تلتجئ الشخصية التي تُدعى جوزفين؟

كان جواب يرتسم من جديد في أعماقه، لكنه لم يستطع أن يُدرك خطوطه ولا شكله. إلّا أنه كان يعرف أنه سيصوغ قريباً هذا الجواب.

أخيراً حدث الأثر المترقب من الموسيقى ومن التبغ: أحس رغبة حادة في النوم، أقرب إلى العنف، شأن ضربة على الرأس. «ألّا يُقاوم بشكل خاص».

غط في النوم. بعد عدة لحظات، استيقظ وهو يُشهر الفكرة شأن غوّاص برز مع اللؤلؤة المشتهاة: كانت جوزفين تنتظره في إيرلندة!

قفز إلى غرفة النوم حيث لم يكن يحتاج لانتزاع إيزابيل من استراحتها لأنها كانت تُعِد حقائب السفر.

صاح باتيست متعجباً:

ــ ماذا تفعلين؟

ـ أعد أمتعتك وأمتعتي.

ـ لماذا؟

ـ لنذهب إلى المكان الذي ستحدده لي. ابتسم، مبهوراً بكل هذا التفاؤل.

ـ تقيم جوزفين في كورك، في إيرلندة. في نزل عائلي.

حطت بهما الطائرة في بلد النفل حيث كان خط مباشر يصل إلى كورك. للمرة الأولى، كانت تطأ قدم إيزابيل أرض (السلت Celtique)، وهي تركز بتأثر على هدفها: استرجاع جوزفين. أما باتيست، فكلما تقدمت الرحلة، قويت ثقته.

«لم تكذب عليَّ شخصية من شخصياتي مطلقاً. لم تخدعني شخصية قط، أنا الذي أخطأت بتوقفي في الطريق، وبعدم ذهابي بقوة للقائها، وباكتفائي برؤية بعيدة». فوق بحر الشمال، شرح لإيزابيل «البرهان بالنوم»، وهي إحدى عقائد الكاتب: ففي نظره، يؤدي الرقاد إلى الحقيقة. كان عليه أن يسلك دائماً هذا الممر. بمجرد أن يتبيَّن وجود شخصية ويحدِّدَ معالمها ويبدأ بسماعها، حتى يغفو عدة دقائق كي يستيقظ وهي بجانبه. منذ بداياته كروائي، كان Hypnos إله النوم[1] يأخذ باتيست من يده كي يترك الواقع الفعلي ويلاقي الحقائق الجوهرية التي تحويها مخيلته.

ـ إن جوزفين تضجر في كورك. ما إن أصل إلى الحقيقة حتى ينتابني إحساس بالبداهة.

وصلت الطائرة فوق الجزيرة الخضراء وبدأت تحلق بمحاذاة الساحل، ونتوءاته المستديرة التي أوهنتها آلاف الرياح التي انبثقت من الأمواج لتداعب اليابسة.

كانت اهتزازات تُحرك جسم الطائرة. وفي الأسفل، البحر الشاسع، العدائي، بأزرق قاتم، أقرب إلى العنف يهدر ويهيم حول جروف، شأن من يتردد في أن يُجنب الصخور من أمواجه.

ـ انظري، تلك أولى قطعان إيرلندة، قطعان الغيوم.

حين بدأت الطائرة تستعد لهبوطها في كورك، حلَّ الاخضرار مكان الزرقة، وهو يكشف عن الهضاب المُدرَّعة بجدران منخفضة وعن القصور الريفية الصغيرة المبنية من الأحجار البنية المعلقة برؤوس عالية وعن الجبال الرمادية الواقعة عن بعد.

سألت إيزابيل، بجفنين مغمضين، وهي تسعى إلى نسيان ارتجاجات الطائرة:

ـ الآن، فسِّر لي كيف استشففتَ أننا يجب أن نهبط هنا؟

---

(١) Hypnos إله النوم عند الإغريق - (المترجمة).

ـ حين تعارفنا، أنا وجوزفين، وقعتُ في حبها لكنني رفضت قبول ذلك. كنتُ أظن أنني لست مفتوناً إلّا بشيء واحد: حريتي. عذّبت جوزفين كثيراً. بينما كانت تقدم لي ذاتها كلية، من دون تحفظ، تركتها، واسترجعتها، محاولاً أن أثبتَ لنفسي أن لا شيء يربطني وأنني باقٍ سيد أمري الوحيد. بصراحة، لم يكن للحب العظيم مكان في مخطط حياتي، كما كنت قد قررتُ أن أتنقل من امرأة إلى أخرى شأن الفراشة بين الأزهار وأن أعيش ألف قصة حب. الجمع، كنت مهووساً بالجمع وأرفض المفرد. فهمتْ جوزيفين، على الفور، أن لقاءنا مصيري. في كل مرة وجِدتُ بالقرب منها، شعرتُ بالإحساس عينه، لكنني أرغمت ذاتي على الابتعاد وفي نيتي التخلص من تلك التبعية. أن أستقر؟ على الإطلاق! ذات صباح، اختفت جوزفين. وبالرغم من أننا لم نكن نعيش معاً، كنا قد ذهبنا ثلاثة أسابيع، كزوجين، عند أصدقاء، إلى الساحل اليوناني. بعد خمسة أيام من السعادة المطلقة، تبخرتْ جوزفين.

ـ هل قلقتَ من اختفائها؟

ـ لقد حرصتْ على أن تخط كلمة كي تجنبنا الظن بغرق أو بأية كارثة أخرى. حينذاك فهمتُ.

ـ ماذا؟

ـ كم كنتُ أحرص عليها. أصبحت أشد عشقاً لها من حريتي. فكرتُ في العودة إلى باريس لكنها أرسلت إليَّ برقية في جزيرتنا اليونانية تشير فيها إلى أنها سترسل إليَّ عنوانها إن كان ذلك يهمني. كانت تلك الفترة من أزعج فترات حياتي: اتخذت قراري، كنتُ أعرف إلى أية درجة أعشقها ولم أكن أستطيع أن أبوح لها بذلك. أخيراً، وصل العنوان، أخذتُ الطائرة نحو كورك.

قطعت ابتسامة وجهه. وبرقت عيناه.

ـ كانت تنتظرني في أسرة إيرلندية من ستة أولاد، وسط الأغنام.

ـ لماذا في ذاك المكان؟

ـ مع جوزفين ليس هناك لماذا. إما القبول وإما الرفض.

لامست الطائرة الأرض، ترددت ثم ثارت وحطت على المدرج.

تمتمت إيزابيل قائلة:

ـ أشكرك لاصطحابي.

ـ عفواً؟

ـ قدمتَ لي دليل حب جميلاً. أتيتَ بي إلى قلب قصة حبك مع جوزفين.

وبمثابة تأكيد، قبّلها باتيست باندفاع وولـه. كانت قبلة حقيقية، طويلة، مؤثرة لا تنتهي. رقَّ قلب المضيفة وقد ظنت أنهما زوجان في رحلة شهر العسل. هل كانت تستطيع أن تتخيل، إن كان هذان العاشقان يتعانقان بتلك القوة، فلكي يلتقيا كلاهما بين ذراعي امرأة أخرى؟

قرر باتيست، في المطار، أن يستأجر سيارة.

ـ بالتاكسي، ستكون الأمور معقدة جداً، لأنني لا أعرف أن أعطي للسائق عنواناً محدداً. في المقابل، سأتعرف إلى الطريق انطلاقاً من المرفأ.

أيدت إيزابيل ذلك ونظر باتيست إلى قدميه بحرج.

ـ أتستطيعين أن تقودي السيارة؟

ـ إذا أردتَ.

ـ أوه كلّا، ليس لأنني أريد ذلك... ليس عندي رخصة قيادة.

ـ هل رسبت في الفحص؟

احمرّ وجهه بانزعاج.

ـ كلّا، لست أبله! في الواقع لم أتقدم إلى الفحص مطلقاً.

تعلقت إيزابيل برقبته لتنقرها بالقبل وهي تضحك. كلما عاشرَتْه وجدت باتيست المتين، باتيست الذي لا يهتز، الكاتب المحترم، المعقد، والذي يكاد يعادل تعقيده غنى جوزفين، تلك الماسة بوجوه مختلفة. حين يظنه المرء عقلانياً، يصير متصوفاً. وإذا رآه الناس مسؤولاً واعياً، تألق بالطفولة.

أقر ليبرر نفسه قائلاً:

ـ أنت تفهمين، إنني بالغ الشرود. فبدلاً من أن أنظر إلى الطريق وإلى اللوحات، أفكر في شخصياتي وأتأمل حركة الأسلاك الهاتفية على طول الطريق لأن انحناءاتها تهدهد لي.

ضمَّتْ إليها الصبي الذي يحلم بحكايا وهو في السيارة ووضعت إجازتها للقيادة على المنضدة واختارت سيارة سريعة حمراء.

انحدرا نحو كورك. بالرغم من اتجاه السير نحو اليسار، قادت إيزابيل بثقة.

كلما تقدما، ازداد تقديره لتَغيُّر إيرلندة منذ صباه. فالطرق والمباني الصناعية والمخازن... ثمة ازدهار قبيح اكتسح المشهد الريفي سابقاً. إذا كان قد اغتبط لأن البلد تخلص من الفقر الذي ركد طوال قرون، لكنه راح يتساءل إن لم يكن قد أخطأ الطريق... بما أن العالم قد تغيَّر، ربما هو أيضاً تغيَّر؟ وجوزفين أيضاً؟ كيف يمكن قطع آلاف الكيلومترات لمجرد حدس؟

وصلا إلى كورك، تلك المدينة التي يقطعها النهر قسمين وأفضيا إلى المرفأ. دُهشتْ إيزابيل من البيوت القصيرة الملونة والمضغوطة، وكل بيت يلتصق بشدة بالبيوت الأخرى. كان فيض ألوانها يفاجئها: قد تبدو تلك البيوت استوائية، لكنها لم تكن كذلك؛ وقد تبدو تلك سوقية، لكنها لم تكن كذلك؛ وقد تبدو رخيصة ومبتذلة، لكنها كانت جميلة ورائعة وجذّابة. كان تلوين الواجهات ــ من الوردي الفاقع وأزرق البحر المرجاني وأحمر المعابد الصينية والأخضر المتألق والبرتقالي الغازي ــ لا تتنافر لأن رذاذ المطر والسماء المرقطة والمناخ المحيطي تجعل تلك الألوان كامدة فتغنيها مضيفة إليها برنقاً كابياً لرسَّام عظيم شأن طبقات تُعتم لوحة قديمة.

توقفا على جسر سان بتريك ذي العقد الثلاث وبحث باتيست في ذكرياته. اقترح حينذاك اتجاهات كثيرة متناقضة. شأن الأشخاص الذين لا يقودون، كانت ذاكرته للأماكن ضعيفة، غير مجدية، ضالة وهو يعتمد على تفاصيل مثل النباتات والإعلانات وواجهات المخازن، وهي عناصر قد اختفت.

لم تفقد إيزابيل صبرها لأنها شعرت بتعاسته لعجزه. أخيراً، تعرَّف إلى تمثال مريم العذراء من فخار في مفرق وتركا المدينة ليذهبا إلى الحقول.

فجأة، جاء نور مبهر يُضيء المشهد، شأن نهاية المشاكل، فجر ثانٍ انطلق داخل النهار؛ انقشعت السماء وأحسا أن الغيوم الصغيرة تتحول من الآن فصاعداً إلى لمسات فنان وبذلك زادت من عمق الزرقة.

سلكا دروباً ضيقة تحيط بحافتيها جدران صغيرة تكسوها الطحالب وكذلك حواجز منقوشة. انبثقت لوحة ريفية عند تقاطع طرق.

ــ «عند أسرة ميرفي، سرير وفطور!» هناك في الأعلى.

مكتبة
t.me/t_pdf

انتصر باتيست!

سلكت السيارة درباً حجرياً وسط الخراف.

أمام المزرعة بمصاريعها البنفسجية اللون، بدت جوزفين تضجر، وهي جالسة على صخرة. حين سمعت ضجيج المحرك، نهضت وعلت بحيوية على رأسي قدميها محاولة أن ترى منْ داخل السيارة الحمراء ذات البابين. توقف المحرك. انبثق باتيست ثم إيزابيل.

ابتسمت لهما جوزفين.

من دون أن يتحركوا، تبادلوا بحب النظرات مطولاً. كانت النوارس فوقهم تبتسم، مرحة، ضاحكة.

خفضت جوزفين عينيها وقد احمرّ وجهها انفعالاً وأطلقت بنبرة شقية متذمرة:

ــ آه، لم تأتيا باكراً. ظننت أن انتظاري قد طال.

ثم ألقت بنفسها بين ذراعيهما وهي تضحك.

بعد عدة دقائق، وجدوا أنفسهم في غرفتها، لأنها فاوضت صاحبة المزرعة، السيدة ميرفي، وهي امرأة قاسية، يعادل طولها عرضها، كي تصحب إلى غرفتها. مدعويها.

جلست على السرير الضيق المفرد. أحاطا بها. احتجت نوابض السرير.

شرح باتيست لجوزيفين، وإن أحدث صدمة، أنه لا يستطيع أن يحب إيزابيل من دون رفقتها، وشرط أن تحبها. إذاً، أعاد وضع زوجته في مركز مغامرتهم.

ــ لما كنتُ ذهبت نحو إيزابيل دونك. أنت التي قدتني إليها. إن تفاهمنا البالغ وعشقنا الكبير بعضنا لبعض لن يمحو ذلك. التفتَ نحو الشابة الشقراء:

ــ إيزابيل لنا، جوزفين. إنها تدخل في حياتنا الزوجية.

تمتمت إيزابيل قائلة:

ــ إنكما شأن قطرتي ماء على زجاج. قطرة الماء جوزفين وقطرة الماء باتيست. منذ زمن طويل، انضمت القطرتان بعضهما إلى بعض لتشكلا قطرة واحدة. لم يعد أحد يستطيع أن يفرقكما. لا يمكنني أن أتصور أنني أحب واحداً من دون أن أحب الآخر.

نظرت إليهما جوزفين ورأت أنهما صادقان، فعدلت عن الاحتجاج وأمسكتهما بذراعيها.

ــ اصطحباني فوراً معكما. لا أحد من الكاثوليكيين المتشددين الذين يحيطون بي يمكنه أن يفهم ما نعيشه. إننا هنا في القرن التاسع، بالضبط بعد أن بشَّر القديس بتريك السيلت بالإنجيل.

ــ إنك تبالغين.

ــ على الإطلاق. إن إيرلندي منحط الأخلاق، هو إيرلندي في الخارج. وعلى سبيل المثال، انظر أوسكار وايلد.

اقترح باتيست قائلاً:

ــ أو يكون إذاً إيرلندي سكران؟

ــ كلَّا، هذا يكون إيرلندياً سعيداً.

أخرجت وهي ضاحكة، زجاجة ويسكي أخفتها تحت سريرها وأقفلت الباب بالمفتاح وارتمت على السرير وهي تضم إليها باتيست وإيزابيل.

٤

ــ قل لي لودو، ألا تفضل الشباب على البنات؟

تراجعت كلودين وتكتفت، تتفحص تقاطيع ابنها.

ترك لودوڤيك الدخان ينبجس ببطء من حنجرته وتبعه بعينيه وغبَّن جفنيه.

ــ كنتُ أنتظر هذا السؤال. أمام إخفاقاتي، انتهى بي الأمر إلى أن أطرحه على نفسي.

ــ هذا ليس خطيراً... اليوم لم يعد أحد يحتقر اللوطيين.

هزَّ رأسه قائلاً:

ــ أعرِف تماماً أن هذا ليس خطراً. لا أحد يسخر من لوطي متوازن بينما يسخرون منِّي.

ــ ماذا؟ الجميع يعشقونك!

ــ أجل، أجل، الناس يستلطفونني شأن طفلٍ يحبونه... في المقابل، حين يتذكرون أنني في السادسة والعشرين من عمري وأننِّي أعيش وحيداً شأن فهد في سيرك، يضحكون من حالي.

ــ لودو لا تتلافَ سؤالي. إن كان عندك مشاكل مع النساء، فهذا يعني بكل بساطة أنك تحب الرجال، أليس كذلك؟

ــ بكل بساطة...

أمسك سيجارة وفكَّر ووضعها وأخذها ثانية وعدَلَ عن إشعالها ليعلن حدثاً هاماً.

ــ أتعرفين طوم، أستاذ الفلسفة الذي يسكن في الاستوديو المقابل؟

ــ من لا يعرفه؟

ــ أترينه وسيماً؟

ــ أجل، إنه ميئوس منه بالنسبة إلينا، نحن النساء، لكنه جميل جداً.

ــ حسناً، أنا أيضاً أجده جميلاً جداً.

ــ آه، ترى أنني على صواب!

كانت كلودين ترتعش فرحاً. مرة أخرى، سيمكنها أن تساعد محبوبها لودوڤيك، وأن تدبر أمره. ابتداءً من تلك اللحظة، توضح مصيرها: ستصبح الأم الرائعة لمثلي كامل، سعيد، منشرح، ستكون فخورة به وستصمد أمام العالم أجمع. بالطبع، هذا يعني أنها ستعدل عن أن يكون لها أحفاد... لا يهم! لودوڤيك قبل كل شيء!

جفل الشاب أمام الحماسة التي ظهرت على وجهها.

ــ لطوم نظرية: لا يوجد رجال يحبون الجنس الآخر، لا يوجد إلّا رجال أسيء نكاحهم؛ ففي نظره، العالم لوطي. إذاً، ذات مساء من أمسيات الشك، اقتنعت أن هذا الشخص يُجسِّد حلاً لمشكلاتي.

ــ وماذا فعلتَ؟

ــ تبعت لمدة خمسة أسابيع نظاماً غذائياً للنحافة كي أفقد الإطار حول بطني. هذا سهل، لم آكل إلّا بذوراً.

ــ بذوراً؟

ــ كنتُ أشعر بأنني دجاجة لكنني نجحت... غريب أن الطعام الذي يُسمِّن الطيور يُنحِّف البشر. باختصار، وأنا أنظر في المرآة بعد شهر من خم الدجاج، قدَّرت أنني، وإن لم أكن رائعاً، لكنني كنتُ أقله مقبولاً. حينذاك دعوت طوم، وقدمتُ له الشراب، ثم سررت له أنني أتساءل إن لم أكن لوطياً... هذا الشَّبِق الذي يحتاج إلى النكاح مرات كثيرة في اليوم والذي يُثار لأبسط إطراء قفز عليَّ وانتقلنا إلى الغرفة. وهناك...

ــ هناك؟

تنهد.

استرسلتُ في الضحك، ضحك متواصل هائل. كلما لمسني، كنتُ أضحك ملء شدقيَّ، شأن من يسمع نكتة. وحين خلع ثيابه، رأيتُ ذلك... مثاراً للسخرية. كنتُ... كنتُ... كان منزعجاً.

طأطأت كلودين رأسها، باستياء قائلة:

ــ إنك تدعو إلى اليأس.

تسلى لودوڤيك من هيئتها المخذولة.

ــ إنني آسف، أمي، لأنني لست مثلياً. لم أكن أتصور أنني سأسبب لك الخيبة بهذا القدر. قفزت كلودين من مقعدها، وقد احمرّ صدغاها.

ـ أخيراً، ماذا أنت عليه؟

رفع كتفيه. أيستطيع الإجابة عن ذاك السؤال؟ أيمكن لأحد أن يعرف من هو؟ إن الإنسان نتاج ما يقوم به؛ أما هو فلم يكن يعمل شيئاً.

شرعت كلودين تدور في الغرفة تتمتم:

ـ بصراحة، لا حظ لي معك.

لم يرق التعليق لودو مطلقاً، فأجاب:

ـ إنني آسف لوجودي.

ـ إنك لا تُيسّر لي الأمور، لودوفيك.

ـ اشرحي لي ما علاقتك بذلك. حياتي الخاصة تتعلق بي، أنصحك ألّا تتدخلي فيها وأن تبقي في مكانك، فيورديليجي!

بمجرد أن ذكر اسمها المستعار في الإنترنيت، اتخذت كلودين مظهر المغتاظة.

ـ أوه... كنتُ أنتظر توبيخاً وتأنيباً...

ـ يا لحصافتك! ألا تعتقدين أنك بالغتِ في تصرفك، هناك؟

ـ أنا...

ـ هل أن إجابتك عن إعلان غرامي وضعه ابنك فعل جائز لأم؟ مرعب...

ـ كان بدافع الحب لودو...

ـ هذا بالضبط ما أقوله:

ـ إن حبك وحشي، مخيف، تظنين أنه يعطيكِ حقوقاً وأنك تستطيعين أن تتدخلي في حياتي الخاصة، وأن عليك أن تسيطري على كل شيء. فكري بالوضع: كنتُ أعتقد أنني أتواصل مع امرأة بينما كنت أكتب إلى أمي.

صرخت قائلة:

ـ إنني امرأة!

نظر إليها بارتياع. التقطت نظرته وبقيت تحدق إليه. كل هذا القدر من عدم الوعي ومن سوء النية قضيا على صبر لودوفيك؛ لم يعد يسكت عن انتقاداته ومآخذه:

ـ ألم يخطر ببالك أنه يصعب عليَّ أن أصبح راشداً سوياً مع أم مثلك؟

ـ ماذا!

ـ أم لم تدافع عني حين كان أبي يخبطني ـ يجب القول إنه كان يضربك أيضاً ـ أم تلتصق بي منذ ذاك الوقت حتى أنها تخنقني.

ـ «ألتصقُ» بك!

ـ لن أسامحك مطلقاً لأنك غازلتني على الشاشة.

ـ كفى! لم نذهب بعيداً جداً.

ـ كيف يمكنك معرفة ذلك حين البدء؟

ضحكت بسخرية قائلة:

ـ يمكن معرفة ذلك معك منذ البداية.

ـ وإن لم يكن الأمر كذلك، لو أصبحتُ حقاً عاشقاً؟ ربما كنتُ عاشقاً، لم أستطع أن أعي ذلك بما أنني صحوت بسرعة.

ـ أنت ترى أنني أحترمك: بمجرد أن فهمتُ أنك تتعلق بي، حتى كشفتُ هويتي. إن ذلك برهان حقيقي!

ـ إن ما أراه كابوسيٌ! تتفاخرين بأنك توقفت في حين لم يكن عليك أن تبدئي؟

ـ كنتُ بحاجة إلى أن أعرف.

ـ ماذا؟

ـ من أنت.

ليس هناك أم تعرف حقاً ابنها، خخصوصاً في السرير. عليك أن تفعلي مثل الآخرين: تجهلين ذلك. بهذا الثمن تنشأ علاقة سليمة بين ابن وأم.

ـ علاقة سليمة... علاقة سليمة... إنك لا تخاف الكلمات! سيدي يتحدث عن علاقة «سليمة» بينما وهو في السادسة والعشرين، لم ينجح قط في الحصول على صديقة عابرة!

ـ طبعاً، لأن أمي هي التي تقدم لي صديقاتي أو تبعدهن لتسترد مكانهن، أليس كذلك فيورديليجي؟

ـ متى ستكف عن اتهامي بتلك النكتة؟

ـ مطلقاً، فيورديليجي.

ـ ألا تخطئ، أنت؟

ـ بلى، لكنني أسعى ألَّا أخدع الآخرين، فيورديليجي.

ـ لودو، اسكت.

ـ كلَّا، فيورديليجي.

ـ لودو، لن ألف وأدور: إن كررت هذه الكلمة، فيورديليجي، فلن تراني طوال حياتك بعد اليوم.

ــ فيورديليجي! فيورديليجي! فيورديليجي!

وكمن أصابه مس من الجنون، راح لودو يقطع الشقة صارخاً هذا الاسم بصوت مبحوح.

لَّمت كلودين حقيبة يدها وهربت نحو الممر وصفقت الباب.

إثر هذا الصوت، توقف لودوڤيك عن الصراخ. فالسكون الذي غمر الغرف أثَّر كمكافأة. إلَّا أن تفصيلاً أربكه: لم يسمع محرك المصعد.

على رأسي قدميه، توجه نحو المدخل متجنباً طقطقة خشب الأرض. أي بقدر ما استطاع من التكتم، نظر بعين من فتحة الباب الصغيرة التي تسمح بملاحظة رأس الدرج: بقيت كلودين متسمرة على العتبة، بلا حراك، حذرة، تصيخ السمع.

صرخ فجأة بصوت مدوٍ:

ــ فيورديليجي! فيورديليجي! فيورديليجي!

ضربت كلودين المصراع بسخط وغيظ، وتمتمت بكلام غير مفهوم ثم هربت عن طريق السلم.

أحدث المشهد في نفس لودوڤيك حالة جديدة، إنه ضيق وارتباك قرر تسميته ارتياحاً. فكرياً، كان على صواب في كشف تعسف أمه. عاطفياً، كان طرده لها يستمر في إزعاجه ويجعل يديه ترتجفان.

استغرق في عمله. ألَّا يفكر بعد اليوم بكلودين! فالمجلة الثقافية التي أنشأها لا تزال تقتضي منه ساعات من التحرير.

في فترة ما بعد الظهر، وهو يكتب مقالاً عن المنادين الأميركيين بمنهج الحد الأدنى، استعاد قصته مع طوم. بالطبع، لقد اختلق ذاك اللقاء من أساسه لكنها بدت له ملائمة. وهو يرويها، اقتنع أن الأمور قد جرت على هذا الشكل. أعليه مع ذلك أن يجرب ذلك؟ أيجب أن يرغم ذاته على عيش ما لا يتشهى عيشه مادام يعرف مسبقاً مخرجه؟

ــ إنني تعب من التأكيد أن لا قيمة لي. من الآن فصاعداً، أتكفل بذلك.

رأى ثانية كيف تتهالك أمه عليه كي يضاجع فتيات ورجالاً.

ــ يا لها من مهووسة... هل يثقل عليها كثيراً وضعها كأرملة؟

أدرك، للمرة الأولى، أن الضغط يأتي من الخارج، وليس منه. منذ أعوامه العشرين، يلح الآخرون عليه ليُنَمّي الحياة الجنسية ــ بدءاً من رفاقه، ولأنه أحسن

تفاهماً مع الفتيات، ثم رفيقاته وصديقاته وأمه ونساء لا يعرفهن. فمحيطه مهووس بذلك، أما هو فلم يكن يفكر فيه قط.

أصغى إلى نصائحهم، منقاداً، وبكل طيبة خاطر ثم جرَّب حظه في سوق العلاقات الجسدية. أكان يغامر في هذا المجال لولا إلحاحهم؟ كلَّا، طبعاً. في الواقع، لم يكن لودوڤيك يشعر بحاجة للجنس ولا برغبة فيه.

كي يرفه عن نفسه، فتح لوح شوكولا بيضاء بالحليب وشغَّل التلفاز.

ــ ثانية!

للفور ظهر زكاري بيدرمان على الشاشة. كان المختصون بعلم النفس وبعلم الاجتماع، وبعلم العلاقات الجنسية وبعلم السياسة يناقشون حالته، الإدمان الجنسي.

تعجب لودوڤيك، مغتاظاً بالرغم من اهتمامه وصاح:

ــ بالنسبة إليَّ، تعادل غرابة الموضوع ربورتاجاً عن زرافات الحبشة!

شرح المختص بعلم النفس أن الفرد يبحث عن أحاسيس المتعة لأنها تحرر لديه مشاكلة داخلية. احتج المختص بالأعصاب قائلاً:

ــ أو العكس. على كل حال، اتفق مجمع المختصين على إعطاء مكان رئيسي للجنس.

رغب لودو بالتدخل قائلاً: «وحين لا يكون للمرء أية رغبة أو شبق؟»

أدرك كلما ازداد سماعاً لهم، أنه يسير بمحاذاة مجتمع عصره، حيث الجنس ليس فقط إلزامياً ولكن يجب النجاح فيه.

«نجاح العلاقات الجنسية... يا لغرابة تلك الفكرة! ثمة اعتراض، سادتي: أتتخيلون أن ينجح المرء في حياته بمنأى عن الجنس؟»

أتستحيل السعادة والتوازن والتفرغ للآخرين أو للذات من دون حك الأعضاء التناسلية بعضها ببعض؟

قطع لودو التلفاز. أحس، وهو لا يمارس أية فعالية جنسية، أنه من الأقلية ولكنه شعر خصوصاً بالخجل؛ كان يشار إليه بإصبع المهانة ويلومونه على عدم وجود هرمونات تفرزها خصيتاه.

«لماذا لم تنسحق خصيتاي على برميل بسبب حادث. إذاً لرثي لحالي أقله». أجل، لغفر الآخرون عجزه الجسدي. حتى أنهم يغفرون شذوذه.

«إن الشذوذ الجنسي يُطمئن. يفهمه الناس».

فالفعالية الجنسية وإن كانت ملتوية، فإنها تبقى جنسية. يقبل الناس تلك الضرورة الملحة التي تلقي بجسد على جسد آخر، مهما كانت النتيجة.

«أجل، لو كنتُ أجمع السياط أو الجوارب المهترئة، لرفعت أمي رأسها عالياً في المجتمع. ولكادت تفضل أن أضاجع العنزات أو أن أجري وراء البقرات. إنها أم تتسامح في علاقتي الجنسية بالحيوانات، وهي مستعدة لذلك! ستناضل من أجل تلك القضية. ستذهب لترى الملك كي يفتح لي اصطبلاته مرة في العام. في المقابل، أما أن تقبلني كما أنا، فكلّا!».

كانت أمه تمثل زبد عصرها، وهو زمن يضع الحياة الجنسية فوق كل شيء. في قرون أخرى، تطرح حالة لودوڤيك مشكلات أقل: يمكنه أن يلتجئ إلى رهبانية، ويَدَّعي ممارسة التقشف.

«التقشف؟ يا لها من خدعة مسلية! لا يزال التقشف عن الجنس هماً لممارس مهووس جداً».

على العكس، لا أحد يقبل صمت الرغبة وسلام الجسد. لم يشكل انعدام الرغبة الجنسية مشكلة إلّا زمن العلاقات الجنسية المسعورة.

أغلق التلفاز حين كان مختص بالسياسة يعرض نظرية عن العلاقة بين قابلية السلطة وقابلية الجنس.

ــ اخرس!

ركض إلى المطبخ وأخرج من الخزائن ما كان عليه أن يتجنب أكله: من فطائر، بسكويت بالجوز، وألواح من الحبوب و أخرى من الشوكولا البيضاء. كانت وليمة حُرَيرات رافقها بزجاجة لبن سائل بالموز. لم يكن يحب الأكل ــ وهذا ما كان يقوم به بسرعة ــ لكنه يحرص على الشعور بالشبع الذي هو على حافة التقيؤ أو النوم.

حين مرَّ أمام المرآة، ألقى نظرة على هيئته المضحكة.

ــ بعض الجهد أيضاً وتغدو لودو غير مرغوب للنكاح.

ابتسم وهو يرافق جملته بغمزة من عينه.

فجأة، تسمر في مكانه. لقد فهم تواً ما قاله.

مع الطعام غير الصحي والملابس المقززة، كان يهاجم ذاته كي يقيم خارج اللعبة وينسحب من السباق الذي يتمنى الآخرون أن يشارك فيه. أراد أن يبرر إخفاقه الغرامي مبرهناً أنه لا يستطيع أن يوحي بالحب. إذاً، كان يحطم نفسه كي يحصل على السلام.

تفحص ذاته ثانية أمام المرآة. في الواقع، لم يكن يرغب أن يتشوه وهو مستعد

أن يرفع شأنه، خصوصاً وأنه أظهر في نقاط الوجود الأخرى أذواقاً مرهفة. كان ضغط هذا العالم الجنسي يقوده إلى تشويه ذاته.

جلس على وسادته المفضلة واختار (Sirènes) لدوبوسي، وهي موسيقى حسية حيث تختلط جوقة من النساء مُغلقة الأفواه بأمواج الفرقة الموسيقية، فتتشابك الألحان التي يعادل سحرها ورهافتها دخان سيجارة في ليلة صيف.

حتى أذواقه الدفينة تُظهر أنه يعيش على حدة؛ فالموسيقى الكلاسيكية تعزله وإصغاؤه اليقظ يقتضي وحدة وصمتاً. وهذا ما لم يستطع تغييره ولا يرغب في ذلك. فات الأوان. في المقابل، ما بقي وهو إساءة معاملة جسده، جعله قبيحاً أو مبتذلاً... أجل، يمكن أن يتحرر من تلك الضغوط.

دق الجرس فانتفض وتذكر فجأة أنه قد أعطى موعداً لتيفاني.

دخلت وقفزت تعانق رقبته وهي ترتجف كورقة.

ــ أوه، عزيزي لودو، كم أنا مسرورة من رؤيتك!

ــ إنك في مشاكل مع رجلك!

أسرعت تيفاني في الجلوس في مقعد وهي تبتلع عصرونية لودو، روت له الصعوبات التي اعترضتها مع رفيقها. تلقى لودو مساراتها وهو يُحييها بأسئلة، وبنصائح من هنا وبتوضيح عن نقطة هناك.

ثم راحت تكرر أقوالها. فاستفاد من ذلك ليفكر بأمه. لم يحدث مطلقاً، في حياته كابن، أن أبعدها بهذه لأنها لم ترتكب هجوماً كهذا. كلما أمعن في التفكير، بدا له أن تدخلها في حياته العاطفية لا يُغتفر.

كانت تيفاني، وقد تعبت من البقاء في مشكلاتها، أبعدت الموضوع وأثارت الصعاب التي يواجهها أصدقاؤهما المشتركون:

ــ تصور، بات وجان، انتهى ما بينهما.

ــ كنتُ أعرف ذلك. قيل لي إن بات تعيش مع بول.

ــ هذا من الماضي.

ــ أوه، الأمور تدور... وكيف حال كرازيلّا؟

ــ تركت ألدو. رودي وليتيسيا ينفصلان.

قال لودو متعجباً:

ــ هما أيضاً؟

لاحظ أن تيفاني قد ابتلعت كل قطع الحلوى التي أعدها على الطاولة المنخفضة واغتبط من ذلك: ها هو قد بدأ نظامه الغذائي.

ـ في الواقع، كنت أحرص على أن أقول لك، تيفاني، إنني حسن الحال.

ـ عفواً؟

ـ إنني على أفضل ما يرام.

قطبت وجهها، غير مُصَدِّقة قائلة:

ـ لحسن الحظ...

ـ إذاً، من غير المجدي أن تستمري أنت والرفيقات باعتباري مريضاً.

ـ لودو؟

ـ إن ما هو مشكلة عندكم لا يشكل مشكلة بالنسبة إليَّ.

ـ عمَّ تتحدث؟

ـ عن الفعالية الجنسية. ليس لي علاقات.

ضبطت ابتسامة ثم ادعت أنها تبحث عن الإلهام في السقف.

ـ صحيح، لقد فكرتُ فيك بالضبط، وأنا أرى على لوحة، مجموعة مؤلفة من «بلا علاقات جنسية». إنهم يتفننون ليعترف بهم الناس.

ـ لست مبالياً بذلك. لا جدوى منه. لن أصبح أكثر سوية لأنني أضَافُ كعدد إلى أمثالي. لا أشعر بحاجة للانتماء إلى قطيعٍ.

ـ يجب أن يكون للمرء مكان في المجتمع.

ـ عندي مكان ولا حاجة لهذا المكان أن يكون سوياً. ثم إن المكان الذي أشغله، هو مكاني وأحتفظ به. انحنى إلى الأمام.

ـ لست متيقناً تماماً من أنني منعزل، كما تعرفين. ما هي الصداقات العظيمة، إن لم تكن علاقات مجردة من الجنس؟ ما هو الحب الأبوي والأمومي أو البنوي إلَّا علاقة بلا جنس؟ فكل قصص الحب الكبير والتي هي في أفضل حال، بلا جنس. يتوصل كل واحد، من دون أن يرغم ذاته، على أن يكون ابناً وأخاً وصديقاً وأباً. نادراً كل ذلك معاً. في المقابل، يتشبث العالم بالحب الشهواني، وإن ذهب هباءً منثوراً. سأهمس لك بمسارة: إن المرأة التي أفضلها في حياتي هي تلك التي ليس لي معها مطلقاً أية علاقة جنسية ولن يكون لي معها أية علاقة جنسية بتاتاً.

ـ ماذا في الأمر؟

سكت وذهب إلى النافذة التي تُطل على ساحة آريزو.

اقتربت تيفاني منه. ارتعش.

ـ إنني أثير شفقتك، أليس كذلك؟

ـ إنك تثير حناني. وغالباً ما تسليني.

ـ أجل، لكنني أثير شفقتك أيضاً... على كل حال أفضل الرأفة على الحب، هذا لا يُلزم إلّا من يرأف.

ـ ألست بحاجة إلى أن تكون شأن الآخرين؟

فكّر مطولاً:

ترجّحت وتنهدت بإعجاب قائلة:

ـ يا لحسن حظك... أتساءل إن لم تكن أقوى واحد بيننا؟

في تلك اللحظة، من خلال الزجاج، لمح لودو زكاري بيدرمان وهو ينزل من سيارة ليموزين سوداء إثر عودته من التوقيف، متحملاً هجوم المصورين والفضوليين والمتطفلين السذج وأنصار الحرية النسائية الغاضبين، وتفترسهم جميعاً حمى مسعورة لا يستطيعون السيطرة عليها. حولهم، وقد فوجئت بكل تلك العصفة من الهيجان البشري، راحت الببغاوات والدرّات تطير وهي تزعق.

تمتم لودوڤيك ببرود:

ـ ربما...

ثم ابتعد عن النافذة، واقترب من الحاسوب ودوّن بعذوبة الكلمات التالية:

«فيورديليجي، ألا تزالين هنا؟»

٥

ـ أخفقتُ!

أغلق طوم سجل التعازي، خائباً. فالكلمات والتواقيع التي كُتِبت في تلك الصفحات العالية إثر جنازة سِفْرينّ لم تسمح له بالتقدم في تحقيقه.

سأله القسيس:

ـ إذاً؟

كانت الصالة حولها، حيث يتلقى الأطفال التعليم المسيحي، تعرِضُ رسوماً متعددة الألوان، فرحة، توصلت إلى حد ما أن تحيد بانتباههما عن الغبار وعن الجدران المتداعية أو عن النور الشحيح الذي ينفذ بصعوبة ليخترق الزجاج القذر.

استنتج طوم قائلاً:

ـ لا يوجد أي دليل. ليس ثمة أية كتابة تطابق خط الرسائل المجهولة. أما بالنسبة إلى الأثرين اللذين وجدتهما، فأحدهما يصح، والآخر لا يصمد.

ـ أيهما ينهار؟

ـ فرضية الكاتب، باتيست مونيه. للحظة فكّرتُ أنه يمكنه أن يتسلى، بواسطة لهو فكري، ليثير سكان الساحة كي يلاحظ ردود أفعالهم. قد يرسل تلك الرسائل التي تشكل كل واحدة منها أول جملة من فصل. رواية تجريبية.

ـ هذا مسلٍ... ثم؟

ـ إنه أيمن، لا يمكن أن يكون هو المرسل.

ـ ربما يجيد الكتابة باليدين؟

حكَّ طوم رأسه، مسلماً بأنه قد أسرع كثيراً باستنتاجه. لمح الخوري قطعة طبشور خضراء على المنبر، فالتقطها ووضعها في حز اللوح الأسود المخصص لذلك. أمسك بعد ذلك بسجل التعازي.

ـ وماذا عن الأثر الثاني، طوم؟

ـ إنه بائع الزهور أوريون، ألطف رجل في بروكسل متزوج من المرأة الشريرة التي لا يضاهيها شراً أحد في الكون.

ابتسم الخوري:

ــ هكذا تسير الأمور: وحده شخص رقيق يقترن بسافلة.

ــ لماذا؟

ــ لأنه الوحيد الذي يجهل الصعوبة.

ــ يضايقني أن أسمعك، أنت القسيس، تصف أحداً بسافل. لا يبدو لي هذا رؤوفاً مطلقاً.

ــ لماذا يطيب كثيراً للملحدين أن يعطونا دروساً في المحبة وفي الكرم، وفي التقوى؟ هل تنقصكم تلك الفضائل؟

ــ كلّا. أستفيد من المناسبة لأقول لك إنني فهمت نظام تفكيرك، وإنني لا أجدك منسجماً معه.

ــ للحصول على الغفران، يجب أن يكون المرء قد اقترف شيئاً لِيُسامح عنه. تبدو لي كزافْيير جديرة إلى أبعد حد بالغفران.

ــ حسناً، إنني أرفض تشييء الفرد وتحويله إلى خط من الطباع. ففي نظري، لا يوجد امرأة سافلة ولا رجل لطيف ولا قديس ولا نذل.

ــ وزكاري بيدرمان؟

ــ مثال ممتاز! لقد تصرف كنذل في ذاك المساء لكنه ليس نذلاً.

ــ أترفض الحكم عليه؟

ــ إنني أحكم على فعل، وليس على رجل. يعني الإنسان أكثر بكثير من بادرة من تصرفاته أو من كلمة من كلماته.

ــ أنت تنكر الرذيلة والفضيلة. مع ذلك، بالعادة والتكرار أو المزاج، يكتسب الإنسان طبيعة ثانية ويتصرف «عموماً بطريقة حسنة» أو «عموماً بطريقة سيئة».

ــ موافق. لكنه يبقى متحركاً، مؤلَّفاً من رمال. قدِّم لي اليوم قديساً وسأريك أنه ليس بمنأى عن الخطيئة غداً. والشأن ذاته بالنسبة إلى مجرم، ربما يتصرف بشكل مستقيم.

ــ أرى إلى أين تريد أن تصل. هكذا، أنت، طوم، ألست مثلياً؟

ــ ليس أكثر من كونك قسيساً؟

ــ عفواً؟

ــ حدث أنك الآن تقوم بوظيفة القسيس...

ــ ...مسار الحياة...

ــ لكنك لم تكن طوال عمرك قسيساً، وربما لن تكون كذلك بعد اليوم، والآن لست على تلك الحال في كل ثانية من اليوم.

ــ حقاً؟

ــ لست قسيساً حين تتغوط، ولست كذلك حين تأكل، ولست كذلك حين تفكر بأمك، ولستَ كذلك حين ترى فتاة تمرُّ وتعجبك...

ــ بلى!

ــ كلَّا! إنها تعجب الذكر، بالغريزة، بعد ذلك يتدخل القسيس ليرجو الذكر أن يضبط ذاته وأن يرمي رغبته في سلة المهملات. وكذلك الأمر بالنسبة إليَّ، لا يمكن تحويلي إلى مثليتي وحدها بالرغم من أنني أضاجع شباناً: حين أفكر، حين أعطي درساً، حين أصغي إلى الموسيقى، حين أتحدث إليك، لا علاقة لذلك بأفضلياتي في السرير.

ــ لا ألومك على شيء، طوم.

ــ ما العلاقة؟ كنا نتحدث عن أوريون.

ــ أنتَ على حق، كنا نتحدث عن أوريون.

ــ يبقى فرضيتي الأساسية لأنه أهمل التوقيع في كتاب التعازي. يُحيّي هذا الرجل كل واحد شأن من يصادف معجزة مطلقة ويريد الخير للأرض قاطبة. بالفعل، هذا المدعو أوريون مسيحَوّي. ما رأيك فيه سيدي القسيس؟

ــ مسيحَوّي؟ لا أتمنى له ذلك لأن نهايته تكون سيئة، ولكنه إنجيلي، فهو كذلك بلا منازع. إنه يوجه الحب إلى كل الناس.

ــ على كل حال، هذا يصدم.

ــ أجل، يتساءل الناس أي قصد، أية مصلحة، أي فائدة، أي حساب يوجد وراء ذلك. بينما ليس ثمة شيء أبداً. إنه الحب بلا مصلحة، الحب الصافي.

ــ وبالتالي، يعتبرونه أبله.

ــ إن البله هو اللباس الذي يكسو به الساخرون أنقياء القلوب.

وافق طوم برأسه على تلك الصيغة. فرك شفتيه، بحرج، ثم حدَّق إلى الخوري.

ــ قل لي، أتعبر بهذا البريق اللامع حين تعظ؟

ــ يحدث لي ذلك.

ــ يجب أن آتي، لمجرد سماع ذلك.

ــ أهلاً وسهلاً بك. انتصب طوم وقبَّل القسيس على خده.

ـ شكراً على السجل. أتابع التحقيق.

ابتسم الخوري ابتسامة مرهفة.

ـ من الطبيعي أن أساعدك لأنك تبحث عن يسوع.

ضحك طوم قائلاً:

ـ لا تحاول أن تبيعني بضاعتك، أرجوك.

خرجا من صالة الصف ونزلا سلماً مهتزاً ذا جدران تزينها الصور الورعة ثم وصلا إلى مستوى الشارع وهما يدفعان باباً متهدماً.

على عتبة الأبرشية، أرسل طوم إلى القسيس إشارة ودية.

ـ سنلتقي يوم السبت ظهراً، عند أمنا؟

ـ لا تنسَ هذه المرة أنه عيد ميلادها.

ـ آه اللعنة، حلَّ عيد ميلادها؟

ـ طوم، لماذا لا تتوصل إلى حفظ عيد ميلاد أمنا؟

قام طوم بحركة عجز ثم دار في زاوية الشارع. هو وأخوه لم يكونا يعيران انتباههما إلى الأشياء عينها مطلقاً.

وصل إلى ساحة آريزو، لمح السيدة سينجر، رقيب أول بلباسها الكاكي اللون، وهي تهاجم صحفياً يزحف على غصن، وسط الببغاوات والدرَّات المرتاعة، ليُقرِّب آلة تصويره من نوافذ سكن بيدرمان.

قرر طوم بجبن، تجنب مناداتها لنجدتها؛ فبدلاً من أن يعود إلى بيته، التجأ إلى بناية ناتان. صعد إلى الطابق السادس واستعمل مفتاحه ودخل الشقة المرصوصة بصمت غير مألوف. عادة، تغمر الموسيقى الغرف أو يغني ناتان في المكان الذي يكون فيه. مع ذلك، لا بد أنه كان في بيته لأن حزمة مفاتيحه موجودة في علبة محتوى جيب.

ـ ناتان؟

ابتلع السكون نداءه.

قبل أن يقلق، توجه طوم إلى غرفة الحمَّام. لم يكن يُسمع أي صوت، تحت الأنبوب الرشَّاش، كانت الجدران المبلطة بمربعات لا تحوي أحداً.

ارتد إلى غرفة النوم وفتح بابها. هناك، لم يتسع له الوقت إلَّا ليلمح كتفاً تهوي على اللحاف، بينما انبثق رأس ناتان في الطرف الآخر للفراش.

قال بتلعثم وهو مرتبك:

ـ هذا أنا... كنتُ أنتظرك بعد الآن.

أرسل إلى طوم حركة اعتذار من وجهه، معبرة عن ندمه، لكن طوم لم ينظر إليه، كان يُحدِّق إلى شكل الجسم المختبئ تحت الشراشف.

نزلت برودة إلى جسمه. هل كان بحاجة إلى أن يتحرك؟ أكان يحتاج إلى أن يتكلم؟ لقد فهم ما يجري.

ـ حسناً، سلام.

بصوت قاطع، أظهر الاحتقار الذي كان يشعر به للرجلين في السرير ودار على كعبيه.

نزل السلم بسرعة، بثقل ومرونة وملل. كانت كلمة واحدة تدوي في أعماقه: ناتان. هذا الاسم الذي لم يُحدث حتى الآن إلّا السعادة، كان هذا الاسم يعني حالياً الجبن والخيانة.

خرج من البناية وقفز إلى ساحة آريزو على المقعد الخالي، بالضبط أمام الباب. من هناك، يستطيع أن يرى الشاب يهرب.

جلس، ويداه في قعر جيبي صدريته، ونظرته ثابتة. ماذا يفعل؟ أيكسر فمه؟ وما فائدة ذلك... هذا لن يغيّر شيئاً... فالمذنب، كان ناتان. العشيق لم يخدع أحداً. لم يقم العاشق طوال ثلاث سنوات برقصة البطن كي يعيش معه.

تحقق من الوقت.

دقيقة. لم تمضِ سوى دقيقة منذ انبثاقه في الساحة وبدا له ذلك دهراً. كم عليه أن ينتظر من الوقت؟ الخنزيران فوق، ألن يتابعا فسقهما؟ ألديهما تلك الوقاحة؟ ... في هذه الحالة من الأفضل أن يعود ثانية ويشعل النار فوراً.

تحرك الباب، وضع رجل أنفه خارج الباب وقد أنهى لباسه، مستعجلاً للهرب. نظر يمنة ويسرة، متحققاً من أن غريمه لا ينتظره ليشبعه ضرباً.

قفز طوم. لم يخطر على بال الهارب أن يُجيل عينيه أمامه، في الساحة، ولم يرَ إذاً الشخص الذي يخشاه. اختفى وهو يسلك شارع موليير.

مكث طوم مذهولاً على المقعد. كان يعرف هذا الشاب. ما اسمه إذاً؟ اسم يوناني... نيكوس! أجل، كان نيكوس. كان قد ضاجعه الشهر الماضي.

تأمل طوم يديه، مرتبكاً. أعليه أن يضحك أم يستشيط غضباً؟ إنه يلوم ناتان على ما فعل هو قبل عدة أسابيع!

لم يكن غيظ طوم يستمر طويلاً قط. ليس لأنه يجهل الغضب، لكنه كان يكرهه ويسعى للتخلص منه. ما هو أشد غباءً غير الغضب؟ فهو يثور على العالم ويدّعي،

بحدته وحدها، تعديله؛ في حين يضرب الغضب الواقع ويلطمه ويهينه من دون أن يقَوِّمه. الغضب هو عجزٌ يظن ذاته قوياً.

مسح راحتيه على بنطاله الجينز وحاول أن يرغم نفسه على الضحك بسخرية لكنه أخفق. كانت القصة تثير اشمئزازه.

أوه، هذا الشاب نيكوس لا يشكل خطراً... ولو كان وسيماً، إنه يضاجع بطريقة مملة، متحمسة، جزعة، متقطعة، مستعجلة مرسلاً همهمات. تكفي مضاجعته مرة واحدة. ربما كانت مرة أكثر من الاحتمال... على كل حال، لم يكن نيكوس يسعى إلى التدخل في حياته ولا أن يرى ثانية عشيقاً عابراً، كان يهرب بمجرد أن ينتهي الأمر. حسب ما فهم طوم، كان يحب اللقاءات وليس الأشخاص مطلقاً. « هيا، اضحك! ليس هناك شيء خطر».

كان يُخفق في تخفيف حزنه. ليست المشكلة نيكوس، بل ناتان. لماذا يقترح عليه هذا حياة مشتركة ويحدثه عن الحب ويحبه بلا شك بقدر ما كان طوم يحبه، ومع ذلك يستفيد من فترة حرة كي يستمتع جنسياً مع مجهول؟

ظهر ناتان على الرصيف المقابل، لابساً السواد، وهذا لا يلائمه ويعطي جدية بالغة لحضوره. تجنب سيارة تُسرع على طول ساحة آريزو ووقف أمام طوم:

ــ أنت حاقد عليَّ؟

رفع طوم كتفيه وأشاح هارباً بنظره:

ــ كلَّا، إنني مغتبط.

ــ إنني آسف، طوم، لم أكن أعرف أنك ستأتي. لم نكن على موعد إلَّا هذا المساء، بسبب الأوراق التي عليك تصحيحها.

ــ عن أي شيء تأسف؟ عن قيامك بهذا العمل؟ أو إساءة حساب توقيتك؟

اتخذ ناتان مظهراً مستنكراً وصفق بيديه.

ــ هذا أنت، طوم، هذا أنت، الرجل الملتهب من الطراز الأول، ذو العجز الذي يغلي في بروكسل، تأتي لتعطيني درساً في العفاف؟ إنني أحلم! أنا مستعد للإقرار بأنه من المزعج لك أن تكتشفني على هذا النحو، أكرر أنه كان بودي أن أجنبك ذلك، لكنني لن أدعي أنني خَجِلٌ لأنني قمت به.

أراد طوم أن يرد عليه كصدى بنبرة ساخطة لكن ــ أكان بسبب سورة ناتان المضحكة أو بما كان يفكر فيه حقاً ــ دغدغت ضحكة خفية جوفه.

دمدم ناتان الذي كان يخشى أن يبدو مثيراً للسخرية:

ــ ماذا؟

ـــ أكان أقله يستحق ذلك؟

ـــ ولا حتى أية متعة.

ـــ آه!

ازدادت صعوبة طوم بالحفاظ على وجه جدي. رفع ناتان عينيه إلى السماء ولفظ بنبرة خشنة قائلاً:

ـــ على كل حال، بسبب دخولك، لم يتم الفعل!

تمتم طوم وهو يقاوم تشنجاً:

ـــ لا تأسف على شيء، مع نيكوس، عندك شريط رنان لفيلم إباحي، لا شيء غير ذلك.

ـــ ماذا؟

ـــ أقسم لك.

ـــ هل تعرف نيكوس؟

ـــ كما تعرفُه.

أمام عيني ناتان الجاحظتين، عمَّت موجة من الضحك وقطعت السدود:

انفجر طوم بالضحك.

كان ناتان في البدء مرتبكاً ثم راح يفهم ما أوحى به طوم، فجلس بالقرب منه، وبدوره، ببطء، بتواتر، انضم إليه في الضحك. كان الرجلان يغربان في الضحك من أعماقهما.

بمجرد أن توصلا إلى التوقف عن الضحك، التفت ناتان نحو طوم.

ـــ أتسمي ذلك أزمة غيرة، أنت؟

انطلقت عاصفة الضحك المتواصل فوراً. كان كل واحد منهما في غاية الغبطة، بعد ذاك المشهد لوجودهما هنا، جنباً إلى جنب، متواطئين، يسخران لدرجة أنهما شعرا بألم في بطنيهما.

وقد استعاد ناتان أنفاسه، أمسك ذراع طوم.

ـــ إنني أحبك، وأنت تعرف ذلك.

ـــ أعرف ذلك.

انزمت شفتا ناتان.

ـــ كان من المفروض هنا أن تجيب «أنا أيضاً»، وأشير لك بذلك.

ـــ سأقوله لك، حين يخطر على بالي.

ــ أيمكن بعد الآن أن يخطر هذا على بالك؟

ــ كل شيء يمكن أن يحدث.

ــ هل الأمور مستمرة بيننا؟

ــ إنها مستمرة!

ــ انتصب طوم على المقعد.

ــ في المقابل، ثمة شيء يتوقف: العيش معاً!

ــ أوه كلّا!

ــ كنتُ على وشك أن أبطل عقد إيجاري وأنقل كتبي وملايين أشياء لأرى... ما رأيتُه.

ــ طوم، إنك حاقد عليَّ!

إنني أقبل بكل رحابة صدر أن المرء لا يستطيع أن يقاوم الإغراء ــ إنني أول من يستسلم له ــ في المقابل هناك إغراء سأقاومه، أؤكد لك ذلك، ألا وهو العيش معك. لماذا تريد، ناتان، أن نسكن معاً بينما أنت تحرص على حريتك، وأنا على حريتي؟ للكرم إطار مثالي: سكنان منفصلان، طبعا ليس هذا غرفة الزوجية الضيقة. لن تحصل على كل شيء وفق المثل الشائع: الزبدة وثمنها ومؤخرة بائع الألبانّ! إن كان من الطبيعي أن يكون لكل واحد مغامرات هنا أو هناك، وليتحمل الآخر ذلك، من الأفضل أن يجهلها. سأحبُك بشكل أفضل إن لم أفاجئك بعد اليوم تخرج من الشراشف برفقة رجل مجهول ــ أو صبي مجهول! سأحبُّك بشكل أفضل إن كنتُ أستطيع أن أحبس نفسي في شقتي حين أكون ذات مساء بمزاج سيئ. سأحبك بشكل أفضل إذا كنتُ أستطيع أن أقرر النوم عندك. سأحبك بشكل أفضل إن كنتُ أستطيع أن أدعوك للنوم عندي. سأحبك بشكل أفضل إن تجنبتك حين أرغب في لقاء أحد غيرك. سأحبك بشكل أفضل إن لم تجدني مكان الشخص الذي تشتهيه. سأحبك بشكل أفضل إن لم أكن مرغماً على حبك. سأحبك بشكل أفضل إن لم تكن تشكل إكراهاً والتزاماً. سأحبك بشكل أفضل إن لم تكن قد أصبحتَ عادة. سأحبك بشكل أفضل إن بقيت أنت اختياري. سأحبك بشكل أفضل إن كنتُ أستطيع أن أفضلك على الآخرين. سأحبك بشكل أفضل إن سمحتَ لي أن أحبك كما أريد. إن حبنا بالغ الأهمية كي أدع الحياة المشتركة تحطمه.

هزَّ ناتان رأسه بالموافقة وقد تأثر. داعب طوم خده فاحمرّ وجه نانان.

ــ نفترق كي لا نترك بعضنا بعضاً بعد اليوم، أليس كذلك؟

ــ هذا ما في الأمر. لن أعيش معك لأنني أحلم أن تدوم قصة حبنا.

انحنى طوم، ببطء، ببطء كبير، على ناتان ووضع شفتيه الحارتين على شفتي ناتان. في طابق الأغصان، رفرفت الأجنحة، شأن تصفيق.

حين توقفت القبلة واستطاع ناتان أن يسترد أخيراً تنفسه، تفحص عشيقه الذي كانت رائحته ورغبته تسكرانه.

ــ في قرارة الأمر، طوم، وخلافاً للمظاهر، إنك أنت الأكثر رومنسية.

ــ الرومنسية هي حكمة الأمزجة الحارة.

٦

لقد ةوجدت بتريسيا نفسها في الشقة الخالية، من دون هيبوليت الذي ارتأى أنه من دواعي الحذر عليه أن ينسحب، فمن دون ابنتها التي هربت من سلم الخدم، سارت على غير هدى، منهارة، من غرفة إلى أخرى وسمعت النداءات الفرحة المتصاعدة من ساحة آريزو، ولمحت الفوضى المحيطة بها، فعددت معالم هذه الحفلة المخفقة... مما لا شك فيه: كانت هي أكبر خاسرة في السهرة. لم يعد هناك ابنة! لم يعد هناك خطيب!

يجب ترتيب الأشياء وتنظيف الأطباق.

طرحها اليأس على مقعد. بإصبعها أطفأت الأنوار واستسلمت للعتمة.

كانت حياتها تتفكك. حسب موقف ألبانّ، أدركت أنها لن تتوصل إلى الحفاظ على هيبوليت. حتى ذاك الحين، لم يتقابلا إلّا سراً في هذا المسكن أو في مقهى «المارول» البسيط. كانا قد عاشا على جزيرة خالية. انتهت قصة روبنسون! إنهما يلاقيان العالم الفسيح بأخطاره وبقبح منافسته. قدَّمت لها ألبانّ صورة مكثفة عما سيحدث: لا تستطيع النساء الامتناع عن رغبتهن في إعجاب هيبوليت سواء عن لا وعي أو عن عدائية ومهاجمة.

إذاً، هذا ما كان ينتظرها: هشاشة، نضال، خيانة. ولا ننسَ التهكم، هيبوليت الوسيم وبتريسيا سمكة الطون. كم مرة سمعت التعليق: «رجل بهذا الجمال، كيف يستطيع أن يجر امرأة بهذا القبح، هذا ما أعجز عن فهمه!» ربما قالتْ ذلك؟ طبعاً...

أما بالنسبة إلى هيبوليت... حتى الآن، يلعب دور الفارس الشجاع المخلص لسيدته ويصد مهووسة قاصرة. في شهر، في سنة، كيف سيتصرف أمام راشدة ذات وقاحة أكبر من جرأة ألبانّ.

إن كنزاً كهذا لن يُخَلَّد بين ذراعيه. تنهدت.

في تلك اللحظة انتابتها ريبة. انتهى كل شيء! لم يعد لديها ثقة. ليس بذاتها فقط، بل بهيبوليت أيضاً. كما انعدمت ثقتها بالآخرين وبالمجتمع. انهارت أوهامها.

ولتسدد لنفسها الضربة القاضية، ذهبت إلى غرفة الحَمّام. حين رأت صورتها

في المراة، قدّرت ذاتها بسرعة، فوجدت تسريحة شعرها منسجمة مع وجهها. ذاك الوميض من الرضى قد راقها بقدر ما أزعجها. ما جدوى ذلك! هناك زمن على المرأة أن تختار فيه بين وجهها وجسمها. لقد أنقذت الشحوم وجهها الذي بقي مستديراً، مشدوداً، بلا تجاعيد، أما بتريسيا فقد صارت ضخمة تحت ملابسها. لكن، بفضل الجهود التي قامت بها في تلك الأسابيع الأخيرة... مضطربة كمتسابقة في الامتحانات العشرة المتتالية... إن كان ذلك لا يظهر في المرآة، لكنه يُسجل في عدَّاد الميزان. صعدت على الميزان. ماذا؟ لا بد من أن ثمة خطأ. توقف العقرب. مستحيل. لم تفقد سوى كيلو ونصف الكيلو من وزنها.

ضربت جسمها بغضب، دقت بطنها وذراعيها وفخذيها. ماذا يفعل هنا هذا النسيج الخلوي الذي لم تكن قد دعته مطلقاً؟

تناهى، من الشارع، صوت مشاجرة. خوفاً من أن تكون ألبانّ متورطة فيها، هرعت نحو نافذة الصالون. كان شابان بلباسهما الرياضي يتبادلان الشتائم مع زوجين بملابس السهرة من أجل مكان لإيقاف السيارة يطالب به كل واحد بأنه مكانه. كان الشابان بعصبية تعادل بذاءة ألفاظهما، يرفعان نبرتهما أمام الزوجين الراقيين اجتماعياً اللذين يرجوانهما أن يسكتا.

خشيت بتريسيا أن تتغلب العدوانية. فتدخلت:

ــ هل عندكم مشكلة؟ أتريدون أن أدعو رجال الشرطة؟

رفع الزوجان المحترمان رأسيهما، أما الشابان فراحا يهاجمانها:

ــ ما علاقة الشرطة؟ لماذا أتيتِ تزعجيننا بالشرطة؟ هذا مكاننا. إننا نصف سيارتنا دائماً في هذا المكان.

ردت قائلة:

ــ ليست أماكن توقيف السيارات ملكاً لأحد.

ــ أيتها العجوز، دعينا وشأننا واتركينا بسلام! في تلك الساعة، العجائز اللواتي على شاكلتك، يجب أن يكنَّ نائمات.

صرخ الرجل الراقي ليهدئ التوتر:

ــ كفّا عن السيدة، سنصفّ بعيداً قليلاً.

ابتعدت بتريسيا لتلتجئ إلى صالونها. العجوز؟ لم يكن ينقصها إلَّا هذا! من أول محاذاة، عوملت بالعجوز؟ ضخمة، ربما... لكن عجوز؟

انتابتها رعشات. إذاً، أصبحت عجوزاً! هذا أصل ضيقها، هذا ما أحسته أثناء السهرة. ألبانّ بتنورتها القصيرة جداً، ألبانّ بزينتها حتى الوقاحة، ألبانّ تخر كالقطة

تحت نظر الذكر. ألبانّ صارت شهوانية، ألبانّ التي أشارت إليها أن عليها هي أمها أن تنسحب، خارج السباق، صالحة للإهمال والرمي.

تضاعفت دقات قلبها. وضعت يدها على صدرها. توضَّح كل شيء: بالرغم من أنها هي وهيبوليت لهما العمر ذاته، لكن جسراً يسمح لألبانّ ولهيبوليت أن يتلاقيا لأنه كان على قدر كبير من الإثارة، بينما كان من المستبعد أن يغازل ألبانّ أحد رفاقها. لقد انتهى زمانها.

عبرت صورة في خاطرها، إنه النور الذهبي الذي حط على زهور النعش البيضاء أثناء جنازة سِفْرينّ. السلام. الراحة المنشودة أخيراً.

عليها ألَّا تتباطأ.

أسرعت إلى غرفتها وصعدت على كرسي منخفض وفتَّشت في أعلى خزانتها. هناك، وجدتِ العلبة التي كانت تبحث عنها، نزلت بها وفتحتها. اصطفت في داخلها قوارير صغيرة من عقارات (Véronal) المنومة. كانت تلك القوارير تنتظرها منذ أعوام. حين استشارت الدكتور جمّيل، إثر بلوغها الأربعين سنة، وصف لها حمض البربيتوريك كي تنام براحة أكبر؛ لكن بتريسيا كانت لا تبالي بأنها لا تغلق عينيها طوال الليل لأنها كانت تفضل القراءة؛ اشترت الأدوية المنومة ووضعتها هناك لوقت الحاجة...

ها هي على موعد معها بعد سنين من المسافة. إذا تناولت هذا العقار بكمية مبالغ فيها، فستنام ولن تستيقظ بعد اليوم. إنه الموت الكامل. من دون ألم. من دون إتلاف الجسد. من دون أن تفرض على الآخرين رؤية جهنمية تصدمهم. إنه الموت النظيف.

عليها بخاصة ألَّا تنتظر! إذا فكرنا بهذا النوع من الأمور، فلن نفلح.

ذهبت إلى المطبخ وأخرجت الحبوب من كل حزمة من لفائفها وصفتها بعناية على الطاولة. ثم صبتْ قدحاً كبيراً من الماء وأمسكت الحبة الأولى.

دوَّى جرس البيت.

ترددت. هل تجيب؟ أم لا تُجيب؟ لا يمكن أن نتمتع بالسلام مطلقاً. من الآتي في تلك الساعة؟ مما لا شك فيه أن ثمة خطأً.

دوَّى الجرس ثانية. وإن كان هذان الشابان الصاخبان قد صعدا ليقتلاها؟

«ما أهمية ذلك، بتريسيا؟ إنك على وشك الانتحار. خلال عدة دقائق، ستنامين. إذاً لا تبالي». قرَّبت حبة من لسانها.

ألح الجرس، بشكل أطول، وبإلحاح أكبر.

«لم يعد ممكناً الموت بهدوء. حسناً، سأصرفهما وأعود إلى ما أقوم به».

اتجهت نحو باب المدخل بصمت ونظرت من الفتحة الصغيرة لترى من يزعجها. فوجئت إذ رأت إحدى الجارات التي نادراً ما يراها الناس، زوجة المهندس، ماذا كان اسمها؟

في تلك اللحظة أطلق صوت:

ــ أمي، افتحي، من فضلك.

ألبانّ؟ حين تفحصت بشكل أفضل الصورة التي شوهتها العدسة، لمحت شابة في قعر سطح الدرج، لابسة بشكل غريب... ألبانّ؟

فتحت الباب. ارتمت الفتاة بين ذراعيها. طلبت ديان أن تدخل معها، ثم، بعدة كلمات، ولأن ألبانّ قد أجهشت بالبكاء ثانية، شرحت ديان ما حدث تواً.

في صباح اليوم التالي، حين اكتشفت بتريسيا طاولة المطبخ مغطاة بالحبوب البيضاء الموزعة بصفوف، خجلت. كيف استطاعت أن تكون على هذا القدر من التهور وعدم التبصر، وفقدان المسؤولية لترغب في الموت؟ كانت ألبانّ لا تزال هنا، والتي هي في أمَس الحاجة إلى أمها. «تصوري أنها رجعت، مجروحة، مغتصبة، لتكتشف جثتك؟» وقد دست الحبوب المنومة في صندوق القمامة، قدَّرت بخجل وارتباك، أنانية الانتحار.

وصل الدكتور جمِّل الساعة التاسعة صباحاً، وقد تركت له بتريسيا عند الفجر كلمة تروي المأساة على نداء هاتفه الآلي. بمجرد أن ظهر على قرص السلم، أسمر، حليق الذقن، نضراً حسن الهندام، برجولته اللبنانية الباردة الطبع، تساءلت إن لم تكن قد ارتكبت خطأً بإدخال رجل بالقرب من ابنتها. لكن نظرة ألبانّ المطمئنة حين دخل غرفتها، قد هدأتها: الدكتور جمِّل هو طبيبها قبل كونه رجلاً.

بقي طويلاً بالقرب منها. لم يكن هذا الطبيب الشاب يؤمن بالطب وحده، فهو يؤمن بالطبيب: ولا تقتصر مهمته على تشخيص المرض وإعطاء وصفة، لكنه يرغب كذلك في أن يصغي، وأن يفهم ويُطمئن ويوجه المريض نحو مستقبله. كان من دعاة الفلسفة الإنسانية والعلمية معاً ويُقدِّر أنه بعنايته بالمريض يدخل في علاقة مع الشخص. ففي نظره، هذا الرابط يعادل أهمية اللجوء إلى الأدوية ويجب متابعته في كل ظرف، وإن أخفق العلاج.

في نهاية الاستشارة، حرص على المناقشة مع بتريسيا:

ــ ليست الجروح جسدية، بل معنوية. يجب مساعدة ألبانّ كي تستعيد ثقتها بنفسها وبالآخرين. هذا أساسي في سنها.

ـ إنني هنا، لا تقلق من هذه الجهة.

ـ إن حضورك أساسي، مهم بشكل مطلق، لكنني لست متيقناً أنه كافٍ. لن تستطيع ألبانّ، بدافع الحياء، أن تقول لكِ كل شيء.

ـ أعرف ذلك جيداً.

ـ يجب منعها من الانطواء على ذاتها واعتبار الحياة الجنسية عنفاً.

ـ سأساعدها.

ـ إنني واثق من حسن نيتك. ولكن سامحيني على هذا التدخل في حياتك الخاصة، أين أنت في تلك النقطة؟

ـ أية نقطة؟

ـ الرجال، الحياة الجنسية. إنك وحيدة.

ـ أجل... كلَّا... حالياً، لي علاقة. نفكر أن نعيش معاً.

ـ هل تُقَدِّر ألبانّ رفيق مستقبلك؟

ـ أوه... أجل.

أغمضت بتريسيا عينيها وهي تفكر أنه كان عليها أن تقول «أكثر مما يجب». حين صاغت ذلك في فكرها، أدركت أن لا شيء كان ليحدث ـ هرب ألبانّ، الاغتصاب ـ لو لم تقدم هيبوليت إلى ابنتها. فشحب وجهها.

كان الدكتور جميِّل يراقبها وهو يعي أن أفكاراً متناقضة تكدر مريضته. أمسك مفكرته.

ـ أنصحك بإحدى زميلاتي، المختصة بالصدمات.

كتب بسرعة عنوانها على ورقة وصفة طبية.

ـ ماري ـ جان سيمونّ. ناديها، من فضلك. في مثل تلك الحالة، يجب معالجة الخلية الاجتماعية. وليس فقط الشخص المصاب. أحياناً، تكون الصدمة أكثر أهمية عند الأقرباء منها عند الضحية المباشرة.

عقَّدت قضية بيدرمان وضع بتريسيا. حين كشف الصحفيون أن اغتصاباً قد ارتُكب ليلة أمس في بروكسل، في حي إكسل الفخم، فكرت بتريسيا: «لماذا لا يتحدثون عن اغتصاب ابنتي؟» كلما ألحت وسائل الإعلام على هذا الحادث، راح هذا الضرب بالمطرقة يُضَيِّق خناقها، شأن إنكار: ألم يدركوا أن ألبانّ قد عانت فظاظات وحشية أكبر بكثيرٍ مما كابد زكاري بيدرمان إحدى مدعواته؟ ظهر تلازم العنفين قاسياً وأليماً. فكلما ذُكِرت القضية انغرز خنجر في قلبها كأم. كانت الجريمة

تسيطر. في داخل الشقة كان يحوم الاعتداء على ألبانّ والذي تفكر فيه باستمرار، وبمجرد ان تفتح التلفاز أو المذياع يحط الاعتداء الذي ارتكبه بيدرمان رحاله؛ في الخارج، كان الصحفيون يسيطرون على الساحة وكذلك شاحنات البث التلفزيوني، والمصورون والبصاصون المتفرجون. كان الاغتصاب قد اكتسح الكون.

وقد صُدِمت بتريسيا، فقدت السيطرة على أفكارها. حين ذكرت ألبانّ مهاجميها الثلاثة، كانت بتريسيا تلصق على هؤلاء الظلال وجه زكاري بيدرمان، فتراه مضروباً بثلاثة أضعاف جاثماً فوق جسد ابنتها المُهان. فإذا ما تابعت نشرات الأخبار، تصورت ألبانّ في الحفلة المأسوية لآل بيدرمان. فالحد بين القصة الخاصة والقصة الجماعية قد صار قابلاً للنفاذ وأحست بتريسيا بأن الهلع يطاردها وبأن العالم قد أصبح قاتماً.

لم تعد تعرف كيف تتصرف مع هيبوليت. أعليها أن تكشف له ما جرى لألبان ـ يعني ذلك أن تقبله نهائياً في الحياة الخاصة العائلية ـ أو تضع مسافة بينها وبينه حتى تتحسن حالة ألبانّ؟

راح يلح عليها في الهاتف، راغباً في رؤيتها. في البدء، توصلت إلى اختلاق أعذار مقبولة، لكن هيبوليت أدرك مقاومتها وطلب منها إيضاحات.

ـ هل بسبب ابنتك؟

ـ أجل. بسببها.

ـ وضحي لي.

ـ قريباً.

كانت بتريسيا تشعر بالذنب. فإن كانت علاقتها بالبستاني قد بدأت بالحلم، لكن كابوساً قد حل مكانه، لا سيما أنها لم تستطع أن تمتنع عن خلق الرابط بين السبب والنتيجة، أي بين هيبوليت واغتصاب ابنتها: لو لم تتنكر ألبانّ بمظهر مومس محرضة لتثيره، لما صادفت الأشرار الثلاثة ولما أثارتهم!

اعتادت السيدة سيمونّ أن تأتي كل صباح. كانت بتريسيا تتبادل معها عدة كلمات لكنها بقيت متحفظة. فبالرغم من أنها أطاعت الدكتور جميّل باستشارتها، لكنها كانت تعتبر أن الطبيبة النفسية قد سرقت منها دورها كأم. كان على ألبانّ أن تسارر أمها، بتريسيا وليس امرأة مجهولة! لقد حملتها في بطنها، وربتها وعلمتها وواستها عن موت أبيها؛ حين يطوي الطبيب الصفحة لن يعود يفكر بما حدث مطلقاً، ستبقى هي هنا تعتني بألبانّ حتى رمقها الأخير. يا للظلم! وماذا ستعلم هذه الطبيبة النفسية من فم ابنتها؟ في كل مرة، كانت تخرج المختصة من غرفة ابنتها،

كانت بتريسيا تنظر إليها من طرف عينها، وهي ترتعد خوفاً لمجرد فكرة أنها قد عرفت تواً إحدى هفواتها أو أخطائها؛ لا بد من أن يزداد إدراك تلك الدخيلة يوماً بعد يوم من أن أغلب المشكلات التي صادفتها ابنتها آتية من الأم.

حين اقترحت عليها السيدة سيمونّ مقابلة، قاومت بتريسيا رغبتها في الفرار. لو فُرض عليها زوج من القيود لما كانت أكثر مهانة.

جلست السيدة سيمونّ أمامها.

ـ إن ألبانّ ذكية وشجاعة.

فكرت بتريسيا، وهي في موقف دفاعي: «لا حاجة لإتمام دراسة عالية لتشخيص ذلك».

ـ ستعيد بناء ذاتها. إنك هنا، قريبة جداً وحاضرة جداً، هذا جيد وإنني أهنئك على ذلك، لكن، في هذا الظرف، إنها تتألم كثيراً من غياب أبيها.

«ماذا تظن؟ أنني سأبعثه حياً؟ هي التي درست الطب أم أنا؟»

ـ ربما من المناسب أن يشارك وجه رجل في إعادة بنائها لذاتها. لا أعتقد أن جروحها قد تلتئم في بيت حريم. تحتاج إلى حضور رجل رؤوف، حضورٍ يُعَوض عن الوجوه العدائية. أليس عندك رفيق؟

تلعثمت بتريسيا:

ـ عندي... خطيب... لكننا لا نعيش معاً.

ـ هل تثقين به؟

ـ أجل.

ـ هل في موقفه تجاه ابنتك أي لبس أو غموض؟

ـ آه كلّا، مطلقاً! ليس عندي أي شك، في هذه النقطة.

ـ عن أي شيء لديك شك؟

« ها قد وصلنا، فالأفعى ترمقني كأنني فريستها».

ـ أشك في أن أبني ثانية حياتي معه.

ـ ألا تحبينه كفاية؟

ـ أوه، بلى!

ـ وهو؟

ـ كذلك الأمر بالنسبة إليه، على ما أعتقد.

ـ إذاً؟

ــ «أن أبني حياتي من جديد،» أي قطع التوازن الحالي؟ هل ينفع ذلك؟

ــ دعيني أعبر عن بعض الشكوك عن «التوازن الحالي». إنك تعيشين وحيدة، في اعتزال شبه كامل، مع ابنتك التي كانت تظن حتى وقت قصير أنك تخليتِ عن العلاقات الجنسية. ربما في وحدة أشبه بالشرنقة، لكن الشرنقة موبوءة، انكفائية وغير واقعية. بالنسبة إليها، أن يكون لها أم فرحة وسعيدة على ذراع رفيقها يشكل دواءً ممتازاً لها. ثم إنها تحتاج إلى صورة أبوية تستطيع أن توجه إليها حنانها.

قطَّبت بتريسيا: أتقول إلى تلك الطبيبة النفسية إن ألبانّ قد حاولت إغراء هيبوليت؟ كلّا لن يكون ذلك شريفاً.

ــ إلى اللقاء غداً، سيدتي العزيزة.

وقفت الطبيبة النفسية وغادرت المنزل.

«ماذا، هل هذا كل شيء؟».

لم تكن بتريسيا توافق ما قالته لها في قرارة نفسها، لكنها أطاعت التعليمات. أعطت موعداً لهيبوليت في مقهاهما المعتاد في حي «مارول» وروت له ما حدث لألبانّ.

أثناء تلك الرواية المؤلمة، أحست بتريسيا في جسدها وفي روحها كل تفصيل من الاغتصاب. راحت تختنق وتتخبط وتبكي وتصرخ. وقد اضطرب هيبوليت، اضطر أن يهدهدها طويلاً بين ذراعيه لتستعيد زمام أمرها.

بعد الظهر هذا، حين عادت، أعلنت لألبانّ أن هيبوليت سيأتي عندهما.

تمتمت ألبانّ وهي ترجع إلى غرفتها قائلة:

ــ هذا أفضل.

أرعبت تلك الموافقة بتريسيا. كانت قد اعتادت كثيراً أن تبدو ألبانّ عبوسة حتى أن حفاوتها قد أيقظت شكوكها. هل سيعود الهلع من جديد؟

لكن ألبانّ، لعشائها الثاني مع هيبوليت، قد ظهرت بلباس بسيط، حتى أن مظهرها كان أكثر تعقلاً من المألوف. تصرفت بلطف، من دون أن تضيف شيئاً إلى سلوكها وأحس هيبوليت متعة حقيقية في اكتشافها والتحدث إليها.

لهذا، راحت بتريسيا تغتم وتقلق. ففي كل مرة تذهب فيها إلى المطبخ لتعيد طبقاً أو تأتي بالطبق التالي، كانت تتوقف في الطريق وتصيخ السمع، لتعرف إن كانت نبرة الحديث قد تغيرت، أو إن كانا قد غيَّرا الموضوع.

في الساعة الثانية والعشرين، حيَّت ألبانّ الراشدين وانصرفت إلى غرفتها.

تجاذبت بتريسيا وهيبوليت أطراف الحديث بهدوء ثم أعلن هيبوليت:

ـ يمكنني أن أبقى هنا هذه الليلة، إذا أردت. عرض عليّ جيرمان أن يهتم بإيزيس. تعجبت بتريسيا لسماعه يذكر إيزيس. وقد اعتادت لقاء هيبوليت وحده، غالباً ما نسيت أنه يربي ابنته، لا سيما أنه كان قليلاً ما يتحدث عنها. على كل حال، لم يذكرها كمشكلة مطلقاً. «بالطبع، ليس الرجال والنساء متماثلين. لم تُشكل ابنته أكبر قضية لحياته». كان هدوء هيبوليت بالنسبة إلى إيزيس يزعجها كثيراً حتى أنها قد تمالكت ذاتها في آخر لحظة كي لا تعامله كأب غير جدير ولا لائق.

اقترب منها وطوقها بذراعيه؛ توقفت أخيراً عن التفكير. وتركته يصحبها إلى غرفتها.

بعد قبلات كثيرة ومداعبات بطيئة، حين حاول برقة أن يُعَرِّيها، أوقفته مرتاعة.

ـ كلَّا، لا أستطيع!

ـ ألا تريدين؟

ـ لا أستطيع!

تأملها من دون أن يفهم. حاولت أن تفسر موقفها:

ـ بسبب...

ـ ألبانّ؟

ـ ألبانّ!

ـ لأنها هنا؟

ـ هذا هو الأمر. لست معتادة.

ـ يجب أن تعتادي هذا؟ أليس كذلك؟

ازدادت رعشة بتريسيا. بحثت عن حل وارتجلت قائلة:

ـ أنت على صواب، يجب اعتياد ذلك... إذاً، أقترح عليك أن تبرهن لي أنك على استعداد لتشاركني حياتك.

ـ أتحدّى.ـ لنمضِ الليل الواحد بالقرب من الآخر لكن لا نمارس الحب.

نظر إليها مطولاً ثم، قبل، بحماسة، بوجه أضاءته المحبة والود.

تظاهرت بتريسيا بالغبطة أيضاً. لا يهم إن كانت ألبانّ تسكن في أقصى الممر، في الواقع لم تكن تشتهي الجنس. بعد الأمور التي عاشتها مع ابنتها، كان تدخل رجل إلى جسدها، وإن كان هيبوليت، لا يُحتمل. أجل، في ذاك المساء، كانت تكره الرجال والفسق وذلك العذاب الذي يباع على أنه متعة، ولم تكن تفهم كيف كانت تقدره سابقاً.

في الصباح، وقد استيقظت، لاحظت أن هيبوليت قد نهض وسادت في الشقة رائحة الخبز المحمص التي لا تقاوم.

اتجهت نحو المطبخ وتوقفت في الطريق: كانت تنبعث ضحكات من الغرفة، ضحكات صغيرة متواطئة، سريعة تشهد على سعادة وجودهما معاً أكثر منها كرد فعل على مزاح.

من ظهريهما ـ رأتهما جيداً ـ، ألبانّ وهيبوليت يشربان قهوتهما. في اطمئنانهما وبساطتهما وارتخاء جسديهما. كان هناك ألفة بينهما تقتضي شهوراً من المعاشرة.

لمحت يد هيبوليت تصعد نحو خد ألبانّ بحركة أقرب إلى الرقة، لتنزع فتات خبز عالقة عليه.

ـ إلى الخارج!

زعقت بأعلى صوتها.

قفزا.

ـ إلى الخارج!

استدارا ووجدا بتريسيا قد شوهها الغضب.

ـ اخرج هيبوليت! انتهى ما بيننا ولن تضع قدمك ثانية هنا بعد اليوم، أتسمعني؟ نهائياً.

لم يستغرق المشهد أكثر من نصف ساعة، لكن بتريسيا لم تكف عن استرجاعه. أجل، بالرغم من احتجاجات هيبوليت، بالرغم من عدم فهم ألبانّ، لقد أبعدت عاشقها وأعلنت له قطيعة نهائية.

حين طلب منها إيضاحات، ردت عليه أنه يعرف الإيضاحات، ما عليه سوى النظر في قرارة ذاته.

في تلك اللحظة، تغير مظهر هيبوليت، فاسمر جلده، وخمدت نظرته. حتى أنه فقد عدة سنتيمترات من هامته ورحل، منهاراً من دون أن ينبس ببنت شفة.

منذ ذاك الوقت، نادراً ما تبادلت بتريسيا وألبانّ بضع كلمات. اقتصرت محادثاتهما العملية على عدة جمل. في المقابل، اتصلت بتريسيا مرتين بالدكتور جميِّل لنجدتها. المرة الأولى، لأنها عانت التهابات فطرية مهبلية. والمرة الثانية، لأنها أغمي عليها، وقد أصابها وهن مفاجئ. وصف لها الطبيب تحليلاً دموياً، ليتحقق من عدم وجود فقر دم.

في صباح اليوم الثالث بعد القطيعة، طلبت السيدة سيمونّ ثانية مقابلة مع بتريسيا. « لا يهمني أمرها، هذه المرة، سأفضي بكل شيء».

نظرت الطبيبة النفسية إلى بتريسيا والشقة ثم تنهدت وحدَّقت ثانية إلى بتريسيا:

ــ سأكون فظة.

ــ في النقطة التي أنا فيها...

ــ في النقطة التي أنت فيها؟ إنه إعلان شيق. أكنتِ عرضة لعنف في الأيام الأخيرة؟

ــ أتمزحين؟

ــ ولا لثانية واحدة.

بقيت بتريسيا فاغرة الفاه.

ألحت الطبيبة قائلة:

ــ أود حقاً معرفة أي عنف كنتِ ضحيته؟

كادت بتريسيا تنفجر غضباً ومع ذلك تماسكت. «ليس أمام الطبيبة النفسية! هدئي نفسك».

سألت باتزان بدا لها نصراً:

ــ أمام من تعتقدين أنك موجودة، سيدة سيمونّ؟

ــ أمام والدة الضحية، وليس أمام الضحية ذاتها.

انتفضت بتريسيا. تابعت الطبيبة بصوتها المنتظم والهادئ قائلة:

ــ إنك تضعين نفسك مكان ابنتك، من يسمعك، يظن أنك أنت التي هوجمتِ وأنت التي تتألمين في جسدك، وأنت التي لن تضاجعي أحداً بعد اليوم.

«ماذا؟ كيف عرفتْ؟».

ــ أعتقد، بتريسيا، أنك إنسانة طيبة جداً، لكن ينقصك النضج العاطفي. أعرف ذلك من ألبانّ: إنك ابنة ابنتك أكثر من كونك والدة ابنتك.

ــ عفواً؟

ــ إنك تعيشين عيشة خاملة في هذه الشقة من دون أن تفعلي شيئاً، اللَّهم إلَّا القراءة، ليس لك حياة اجتماعية في الخارج، إنك تتوقعين أكثر مما يمكن من المبادلات التي تقومين بها مع ابنتك. فهي التي تروي لك العالم الخارجي وهي التي تجبرك على مقاومة إهمالك لذاتك، وهي التي ترغمك أحياناً على أن تغتسلي وعلى

أن تعتني بنفسك وتذهبي عند مزين الشعر. إنها هي أيضاً التي قد دفعتك للقاء رجل؟

ــ كيف؟ ليس كذلك على الإطلاق!

ــ ألم تلتقي هيبوليت بعد مشادة مع ألبانّ التي أقنعتك أنك لن تستطيعي أن تدفني ذاتك بعد اليوم هكذا؟

ــ لا علاقة لها بذلك. إنني معجبة بهيبوليت منذ ثلاث سنوات وتسلمت رسالة منه، مفعمة بالود وهي التي أطلقت غزلنا.

ــ آه هكذا؟ كنتُ أظن أن المُحرض الحقيقي هو ابنتك، ابنتك التي، شأن الأم، شرحت لك أن الوقت قد حان لتصبحي راشدة وأن ترحلي عن البيت.

صمتت بتريسيا، مرتبكة ومنزعجة.

ــ أرجوك، بتريسيا. يجب أن تستمري في النضج. سيكون هذا الحمل أثقل من أن تتحمله ألبانّ وهو أن تجرّي هذا الماضي، وكذلك وضع أمٍّ ــ طفلة واغتصاب. لأنك تحبينها، فكري فيها، بتريسيا. اشفي بدورك: اكبري! هذا ما سيُعَجّل شفاء ابنتك.

وعلى عادتها حين تُقَدِّر أن المقابلة قد انتهت، وقفت السيدة سيمونّ وتركتها من دون أن تضيف كلمة واحدة.

مكثت بتريسيا مذهولة. كل تلك الأفكار التي لا تلائمها! لقد ألقي لها تواً كيس من الفرضيات وكل واحدة منها تفوق غرابة البقية. هي، امرأة/ طفلة؟ لم ترَ ذاتها هكذا مطلقاً. يا للغباء...

انتصبت واقفة، فترجّحت. يا لها من صدمة... «تهز كيانها، كلّا، المختصة بالصدمات؟ مُعَالِجة، هكذا؟ آه أجل، تعالج الداء بالداء... تلقيتِ ضربة؟ خذي، هذه ضربة ثانية كي لا تفكري بالأولى».

قصدت المطبخ، وبحركة لا شعورية فتحت درج الأطعمة. كلّا. لم تكن جائعة. لم تعد لديها شهية. إذا تلقت كل يوم ضربات مصارعة كما حدث اليوم، فستنحف. حتماً. الانهيار العصبي مثالي كي تفقد كيلوات من وزنها. يكاد يعادل ذلك فعالية السرطان.

راحت تبكي بصمت، بهدوء، بلا أنين. تبكي كما ينزف المرء.

عادت إلى الصالون، فنظرت إلى الساحة من النافذة، بدافع رد فعل قديم.

كان هيبوليت يعمل في الحديقة برفقة جيرمان. لم يلتفت إليها، عمداً بلا شك. حولها، الناس مهتاجون، مشغولون دائماً بقضية بيدرمان. يا للبؤس...

راقبت جيرمان. هكذا ما قد تبدو بجانب هيبوليت. مشوهة. مُعاقة. مثيرة للضحك مثله. كانت تحب كثيراً جيرمان لكنها تجد من غير المألوف أن يحب هيبوليت جيرمان. كما لا تجد طبيعياً أن يحبها هي. على كل حال، لم يكن هيبوليت سوياً، هذا ما يحل كل شيء.

كانت مرهقة، فذهبت من جديد إلى المطبخ، وبحركة آلية، كما في الماضي حين ينتابها أقل ضيق، يؤدي بها ذلك إلى إفراغ البرّاد. فتحته. لم يعد فيه شيء. الرفوف فارغة. هذا منطقي، لم تعد تقوم بالمشتريات. لتأكلا، هي وألبانّ، كانت تطلب الأطباق من ممون الأطعمة الصيني أو أحياناً من عند الياباني. كان ذلك خلافاً للمأكولات التي تحبها فيدفعها إلى اتباع نظام غذائي للتنحيف. لقد اشمأزت نفسها من الطعام.

خرجت من مطبخها. هل ستذهب لتتناقش مع ألبانّ؟ لمَ لا؟

في تلك الثانية، وهي تجتاز المدخل، لمحت خيالاً يتحرك على قرص السلم.

انزلقت رسالة من الباب دسها أحد من الجهة الثانية.

كانت الورقة صفراء، شأن المرة السابقة، وبدت الكتابة ذاتها بالضبط.

٧

كانت تلك الليلة التي عاشتها حتى الآن أشد إثارة للشفقة بلا شك. كانت فوستينا، وقد جلست عارية على السرير، وساقاها منطويتان على صدرها ويداها مشدودتان حول ركبتيها، تفكر فيما حدث لها تواً.

ثمة رجل يدعي أنه عاشق منذ أشهر، ويهذي متحدثاً عن إغرائها، فقبل أن ترده عشرين مرة وهو يتضور رغبة، هذا الرجل بمجرد أن وصل إلى غايته المقدسة، وأن فتحت له ذراعيها حتى اكتفى بالتمدد مختصراً المقدمات ثم تمتع بانبهار بعد حركات متراخية، متكررة، مملة، بمجمل القول، بلا حمية. نظر إليها بعد ذلك بعينين متواطئتين، تدعيان اللوعة، كأنه قد صحبها إلى قمة المتعة. والأسوأ من ذلك: غط في النوم، منهكاً، شأن مصارع إثر مباراة أولمبية. على كل حال، بعد تسع ساعات، كان لا يزال يشخر. يا له من إنجاز بطولي!

فركت فوستينا ذقنها بركبتها اليسرى. ربما كان هذا الإخفاق يغضبها، لكنها شعرت بارتياح. هي التي كانت معتادة العلاقات الملتهبة والمضاجعات العاصفة، والنشوات المتعددة، لم تزعجها تلك النزهة على المياه الهادئة لمضاجعة عادية؛ وربما قد راقتها. فالطمأنينة التي أحستها حين استيقظت حملت لها انطباعاً جديداً.

نهضت من دون أن تزعج باتريك بروتون ـ مولينيون الذي كان يشغل ثلثي الفراش واستولى على أغلب الوسادات كي يجعل استلقاءه مريحاً. وقد تعجبت كيف أن رئيس تحرير صحيفة (Le Matin) لم يزعجه مساعدوه منذ الفجر بهواتفهم، فانحنت على الطاولة الصغيرة قرب السرير ولاحظت أنه قد أغلق هاتفه الجوَّال. أعليها أن تزهو بتلك الأفضلية أم عليها أن تضحك من رجل مثَّلت ليلة عادية جداً بالنسبة إليه حدثاً استثنائياً؟

باقترابها من النافذة، تأكدت من أن المتسكعين والمصورين لا يزالون يطرقون نعالهم أمام قصر بيدرمان. كانوا واقفين، مشتتين بزمر صغيرة. تنهدت، وهي سعيدة لمعرفة أن الحيوية مستمرة، فهي تسكن المكان الاستراتيجي الذي يثير شغف وسائل الاعلام.

في أسفل بنايتها، لمحت بتريسيا تدخل البناء، بخطى حازمة.

ـ آه، يا إلهي، كنتُ على وشك أن أنساها!

لبست بعجلة، وهي مذعورة، وشبكت شعرها بشريط من المطاط وأغلقت الأبواب المؤدية إلى غرفة النوم وركضت تنتظرهت على عتبة الباب كي تجنب إيقاظ باتريك بروتون ـ مولينيون برنين الجرس.

بعد العناقات التقليدية، أدخلت بتريسيا إلى الصالون. بثوب بنفسجي اللون مشدودٍ إلى حد ما وضيقٍ جداً عليها، أخرجت المواد من حقيبتها المصنوعة من الكتان.

ـ هذه هي بطاقاتك.

بسطت بتريسيا على الطاولة المنخفضة ملفات مكتوبة باليد.

ـ ألن تضيفي بعض التعليقات؟

قالت بتريسيا متذمرة:

ـ ليس عندي وقت. كل ما تحتاجينه يوجد في هذه الأوراق. هل أعددتِ المال؟

مدَّت فوستينا مغلفاً مفتوحاً يحوي أوراقاً مالية.

أضافت قائلة:

ـ إذاً، هل تابعتِ القضية؟

ـ أية قضية؟

ـ جارنا ذو الاعتبار، هذا الخنزير زكاري بيدرمان.

ـ هذا يثير اشمئزازي.

ـ وأنا أيضاً.

ـ وإن ما يثير اشمئزازي أكثر هم الناس الذين يتحدثون عنه.

ـ لماذا؟

ـ إنهم لا يتحدثون إلَّا عنه، عما حدث له، عن سقوطه، عن آماله التي خابت، عن مكانته السياسية التي تحطمت. إلَّا أنه يجب التحدث عن تلك المرأة التي أصابها حدث مرعب. لقد اغتُصِبت!

ـ أجل، طبعاً...

ـ «طبعاً»؟ إنك تنبحين مع الرهط، فوستينا؟ يهمك الجلاد أكثر مما تهمك الضحية. فحيث ترين مأساة رجل سلطة، أنا أرى كارثة امرأة.

ـ لا تبالغي. إنه هو المشهور. هو الذي أراده البلد رئيساً للوزراء. إنها...

ــ وأين التعاضد النساني، فوستينا؟

ــ كلّا شكراً...لم أعد أؤمن به منذ زمن طويل. التعاضد النسائي؟ إن أسوأ ضربات الخنجر التي تلقيتها في حياتي كانت كلها موجهة دائماً من نساء.

ــ ربما سعيتِ إليها... كفى حديثاً في هذا الموضوع، سأغتاظ.

نهضت بتريسيا، منزعجة وحالمة، ومشت مسرعة نحو الباب. نادتها فوستينا بنبرة جافة:

ــ بتريسيا، ألم تنسي شيئاً؟

ــ أنا؟

ــ الكتب التالية التي يجب أن تعلِّقي عليها لي.

أشارت فوستينا إلى كومة من ستة كتب جديدة على مقعد.

تمتمت بتريسيا.ــ آه، معك حق.

عادت أدراجها وانتصبت أمام الملحقة الصحفية.

ــ نسيتُ أن أعلمك أنني توقفت.

ــ ماذا؟

ــ توقفتُ عن القراءة مكانك.

بشكل لا إرادي، صححت فوستينا التعبير قائلة:

ــ لتقرئي لي.

ــ تماماً، ستتدبرين أمرك، من الآن فصاعداً.

ــ وحدي؟ لن يكون لدي الوقت.

ــ وأنا لم يعد لي الوقت بعد الآن.

استدارت بتريسيا وأمسكت قبضة الباب. هرعت فوستينا وأوقفتها.

ــ ماذا حدث لك؟

نظرت بتريسيا إلى الأرض، وهي تقاوم انفعالها. أخذت فوستينا نبرة عذبة:

ــ هموم؟

ــ هذا يخصني.

ــ إنني صديقتك، بتريسيا.

هزَّت بتريسيا كتفيها.

ــ كلَّا، كنتِ مُستخدِمتي السرية، أما صديقتي، فطبعاً لا.

ــ أشكرك على لطفك.

ــ على كل حال، حتى لصديقة حقيقية، لن أقول شيئاً. هكذا، احفظي المعلومة المتعلقة بك: لن أقرأ بعد اليوم عوضاً عنك روايات أو مقالات.

ــ وإذا زدتُ أجرك؟

ــ انتهى ذلك! لقد قلته، هذا واضح، لا رجوع فيه.

ــ في نهاية المطاف، تعلنين لي ذلك بغتة، بتريسيا، بعد أعوام من التعاون! ماذا أنا فاعلة؟

ــ ما عليك إلّا أن تتعلمي القراءة. انظري، على مئزرك المطرز، يمكنك أن تبدئي مراجعة الأبجدية.

ومرت إلى قرص السلم. أمسكتها فوستينا من ذراعها.

ــ بتريسيا، لم أرك على هذا الشكل مطلقاً!

ــ اغرورقت عينا بتريسيا.

ــ ولا أنا على الإطلاق. الوداع.

هربت بتريسيا من السلم.

رجعت فوستينا إلى بيتها، حانقة. إن تخلت عنها تلك الحمقاء، فكيف ستقدم إلى الصحفيين الكتب التي لم تتصفحها قط؟ كيف ستوهم المؤلفين الذين تستقبلهم بأنها عشقت آخر مؤلَفٍ لهم؟ لن يتأثر عملها وحده من ذلك لكن عائداتها أيضاً، لأنها اعتادت بيع تلك البطاقات بأغلى الأثمان إلى صحفي أدبي باريزي شهير، شأنها، كان يفضل التحدث عن الكتب بدلاً من أن يقرأها.

قصدت المطبخ وحضّرت فطوراً. والغريب أنها تقدر هذا العمل الرتيب! فهو يطمئنها ويسمح لها أن تقاوم الفراغ قبل أن تستأثر بها أعباء النهار.

حين انتهت من طبخ البيض المخفوق، وصل باتريك بروتون ـ مولينيون، وقد عقد منشفة على خصره، بمظهره التافه وبصدره الأجوف تزعجه بعض الشعيرات الطويلة والنادرة، وبكتفيه البارزتين، وبطنه الرخوة الذي يخفي سمنته. فكرت، خلسة، بهيئة داني بالمنشفة ذاتها، أو بآخرين كانوا قد سبقوه... بلا منازع، كان باتريك بروتون ـ مولينيون أردأ عشاقها.

ــ طاب يومك، عزيزي، كيف حالك؟

اتخذت، بكل عفوية، نبرة أم.

ــ في منتهى الروعة. إنني سعيد.

«المسكين! لا يعي أنه يثير الشفقة». زلقت يدها على خده.

ـ يمكنك ذلك! ثمة ما يستوجب ذلك...

لمعت زهواً عينا باتريك بروتون ـ مولينيون: بهذا التلميح، منحته فوستينا وسام العاشق الجيد.

ـ هل هذا صحيح؟ هل أحببتِ ذلك؟

«لا تتعمق في البحث وإلّا فستعرف الحقيقة، يا رجل».

ـ لقد عشقت ذلك، باتريك! كان ذلك في منتهى...

«العدم؟ والملل؟»

ـ ... الحيرة.

ـ الحيرة؟

«إنه يُلح، المغرور... أيعتقد حقاً أنه جعلني أتسلق الستائر نشوة؟»

ـ من المحير أن نتواجد لنقوم بذلك، أنا وأنت...

«ألا يكفيه ذلك؟ كلّا، طبعاً لا».

ـ وأن تفعله بشكل رائع. طبعت قبلة على خده. خرَّ سروراً.

وهي سعيدة، وزعت ما أعدت على المائدة، وتجاذبا أطراف الحديث، مسرورين، عن أشخاص عديدين كانا يعاشرانهما.

نادراً ما شعرت فوستينا بهذا الانشراح. فهي ليست مدينة بأية متعة لرجل يخرج من سريرها؛ فاحتقارها له قد أنشأ حركات وكلمات جديدة. لقد حررت شفقتها تجاه الفحل التعيس لطفاً عطوفاً وأدى بها إلى ألّا تتصنع الرقة والحنان بل أن تشعر بهما.

وجدت ذاتها، بالنسبة إليه، حرة كما لم تكنه يوماً: يمكنه أن يرحل، لن تأسف عليه؛ أو أن يبقى، لن يضايقها. في قرارة ذاتها كانت لامبالية مطلقاً.

لذا، حين سألها في نهاية الفطور، إن كانت تقبل أن تتزوجه، وافقت من دون تردد.

انتشر النبأ بسرعة كبيرة، لا سيما أن باتريك بروتون ـ مولينيون وهو يملك دفتر عناوين غزيرة، راح يوزع الخبر من دون تحفظ، متذوقاً زواجه كنصر على النساء السابقات ـــ في الحقيقة لم يكنّ كثيرات ـــ اللواتي صددنه، وانتصاراً على الرجال ـــ وعددهم أكثر بكثير ـــ الذين كانوا يتطلعون بشبق إلى فوستينا.

أما هي، في المقابل، فقطَّرت النبأ ببخل أكبر؛ هكذا لم تتصل بناتان ولا بطوم ولا ببقية أصدقائها اللوطيين، وهي تعرف تمام المعرفة أنهم سيسألونها فوراً عن

مهارات باتريك الجسدية. أيمكنهم أن يدركوا أنها منحته يدها لمجرد عدميته في الفراش؟

في ذات يوم من بعد الظهيرة، حين كانت غارقة في مؤلَفٍ روائي ضخم وكان عليها أن ترافق كاتبه في جولة إعلامية برقت في رأسها خاطرة لامعة:

ــ بتريسيا على صواب!

أمسكت الهاتف سائلة:

ــ باتريك؟ أتريد أن تهزم منافسيك في قضية زكاري بيدرمان؟ وأن تبيع أعداداً أكبر من الصحف؟ وأن تكتشف مدى نجاحك؟ وأن تكون موضع اهتمام وسائل الإعلام في العالم أجمع؟

ــ هل أحتاج إلى ان أجيبك؟ ألديك نبأ مثير؟

ــ كلَّا، نصيحة. أضعها في سلة زفافنا.

ــ قولي بسرعة.

ــ اهتم بالضحية.

تلقى بصمتٍ عرضها. ثم تلاه صراخ:

ــ اللعنة، أنت عبقرية!

حين رأى باتريك بروتون ـ مولينيون وفوستينا كيف أن بيترا فون تنانبوم، تدخل بأبهة، بشعرها الأسود الفاحم، ونظرتها كالنسر، إلى مكتب مدير جريدة (Le matin)، شعرا بضيق. لم تكن تلك الضحية تشبه أية ضحية.

فكرت فوستينا «يا لخطأ اختيار الشخصيات!

جلست بيترا بأناقة على مقعد قُدِّم لها وعرضت مبسم سجائر.

أعلنت قائلة بنبرة جليدية:

ــ آن الأوان!

ــ أوان أي شيء، سيدتي العزيزة؟

ــ أن يهتم الناس بي.

وافق باتريك وأعلن عن نية صحيفته: تخصيص صفحتين كاملتين لها.

تمتمت باشمئزاز:

ــ صفحتين؟

صحح قوله:

ــ أقله صفحتين.

وضعت على الطاولة الملف الذي كانت تمسكه تحت ذراعها.

ــ هذا هو كتابي مع عناصر حياتي الرئيسية. بالنسبة إلى الصور، عندك أسماء الوكالات لتتصلوا بها على ظهر الصفحة.

ــ أتستطيعين أن تروي لنا ما حدث؟

عرضت بيترا قصتها. كان كل شيء يصدم الصحفي والملحقة الصحفية سواء من انطباعاتها إلى اختيارها للكلمات. فكلما تقدمت في سرد اغتصابها بدت منفرة. قبل أن تنتهي، لم يكونا يتمنيان إلّا أن يتوقفا عن سماعها.

تبادلت فوستينا وباتريك نظرة يائسة. وجدا أمام معضلة مهنية حقيقية: فالمغتصبة التي كان عليهما أن يتعاطفا معها قد أثارت الاشمئزاز.

أوحى باتريك بحركة إلى فوستينا بالتدخل. كانت تنتظر آخر التصريحات الشهيرة لبيترا عن فظاظة رجال الشرطة البلجيكيين ثم سألتها:

ــ لقد رجعتُ إلى موقعك الرسمي ــ رائع على كل حال، شأنك أنت ــ لكنه بخيل بالعناصر الحياتية. ــ على التحفة الفنية أن تكون غامضة وغير مفهومة. إنني تحفة فنية.

ــ هنا، في تلك القضية الحزينة، إنك بالأحرى لعبة شخصية كريهة. ربما هذا ما سيجذب تعاطف جمهور كبير جداً.

لم تفهم بيترا؛ إلّا أن ذكر «جمهور كبير جداً» قد أثار انتباهها.

ــ هل اسمك حقاً بيترا فون تنانبوم أو أن هذا اسمك الفني؟ تشنجت بيترا.

ــ إنه اسمي.

ــ منذ متى؟

ــ منذ زواجي بغوستاف فون تنانبوم الذي توفي بعد عام من زواجنا.

ــ واسمك كفتاة؟

ــ لا أسمح لك...

ــ كوني على ثقة من ذاتك.

رفعت بيترا فون تنانبوم كتفيها وأدارت رأسها لتلفظ التالي:

ــ سميت، نيكول سميت. إنني أميركية.

ــ من أين؟

ــ من التكساس.

ــ أنت! لستِ ارستقراطية ألمانية؟

ــ بلى! أصبحت كذلك عن طريق زواجي.

ــ أتعرفين أنها حكاية شيقة وجذَّابة، تلك... الشابة الأميركية التي تصبح نبيلة متحذلقة، أرملة وفنانة؟ اعذريني، ثمة مادة روائية تثير اهتمام الجمهور.

ــ آه حسناً! إذاً لماذا لا تهتم وسائل الإعلام بي.

نهضت فوستينا واقفة:

ــ سأقول لك بيترا فون تنانبوم، أتسمحين أن أسدي لك ببعض النصائح؟

ومن دون أن تنتظر فوستينا جواباً، نشطت قائلة:

ــ لا تضعي نفسك في الواجهة. كوني أقل سطوة. كفي عن الزهو والتبجح بمكانتك الفنية، على الآخرين أن يقوموا بذلك. العبي دور البساطة الكبيرة. لا تدخني بمبسم سجائرك هذا، ولكن دخني بقلة مهارة سجائر شعبية من دون مصفاة، بنفحات ضخمة، شأن امرأة تائهة. البسي ثياباً بسيطة كي يشعر الناس بأنك لو وضعتِ كنزة من الصوف على ظهرك، أنك في قمة الأناقة رغماً عنك. اختاري زينة محتشمة، تكاد لا تُرى، وحتى لا يتخيل الناس أنك قد أعددت نفسك لعدسات التصوير. أعطي انطباعاً أنك في خوف دائم، كأن كل رجل يقترب منك يشكل من الآن فصاعداً مغتصباً بكامل قدراته. لا تنظري إلى الناس محدقة إلى عيونهم. أرخي رقبتك، انظري إلى البساط، اظهري بهيئة مجروحة، حينذاك تكونين أول خبر في الصحف ويعشقك الجمهور.

مكث باتريك مذهولاً بلا حراك: كان يخشى رد فعل بيترا فون تنانبوم التي تلقت هذا الخطاب بشحوب وتشنج، وباستياء واضح. كانت عيناها، أكثر تحديقاً من عيني طير جارح وجد فريسته، تصوب ثوراً وحشياً لا يُقاوم.

خلصت بيترا فون تنانبوم وهي تفك تصالب ساقيها قائلة:

ــ إنك كاملة، أريد ان أتعاقد معك من أجل مداخلتي. كم تأخذين في الشهر؟

لم يكن أحد يعرف أين تختفي فوستينا أيام السبت صباحاً.

المعروف رسمياً، أنها تذهب لتركض في غابة «كامبر». فسواء كانت الريح تعصف، أم تتساقط الثلوج، أم تهطل الأمطار، كانت تذهب إلى هناك. من أراد مرافقتها صدته برفض. لم يصادفها أحد هناك قط. من أراد أن يبدأ بتحقيق يلاحظ أنها تعود بحقيبة رياضية لا يُظهِر فيها أي لباس أثراً للرطوبة.

أوقفت فوستينا سيارتها أمام «مقر الأرز». حيّت المديرة ثم صحبتها ممرضة بدينة إلى الطابق الثاني، حتى الغرفة ٢٠١.

سألتها فوستينا:

ــ كيف حالها؟

أجابت الممرضة:

ــ ليس ثمة تحسن.

ــ هل تحدثت في هذه الأيام؟

ــ ولا كلمة، على ما لاحظناه.

فتحت لها الباب وهي تتمتم:

ــ أتركك، كعادتك؟

دخلت فوستينا بخطى صغيرة، فجأة أكثر بطئاً من المألوف، بأقل صوت وبأكثر خفة:

ــ طاب يومك أمي، كيف حالك؟

كانت السيدة العجوز متكورة في مقعد بالقرب من النافذة، لا تميز أي حضور، تتابع التحديق إلى شجرة في الحديقة.

ــ كيف أمضيت أسبوعك؟

كانت تعرف فوستينا تمام المعرفة أن أمها لن تجيب لكنها تتصرف كأن الأمور طبيعية. وإلّا فما العمل؟ أن تجلس وتصمت؟ في تلك الحالة لا جدوى للمجيء.

بدأت فوستينا وهي واقفة أمام أمها، بثرثرتها الأسبوعية؛ كان رغيها يشبه فوستينا ــ مضحكاً ووقحاً ــ، أما الصوت فبعذوبة غير مألوفة وبتشديد على اللفظ يظهر أن أنها كانت تتعمد تأدية مشهدً. أفضت، إذاً، بأنباء حديثة وأعلنت عزمها على الزواج من باتريك بروتون ـ مولينيون.

لم تكن المرأة العجوز تصغي، ولم تكن تنظر إليها، ولم تتحرك أي ابتسامة على وجهها.

ــ أعلن لك أنني سأتزوج ولا تبدين أي رد فعل؟

تفحصت الوجه المنهك ثم شعرت بأنها إذا تحاملت، فسيرق قلبها،ستشفق على نفسها التي تعلن زواجها لأم لا مبالية.

جرَّت فوستينا كرسياً حتى النافذة وجلست أمام المريضة.

ــ ما رأيك في أن نغنّي؟

محا مرض الزهايمر من دماغ الأم معظم الذكرياتوبخاصة تلك المتعلقة بابنتها

وزوجها وإخوتها وأختها ووالديها. يمكن التأكيد أنه لم يعد لتلك المرأة إلّا حياة خاملة كالنبات لو لم يربطها الغناء أحياناً بطريقة خاطفة، بالإنسانية.

دمدمت فوستينا:

حين يضمني بين ذراعيه
ويهمس لي بكلمات
أرى الحياة بمنظار وردي...

كان الجفنان المنهكان والرموش التي طلاها غبار الطلع تتحرك قليلاً. كانت أمها تحس حضور الأنغام. تابعت فوستينا، وشيئاً فشيئاً راحت السيدة العجوز تتمتم، مغامرة بكلمة هنا وبجملة هناك، شأن مسافر يتردد في الصعود إلى القطار.

أنهت فوستينا تلك الأغنية وراحت تغني أغنية البحر. فوراً رافقتها المريضة في غنائها:

البحر الذي يُرى يتراقص على طول الخلجان المضيئة
البحر كراعية أغنام للأفق اللامتناهي،

حين لفظتا هذا البيت، شعرت فوستينا، عند أمها، بأن نظرة محددة تدعم الكلمات. كانت عيناها تقولان «أتسمعين، هذا مرهف «كراعية أغنام للأفق اللامتناهي؟» كما في الماضي.

صرختا معاً النهاية. كانت فوستينا راضية. لأن أمها كانت تعشق دائماً أن تغني، فكرت أنها قد سلتها.

كانت تستعد للرحيل حين بدأت السيدة العجوز، من تلقاء ذاتها، مقطعاً جديداً:

كان صبياً، ولداً من باريس،
لم يكن له كأسرة سوى والدته
إنها فتاة بائسة ذات عينين كبيرتين
حمَّرتها الأحزان والفقر...

كان الصوت الواهن، والنحيل شأن أصابع العجوز، ينساب منه لحن قديم. الورود البيضاء.

تشنجت فوستينا لأنها كانت تخشى تلك الأغنية. حين سمعتها في الماضي من فم أمها التي تعشقها، وكانت في سن، تجهل روحها كل سخرية لاذعة، بكت فوستينا، متعاطفة مع النص المؤثر. منذ ذاك الحين، في كل مرة سمعتها، حدثت ظاهرة غريبة: فإن كانت تدركها بأذنيها الآن، أما قلبها فبقي على ما كان عليه في الماضي.

«هذا يوم الأحد، خذي أمي الحسناء،
هذه ورود بيضاء، أنت التي تحبينها كثيراً.
حين سأصبح كبيراً، سأشتري من البائع
كل وروده البيضاء، لك أمي الحسناء».

رغماً عنها، كانت الكلمات تمسها، فتعيدها إلى زمن الحب والبراءة. أدارت رأسها وهي تعض على شفتيها. أوه، كانت لا تحتمل الانفعال الذي تثيره تلك الأغنية لأن هذا الحزن يبعث ميتة، فوستينا أخرى، فوستينا الزمن الغابر، فوستينا التي لم يعد لها وجود أو تلك التي ترقد تحت طبقات تجارب قاسية ومهينة وجارحة. أيجب إيقاظها؟

في الربيع الأخير، جاء القدر الغاشم
يضرب العاملة الشقراء.
أصابها المرض فنُقلت إلى المستشفى،
رأى الصبي أمه ترحل.

راحت فوستينا ترتجف... أكانت على صواب حين قست؟ إن فوستينا الحالية قد تضحك ملء شدقيها لو اكتشفت تلك القصة المثيرة بشكل مفتعل، ولوجدتها تامة الحماقة والبلاهة. ولكن، بما أن الطفلة التي كانت تُبعَث من جديد تحت تلك الأغنية، تلمَّستِ الشابة ما حوته سخريتها من موقف دفاعي، وهي تقيس الحزن المخفي وراء ثقتها العديمة الإحساس. وإن كانت مخطئة؟

أليس من الأفضل قبول المشاعر؟

ثم جاء إلى المستشفى وهو يركض،
ليقدم الورود إلى أمه

لكن حين رأتها ممرضة
قالت له بصوت منخفض: «لم يعد لديك أم».

حدَّقت فوستينا إلى أمها. أكانت تفهم ما تغني؟ كانت الكلمات تتتابع صحيحة سماعياً، شأن موسيقى صافية، ولكن أكان لتلك الكلمات معنى؟

كان صوت السيدة العجوز وقد تحول إلى خيط، يرتعش بالغناء. احمرّت عيناها بقرنيتيهما الكابيتين. أجل، كانت تعرف ما تروي...

وقال الصبي وهو يركع،
أمام السرير الصغير الأبيض:

«اليوم أحد، خذي أمي الحسناء
تلك الورود البيضاء، أنت التي تحبينها كثيراً.
وحين ترحلين، هناك إلى الحديقة الكبيرة،
ستحملين معك كل تلك الورود البيضاء».

أنهت العجوز الأغنية وعيناها في عيني ابنتها، وهي تمسك يدي فوستينا في يديها. ابتسمت فوستينا وهي تبكي. فأمها، منذ المكان الضبابي حيث ضاع وعيها، كانت ترسل إليها رسالة: «أعرف أنك ابنتي، وأنك تحملين إليَّ ورودا بيضاء؛ فزياراتك هي كل ما تبقى لي؛ تلك الذكريات الجميلة منك، أشكرك عليها وسأحملها معي في الموت».

فالممرضة التي استعادت فوستينا المشرقة، البالغة السعادة والتعاسة معاً، رق قلبها أمام انفعال الزائرة:

ــ إنك ابنة صالحة! آه، لو كان كل الناس على شاكلتك...

حين رجعت فوستينا إلى الشقة، كان باتريك ينتظرها، والمفكرة في يده: كان يريد تحديد موعد الزواج.

الآن أصبح الأمر محسوساً. اتفق كلاهما على تاريخ ٤ أيلول ثم رقصت فوستينا وسط الغرفة، وهي مسرورة. حاول باتريك، بالرغم من زهوه بهذا الفرح، أن يخفف من حماستها.

ــ لا تبتهجي كثيراً، إن تنظيم الزواج شأن مرهق.

ـ كيف عرفت ذلك، يا زير النساء الوحشي؟ هل تتحدث عن تجربة؟

أشارت إلى المكتب حيث كان حاسوب باتريك يضيء، وقد هوجم برسائل مستعجلة.

ـ هيا، اشتغل، حضرة رئيس التحرير. أثناء هذا الوقت، سأعلم بعض الرفيقات. جلس إلى المكتب ثانية بينما ذهبت إلى غرفتها. حين كانت على وشك أن تشارك غبطتها مع بعض صديقاتها. أوقفت رسالة حركتها!

« تهانيَّ، يا سافلتي، عرفتُ أنك بسطتِ شباكك على صيد كبير (أتحدث عن الوضع الاجتماعي، طبعاً). داني».

أجابت بسرور وقد التهب صدغاها:

«شكراً على تهانيك: إنني أقبلها».

بعد عدة ثوانٍ، وصلت جمل جديدة:

«إنني أعشق النساء المتزوجات. خصوصاً حين يعانين بعض الحرمان. وهذا ما سيكون حالك».

دونت جوابها على الفور: «إنني أحرص على أن أكون حرة».

«حرة في أي شيء؟»

«حرة في أن أفعل ما أريد؟»

«في أن تضاجعيني مثلاً؟»

عضت على شفتيها وألقت نظرة خاطفة حولها وأجابت:

«لمَ لا؟»

انتظرت بقلق ظهور رسالة جديدة. استغرقت دقيقة طويلة لتصل:

«كما قلت لك، أعشق النساء المتزوجات. فهنَّ أسوأ السافلات».

«لا أعرف، لم أخن يوماً زوجاً».

«موعدنا في «بلو مون» في عشرين دقيقة.

انفجرت بالضحك. يا لوقاحته! ويا لجرأته، هذا المدعو داني. لماذا تخاصما؟

«موافقة».

بسرعة، غيرَّت ملابسها الداخلية، ودست قارورة عطر في حقيبتها ومرَّت إلى الصالون.

أمام النافذة المشرفة على الببغاوات اللواتي تزعق وتثور، كان باتريك يعمل، وظهره منحنٍ على حاسوبه، أنموذج الشخص الجدي والدؤوب.

ـ هل لا يزال أمامك عمل كثير، عزيزي؟

تمتم:

ـ ساعتان أقله، كحدٍ أدنى.

« كان عليه أن ينظر إليَّ، لست خادمة. بصراحة، لو كان قد رفع رأسه ربما لما ذهبت».

ـ إذاً، سأستفيد من هذا الوقت لأقوم ببعض المشتريات.

اقتربت منه، بنشاط، وداعبت كتفه قائلة:

ـ أحبك، عزيزي.

هنا، رفع رأسه. «آن الأوان!» قطب جفنيه، وقد أمسك بيدها، أضاف بصوت خفيض:

ـ إنني رجل سعيد.

وافقت، وقد أكلتها رغبة في الضحك توصلت إلى السيطرة عليها:

ـ إنك كذلك، عزيزي، إنك كذلك. حتى أنك أنت الأكثر سعادة.

٨

حين وصلت سيارة النقل الضخمة في ساحة آريزو شأن كرة قُذِفت بسرعة كبيرة، تكورت الآنسة بوفير على كرسيها، ويدها على وجهها، بقلب يخفق. هل ستتوصل إلى أن ترى من دون أن يراها أحد؟

لم تستقل هذا النقل المشترك إلّا لتلمح شقتها القديمة، ولتجد ثانية حيَّها الأصلي. لحسن الحظ، كان الباص يحوي مسافرَين، هي وسيدة متحجبة نائمة في الصف الأخير، لم يتعجب أحد من سلوكها الغريب.

زلقت عين بين أصابعها حين لفت السيارة حول الحديقة المستديرة، لمحت الآنسة بوفير قصر أسرة بيدرمان حيث وقف أمامه مصورون يدخنون، لا عمل لهم سوى ترقب صورة يختلسونها. حاولت بعد ذلك أن تسترق النظر إلى أسرة كوفينيٍّ، الأب والأولاد لتقدر كم غيرتهم المصيبة. عبثاً! حين سارت بمحاذاة بنايتها أشاحت بسرعة رأسها وهي ترى عن بعد شكل مرسيل الضخم لحظة إخراجها أكياس القمامة. اكتشفت، في الحال، من الجهة الأخرى، تحت الأشجار، البستاني الموظف في البلدية وقزماً وفتاة صغيرة يلعبون لعبة الكرة الحديدية. فكرت «يا للوقاحة! تُستعمل ضرائبنا ليتسلوا». بمجرد أن صاغت تلك الملاحظة عارضتها بنقدين: كانت تُفرغ كيساً من المرارة لأنها لم تكن تحتمل أن يكون الناس سعداء هنا بدونها؛ والتالي، إن البستاني الموظف في البلدية كان ذا هيئة جميلة. لماذا لم تنتبه إلى ذلك من قبل؟

وسط صخب الألواح الفولاذية المهتزة، هرب الباص من ساحة آريزو وتابع طريقه، وهو يدخل أحياء أكثر قتامة بواجهاتها الرمادية المسودة بالدخان.

انتظرت الآنسة بوفير قليلاً ثم انتصبت جالسة.

عليها أن تُغيّر الخط وتصل إلى بيتها! وقد استوعبت المسافات التي تقطعها الباصات والحافلات الكهربائية وقطارات تحت الأرض، فقد أصبحت ملكة وسائل النقل، بدماغها الذي يطابق مخطط الشبكات من دون صعوبة ويكتشف المسافات الأكثر ملاءمة. كان فقرها الحديث يقدم لها كثيراً من الفعاليات الجديدة حتى أنها لم يكن لديها الوقت لتضجر. فالتنقل بعدة قروش والأكل بثلاثة أوروات

يحرضان بها ذهنها. كان يحمل لها كل يوم تحديات لا تُصدق: أن تسرح شعرها وحدها وأن تصبغه بنفسها وأن تظهر أنيقة من دون ميزانية للزينة وتؤمن نظافة ثيابها متجنبة التنظيف والكي على البخار المكلف، وتوفر الماء والغاز والكهرباء. فهوس الأرقام لم يفارقها، ولكن تلك المرة لم يعد يطابق قطع الكازينو البديلة أو خانات «الروليت»؛ كانت تُسجل الأرقام على دفتر صغير لا يفارق جيبها والذي يتلقى عمليات الجمع والطرح والقاعدة الثلاثية وكذلك كل الأفكار لتحسن حياتها اليومية من دون أن تثقل الفواتير. أحياناً كانت تشعر بنشوة في إيجاد طرق للتوفير، بنوع من السكر يعيدها إلى لحظات النشوة الخوالي؛ وكشأنها في الماضي، كانت تستنشق سعادة النضال، ليس ضد الصدفة ولكن ضد الحاجة.

نزلت الآنسة بوفير في موقفها، «موقف مادو».

« مادو! لو قيل لها ذلك في الماضي...». فبدلاً من أن تشكو، كانت تتسلى. طوال عقود من الأعوام، كان يبدو لها حي مادو شيئاً مجرداً تماماً، ضرباً من لا مكان لم تكن تريد يوماً أن تعرفه. أولاً، بأية لغة يُتهجى، هذا الطرف القذر من بروكسل؟ «مادو»، لم يكن بالفرنسية ولا بالفلمنكية... ثم، إنه يعني مجموعة شوارع ليس لشخص سوي أي سبب ليسير فيها. لماذا تقوم سيدة برجوازية من «إكسل» بمشترياتها في دكان عطار تركي أو في مخزن مغربي كبير للتسوق؟ من الآن فصاعداً كانت الآنسة بوفير تسكن تلك المتاهة، فتتخذ منها ملجأ لها وتغتبط كل يوم بعاداتها الجديدة.

فبدلًا من الانحطاط، راحت تعيش حياة جديدة. حين كان عندها كل شيء، لم تكن تدرك قيمة شيء. أما اليوم، فكل شيء تشتريه يثير نقاشاً ــ أكانت حقاً بحاجة إليه؟ أتستطيع أن تجد بثمن أرخص؟ على أي شيء عليها أن تقتر لتدفع ثمنه؟ هكذا، بساط للحمام بفراء من خيوط تركيبية زرقاء ملصق على كاوتشوك أبيض قد شغل أفكارها طوال أيام كثيرة؛ لو كان قبيحاً جداً ــ وهذا ما أقرت به ــ لم يكن يُكلف إلّا عدة يوروريات، وهو ضد الانزلاق، يمنعها من أن تتزحلق على البلاط المبلل لحمامها الرشّاش الصغير جداً. طبعاً، لن يكون موضع إعجاب أثناء جولة في شقتها لكنها لم تكن تدعو أحداً أولاً، ثم لا يوجد شيء يمكن زيارته، وفي النهاية أن تكسر وركيها كان خارج إمكانياتها. اغتبطت حين حصلت عليه من المتجر الصغير «سيزر». الآن تتأمل برضى بساطها اللازوردي، ليس حين تذهب لتستحم، ولكن أحياناً وسط النهار، بلذة، شأن من يذهب ليحيّي حيواناً أليفاً يقيم خلف الباب.

دخلت في البناء رقم ٥ من شارع «بكمير» وقطعت الممر الأخضر والأصفر ونفذت إلى الباحة ووصلت إلى شقتها الصغيرة. كانت تلك الأمتار المربعة القليلة تحوي غرفة نومها وغرفة طعامها ومطبخها. قريباً، كما وعدها نجار البناية رقم ٩

سيترك لها بقايا الدهان التي تزمع أن تزيل بها آثار اللوحات اللاصقة على الجدران والإعلانات التي علّقها عليها المستأجرون السابقون.

حين سمع كوبرنيك صوت القفل، استيقظ وتحرك وانتفض مغتبطاً.

صرخ بصوت مدوٍ:

ــ طاب يومك سيدتي، طاب يومك!

ــ طاب يومك، عزيزي كوبرنيك.

فما عدا الملابس، كان الببغاء وقفصه الوحيدين اللذين نجيا من غزوة محضري المحكمة. على غرار معلمته، بدا الطائر غير متألم كثيراً من الانتقال، مقدراً الوقت الأطول الذي يمضيه معها.

فتحت الآنسة بوفير قفل الشبكة وحررت الببغاء الذي فرك جسمه عليها.

داعبت منقاره وذنبه وبطنه؛ فكان يتلقى اهتمامها بفرح وحشي ومحموم ونزق، فكان يخرج من حنجرته نوع من الهديل المتناغم.

ــ إننا سعداء هنا، في نهاية المطاف، عزيزي كوبرنيك. أليس كذلك؟

كجواب، راح ينقرها بقبل على ذراعها.

جلست على سريرها الضيق، والطائر على كتفها، وراحت تفكر بالرحلة التي قامت بها. ما نفع ذلك؟ لماذا العودة إلى هناك؟ في قرارة نفسها، لم يؤثر عليها ذلك. لم تشعر بأي حنين، لم تأسف لرحيلها. بالطبع، كان مسكنها أجمل، أجمل ألف مرة من هنا. لكن تلك السنين في ساحة آريزو بقيت مطبوعة بمرضها المزمن، جنون اللعب، وهروبها الليلي، ورحلاتها الخفية في نهاية الأسبوع. لقد صرفت طاقة كبيرة في الهرب من شقتها في ساحة الدرَّات من أن تسكنها.

دقت الجارة على زجاج النافذة:

ــ الآنسة بوفير؟

ــ أصل، أصل.

تأكدت من ترتيب تنورتها ذات الثنيات، كما تحققت من أن لا شيء مرمياً هنا وهناك ثم فتحت، وكوبرنيك يلاصق خدها.

ــ إذاً، أعهد إليك بهم؟

أشارت الجارة بعينيها التعبتين إلى سبعة أطفال في الثامنة من عمرهم يلتصقون بها.

ــ طبعاً! هل جمعتهم؟ سنفعل وفق اتفاقنا؟

ــ الأمهات موافقات، آنسة بوفير.

ـــ ادخلوا أعزائي.

ألقى الأطفال نظرة مرتبكة على الطائر، واحتلوا الشقة فجلسوا حول الطاولة ورتبوا كتبهم ودفاترهم على القماش المشمع.

وضعت الجارة صحنين وطنجرة في المجلى.

ـــ تلك فطائر بنوع من الجبن كمقبلات، ومشاوٍ تسخنينها، ورز بالحليب كحلوى في نهاية الوجبة.

ـــ رز بالحليب؟ أحبه كثيراً وكذلك كوبرنيك يحبه أكثر.

شكرت الآنسة بوفير الجارة التي رحلت ثم اهتمت بالصغار.

ـــ ما هي وظائفكم، هذا المساء؟

نقل الأولاد ما طلبته منهم المعلمة وساعدتهم الآنسة بوفير على القيام بتمارينهم. حين استقرت هنا، شرحت، صدفة، لتلميذ في البناية كيف ينجح في عمليات الطرح. وقد تأثر بعذوبتها ووضوح نصائحها، عاد الطفل مع ابنة عمه التي تحدثت بعد ذلك إلى جيرانها في البناية. هكذا، بطريقة شبه عفوية، أقامت الآنسة مقايضة: مقابل المساعدة المدرسية، تتلقى وجبات. بالنسبة إلى أولئك لأمهات اللواتي يُطعمن أسرة كبيرة، لا تُمثِّل حصة إضافية شيئاً ذا قيمة؛ في المقابل، أن تكون بلجيكية حقيقية، فرنسية اللغة، راقية ومثقفة تؤمن نجاح أطفالهن فهذا يهمهنَّ كثيراً: قبلن شروطها بحماسة.

قدمت الآنسة بوفير عذر المقايضة كي تبرر مهمتها الذهبية، فمن يوم إلى يوم، ازداد سرورها من الاهتمام بهؤلاء الأطفال ذوي الأهل المهاجرين. اكتشفت إلى أي مدى كانت ضرورية المعلومات التي حفظتها لا بل ثمينة: لغتها الفرنسية الممتازة، دقتها في الحساب، تبين لها ذلك كنزاً يمكنها أن تنقله وتوفره لهم. كانت نظرة الأطفال إليها المحترمة والمتلهفة وحتى المُعجَبة تؤمن لها رضى مثيراً وغير منتظر.

روت لفتاة صغيرة سألتها عن الطائر المتعدد الألوان، أنها قبل الآن، كانت تسكن ساحة رائعة حيث تطير ببغاوات من كل الأجناس، انضمت إليها درَّات خضراء. كان الناس يسكنون في البيوت، والببغاوات في الأشجار ينظر كل منهم إلى الآخرين كيف يعيشون. ضحكت الفتاة بسخرية ولم يشأ أحد من الأطفال أن يصدقها. ألحت وحددت أن هذا في بروكسل، على بعد كيلومترين من هنا. حرَّكوا سلباً رؤوسهم سلباً وبعناد. فبالنسبة إليهم ـــ كما بالنسبة إليها في الماضي ـــ، هناك أكثر من حدود، أو جبل أو صحراء بين «مادو» و«إكسل»، فهما ينتميان إلى عالمين متميزين بعضهما عن بعض. لا يوجد مقيم من هذا الشاطئ يذهب إلى هناك،

والعكس صحيح. اعتبرها الأولاد إذاً كاذبة بينما كانت تقول الحقيقة هذه المرة. فكرت، ماذا كان يريد الناس؟ الواقع أم الحلم؟ ما كان يلائمهم.

شرعوا في مراجعة الدروس. وبينما كانت تتحدث إلى المجموعة، كان كوبرنيك جاثماً فوقها، يصغي هو أيضاً بانتباه ويقظة. من وقت إلى آخر، شأن تلميذ يسجل ملاحظات، كان يكرر كلمة بحماسة ــ «صيغة نصب الفعل»، «القاعدة الثلاثية!» ــ فينفجر الأطفال بالضحك. كانت الآنسة بوفير تزهو به لأنه كان يتبع الدرس وهو يسلي الأولاد. في المقابل، كانت تستغرب كيف أنه يتخبط ويظهر استياءه حين تقيم حواراً مع ولد واحد.

هذا ما حدث حين انحنت على عبدول، السمين والأجعد الشعر وأرغمته على مراجعة الأفعال التي لا تتبع القاعدة. فبالرغم من لطف المعلمة التي تكرر وانتباهها، كان الصبي يتردد ويخطئ.

صاح كوبرنيك بعد الخطيئة العاشرة:

ــ بررر! بررر!

استفادت الآنسة بوفير وهي تداعب شعر الكسلان من تلك المداخلة:

ــ كما ترى، عبدول، حتى كوبرنيك يجد أنك لا تركز انتباهك جيداً.

قال بتذمر وقد قطب حاجبيه وهو يحدق إلى الطائر:

ــ إنه لا يحبني.

ــ إنه لا يحب أن تخطئ. إن استمر الأمر على هذا المنوال، فسيلقنك الأجوبة.

صرخ عبدول وهو يرفع رأسه:

ــ إنني أتحداه!

لم ترق حركة الولد المباغتة والعدائية والجافة كوبرنيك. فتح جناحيه وحلّق في الهواء على ارتفاع عدة سنتيمترات ثم هجم على الولد مصوباً منقاره ليهاجمه بقوة.

صرخ عبدول مما زاد إثارة كوبرنيك الذي ضاعف ضرباته وأسرع بها.

راح الصبية السبعة يصرخون، وقد كبتت الآنسة بوفير مفاجأتها، حاولت السيطرة على الصخب.

ــ اسكتوا! ستزيدون غيظه! اسكتوا! كوبرنيك، توقف! توقف، قلت، كوبرنيك! كوبرنيك!

كلما كانت تنادي الطائر، ازداد هجومه على عبدول.

وقد خشيت الفتيات أن يصبحن ضحايا المستقبل، قفزنَ عن كراسيهن، دفعنَ

الباب وهربن إلى الباحة. أمسك ابن عم عبدول المسطرة ليضرب الطائر. أوقفت الآنسة بوفير حركته بغضب.

ــ أمنعك من ضربه.

ــ ولكن، آنستي...

ــ سيتوقف كوبرنيك من تلقاء ذاته. كوبرنيك! كوبرنيك!

لم يكن المعقوف يُفلت فريسته التي كانت تئن بدلاً من الدفاع عن نفسها. قررت الآنسة بوفير أن تدخل المعركة، محاولة فصل الطائر عن الولد من دون أن تكسر أجنحته.

ــ كوبرنيك!

فجأة ترك الببغاء فريسته وألقى نظرة دموية على الآنسة بوفير وانطلق باندفاع نشيط متخطياً إطار الباب المفتوح ووصل إلى الباحة وحلّق بعيداً.

ركضت صاحبته مرتاعة وراءه:

ــ كوبرنيك!

حين وصلت إلى الباحة الصغيرة، استشفت بقعة متعددة الألوان تصل بسرعة إلى المزاريب وإلى السطوح. اختفى الطائر في الأثير.

ــ كوبرنيك! ضاع صوتها في السماء الخاوية.

شعرت الآنسة بوفير بالدموع تصعد إلى عينيها. فالدموع وراءها أعادتها إلى الواقع. دخلت إلى شقتها واكتشفت الخدوش والعضّات والزرقة التي لطخت وجه الصبي.

ــ إلهي!

وقد أطلقت هذا الصراخ، لم ترأف بالصبي ــ الذي سيشفى ــ بقدر ما حزنت على هرب حيوانها، وعلى النهاية المتوقعة لتلك المقايضة التي كانت تلائمها كثيراً.

في الساعات التالية، أنقذت الآنسة بوفير الوضع جزئياً: لم توقف الأمهات الصفقة ــ أولاً لأنه كانت لعبدول سمعة سيئة جداً، ثم لأن مصدر الخطر، الببغاء، قد اختفى.

في المقابل، بعد تلك النقاشات المملة، حين وجدت نفسها وحيدة، في منتصف الليل، في شقتها الصغيرة جداً، أحست قلقاً يكتسحها. ففقدانها كوبرنيك، أضاعت حياتها القديمة وحياتها الجديدة؛ لم يعد شيء يبدو لها محتملاً، ليس ما ساومت على اقتنائه كي تسدد ديونها العبثية في القمار، ولا بانحصارها في عدة أمتار مربعة في قعر

باحة تفوح منها رائحة الكباب. بدت لها عزلتها مثيرة للشفقة... وكذلك بؤسها ـــ نهائياً...

للمرة الأولى في حياتها، أشفقت الآنسة بوفير على شخصها واعتبرت أنها أخفقت في كل شيء. لم يغمض لها جفن فقط، في تلك الليلة لكنها عاشت كل ثانية وكل دقيقة وكل ساعة شأن قطّارة سموم قد فُرِضت عليها.

على الجدران القذرة والظليلة والمغطاة بدهون قديمة، لمحت مستقبلها: هوة. من الآن فصاعداً، تقيم في زنزانة. زنزانة؟ لو كانت في سجن لأملت مغادرته. أما هنا، فلا مخرج ولا تخفيفاً لعقوبتها. التحمل، هذا ما تبقى لها، التحمل حتى يأتي الموت.

حوالى الساعة الرابعة صباحاً، ثارت على وضعها وحاولت أن تقاوم اليأس الذي أثقل عليها. ما الأمر؟ لأن طائراً لم يعد يشغل قفصاً عند قدم سريرها، سعت إلى أن تنهي حياتها؟ هذا مثير للسخرية! حيوان وحشي اشترته بثمن بخس منذ خمس سنوات لا يمثل خلاصها! «الوداع، أيها الحيوان الغبي! يجب أن تكف عن التفكير بهذا الببغاء! آمر بذلك».

لكن اليأس لا يهتم بالجزئيات حين ينقض على كائن، إنه يخنقه بالكامل. كانت الآنسة بوفير ترتجف متمنية أن تموت في كل تنفس، وهي مقتنعة أن النهار لن يطلع بعد الآن.

صباحاً، انساب نور خجول في الباحة عبر ألواح الزجاج الملون. للحظة، جاء نور خافت وردي اللون يتوج بلطف باقة مضعف كان طفل قد تركها لها. انتصبت الآنسة بوفير وضربت فخذيها وقررت أنها ستجد كوبرنيك.

من الساعة السابعة، راحت تقطع شوارع الحي وهي تنادي الطائر، متفحصة، عشرين مرة، كل شجرة، ضاربة الأدغال الصغيرة والنادرة، مفصلة كل نافذة وكل مزراب وكل واجهة بناء وكل تسقيفة أمامية.

سألها الجيران عن سبب هلعها، حين سمعوها تصرخ هذا الاسم، فشرحت السبب. بعضهم ساعدها ـــ لفترة قصيرة ـــ، وطلب منها آخرون أن تسكت، ثم أمام تكرار هذا الصراخ المتعب، راح الباعة، وقد نفد صبرهم، يشتمونها. ماذا يهمها! استمرت في صراخها. لم يكن الهزء والتهكم ولا الاحتجاجات لتستطيع أن توقفها. أما بالنسبة إلى ما يُثير السخرية، فلم تكن تهتم ذلك.

اضطرت، ظهراً، أن تسلم بالواقع: ليس هناك أي أثر لكوبرنيك.

كانت بمزاج غضوب، منهكة، منهارة، يعصر الجوع بطنها، لكنها لم تستطع أن تبلع شيئاً. إذا تغذت، فستخون كوبرنيك مرة ثانية. ولأنها لم تعد تشك،

كانت مذنبة! فأمس، حين أخذت موقف الصبي، أهانت الطائر. وحين أرادت أن تفصل الببغاء عن عبدول، كانت تلوم كوبرنيك الذي لم يستطع أن يتحمل خيانتها، وبقلب مُحطم هرب بعيداً.

لا يمكن اعتبار هَذا الفصل المشؤوم حادثاً: لقد أساءت التصرف تجاه حيوان وهبها ثقته. فالحزن الذي أحسته، قد استحقته. في المقابل، أما حزنه... فأمر بشع: فرضت هذا الحزن على الطائر! فإذا حرد، وإذا ارتجف من البرد، وإذا غامر بحياته إذ يصبح فريسة القططة أو البشر العدوانيين، فإنها كانت السبب. ماذا يعاني في ذلك الوقت؟ هل يتغذى؟

حوالى الساعة الرابعة عشرة، برقت خاطرة في ذهنها: التحدث مع مختص كي يُحلل سلوك كوبرنيك.

تحققت من مدخر المال المتبقي عندها في محفظة نقودها. خمسة يورو؟ لا تكفي لتدفع ثمن زيارة للبيطري. وإن كانت... إن نجحت في أن يرق قلبه بأن تشرح له أن... ولكن هذا مستحيل! فهي لا تعرف أي بيطري ولا تستطيع أن تجازف بدفع استشارة، لا سيما أنها تشبه سيدة ثرية من الطبقة الرفيعة.

فجأة وقفت وقد صممت على شيء. ستذهب إلى مخزن يبيع الببغاوات وتستخلص معلومات من العاملين. وقد تذكرت أنه، إثر إحدى رحلاتها في الحافلة الكهربائية، لمحت حانوتاً صغيراً مخصصاً للحيوانات الغريبة ــ أفاع، طيور، عناكب، عظايات، عيدشونات ــ، درست المسافة ثم راحت في تنفيذ مشروعها.

على رصيف «ماريمون» على ضفة القنال الهزيل والرمادي، سارت بمحاذاة المستودعات التي تحولت إلى ورشات أو دكاكين. قلقت لعدم عثورها على المخزن، مشت عشرين دقيقة قبل أن تلمح «العالم الضائع» مسجلاً بأحرف غوطية.

في المخزن المظلم، قطعت أقفاصاً زجاجية تجنبت رؤيتها، متوجهة، تقودها رائحة البراز، نحو القسم المخصص للدرّات وللببغاوات.

ما إن دخلت إلى الغرفة حتى بعثت فيها الأصوات شعوراً مألوفاً من صراخ وزعيق وتصادم الأجنحة أعادتها إلى ساحة آريزو بالقرب من كوبرنيك.

لمحت بائعاً بقميص قصير قاتم، يحمل حلقة في لسانه، بمظهر المالك الحزين. أفضت إليه بقصتها: متمنية أن تشتري ببغاءً، لكنها قبل ذلك ترغب في أن تستعلم عن طباعه. أسدى لها الشاب ببعض النصائح السليمة، ثم دعاها لملاحظة الحيوانات في أقفاص الطيور.

منذ القفص الأول، رأت ببغاءً يتجشأ وتذكرت أن لكوبرنيك هذا العيب في تلك الأزمنة الأخيرة.

ـ إن هذا يتقيأ، هل يعاني من سوء صحته؟

ـ كلّا، سيدتي. إنه يسترجع طعامه أمام أنثى القفص المجاور. لكي يغازلها. يعطيها كل ما يملك. ويُظهر لها أنه يحرص عليها.

صرخت الآنسة بوفير بتعجب وارتباك:

ـ آه! أيمكن أن يفعل ذلك لإنسان؟

ـ نادراً. في تلك الحالة هذا يعني أنه يعتبر الإنسان رفيقه، شأن الشخص الذي يحب ويريد أن يتعاطى معه الغرام.

ابتلعت الآنسة بوفير لعابها بصعوبة: لقد أضاء البائع سلوك كوبرنيك بنور غير متوقع.

ـ إلهي... هذا خطر!

قال الشاب، البارد الطبع:

ـ إنه خطر وليس خطراً. فمن جهة، يُحاك رباط قوي جداً بين الببغاء وسيده. ومن جهة أخرى، يستطيع الإنسان بسهولة أن يضع حداً للالتباس برفض بعض التصرفات، خصوصاً بعض الملامسات.

ـ ما هي؟

ـ إشاحة الرأس حين يرقص الطائر. إدارة الظهر له إذا لفظ كلمات.

ـ آه حسناً... وماذا بعد؟

ـ بخاصة، عدم ملامسة مناطق الببغاء الحساسة، وإن طلب ذلك.

ـ المناطق الحساسة؟

ـ البطن والذنب.

أوشكت الآنسة بوفير أن تختنق وهي تفكر بآلاف المرات حيث مررتْ إصبعها على بطن كوبرنيك أو ذنبه.

استفهمت بقلق وهي تعي تماماً أن كوبرنيك يستجيب بشكل خاص لتلك المداعبات:

ـ والمنقار؟

ـ والمنقار أيضاً، طبعاً. إنها منطقة مثيرة جداً.

ارتجفت الآنسة بوفير من رأسها إلى أخمص قدميها. هي التي كانت تظن أنها تعيش الحياة الأكثر عفة ممكنة، اكتشفت أنها لا تشارك ببغاء عاشقاً بشقتها فقط ولكن لمساتها تشجعه، وحتى تشكل بالنسبة إليه نوعاً من حياة جنسية.

ابتلعت ريقها بألم.

ـ قل... لا يتصرف الببغاء دائماً هكذا... أريد أن أقول... من قبل؟

ـ إنه يبدأ في المراهقة.

ـ متى تحدث المراهقة؟

ـ هذا يتوقف على الحجم. عند الأجناس الصغيرة، في الشهر الثامن عشر، عند أجناس الببغاء الكبيرة مثلاً لا تظهر الهرمونات إلّا حوالى الخمسة أعوام.

أغمضت الآنسة بوفير عينيها: خمسة أعوام، إنه عمر كوبرنيك!

ختم الشاب قوله:

ـ هذا طبيعي، فهي تعيش مدة أطول. حتى الخمسين أو الثمانين محبوسة. ماذا قررتِ، سيدتي؟

أجابت بعفوية:

ـ آنستي. سؤال: أثمة فصل للحب؟

ـ إنه الآن، كما رأيتِ مع ذاك الببغاء الذي يتقيأ. فالذكور والإناث يسعون للتناسل. إذاً؟

أجابت ووجهها يحمرّ:

ـ إذاً، هذا يُغريني. سأقوم بجولة وأختار وأناديك.

ـ في خدمتك.

مثَّلت الآنسة بوفير دور المترددة وادعت أنها تهتم بنماذج مختلفة، ثم مستغلة وصول زبونٍ جديد، هربتْ، بتكتم، وهي تسير ملتصقة بالأقفاص.

ما إن وطأت الرصيف، حتى لفحتها شمس محرقة، ففركت جبينها. خطرت لها فكرة: وإذا رجع كوبرنيك إلى ساحة آريزو يقتفي أثر أنثى؟

لم تكن تعرف أن تُقَيِّم فكرتها. فمن جهة، الفرضية تقدمُ حلاً ـ إذاً، أملاً ـ وتزيل كل غموض والتباس بينها وبين كوبرنيك. من جهة أخرى، توحي أن كوبرنيك لم يعد يحبها ويبحث عن أنثى.

حين تبلورت تلك الفكرة بوضوح، وبخت الآنسة بوفير نفسها:

ـ من الطبيعي أن يبحث عن أنثى. لستُ أنثاهُ، إنني سيدته.

فجأة أدركت التباس تعبير «سيدته»:

ـ كلَّا، إنني... مالكته.

بدت لها الكلمة في غير مكانها، مزعجة، هذه المرة لأسباب مختلفة.

« مالكة»! هل يملك المرء كائناً حياً؟ بأي قانون منحط يمكنها أن تعتبر

كوبرنيك طائراً من الغابة، حراً حين ولد، كشيء تمتلكه؟ على كل حال، إذا كان محضرو المحكمة قد تركوه لها، فلأنه رفيق وليس شيئاً يمتلك. وإلّا لما تضايق هؤلاء النسور المحلَّفون من أخذه. ارتعشت حين تصورت كوبرنيك يُباع في المزاد العلني. وبالتالي، رجعت إلى الوراء وتساءلت عن سلوكهم. هل شعروا بالحلم حين تركوه لها؟ إنها شفقة غير منتظرة... شفقة نحو من، على كل حال؟ نحوها أم نحو الحيوان؟

رفعت كتفيها. إن ببغاءً شأن كوبرنيك لا يمكن تقدير ثمنه ولا ثمن له.

إثر عودتها إلى شقتها الصغيرة، لم تتأخر عن إنشاء سيناريو. ما دامت لم تعد تستطيع أن تختبئ في ساحة آريزو، عليها أن تكون أنيقة؛ ليس من أجل كوبرنيك؛ بل من أجل جيرانها القدامى.

في الساعة السادسة عشرة، وصلت بأبهى زينتها، إلى ساحة آريزو، وهي تخفي تقطع أنفاسها الذي أحدثه سيرها من موقف الباص السابق.

برأسها المرفوع، تأملت أولاً نوافذها القديمة ثم السطح، ثم الشرفات المجاورة. لا أثر لكوبرنيك.

بينما كانت تتابع تحقيقها الشامل الرؤية وصلت تلك التي كانت تتمنى تجنبها: مرسيل! مكتلة الظهر أكثر من الماضي، ورأسها غائرٌ بين كتفيها، وذراعاها العريضتان ملتصقتان بجسمها، راحت تفرك جفونها، غير متأكدة.

ـ ولكن... ولكن...

انفجرت الآنسة بوفير بضحكتها المتصنعة.

ـ أجل، مرسيل، إنني عابرة في بروكسل. كان عندي بعض التفاصيل لتسويتها، عند الكاتب بالعدل وفي المصرف، أخيراً أنت تعرفين تلك الأمور.

وافقت مرسيل، بفكها المتشنج: كلّا، إنها لا تعرف هموم الأثرياء؛ لم تصادف في حياتها كاتباً بالعدل مطلقاً.

ـ كيف حالك، مرسيل؟

ـ أجئتِ لرؤيتي؟

ـ طبعاً. يسرني أن أطلع على أخبارك.

ـ آه، أخباري، ليس عندي أخبارٌ. أو أقله ليست جيدة. هل تعلمين أن أفغانيَّ قد رحل؟

ـ أجل، مرسيل، كنتُ في هذه القارة حين حدث ذلك.

هنأت ذاتها في أعماقها لإيجادها هذا التعبير «القارة».

ــ حسناً، هذا كل ما في الأمر. منذ ذاك الوقت، لا شيء.

ــ لا شيء؟

ــ لا شيء!

ــ هذا لا يُشبهك، مرسيل.

ــ يجب عليَّ أن أكف عن أن أشبه نفسي.

ــ أرسلت نظرة قاتمة نحو بتريسيا وهيبوليت اللذين كانا يقطعان الطريق وكل منهما يمسك بيد الآخر، وتمتمت:

ــ يا للبؤس!

التفتت نحو الآنسة بوفير، مفعمة بالمرارة، وسألت بعنجهية، من باب الأدب البحت:

ــ وأنت، في نيويورك؟

ــ بوستن، مرسيل.

ــ أجل، هل تجري الأمور جيداً؟

ــ أنا وجون... سعيدان جداً.

تمالكت مرسيل كي لا تكرر «يا للبؤس» واقتصرت على تنهد.

في تلك اللحظة، انفجرت معركة في مجموعة الأغصان. كانت ثلاث درَّات تطارد ببغاءً رمادي اللون من الغابون.

كانت الآنسة بوفير تتبعها بعينيها، بقلق متزايد.

ــ مرسيل، سأقول لك الحقيقة.

ــ أية حقيقة، آنستي؟

ــ هل رأيتِ كوبرنيك؟

ــ عفواً؟

ــ وأنا ذاهبة إلى بوسطن، حدث... عمل أخرق في المطار. فُتح قفص كوبرنيك على مدرَّج الهبوط. واختفى ببغائي.

ــ إنه لا يعيش في الولايات المتحدة معك؟

ــ كلَّا، على كل حال، هذا أفضل، لأن جون، على عكسي، لا يحب كثيراً الحيوانات. في النهاية، ليس للأمر أهمية.

ــ لاحظي أنني أفهمه. وإن كنت أحتمل الكلاب... أقله، إنها تطيع.

ــ كان عندي شخصياً كلبان اللذان...

ــ أعرف، مرسيل، أعرف. من المحتمل أن كوبرنيك قد أراد العودة حيث كبر وعاش طوال عمره... ساحة آريزو.

ــ أجل، هذا منطقي.

صرخت الآنسة بوفير وقد تملكها أمل قوي:

ــ أليس كذلك؟

ــ بصراحة، لم أره.

ــ آه؟

بما أن الآنسة بوفير، بفضل كذبتها، تستطيع الآن أن تتفحّص الأشجار بلا حرج، دخلت إلى الحديقة الصغيرة وهي تصرخ ملء صوتها:

ــ كوبرنيك؟ كوبرنيك! كوبرنيك، هل أنت هنا؟

تركتها مرسيل تصيح خلال خمس دقائق ثم لحقت بها وهي تأخذ مظهر المواسية.

ــ إنني أتألم من أجلك، آنسة بوفير. ليس كوبرنيك هنا. إذاً لكنتُ رأيته. ثم، كي أكون صادقة معك، لا يمكنه أن يستمر في العيش بعد حادثة المطار! هذا معروف. يبدو أن الطيور تشرقها مفاعلات الطائرات! فلوب! في العنفة!

أرجو معذرتي، مع كل احترامي لك، لا شك أنه انتهى كعصيدة، كوبرنيك.

ــ لم تحبيه مطلقاً!

لم تستطع الآنسة بوفير، في غيظها، أن توقف سيل كلماتها. فاللامبالاة التي روت فيها احتمال موت كوبرنيك قد جرحتها. نظرت بإمعان إلى المرأة القصيرة القامة وهي تهنئ نفسها على تحملها إياها سنين كثيرة: لم تكن فقط مستخدمة تنظيف سيئة لكنها كانت ذات حديث يثير الاكتئاب.

سألتها بنبرة حلوة وهي واثقة أنها تجرح مرسيل لذكره:

ــ وابنك؟

ــ إننا متخاصمان.

ــ لماذا؟

ــ لقد ساءت الأمور كثيراً.

ــ لماذا؟

ــ مع خطيبته. يا لها من إنسانة لا تستحق الاهتمام! امرأة شرسة بحق وحقيق... بدأت الآنسة بوفير تغتبط مما ستسمع.

ـ ماذا حدث، مرسيل المسكينة؟

ـ أراد أن يُقدمها إليَّ في «أرضٍ محايدة» على حد قوله. يا لغرابة هذا التعبير... كأننا كنَّا في حالة حرب! الخلاصة، التقينا في صالون لشرب الشاي في فندق فخم. بمجرد أن لمحتني قطبت، تلك العاهرة، لم يرق لي ذلك، آنستي. ماذا كانت تظن؟ إنني أشبه ابني؟ إنني امرأة، ولا مجال للمقارنة، لا سيما أنني كنتُ في كامل زينتي. لبستُ قبعة.

ـ قبعة؟

ـ أيوه.

ـ أنت، مرسيل؟

ـ لقد فهمتُ جيداً ما قلتِه لي... أي إننا لسنا من المجتمع ذاته، أنا وأسرة بيبرديك. إذاً اشتريت قبعة من مخزن «إينو» الشعبي، بغلالة للوجه.

ـ بغلالة للوجه؟

ـ أجل، هذا أنيق.

ـ بغلالة للوجه سوداء؟

ـ بيضاء، لستُ في حداد.

ـ ماذا حدث؟

ـ بما أنني وجدت الصبية خجولة، جعلتها تشعر بالراحة إذ رحت أتحدث مكانها. هذا طبيعي، ما يمتاز به العمر والخبرة، لدينا مواضيع كثيرة نتحدث فيها. كان الحديث لطيفاً. وكنتُ مسرورة من ذلك. مساءً، اتصل ابني هاتفياً بي وأهانني. قال لي ما كان عليَّ أن أروي ما رويتُ.

ـ ماذا على سبيل المثال؟

ـ كل شيء. قال لي «وضيع ومنَفِّر». حفظت التعبير لأنني لم أكن أعرفه. «وضيع ومنَفِّر».

حينذاك، بحثتُ في القاموس. كانت نبرته، حينذاك، وافية لأفهم.

ـ كوني أكثر دقة، مرسيل، عن أي شيء لامك؟

ـ كانت الصغيرة مصابة بنوع من الربو الفصلي، فدار الحديث عن الصحة. وهناك، لم يتحمل ابني أن أشرح هبوط أعضائي التناسلية. مع ذلك، فهذا الهبوط مؤلم. ثم وصفتُ معالجاتي ضد الإمساك. إنك تعرفين جيداً آنسة بوفير، أنني عانيت كثيراً تلك المشكلات. وهذا يعود إلى أن مصراني الغليظ الأيسر...

ـ مصرانك الغليظ الأيسر؟

ـ أجل، إن مصراني الغليظ الأيسر طويل جداً. هكذا الأمر! طويل جداً. يسد كل شيء.

ـ لحسن الحظ أنه ليس المصران الأيمن!

ـ إذاً، استاء ابني وأبدى استنكاراً عظيماً وهو لا يريد أن يراني بعد اليوم. طيب، سأعاقبه: لن أذهب إلى حفل زواجه!

ـ وماذا حدث بالمئتين والاثنين والأربعين يورو؟

ـ المئتان والاثنان والأربعون يورو؟

ـ من أجل طاولتك الصغيرة قرب السرير؟

انفجرت مرسيل بالبكاء.

ـ لقد أعادها لي.

طوال أكثر من خمس دقائق، بكت مرسيل، وأنفها في منديل ضيق جداً. صحبتها الآنسة بوفير للجلوس على مقعد وطبطبت على كتفها برقة لتواسيها وهي تتفحص الأغصان الملتفة. للأسف، عبثاً بذلت قصارى جهدها وهي تبحث بعينيها، بقي كوبرنيك لا وجود له.

بعد وقت مقبول، قبّلت مرسيل ووعدتها أن تعود قريباً خلال « قفزتها على القارة» ثم اختفت بمشيتها الرشيقة والأنيقة.

بعد مسير كيلومتر واحد، وهي تقطر عرقاً بسبب الحرارة وثورة أعصابها، صعدت إلى الباص لتعود إلى «مادو».

بمجرد وصولها إلى حيِّها لم تعد رشيقة الخطى. وامّحت بهجتها. سرى في جسمها نوع من السائل المُلَيِّن. توقفت مرتين واستندت إلى الجدار تحت مدخل مسقوف، وهي تخشى الوعكة بسبب انهيار قواها.

أثناء توقفها أمام دكان لبيع السندويش، قفز أبوزير، نحوها.

ـ الآنسة بوفير!

حملقت بعينيها أمام الرجل الأسمر الذي كان يبتسم لها ملء شدقيه.

ـ الآنسة بوفير، يسرني أن أراك.

التمست النجدة حولها، فلم تلمح سوى ذكورٍ آخرين مشعرين شأنه وتلعثمت، قلقة:

ـ من أنتَ؟

ـ ألا تتعرفين إليَّ؟ كنتُ أسكن البناية ذاتها التي تسكنينها.

ـ أسكنها أنا؟

ـ ساحة آريزو؟

ـ أنت؟

ـ أجل. كنتُ أقيم عند السيدة مرسيل.

ـ آه أجل!

ـ طابقت فجأة ذاك الذي كانت تسميه البوابة دائماً « أفغانيّ ».

راح يتحدث بسرعة وباضطراب، بلغة مجهولة، إلى امرأة وثلاثة أولاد صغار واقفين في الطرف الثاني من الطريق.

ـ أقدم لك زوجتي وأبنائي. التحقوا بي أخيراً هنا.

أضاف بابتسامة متواطئة ومشرقة:

ـ جمع الشمل!

صافحت الآنسة بوفير يد كل واحد بلطف مُتَصنَّع. وقد خجلت زوجة الأفغاني وأبناؤه فحيّوها بمجاملة مفرطة كأنهم التقوا بملكة انكلترا. وبالتالي دخلت في حديث معه:

ـ كيف حالك، عزيزي... لم تعد تتذكر اسمه... هل وجدتَ عملاً؟

ـ أجل، حصلت على وظيفة مترجم فوري.

ـ أوه، رائع. لم أكن أعرف أنك تتحدث الفرنسية.

ـ الفرنسية والإنكليزية والعربية والباشتو.

وافقت الآنسة بوفير وهي تتساءل لماذا كانت مرسيل تدعي عكس ذلك:

ـ أجل، أجل، طبعاً.

بما أن أسرته لم تكن تفهم الفرنسية، استطاع الرجل أن يطرح السؤال الذي دفعه للاقتراب من الآنسة بوفير:

ـ وكيف حال مرسيل؟

ـ مرسيل؟ حسناً ـ أقول لك... إنها تعد زواج ابنها. وكما تعرف، سيتزوج واحدة من أكبر وريثات المملكة.

ـ إنني سعيد جداً. فهي امرأة كريمة، قدمت لي مرسيل الضيافة. أوه، بالطبع، لها عيوب، لم تر الوقت يمر، فترفض أن تفكر في أن امرأة في مثل سنها يجب أن تمتنع عن بعض الأشياء. ما عدا ذلك، فهي لطيفة جداً. بفضلها، كان لي سقف ومأكل ووقت لأبحث عن عمل. إنها ملاك، مرسيل، ملاك.

ــ ألم ترها ثانية؟

احمرّ وجهه وارتبك.

ــ كلّا، سيدتي. لا أستطيع. بسبب ما قلته لك، بسبب الأشياء التي تتخيلها... لم تقبل في أية لحظة أن أكون متزوجاً وأن أحب زوجتي وأن أكون مخلصاً لها وأنني أنتظر أن آتي بها إلى هنا.

اصطبغ وجهه بالاحمرار وبدا محرجاً لذكر تلك الأمور.

ــ لكنها امرأة طيبة، بالغة الطيبة. إنني مدين لها بحياتي وبحياة أسرتي.

بما ان وجهه قد كشف انفعاله، حاول أن يفلت من النظرة الفاحصة لأهله وارتجل وداعاً وانطلق في الشارع مع تحيات قوية.

فكرت الآنسة بوفير بمرسيل وبه خلال عدة لحظات. من كان يرتب الحقيقة؟ مرسيل؟ الأفغاني؟ كلاهما؟ لا أحد يستطيع أن يعرف الحقيقة مطلقاً. ربما يجهلانها، هما ذاتهما ما دام البشر يروون الواقع كما يتمنونه لا كما هو في الحقيقة.

أبعدت تلك الاهتمامات وتابعت طريقها. كل ذلك لن يعيد لها ببغاءها. حطَّمت قصة حبها الوحيدة بغبائها. الكائن الوحيد الحي الذي أحبها، بطريقة نقية، مباغتة ومتجردة، أتى على الهرب إلى العالم العدائي. بسببها! تنهدت وتوقفت ثانية كي تسترد أنفاسها ثم جرَّت قدميها وهي تستند إلى الجدران.

دخلت إلى البناء ذي الرقم ٥ من شارع «بكمير». كانت فكرة حبسها في غرفة وحيدة، معتمة ولزجة تبعث القشعريرة في جسمها. حين لمست العلب البريدية، لاحظت كومة من الرسائل: أهملتها لعلمها أنها تحوي أنباء سيئة.

دخلت الباحة الصغيرة، أمسكت مفتاحها، بكتفيها المنخفضتين، ورقبتها المنحنية وأدخلته في القفل العتيق الذي اقتُحِم مرات كثيرة.

ــ سيرجيو!

ارتجفت.

وقد سقط من السماء، بالضبط خلفها، كان صوت حاد يردد بحماسة:

ــ سيرجيو! سيرجيو! سيرجيو!

ــ كوبرنيك!

قبل أن تستطيع الالتفات، حط الببغاء على كتفها:

ــ طاب يومك سيدتي.

فرك خدها؛ اغرورقت عيناها بالدموع فاستسلمت لمداعباته. ثم طلبت منه

أن يحط على أصابعها ــ هذا ما فعله وهو يترجّح، أكثر زلاقة من عازف الجاز ــ ودفع باب الشقة الصغيرة.

ــ تعالَ عزيزي. سنكون هذا المساء في أحسن حال.

نظرا بشغف بعضهما إلى في عينيهما. بدا لها أن ناراً تخرج من حدقتي الحيوان السوداوين، ناراً تُحَمّرُهما لكنها تدفئها وتكدرها. ابتسمتْ. أحنى رأسه على طرف.

في المقابل، أعطته قبلة. حين لامست شفتاها المنقارٍ، ارتعش، وهي ارتعشت أيضاً. حينئذٍ، ضمته برقة على صدرها وهي تفكر بما علّمها بائع الطيور: إن ببغاءً من نوع (ara) الصلب شأن كوبرنيك يمكنه أن يعيش حتى الخمسين عاماً.

أغلقت الباب عليهما. سيهرمان معاً. وحتى، بشيء من الحظ، ترحل قبله...

٢

ـــ المرأة والببغاء؟ إنه موضوع مألوف في الرسم.

أمام عدد كبير من المشترين المتوقعين الذين وفدوا إلى صالته، كان ويم يُعلق على لوحة كبيرة رُسمت بالإكليريك وعليها عرض رسام من نيويورك فاتنة عارية يحيط بها سرب من الببغاوات؛ تُظهر اللوحة بتكلف بالرغم من ثلاثة أمتار طولاً واثنين عرضاً شكلاً بنُي بفظاظة، رسماً بخطوط عريضة، لونَتْ بعد ذلك بأصباغ بدائية.

ـــ المرأة العارية، الشبقة، التي تمسك الببغاء، ألا تتذكرونها؟ ينظر الحيوان المتعدد الألوان بشهوة دائماً إلى اللحم الأبيض.

تعجب الزائرون. فألح قائلاً:

ـــ تذكروا الرسام «تييبولو» حيث تضع شابة رائعة الجمال الطائر على صدرها المكشوف. الرسام «دولاكروا» بلوحته عن المحظية تداعب طائراً أخضر اللون وأحمر. الرسام «كوربيه» طبعاً، الذي رسم (أصل العالم) ولوحته (المرأة والببغاء) في عام ١٨٦٦ . «مانيه»، في العام نفسه، وهو يغمز إلى «كوربيه» رسم خليلته مع ببغاء، لكن العاشقة تلك المرة تبقى عفيفة، وهي لابسة ثوباً منزلياً. يا للروح الساخرة! لأن الببغاء يرمز إلى الشهوانية وإلى الغرائبية. منذ ذاك الحين، لم يتوقف الرسامون عن رسم هذا الموضوع: «رونوار»، «فالّوتون»، «فريدا كاهلو». هنا نجد «بوب جون» وهو شاب مبدع من (منهاتان في نيويورك)، ذو قيمة تتصاعد، يُجري بعض التعديل على ذلك المشهد الموحي.

اعترضت زبونة، بطقم من الحرير قائلة:

ـــ « غرائبي»، أفهم ذلك جيداً. أما «شهواني»، فلماذا؟

ـــ يتظاهر الببغاء بالتحدث، شأن العاشق. فهو يهدل بكلمات معروفة، محسوس بها، ولكن ماذا يريد إظهاره؟ حين يستعمل كلمات، فإن النبرة تُعتبر أهم من المعنى. أية لغة يتحدث إذاً الببغاوات بتعابير فرنسية وإنكليزية أو إسبانية يستعملونها؟ ما هو قصدهم؟ وإلى أي شيء يُلَمِّحون؟ يجيب الرسامون: الرغبة.

ـ لم أفكر بذلك على الإطلاق.

ـ إن الببغاء، شأن الرجل المشبوب، يُقدم حضارة ظاهرية. على السطح، يؤلف الحيوان جملاً؛ في الواقع، يريد أن يصل إلى مبتغاه. وراء اللغو، تُعبر الوحشية الطبيعية عن ذاتها وتفرض نفسها وتهدد، مهما تنوعت، صيغها المتحذلقة

ـ طبعاً.

ـ ثم لا تنسوا ـ أرجو عذري سيداتي ـ أن هذه الطيور تدعى «بالمعكوفة». معكوفة كالإصبع. معكوفة أحياناً شأن... تفهمون ما أريد قوله.

ضحكوا بصوت منخفض حول ويم.

صرخت المرأة ذات الطقم:

ـ إن ما ترويه هنا مسلٍ على بعد خطوتين من ساحة الببغاوات، لأن الأحداث الأخيرة تؤكد أنك على صواب بخصوص مغنطيسية الببغاوات الشهوانية.

سأل ويم:

ـ عفوا؟

زلقت بخبث قائلة:

ـ زكاري بيدرمان. إنه يسكن هنا. أليس كذلك؟ إذاً قد وقع تحت جاذبية الببغاوات.

صرخ زوجها:

ـ الجاذبية أو اللعنة؟

ـ هذا وذاك. فالحياة الجنسية موسى ذو حدين.

ـ مادامت ليست مملة[1]!

ضحكوا من اللعب بالكلمة الذي قالها الزوج، المتورد الوجه واليدين والمغتبط من ذاته والذي كان يظن نفسه مختصاً بالمزاح. ويم، الذي كان يكره الفكهين، هؤلاء الناس الذين لا يصغون إلى ما يُقال إلّا لأخذ كلمة أو تحويل تعبير، دار على نفسه وألقى نظرة استغاثة نحو ميغ. فهمت قصده.

نادته قائلة:

ـ ويم، مكالمة هاتفية لك! من دبي!

ـ ها أنا آت.

أحدث تعبير «دبي» أثره الطيب لدى الزبائن موحياً بثروات بالدولارات من

---

(١) Rasoir تعني بالفرنسية موسى للحلاقة كما تعني الممل والمضجر - (المترجمة).

النفط؛ لم يكن على ويم إلّا أن يُضيف «أرجو معذرتي» بأناقة وتركوه يرحل بأنظار معجبة.

وصل إلى مكتبه وأغلق بابه، في غاية الإعياء.

ــ شكراً، ميغ. ثمة أيام لم أعد أتحمل فيها مهنتي.

ــ لماذا؟

ــ لم يأتوا إلى هنا إلَّا إثر فضيحة بيدرمان، متخذين ذريعة ليروا ساحة آريزو من نوافذي. لن يشتروا شيئاً! لا جدوى من إرهاق نفسي.

ــ أتريد أن أتابع الجولة مكانك؟

ــ هذا لطف منك، شكراً. وفري جهودك، ميغ: لن يفتحوا كيس نقودهم.

بخطوة ثابتة، لحقت ميغ بالمجموعة. لم تكن لها بلاغة ويم، لكنها كانت دقيقة، واسعة الاطلاع، قادرة على أن تتحدث بذكاء عن الأعمال الفنية.

وقد بقي ويم في مكتبه، ارتاحت أعصابه، فتصفح جدول المبيعات بالمزاد ليتسلى. فمنذ ليلة حفلة بيدرمان الراقصة، لم يعد يعرف جيداً أية حياة يعيش.

هو وميغ، بعد ليلتهما الرائعة، تلقيا النهار متفاجئين. لنقل بالأحرى إن ويم قد تعجب حين استيقظ بالقرب من مساعدته عارية، ملتفة بالشراشف، ورأسها غائص في قعر الوسادة، نائمة نوماً عميقاً. بسبب جفاف فمه من السكر، أخذ بعض الوقت ليتذكر السهرة. حين وضع أخيراً كلمات محددة على الوضع ــ «ضاجعتُ مساعدتي»ــ هاله الأمر. « ماذا أصابني؟ ليست من نوع المرأة التي أحبها مطلقاً، لكنني لن أجد مساعدة أفضل».

إذا كانت الكحول أثناء الليل قد نفَّذت كل شيء، فكيف سنعاود التفكير بالأحداث حين يتبخر السكر؟ بينما كان السكر يرفع المحظورات، فقد حمل الأسباب الجيدة لتعاطي الغرام، أما التقشف فقد ذكره بالأسباب التي عليه بموجبها أن يتجنب المضاجعة: «أنا أنكح هذه البقرة الفلمنكية؟ إنها لا تروقني. والأسوأ: أنني لا أنظر إليها كامرأة. إذا ضاجعتها، ساء أمري. هناك حدود. فإذا تجاوزتُ حداً من الابتذال، فلن أعود الشخص الذي أعرفه».

نهض ويم وأخذ حماماً رشاشاً وحلق ذقنه بدقة وسرَّح شعره، ثم خلُص، وقد استعاد صورته، إلى أنه لن يُلَمِّح مطلقاً إلى تلك الحادثة، سيتحدث ويتصرف كأن شيئاً لم يحدث. كان لا يزال يجهل إلى أية درجة ستساعده ميغ في هذا الإنكار...

لم تفتح تلك عينيها إلَّا بعد فترة طويلة، فقد كان نومها ثقيلاً جداً. حين انتصبت جالسة في غرفة نوم مقفرة لم تتعرف إليها، انتابها الخوف. من الخارج، وصلتها صيحات من ساحة آريزو. اقتربت من النافذة ولمحت المتسكعين ورجال

الشرطة والمصورين والصحفيين. كان رد فعلها الالتصاق بالجدار كي لا يراها أحد. حين أدركت أنهم لم يأتوا على ما يبدو من أجلها، قرّبتْ عينها من زجاج النافذة.

كانت حركات المجموعات المختلفة تتجه نحو قصر أسرة بيدرمان. حيث كانت زمرة من النساء يصرخن:

ــ نذل! نذل! نذل!

على اليمين، رفع عمال لافتة كتبت عليها رسالة غريبة: «لن تنكح بلجيكا».

تاهتْ عدة لحظات، وهي تحك رأسها، واسترجعت وعيها، فبحثت عن التلفاز وجلست أمامه.

عرفت، بعدة ثوانٍ، أية فضيحة أحدثت تلك التجمعات. تأملت ذلك النبأ الأول من النهار، وهي مرتبكة ومصدومة، كأن رأسها مشدود في مِلزَم؛ وقد اعتادت ألّا تعيش شيئاً فريداً، لم تتساءل عن ليلتها، متذكرة أنها كانت محبوسة هنا البارحة مساءً، وأنها أفرطت في الشرب كي تتحمل الانتظار.

جمعت ملابسها وذهبت إلى غرفة الحمام، ففرشت أسنانها بنشاط وحاولت إبعاد روائح الكحول التي تركت فمها يابساً كالكرتون. لم تظهر لها ثانية الأحاسيس المتعلقة بويم إلّا تحت الحمّام الرشّاش! ويم يقبلها. ويم يندس فيها. ويم يعجن ردفيها. ويم يصحبها إلى النشوة، بحيوية وابتسامة وقد انحنى باهتمام على وجهها. بقيتْ جامدة. هل كانت تحلم؟ أتأخذ رغباتها على أنها الواقع؟ كان من المستبعد أن...

عادت الصور إلى دماغها، بالغة القوة، مستحيلة التصديق. ماذا حدث؟

على كل حال، أين كان ويم؟ إن لم يكن نائماً بالقرب منها، فهذا يعني أنه لم يوجد في الغرفة مطلقاً. إذا نهضت وحيدة، فلأنها نامت وحيدة. وما تفسره كذكريات ألم يكن إلّا هلوسات؟

كانت مذهولة ومتضايقة ومشوشة الحركات شأنها في أفكارها، وجدت صعوبة في أن تلبس ثيابها وأن تعطي ثانية لذاتها مظهراً أقرب إلى العادي.

حين توصلت إلى ذلك، ارتجفت لفكرة تركها الغرفة. حين ستلتقي ويم في الأسفل، ستعرف الحقيقة. فإما أن يرتمي بشغف عليها وهكذا هما عاشقان، كما أوحى إليها دماغها المُعَذب. وإما أن يعاملها كالمألوف، فتكون قد تخيلت كل ذلك. ما هو الخبر الأفضل؟ كانت تخشى كليهما.

نزلت السلم وأدركت على الفور صيحات. كان ويم وبيترا فون تنانبوم يتناقشان بحماسة:

ضحك ويم ساخراً وهو يقول:

ــ كلَّا، أعرفك بالغ المعرفة.

ــ كيف تجرؤ على قول ذلك؟

ــ لقد اختلقتِ تلك القصة، بيترا، لمجرد أن يتحدث الناس عنك.

ــ ليتحدثوا عني؟ هل أنا بحاجة إلى اغتصاب دنيء ليتحدث الناس عني؟ على علمي، يتحدثون عني من قبل.

ــ بالطبع، كانوا يتحدثون عنك، ولكن ليس بالقدر الكافي... لا شيء يُرضي نرجسيتك، ليس من مجد يستطيع أن يغمرك، بيترا، لقد فهمتُ ذلك. هذا لا يُضايقني. مع ذلك، هناك، أسأتِ التصرف. لقد هاجمتِ رجلاً مشهوراً عالمياً ومحترماً، كان سيصبح رئيساً للوزراء في تلك المرحلة المتأزمة! إنك على وشك أن تسببي أضراراً لا يمكن إصلاحها. هذا يثير اشمئزازي.

ــ لقد أرغمني!

ــ لا أصدق لثانية واحدة ذلك.

ــ ماذا يلزمك كدليل؟

ــ دليل حقيقي.

ــ حسناً، كن مطمئناً، سيكون هناك دليل. ألا وهو تحليل المنديل...

ــ هذا هراء!

ــ ألا يخطر ببالك أن أكون ضحية؟

ــ أنت، ضحية؟ إنك المُقتَنِصة العالمية.

ــ لا أهمية لما تفكر به، إنني غير مبالية مطلقاً. على كل حال، لا أطلب منك أن تواسيني. أطلب فقط البقاء هنا في هذه الشقة.

ــ ليس الموضوع وارداً...

ارتجفت ميغ وهي تسمع تلك الكلمات. أيفعل ذلك كي تأخذ ميغ مكان بيترا؟ إذاً، هذا يعني أنهما فعلاً، في تلك الليلة...

وقفت بيترا وصوبت سبابتها الحانقة إلى ويم.

ــ حسناً جداً، سيدي بائع اللوحات الرديئة، لا تريدُ أن أبقى؟ حسناً، إذا كنتَ تُلح، فسأرحل، سأهرع أمام الصحفيين والمصورين الذين يعجون في هذه الساحة، فأبكي قائلة إن خطيبي، صاحب الصالة الشهير، يرميني خارجاً، شأن أسوأ الذكوريين.

تراجع ويم كأنها قد ضربته.

ــ إنك وقحة! لن تفعلي هذا؟

ــ ولا أنت، عزيزي، لن تفعل ذلك: أن تطردني من بيتك الآن.

حلَّ سكون. جلس ويم وبالرغم من أنه كان قد توقف عن التدخين منذ سنين، أشعل سيجارة.

ــ موافق، أبقِي .

من دون أن تشكره، جلست بيترا، راضية. تركت دقيقة تمر ثم حددت قولها:

ــ بالطبع، لم أعد أرغب في مشاركتك غرفتك. بعد ما عشته من الأحداث...

ــ عن أي شيء تتحدثين؟

ــ عن اغتصابي، أيها الغبي. أسكنِّي وحدي في القسم الآخر من الشقة. أحرص على أن أراك أقل ما يمكن.

ختم ويم حديثه وهو يقف:

ــ في هذا النقطة، نحن متفقان. حينذاك لمح ميغ بذراعيها المترجّحتين، في الممر.

ــ ميغ، جئتِ في الوقت المناسب. ستطلبين من الخدم إعداد إقامة السيدة فون تنانبوم في الطابق الأسفل؛ اشرحي لهم كيف يرتبون الأشياء. كي ترتاح هناك ولا تحتاج إلى أن تصعد إلى فوق.

ــ طيب.

ــ وإذا قمتِ بجولة في المطبخ، فإن قهوة قوية تنشطني. بعد الليلة التي أمضيتُها... أو بالأحرى التي جعلتنا السيدة فون تنانبوم نمضيها.

هزت بيترا كتفيها، باحتقار.

أزالت تلك الجملة الشكوك الأخيرة المتبقية لميغ: لقد حلمتْ بكل ذلك.

تابعت الحياة منوالها، ظاهرياً شأن ما كان سابقاً. بقيت ميغ تساعد ويم، وهي مساعِدة مخلصة لعملها، ودودة، استثنائية؛ لم تجازف، في أية لحظة بحركة مُقَرَّبة، أو بابتسامة متواطئة أو بذبول النظرة التي قد توحي بأنها كانت قريبة من معلمها. والسبب، أن ما تعتبره ذكريات لم يكن سوى هلوسات.

أما بالنسبة إلى ويم، فكان مستعداً لأن يموت تحت التعذيب من أن يعترف بما جرى. فعلاقة مع ميغ لا تتفق مع شخصيته. تاجر لوحات، لا يبيع الجمال وحده، بل ينميه ويحيط ذاته به، يلاحق خطيئة في الذوق. فظهوره مع امرأة قبيحة، لا يعتبر

فقط خطأ مهنياً ــ كيف يختار لوحات إذا كان لا يعرف أن يختار امرأة؟ ــ، بل يُعتبر تنكراً لجهوده. فشقة جميلة وسيارة جميلة وامرأة جميلة وصالة جميلة، كل ذلك يتجاوب ويتناغم. تكفي خطيئة واحدة وينهار القصر. فخلف سلوكه كمختص مرهف بالجمال، وتحت ثقافته المتحذلقة، يرقد إيمان ساذج، إيمان طفلٍ جاحدٍ أراد أن يحذف قبحه محيطاً ذاته بالروعة والجمال، كأنه عن طريق العدوى والجاذبية الشعرية والمحاكاة، سيكتسب ذلك الجمال. حين كان فتياً، ثمة رد فعل من الأزمنة الغابرة، أقرب إلى الطقس الديني لأكلة لحوم البشر قد دفعه إلى أن يأكل الوجبات ذاتها التي يأكلها الأشخاص الرفيعون الذين يصادفهم؛ أما اليوم، فلم يبق من تلك الممارسة السحرية سوى صيغة سلبية وهي رفضه أن يختار صحناً في مطعم طلبه جار بدين جداً. بطريقة مماثلة، كي ينسى شكله الجسدي الوضيع، وكذلك كي يعتقد أن ما طلبه هو الأفضل، كان يُجبر نفسه على مغازلة النساء الفائقات الجمال، وإن كنَّ تافهات وإن كنَّ بلهاوات وإن كنَّ وقحات شأن بيترا فون تنانبوم.

لو استطاع أن يشطب من ذاكرته ليلته مع ميغ... لو لم يعد يفكر بذلك مطلقاً! للأسف، ثمة تفصيل، تفصيل ثابت يمنعه من الوصول إلى اللامبالاة: لقد عشق مضاجعتها، فكان عاشقاً جلوداً مغتبطاً بإيصالها إلى النشوة. حين كان يفكر بذلك، يشرع في البحث عن تفسيرات تبعد شريكته: الكحول، المفاجأة الكاملة... وجد تفسيراً واحداً، بسيطاً، نهائياً قد أقنعه: لم تكن ميغ تغريه. لهذا السبب استغرق وقتاً طويلاً ليصل إلى النشوة، هذا هو سبب تسليته، وهو يمرح في دروب ملتوية... إنه الحل كي لا يصل إلى النشوة بسرعة كبيرة هو أن يضاجع امرأة لا تروقه!

فكر بتلك النظرية، لا سيما أن قصة مدرسية أعطته مصداقية إضافية: حين كان يترجم من اللاتينية في الثانوية، لم يكن يلمع إلَّا إذا حوى النص صعوبات كبيرة. فإن أعطى الأستاذ نصاً سهلاً لشيشرون، كان يركد في الوسط؛ أما إن اقترح نصاً لتيطُس ليفيوس بالغ الصعوبة أو قصيدة شائكة، للوكريتيوس كان ويم ينتصر على كل الفخاخ ويظهر الأفضل في ترجمته. لماذا لا يكون هكذا شأنه في الحب؟ أيكون حالة فريدة من التناقض بين الرغبة والمتعة؟ ذات يوم، بعد الظهر، في صالة العرض، وقد رأى امرأة أميركية تدخل لابسة بنطالاً قصيراً، وبمظهر بشع، وبشعر واقف وبشرة ضاربة إلى البياض، أراد أن يختبر صحة نظريته. وقد رافقها من لوحة إلى لوحة، محيطاً بها، دبقاً وشرع في مغازلتها من دون حياء. في البدء، لم تفهم مناورته، ثم حين أدركتها، بعد أن تحققت من ذلك، احمرّ وجهها وارتبكت بين الانزعاج والمتعة. على حافة الباب، ألح وهو يقدم لها بطاقته أن يهمس لها بأن لا شيء يطيب له أكثر من سهرة معها. كانت حذرة وإن أغراها ذلك، فتركته يقترب منها كثيراً كي تمسك بلطف بطاقته بلطف. في تلك اللحظة الدقيقة، صادفتهما ميغ

وحدجتهما بنظرة مندهشة. تشنج ويم. إثر رد فعله، تصورت الأميركية في الحال أن ميغ زوجته.

صرخت:

ــ ابن الزنى!

دفعت بغضب ويم بغضب وألقت بالبطاقة على الأرض بعنف كبير كما لو كانت تبصق عليه.

نظر ويم إليها تبتعد من دون أن يُحَرِّك ساكناً... من الأفضل أن انتهي المشهد هكذا. بسرعة. لم يستطع أن يتابع نظريته أبعد من ذلك ــ «لن أصير عاشقاً مشبوباً إلّا مع امرأة لا تروقني».

لقد أربكته نظرة ميغ المتفحصة. في اللحظة التي تلقى تلك النظرة، تسلم كذلك سهماً: شعر بذاته وضيعاً. وبخاصة مذنباً. ماذا جرى إذاً؟

بعد ثلاثة أيام من التحقيق، جاء الإثبات أن فحص (ADN) لزكاري بيدرمان لطَّخ منديل بيترا فون تنانبوم.

حين علم ويم وميغ ذلك من المذياع، كانا معاً. بقيا أبكمين زمناً طويلاً. أن تكون بيترا ضحية مقتنص جنسي قد صعقهما دائماً. عبثاً أتهما نفسيهما بالشك ليرغما ذاتيهما على اعتبارها امرأة عانت العنف، إلّا أنهما لم يستطيعا أن يشعرا بأدنى تعاطفٍ.

حين ظهرت بيترا منتصرة، أمامهما، قدم لها ويم اعتذاراته:

ــ إنني آسف، بيترا، لعدم الاصغاء إليك. كنتُ وقحاً. تصرفتُ بطريقة أستهجنها عند الرجال الآخرين: نكرتُ الاغتصاب. أطلب منك أن تسامحيني.

ــ حسناً، حسناً.

تعجب ويم من كل تلك الشهامة. فلكي يفهم الأسباب، قالت ميغ بصوتٍ عالٍ، ورأسها في حاسوبها:

ــ لا يتحدثون عن ذلك إلّا في الإنترنيت.

أجابت بيترا مزهوة:

ــ أليس كذلك؟ وفي صحيفة (Le Matin)، عندي مقابلة بصفحتين.

ــ صفحتين؟ هذا هائل!

واستعدت بيترا لتنزل ثانية إلى شقتها، تكاد تكون فرحة.

ــ بيترا، هل أنت مرتاحة في الشقة التي رتبوها في الأسفل؟

ـ مرتاحة جداً، عزيزي، مرتاحة جداً.

وبالطبع بقريحة من اللطف، أضافت:

ـ وكما تعلم، عزيزي، يمكنك أن تستمر في مضاجعة الخادمة، هذا لا يزعجني.

بحركة، أشارت إلى ميغ وراء ظهر ويم، وارتأت أن مظهرها المرتاع مثير للسخرية، فانفجرت بالضحك واختفت.

ابتلع ويم لعابه، برقبته النارية، ولم يعد يجرؤ على الاستدارة.

أما بالنسبة إلى ميغ، فبدا لها أنها تزن فجأة ألف كيلو. إذاً فأحلامها الجنسية مع ويم كانت ذكريات، ذكريات كحولية، طبعاً، لكنها بقايا واقع. وهي ترتجف، لم تجد مع ذلك شيئاً آخر تقوله سوى:

ـ لست الخادمة!

في ذاك اليوم، أرادت ميغ وويم أن يتجنبا بعضهما بعضاً، ويعني ذلك مهمة مستحيلة ما دامت حياتهما اليومية تؤدي بهما إلى المشاركة في كل شيء. سعيا إذاً ألّا يتحادثا، وألّا ينظر كل منهما إلى الآخر.

في نهاية اليوم، ولّد كل ذاك التجنب أثراً مضاداً لما كانا يتمنيان: فالكف عن توجيه الكلام والنظر استأثرا بطاقة كبرى حتى أن كل واحد لم يعد يفكر إلّا بالآخر، فيشعر به ككتلة مشعة ومعيقة ومضيئة يشغل حضورها الحيز.

في الساعة التاسعة عشرة، قدّرت ميغ أن خلاصها قد اقترب لأنها سترحل. بما أن ويم قد التجأ في المطبخ، جرّت قدميها إلى هناك لتحييه.

كان على الطاولة زجاجة ويسكي مع كأسين. أمامها، كان ويم ينتظر، ورأسه مستند إلى يده اليسرى.

فهمت، وبصوت أضعفه الانفعال، اقترحت عليه:

ـ كأساً؟

أجاب ويم بصوت واهن، خالٍ من النبرة:

ـ بكل سرور.

من الآن فصاعداً، كانت الليالي والأيام تتوالى من دون أن يفترقا. في الليل كانت ميغ وويم عاشقين وفي النهار مجرد متعاونين. كانت حدود كتيمة تفصل الوجود الليلي عن الوجود النهاري. ولكي يقطعا تلك الحدود، كانا يلجآن إلى

وسيلتين: الويسكي عند الغروب، والنوم في الصباح. فبفضل هذين المرين، كانت ميغ، نبع الشهوة، تعود لتصبح المساعدة المتحمسة وويم، الخبير بالمتع، يصبح السيد مدير صالة العرض.

ذات يوم، وقد اقتربت الساعة من التاسعة عشرة، وويم يبحث عن زجاجة خمر، كاد يكسر القاعدة بقوله: « أيجب أن نصبح مدمنين إلى المشروب لنعيش علاقتنا، ميغ؟» لكنه استدرك فوراً وأظهر لميغ أنه يأسف على جملته، ودخل في الدور الذي تعطيه إياه تلك الساعة.

كانت بيترا فون تنانبوم تتابع مقابلاتها الصحفية، وقد انهمكت بهذا المجد الإضافي، أظهرت لها لا مبالاة تامة. كان طلبها الوحيد يقتصر من وقت إلى آخر، على أن تذهب إلى الحفلات الأولى وافتتاح المعارض برفقة ويم، وهي تحرص على أن تستمر فكرة عيشهما كخطيبين.

لم تكن ميغ تستاء من ذلك، وهي تعامل بيترا بمهنية، من دون أن تُظهر أدنى غيرة، ولا تحتج حين تستحوذ منافستها على ويم، ولا تطلب مكانها وهي ممسكة بذراعه.

كان ويم يتعجب من كل هذا التفهم، وهو يمدح ميغ في قرارة نفسه. ذات مساء من قدح الويسكي الثاني، ومن دون أن ينتظر حالة السكر التي تسمح لهما أن يتصرفا كعاشقين، التفت نحوها، والهموم تقطع جبينه.

ــ هل يُضايقك، ميغ، وجود بيترا فون تنانبوم؟

ــ على الإطلاق.

ــ حقاً؟

ــ حقاً. ما دمتَ تتحملها فأنا أتحملها. لا أحتاج، بالقرب منك، إلى حياة تقليدية.

أعجب بتلك المرأة الاستثنائية. للأسف لا يستطيع أن يُظهرها في المجتمع.

أضافت ميغ وهي تملأ كأساً ثانية من الويسكي:

ــ بيترا المسكينة، في الواقع، أرثي لحالها.

ــ أنت تهذين، ميغ! لا يوجد أي سبب لتشفقي على بيترا.

قدّر ويم هنا، أن النزعة الإنسانية تميل إلى الغباء. يمكن للمرء أن يختلق أفكاراً عن بيترا، فقد يجدها رائعة، مثيرة جنسياً، فريدة، سامة، مغيظة، وقحة، مزعجة، أما أن يُرثى لحالها، فكلّا.

هزَّ رأسه بحركة رافضة. ألحت قائلة:

ـ أوه بلى! رأيت الأدوية التي عليها أن تبتلعها.

ـ بيترا؟

ـ لم تنتبه إلى مجموعة الأشياء التي تُخبئها في حقائب زينتها؟ لا يوجد فقط في داخلها مرهم للون الوجه.

ـ ميغ، هل فتشتِ في أشيائها؟

ـ أجل. هل تلومني على ذلك؟

ـ على الإطلاق.

غداة ليلتنا الثانية، لم أستطع الامتناع، وإنني أعترف بذلك، عن التقاط قارورة السائل الذي حقنت به جسمها. كانت فكرة حسنة، لأنه منذ ذاك الحين أفهمها بطريقة أفضل. شرح لي أخي، الطبيب الذي استشرته ما كان ذلك. يا لها من مأساة...

ـ عفوا؟

ـ أجريت لها عملية جراحية، فهي مضطرة إلى أخذ هرمونات. طوال حياتها، بلا شك. حين نعرف ذلك، نتحمل بشكل أفضل موقفها، رغبتها في أن تكون الأجمل وأن تتألق في عيون الناس، لا سيما رفضها للعلاقات الحميمية.

ـ عن أي شيء تتحدثين؟

ـ ألم تكن تعرف ذلك؟ حين ولدت بيترا فون تنانبوم كانت رجلاً.

١٠

كانت قد وجدت زوجاً لكنه لم يكن زوجها. مع ذلك كانت تحرص عليه وتتمسك به شأن ملكية لها. لن تسرقه منها أية خليلة.

إثر عودتها من «كنوك ـ لوـ زوت» قدرت أيف أن عليها أن تدخل حرباً وتحطم منافستها ثم تسترجع فيليب.

في ذاك الصباح، ستجري معركة مصيرية. نهضت إذاً بمزاج بهيج.

ــ بربوي! بربوي، أين أنتِ؟

كانت القطة قد تركت اللحاف وتكورت على حافة النافذة المفتوحة. حين لاقتها، أدركت أيف دافعها. بسبب كثير من سكان بروكسل ومن السياح الذين يزورون الآن ساحة آريزو، قدَّرت الببغاوات والدرَّات أنها قد اجتيحت، فأنفت أن تنزل إلى الأراضي المعشوشبة والمزدحمة والتحقت بالأماكن العليا من مزاريب الأبنية أو الشرفات. وباعتبارها صيادة يقظة، لاحظت بربوي ذلك وسعت تجرب حظها للإمساك بأحد تلك الطيور الممقوتة. منذ استيقاظها، استقرت على النافذة في مطاردتها للمعقوفين.

انحنت أيف وتفحصت درج المدخل حيث كان زكاري وروز يتناقشان مع صحفيين.

ــ يا له من سافل، زكاري بيدرمان! أليس كذلك، بربوي؟

كانت أيف صادقة. بينما لم يكن أحد من عشاقها المسنين يُظهر جاذبية فائقة كانت تُقدر أنه لا يمكنها أن تقع في هوى زكاري بيدرمان. هكذا ظهر في هذا الحكم حسها السليم بانتمائها إلى مقاطعة فود السويسرية والبروتستنتية، وهي ابنة فلاحين، ولم يكن للمستحيل، في نظرها، أي جاذب؛ حين فهمت، قبل سنين، أن زكاري بيدرمان يُجَمِّع النساء من دون أن يمنحهنَّ أكثر من رفقته. نضدته في زمرة «بلا أهمية، يجب تجنبه».

حملت قطتها وأخذتها إلى غرفة الحمَّام.

ــ من هي الأجمل؟ أنا أم أنتِ؟

قاومت القطة واحتجت، مقدرة أن لديها أعمالاً أهم لكن أيف أمسكتها على صدرها لتزهو بذاتها أمام المرآة.

بالرغم من أنهما لم يكونا يضعان أي لباس عليهما، كانت تبدو القطة لابسة وأيف عارية. لم تكن أية شعرة تكسو جلدها الأملس والمذهب، كانت المرأة الشابة ذات أشكال مقوسة، أما القطة المغطاة بالفراء، وغير مسرحة الشعر، بذنبها كإصبع المفرقعات، فكانت تشبه امرأة من المجتمع الراقي لبست معطفاً بسرعة.

ــ إنك أنت الأجمل عزيزتي. لا أحد له عينان ثمينتان كعينيك.

بالرغم من المديح، تخبطت القطة وأطلقت زمجرة حادة وتمكنت بضغط نشيط من أن تصل إلى الأرض تاركة ذنبها الأيمن يلمس الجدران، غاضبة من إضاعة وقتها، فجلست بأسرع ما يمكن في مركز مراقبتها على النافذة.

وضعت أيف ألواح الزجاج العالية في الوضع الجيد حولها. فالقليل الذي تعرفه المرأة عن شكلها، لم تكن المرايا هي التي تعلمها إياه ولكن كلمات الرجال. وهي تتأمل ذاتها في المرايا، ملتوية كي ترى شكلها جانبياً أو من ظهرها، كانت أيف تسعى إلى أن تربط ما رأت بها قد سمعت عن مؤخرتها المقوسة... ردفيها اللذين لا يُقاومان... انحناءة خاصرتيها... اندفاع جذعها...

ثدياها اللذان ينتصبان من تلقاء ذاتهما... ما كانت تتذوقه، هي، لم يكن يُحدث دائماً تعليقات؛ هكذا كانت تقدر قدميها لكن يبدو أن لا أحد من الرجال قد لاحظهما، علاوة على ذلك، كانوا يبدون تعجبهم، حين تشير إليهم بأنهما «كانتا صغيرتين جداً». مساكين الذكور... كانت مفرداتهم فقيرة جداً أمام الروعة الأنثوية.

اقتربت من مرآة مستديرة مكبرة، بالقرب من مغسلة الأيدي وتأملت أهدابها المرسومة بريشة رسام شأن دمية من الخزف.

ــ جُنّي، ابنتي، موعدك بعد ساعة.

أسرعت بقدر ما استطاعت، لم يكن الإسراع من طبيعتها، لا سيما أن الوقت المخصص لزينتها يبقى الأعز على نفسها.

لبست طقماً ببنطال، من الجلد المخملي الأسمر الفاتح ــ اشترته من «سان ــ تروبيه»ــ، قفزت في سيارتها ووصلت إلى رواق الملكة[1]، إلى المقهى حيث موعدها.

باقتفاء أثر فيليب استطاعت أن تعرف عنوان فاطمة الشهيرة، عشيقته

---

(١) Galerie de la Reine رواق الملكة هو شارع للمشاة في أجمل ساحة في بروكسل، على طرفيه مطاعم ومقاه ومخازن راقية جداً- (المترجمة).

الجديدة، والتي حدّثتها عنها روز بيدرمان. اتصلتْ بها هاتفياً ليلة أمس، وأعلنت لها أنها «صونيا، إحدى صديقات فيليب دانترومون»، واقترحت عليها لقاءً بينهما في مكان عام «بنيات مسالِمة، لخيرك ولخيره، أرجوكِ أن تصدقيني».

جلست أيف في آخر الصالة، بين دعايات قديمة من طراز (Art déco) تمدح مشروبات لم يعد لها وجود وكذلك عربة الحلويات. أبقت نظارتين سوداوين على أنفها، من قبيل الإلحاح على عطر المقابلة الروائي.

بالفعل، لم تتردد فاطمة. حين دخلت الصالة، لاحظتها فوراً واقتربت منها.

أرغت أيف وأزبدت في داخلها. كان لفاطمة مظهر جنوني، شعر حالك السواد وعينان متقدتان ورأس مهيب ورونق مخملي. أكان عليها أن تشتكي أم أن تُهنئ نفسها؟

ــ طاب يومك، فاطمة، أنا صونيا.

أجابت الأخرى من دو أي جهد للملاطفة:

ــ طاب يومك. جلستْ أمام أيف وحدقت إليها.

سألت أيف:

ــ ماذا تشربين؟

ــ قدح عصير ليمون.

ــ أوه، يعطيني هذا الشراب حموضة في المعدة.

رفعت فاطمة كتفيها، مظهرة لا مبالاتها.

فكرت أيف « كل شيء على ما يُرام، تحسبني بلهاء».

حين جاء الطلب، بللت فاطمة شفتيها في كأسها، ثم نظرت إلى أيف.

ــ ماذا أفعل هنا؟

رفعت أيف نظارتيها السوداوين.

ــ لم أعلِم فيليب بأنني سأراك. أردت أن ألتقيك بك لأنني أعرف أنه لن يتغير، وأنها ليست المرة الأولى التي عليَّ فيها أن أشارك به امرأة أخرى.

ــ عفواً؟

ــ أخيراً، واحدة زيادة عن زوجته.

امتلأت نظرة فاطمة بالغيظ.

تابعت أيف بانشراح واضح:

ــ إنني عشيقة فيليب منذ سنوات.

ـ وما زلتِ حتى اليوم؟

ـ أين يذهب كل يومين، حوالى الساعة الثامنة عشرة؟ أتظنين أنه، كما يدعي، يعمل أو يلحق بعائلته؟

تقطعت أنفاس فاطمة.

ـ أولاً، فليكن معلوماً لديك أن فيليب لا يرى أسرته مطلقاً ـ علاقته في أسوأ حال مع كانتان، ابنه البكر ـ، ثانياً، فيليب يشتغل قليلاً جداً. يملك أسهماً في المؤسسة التي أنشأها أبوه (المتعددة الجنسيات) التي نعرفها. إنه وارث ويعيش من عائداته وإن كان يريد أن يُقنع العالم أنه يبقى متعهداً.

كانت أيف تستمتع برواية ذلك بصوت معسول، لأنها كانت الحقيقة، ثم لأنه يروق لها أن تسخر من فيليب.

كانت فاطمة، وقد ذُهلت، تحدق إلى الكأس التي تشنجت حولها يداها.

ـ بمجمل القول، لا تقلقي. إن كنتِ تحرصين على فيليب، وهذا ما أفهمه، عليك أن تقبليه كما هو. لكن، ما هو عليه، لن يكشفه لك. جئت لأساعدك.

ارتجفت فاطمة. كانت تفضّل أن تهرب بعيداً. من دون أن تتأخر، تابعت أيف:

ـ أيُحدثك عن زوجته؟

ـ كلّا، قال لي إنها امرأة ضخمة بلا أي جاذب.

ـ على العكس. أوديل امرأة جذابة وإن كان يخونها، لكنه يعشقها! وسلطتها التي تمارسها عليه تثير الدهشة. وأنا، هل ذكرني؟

ـ مطلقاً!

ـ صونيا؟

ـ بتاتاً!

ـ ولا أيف؟

ـ أوه، انظري كيف هو! متكتم... منافق... لا يستطيع الامتناع عن ذلك!

لكنه رجل طيب، كريم. وعندي مئة مرة البرهان. بمجرد الطريقة التي يتصرف فيها مع الأطفال...

ـ أي أطفال؟

ـ أطفالنا.

ـ أطفالكما؟

ـ الأولاد الذين أنجبتهم منه.

ــ عفواً؟

ــ عندنا صبي وفتاة. تيلما ولوي[1].

على الفور، وجدت أيف نفسها ماهرة في اختراع الأسماء لكنها فهمت أن فاطمة، بغيظها المتزايد، لن تتوقف عند هذا التفصيل.

وقد قررت أن تسدد ضربتها القاضية، أخرجت صورة من حقيبة يدها.

ــ انظري إلى صغيريَّ العزيزين.

مدَّت صورة تُظهرُها برفقة فيليب مع طفلين يبلغان الثالثة والخامسة من عمريهما.

ــ إنهما يُشبهانه، أليس كذلك؟ هذا الفيليب ذو جينات قوية، إنها جينات أسرة دانترومون.

هربت الدماء من وجه فاطمة. فراحت تشتم بالعربية. تركتها أيف تفقد زمام أمرها ثم أمسكت بذراعها.

ــ إنني لست غيورة، فاطمة. يمكنك أن تريه وأن تنجبا أطفالاً معاً، هذا لا يُضايقني. إذا اقتضى الحال، اطلبي أن يخصص لهم مبلغاً كافيا. استغرق ذلك مني سنوات. كانت معركة حقيقية. رفض، في البدء، كي لا يَحرم أولاده الشرعيين. على كل حال، لا أهمية لذلك أن يكون ولداي، أو أولادك، بتنافس في الإرث، أولاً لأن ذلك لن يحصل قبل عشرين عاماً، وحتى ثلاثين عاماً ــ أبعد ما يمكن كما آمل ــ ثانياً، كم سيكون عدد أولاده الذين سيطالبون بنصيبهم؟ إن لم نأخذ احتياطاتنا الآن، فلن يوزَع علينا عند النهاية إلّا الفتات. أما أنا، فقد نجحت في أن يفتح لي حساباً في سويسرا وأن يعززه.

وقفت فاطمة قائلة:

ــ سأترك هذا النذل!

ــ كلَّا، فاطمة! لا تفعلي ذلك! فرحيلك سيؤلمه كثيراً...

ــ سأترك هذا النذل الذي لم يقل لي شيئاً والذي يكرر منذ ستة أشهر بأنه سيترك امرأته. أخذت أيف مظهر الآسف.

ــ أوه، هل ادّعى ذلك؟ حقاً، هذا ليس حسناً. آه كلَّا... لن يفعل ذلك مطلقاً.

ــ حين أفكر بأنني كنت على وشك إيقاف حبوب منع الحمل. كم أنا مغفلة...

ــ لا تلومي ذاتك، فاطمة!

---

(١) Thelma and Louise: اسم فيلم أميركي شهير أخرجه ريدلي سكوت في عام ١٩٩١ ونال جائزة الأوسكار لأفضل سيناريو - (المترجمة).

ـ أوه أنت، اسكتي. لستُ مثلك. لا أشارك. إما أن يكون لي، وإلّا فليرحل. سأسوي حسابي معه منذ هذا المساء.

ـ فاطمة!

كانت المرأة الشابة قد غادرت المقهى في عجلة لتحرق الرجل الذي خانها.

تنهدت أيف وأخرجت علبة البودرة؛ حين فتحتها نظرت إلى نفسها وأرسلت غمزة عين:

ـ تلك الفاطمة، لا تشكل خطراً. فهي بالغة العصبية.

حين عادت إلى بيتها، استقرت مع رواية ضخمة في أريكتها الجديدة التي قدمها لها فيليب دانترومون. بمزاج ممتاز، جسَّت القطة التي غامرت بالاقتراب من بطنها:

ـ أتعرفين هذا الكتاب لبوب، عزيزتي؟

ماءت القطة، منزعجة بعض الشيء.

ـ إنها رواية تُقرأ على شاطئ البحر كما أحب. ليس عندي الشاطئ لكن عندي الرواية.

كانت تعرف أنها مرتاحة هذا المساء. كان فيليب يرى فاطمة. وإن كانت منجذبة في قراءتها، لم تستطع أن تتمالك من تصور المشهد: لا شك أن فاطمة ستتصرف بهيجان وشراسة حين تدخل في ثورة غضب، سيتألم فيليب، سيتلقى ضربات وقذائف وأسماء طيور، لا سيما أنه لن يفهم كلمة مما سترويه ـ صونيا العشيقة ذات الولدين، والأخريات. كانت تضحك أيف من السرور والرضا. أن تجرح فيليب فذلك يؤمن لها الفرح.

فلاأخلاقية سلوكها لم تكن تؤثر فيها. كانت تعيش قريبة جداً من ذاتها حتى أنها لا تحكم على أفعالها مطلقاً. بطريقة عامة، كان ضميرها يفلت من الشعور بالذنب لأنها كانت بنت اللحظة.

حوالى الساعة عشرين اتصل بها فيليب دانترمون بنبرة مقطِّبة.

روى بسرعة قائلاً:

ـ إنني أخرج من العمل، هل أستطيع أن أمر؟

ـ أوه، دلوعي، كم يسرني ذلك!

حين وصل بسرعة، تائه النظرة، مُحبط الحاجب، منهكاً من عنف فاطمة، لم يستطع تصور أن لأيف الرقيقة، المستلقية على أريكتها، وقطتها على بطنها والكتاب بين يديها، أدنى نصيب من مسؤولية الكارثة التي ألمت به.

ـ يا لسعادتي، دلوعي، بهذه الزيارة المفاجئة!

ـ إنها الصدفة. استغرق اجتماع وقتاً أقل بكثير مما كان متوقعاً.

ـ اقترب وقبلني.

أطاع وفكره مشغول ولامس جبينها. سجلت أيف ذاك البرود من دون أن يرف لها جفن.

ـ أعشق هذا الكتاب الذي كنتُ أقرؤه وأنا أنتظرك؟

ـ من الكاتب؟

ـ بوب بوب، المؤلف الأميركي.

فكَّر فيليب فوراً وهو يمسك المجلد أن لأيف ذوقاً منحطاً في الأدب لكنه لم يذهب بفكرته أبعد من ذلك لأن ورقة صفراء محبوسة بين صفحتين قد أوقفته. كانت الرسالة مكتوبة بخط اليد: « هذه الكلمة لمجرد إعلامك بأنني أحبك. التوقيع: أنتِ تعرفين من».

قطَّب وجهه. لاحظت أيف، بغبطة أن حيلتها قد أحدثت الأثر المرجو. لم يكن فيليب يحتمل أن يتشهى إلّا امرأة يتشهاها الآخرون. كان شبق الغرباء ومنافسة الذكور يشكلان مهمازاً بالغ الفعالية لشهوته.

ـ ما هذا؟

ـ أوه... تلك الكلمة... إنها هنا، في نهاية المطاف؟

ـ أيف، ما هذا؟

ـ تسلمته هذا الصباح. ملاطف، أليس كذلك؟

ـ ممن؟

ـ إنه السؤال الذي أطرحه على نفسي. ربما ذلك بداية قصة... قبَّلها على فمها، لإسكاتها.

١١

لم يَصْبُ ڤيكتور إلى شيء ما قط بنفاذ الصبر شأن همه في إيجاد أوكسانا.

كانت الشابة الأوكرانية قد تركت الفندق الذي احتفظت بحقائبها فيه أثناء إقامتها عند ڤيكتور؛ لم يكن العاملون في الاستقبال ولا البوابون ولا موظفو ركن السيارات قد استطاعوا أن يُعلموا الطالب إلى أين انتقلت؛ إن كانوا قد رأوها تستقل التاكسي، لكنهم لم يسمعوا العنوان الذي أعطته للسائق، إذاً، إنهم لا يعرفون إن كانت قد قصدت المحطة أو المطار أو مقراً جديداً.

أقام ڤيكتور، العنيد والمنهجي، قائمة بفنادق بروكسل، واتصل هاتفياً بالاستقبال طالباً التحدث إلى أوكسانا كورلوف؛ بما أن عمال الهاتف كانوا يجيبون بصوت واثق «ثانية، سيدي، وسأصلك بها»، على أمل الوصول إليها؛ لكنهم، كانوا في كل مرة، يعودون نحوه معتذرين ألبانّ أن لاَ أحدَ بهذا الاسم يُقيم في هذه المنشأة. بالرغم من بحثه في كل الفئات السكنية، من النجوم الخمسة إلى بيوت الشبيبة مروراً بغرف الضيافة وبالشقق المفروشة، لم يعثر عليها.

وقد وعى إخفاقه، لم يستسلم. قرع باب خاله باتيست وشرح له الوضع:

ــ بينما كنتُ مستعداً للمرة الأولى في حياتي، لأن أكشف لامرأة حقيقة وضعي الصحي، اختفت عن الوجود.

ــ لماذا اختفت؟

ــ ليس عندي أية فكرة عن ذلك.

ــ هل حدث خصام؟

ــ كلّا.

ــ فرقكما موضوع؟

ــ ولا أي موضوع.

ــ هل وجهت إليك لوماً ما؟

ــ كلّا على ما أتذكر.

ــ وأنت؟

ـ على الإطلاق.

ـ هل طلبتَ منها شيئاً لم تكن تستطيع إعطاءك إياه؟

أجاب ابن أخته بالنفي رافعاً رأسه، برقت عينا باتيست بخبث.

استاء ڤيكتور، بأعصابه المتوترة قائلاً:

ـ يبدو أن الوضع يسليك؟

ـ أشعر بأنني أستطيع السيطرة عليه.

ـ فسرْ.

ـ لم يحن الوقت. أولاً سنجد فتاتك الأوكرانية. هل تعرف أن إيزابيل تعمل في الصحافة؟ سأوحي إليها الاتصال بوكيل أوكسانا لأخذ صورة لها ممكنة.

ـ عبقري! وإن لم تعد أوكسانا في بروكسل؟

ـ شيء ما يهمس لي بأنها لا تزال موجودة هنا.

ـ باتيست، كفَّ عن لعب دور السحرة.

ـ عندي الخبرة، ابن أختي.

ـ خبرة إيجاد عارضات الأزياء المختفيات؟

ـ عارضات الأزياء الأوكرانيات، بشكل خاص...

ـ هل تمزح؟

ـ لا تنسَ أنني روائي. إذاً، قد عشتُ مئات الحيوات.

ـ بالخيال...

ـ ما الفرق، يا بن أختي؟

ـ أتعتقد أن الرواية هي الواقع؟

ـ أعتقد أن الواقع روائيٌ.

ـ الحياة تافهة.

ـ تتبدى الحياة أكثر ابتكاراً من أي مؤلِّف. والبرهان؟ الحب الثلاثي الذي تقدمه لي وأنا في الأربعين من عمري.

ـ ربما، ولكن لا يتعلم الإنسان الحياة بالخيال.

ـ بأي شيء آخر؟ إذا كانت تجربتك الوحيدة هي التي تعلمك، فلن تعرف الشيء الكثير؛ في المقابل، بفضل القصص والمَسارّات وأحلام اليقظة والرحلات الافتراضية، تشرع في اجتياز المتاهة.

ــ إنني لا أسلّم بنظريتك.

ــ إنك تتحدث عن نفسك، ڤيكتور، لا شيء إلّا عن ذاتك. تستعمل خيالك. ما عدا الأوقات التي تغوص فيها بالقراءة، فإن تكهناتك لم تفدك إلّا في إقلاقك وفي توقع الأسوأ وفي استعجال نهاية علاقاتك.

ــ موافق، إنني أستسلم. فلنعد إلى أوكسانا.

انفجر باتيست بالضحك.

ــ لا ترغم نفسك. سأساعدك وإن كنتَ غير موافق معي.

منذ اليوم التالي، تلقى ڤيكتور نداءً من باتيست يؤكد له وجود أوكسانا في بلجيكا.

ــ إنني مزمع على تحديد مقابلة تحضيرية مع مصور الصحيفة، وهذا المصور سيكون أنت. هل أنت موافق؟

ــ موافق.

ــ في أي مكان؟

ــ في الحدائق الزجاجية في «لاكين».

كان ڤيكتور قد ألقى هذا الاسم من دون تفكير، لأنه علم في ذاك الصباح بالذات أن الحدائق الزجاجية الملكية، الأمينة لتقليد أقامته منذ قرن، تفتح أبوابها إلى الجمهور طوال ثلاثة أسابيع.

ختم باتيست قائلاً:

ــ فكرة رائعة وبخاصة أنها قابلة للتصديق.

حين سار ڤيكتور، بعد يومين، في تلك المدينة الشفافة، المبنية من الزجاج والحديد، خالجه شعور غريب بالإلفة؛ وبالرغم من أنه لم يكن معتاداً تلك الأشجار الضخمة من النخيل مطلقاً، ولا تلك السرخسيات العملاقة، ولا أزهار الكاميليا والأزاليه ولا عطر القرفة المختلط بعطر الغرنوقيات الليمونية، كل ذلك لم يكن يذكره بشيء بتاتاً.

وقد استفاد من عشر دقائق قبل الموعد، جلس على مقعد ولاحظ القبب وكذلك القبة الكبيرة الرائعة، والتي تحجب عن السماء الأشجار والأعمدة، ثم شخَّص انطباعه أخيراً: الأنغام! سمع طيور ساحة آريزو... وهو يلهو، تفحص حوله بإمعان من دون أن يقع على درَّات ولا على ببغاوات؛ وقد ترك ذاته تقوده الصيحات، سلك الحلبة التي تؤدي به إلى... مكبر صوت. أثناء الزيارات، كان البساتنة يرسلون أشرطة أنغام تُغْني مشاعر المتنزهين. جلس ثانية.

ظهرت أوكسانا، مرهفة وأبهية، وقد لبستْ ثوباً من الكتان الرقيق.

راحت تبحث بعينيها عن مصور ولم تنتبه إلى ڤيكتور.

تأملها، بقلب خافق وفم يابس. لم يكن يوماً عاشقاً هكذا.

ــ إنني هنا، أوكسانا.

ترنحت وتوقفت وتعرقلت ساقاها وهي تتردد في الجهة التي تأخذها وضربت يديها، ثم تجمدت وقد شحبت.

ــ أرجوك، ڤيكتور، ابتعد.

من دون أن تنتظر رد فعله، هربت. بالرغم من المتنزهين، بالرغم من الحرس، رفع ڤيكتور صوته:

ــ لا ترحلي.

ــ عندي موعد!

ــ أنا موعدك.

تابعت ركضها في الرواق الذي يفصل صالتين زجاجيتين. وصل إليها بعدة قفزات وقطع الطريق عليها.

ــ أوكسانا، أنا موعدك. إنه باتيست الذي اتصل بوكيلك لنلتقي هنا.

ــ ليس هذا تصرفاً شريفاً.

طأطأ رأسه:

ــ أردت أن أجدك. وخفت ألّا تأتي إذا عرفتِ أنني المعني.

ــ أنت على صواب، لو عرفتُ لما جئتُ.

ــ إذاً أحسنتُ صنعاً بكوني غير شريف...

كانت أوكسانا ترتجف. أعادت شفتاها شأن صدى الكلمات «شريف»، «غير شريف» ثم انطبقتا. تأوهت، يائسة.

أشار ڤيكتور إليها بكراسٍ حديدية بيضاء، جلس عليها وأشار عليها باللحاق به. أطاعت بملل وتعب.

أمسك يدها. فانتزعتها بقوة، كأن أصابعه تحرقها.

ــ إنني أحبك، أوكسانا.

ارتعشت ثم أكدت وهي مختلجة ومضطربة:

ــ وأنا أيضاً، ڤيكتور.

ــ إذاً؟

ـ إذاً ماذا؟

ـ إنك تحبينني، وبالتالي تهربين؟

ـ هزَّت رأسها وبحثت عن أفكارها وكلماتها وزفرت، ثم غيرت رأيها وطأطأت رأسها.

ـ من الأفضل أن نفترق. بسرعة! ففي سنة، في شهر، لن تكون لي الشجاعة لأرحل.

ـ أوكسانا! لماذا؟ وقد فقدت كل قواها، انهارت وعضت على شفتيها وحكت الكرسي برقة. نظر ڤيكتور أمامه متحلياً بالصبر: من الأفضل الانتظار من الإلحاح.

تقدم سواح يابانيون ببطء شديد، يلحقهم زوجان إيطاليان ثرثاران. نصح حارس أطفالاً بألّا يمسّوا تويجات زهرات الأزاليه.

خرجت أوكسانا من صمتها قائلة:

ـ سأعترف لك بالحقيقة.

ـ لماذا لم تقوليها لي من قبل؟

ـ بدافع الأمل... لأنه حين أقولها لك، سينتهي كل شيء بيننا.

ترنح ڤيكتور. كانت أوكسانا تعبر بتصميم بالغ الحزن، وحزم يُنذر بأسوأ الأمور. كان قلقاً، فأراد العودة إلى الوراء. لو كانت على صواب؟

لاحظت تردده، فسألته:

ـ هل أنت متأكد من رغبتك في سماعها؟

في تلك الثانية، تمنى الهرب والابتعاد عن صالات «لاكين» الزجاجية، والامتناع عن مجابهة الواقع. لكنه شعر بأن أوكسانا، وقد قررت أن تتكلم، سيَخيب أملها من تغييره المفاجئ. بالنسبة إليها، أكثر منه، فحثها على المتابعة.

تنهدت قائلة:

ـ إنني امرأة سيئة، امرأة مُخفِقَة.

ـ لا أصدق كلمة مما تقولين.

ـ رحلتُ لأنني لا أستطيع أن أعطيك ما يحق لك أن تأمل به.

ـ عفواً؟ لا أرغب إلّا في أن أحبك. وأن تحبيني قليلاً.

ـ أجل، تبدأ الأمور دائماً هكذا... وبعد ذلك...

ـ بعد ذلك؟

ـ بعد ذلك تبدأ المشاريع المستقبلية، قرار العيش معاً، الزواج...

قاطعها، وهو مقتنع أنه قد عرف سبب رحيلها:

ــ هل أنتِ متزوجة؟

بالرغم من جدية اللحظة، فلتت منها ضحكة قصيرة.

ــ كلّا! ما من خطر على هذا الصعيد. لا أغامر بتعدد الزوجات... تباً، «تعدد الزوجات» يعني زوجتان لرجل... كيف يُقال زوجان لامرأة؟

ــ يجب أن يُقال منطقياً « تعدد الزوجين» لكن لا وجود لتلك الكلمة. فالواقع ذكوريٌ أكثر من مفردات اللغة.

تبادلا الابتسامة؛ ففي ثانية، كان التواطؤ الذي جمعهما قد ولد من جديد. خافت أوكسانا من تلك الردة، فأشاحت بوجهها وقطعت كل رابط مرئي بڤيكتور وحدَّقت إلى حصى الممر، قطبت حاجبيها ثم تابعت قولها:

ــ يتزوج الناس ويحلمون بأسرة. لهذا السبب أرحل، ڤيكتور.

ــ لا تريدين أن تنجبي أطفالاً؟

ــ لا أستطيع أن أنجب أطفالاً.

لم يبدُ من ڤيكتور أي رد فعل. استدارت أوكسانا نحوه وكررت:

ــ لا أستطيع.

مكث من دون أن يُحرك ساكناً.

ــ إنني عاقر. اغرورقت عينا أوكسانا بالدموع.

ــ ڤيكتور، هل تفهم ما أقوله لك؟ عندي تشويه في الرحم يمنعني من الاحتفاظ بالجنين. أضف إلى ذلك إنتاناً أصابني وأنا في حوالى الخامسة عشرة من عمري والذي جعلني... أوه، هذا مثير للاشمئزاز! أشعر بالمذلة وأنا أروي لك ذلك، لا شيء يلزمني أن أسلم لك ملفي الطبي وأن أبرر نفسي. أحرص عليك، إذاً، سأرحل. لست هدية لرجل.

بفمه الفاغر، تحت وقع الانفعال، أدار ڤيكتور ببطء وجهه نحوها وصرخ:

ــ هذا رائع!

وقد صُدِمت أوكسانا، دفعت رأسها إلى الوراء. كرر:

ــ هذا رائع...

انفجر بالضحك. قفزت أوكسانا عن كرسيها.

ــ علاوة على ذلك، تسخر مني؟

جعلها الغيظ شاحبة: خبطت رجليها وشدت فكيها وأغلقت قبضتيها.

نظرت إلى هذا الشاب الذي وقعت في حبه لتعاستها وهي تلوم نفسها لأنها لم تدرك قبل الآن أنه وحش. من دون أن تُفكر، صفعته. صفعة. صفعتين. ثلاث صفعات.

انتصب ڤيكتور وألصق أوكسانا به وثبتها وضم يديها إلى يديه وقرب شفتيه وأخمد حنقها بقبلة.

حين انفصل عنها، تمتم:

ـ جاء دوري لأعترف لك بالحقيقة.

وقد لامس فمه الشهواني أذن أوكسانا اليمنى، أقر قائلاً:

ـ وأنا كذلك، لست بهدية إلى امرأة.

ـ أنت، ڤيكتور؟

ـ اسمعي.

من دون لف ودوران، وبكلمات بسيطة وجمل قصيرة، روى لها ما كان يخفيه عن الجميع، أمه التي أصيبت بفيروس السيدا وهي في العشرين من عمرها، وفاتها بعد خمس سنوات، ولادته وهو يحمل الفيروس، واستمراره في العيش بفضل الأدوية التي سيطرت تدريجاً على الوباء.

روى، وهو مندفع، مراهقته المريرة، وحين فهم أنه لا يمكنه أن يقترب من أحد من دون أن يشكل خطراً، ثم تحدث عن الحداد المتكرر، ليس الحداد على أمه فقط ولكن حداده على استحالة تشكيل زوجين وتأسيس أسرة.

ـ هيًا ثانوية «سان ـ ميشيل»، لا تتفرقوا، اجتمعوا، لا تزعجوا الناس!

قطع صوت رنَّان الاعترافات. رأى ڤيكتور وأوكسانا ثلاثين صبياً يصلون إلى الصالة الزجاجية ويندفعون فوقهم بتشكيلة متشتتة، وهم يدوسون الحصى، بصخب شأن قطيع من الجواميس. كانت تصرخ خلفهم مدرسة بملء رئتيها إلّا أن تعليماتها متناسبة عكساً مع فعاليتها: فكانت كلما ازداد صراخها تناقصت طاعة التلاميذ لها.

ـ ثانوية «سان ـ ميشيل»! بعض النظام، من فضلكم. لا تجعلوني آسف لتنظيمي صفاً في الطبيعة! ثانوية «سان ـ ميشيل»، شيء من الهدوء!

مشى بعض التلاميذ على رجلي أوكسانا وڤيكتور، بعضهم تسمر أمامهما محدقين إليهما كأنهما جزء من التسلية.

جلست أوكسانا ثانية، بحذر، تبعها ڤيكتور. كي لا يثيرا التعليقات، جلس كل منهما على بعد متر من الآخر، صامتين، جامدين شأن متنزهين ينتظرون نهاية السيل.

أخيراً، حين اختفت المجموعة، تابع ڤيكتور قصته، من دون أن ينظر إلى أوكسانا أو يلمسها.

لكن شيئاً ما قد انكسر. ربما الثقة... أو الشعور بالوضع الملح. كيف استطاع أن يستسلم لطفرة تفاؤل؟ كلما تقدم ڤيكتور في مسارَّاته، فلتت منه أوكسانا. كانت كل كلمة تبعدها عنه وكل جملة تزيد المسافة بينهما. قريباً قد يحدث ما جرى دائماً: الحقيقة تقتل علاقته. كيف استطاع أن يتخيل أنه يفلت من لعنتها؟ توقف عن الكلام.

فوقهما، قطعت صيحة طائر يابسة لوحات الزجاج الكبيرة.

ارتجف ڤيكتور. إن كان جلده حاراً، لكن قلبه قد برد. إنه يعرف الآن كيف ستدور أحداث المشهد: ستشكره أوكسانا، لأنها طيبة وستتعاطف معه وتدعوه إلى أن يفضي بكل شيء، وستعده بإبقاء تلك الصداقة بينهما وستساعده بقدر ما تستطيع؛ بكلمة أخرى، ستهرب.

كان جالساً برأس منخفض، وأذنين ملتهبتين، ويدين مضطربتين من الارتجاف الذي لايزال قادراً على إخفائه. «بسرعة، فلتستعجل! لتلقي بي! لا جدوى من الانتظار طويلاً جداً».

رفع رأسه وانحنى جانباً واكتشف وجه أوكسانا تغمره الدموع. رغب، كرد فعل، أن يواسيها، لكنه امتنع عن ذلك، وهو يعي أنها تبكي حبهما الضائع. بقي إذاً متصلباً ولائقاً بالرغم من الانفعال الذي يقضمه.

أخرجت أوكسانا منديلاً من حقيبة يدها ومخطت.

فكر ڤيكتور«يا لهذا الوجود المثير للسخرية! إننا نذكر حيواتنا المخفقة ومشاعرنا التي تموت ويُلَخَّص ذلك بأنوف ملأئ بالمخاط، وبعيون تسيل وبترنحات متشنجة. لسنا سوى أجسادٍ تضطرب وتهتز إلى أن يُعتقها الموت». وقد سيطرت عليه الكآبة، فكَّر بأمه ــ عادة، كان يتجنب ذلك ــ فكر بقبرها في مدفن «بير ـ لاشيز» وما آل إليه جسدها. كانت أمه، أقله، قد نجت من الألم. «استريحي بسلام». ربما تبتسم جثتها بقدر ما كانت مغتبطة بأنها لن تشعر بشيء بعد اليوم؟ «استريحي بسلام». يا له من برنامج خلاصي! الموت، أجل، الموت بسرعة. غمره حمض بطعمه الكريه، فأحدث تشنجاً. سعل. أوه، أجل، والوقوع والانهيار هنا للمرة الأخيرة والانتهاء من تلك الحياة. بينما كان ثقل رأسه يدفعه نحو الأرض، شعر بأوكسانا تمسكه. «آه أجل، ممرضة... مربيات أطفال، إنهن هكذا إلى حد ما، أليس كذلك؟» وقد غمره احتقار يائس، ترك ذاته أقله تمسكه.

فجأة، رفعت رأسه وأرغمته على النظر إليها.

ــ أحبك، ڤيكتور، ولا أريد رجلاً سواك.

بعد نصف ساعة، خارج المدينة الزجاجية، كانت أستاذة علم الأحياء تلخص لصفها في ثانوية «سان ـ ميشيل» مكتسبات الصباح:

ــ بفضل العلوم والتقنيات، تُخلق بيئات ملائمة، يُنمى فيها أفراد وأشكال وحتى أجناس جديدة. اليوم، عند النباتات، والحيوانات أو البشر، تُخدم الحياة كما لم يحدث سابقاً على الإطلاق. كلما ازدادت المعرفة ازدادت القدرة. درس اليوم؟ هل سبق علماء النبات علماء الجينات...؟ إذا مارس علماء الجينات اليوم الإخصاب في بيئة مصطنعة، فلأن علماء النبات عرفوا كيف يصنعون البسلات سابقاً في النبات.

ــ لا يمنع، سيدتي، في الأساس، من أن هذا مثير للاشمئزاز.

ــ ما هو المثير للاشمئزاز، ابني؟

ــ أي... كيف يُخصَّب النبات... وكيف يصنعون الأطفال... ضحكت المجموعة بتكتم، بشيء من الحرج والسخرية أكثر من الموافقة والتأييد.

ألح المراهق بنظارتيه المستديرتين:

ــ أجل، في الواقع، إنه مُقرف.

انطلق الصبية بضحكة كبيرة مدوية. فوراً، تبنت المدرسة موقف الصبي:

ــ رفيقكم على صواب. تنبت كل الأزهار على ماء المزابل؛ إلَّا أن كثيرين ينسون ذلك.

في تلك اللحظة، رأى طلاب «سان ــ ميشيل»، وهم منهمكون بجمع ملاحظاتهم المتفرقة على العشب، الزوجين اللذين أزعجوهما في الصالة الزجاجية يمرّان أمامهما. كان ڤيكتور وأوكسانا، يتقدمان مغتبطين بخطى هادئة وأبهية، متعانقين، مرنين، جميلين.

بالنسبة إلى الفتيات اللواتي في الثالثة عشرة المهتمات بالصبيان، كان هذان الزوجان يبهرانهن، وهما صورة مثالية. حين لمحنهما أشارت كل واحدة لرفيقتها بعكسها ثم سكتنَ، باحترامٍ حين اقتربا منهنَّ. من منهن يمكن أن تشك بأن هذينِ الكائنين الرائعين بجمال أخّاذ يعتبران أنفسهما معاقين؟ كنّ يعتقدنَ أنهنَّ يشاهدنَ بجعتين؛ أما هما فيفكران أنهما بطتان قبيحتان، مخفقتان، عاجزتان. إن وعي بؤسهما وحده قد جعلهما قويين. لم يكن عند ڤيكتور وأوكسانا أدنى عجرفة، وكانا يعرفان أنهما معطوبان، جريحان، فانيان إلى أبعد الحدود؛ ففي فكرة الموت المرتبطة بصعوبة الحياة، قد ختما على حبهما.

١٢

ــ آه كلّا، أكره الريف.

لم تكن تصدق الزبونة أذنيها: بائعة زهور تمقت المروج والحقول؟

تابعت كزافيير:

ــ إن الريف مثير للاشمئزاز! فالتراب في كل مكان، والتراب علاوة على قبحه، يُحدث الغبار حين يكون الطقس حاراً، والوحول حين تُمطر. تتحدثين عن هدية! وماذا عن الروائح... العفن والروث! لا شيء سوى أقذار تتحلل وتتفسخ. هكذا. في الهواء الطلق. وهي على أتم الاستعداد لمهاجمة منخاريك. أما أنا، فإذا وضعتني أمام مشهد «رائع» انتابتني مجرد رغبة بأن أصرخ «جرّي ماء المراحيض!». من دون ذكر الريح والبعوض والزنابير والخفافيش والعناكب وذباب الدواب. إن جندياً أميركياً أكثر راحة عند الطالبان الأفغانيين مني في الريف: إنها الحرب!

ــ ولكن، الطبيعة، كزافيير، النبات...

ــ حسناً، لقد قلتِه: النبات! هنا في مخزني، عندي أزهار؛ في الريف، يوجد النبات. ما معنى ذلك، النبات؟ أيِ شيء في أي مكان... هل يغني ذلك حسك النقدي، هندباء برية تنبت فوضوياً في حقلٍ؟ أتجدين ذلك لافتاً للنظر، شقائق النعمان على طول حفرة؟ هل استطعتِ يوماً أن ترتبي باقة من أزهار الحقول؟ إن متعتك الصغيرة تكاد لا تدوم أكثر من عشرين دقيقة... قبل أن تضعيها في الماء، تصبح أزهارك منهكة، فترتخي وتبعث رائحة منفرة وتفقد بريقها وألوانها. في الواقع، جاءت تلك الأزهار لتموت عندك. هناك احتيال في البضاعة «أزهار الحقول» يرن ذلك موحياً بالصلابة والصحة، و«منتجات الريف». هذه عملية تسويق، سيدتي، لأن زهرة الحقول لا قيمة لها، لا تشبه أي شيء ولا تعيش إلّا في حقل! فتسميتها «زهرة» كذبة. لأنها تويجة نادرة، تويجة هزيلة، ليس هناك إلّا الساق أو الورقة، أي الأجزاء غير المرغوب فيها... شأني إذا أعطيتك جذع شجرة التفاح وأغصانها كي تأكليها بدلاً من أن أعطيك الثمرة، ستقطبين وجهك وأنت محقة!

ــ كزافيير، إثر سماعك، يُستنتَج أن الأزهار هنا لم تبتكرها الطبيعة...

ــ بالضبط! لم تولد في الريف ولكن عند زارع المشاتل. هذا هو الفرق كله.

لا أبيعك أشياء يمكن أن تلميها من الأرض، أما أنا، فأبيعك تحفاً فنية، منتجات العبقرية البشرية، مجوهرات صُنِعت وصُقلت طوال عصور من حرفيين أذكياء، متطوعين وصبورين. لا يكفي أن ينحني المرء ليجني زهوراً جميلة. ليس أكثر من أن يجمع سوقاً ليصنع تشكيلة زهر.

ــ طبعاً...

ــ اذهبي واملئي أصصك بأزهار الربيع أو بالبنفسج، تلك القزمات اللواتي لا يقمن في صحن قهوة. اصنعي حزماً من الشوك، لا تمنعي نفسك عن ذلك! أوه! ثم إنني أتعب من «الوعظ في الصحراء»[1]. لم يعد الناس يُقدِّرون قيمة الأشياء. دخلت الحضارة في مرحلة الانحطاط، سأتقاعد وستذهبين لتقطفي الهندباء البرية في الساحة، هندباء برية رائعة صفراء بلون البول ومزينة بروث الببغاوات. لا تستحقون كلكم أفضل من ذلك.

ــ كزافيير، لم أكن أفكر في وضعك في تلك الحالة حين اقترحت عليك أن أدعوك إلى الريف.

ــ حالتي؟ إنك لا تعرفين شيئاً عن حالتي.

ــ بلى، أعرف أن أوريون يعاني مشكلات صحية... قيل لي الزهايمر؟

ــ الزهايمر، لا أهمية له! بالنسبة إلى... أرجو معذرتي، سيدة ريكلويه، أشعر بأنني لست على ما يُرام.

وقد أحست ثقلاً على مثانتها، مرَّت كزافيير إلى القسم الخلفي من المخزن، ثم نهضت ولكنها بدلاً من أن ترجع، جلست في أريكة مخروقة، وقد فضَّلت البقاء هناك. انفجرت بغضب « يا لها من مهنة غبية! تأمين الكافيار للخنازير، كلَّا شكراً!».

بقيت الزبونة وحدها في المخزن من دون أن يهتم أحد بها. فأوريون كان خارجاً لتسليم الزهور واختفت كزافيير. ترددت بين الصبر أو الرحيل، ونظرت برغبة إلى الأزهار التي أرادت شراءها قبل تهجم كزافيير، فنادت:

ــ هل أنت على ما يُرام، كزافيير؟

ــ لم يُجبها أحدٌ.

ــ كزافيير، إنني حقاً بحاجة إلى باقة، إنني ذاهبة عند أصدقاء.

انطلق صوت متعجرف من داخل الورشة:

ــ عودي بعد نصف ساعة، سيكون أوريون هنا.

---

(١) تعبير ورد في الإنجيل، أي أن لا أحد يسمعني أو يصغي إليَّ، فكلامي هباء- (المترجمة).

هزّت المرأة رأسها، غير واثقة من تكرار التجربة: كلما جاءت إلى هذا المخزن أحست أنها تغامر بحياتها. كم كانت تتمنى أن يقيم منافس في الحي.

حين سمعت الجرس يشير إلى رحيل الزبونة، تنفست كزافيير الصعداء.

لا أهمية للمال الضائع، لن تمارس العهر من أجل عدة يوروريات. ببعض الحظ، هذه «الريكلويه» تصادف أوريون وهو دائماً ودود، فيلبيها وتسترد البيع.

ــ يا له من مغفل، هذا الرجل أيضاً!

أحست كزافيير تحسناً. بدأت تتعافى بالغضب من موت سِفْرينّ. إذا كانت أثناء الجنازة قد انهارت من الأسى، لكن هذا الحزن لم يدم.

عند إعلان الانتحار، تأثرت كزافيير بعمق لأنها قدَّرت سعة الاضطراب الذي كان يقرض سِفْرينّ، ولم تستطع سابقاً أن تتخيل مطلقاً إلى أي مدى أمكنها أن تكره حياتها. تساءلت بعد ذلك عن نصيبها من المسؤولية: لو لم تطردها في تلك الليلة العاصفة، هل كانت ألقت بنفسها من البرج؟ على ذلك، كانت تأتي بإجابة معقدة... لن تكون سِفْرينّ قد انتحرت على الفور ولكنها كانت ستفعل ذلك فيما بعد. لم تكن كزافيير تستطيع أن تقبل أن غيظها بسبب الحب قد دفعها إلى الانتحار؛ لو كان الحال هكذا، لأرسلت لها سِفْرينّ رسالة. كانت كزافيير تبرئ ذاتها: «لستُ سبب تعاستها، كنتُ بالأحرى بلسمها أو دواءها، لأنها كانت معي تشعر بالارتياح». بعد أن سوَّت أمرها مع ضميرها ــ شأن كل إنسان ــ اعترت كزافيير حالة انفعالية. أيعود ذلك إلى التغيير الهرموني؟

إلى الظروف؟ لقد أحست تعاطفاً قوياً جداً للصديقة الراحلة، حنيناً عنيفاً، قمة الحزن التي جعلتها تفقد وعيها يوم الجنازة.

لكن الاستسلام إلى المصيبة كان ممقوتاً بالنسبة إلى مزاج كزافيير، الفعال والجريء. فاستبدلت بسرعة الدموع بالفظاظة، كما كانت تنمي غيظاً مستديماً نحو كل شيء وكل الناس. لم يعد شيء يرضيها؛ كان هذا الحنق الساخط ينتزعها من الكآبة وينشطها وينعشها.

راح الطفل ينمو في أحشائها. يمكنها أن تقول «الطفل» لأنها توصلت إلى يقين وهو أن بطنها يحوي كائناً حياً. كانت، أحياناً، خلسة، تدفئه بيديها؛ وفي أوقات أخرى كانت تتحدث إليه؛ حين كانت تستسلم إلى تلك الاتصالات، لم تكن تشعر بأنها مجنونة تحاور بطنها، بل تتوصل إلى نوع من الحكمة المطمئنة. هذا غريب جداً...

لم تكن بعد قد قررت شيئاً، بشكل رسمي، فالأحداث ــ انتحار سِفْرينّ، قضية بيدرمان ــ قد منعتها من الاهتمام بنفسها. وسط تلك الدوامة، انقضى التاريخ القانوني للإجهاض؛ لم يبدُ لها هذا الاستحقاق إلَّا قدراً ثانياً، كان الأول

اقتحام جنين. بالنسبة إلى هذا الحمل، استمرت في إظهار لامبالاة كبيرة. على كل حال، أليست هكذا مدة الحمل: اختباراً للسلبية؟

دق الجرس الصغير. دخل شخص إلى المخزن. لم يبدُ منها أي رد فعل. « «إنني في غاية التعب». حتى أنها حبست أنفاسها كي لا يسمعها أحد.

ــ هل هناك أحد؟ هوهو؟ هل هناك أحد؟

كان تصميم هذا الصوت المكتوم يشير إلى شخص قادر على أن يأتي إلى المخزن الخلفي. لا جدوى إذاً من الاختباء أطول من ذلك.

تنهدت وخرجت فجاءت إلى المخزن.

ــ نعم، ماذا ترغب؟

كان الرجل القصير والعريض، يلبس معطفاً واقياً من المطر ملطخاً وينظر إليها برضى:

ــ طاب يومك سيدتي، إنني صحفي أعمل في :

Le Quotidien des Ardennes و La Gazette européenne

أود أن...

ــ باقة من الزهور.

ــ أوه... كلّا... وددت أن أسألك إذا...

ــ لا جدوى لسؤالك، سيدي، إنني أبيع زهوراً، ولا أبيع سَلَطات.

ــ من فضلك. مجرد معلومة.

ــ ولماذا أعطيك إياها؟

ــ بدافع اللطف.

حاول أن يكسب مودتها، فحدثها بصوت معسول وبفم يتصنع الابتسامة. نظرت إليه باحتقار. «اللطف»، كان عليه ألّا يستعمل تلك الكلمة أمامها. انبثقت شرارة من عينيها وظهر بريق تسلية حسبه موافقة.

تمتمت:

ــ إنني مصغية إليك.

ــ هل كان السيد بيدرمان أحد زبائنك؟

ــ إن زوجته، روز بيدرمان، تحب الباقات الرائعة. وليس عبثاً أن تحمل اسم زهرة.

ــ أجل، طبعاً. وهو؟ هل كنتِ ترينه؟

ـ من حين إلى حين.

ـ ثم؟

ـ كنت أفضل ألّا يأتي. فبسببه اضطررت أن أطرد كثيراً من العاملات. ثم إن تلك الفتيات ادعينَ أنه كان يرغمهن على القيام بأشياء، أخيراً... أنت تفهم إلى أي شيء ألمّحُ...

ـ كيف؟ هنا؟ هذا فظيع!

فتح الصحفي عينين واسعتين دهشة، وقد جُنَّ فرحاً لفكرة أنه قد حصل على سبق صحفي هائل.

ـ أجل، هنا، بين أحواض الزهور.

ـ هذا خارق!

ـ لم أصدقهنَ حينذاك.

ـ هل تأسفين على ذلك؟

ـ في الواقع، كنت غيورة. لأنني كنت أظن أنه كان يأتي من أجلي، لا شيء إلّا من أجلي. أنا وهو كنا نفعل ذلك في الغرفة الباردة. لا أعرف لماذا، كان هذا يثيره، الغرفة الباردة، وسط البصلات وحزم الأزهار. على كل حال، هذا غريب. بشكل طبيعي، لا يلائم البرد مهارات الرجال أما هو، فكان على العكس...

ـ هائل! هائل!

كان الصحفي يتلعثم أمام هذا الاكتشاف. وتبتسم له كزافيير، بلطف.

ـ هل هناك أسئلة أخرى؟ أكنتُ لطيفة معك؟ هل يكفي هذا القدر من الغباء لورقة الملفوف التي تكتب عليها؟ إذا أردتَ، أخترع لك أشياء أخرى. الطريقة التي ربط بها زوجي بحبال من الجلد أو كيف ضاجع مستخدمي الصغير، على سبيل المثال...؟

شحب وجه الصحفي، إذ أدرك أنها كانت تسخر منه.

فتحتْ مصراع الباب، وبحركة من يدها، أرته طريق الخروج. مرَّ أمامها وقد اتخذ مظهر المُهان.

تمتمت حين حاذاها:

ـ هائل، أليس كذلك؟

رجع، مرتبكاً، ليلتحق بمجموعة الصحفيين والمصورين الذين كانوا يعجّون في ساحة آريزو.

من أعشاشها القائمة والفسيحة المبنية بين الأغصان، كانت الببغاوات والدرّات تبدو متنحية، وقد استقرّت في الأعالي. كان هذا التدفق المثير المشبه فيه للمتسكعين المجهولين قد منعها من النزول إلى العشب كما كانت تفعل غالباً في الماضي، وعلى غرار كزافيير، كانت تتمنى أن تنتهي قضية بيدرمان هذه بسرعة لأنها تلوِّث سكنها.

مكثت على حافة الباب، منسحبة قليلاً، تحمل يديها إلى بطنها، فتدلكها بلطف وتهمس:

ـ أترى إلى أي عالم ستأتي؟ هل هذا يُغريك؟ لقد حذَّرتك، إنه عالم يعج بالأغبياء، بنسبة تسعة وتسعين بالمئة. أما الواحد في المئة، فثمة عباقرة متوحدون لا يمكن معاشرتهم وفنَّانون لن تلتقيهم مطلقاً... وأمك.

ذُهلت لتلفظها هذه الكلمة، أكانت تلائمها؟ وقد خرجت هكذا عذبة، لا بأس.

ـ أجل سيكون هناك، ماما. أنت وأنا، وسط هؤلاء المعتوهين، سنضحك كثيراً. رغبت في الضحك لكن الدموع وخزت عينيها.

ـ اللعنة على الهرمونات! حان الوقت كي تخرج عزيزي، لأن ماما تود أن تستطيع الاغتياب بارتياح من دون أن تصرخ بحدة شأن بطلة من تلك الأفلام التافهة. بالمناسبة، هل تحب أفلام رعاة البقر؟

قطع ناتان الشارع وأسرع نحو مخزن الزهور وهو يبدو مشغولاً.

ـ هل يمكنني التحدث معك، كزافيير؟

لأي شخص آخر، لكانت أجابت «كلَّا، إنني أبيع الزهور»، أما لناتان، فكانت تعطيه مكانة خاصة. كانت تشعر نحوه، إن لم تكن صداقة، أقله بنوع من التعاطف الودود، أولاً لأنه لا يشبه الآخرين ولأنها كانت تحب نزواته الجريئة في اللباس، ثم لأن نقده لاذع كما تعتمد طريقته على تحمل الإنسانية بالسخرية منها. لو كانت رجلاً لتصرفت كما يتصرف هو. وكان يحدث لهما إذاً أن يتهكما من معاصريهما وهما يتناقشان بشغف عن الأزهار، وعن أفضل الطرق لتنضيدها بشكل متناغم.

أشارت إلى ساقي ناتان وقد شُدتا بقماش من مادة ذي قشور.

ـ رائع! من أي شيء صُنع بنطالك، ناتان؟ من جلد الحية أم التمساح؟

ـ من البلاستيك، عزيزتي. لا أريد أن تُقتَل حيوانات لأكون أكثر جاذبية جنسية. في المقابل، فإن تشغيل الرجال في حفر آبار بترول أو إتلاف الكوكب يخلق مواد تركيبية يلائمني.

أغلقت الباب خلفهما. كان هدوء المخزن يتناقض بروعة مع صخب الشارع، وبدا لهما أن الورود الزنابق واللوف (الترياق الأبيض) كانت تحيطهما بصمتها العطر.

ــ كزافيير، لن ألفَّ وأدور، أتيت بخصوص أوريون.

صرخت كزافيير متعجبة كيف استطاع زوجها البائس أن يسترعي انتباه أي من كان:

ــ أوريون، إلهي، المسكين!

ــ أجل، في نظري، إنه هو؟

ــ هو ماذا؟

ــ الحمامة. كاتب الرسائل المجهولة.

انزعجت كزافيير. فبسبب المآسي الحديثة، أهملت تلك القضية.

ــ ناتان، ما الذي يجعلك تؤكد ذلك؟

ــ أولاً، لأن هذا المخزن هو المكان المثالي لحبك تلك القصة. إنه مرقب. من هنا، يُعرَف الناس جميعاً.

ــ إنه حالي. أصبحتُ مشتبهاً فيها.

ــ ثانياً، يجب أن يبرهن أحدهم عن اللطف.

ــ هنا، لم أعد مشتبهاً فيها.

ــ بالفعل، إن أوريون مصاب بهذا النوع من المرض.

تذمرت قائلة:

ــ يمكن قول ذلك.

ــ أيريد الخير للعالم بأسره؟

ــ أخشى أن يكون قادراً على ذلك، ليس لديه أي تمييز أو بصيرة.

ــ أتعتقدين أنه يحب العالم قاطبة؟

ــ من يدري؟ إنه ودود نحو كل شخص بشكل عام. يجب أن أُقتَل تحت نظره...

ــ سنتجنب تلك التجربة.

ــ أرجوك.

ــ إذاً، إن كان أوريون يحب كل الناس، فإن الوضع يتوضح بنور جديد! ليست تلك الرسائل بمن ضمن خطة تهدف إلى قيادة كل واحد نحو مصيره الغرامي.

فالتوقيع «أنت تعرف من» لا يشير إلى أشخاص مختلفين. إنه يكتب رسائل باسمه. وإذا كانت متماثلة، لأنه أخوي كذلك. في الواقع، تشبه تلك الرسائل «بطاب يومك» حين يعبر الطريق من دون أن ينظر.

ـ شأن كلب. هذا ما أكرره له دائماً، إنه يعادل غباء الكلب. وهل تعرف ماذا يجيبني؟ الكلب هو أفضل صديق للإنسان.

ـ اعتراف آخر...

ـ يجب أن يكون المرء غبياً حقاً شأن الكلب كي يصير صديقاً للإنسان.

ـ على العموم، كزافيير، عندي أسباب قوية للاعتقاد أن أوريون هو الكاتب. كل الدلائل تؤدي إليه. ينقصني تفصيل واحد.

ـ ما هو؟

ـ إذا كان جوابك إيجابياً، فبيدنا الدليل.

ـ إذاً؟

مكتبة
t.me/t_pdf

ـ هل أوريون أعسر؟

ـ إنه كذلك!

نظرا إلى بعضهما بإمعان، متأثرين، منتصرين.

ـ ماذا نفعل؟

ـ أتحدثينه بذلك؟ سألها ناتان.

ـ سأجعل منها قضيتي.

ـ أتركك، لقد تأخرتُ.

غادر ناتان. وهو على حافة الباب، أمسكته كزافيير من ذراعه لتسأله:

ـ كيف حال طوم؟

ـ إنه سؤال جيد. أشكرك لأنك لم تطرحيه عليَّ.

وبتوتر، ابتعد متجنباً المتسكعين وفضول الصحفيين.

رددت كزافيير بشيء من المتعة جملة ناتان الأخيرة. هكذا هو وطوم يعيشان أزمة زوجين. اغتبطت لذلك. كانت فكرة الزوجين المثليين وحدها، وقد خطرت على بالها، من وقت إلى آخر، هي التي تتحدى الزمن؛ فمعرفتها بمعاناة مماثلة لمعاناة الآخرين قد طمأنتها.

لاحظت وهي تقطع مخزنها، أن أزهار الفونيا قد ذوت.

«لا تدوم تلك الأزهار أكثر من ثلاثة أيام. يا له من هدر وتبذير...».

لقد أخطأت باختيارها مخزناً للزهور، كان الأفضل أن تختار فعالية لا تقتضي منتجات طرية. كانت تعشق، مثلاً، أن تتولى صيدلية كي تكون مطلعة على مصائب الناس.

عادت إلى العتمة في المخزن الخلفي وارتمت على مقعد وفكرت.

« يجب ان يموت كائنٌ ليحيا كائنٌ آخر». كانت تلك الجملة تراودها منذ أسبوع. إن رحيل سِفْرينّ قد أشار عليها بأن من واجبها أن تلد هذا الطفل. إنها الطريقة الوحيدة لتعطي معنىً لما حدث. بالطبع، كان ذلك يبدو لها غبياً ومعقداً ووقحا، لكنه بديهي أيضاً. كأن موت عشيقتها قد همس لها بالحل.

اهتز الجرسِ الصغير وسمعت كزافيير صوت أوريون يختلط بصوت السيدة ريكلويه. «حسناً، لقد استرجعها، تلك العجوز، ستحصل على باقتها».

استطاعت الزبونة التي أهملتها كزافيير أن تحصل أخيراً على أزهارها وترحل. اقترب أوريون من زوجته بشعره المنتصب حول أذنيه.

ــ هل أنتِ على ما يُرام؟

ــ لا أعرف. راقبها، ثم بلل شفتيه مرات كثيرة وحك رأسه وقال بتعجب وهو ينظر إلى مكان آخر:

ــ لا أفهم لماذا لا تحدثينني عن ذلك.

ــ عن أي شيء؟

ــ عن أنك حامل.

ــ ليس هذا صحيحاً. كيف تعرف ذلك؟

ــ قال لي الطبيب ذلك حين أغمِي عليك في الكنيسة.

تنهدت كزافيير ــ أرادت أن توهمه أنها تتنهد استياءً بينما كان ذلك ارتياحاً.

ــ حسناً، أنا موافقة، هذا صحيح، إنني حامل. ولكن بأي شيء يعنيك ذلك؟

ارتجف، وهو يبحث عن شهود متخيلين يؤكدون له أن ما سمعه صحيح .

ــ أخيراً، إنه ولدنا!

انتصبت، وقد جُرِحت في الصميم: «ولدنا»؟

تصاعد غيظها. ماذا! لقد قبلتْ تواً هذا الولد باعتباره ولدها، وها هو يُختَطف منها.

ــ من يُثبت أنه منك؟

ــ لقد صنعناه معاً، كزافيير، في السيارة.

ــ لم أكن واعية.

ــ هذا لا يُغيِّر شيئاً.

ــ ماذا يُثبت لك أنه ليس من غيرك؟ لأنك لا تتخيل أن لي عشيقاً؟

تأملها، ثم ابتسم بلطف.

ــ هل لك عشيق، كزافيير؟

في تلك اللحظة، فكرت بسِڤرينّ، برقة جلدها العسلي، بكتفيها الأملسين، برقبتها التي تحمر حين كانت تطبع عليها قبلات، فانفجرت بالدموع وهي تهوي على مقعد.

لفظت بصعوبة وسط نحيبها:

ــ كلّا ليس لي عشيق.

أسرع لمواساتها قائلاً:

ــ ليس هذا مهماً، عزيزتي، ليس هذا مهماً.

ضمها طويلاً وهو يهدهدها، وقد سمحت له بذلك لأنها شعرت بسلام حقيقي لبكائها على سِڤرينّ في ذراعيه. بدا لها أن الأمور تعود إلى مجراها الطبيعي. «إنه قبيح، إنه غبيٌ، لكنه هنا، إنه دائماً هنا»، فكرت بازدراء حنون.

أحضر لها منديلاً ورقياً. فمسحت وجهها.

انتصب راكعاً أمامها، يقظاً، مهتماً، راغباً بمواساتها. بعد أن هدأت، سألته:

ــ هل ترغب... في أن تكون أباً؟

صرَّح أوريون:

ــ إنني عاجز عن ذلك، ولكن العالم ليس مكوناً إلّا من هذا النوع من العاجزين.

ــ هذا هو رأيي

ــ وأنتِ؟ هل تشعرين بأنك مستعدة لتكوني أماً؟

أمّاً، ماذا يعني ذلك؟ يجب وضع التفاني والتضحية والحب في كل ذلك؟

ليست تلك الأمور من شأنها. أخيراً، ليس حتى الآن.

ــ اسمع أوريون، لمَ لا؟ بدأت أضجر بعض الشيء. إذاً إما طفل وإما كلب.

أجاب أوريون بجدية بالغة:

ــ أوه، الكلب شيء حسن. أحب الكلاب كثيراً. والكلاب تعشقني. حلمت دائماً بالحصول على كلب. منذ كنت صغيراً. أكثر من الحصول على صبي أو على

ابنة. أجل، أكثر بكثير. في الحقيقة، إنني أفضل الكلب. ما رأيك؟

ــ سيكون طفلاً، أيها المغفل، وليس كلباً.

انفجر أوريون ضحكاً وكزافيير أيضاً ــ بالرغم من تحفظ مقصود.

اختفى في الغرفة الباردة وعاد بزجاجتين من الشمبانيا.

ــ فلنحتفل بذلك! لن يصبح الحدث السعيد رسمياً إلّا بعد أول كأس من الشمبانيا. أوقفت كزافيير حركته.

ــ كلّا، أوريون. ثمة سؤال قبل ذلك.

ــ نعم؟

ــ قل لي الحقيقة، الحقيقة وحدها.

ــ أقسم لك على ذلك.

ــ هل أنت الذي أرسلت الرسائل المجهولة؟

ــ أية رسائل مجهولة؟

ــ الحقيقة، أوريون! الرسائل المجهولة التي تسلمناها هنا، في ساحة آريزو، تنص، على ورقة صفراء، شيئاً من هذا القبيل: «هذه الكلمة لمجرد إعلامك بأنني أحبك. التوقيع: أنتِ تعرفين من».

ــ هذا مقرف، لم أتسلم رسالة كهذا.

ــ أوقف مسرحيتك، أوريون: هل أنت المرسل؟

رفع يده، منذهلاً، كأنه يدلي قسماً في محكمة الجنايات.

ــ أقسم لك بالنفي.

ــ ماذا؟ لست أنت؟

ــ الطفل، من صنيعي أنا. أما الرسائل المجهولة، فلا علاقة لي بها.

طأطأت كزافيير رأسها بارتباك.

تعجب قائلاً:

ــ يبدو أنك أصبتِ بالخيبة.

ــ أجل، كان ذلك غباءً لكنه ذو هيبة ومتعة. وقد أحدث فوضى وبلبلة في كل الحي. يا للأسف...

انصرف أوريون من جديد إلى مهمته: فتح زجاجة الشمبانيا. وقد استغلت كزافيير قلة انتباهه، أمسكت بطنها، وداعبت ارتفاعها براحتيها وتمتمت:

ـ أتسمع يا صغيري، عليك ألّا تُقدّس أبيك كثيراً. فعلاوة على أنه أمضى ستين سنة لصنعك، فهو ليس معتاداً المآثر. ثمة تفصيل أخير، إنه مدمن الكحول، وتم الحبل بك حين كنا سكرانين كلانا. أتأتي مع ذلك؟

التفت أوريون وهو يظن أنها تتحدث معه.

ـ عفواً، كزافيير؟

ـ لا شيء. كنتُ أحلم...

١٣

ــ ألبانّ!

كان لصراخه حدة صوت الببغاوات والدرّات الأخن والتي هي منشغلة في الأشجار.

ــ ألبانّ!

لا جدوى من ذلك! كان الانفعال يشوه صوته وانتزع منه تغيره الحديث كل سيطرة عليه.

ــ ألبانّ!

كان قلقه بألّا يُسمع قد جعل نداءاته أكثر حدة أيضاً، وهي تدمجها في صيحات المعقوفين، مضيعة إياها وسط الغوغاء. وشأن الكوابيس، بالرغم من ركض الحالم، فإن عملاقاً وحشياً يتقدم ببطء ليمسكه، أدرك كانتان أنه بالرغم من صراخه، لن يصل إلى مسامع ألبانّ.

فجأة، قفز عن كرسيه وحرَّك ذراعيه.

صحت الشابة بغتة من تأملها، لمحته، فانتفضت وألقت نظرة خائفة وابتسمت قليلاً حين تعرفت إليه. بتردد، قررت أن تقطع الشارع وتلاقيه.

بكل عفوية، رجع إلى مقعده ليستقبلها.

سألته:

ــ أتأتي دائماً إلى هنا؟

كانت نبرتها المتحيرة توحي بتعجبها من أن كانتان لم يدرك أن العالم قد تغير: انفجرت الحرب.

ــ طبعاً، كل يوم. كنتُ أنتظرك لأنك لم تبدِي أي رد فعل على كلماتي.

تذكرت ألبانّ أنها تركت رسائله الهاتفية بلا جواب، ليس لأنها كانت لا مبالية ــ على العكس، كلما خرج اسمه، كان قلبها يشعر بالدفء ــ لكنها كانت تقول في نفسها ستتصل به بمجرد أن تتحسن حالتها. هل مضى إذاً وقت طويل وهي مستسلمة للكآبة؟

ــ ماذا حدث؟

نظرت إليه. بدا القلق على وجهه، قلق عقلاني. فهو لا يشك مما عانت... لحسن الحظ!

أمام عينيه ذاتّي الزرقاوين الصافيتين واللتين كانتا تجهلان عذابها، شعرت بأنها أكثر خفة. في البيت، لم تعد أمها ولا هيبوليت ولا الدكتور جمّيل ولا ماري ــ جان سيمونّ، الطبيبة النفسية المختصة بالصدمات يلقون عليها نظرة مطمئنة وسليمة.

ــ كنت مريضة.

ــ بشكل خطر؟

هنا، خاف. بسرعة، لتنهي الموضوع، عليها أن تُطمئنه، كي لا يرثي لحالها.

ــ كلَّا. مشكلة جسدية.

ــ ماذا إذاً؟

ــ شيء يخص الفتيات. ليس مهماً. وضعي الآن جيد. ما روته قد أذهلها. تلك الحاجة لحماية كانتان ــ أو لأن تحمي نفسها في نظره ــ أعطى نبرة جديدة بدت لها شائنة ومريحة معاً.

حين ذكرت «شيئاً يخص الفتيات»، سلَّم كانتان وقد عدل عن متابعة التحقيق، وكذكر فتي يعرف أن النساء ينتمينَ إلى جنس يختلف عن جنس الرجال، وليس مجرد جنسٍ آخر. «شيء يخص الفتيات» يجب أن يحترمه الصبيان. فهِم، في السنين الأخيرة، أن أجسادهن تحوي مجموعة أمور خاصة بهن، أعضاءً تزعجهنَّ وتؤلمهنَّ وتمنعهن من الذهاب إلى المسبح وتعفيهنَّ من الدروس من دون أن يحتج أحد. بالنسبة إلى كانتان، لا حاجة لتغطية النساء: وهنَّ عاريات، يبقينَ مُحاطات بهالة من الغموض والسر.

تنهد وهو يفرك يديه:

ــ أوف، لم أقم بشيء لم يعجبك...

نظرتْ إليه ألبانّ برقة وحنان. هو، أن يكون قد قام بشيء لم يعجبها، كانتان الذي لا يؤذي أحداً؟ كم هو مرهف! بالطبع، كان يُرجِّع كل شيء إليه، لكن تلك الأنانية الساهرة والمتفانية كانت تكدرها. فلو أنها في حياة موازية، لاستطاعت أن تحبه.

بالقرب من الشاب، كان لألبانّ وجودان من الصعب توافقهما معاً، الوجود القديم والجديد. ففي القديم، كانت تتناقش مع كانتان وتزعجه وتتخاصم معه

لأتفه الأسباب وتغازله وتشغله بشكل قوي؛ أما في الوجود الجديد، الذي طبعه الاعتداء عليها، فكانت تجد نفسها أمام صبي طفلي ومن دون تجربة.

هل ستتوصل إلى اصطياد وجود ثالث، وقد جعلها الاغتصاب قاسية، فتستعيد في نفسها الحرية النضرة لتصغي إلى شاب ولتنظر إليه؟

ــ في الواقع، يمكنك أن تكوني صريحة. بل من الأفضل. إن لم يكن يربطك شيء بي، قولي لي ذلك.

ــ ماذا ألمَّ بك؟

ــ انتظرتك في هذه الأيام، بينما أنت...

ــ هيه! ألفت نظرك أنه سابقاً، أنا التي كنتُ أنتظرك. طأطأ رأسه وقد مسته حجتها.

ــ بالضبط، حين ينتظر المرء، يتسنى له الوقت ليفكر. وإنني في حاجة إلى أن أعرف إذا... كنتُ محقاً في انتظارك، إذا كنت تحرصين عليَّ قليلاً.

ارتعشت من المتعة:

ــ طبعاً...

رفع جبينه سعيداً:

ــ حقاً؟

ــ حقاً.

ابتسمت ألبانّ. كم كانت ممتعة تلك الدردشات بلا هدف وبلا جدوى! إنها تحيا من جديد.

أمسك كانتان يدها. تعجبت من أن راحتي الشاب بتلك الحرارة وتلك العذوبة؛ بدا لها أن يديها بقيتا باردتين ورطبتين، وليس لمسها أفضل من لمس سمكة حمراء. عله لا ينتبه إلى ذلك...

ــ سأرحل، ألبانّ.

أعلن عن رحيله بهدوء، بصوت رزين وجدي:

ــ سأذهب إلى لندن.

تقطعت أنفاس ألبانّ. تابع حديثه:

ــ سأترك بروكسل منذ نهاية حزيران. لعامين.

ــ لماذا؟

تأملها، منهارة، مرتجفة، مترنحة. هل يكشف لها عن السبب؟ أيقر لها أن رحيله بسببها...؟

فضّل إعطاء الصيغة الرسمية، تلك التي أقنع بها أسرته:

ــ أريد أن أنهي دراستي في الثانوية الدولية في لندن وأحصل هناك على بكالوريا أوروبية مُعترفٍ بها في كل مكان. ثم إنني بحاجة إلى ممارسة اللغة الإنكليزية.

ــ آه؟

ــ كما تزداد سوءاً قدرتي على التفاهم مع والدي.

لو حدث هذا قبل عدة أسابيع، لكانت ألبانّ قد انطلقت في ترديد لازمة نقدية لاذعة عن الوالدين وهي تحط من قيمة أمها لكنها سكتت.

ــ إنه لا يفهم ما أصبحتُ عليه. يتشبث برؤيتي كصبي ينظر إليَّ.

رنت ألبانّ إلى كانتان. لا شك أن أباه قد أخطأ لأن كانتان، بطريقة مفاجئة وظاهرة، قد صار رجلاً، فجسمه اكتسب قدرة، والثقة ملأت جسده وصوته وعينيه. انتهى تحوله من طور المراهقة. فراح يدهشها من الآن فصاعداً.

أما كانتان، فكان يُخفي دافعه الحقيقي. إنه يلتجئ إلى لندن لأنها كانت قد قالت له إنها لن تضاجعه قبل أن تبلغ السادسة عشرة والنصف. لا يصبر على أن يذوب حباً بجانبها؛ فإذا بقي، سيتحول إلى مصاب بالهستيريا، كريه، وربما عنيف... عن بعد، سيتوصل إلى تحمل الوضع. فإن تسلى مع فتيات أو نساء سطحيات كي يهدئ نفاد صبره، لا يهم! هي وحدها تهمه. سيعود حين تصبحُ مستعدة.

هزَّت ألبانّ رأسها، ونظرتها في الخواء. لماذا تنتزع منها الحياة الكائن الوحيد الذي تشع سعادة بالقرب منه؟

كانت الببغاوات تطير بنشاط، وهمها أن تحمل الحبوب والبذور إلى صغارها الحديثي الولادة الذين فتحت عيونهم على الحياة.

كان على المقعد غريقان. يرجحهما الجنس شأن الأمواج الصاخبة التي تحمل سدادات الفلّين، بإيقاعها، وليس وفق قوتهما أو رغبتهما. بالنسبة إلى ألبان، لم تجرِ الأمور على ما يُرام؛ بالنسبة إلى كانتان، كان الوضع جيداً. لكنهما كانا يصبوان إلى شيء آخر، يتمنيان ارتباطاً مختلفاً عما عرفاه. إن لم يُحسنا صوغ رجائهما، فلقد كانا يحسانه في أعماقهما ويعرفان إلى من يوجهانه: كان كانتان ينتظر من ألبانّ أن يختلط الحب بالمتعة؛ أما ألبانّ فكانت تنتظر من كانتان أن يكون الحب اتحاداً برضى.

تمتمت سائلة:

ــ هل أنت مُجبَرٌ على الرحيل؟

بتلك الجملة، كشفت الكثير من ذاتها. فهمها كانتان.

ــ إن كنتُ سأرحل، ألبانّ، فهذا لا يعني أننا لم نعد أصدقاء. على العكس، إنك أفضل رفيقة لي. إنني أنوي أن أتحدث إليك كل يوم وأن أكتب إليك يومياً.

ــ هل هذا صحيح؟

ــ لا أرى كيف يمكن أن أنساك. ستكونين الشيء الوحيد الذي أحن إليه هنا.

ترددت ألبانّ في أن تهرب. كل تلك العذوبة وكل تلك الحمية قد حيَّراها بعد تلك الأيام المريرة حيث تكورت في فكرة أنها لن تحب أحداً بعد اليوم، كما لن تدع أحداً يحبها. كان يبدو لها، وراء جدار عريض من اللامبالاة، أنها كانت تحمي نفسها. لكن كانتان قد ثقب تواً ثغرتين، الأولى بإثارة حزنها على رحيله والثانية بتصريحه أنه يحرص عليها. ما العمل؟ الاستمرار في التحقق والتلمس...؟ أو الانغلاق على الانفعال...؟

صوَّب إصبعه نحو الأعلى.

ــ انظري، ألبانّ، هذين الطائرين، على حافة العش، فوق الفانوس. أترينهما؟ إنهما غير مفترقين. يسمونهما هكذا لأن عند هذا الجنس، يشكل الذكر والأنثى منذ شبابهما زوجين يستمران حتى نهاية حياتهما.

ــ هل هذا ممكن؟

ــ أجل، عند الطيور.

تنهدت وتنهد هو أيضاً.

ــ عند البشر، يقللون قيمة حب الأولاد والمراهقين. في كل مرة، يبدي الراشدون شيئاً من مظهر خبيث، متعالٍ، فيصغون من دون أن يسمعوا وينظرون من دون أن يروا. يفترضون «لن يستمر ذلك طويلاً».

ــ وماذا بعد؟

ــ حسناً، فوالدا من لا يفترقان يشكلان زوجين يدومان أبداً.

ــ ماذا تريد أن تقول؟

ــ إن أبي وأمي غير مفترقين. فأبي يخون أمي دائماً وأمي تخون أبي منذ قليل بعد أن تألمت كثيراً من خياناته. ما يمنعهما من الانفصال هو الأولاد والثروات المشتركة. إذا قلت لهما...

توقف، وقد احمرّ وجهه وخفق قلبه بسرعة كبيرة. تردد في المتابعة فقد شعر بأن كلماته تلزمه وقد تجعله مثار سخرية.

ــ حسناً، إذا قال لهما أحد أولادهما بأنه التقى امرأة حياته، يرفعان كتفيهما. لأنهما لم يعودا يؤمنان بالحب. مع ذلك، يبدو لي أحياناً، أن يكون المرء عاشقاً لا يشكل حالة لكنها رؤية وبصيرة وحدس بما سيحدث. وإن كان المرء شاباً، فالإنسان مسنٌ حين يعشق، لأنه رأى المستقبل واختبره.

حدَّقت إليه ألبانّ من دون أن تفقه شيئاً. فتَّش في محتوى حقيبته وأخرج مجلداً.

ــ خذي، انظري، وجدتُ مقطعاً في هذا الكتاب لباتيست مونيه، كما تعرفين، كاتب الحيِّ.

ــ كاتب الحيِّ؟ أنت تمزح! حسب قول أستاذي، إنه مترجَمٌ في العالم أجمع.

« الحب من النظرة الأولى (أو ما يُسمى بضربة الصاعقة)، سحريٌ في الفن وكذلك في الحب. ليس له أية علاقة بالمرة الأولى لأن ما نجد يظهر غالباً أنه كان موجوداً من قبل. إنه وحي أكثر من كونه اكتشافاً. وحيٌ بأي شيء؟ ليس بالماضي ولا بالحاضر. إنه وحيٌ بالمستقبل... هذا يمت إلى البصيرة وإلى المعرفة المسبقة، الحب من النظرة الأولى... تنثني الديمومة وتتلوى ها هو المستقبل ينبثق، بثانية. إننا نسافر في الزمن. لا نصل إلى ذاكرة الأمس ولكن إلى ذاكرة الغد. «هذا هو الحب العظيم للأعوام القادمة التي سأعيشها. «هذا هو الحب من النظرة الأولى: أن يعرف المرء أن عنده شيئاً قوياً، حاداً وعميقاً وسحرياً يشارك به أحداً ما. حين أرسلتِ لي رسالتك، تسلمت اليقين والثقة بأننا سنعيش معاً قصة حب طويلة وجميلة، وبأنك سترافقينني طوال حياتي وتتبعينني وترشدينني وتهمسين إليَّ بمسارَّات وتسلينني وتواسينني. هل فهمت رسالتك جيداً؟ إنني أعتمد عليك».

أسند كانتان الكتاب إلى ركبتيه. كانت ألبانّ تنظر إلى اليدين البالغتي الطول اللتين تداعبان الصفحات باحترام.

حدثت بينهما لحظة حيرة وتردد. كانت كل كلمة من النص تثير أصداء فريدة. إن الرسالة التي يتكلم عنها النص، قد تكون الرسالة غير المُوقّعة التي ظن كانتان أنه تسلمها من ألبانّ. فالحب من النظرة الأولى الذي جاء متأخراً قد يكون هذا الوميض الذي لمس شابين يعاشران بعضهما بعضاً منذ الطفولة. فاليقين بمصير مشترك قد يكون عناد ألبانّ وقرار كانتان الحديث. تركا أفكارهما تضج وصمتا، وقد أثقِلا بالانفعال.

أغلق كانتان الكتاب بلطف وأعاد وضعه في حقيبته التي يحملها على ظهره. تابع الحديث كأن ألبانّ لم تكن موجودة وهو يتوجه إلى الجذوع المنبثقة من الأرض:

ــ تصوري أن أكون عاشقاً لك... فهذا يعني أنني قد رأيت فوراً أننا سنمضي حياتنا جنباً إلى جنب وأنني قد لمحت الأطفال الذين سننجبهم، وأنني قد استشففت كيف ستصبحين أكثر نضجاً وحتى أكبر سناً وأن ذلك يجذبني.

ارتعشت ألبانّ:

ــ تصورتني أكبر سناً؟

راقتها تلك الفكرة لأنها قد اعتقدت مئة مرة، في تلك الأيام الأخيرة، أنها توشك أن تموت.

ـ أجل.

ـ وإلى أي شيء خلصتَ؟

ـ أنك ستكونين دائماً على أحسن حال.

ـ وليس في أن أشبه أمي.

ـ إن أمك ممتازة.

ـ إنها بدينة!

ـ تليق بها تلك البدانة.

بقيت ألبانّ مذهولة. يعتبر هو أيضاً أمها مقبولة؟ يا لغرابة الرجال...

في تلك اللحظة اجتاز ڤيكتور وأوكسانا، متعانقين، الحديقة الصغيرة. كان ڤيكتور يتحدث بحيوية وبدت أوكسانا، بعينين مغتبطتين، تشرب كل جملة من جمله كأنها رحيق وشراب الآلهة. تنهدت ألبانّ. ربما قد تتصرف هكذا، ذات يوم... يصبح المرء عاشقاً كما يصير رساماً أو موسيقياً، بالمحاكاة؛ إذا رأى أحدنا لوحة لرونوار، فسيذهب ويشتري ريشاتٍ للرسم؛ وإذا سمع أحدنا موزار، فسيتعلم قراءة الألحان؛ وإذا لمح أحدهم عن بعد روعة الحب، فإنه يريد أن يُجسده بدوره.

قفز كانتان:

ـ الباص الذي أستقله!

ـ تباً، حان الوقت!

ـ أجل، سيفوتني الباص. قفز إلى الأرض وأغلق حقيبته ووضعها على ظهره. ابتسم لألبانّ وأشار إليها أنه ذاهب. بعد عشر خطوات رجع مسرعاً وبمظهر قلق.

ـ أصحيح أنك قد قلتِ لي بأنك لن تضاجعي قبل السادسة عشرة والنصف؟

السادسة عشرة والنصف، بدا ذلك لألبانّ قريباً جداً، لكنها لم ترغب في أن تتناقض. أكدت ذلك وهي تخفض رأسها قائلة:

ـ أجل.

ـ سيكون ذلك إذاً بعد عام ونصف؟

فكرت « هل سأستطيع ذلك بعد عام ونصف العام؟ أوه، أود ذلك كثيراً. ستكون جراحي قد التأمت، حتماً».

ـ أجل، بعد عام ونصف العام.

تابع بعذوبة:

ـ إذاً، أتنتظرينني؟

١٤

موسوعة الحب

بقلم باتيست مونيه
مقتطفات

حب. ١ . مشكلة بين البشر يحسبها بعضهم حلاً. ٢ . أنانية تجد توازناً موقتاً مع أنانية الآخر. ٣. إمكانية استثنائية للاهتمام بالآخر والتجرد عن مصلحة الذات. ٤ . موضوع روايات.

قبلة. ١ . اكتشاف جوف فم إنسان بهدف تعريته. ٢ . ممارسة ثابتة لدى ذوي القائمتين الذين لا مسكن لهم، شائعة في السيارات، تحت البوابات الواسعة وعلى المقاعد العامة. ٣. فعل ممنوع في بعض المهن شأن الدعارة (أو المراقبة الضريبية).

مداعبة.١ . ملامسة جلد، أحياناً إرادية وأحياناً لاإرادية ــ فالملامسات الإرادية تدوم مدة أطول من اللاإرادية، لكن قد تؤدي اللاإرادية إلى نتائج عظيمة. ٢ . مشكلة بين شخصين عاريين حين لا يشعر أي جلد من الاثنين بالإحساس ذاته.

مغازلة. ١ . حالة تردد بين رجل وامرأة يتساءلان إن كانا لن يجدا ما هو أفضل في مكان آخر. هوس أشخاص قليلي الثقة بأنفسهم.

الاستمناء. ١ . شكل من أكثر الأشكال تداولاً في الحياة الجنسية البشرية، يتيح الاستغناء عن الآخر وتعقيداته. ٢ . طريقة للحلم بالآخر بملامسة جسده الخاص. ٣. تهيئة يستعملها بعضهم كي لا يصلوا متوترين إلى موعد. ٤. ممارسة شائعة عند النساء اللواتي يتطارحن الغرام مع رجال على عجلة من أمرهم. ٥. اهتمام للمراهقين.

الأمومة.١. منهج نسائي تبعد فيه المرأة زوجها مثبتة تفوقها عليه. ٢. فترة سعيدة تُشَجع فيها المرأة، بشكل استثنائي على البدانة. ٣. وسيلة لزوجين لوضع حد لعدم الشعور بالمسؤولية. ٤. طلائع أفراح. ٥. طلائع مشكلات.

عشق. ١. وهم ثابت يتركز على الآخر ترافقه علامات ود كثيرة. ٢. مرض نفسي بلا علاج معروف. حين يُشفى العاشق، يجهل ما حدث له.

إيلاج. ١. (بالنسبة إلى رجل) نتيجة كثير من دعوات العشاء في المطعم، بعض السهرات في المسرح، اشتراك عند بائع الزهور. ٢. (بالنسبة إلى امرأة) طريقة تشكر فيها رجلاً طالما ردد على مسامعها أنها جميلة.٣. (الطب) ممارسة خطرة (أمراض، أطفال...). ٤. (نادرا) بادرة حب عظيم.

قضيب. ١. عضو جنسي ذكري تختلف مقاييسه حسب الحالة الانفعالية.
٢. مقر حقيقي للدماغ عند بعض الذكور.

تحريض. ١. (عند المرأة) طريقة متكتمة للبحث إن كانت تعجب. ٢. (عند الرجل) طريقة غير متسترة للتحقق من أنه يعجب.

إنجاب. ١.فكرة مبطنة تسيطر على النكاح عند الأشخاص الدينيين جداً. ٢. قلق عند الأشخاص المتهتكين. ٣. (مألوف) حادثة وقعت أثناء منع الحمل.

ملابس داخلية. ١. (عند المرأة) زينة شهوانية تهدف إلى إثارة الرجل.
(عند الرجل) زينة مخالفة للشهوانية تهدف إلى أن تُخلَع بسرعة. ٣. (علْم الشيخوخة). محافظة صحية.

مَني.١. سائل غير نافع في ٩٩،٩٩٪ . ٢. بادرة تشير إلى تعب عظيم لدى الرجل. ٣. إفراز يرافق أحياناً استعمال مفردات داعرة. ٤. أثر مُحرج على الأقمشة يُحدث مصائب في الأسرة أو في العمل. (استعمال عتيق) بذار الرجل الذي يرتبط بالبويضتين، يسمح بالإنجاب: هذا الاستعمال شبه مهمل.

حنان. ١. طريقة في الحب ليست جنسية ولا تناسلية. تلائم العلاقات العائلية

أو الودية. ٢. بديل عن الفعالية الجنسية عند الأشخاص المسنين.
٣. شكل من أشكال القداسة.

مهبل. ١. القسم السفلي للمرأة، موضع هوس حقيقي عند الرجال.
٢. مكافأة تُعطى أحياناً إلى القضيب المستَحِق. ٣. منطقة غريبة ومرعبة للمثلي. ٤. منطقة لعب لا يتوقف بالنسبة إلى السحاقية.

١٥

حملت الطيور مشاركتها في المقابلة التي جرت في الحديقة وهي تنشر يومياً السماد على الأرض.

كان هيبوليت يعشق المجيء إلى ساحة آريزو ليس لأنه يهتم بحديقة مهددة بأضرار المدينة فقط ولكن كان يُخيَّل إليه أنه مسافر: فحين يراقب الببغاوات ويسمع لغطها ويُعجب بأعشاشها الضخمة والمعتمة المؤلفة من عسالج مرتبة بشكل متراصٍ وكتيم وحسن البناء شأن سفينة نوح، كان يهرب من بروكسل ومن زفتها وقرميدها ليلتحق بعالم نقي، مفعم بالألوان، تفوح منه رائحة الليمون، ثرثار، فتي شأن الأرض، لا يتحرك، فيُظهر هذا العالم، بديمومته الصحيحة، أنه لا يهتم بالحضارات. حين كان يلمح رأس أحد المعقوفين المستدير وعينه السوداء المندهشة ولامبالاته بنشاطات المدينة، كان يشعر بارتياح؛ ثمة كائنات أخرى تعيش كما يعيش هو، تشغله هموم اللحظة، غير معني بما يثير العقول المتحذلقة.

هكذا، فإن قضية بيدرمان لم تكن تثير شغفه. أن يرغم رجل امرأة، كان ذلك مع الأسف، عنفاً عادياً. يجب الإشفاق على الضحية ومعاقبة المذنب والكف عن التحدث في ذلك. لماذا لا تُفلِت وسائل الإعلام الموضوع؟ لماذا كان الناس يطلبون مزيداً من التفاصيل؟ يعتقد المرء أن الجميع قد اكتشفوا الشر... ــ «لستُ ذكياً بشكل كافٍ: ثمة شيء لا أدركه».

حين لم يكن هيبوليت يفهم شيئاً يلوم نفسه، متهماً حدوده؛ كان يثق باستمرار بمعاصريه وبالمجتمع وكذلك بالكون. فالغباء أو العبثية لا يمكن أن ينبثقا إلَّا منه. كان لديه اقتناع قناعة أن لكل شيء معنى. فإن كان هذا المعنى يفوته، فهذا يأتي من رأسه البائس وليس من عجز المعنى أو قصوره. فمن الطبيعي أن يكون العالم أكثر تعقيداً بكثير منه، ومن مداركه البسيطة التي لا تستطيع أن تفهم البنى ولا التفاصيل.

ــ إنني سعيد.

انبثقت فكرة سعادته من تلقاء ذاتها على شفتيه. توقف عن الجرف وهو منذهل وأسند ذقنه إلى قبضة الآلة.

كان مستغرباً من سعادته علماً بأن...

أجل، بتريسيا قد طردته، بتريسيا التي أحبها، بتريسيا التي حلم بالاستمتاع معها بلياليه وأيامه، ومع ذلك، هذا الصباح، وأدوات عمله في يده، وهو يبسط الزبل، أحس سعادة عظيمة. أهذا طبيعي؟

اقترب من جيرمان:

ــ قل لي، جيرمان، هل أنت سعيد؟

أجاب القزم:

ــ طبعاً.

مسح جبينه ورفع رأسه وحدَّق إلى وجه زميله.

ــ لِمَ تطرح عليَّ هذا السؤال؟

ــ لأنني أنا أيضاً سعيد. وأجد ذلك غريباً. تسلى جيرمان من تلك الدهشة:

ــ فسِّر.

ــ كان عليَّ أن أكون حزيناً وكئيباً وفاقد الشهية ويائساً. أفتقد لبتريسيا، وكما تعرف، لا أرغب في شيء سوى استعادتها، وبالرغم من ذلك، أشعر بأنني على ما يُرام ولستُ بحالة نفسية سيئة!

ــ ربما لأن ليس لك نفسٌ.

أطلق جيرمان تلك النكتة ليمزح، لكن هيبوليت قد أخذها على محمل الجد.

ــ ربما... هل للحيوانات نفس؟ هل للببغاوات وللدرَّات نفس؟

ــ ينفي غالبية الناس ذلك.

ــ هكذا... ليس مستغرباً أن تكون الحيوانات أصدقائي. إنني على شاكلتهم. كل صباح هو نهار جديد.

ابتعد عن جيرمان وتابع مهمته. من المنطقي أن تكون بتريسيا قد تخلت عنه. كيف تستطيع امرأة ذكية أن تُفتَن برجل لا يستحوذ على الانتباه؟

عليه الآن أن يقص العشب. تردد، أولاً لأن هناك عابرين كثيرين على الأرصفة، وقد جذبتهم قضية بيدرمان، ثانياً لأنه كان يُحب أن يكون عاري الجذع ليدفع تلك الآلة، لكنه لم يكن يتمنى أن تراه بتريسيا هكذا. إن كان قد انتهى ما بينهما، فلن يرغب في أن يستعيد الأحاسيس القديمة التي عرفها مراتٍ كثيرة في تلك الحديقة، حين كان يعرف أن أشعة الشمس لا تدفئه وحدها لكن نظرها يداعبه أيضاً.

على كل حال، كانت رقبته تحرقه. كأنها كانت هناك. لم يكن يجرؤ على الالتفات كي يرى إن كانت تراقبه من نافذتها.

ــ جيرمان، ألا تود أن تقطع العشب مكاني؟

ــ كفى. أنت تعرف أن المقابض عالية جداً بالنسبة إليَّ.

كان يأمل ببلاهة ألَّا يتذكر جيرمان ذلك مطلقاً. وقد أبقى قميصه القصير، فتح المحرك وسحب الآلة. وبمجرد أن بدأ عمله ظهرت كزافيير فجأة، حانقة، وجبينها مُقطِّب.

ــ هيبوليت، هل أنت مرغم على القيام بكل هذا الضجيج؟ إنك تمنع أزهاري من أن تنبت.

كان هيبوليت يخشى كزافيير؛ فالمتعة التي تشعر بها تلك المرأة في إزعاج معاصريها تنتمي إلى الأسرار التي يصعب عليه فهمها. أوقف الضجة فوراً.

ــ سيدتي، إنني مضطرٌ. وإلّا، فسيكتسح العشب كل شيء.

ــ أتسمي هذا عشباً، تلك الشعرات الثلاث التي تمتد؟ إنها لا تُشبه عشباً ولكنها تشبه رأس زوجي.

ألقى هيبوليت نظرة على الأرض المعشوشبة واضطر إلى الاعتراف أنها على صواب. ــ بسبب المرور المتكرر...

ــ كل الناس يأتون ليتسكعوا في تلك الساحة. النتيجة؟ بعد أن يكونوا قد أتلفوا العشب هنا، يمسحون نعالهم الملأى بالوحل على الأرصفة أمامي. شريحة براز، هذا ما صار عليه هذا الحيّ. سأكتب إلى العمدة.

ــ يجب أن أقطع العشب، سيدتي، تلقيت أوامر.

انطلق ثانية. تفحصته بعدائية:

ــ لكنتَ قد نفذتَ أي أمر أثناء الحرب!

ــ عفواً؟

ــ لا شيء، إنني أفهم ما أقوله.

قبل أن يبدأ أول شريطٍ، خفف هيبوليت صوت المحرك ليطرح سؤالاً:

ــ أصحيح أن بعض الأزهار تتوقف عن النمو إن كان ثمة ضجة؟

ــ طبعاً. لماذا تظن أن في كروم «بوردو» يبثون موسيقى موزار إلى العنب؟

هزَّ هيبوليت رأسه، بإعجاب وشرع في العمل، مفعماً بأفكار جديدة.

أما كزافيير، فابتسمت وهي مغتبطة بتدخلها؛ في كل مرة كانت تتحدث مع

هيبوليت، تبتكر خدعة جديدة وتستمتع بذلك. « أيوجد عدالة ثابتة؟ معه يمكن تصديق ذلك: يعادل غباؤه شكله التزييني».

حين رجع هيبوليت إلى بيته، كانت إيزيس قد عادت من المدرسة. روت له بحماسة ما تعلمت ذاك اليوم وأخرجت قائمة من دفتر نصوصها.

ــ أبي، طلب منا أستاذنا أن نشتري مسطرة متدرجة وبيكاراً ومثلثاً بزاوية قائمة. سنتعلم الهندسة. هذا رائع، أليس كذلك؟ هل تريد أن تصحبني إلى مخزن القرطاسية، من فضلك؟

ارتعش هيبوليت: كان يكره نوعين من المخازن، المكتبات ومخازن القرطاسية، لأنه كان يشعر فيهما بأنه غريب ــ أسوأ من ذلك: بأنه متطفل. لم يكن يحدد مطلقاً ما كان عليه أن يشتري وينتهي به الأمر إلى أن يُظهر قائمته إلى الباعة، الذين يرسلون إليه جملة لا يفهمها تزيد ضياعه، أو يعاملونه من علٍ.

خرج جيرمان من وراء الفرن:

ــ سأذهب إلى هناك، أتريدين ذلك، إيزيس؟

ــ رائع، أنذهب سيراً على الأقدام أم نأخذ الحافلة الكهربائية؟

ــ سيراً على الأقدام.

ــ عظيم، سنرى بشكل أفضل كل واجهات المخازن.

سأل هيبوليت، مهزوماً:

ــ كم يستغرق ذلك منكما؟

ــ للوصول إلى أسفل شارع «لويز» والعودة منه؟ في الحد الأدنى ساعة ونصف الساعة بالأحرى ساعتان.

تنهد هيبوليت، وقد بقي وحيداً. يجب أن يستفيد من هذا الوقت. بين خطيبة ــ خطيبة سابقة ــ تلتهم الروايات وابنة تبتلعها، كان يشعر بأنه في منتهى البلادة حتى أنه قد قرر تعويض الأعوام الفائتة ليصبح قارئاً. إذاً، أرغم نفسه على البقاء ساعات فوق المؤلفات التي لاحظ عناوينها عند بتريسيا.

أخذ حمَّاماً رشاشاً ــ لتكريم الكتب: لن يمسها إلَّا وهو نظيف، حليق الذقن، معطر ــ لبس بنطالاً قصيراً وتمدد على السرير.

من دون تردد، أمسك بين عشرة مؤلفات عنده، المجلد الأرق، بتوقيع باتيست مونيه. إن بتريسيا وقد نصحته بقراءته، ألم تهمس له: «حين تبدأ قصة لمونيه، لا يمكن أن تقاوِم: فتذهب حتى النهاية. إنه يأخذك من يدك ويصحبك. كن واثقاً به: لن يُخَيِّب ثقتك»؟

فتحه وهو يأمل حدوث المعجزة. «وأنا في الثالثة عشرة، كسرت حصالة نقودي وذهبت لزيارة البغايا». نظر حوله، بانزعاج. يا لها من لغة! بصراحة، هل هذا أدبٌ؟ «بغايا»... يمكن استعمال اسماً أجمل. ويا لاستحالة حدوثه! في الثالثة عشرة. لا يستطيع بعد الفتى أن... بلى، بعضهم... قلة... ومن كان يتكلم؟ أين يحدث ذلك؟ في أي عصر؟ أوه، لا شك أنه سيشار إليه لاحقاً، أما، هو، فكان يريد معرفته الآن ليحدد إن كان يرغب في متابعة القراءة أو لا. قلب الكتاب وتفحص الغلاف. كان على الناشر أن يوضح إن كانت قصة حقيقية أو مُتَخَيَّلَة، إن كانت تسرد وقائع حقيقية. أراد هيبوليت أن يبذل جهداً، في المقابل ما أهميتها إن كانت تخرج من خيال المؤلف؟

وضع الكتاب على بطنه، باستياء. لتلك اللحظة، تتابعت خيبات الأمل لديه. انتهى من قراءة رواية بوليسية أثارت غضبه. فالتحقيق في الجريمة التي أعجبته في البدء قد أغاظه لأنه استمر إلى ما لا نهاية: لا يُكتشَف المجرم إلّا في النهاية. إلّا أنه كان من البديهي أن الروائية تعرفه منذ البداية وأخفته طوال مئتي صفحة. يا للغدر! الأسوأ من ذلك أنها ضللت هيبوليت في آثار كاذبة. إذا سنحت له الفرصة يوماً أن يقابل أغاتا كريستي، فسيعبر لها عن كل السوء الذي يفكر فيه عن طرقها: عندما يعرف الإنسان، يقول ما يعرف!

أما بالنسبة إلى الرواية العاطفية التي حاول قراءتها(La Princesse de Clèves) فلقد وجدها طويلة جداً أيضاً. بمجمل القول، ماذا يحدث؟ نوع من الأميرة ديانا تقع في غرام أرستقراطي، ولكن، لأنها متزوجة، تمتنع عن رؤيته، فيضنيها العشق وتموت. أنت تتحدث عن قصة! بالطبع، في التفصيل، هناك أفكار مثيرة للاهتمام. في التفصيل. لن يجعله أحد يظن أن الأدب يكمن في التفاصيل وحدها، مع كل ذلك...

دُقَّ جرس الباب.

فكَّر أنه جيرمان أو أحد الجيران، فبقي بسرواله القصير وفتح الباب. كانت بتريسيا واقفة على قرص الدرج، تراوح مكانها، محمرة الوجه، لاهثة.

صرخت بتعجب وهي تراه شبه عارٍ:

ــ أوه...!

لم يسنح له الوقت ليعبر عن دهشته أو عن فرحه. شحبت فجأة، وتمايلت وحاولت أن تستند إلى إطار الباب، وراحت عيناها إلى الوراء وانهارت.

و بشكل عفوي، أسرع هيبوليت عفوياً بسندها قبل أن تصطدم ركبتاها أو رأسها بالأرض، وقد أمسكها بين ذراعيه، حملها حتى السرير، وضعها في الفراش،

ثم فتح النافذة ليجدد الهواء وطبطب على خديها بمنشفة مبللة بالماء البارد.

فتحت بتريسيا عينيها ثانية. لمحته فبدت مطمئنة.

تمتم هيبوليت:

ــ اصحِي، أنا هنا. وافقت بثني جفنيها.

قدم لها ماءً وأجلسها مستندة إلى الوسائد. صعب عليها استرجاع قواها.

ــ هل أنت مريضة؟

تروَّحت قبل أن تجيب. تلك المهلة قد أقلقت هيبوليت.

سأدعو سيارة إسعاف. سنذهب إلى المستشفى، قسم الطوارئ!

ــ كلَّا! كانت حازمة. فتسمَّر في مكانه.

ــ ستتحسن حالي. إنه...

همس هيبوليت وهو يتذكر مواجهتهما على قرص سلم بتريسيا حين وقع مُغمياً عليه:

ــ الانفعال؟

ــ ربما... بخاصة النظام الغذائي.

حينذاك، شرحت له بتريسيا كل شيء، عقدها، تقلبات مزاجها، وهنها أحياناً، ثورات غضبها حين تكف عن كره ذاتها. كانت تمقت العالم بأسره. اكتشف التضحيات التي فرضتها على نفسها منذ لقائهما، والطريقة التي خاطرت بها بصحتها.

ــ أردت أن أقول لك الحقيقة، هيبوليت. لا أقطع علاقتي بك بسببك مطلقاً بل بسببي.

ــ أحبك كما أنت، بتريسيا.

ــ كفى! لا تقل هذه الجملة! إنني لا أتحملها! أشعر بأنها تَصّدقٌ عليَّ، أو أحس أنها توجَه إلى مجنونة يُراد تهدئتها.

ــ بتريسيا، أحبك كما أنت. لا أريد أن تكوني مختلفة عما أنت عليه.

ــ عندك جلود نقانق على عينيك!

ــ كلَّا، أرى بهما جيداً.

شرح لها هيبوليت فتنته بها وعشقه لها. كما أنه لم يكن بليغاً، فلقد عبَّر عن ذلك سواءٌ بأصابعه أم براحتيه أم بنظراته منه بالكلمات؛ حتى جذعه الذي ركنت إليه

كان يُعبر، بحرارته وبحزمه. هذه المرة، استسلمت بتريسيا لعالم هيبوليت. أي شيء أظرف من قبضة امرأة بدينة؟ هنا، لا يوجد عظام ولا أوتار، ليس هناك سوى حرير الجلد. من المدهش أن يكون لها عمل، وأن يشكل هذا، في رأي الأطباء، مفصلاً. لا شك أن الفخذين يعِدان بسر: فإن كانا هزيلين، متباعدين الواحد منهما عن الآخر، أصبحا عصوين ليحركا هيكلاً عظمياً، أما حين يكونان واسعين، فيفيضان ويخفيان العظام وتدعوان إلى المداعبات والقبلات ومئات من الاهتمامات المؤثرة التي تهدف إلى انفراجهما. على المرأة أن تكون دائماً أماً بعض الشيء ومرضعاً وملكة النحل القادرة والفسيحة التي تسحق الذكور المتضورين جوعاً حولها إن لم تكن توحي إليهم بالخشوع والعبادة.

وقد هدهدها هذا الغناء، راحت بتريسيا ترتعش وتزداد استسلاماً في كل ثانية. حين أدركت شهوته، القاسية، على جنبها، جُنَّ جنونها:

ــ هيبوليت، لم أعد كي نتصالح! كجواب، راح يداعب ذراعيها.

ــ هيبوليت، وإن صدَّقتك، وإن كنتَ مخلصاً، وجودي معك يسبب لي مشكلة.

جمد في مكانه. ماذا إذاً؟ المال... ليست بتريسيا... ستحدثه عن غبائه، لَّمحت له بذلك حين افترقا قائلة: «أنظر في أعماقك وستفهم لماذا أتركك».

صرخ على الفور:

ــ أترين؟ بدأت بالقراءة.

ــ حقا؟

ــ أجل. الكتب التي حدثتني عنها.

ــ هيبوليت، لا تُغير موضوع الحديث. شعرتْ في ظهرها بأن عضوه لم يعد منتصباً.

ــ شغلي الشاغل، إذا بقيتُ معك... كيف أفسر لك؟ ... على العموم، يزعجني أن يظنني الناس داعرة.

ــ عفواً؟

ــ امرأة حارة، امرأة لا تفكر إلّا بالمؤخرة.

ــ بتريسيا! كيف تتحدثين هكذا!

نظرت إليه بحنان: غالباً ما نسيتْ كم كان محتشماً. كانت حساسيته للكلمات لذيذة. هذا الشاب الرائع كان عاجزاً عن أن يغني أغنية ماجنة، ما كانت تفعله بتريسيا في المآدب بمجرد أن تشرب كاساً.

جهدت كي توضح فكرتها:

ـ حين يرانا الناس، سيفكرون بأنني معك لأنك وسيم.

ـ لست وسيماً.

ـ بلى، أنت وسيم. وإنني أعرف ذلك.

ـ حسناً، فلنقبل بذلك. وماذا بعد؟

ـ إنني لست من صنف النساء اللواتي يعشن مع أبولون.

ـ لا أفقه شيئاً.

ـ لأنني قبيحة.

ـ لقد شرحت لك تواً كم أنت رائعة، بتريسيا. وأنا، على العكس، يروقني كثيراً أن أتبختر متأبطاً ذراعك لأن ذلك يعني طريقتي في الصراخ لكل الرجال: «أنظروا تلك المعجزة الرائعة، حسناً، أنا الذي حصلت عليها!»

ـ تتحدث عني، هنا؟

ـ عنك، طبعاً.

ـ لا أفهم شيئاً.

ـ ربما لا يوجد شيء للفهم.

قبلها في عنقها. احمرّت وحرصت على الاحتجاج :

ـ هيبوليت، لم نعد معاً!

ـ بلى، إننا معاً. هذا ما جئتِ تقولينه لي.

اندس برهافة تحتها وابتسم لها. أحست أن ظمأهما يراودها.

تطارحا الغرام. كان ضيق السرير يرغمهما على رقة أكثر من المعتاد.

بالنسبة إلى هيبوليت، كان ذلك تتويج علاقته مع بتريسيا، لقد لحقت به هنا، وسط حي فقير، في شقة ضيقة حيث طردَ تكدسُ الأشياء كل تطلع تزييني، في مكان لا يخفي عنها شيئاً من وضعه الفعلي، على ذاك الفراش حيث لم يجرؤ أن يدعو إليه فتاة مطلقاً، ولم تحكم عليه أو تقلل من قدره ولو للحظة، بلا أية نظرة ولا أية كلمة.

أما بالنسبة إلى بتريسيا فقد جاءت تسمع ما حبسته: كان يحبها بوضوح وبصيرة، ويتشهاها كما هي. ففي نفسٍ تسيء تقدير ذاتها، كان لهذا الكشف شيء مدوِخ، ارتجفت في كل ثانية إلى أن وصلت إلى المتعة.

استراحا كسكرانين، بعد تعاطي الغرام، وهما يحدقان إلى السقف المشقوق الذي بدا لهما في منتهى الفخامة شأن صورة جدارية في قصر من البندقية.

سألها هيبوليت:

ــ ماذا أمدك بالشجاعة كي تأتي؟

ــ رسالتك، طبعاً.

أجاب متعجباً، بقلق:

ــ رسالتي؟

ــ الرسالة الصفراء التي تقول لي فيها إنك ستنتظرني طوال حياتك وإنني عمياء لعدم رؤيتي حبك. وكالمرة الأخيرة، وقّعْتَ «أنت تعرفين من».

نهض ببطء. وقد قدَّر أنه واثق من نفسه ومنها ليعرض لها الحقيقة:

ــ بتريسيا، لم أكتب تلك الرسالة. كما لم أكتب سابقتها.

ــ ماذا؟

ــ أقسم لك بذلك. لقد لعبت تلك الرسالتان دوراً مصيرياً، فلقد قربتانا من بعضنا من بعض»، لكنني أحرص على أن تعرفي أنني لستُ صاحب الرسالتين.

استندت بتريسيا إلى مرفق، وهي تفكر:

ــ إذاً... أطلقت ضحكة صغيرة.

ــ إذاً، إنه هو.

قطَّب هيبوليت بحاجبيه:

ــ عفواً؟

ــ إنه هو الذي يكتبها. ظننتُ أنه رسولك حين رأيته يهرب إلى الشارع، ذاك اليوم، بعد أن دسَّ الرسالة تحت باب بيتي.

ــ من؟

ــ جيرمان، طبعاً. لم يكن مجرد حاملٍ للرسالة، لكنه كاتبها.

١٦

ــ إنني حزين لفراقك، سينجر.

نظر زكاري بيدرمان بضيق، وهو جالس في مكتبه إلى يديه السمينتين واكتشف أن بقعاً بنية للشيخوخة قد ظهرت عليهما. خبأهما خلف ظهره.

ــ أجل، سينجر، إننا نفترق بعد عشرين عاماً من العمل معاً.

وقد أخفت السيدة سينجر انفعالها، أدارت رأسها نحو ساحة آريزو. لمحت من النوافذ المفتوحة أزواج الببغاوات البالغة تنحني بحنو على صغارها.

كانت تخشى، طوال حياتها، هذا المشهد، أي اللحظة التي تبتعد فيها عن الرجل العظيم. فتتخيل، في بعض الأيام أنه سينظم حفلة فخمة ليحتفل بإحالته إلى التقاعد، وفي أيام أخرى حفلة بسيطة جداً تتسم بالوقار والاحترام وأخرى وداعاً مؤلماً بدموع. فعوضاً عن ذلك، كانت هناك جلسة بأبواب مغلقة عند الفجر حين سرَّحها لأسباب اقتصادية، مع الطيور اللامبالية كشهود.

ــ لقد قدَّرتُ إخلاصك في العمل (وتفانيك) ونشاطك وجديتك.

فكرت السيدة سينجر «غباوتي، أجل! لم أتصور مطلقاً أنه كان يكذب عليَّ ولا أنه يقفز على كل شيء يتحرك». فمعرفتها عن رب العمل هذا الذي كان يراكم المغامرات النسائية قد هزَّ سينجر في أعماقها، السكرتيرة والمرأة. لم تستطع الامتناع عن التفكير في أنه خدعها شأن خديعة الزوجة: لم يُخفِ الحقيقة عنها فقط، لكنه تصرف نحوها باستقامة تلامس الإهانة. لا تزال ترن في أذنيها ضحكات هؤلاء الذين، بالضبط بعد توقيفه، كانت تؤكد لهم وهي تستنكر اتهامات الصحفيين، أنها لا تعرف رجلاً أكثر احتراماً من معلمها. أوه أجل، كانت تفك جيداً مغزى ضحكاتهم السافرة، كانت تعني أنها لا تنتمي إلى النساء اللواتي يمكن أن تُشتهى.

كان زكاري بيدرمان، وقد انطلق في خطابه، يستمر في ذكر العمل التام يرافقه صوته الخفيض المكدر المنطلق من حلقه. ارتعشت سينجر: من يقف أمامها؟ المفكر الذي أعجبت به طوال عشرين عاماً؟ أو الإباحي الشهواني، الساخر والعنيف والمحتقر الذي يستعمل النساء بلا حياء؟ لم تتوصل إلى إدراك أن الاثنين يتعايشان، وأدنى من ذلك، أن هذين الكائنين يستطيعان أن يشكلا حقيقة زكاري بيدرمان.

وقد استشف ما كان يقلقها، اختصر زكاري الجلسة وصحبها إلى الباب وهو ينتبه إلى عدم لمسها؛ منذ انفجرت تلك القصة، حرص وهو الذي كان كثير اللمس في الماضي، على ألّا يمسك ذراعاً أو يقبض على كتف أو يداعب خداً، شأن معلم اتهم بلواط الأولاد.

لحسن الحظ، رن الهاتف في مكتبه، وهذا ما أتاح له تقصير الوداع. دخلت سينجر إلى الممر وركض زكاري إلى جهاز الهاتف. لم يكن معتاداً رفع السماعة بذاته، أجاب لاهثاً:

ــ نعم؟

ــ بيدرمان؟ هنا ليو أدولف.

ــ طاب يومك، ليو.

ــ همم... أدعوك لمجرد معرفة كيف يمكن الاتصال بك في حال...

ــ في حال أي شيء؟ لم يعد لي أية مسؤولية! جعلتموني أستقيل من منصبي كمفوض أوروبي للمضاربة، شُطبت من الحزب وشُرح لي بلطف أنني لم أعد في مجالس الإدارة التي كنتُ عضواً فيها. وكل ذلك قبل محاكمتي! إذاً، أكرر عليك سؤالي ليو، في حال أي شيء؟

أخيراً، زكاري لا يمكن أن يُكنّس أحد بضربة من يده عقوداً من العمل السياسي...

ــ بلى، هذا ممكن. وهذا بالضبط ما حدث الآن معي.

ــ ولا عقوداً من الصداقة السياسية...

حدث صمت. هنا لم تكن لزكاري بيدرمان القوة، وهو مشمئز، لأن يجيب. فلا جدوى للكلام إن كان لن يُسمع.

تعجب ليو أدولف:

ــ ألو؟ ... ألو؟ ... زكاري، أنت هنا؟

ــ لا أعرف. لماذا اتصلت بي؟

ــ أنت وروز تنفصلان. إنك تنتقل إلى مسكن آخر، علمت بذلك. أود...

ــ هل أنت خجل؟

ــ عفواً؟

ــ هل أنت خجلٌ لتخليك عني؟

ــ إنك تهذي! خجلٌ؟ إن كان على أحد أن يخجل. فهو أنت! وليس أنا... أنا، لم أغتصب أحداً. أنا، لم أحط من قيمة الطبقة السياسية. أنا لم أغذِ الحقد الذي يكنه

الشعب لذوي السلطة. أنا، لم أقصف بلدي. لقد ألقيت بنا في البراز، زكاري، أولاً لأننا كنا ننتظر الكثير من كفاءاتك لمصلحة أوروبا أو على رأس بلجيكا، ثم لأننا صرنا مشتبه فينا، نحن أصدقاءك السياسيين، لأننا غطينا طيشك ومجونك ــ الله يعلم مع ذلك بعدد المرات التي جئت فيها أحذرك. الآن يبحث الصحفيون عن التالي، السياسي الآتي ليفضحوه، ذاك الذي استغل سلطته كي يسرق من الخزينة، لينكح النساء، وحتى ليلوط أمماً.

ــ أوقف نواحك ومراثيك، ليو! أنت تفكر شأن الطبل. لقد حولتني إلى كبش فداء، إنني أدفع عنكم كلكم: أنتم مطمئنون. كأنكم قد حصلتم على خمس سنوات من الفضيلة وأنتم تشيرون إلى الرذيلة. لمن خدمتِ القضية؟ حين سودتم سمعتي نظفتم أنفسكم وها أنتم أكثر بياضاً من الأبيض. أتجرؤ على الشكوى؟ إليَّ؟

ــ تحتاج إلى معالجة، زكاري. يُخيل إليَّ أنك لم تُدرك ارتكابك جريمة. لقد اغتصبتَ امرأة! في حين كانت زوجتك، على بعد عدة أمتار منك، تنظم استقبالاً على شرفك، لقد أرغمت امرأة بائسة بالعنف. كف عن وضع نفسك كضحية، بالله عليك! إنك أنت المعتدي.

رفع زكاري بيدرمان كتفيه. كان يكره تلك الصيغة للأحداث.

ظن ليو أدولف وقد فسَّر الصمت كفعل ندامة، أنه قد أثر في زكاري بيدرمان فلطَّف صوته:

ــ ماذا ستفعل في الأسابيع القادمة؟

ــ سأعطي محاضرات. كثير من الجامعات، في العالم قاطبة، تُقدر أنني خبير في الاقتصاد العالمي. ففي نظرهم، محن قضيبي لا تؤثر على إمكانياتي الفكرية، إنها فرصة ثمينة، أليس كذلك؟

في الواقع، كان زكاري يكذب. كثير من الجامعات قد اعتذرت عن مداخلاته، سواء لأن هيئة المدرسين قد طلبت ذلك، أو لأن مجموعة من الطلاب ــ لا سيما الطالباتِ ــ قد تظاهروا رافعين اللافتات بأيديهم، وهم يصرخون أنهم يرفضون الإصغاء إلى منحرف. ولكي يصد زكاري تلك الحركة، كتب في منبر حر يصدر في الصحيفة الشهيرة لكل بلد تحت عنوان «معسكرات إبادة المتزمتين»، حيث يفضح الخلط بين الكفاءة والأخلاق التقليدية. فالإيديولوجية الأميركية المتزمتة، في نظره، تريد إخضاع الكوكب لقانونها، لتفرض أنموذجاً من الأخلاق السطحية ولا توكل إلَّا إلى أشخاصٍ من تلك القوالب المناصب الرئيسية. «كتب زكاري بيدرمان: ولكن تاريخ العالم مفعمٌ بالإباحيين الذين صنعوا سعادة شعوبهم وبالمتزمتين الذين أبادوا شعوبهم. هل تفضلون العفيف هتلر عن تشرشل الحر؟ فالذكاء، والحس بالمسؤولية

وعبقرية النظريات، لا شيء يُظهر أن هذا من اختصاص اباء الأسر وحدهم، المخلصين لزوجاتهم. على العكس، قبل أن تلوثني الفضيحة، كان ملايين الناس ينامون وهم يفكرون بأنني اقتصادي ذو قيمة؛ فبين عشية وضحاها، أصبحتُ غير كفءٍ. ما هي العلاقة؟ يمكن عدم المشاركة بعاداتي، يمكن عدم تقديرها، حتى أنه يمكن استنكار بعض تصرفاتي المبالغ فيها، ولكن، استناداً إلى تفصيل، لا يمكن قتل الإنسان بكامله، قتل مساره المهني، دراسته، تفكيره، خبرته. سادتي المراقبين، إن موقفكم يرجعنا إلى أسوأ أزمنة التاريخ، وهو زمن النازيين الذين يُحرِّمون موسيقى المؤلفين لأنهم كانوا يهوداً ويحرقون الأدب اليهودي والفلسفة اليهودية والعِلم اليهودي ثم ينهبون الثروات اليهودية. لم يعد هؤلاء العنصريون يَعتبرون إلّا عنصراً واحداً، من الإنسان وهو يهوديته التي كانت تكفي لإقصاء الباقي. لسوء الحظ، إننا نعرف إلى أين أدى هذا النكران؛ لا يُسمح لليهودي أن يتنفس مطلقاً ولا أن يتناسل: إلى معسكرات الموت! اليوم، وشفاه المتزمتين تردد مجتمعة، وأيديهم على صدورهم، يحتجون بنياتهم الفاضلة، مستسلمين إلى إبادة مماثلة! أكان نازياً أم متزمتاً، فهو فاشي على الدوام، ذلك أن الشيطان يعرف أن يغير وجهه...» للأسف، لم ينجح منبره المدوي إلّا بإثارة استنكار آخر قلاع الدعم وهي الجمعيات اليهودية التي ندَدت فوراً بالخليط المخزي الذي مارسه زكاري بين (Shoah) أي الإبادة الجماعية لليهود والدفاع عن مصالحه الشخصية. بمجمل القول، على عكس ما كان يدعيه، لم يعد زكاري مدعواً إلى التحدث عن تحليلاته إلّا من قبل هؤلاء الذين لفظهم النظام، متطرفي اليمين أو اليسار، أناس لم يكن يتمنى في الماضي أن يصبح ناطقاً باسمهم...

تابع ليو أدولف قائلاً:

ــ أين ستسكن؟

ــ عندي فيلاً في منطقة «الأردين» في فرنسا. إنها إرث من والدي.

ــ وحدك؟

ــ في هذا الوقت.

ــ أعطني عنوانك.

كذب زكاري بيدرمان قائلاً:

ــ ليس في متناول يدي، سأرسله إليك.

تظاهر ليو أدولف بتصديقه.

ــ إلى اللقاء زكاري. أرجوك، في المستقبل، وفي أي عمل تقم به تبنَّ مظهراً منخفضاً. تذكر المثل القائل: «حين يرتفع المسمار يتعرف إلى المطرقة».

تنهد زكاري، أغلق الخط وأسف أن أحد المظاهر الأكثر إزعاجاً في وضعه الجديد كان الحق الذي يدعيه كل واحد في إسداء النصائح السلوكية له ثم، وقد نظر إلى المهام المتوجبة عليه في الصباح، أنشأ قائمة سريعة: ملفات مكتبه قد ربطتها سينجر حزماً، لم يبقَ له إلّا أن يتحقق من أن الخدم في الطابق الخاص، قد أنهوا نقل ثيابه في أكياس وأن يجمع أشياءه الشخصية.

صعد إذاً إلى غرفة نومه التي كانت خزائنها تعرض رفوفاً فارغة. كانت روز غائبة. لم يتوصل زكاري إلى أن يحدد إن كان ذلك دليل رهافة لتخفيف وطأة رحيله أم بادرة جديدة من اللامبالاة.

من غرفة الحمام التي خصصتها له زوجته، أخرج أشياءه من آلة الحلاقة والمراهم وسوائل الاستحمام...، واقتلع شعرة انتصبت خارج أذنه ثم ذهب ليبول.

وقد أحيط بالمرايا، لمح خياله، رجلاً مسناً، فائض الوزن، يمسك قضيبه بيده. ماذا؟ هل كان هذا الشخص قد أطلق الغيظ الإعلامي؟ يا لها من عبثية... تأمل عضوه الذي أسنده براحة يده، خاملاً، متغضناً، والذي كان جلده المعتم يميل إلى اللون البنفسجي. إذاً، هذا هو الذي حطّم طموحاته؟ هذا الشيء الخائر القوى...؟ هذه الزائدة التي من المفروض لها أن تكون وظيفية...؟ هذا الشيء المقيت...؟ للحظة، اعتبر نفسه بائساً وأسند رأسه إلى الزجاج كي يتجنب أن يتهاوى.

منذ أسابيع لم يعد يستعمل ذنبه. حين كان موقوفاً، تجنب أن يمسه، وهو يخشى أن يثبت الهوس الجنسي الذي اتهم به. حين خروجه من الزنزانة، لم يعد يجرؤ أن يرضي حاجته ولا أن يدعو فتاة. حتى بين جدران المراحيض الأربعة، كان يُخيَّل إليه أن عيوناً أو عدسات تصوير تراقبه، وأن قاضياً أنثى سيظهر فجأة ويصوب إصبعاً معاقباً ويصرخ: «إنه هو! انظروا ماذا يفعل، هذا الخنزير!» كان ضغط الذعر قد حلَّ محل الضغط الجنسي. أما بالنسبة إلى روز، فلقد رفضت أن يقترب منها ونفته إلى غرفة الأصدقاء، الأكثر بعداً، في أقصى تخشيبة للسقيفة. حين استجدى عفوها، أشاحت برأسها. كانت تحبه روز منتصراً وليس نادماً ولا معذباً. على كل حال، منذ أن تدخلت تلك المرأة، ديان ــ من كانت بالضبط؟ــ بينهما، كانت روز وزكاري يعيشان كغريبين تحت سقف، يهيم كل واحد في طابقه، وهما يعيان أن عليهما أن يتجنب كل واحد منهما الآخر.

سمع كشط حنجرة وراء الباب. أغلق زكاري أزراره وظهر. أعلمه رئيس الخدم أن «سيدة شابة» تطلب رؤيته.

فوجئ زكاري فطلب اسمها.

ــ اسمها غريب عليك. في المقابل، قالت لي إنها متيقنة من أنك ستتعرف إليها.

حاول زكاري أن يفك ما يفكر به رئيس الخدم وراء قناعه المغلق: لا شك أنه يتخيل أنها إحدى عشيقاته. هل كان على خطأ؟

ــ فلتنتظرني في مكتبي القديم، بونوا. إنني نازل.

بالرغم من أن رئيس الخدم كان لا يتزعزع فلقد رف جفناه إثر ذكر «مكتبي القديم»، وهو تفصيل جعل الرحيل وشيكاً.

دس زكاري أشياءه الأخيرة في محفظة، وبعد خمس دقائق، ظهر في الطابق الأسفل.

إثر وصوله، وقفت امرأة شابة، ويداها مشدودتان إلى بطنها، وكتفاها غائرتان، مرتبكة كأنها قد سُحِقت بديكور القصر.

ــ آنستي؟

أحنت رأسها، بارتباك على جانبها وحدقت إليه بعينيها المحاطتين بالزرقة. تعرف إليها: إنها الخادمة التي لاحقها حتى القبو في تلك السهرة المشؤومة.

أدركت أنه فهم. تفحصا بعضهما بعضاً، وهما واقفان، من دون حراك، ساعياً كل منهما أن يعتاد الآخر، ثم استرجع زكاري طلاقته، فدعاها للجلوس ومرَّ وراء مكتبه وهو يلعب بهاتفه الجوال.

جلست ووضعت حقيبة يدها على ركبتيها، وجسمها المتشنج والمشدود، يعطي انطباعاً بأنها تنتظر الباص على كرسي غير مريح. انتهى بها الأمر أن بادرت قائلة:

ــ تابعتُ كل شيء في التلفاز.

ــ صحيح؟

ــ رأيت تلك المرأة، تلك التي تدعي أن... في البدء كنتُ أجهل لماذا فعلت ذلك لأنها لم تتعرض إلى شيء ــ كانت قد حضرت المشهد بكل بساطة، وهي مختبئة في زاوية. حتى أنني ظننت أنها تدخلت سعياً وراء العدالة. بعد ذلك استشففت هدفها. إنها فنانة، طموحة، استغلت الوضع ليتحدث الناس عنها.

إنها الآن شهيرة. إنني أكرهها. كانت تلقي جملها وفق إيقاع رتيب، بصوت خافت، بلا وتيرة ولا وضوح والذي لا يسبغ أي نبرة أو حماسة على الكلمات. حتى أنه ليُظن أنها تردد قائمة مشترياتها، ولا تروي قصة رهيبة قد جرحتها.

ابتسم زكاري بيدرمان، ليشجعها. تابعت قصتها:

ــ لقد فكرتُ. إذا أردتَ، أعلن للشرطة أنني أنا المعنية.

ــ أتفعلين ذلك؟

ــ وأفعل أفضل من ذلك. سأروي أنها سرقت المنديل. وخاصة أنك أنت وأنا قد قمنا... بذلك، كنتُ موافقة. كنتُ راضية.

لفظت تلك الكلمات وهي تنظر إلى حذاءيها. أرغمت ذاتها على إلقاء النص الذي حضَّرته. ربما تدربتْ كي تَثبت حتى نهاية هذا المشهد المتعارض مع طبيعتها المنزوية؟

ــ لماذا قد تفعلين ذلك؟

رفعت رأسها ونظرت بالضبط بجانبه.

ــ من أجل المال، طبعاً.

هزَّ رأسه قائلاً:

ــ كل شيء تملكه زوجتي. لا أملك كثيراً من المال.

ــ أكثر مني، على كل حال.

وخرجت من تحفظها. البؤس، نهايات الأشهر العسيرة، خزانات الطعام الفارغة أو الخزانات الخالية من الثياب، هشاشة السكن الموقت، هذا ليس مجرداً. كانت صرختها تكشف ألماً صادقاً. تمتم زكاري:

ــ كم؟

بلعت لعابها وسعت، بشجاعة، إلى أن تنظر مباشرة إلى عينيه هذه المرة.

ــ مليون يورو.

هزَّ رأسه. «مليون يورو؟ ما زال الأمر ممكناً...». باختصار، تفحصها. هل ثمة أحد وراءها؟ خطيب، أخ، قد نصحها بأن تأتِي إلى هنا، وجعلها تردد المشهد؟ أم جاءت بمبادرتها الشخصية؟ لا يهمه ذلك كثيراً. كانت تقدم له فرصة رد خصمه بيترا فون تنانبوم التي ظهرت على عادتها دائماً مدبرة الدسائس والمكايد. إذا أنكرت الشابة أنه قد حدث اغتصاب، فسيخرج من المحاكمة مرفوع الرأس، مستعيداً حقوقه كافة.

مليون يورو، هذا العرض يساوي ذلك.

ماذا سيبقى له بعد ذلك؟ ولا قرش. أما بالنسبة إلى مناصبه، مفوض أوروبي للمضاربة، زوج روز، فلن يسترجع ذلك مطلقاً. من دون التحدث عن الجائزة الكبرى وهي منصب رئيس الوزراء... لقد مات سياسياً.

أعلن قائلاً:

ــ إنني أرفض.

انتفضت. انحنت وهي تعض على شفتيها وتمتمت:

ـ إذا أردت، يمكن أن أفعل ذلك بمبلغ أقل.

ـ مليون يورو أو أقل، لن أدفع.

ـ ولكن...

ـ تلك هي كلمتي الأخيرة.

أدارت رأسها على كتفيها تهزُّها انتفاضات عصبية.

ـ ما أقترحه عليك لا يلائمك؟

ـ لا أهمية لذلك.

ـ ماذا! لا أهمية لذلك؟

ـ كلَّا.

نهضت بوهن، ونادته:

ـ حسناً، على كل حال، سأذهب مع ذلك، سأكشف ما حدث فعلاً، سأحمل الحقيقة، أيجب دائماً أن يؤخَذ مني كلُ شيء؟ أنت الذي... وهي، الألمانية، التي تلعب دور الضحية مكاني. سأشي بك، بالمتظاهرة وبالنذل.

ـ ستتعبين نفسك عبثاً. سيصعب تصديقك.

ـ لماذا؟

ـ لأنه إذا أثبت أن أول متهِمة كانت كاذبة، لا شيء أسهل من التأكيد أن الثانية كاذبة أيضاً.

ـ آه؟

ـ من السهل على محامٍ متمرسٍ. لا سِيما أنني قد سجلّت محادثتنا على هذا الهاتف... شهر الجهاز.

ـ يكفي تقديم بداية الحديث، اللحظة التي تبدين لي فيها استعدادك لتعلني مقابل مبلغٍ من المال أنك أنت وليست بيترا فون تنانبوم. فسيعتبرونك مبتزة.

صرخت المرأة الشابة:

ـ هذا مقرف! لم يُجر زكاري بيدرمان جواباً.

بحثت حولها عن طريقة توقف الانفعال الذي غمرها. كانت ترتجف، احمرّت عيناها واصطكت أسنانها.

ـ إذاً، أخذوا مني كل شيء؟ جعلوني أفعل ما لم أرد فعله... أرغموني على القيام بأشياء تثير الاشمئزاز لأنني لستُ إلّا مستخدمة تافهة... يسرقون حياتي وتعاستي وبؤسي... ويرفضون أن يعطوني قرشاً... ولن يصغي إلي أحد حين

سأروي الحقيقة؟ في الحقيقة، لا قيمة لي، لست بشيء. لا شيء على الإطلاق. ما يمكنني أن أعيشه وأشعر به أو أقوله، لا يهم الآخرين...

رفعت عينيها المغرورقين بالدموع نحو زكاري بيدرمان.

ــ هذا بشع...

ألحت وهي تبلع مخاطها الذي يخنقها:

ــ الحياة حقاً بشعة...

بعصبية، أمسكت حقيبة يدها وغادرت الغرفة وهي تكاد تهرب راكضة.

اقترب زكاري بيدرمان من النافذة. كانت الصبية تقطع ساحة آريزو، بكتفيها الضامرتين ووجهها الغارق في المنديل وحقيبة يدها الرخيصة تخفق في ذراعها، وهي قصيرة، خرقاء، بلا أية جاذبية، ضحية كل شيء، ضحية مولدها، عدم تعليمها، فقرها، المجتمع، الرجال...

أحس هلعاً مباغتاً. كانت لطخ حارة تشع في جسمه. ماذا أصابه؟ مسحت يده المرتجفة العرق على جبينه. هل كان ضحية وعكة؟ احتشاء قلبي؟

جلس إلى مكتبه، وشرب كأس ماء بارد وحاول أن يراقب نفسه. أجل، سيشفى. لن يخونه جسمه. تنفس.

كانت صورة المرأة الشابة تكتسح فكره، مفترسة، مستأثرة بإلحاح. لقد صرخت «هذا مقرف! سيكونون قد أخذوا مني كل شيء».

أدرك زكاري بيدرمان، للمرة الأولى أنه اغتصب امرأة. أجل، كانت ضحيته وهو الصيَّاد. لقد استعملها كشيء تافه، كي يتخلص من تشنج أفسد عليه سهرته. إن إرغامها على أن تلمس عضوه التناسلي وأن تجعله يتمتع لم يبدُ له فظيعاً حينذاك ــ لقد حصل من ذلك على متعته ــ بينما أدرك من الآن فصاعداً أن بادرة من هذا القبيل لا تتفق مع أية رغبة ولا مع أي منطق في حياة المرأة الشابة. «إنني نذل!» وعى جريمته. لم يفكر سابقاً إلّا بدفاعه وبنجاة شخصه والفكرة المزهوة التي يكونها عن ذاته. سابقاً، كان يهاجم هؤلاء الذين يتهمونه من دون أن يتخيل للحظة أنه يمكن أن يكون قد قام بعمل سيّئ، ليس هو، اللامع زكاري، ليس زكاري العبقري، ليس الشهواني الذي يعجب كثيراً الجنس الضعيف.

ضيَّق القلق خناقه. تنفس نفحة من الهواء وأرخى ربطة عنقه وفك زر ياقته. يريد هواءً. يريد أن يفلت من ذاته. أن يهرب من هذا الشعور بالذنب الذي لا يُطاق.

كان يهيم في المكتب، مراوحاً يشعر بالخواء والفقر والغثيان والمرض. لم يعد الواقع محتملاً.

ـ بونوا، سأقوم بجولة وأعود.

أراد أن يترك هذا القصر الفاخر حيث تمختر طوال أعوام وكذلك قبل عدة لحظات. فتح الباب المقفول ونزل السلم.

صفعته الريح. فجأة ألم الخوف بزكاري، الخوف من المدينة، من السيَّارات، من المارة، من الدرّاجات النارية الصاخبة، من الدرَّاجات الصامتة. هل كان يعرف تلك الأرصفة؟ شعر بأنه حديث الولادة. كان كل شيء يدهشه ويخيفه. أين كانت نقاط استدلاله؟

هو الذي لم يرَ يوماً الخطر على الإطلاق، كان يراه في كل مكان. بقدر ما كان ذاك الخطر في داخله كان كذلك في الخارج. ما العمل؟ كان في غاية الهلع، أكثر اضطراباً من ورقة في مهب الريح.

عليه أن يمشي! أجل أن يمشي ليرتب أفكاره.

تقدم بخطى مستعجلة. وهو يقطع الشارع، رفع رأسه باضطراب، نحو ببغاء كبيرة زرقاء تدافع عن عشها من غراب عدواني. في تلك الثانية، لم يلمح سيارة الشحن التي تندفع بسرعة كبرى إلى ساحة آريزو وهوى تحت أطنانها الخمسة من الفولاذ.

خاتمة موسيقية

يدوم النور

اعتاد سكان حديقة آريزو، في اليوم الأكثر إشراقاً من السنة، يوم المدار الصيفي، تنظيم «حفلة الجيران». تحت الأشجار، بين الغار الوردي المتفتح، فكان كل واحد، كما يشاء، يأتي بالمشروبات أو بالطعام، فبعضهم يجلب فطائر الحلوى وفطائر باللحم والبيتزا والكاتو والسلطات والمشروبات السكرية، والخمر وعصير الفواكه والبيرة. كانت تُقام طاولات تطوى وتمدُ الكراسي المعدنية، وتُشغَّل آلة موسيقية ثم، في هذا الصالون المرتجل في الهواء الطلق، كان الساكنون وقد هدهدهم الغسق الموسيقي، يأخذون مكان الطيور وينظرون إلى مسرح الواجهات من وجهة نظر المعقوفين.

لكن تنسيق البيوت يبقى لا يتغير. كان الأثرياء يتبادلون الكؤوس مع الأثرياء، والأقل غنى مع من هم على شاكلتهم ويبقي الشبان مع الشبان. كانت الطبقات الاجتماعية، والمثقفون والجماعات المختلفة الأعمار موجودة على العشب. كان بعضهم يلتصق بمجموعته شأن كانتان مع رفاقه، وألبانّ مع رفيقاتها ــ وهي عادة منذ الطفولة ــ على أمل خفي بالانضمام بعد ذلك إلى الآخرين. بعضهم كان زوجين، شأن ڤيكتور وأوكسانا الملتحمين. ومنهم من انزوى، شأن باتيست وجوزفين وإيزابيل، الذين، حول زجاجة خمر، كانوا يضحكون بصوت عالٍ، مشكلين بظهورهم مجموعة من العسير اختراقها. لا شك أنهم كانوا يحاولون أن يفلتوا من فوستينا وبتريك بروتون ــ مولينيون اللذين اقتربا وهما يبحثان عن ذريعة لمقاطعتهم. وموت زكاري بيدرمان قد غيَّر عادات روز التي، كانت في الأعوام السابقة ترسل صندوق شمبانيا عليه كلمة تبرر غيابها: هذه المرة، انضمت إلى المتنزهين، ترافقها ديان التي عرَّفتها على زوجها جان ــ نويل. انضمت أيڤ إلى لودو وكلودين على كرسي طويل حيث لم يكونوا يتشاركون المكان وحده ولكنهم يدخنون معاً سيجارة (ماريجوانا). على بعد خطوات، كان فيليب دانترومون ملتصقاً بزوجته أوديل، ينظر إليهم باستياء ممزوج بالغيرة. على طول الممر الرئيسي، نظَّم فرنسوا ــ مكسيم دو كوفيني شوطاً للعبة الكرة الحديدية مع أولاده وانضمت

إليهم بتريسيا وهيبوليت. لم يمر ويم إلّا لخمس دقائق، مستعجلاً، سريع الكَلام، وهو يعتذر عشرين مرة لعدم استطاعته البقاء، تاركاً وراءه، شأن سفيرة، ميغ الباسمة، مزودة بعلبة شوكولا تقدمها للجميع من دون أن تنسى أن تأكل منها. أما طوم وناتان، فقد قررا أن يمتعا المجموعة بإقامة وليمة شواء لحم: بالضبط، استلمت مرسيل من ناتان قطعة نقانق ضخمة مشوية والذي أضاف كتعليق: «قطعة النقانق، هي اختصاصي». كانت مرسيل وقد سكرت من المشروب الكحولي السكري دمعت عينها حين فكرت بأنهم يفتقدون الآنسة بوفير هذه السنة، وإن كان لها الحظ بالعيش مع أوباما في واشنطن.

قبل قليل، كزافيير وأوريون قد أدهشا الحاضرين بمفاجأة الجميع إذ اجتازا الساحة، مزهوين، ملكيين، هي تمسك بطنها إلى الأمام في ثوب امرأة حامل، وهو يسارع حولها كالذبابة: يُخيل لمن يراهما أنهما قد اكتشفا تواً الأمومة. بعد أن أحدثا الأثر المطلوب، تظاهرت كزافيير بضيق كي يعودا إلى بيتهما.

على مقعد، على حدة، كان القزم جيرمان وإيزيس ذات العينين بلون البنفسج يتناقشان بصوت منخفض:

ــ لماذا طلبتِ مني أن أحمل رسالة إلى بتريسيا؟

ــ أترى كيف سارت الأمور؟ بفضل الرسالة، أبي وبتريسيا هما معاً مجدداً.

ــ ماذا كانت تحوي تلك الرسالة؟

ــ جزءاً من روايتي.

ــ أية رواية؟

ــ تلك التي أؤلفها.

ــ آه حقاً... إلى أين وصلتِ؟ لا أراكِ تكتبين تلك الرواية أبداً. في أي دفتر؟

ــ إنني لا أكتبها في دفتر.

ــ في أي شيء، إذاً؟

أشارت إلى العالم المحيط بها، إلى الواجهات، إلى المدعوين، ثم حددت:

ــ في الواقع، لا أكتبها حقاً. وجدت البداية فقط. ثم توقفت عن الكتابة لأنني خفت.

ــ من أي شيء؟

ــ من الشخصيات. فهي لا تفعل ما أنتظر منها. ولكنها تتصرف وفق طرائقها. إنها غريبة السلوك. لا أفهمها.

ــ لماذا؟

ـ يتسلمون رسالة حب ولا يسرهم ذلك. لا يتصرف واحد شأن الآخر.
رفعت إيزيس رأسها نحو البغاوات والدرّات. تنهدت:

ـ للأسف، كل ما كنتُ أريده هو أن يكونوا سعداء.

ـ من قال لك إنهم ليسوا كذلك؟ لا يسمّون السعادة ما تعنينه أنتِ بهذه الكلمة. هناك عدد من السعادات بقدر البشر، على ما أظن.

نهض بأبهة، شأن لاعب سيقوم بعرض في السيرك:

ـ انظري!

تقدم القزم جيرمان نحو إيزيس وانتصب على رؤوس أصابع قدميه وقبّلها برقة على جبينها. بعد ذلك، أشار إليها إشارة آمرة.

ـ والآن، دورك!

قفزت إيزيس، مسرورة، من المقعد وطبعت قبلة وسط جبين جيرمان. استنتج قائلاً:

ـ إنها الحركة ذاتها. هل أنت موافقة؟

ـ أجل.

مكتبة
t.me/t_pdf

ـ القبلة ذاتها.

ـ أجل.

ـ لكنها تختلف بالنسبة إليك وإليّ.

ـ بديهياً، فأنت الذي خطرت له الفكرة، وأنا أطعتك.

ـ ليس هذا فقط. أية قبلة فضّلتِ، تلك التي أعطيتها أم تلك التي تلقيتها؟

ـ الأولى، تلك التي تلقيتها. كنتُ قد فوجئتُ، فوجدت ذلك لطيفاً، لقد دغدغني ذلك. وأنت؟

ـ الأولى أيضاً، ولكن لسبب مختلف. ففي نظري، إن إعطاء قبلة لك يفوق أهمية من تلقيها، بسبب مظهري الجسدي، بسبب تاريخي... هل تفهمين الآن لماذا تجدين كل تلك الصعوبة في رواية الحب التي تكتبينها؟ بالرغم من المظاهر، وبحركة مماثلة، لا أحد يشعر بالشيء ذاته ولا ينتظر الشيء نفسه.

وافقت إيزيس، بجدية وأمسكت حقيبتها وأخرجت منها ورق رسائل أصفر، فدعكته ورمته حاوية الحديقة.

صرخ جيرمان متعجباً: ماذا تفعلين؟ انضم إلى مكتبة اضغط اللينك

ـ أوقف كتابة روايتي.

t.me/t_pdf